منهج
المدرسة العقلية الحديثة
في التفسير

فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

مؤسسة الرسالة

منهج

المدرسة العقلية الحديثة في التفسير

الجزء الأول

تأليف

فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي



الطبعة الثانية
مهذّبة ومنقّحة
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

عنوان المؤلف: الرياض ص ب ١٥١٧٦
الرياض ١١٤٤٤
هاتف «٤٧٦١٩٠٨»

طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٥٥٠/ ٥ وتاريخ ١٢/ ٥/ ١٤٠٣ هـ

مقـــدّمـَة

الحمد لله أنزل الفرقان رحمة للعالمين ، وجعله مناراً للمهتدين ونوراً للمستضيئين وجعله زماماً للفكر في شططه ، وقياداً للعقل في تمرده ، ومرشداً للعلم في جولته ، ومحاراً للمفكر في حيرته ، وملجأ للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم في دولته ، ونظاماً للمحكوم في أمته ، وشفاء للصدور في حكمته ، وربيعاً للقلوب في روضته ، وعزاء للفقير في ضيعته وواعظاً للغني في بهجته وأنيساً للمستوحش في وحشته ونجياً للمؤمن في خلوته ، وهدى للعالم برمته .

أحمده حمد مقر بفضله معترف بالآئه فله الحمد أولاً وآخراً وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم أنبيائه ومبلغ قرآنه والداعي إلى الله على صراط مستقيم .

وبعد . . .

نظرت نظرة في الأفق وأجلت ناظري في السماء وكأني ـ من حيث لا أدري ـ أفر من يومي إلى أمسي علّي أجد فيه نشـوة من حياة . . . أو بارقة من أمل . .

نظرت في حال أمتي فآلمني منها ما يحزفي نفس كل مسلم : قد انهكها اللحاق الأعمى لمخلفات الحضارة الغربية فتضعضعت الأركان وتبلبلت

الأذهان وأصبحت في حال من التدهور والإنحلال لا يعلم إلا الله ما ستصير اليه .

نظرت في الأفق وأجلت ناظري في السماء استلهم منها العبر ، واستقرئها أحداث التاريخ ، واسائلها عن الدواء الشافي فإذا صوت التاريخ يجلجل في الفضاء فيغمر كياني ويملأ سمعي حتى كدت أن أرى صوته ببصري !

أحسست بالرهبة تغمرني وبالسكون يملأوجداني أدركت أن لديه الدواء الشافي ، والعلاج الناجع .

سمعت فيما سمعت من حديثه قوله ما رأيت أمة كأمتكم تبحث عن علاج هو بين يديها فترفع الطرف عنه باحثة عن سواه، ما رأيت مريضا يجد العلاج الحاسم لمرضه ، والدواء الشافي لعلته يعيد إلى بدنه الصفاء كل الصفاء والنقاء كل النقاء ثم يعرض عنه باحثا عن دواء آخر . .

هممت بأن أسأل التاريخ عن الدواء فعادت الي الرهبة من مقاطعة حديثه وآثرت الصمت إلى سانحة أخرى .

قال التاريخ : لم يكن داؤكم هذا بأول داء يصيب ولا أول مرض أممي يقع ، وما علتكم بأول العلل . وحتى أضع يديك على الدواء أعود بك القهقرى إلى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزمن .

لم يكن ثم هناك إلا جاهلية . . كان آباؤكم حينذاك يرسخون تحت اعبائها ويئنون تحت نيرها من حيث لا يشعرون .

كانوا يتخذون آلهتهم من الحجارة ينحتونها ويبيعونها ! هل رأيت أحدا يبيع ربه ؟!! إنها الجاهلية ، كانوا يعبدون التمرة ثم يأكلونها ! هل رأيت أحداً يأكل ربه ؟ إنها الجاهلية كانوا يئدون أولادهم وهل رأيت أحداً يئد ولده ؟ إنها الجاهلية .

جاء الإسلام والجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء هي السائدة وهي

الحاكمة ، وبدأ نور الإسلام : القرآن الكريم يعمل عمله فيها كما يطلع ضياء الشمس بعد ليل بهيم .

لم يكن القرآن في يوم من الأيام تلك يسعى إلى أحد على قدميه ، ولم يكن في يوم منها يتنقل من مسجد إلى منزل إلى مجتمع إلى حلقة بل كان يفعل هذا به رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، رجال لم تشغلهم تجارة أولهو عن ذكر الله .

حملوه على أكتافهم ونادوا به في مجتمعاتهم ونقلوه من أفواههم إلى آذان الكفار والمشركين وهذه بداية عمله. فسرى في أجسادهم كما يسرى الماء في عروق الأشجار بعد جفاف فإذا به يقلبها من شهباء مغبره يابسة الى خضراء يانعة مثمرة فقلب العقول ، وقلب الموازين كلها ، وانقلب المجتمع من الجاهلية الضالة إلى الإسلام الحنيف .

ودبت الحياة في الأمة فإذا بها أمة الأمم وصاحبة السيف والقلم ، وفعلت في ربع قرن ما تعجز عنه أعتى الأمم في عصرنا هذا بسلاحها وعتادها ومدرعاتها في قرون كاملة .

وأنتم في عصر إن لم يكن كعصر الجاهلية ذاك فهو قريب منه ولن يصلح عصركم هذا إلا بما صلح به ذاك ، ذلكم القرآن هو بين أيديكم ولا يزال ، لم يتغير ولم يتبدل ، وإنما تغيرت القلوب وتغير الرجال .

أرأيت لو قام نفر منكم بنشره بين الناس حفظاً وتلاوة ، وقاموا بتفسير معانيه للعامة والخاصة ووضحوا لهم مقاصده واهدافه ودعوهم إلى مثله وقيمه الخالدة وبذلوا ما وسعهم البذل وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لتحقيق ذاك كيف سيكون حالكم حينذاك ؟ !

لا شك أنه سيقلب الموازين مرة أخرى وتصبح للمسلمين الدولة ، وتسلس لهم قيادة هذا العالم الى ما فيه خيرهم ، ويفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرة ويدكوا حصون الكفار والمشركين وينشروا أريج السلام وعنوان وعقيدة

الإسلام على أرض البسيطة وتصبح الحاكمية لله وحده ، وتسود الدنيا السعادة بل السعادة في الدارين . .

سمعت التاريخ يقول هذا وعهدي به يواصل حديثه لم يتوقف ، شغلتني عنه نشوة سعادة من تلك السعادة التي أوصلني إياها في حديثه ، مكثت ساعة من الدهر يطوح بي الخيال في أرجاء المعمورة حيث اصبحت « الحاكمية لله وحده وتسود الدنيا السعادة بل السعادة في الدارين » كما قال التاريخ . .

أدرك التاريخ إنقطاع متابعتي لحديثه وأدرك سبب ذلك وأن بلوغ المسلمين الى تلك الدرجة هي الهدف وهي المراد الذي تصبوا إليه أنظارنا وتهفوا إليه قلوبنا فآثر ـ عفا الله عنه ـ الصمت في الحديث وصمت صمتاً أعادني إلى واقعي كما يوقظ توقف القطار النائم بداخله ينام على ضجيجه ويستيقظ على توقفه .

أعادني صمت التاريخ إلى واقعي فنظرت فإذا بنا لم نزل في البداية ـ ان كنا قد بدأنا حقا ـ فاسترجعت من حديث التاريخ علاجه :

١ ـ نشر القرآن الكريم بين الناس : حفظاً وتلاوة .
٢ ـ تفسير معانيه للعامة والخاصة وربط قلوبهم به وإيضاح مقاصده واهدافه .
٣ ـ الدعوة إلى التقيد والإلتزام بمثله وقيمه الخالدة وتطبيقه في المجتمع .
٤ ـ البذل ما وسعنا البذل والجهاد بالأموال والأنفس لتحقيق ذلك .

أما نشر القرآن الكريم وحفظه وتلاوته فمما يثلج الصدر أن هذا إتجاه قد بدأ يأخذ مساره وبدأنا نلمح آثاره في بعض مواطن المسلمين من إفتتاح مدارس لتحفيظ القرآن ، وبعض المشاريع التي انشئت لأجل ذلك بارك الله فيها ووفق العاملين والقائمين بها لما يحبه ويرضاه .

أما تفسير القرآن وينبني عليه ما بعده فأمر هام في منتهى الأهمية وغايتها فنحن في عصرنا هذا أمام تيارات مختلفة لتفسير القرآن : كلها يدعي صلاح منهجه في التفسير ويدعو إلى سلوكه .

هناك المنهج العقلي في تفسير القرآن الكريم وهناك المنهج العلمي في التفسير وكذا اللون الأدبي ، واللون الإجتماعي ، وغيرها من المناهج .

وحتى يعطي التفسير للقرآن ثمرته يجب أن نقيمه على أسس ثابتة وننفي عنه زغل المناهج الضالة أو المنحرفة وحين تبقى الساحة طاهرة نظيفة نبدأ بوضع القواعد والأسس الراسخة للمنهج السليم .

لا نزعم أن كل ما في تلك المناهج وما قبلها خطأ جانب الصواب أو ضال انحرف عن جادة الطريق ، وإنما نقول أن فيها صواباً وفيها خطأ وفيها حقاً وفيها ضلالاً .

والخطوة الأولى فيما أرى من أجل المنهج الحق في التفسير والوصول الى الهدف منه تبدأ بتنقية المناهج الأخرى وبيان ذلك الحق فيها والتحذير من سواه وكشفه .

ومن هنا رأيت أن اتناول في دراستي هذه إحدى تلك المدارس في تفسير القرآن الكريم فاخترت .

« منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير » لكونه أهم واخطر المناهج المذكورة لكونها :

١ ـ تعطي العقل مرتبة تضاهي مرتبة الوحي إن لم تتجاوزه وفي هذا خطر عظيم آثرت أن ابدأ بكشفه .

٢ ـ ولكون رجال هذه المدرسة ممن لا تحوم حولهم الشبهات عند بعض الناس وعند بعض العلماء ايضاً ولا يقبلون فيهم نقداً أو عتاباً فأحببت ان اكشف حقيقتهم ما استطعت .

٣ ـ ان منهجهم في التفسير جديد لم يشاركهم أحـد في جميع قواعده واسسه .

٤ ـ ان الموضوع بكر لم أر من كتب فيه بتفصيل .

لا أريد أن أدرس هنا « المنهج العقلي الحديث في تفسير القرآن الكريم » وإنما أردت أن أدرس « منهج المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم »

وفرق ما بين الدراستين أن الأولى تحتاج الى الإطلاع على جميع المدارس العقلية لتفسير القرآن الكريم في أرجاء العالم الإسلامي وبمختلف اللغات ، بمختلف مناهجها ومختلف اصولها ومختلف اهدافها وغاياتها ومختلف ظروفها التي الجأتها إلى سلوك هذا المنهج .

أما الدراسة الثانية فأخص من الأولى ذلك إنما يقصد بها : تلكم الطائفة التي عاشت في مصر تربط بينها وحده المنهج في التفسير بجميع قواعده وأسسه ووحدة الهدف والغاية ووحدة اللغة ، ووحدة البيئة ، ووحدة الظروف التي مرت بها والجأتها الى سلوك المنهج العقلي ومن ثم سلوك سبيل واحد في القضايا القرآنية يتوآم مع هدفها الذي تسعى إليه تحت تلك الظروف .

تبدأ تلك المدرسة بالسيد جمال الدين الأفغاني الذي بث أفكاره الى تلميذه محمد عبده الذي استلم زمامها من بعده ووسع بحوثها ومن ثم استلمها تلاميذه فنشورها بين الناس حتى سادت في الأذهان ورسخت بين العلماء .

مهدت لتلك الدراسة عنهم بالحديث عن نشأة التفسير وتطوره ومن ثم نشأة المنهج العقلي القديم في تفسير القرآن الكريم ـ وحتى لا يتوهم متوهم أن الإسلام ينقص العقل حقه كتبت ما يجلو ذلك وينفيه وبينت مكانة العقل في الإسلام ودرجته الرفيعة التي انزله إياها، ثم عدت إلى بيان المنهج العقلي القديم ببيان منهج المدرسة العقلية القديمة (المعتزلة) بشيء من التفصيل

حتى ندرك بعد هذا الصلة بين المدرستين العقليتين القديمة والحديثة ، ووجوه الشبه بينهما ووجوه الإختلاف إن كان ثم إختلاف .

وفي الباب الأول كان لا بد من الحديث عن رجال المدرسة العقلية وجلاء حقيقتهم ، أولئك النفر الذين اسسوها وقاموا على رعايتها ورعاية اتباعها ، إذ مما لا شك فيه أن معرفة حقيقة المؤسسين ذو أثر كبير في معرفة حقيقة المدرسة نفسها فبينهما ارتباط قوي لا ينفصم ففي إثبات إنحرافهم إدانة قوية لانحراف منهجهم ، وليس العكس بالعكس هنا فاثبات صلاحهم وتقواهم لا يلزم منه صلاح منهجهم ، فقد يصيب المصلح وقد يخطىء ، ولكنه يلزم سلامتهم وتبرئة ساحتهم من وصف الانحراف . وقد سعيت ما استطعت الى تدوين ما عرفته من حياتهم حتى يتسنى للقارىء الحكم على منهجهم بعد هذا .

وفي الباب الثاني تحدثت عن منهج المدرسة العقلية الحديثة الذي سلكته في تفسير القرآن وبنيت ذلك على أحد عشر أساساً بينتها بالتفصيل واحداً بعد الآخر ولا أرى ما يوجب سردها هنا .

وفي الباب الثالث تحدثت عن بعض آراء المدرسة العقلية الحديثة في بعض علوم القرآن لما لهذه العلوم القرآنية من صلة بالتفسير قوية يلزم بيانها وقسمت الحديث هنا إلى فصول ثلاثة تحدثت في الفصل الأول عن ترجمة القرآن الكريم ، وفي الفصل الثاني عن القصة في القرآن الكريم وفي الفصل الثالث عن اعجاز القرآن الكريم .

أما الباب الرابع فجعلته خاصا بالحديث عن آراء المدرسة العقلية الحديثة في بعض قضايا القرآن نفسه وقسمت الحديث هنا إلى سبعة فصول . الفصل الأول : تحدثت فيه عن قضية الوحي ، وفي الفصل الثاني عن البعث وأمارات الساعة ، وفي الفصل الثالث : عن القضاء والقدر ، وفي الرابع عن المعجزات ، وفي الخامس عن أصل الإنسان وفي السادس : عن الملائكة ، وفي السابع عن الجن .

والباب الخامس جعلته للحديث عن نماذج من تأويلهم لآيات من القرآن الكريم على ضوء الأسس السابقة في منهجهم فخالفوا فيها السلف وجاؤوا فيها بآراء إن لم تكن شاذة فهي باطلة خاطئة .

وفي الباب السادس تحدثت عن أثر هذه المدرسة في الفكر الإسلامي الحديث وموقف علماء المسلمين منها المعاصرين لها ومن بعدهم وكذا موقف الإحتلال الذي كان يسيطر على البلاد المصرية في عصرها وموقف المستشرقين جنود الاحتلال . ولنصل بعد هذا كله إلى النتيجة التي توصلت إليها بعد هذا البحث ، ومن ثم إعلان الموقف الذي يجب أن نسلكه على ضوء هذه النتيجة .

وفي الخاتمة وجهت الدعوة إلى جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية لتتبنى الدعوة الى مؤتمر لتفسير القرآن الكريم يكون عماده وأساسه منهج السلف وهدفه وغايته صلاح الإسلام وإصلاح أوضاع المسلمين .

ولا يسعني هنا إلا ان اشكر كل من ساعد على ظهور هذه الدراسة واخص بالشكر سمو الامير خالد بن فهد وكيل وزارة المعارف للشؤون التعليمية والادراية . . . وفضيلة الشيخ عبد الفتاح ابو غدة ، والدكتور مصطفى مسلم . . . وقبل هؤلاء اشكر والدي الذي ارشدني إلى سبيل العلم والتحصيل منذ نعومة أظفاري . . . اشكر هؤلاء شكراً جزيلاً وادعو الله مخلصا أن يجزيهم عني خير الجزاء .

وختام شكري وخالصه لله رب العالمين والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً والصلاة والسلام على رسوله محمد بن عبد الله الذي أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وبعد . . .

عاشت الجزيرة العربية فترة ساد فيها الجهل والظلام كانت القبائل فيها مشتتة والقلوب متنافرة لا صلة دينية توحد صفوفهم ولا مصلحة اقتصادية تضمهم ولا رابطة سياسية تربط بينهم ولا سلام يسود بينهم بل الشريعة شريعة الغاب والعقيدة عقيدة الضلال . ديدنهم توارث العداوات والاحقاد وشغلهم الحروب والغارات ودأبهم السلب والنهب ومعبودهم الأصنام والأوثان .

مكث الناس على ذلك حينا من الدهر بلغ الجهل فيه مبلغه واستحكمت ظلمته فكانوا في أشد الحاجة وأمسها الى نور يجلو لهم تلك الظلمات ويبين لهم الطريق السوي بينما كان الناس كذلك فإذا بالنور يسري في الكون سريان الحياة في الأرض الخاشعة إذ نزل عليها الماء فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج .

كان أول شعاعة منه في غار حراء « إقرأ » مشيرة إلى الترابط والتلاحم بين هذا النور وبين العلم وهما نقيضا الظلام والجهل السائدين . ثم تتالت الأشعة فاشرقت الأرض وانتشر النور كان ذلك النور نور القرآن الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام : « فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو

الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرّد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنَاً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[١] مـن قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم[٢] وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوّم ولا يرفع فيستعتب[٣] .

ادرك ذلك هؤلاء القوم فاتبعوه واتخذوه سراجاً في دروب الحياة وكان نفر منهم جهر اعينهم ذلك النور الساطع وأبوا الا تلك الظلمات التي الفتها اعينهم والجهالات التي اعتادتها افئدتهم وكان نفر آخرون عرفوا الحق ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٤] وانكروه ولمسوا الفضل كما يلمسون اجسادهم وجحدوه وكان نفر ثار الحسد في نفوسهم وإشتعلت ناره أراد هؤلاء النفر حجب هذا النور فما أدركته ايديهم وارادوا ان يطفئوه فما بلغته أنفاسهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٥] .

وسارت الفئة الأولى على ذلك النور فاهتدت به وآمنت فوحد كلمتها

---

(١) من الآيتين ١ و٢ من سورة الجن .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث غريب (فضائل القرآن الباب ١٤) وتعقبه ابن كثير في (فضائل القرآن ص ١١) فقال : لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الاعور « ثم قال » وهو كلام حسن صحيح على انه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود » ثم ساق الحديث الآتي .

(٣) رواه الدارمي وقال ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن (وهذا غريب من هذا الوجه) وتعقبه ابن كثير ولكن له شاهد من وجه آخر . فضائل القرآن ص ١٢ .

(٤) من الآية ١٤٦ من سورة البقرة .

(٥) سورة الصف الآية ٨ .

وجمع شملها وسارت تحت راية واحدة راية الإيمان لتخرج الناس من الظلمات الى النور فحطمت في فترة وجيزة دول الجاهلية واقامت في ربوعها دولة الإيمان فإذا بها أمة الأمم وصاحبة السيف والقلم :

وبـدهي أن ذلك لم يتحقق بمجرد قراءتهم للقرآن الكريم وترديد ألفاظه ولم يكن أحدهم ليقرأ القرآن لمجرد زيادة ثقافته ومعرفته بالقضايا العلمية والفقهية ولا لمجرد النظرة التاريخية أو الأدبية وإنما كانوا يتلقون لينفذوا بعد أن تدبروا ففهموا فآمنوا وصدقوا .

فكان منهجهم منهج التلقي للتنفيذ ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه فكان يكتفي بعشر آيات يحفظها ويعمل بها كان هذا المنهج يفتح لهم من الآفاق القرآنية ما لا يفتحه لهم منهج التلقي للدراسة والبحث والثقافة[١] .

ولكي ندرك الفرق بين المنهجين ننظر إلى جيل كل منهج فمنهج التلقي للتنفيذ هو الذي صنع الجيل الأول ثم تخلى الناس عن هذا المنهج شيئاً فشيئاً إلى منهج التلقي للدراسة والبحث والثقافة فنقصت الافضلية شيئاً فشيئاً ، مصداق ذلك الميزان النبوي الدقيق في قوله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[٢] .

وبدهي أن منهج التلقي للتنفيذ لا يصح إلا إذا كان بعد فهم وتدبر وهكذا كان القوم فقد كان تنفيذهم رضي الله عنهم مبنيا على فهم القرآن وتدبره والكشف عن مراميه وبيان معانيه وهو ما يطلق عليه بـ « التفسير » وقد كان القوم عرباً خلصاً يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية فهما لا تعكره عجمة ولا يشوبه تكدير ولا يشوهه شيء من

---

(١) معالم في الطريق : للشهيد سيد قطب ص ٢٠ .

(٢) متفق عليه .

قبح الإبتداع وتحكم العقيدة الزائفة[1] فالقرآن انما نزل بلسان عربي في زمن افصح العرب وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ في الأكثر[2] فقد كان عليه الصلاة والسلام يشرح لهم ما استعصى عليهم فهمه ويجلى لهم ما عجزوا عن إدراكه امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] .

وبهذا نشأ علمْ التفسير للقرآن الكريم **القرآن** الذي تضمن جميع ما تحتاج إليه البشرية في أمور دينها ودنياها ماضيها وحاضرها ومستقبلها في عقائدها وأخلاقها وفي عباداتها ومعاملاتها في اقتصادياتها وسياستها في سلمها وحربها .

والتفسير الجسر الموصل إلى هذه المبادىء والمفتاح لهذه الكنوز والذخائر وراحلتنا للتجول في روضاته والمبين لمحكمه والمحذر من متشابهاته .

فان قلت فما أحسن طرق التفسير واسلمها واحكمها ؟ أجبتك بما أجاب به بن تيميه رحمه الله تعالى بأن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن .

بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بين في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد فصل في آخر فإن اعياك ذلك فعليك .

بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أني اوتيت القرآن ومثله معه »[4] يعني السنة وقال لمعاذ بم تحكم ؟ قال :

---

(١) التفسير والمفسرون . محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٦ .

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٣) من الآية : ٤٤ سورة النحل .

(٤) رواه احمد من حديث المقدام بن معد يكرب والترمذي وقال حسن غريب .

بكتاب الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله »[1][2] وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى

أقوال الصحابة : فانهم ادرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤ هم وكبراؤ هم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كابن مسعود وابن عباس . فإن لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى

أقوال التابعين : كمجاهد وسعيد بن جبير . والصحيح أن اقوال التابعين رضي الله عنهم ليست حجة في الفروع فلا تكون حجة في التفسير كما قال شعبة بن الحجاج وغيره هذا إذا لم يكن ثمة إجماع منهم وإلا فلا يرتاب في كونه حجه فإن اختلفوا أو لم تجد تفسير ذلك في أقوالهم ايضاً فارجع إلى

عموم لغة العرب أما التفسير بمجرد الرأي فحرام قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[3] . أما إذا كان اجتهادك مبنيا على الكتاب والسنة فلا بأس في ذلك ولا يسمى اجتهادك اجتهاداً إلا اذا بذلت فيه جهدك لتحري اصح الآراء وأسلمها .

هذا هو المنهج السليم والطريق القويم لتفسير القرآن الكريم . فان سألت أكان هذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير ؟ قلت : لم يكن بين المنهجين اختلاف فمنهج الصحابة جزء من هذا المنهج فآرائهم مصدر من مصادر التفسير لمن بعدهم ويلزمنا لمعرفة منهج الصحابة في التفسير

---

(١) رواه احمد وابو داود والترمذي والدرامي .

(٢) ملخص ص ٣٦٣ ـ ٣٧٠ جـ ١٣ من مجموع فتاوى بن تيمية .

(٣) رواه احمد والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح .

وتطوره بعد ذلك ذكر المراحل التي مر بها التفسير ومزايا كل مرحلة الى ان وصل إلى مرحلته الحاضرة فنقول :

المرحلة الأولى « عصر الصحابة »

وقد ذكرت آنفاً أنهم رضي الله عنهم كانوا عرباً خلصاً يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية فهما لا تعكره عجمه ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع وتحكم العقيدة الزائفة[1] وإذا ما خفي عليهم معنى أودق عليهم مرمى رجعوا إليه عليه الصلاة والسلام فيبين لهم ذلك ويوضحه لهم وإن لم يتيسر لهم ذلك رجعوا إلى اجتهادهم وقد كان التفاوت بينهم واضحاً في هذه الرتبة فكان بعضهم يرجع الى بعض اذ التفاوت فيها راجع إلى التفاوت في قوة الفهم والإدراك والتفاوت في ما احاط بالآية من ظروف وملابسات[2] .

وقد كان كثير منهم رضي الله عنهم يتوقف هناويتحرج من القول في التفسير . فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول : « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم » . وروى أيضاً عن غيره كثير مما يدل على تحرجهم من ذلك . ولم يكن هذا التخوف ليمنعهم عن القول فيما لهم به علم . ويحسن بنا هنا ذكر بعض مزايا تفسيرهم فمنها :

١ ـ قلة الأخذ بالاسرائيليات وتناولها في التفسير لحرصه ﷺ على إقتصار المسلمين على الاستسقاء من نبع الإسلام الصافي الذي لم تكدره الأهواء ولم تشبه الاختلافات والافتراءات يدل على هذا القصد غضبه ﷺ وقد رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوارة .

٢ ـ لم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كله فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا يحتاج إلى خوض في تفسيره لتضلعهم في اللغة ومعرفتهم

---

(١) التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٦ .
(٢) التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٣٤ .

باحوال المجتمع آنذاك وأسباب النزول وغير ذلك .

٣ ـ وقد كانوا لا يتكلفون في التفسير ولا يتعمقون تعمقاً مذموماً فقد كانوا يكتفون في الآيات بالمعنى العام ولا يلتزمون بالتفصيل فيما لا فائدة كبيرة في تفصيله فيكتفون مثلا بمعرفة أن المراد بقوله تعالى : ﴿وفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ انه تعداد لنعم الله تعالى على عباده(١) .

٤ ـ قلة تدوينهم للتفسير ويرجع ذلك إلى نهيه ﷺ أول الأمر عن كتابة شيء غير القرآن خشية ان يلتبس عليهم كلامه بالآيات القرآنية ثم أذن لهم بالكتابة بعد أن أمن عليهم من اللبس .

وأعتقد بعض المؤرخين ان التدوين للسنة لم يبتدىء إلا في نهاية القرن الأول في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

والحق ان التدوين كان موجودا في وقت الصحابة ونضرب لذلك مثلا بالصحيفة الصادقة كما يسميها صاحبها ومدونها عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي يقول عنها « هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد »(٢) وهي موجودة في مسند الامام احمد(٣) . وغير ذلك كثير ليس هذا مجال ذكره مما يدل على ان التدوين كان قد ابتدأ في وقت مبكر ولكنه كان على نطاق ضيق .

كان ذلك منهج الصحابة الصافي النقي ولست بهذا اقصد الاقتصار على تفسيرهم ونبذ ما سواه ولكني افضل قواعدهم ومناهجهم التي ساروا

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٣٧٢ ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية مجلد ١٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٩ قسم ٢ جـ ٧ وتقييد العلم للخطيب البغدادي ت يوسف العش ص ٨٤ .

(٣) مسند احمد ت أحمد شاكر واستغرقت من ص ٢٣٥ حديث ٦٤٧٧ الجزء التاسع والجزئين العاشر والحادي عشر بكاملهما والثاني عشر الى ص ٥١ حديث ٧١٠٣ .

عليها فالصفاء هنا صفاء منهج والنقاء نقاء عقيدة ثم انتقل التفسير بعد هذا الى مرحلة أخرى .

المرحلة الثانية « عهد التابعين »

ولم يكن ثمة كبير فارق بين منهج الصحابة ومنهج التابعين . فقد تلقى التابعون تفسيرهم من الصحابة فقد اقام ابن عباس رضي الله عنه مدرسته للتفسير في مكة واقامها ابن مسعـود رضي الله عنه في العراق واقامها ابي بن كعب رضي الله عنه في المدينة . وكان هذا السلف الصالح يتحرج ايضاً من القول في التفسير كتحرج سلفه رضي الله عنهم . فهذا سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع . وهذا الشعبي يقول والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله . وهذا كله محمول على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه[1] .

وإن كان ثمة فارق فهو أمر استوجبه اتساع انتشار العلم مع انتشار الاسلام ونقصد بذلك .

١ ـ اتساع رواية الاسرائيليات بسبب دخول كثير من أهل الكتاب في الإسلام وقد علق في اذهانهم ما في كتبهم وكانت النفوس متفتحة لسماع تفاصيل ما أشار اليه القرآن الكريم فتساهل بعضهم فزج في التفسير بكثير من الاسرائيليات بدون تحر ونقد وقد اشتهر رواة هذه الاسرائيليات فمنهم كعب ووهب وابن سلام[2] .

٢ ـ كثرة الخلافات التفسيرية وزيادتها عما كانت عليه فهم قد تناولوا ما اشتمل عليه التفسير في عصر الصحابة واضافوا إليه آراءهم حسب اجتهادهم ومن ثم زادت الأقوال والتفسيرات في الآية الواحدة . وشمل التفسير آيات لم

---

(١) مقدمة التفسير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

يشملها في الفترة السابقة ولعل مرجع ذلك الى دخول العجم في الإسلام وحاجتهم إلى بيان كثير من الكلمات العربية وتفسيرها فعمد المفسرون إلى زيادة البيان فاتسع مجال التفسير .

٣ ـ وازداد التدوين للتفسير في هذه الفترة ايضاً أكثر من عصر الصحابة لازدياد الحركة العلمية ولا يفوتني هنا أن اذكر ان التدوين في هاتين المرحلتين لم يكن مبوبا بل كانت الاحاديث غير مرتبة فحديث في الصلاة يليه حديث في التفسير يليه حديث في البيع . . . .وهكذا . وقد دوّن في هذه الفترة كثير من الحديث نذكر لذلك مثلا الصحيفة الصحيحة وهي التي أملاها أبو هريرة رضي الله عنـه على همام بن منبه وهي موجودة بكاملها في مسند الإمام احمد ونقل الإمام البخاري منها عدداً كثيراً .

هذه الأمور كانت تشكل فارقاً طفيفاً بين العصرين في تفسير القرآن الكريم .

المرحلة الثالثة « التدوين »

ونعني بالتدوين تدوين الحديث النبوي مبوبا وكون التفسير بابا من أبوابه ونستطيع تحديد تلك الفترة بنهاية القرن الأول في عهد الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه حيث نشط التدوين للسنة ومن ضمنها التفسير نشاطا كبيراً حتى اعتقد كثير من المؤ رخين للسنة ابتداء التدوين في تلك الفترة وقد ضربت مثلا لاثبات التدوين قبل تلك الفترة بالصحيفة الصادقة والصحيفة الصحيحة وغير ذلك كثير مما لا مجال هنا لتفصيله ومما يجعلنا على يقين بأن بدء التدوين لم يكن في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولن نحمل رأي من قال بهذا على انه من باب الحدس والتخمين ولا من باب التسرع في القول بل ينبغي ان نحسن الظن بهذا السلف الصالح من المؤ رخين للسنة ونحمل كلامهم على انهم ارادوا بالتدوين التدوين الرسمي الذي تبنته الدولة . أما

التدوين الشخصي فكان منذ عهد رسول الله ﷺ[1] .

ومن مزايا التفسير في تلك المرحلة :

أ ـ انه كان لهم عناية خاصة بالاسناد .

ب ـ ولم تكن التفسيرات المدونة كلها مرفوعة إلى النبي ﷺ بل ضم اليها تفاسير الصحابة والتابعين .

وقد دخل في التفسير اثناء تلك المرحلة من الاسرائيليات التي لم تزل تنمو وتتسع الشيء الكثير للاسباب التي ذكرنا في المرحلة السابقة التي تنطبق على تلك المرحلة ايضا . وتزيد .

واتسع ايضاً تفسير القرآن الكريم بالرأي فهذا مجاهد بن جبر رضي الله عنه يقول في تفسير قوله تعالى : ـ

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ إعتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2] مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قرده وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل اسفاراً» ولا يرتضي ابن جرير الطبري هذا التفسير من مجاهد فيعقب عليه بما يفنده[3] وهذا الحسن البصري رضي الله عنه يفسر القرآن على اثبات القدر رداً على من ينكره ويقول : من كذب بالقدر فقد كفر[4] . وهذا قتادة السدوسي كان يقول بشيء من القدر[5] .

وقد كان هذا نواة لظهور المذاهب الفكرية في التفسير بعد ذلك .

---

(١) السنة قبل التدوين د . محمد عجاج الخطيب ص ٣٦٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٦٥ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ت محمود شاكر وأحمد شاكر جـ ٢ ص ١٧٣ .

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٥) الطبقات الكبرى ابن سعد جـ ٧ ص ٢٢٩ .

ولم يكن بين مرحلتي التدوين والتصنيف طويل زمن ونعني بالتصنيف كتابة التفسير بالمأثور مستقلا عن الحديث شاملا لآيات القرآن مرتبا حسب ترتيب المصحف . وقد نص ابن تيمية[١] وابن خلكان[٢] رحمهما الله على أن أول من صنف في التفسير عبد الملك بن جريج (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) ولا نستطيع الجزم بما ذهبا اليه فقد سبق ابن جريج عدد كبير فقد املى ابن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨ هـ) التفسير على مجاهد بن جبر[٣] وجمع سعيد بن جبير رضي الله عنه لعبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) صحيفة في التفسير[٤] وجمع ابو العالية (ت ٩٠ هـ) نسخة كبيرة في التفسير عن أُبيّ بن كعب[٥] وكتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيراً للقرآن عن الحسن البصري رضي الله عنه (ت ١١٦)[٦] وكان عند زيد بن أسلم (ت ١٣٦) كتاباً في التفسير[٧] والف اسماعيل بن عبد الرحمن السدي (ت ١٢٧) تفسيراً للقرآن[٨] وغير ذلك كثير .

فهل نستطيع بعد هذا الجزم بأن ابن جريج أول من صنف في التفسير

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية المجلد ٢٠ ص ٣٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ت محمد محيي الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٣٣٨

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٦٩ وتفسير الطبري جـ ١ ص ٩٠ وتفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣ .

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٥) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ١١٥ .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٣ ص ١٣٢ وتاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان جـ ١ ص ٢٥٧ ترجمة عبد الحليم النجار .

(٧) تذكرة الحفاظ : شمس الدين الذهبي جـ ١ ص ١٣٣ .

(٨) انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص١٨٨ وتفسير الطبري تحقيق احمد ومحمود شاكر جـ ١ ص ١٥٦ ـ ١٦٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ ١ ص ٣١٥ .

مع وجود هذه المؤلفات قبله ؟ نعم يستطيع ذلك من اطلع على مصنفاتهم ووجد انها تدوين لا تصنيف مستقل . . . شامل . . . مرتب . . فهل اطلع ابن تيمية وابن خلكان رحمهما الله تعالى على تلك ؟ من الجائز هذا . ولم أجد من حقق ذلك

وبالإضافة الى تميز تلك المرحلة بالتصنيف فانها تميزت ايضاً :

أ ـ بأن ما دون فيها كان بالتفسير المأثور عن الرسول ﷺ وعن اصحابه وتابعيهم . وكان مشوبا بالرأي وتأييد بعض المذاهب حتى ولو كان ما يجمعه المدون هو التفسير بالمأثور ومن الخطأ الاعتقاد بأن التصنيف في التفسير بالمأثور عمل آلي ليس لصاحبه عمل فيه إلا النقل بل ان هذا النوع من التفسير يحتاج إلى جهد من المفسر وجهد من الناقد لتحري مذهب المفسر . جهد من المفسر ليجمع حول الآية « ما يرى » انها متجهة إليه فيقصد الى « ما يتبادر الى ذهنه » من معناها وتحت هذا التأثير قد يقبل مرويا ويعنى به ولو لم يكن صحيحا ويرفض مرويا حين لا يرتاح إليه[1] وجهد من الناقد لاستشفاف مذهب المفسر وآرائه وتحري الآثار التي رفضهاالمفسر لعدم موافقتها لها ومن ثم كان التفسير المأثور لصاحب الرأي من اخطر التفاسير حيث ان المفسر بالرأي ينص على رأيه صريحاً بينما ذو الرأي المفسر بالمأثور يلبس آراءه ثوب المأثور .

ب ـ وتميز التصنيف في تلك الفترة ايضاً بعنايتهم بالاسناد المتصل الى صاحب التفسير المروي .

جـ ـ ولم تكن لهم عناية بالنقد وتحري الصحة في رواية الاحاديث في التفسير بل ان بعضهم ذكر ما روى في كل آية من صحيح وسقيم ولم يتحرّ الصحة بل لم يقصدها كابن جريج مثلا[2] .

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي جـ ١ ص ١٥٥ .
(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي الجزء الثاني ص ١٨٨ .

د ـ وقد اتسعت رواية الاسرائيليات في تلك الفترة فدون منها ايضا الكثير ضمن التفسير .

المرحلة الخامسة .

كانت تلك المرحلة منعطفاً خطيراً في تاريخ التفسير . كان كل ما شاب التفسير في المراحل السابقة من كدر انما هو تمهيد لهذه المرحلة فاعداء الإسلام الذين ازعجهم انتشاره وما لاقاه من قبول في جميع الاقطار ينتظرون تلك المرحلة لينفذوا منها الى قلبه ومصدر قوته ليبثوا فيه سمومهم وأفكارهم ومبادئهم . وسهل لهم الطريق نفر من علماء المسلمين الصالحين عن حسن نية منهم ومن حيث لا يشعرون ولكن أنَّى لهم ذلك وقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] فقيض الله لهم رجالا وقفوا لهم بالمرصاد يسلطون عليهم الأضواء ويكشفون كيدهم ويهتكون استارهم ويحذرون الناس منهم فكيف سهل لهم هؤلاء العلماء الطريق ؟ وكيف نفذوا منه ؟ وكيف قاومهم جنود الله ؟

أما كيف سهل لهم هؤلاء العلماء الصالحون الطريق فبسبب تصنيفهم لتفاسير :

أ ـ اختصروا فيها الاسانيد ونقلوا الآثار المروية عن السلف دون ان ينسبوها لقائليها[2] وكانت تلك الهفوة من اخطر الهفوات وأوسع الفجوات لنفوذ الاعداء إلى الدين ليضعوا فيه ما لا يرتضيه وينحلوه ما ليس من مبادئه .

ب ـ وكان من نتيجة هذه الامور ان ازداد القول في التفسير بالرأي المحمود منه والمذموم وتجرؤا على القول فيه وحرص بعضهم على الاكثار من رواية الأقوال في تفسير الآية الواحدة فصار كل من يسنح له قول يورده ومن

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩ .

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١٩٠ .

يخطر بباله شيء يعتمده فيأتي من بعده معتقدا ان لما اورد اصلا غير ملتفت الى تحر لصحه ولا باحثا في سند حتى بلغ من نهم بعضهم بكثرة ايراد الاقوال ان ذكر في تفسير قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[1] نحو عشرة اقوال مع ان الذي ثبت بلا خلاف ان المراد بهم اليهود والنصارى لما ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك[2] .

جـ ـ وقد تطرف كثير منهم في رواية الاسرائيليات وشجعهم على هذا التطرف ما تلقاه هذه الروايات من قبول بين العامة . وذلك ان العرب ـ كما يقول ابن خلدون ـ لم يكونوا اهل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة والأمية واذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تشوق اليه النفوس البشرية في اسباب المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود فإنما يسألون عنه اهل الكتاب قبلهم[3] لذا تطرف كثير منهم في رواية الاسرائيليات واشغلوا أنفسهم في خلافات لا فائدة فيها كالخلاف في أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم وعصا موسى من أي الشجر كانت وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم عليه السلام[4] . فاشتغلوا بهذا عن البحث الجاد الأسمى في أمور الدين . وبهذه الأمور أيضاً سهل هؤلاء العلماء الطريق للإعداء لينفذوا إلى قلب الدين لبث سمومهم وأفكارهم وذلك بطرق عدة أهمها الوضع .

فحينما اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال المأثورة في التفسير عن السلف دون نسبتها لقائليها استغل الأعداء هذه الفرصة فوضعوا كثيراً من الأحاديث في التفسير وغيره ونسبوها إلى الرسول ﷺ وإلى أصحابه ممن كان لهم مكانة في التفسير كابن عباس . وإلى التابعين ايضاً . فالتبس الصحيح

---

(١) سورة الفاتحة من الآية : ٧ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١٩٠ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ .
(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية الجزء الثالث عشر مقدمة التفسير ص ٣٦٧ .

بالعليل . بل وطمع من في قلبه مرض من أبناء الإسلام والمنتمين إليه ممن ليست الحقيقة هدفهم ولا الوصول إليها مرادهم في تزييف الحقائق وتبرير آرائه بما يلقي القبول بين الناس فوضع بعض اتباع كل فرقة من الفرق المنتمية للإسلام الأحاديث التي تؤيد ما ذهبوا إليه وكانت ضربة موجعة لولا أن الله قيض لهذا الداء رجالاً لا كالرجال .

بنوا الحصون المنيعة وبروا سهامهم التي لا تخطىء واضاؤوا مصابيحهم التي لا تنطفىء لأنها من ذلك النور .

كان « الإسناد » هو الحصن وهو السهم وهو المصباح فلم يقبلوا من الحديث إلا ما كان مسنداً إلى قائله الأول فيعرفون الثقات من رجاله ويعرفون الضعفاء والوضاعين فينزلون الحديث قدر منزلة رجاله .

وكان لهم الباع الطويل في ذلك حتى أن هارون الرشيد لما أراد ان يقتل زنديقاً قال له الزنديق أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم أحرم فيها الحلال وأحلل فيها الحرام ما قال النبي ﷺ منها حرفاً فقال هارون أين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها نخلاً فيخرجانها حرفاً حرفاً[1] .

وبهذه المرحلة نستطيع القول أنه انفتح أحد مصراعي باب التفسير .

المرحلة السادسة :

أما تلك المرحلة فقد انفتح فيها باب التفسير على مصراعيه فدخل منه الغث والسمين والصحيح والعليل ولم يزل مفتوحاً إلى يومنا هذا فبعد أن كان التدوين للتفسير بالمأثور رأينا غالب التفسير في تلك المرحلة يعود إلى الفهم

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ والأسرار المرفوعة لملا على القارى ت محمد الصباغ ص ٦٢ .

العقلي والتفسير بالرأي وليست تلك المرحلة هي البداية للتفسير بالرأي فقد عرفنا فيما مضى أن التفسير بالرأي بدأ مبكراً ولكنه كان التفسير بالرأي المحمود وهو ما وافق الإجتهاد فيه الكتاب والسنة واللغة وتجرد عن الهوى ، وقل أن يفسر أحدهم بالرأي المذموم وهو ما لم يوافق الاجتهاد فيه الأمور الأربعة السابقة . إلا أن هذا الأخير بدأ يزيد وينمو حتى بلغ في تلك المرحلة مبلغاً خطيراً وترجع الأسباب في زيادته إلى نشأة كثير من الفرق الإسلامية في العقيدة والمذاهب الفقهية والى تنوع العلوم والمعارف وإلى تشعب الآراء والمذاهب الفلسفية ومسائل الكلام مع ظهور التعصب المذهبي .

كان لهذه الأمور مجتمعه أثر كبير في تحويل مسار التفسير من التفسير بالمأثور إلى التفسير بالرأي فقد حمل التعصب المذهبي بعض أرباب هذه الفرق والمذاهب الى تأييدها بتفسير الآيات حسب ما يوافقها واعتنى أرباب العلوم بما يوافق علومهم فكان كل من برع في علم من العلوم غلب ذلك على تفسيره فالفقيه يكاد يسرد فيه الفقه وربما استطرد الى إقامة أدلة الفروع والرد على المخالفين . . كالقرطبي ، والأخباري ليس له هم الا سرد القصص واستيفاؤ ها ... . كالثعلبي والنحوي ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه . . كالزجاج والواحدي وأبي حيان . وصاحب العلوم العقلية ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها كالفخرالرازي حتى قال فيه بعضهم « فيه كل شيء إلا التفسير »[1] .

وكان بين تلك الفرق فرقة المعتزلة كان التفسير بالرأي منهجهاوالعقل سلطانها واعطت العقل أكثر من طاقته وحكمته تحكيماً مطلقاً فآمنت به ورفعت شأنه ونوهت به أيما تنويه وصدعت بمبادئه وقالت خلق العقل ليعرف وهو قادر على أن يجلو كل ظلمه فحكموه في إيمانهم وفي جميع شؤ ونهم الخاصة والعامة[2] بل كانت مرتبة العقل عندهم سابقة للكتاب والسنة والاجماع

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٢) الفكر الإسلامي بين الأمس واليوم محجوب بن ميلاد ص ١١٤ .

والقياس يقول مفسرهم الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] «يُحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل»[2] ويقول عن العقل والسنة « امش في دينك تحت راية السلطان ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان »[3]

ولم تزل تلك الفرقة تعطي العقل تلك المنزلة التي لم يعطها له الشرع حتى صار لها منهج عقلي مستقل في التفسير والعقيدة كانت به « المدرسة العقلية الأولى » في تاريخ الإسلام . وقبل ان نلم بمبادىء هذه المدرسة أصولها ومناهجها في التفسير لما لها من علاقة في بحثنا يجب ان نلم أيضاً الماماً واسعاً بموقف الإسلام من العقل ووظيفته .

وإنما أبحث لنفسي التوسع في هذا لأن وظيفة العقل في الإسلام هي القاعدة التي ننطلق منها لمناقشة هذه المدارس ويجب أن تكون قاعدتنا راسخة ثم ننطلق من هذه القاعدة لمناقشة أول مدرسة شذت عنها وهم « المعتزلة » أو المدرسة العقلية الأولى لننتقل بعد هذا إلى المدرسة العقلية الحديثة موضوع بحثنا .

وظيفة العقل في الإسلام : -

ليس ثمة عقيدة تقوم على إحترام العقل الإنساني وتعتز به وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلامية .

وليس ثمة كتاب أطلق سراح العقل وغالى بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم كتاب الإسلام بل إن القرآن ليكثر من إستثارة العقل ليؤدي دوره الذي خلقه الله له .

---

(١) سورة يوسف من الآية : ١١١ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٣) اطواق الذهب في المواعظ والخطب للزمخشري المقالة : ٣٧ ص ٢٨ .

ولذلك نجد عبارات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] و﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[3] ونحوها تتكرر عشرات المرات في السياق القرآني لتؤكد النهج القرآني الفريد في الدعوة إلى الإيمان وقيامه على إحترام العقل .

ولقد أبرز الإسلام مظاهر تكريمه للعقل وإهتمامه به في مواضع عدة نذكر منها :ـ

أولا ـ قيام الدعوة إلى الإيمان على الإقناع العقلي

فلم يطلب الإسلام من الإنسان أن يطفىء مصباح عقله ويعتقد بل دعاه إلى إعمال ذهنه وتشغيل طاقته العقلية في سبيل وصولها إلى أمور مقنعة في شؤ ون حياتها وقد وجه الإسلام هذه الطاقة بتوجيهات عدة لتصل إلى ذلك :

١ ـ فوجهها الى التفكر والتدبر .

أ ـ في كتابه

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[4] .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[5]

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٧٣ وايضاً من آية : ٢٤٢ وسورة الأنعام آية ١٥١ وسوره يوسف آية ٢ وسورة النور آية ٦١ وغير ذلك .

(٢) سورة يونس آية ٢٤ والرعد آية ٣ والنحل آية١١ و٦٩ والروم آية ٢١ والزمر آية ٤٢ والجاثية آية ١٣ وغير ذلك .

(٣) سورة الانعام من الآية : ٩٨ .

(٤) سورة « ص » آية ٢٩ .

(٥) سورة النساء آية ٨٢.

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1] .

ثم يستثير العقل الإنساني ويتحداه أن يأتي بمثل هذا القرآن حتى إذا ما أدرك عجزه عرف أنه من عند الله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2] ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[3] .

ب ـ وفي مخلوقاته

﴿الَّذِين يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم مَّا خَلَق اللَّهُ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بالْحَقِّ وَأَجلٍ مُسمى وَإنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ[5]﴾ ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[6] .

ثم يتحدى العقل بحواسه أن يجد خللاً في شيء منها ليزداد بعد عجزه إيماناً وتسليماً ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[7] .

---

(١) سورة محمد آية ٢٤ .
(٢) سورة هود آية ١٣ .
(٣) سورة الطور آية ٣٤ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٩١ .
(٥) سورة الروم آية ٨ .
(٦) سورة الغاشية الآيات ١٧ ـ ٢٠ .
(٧) سورة الملك آية ٣ ـ ٤ .

جـ ـ وفي تشريعاته

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١) ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣) .

فأمر بالتفكر في تلك التشريعات لتحري الحكمة فيها لأن الحياة لا تسير آلية بحيث تنطبق عليها القاعدة التشريعية إنطباقاً آلياً وإنما هناك مئات من الحالات للقاعدة الواحدة وما لم يكن الإنسان مدركاً للحكمة الكامنة وراء التشريع وفاهماً لترابط التشريعات في مجموعها فلن يتمكن من تطبيقها في تلك الحالات المختلفة التي تعرض للبشر في حياتهم الواقعية وقد عني الإسلام بإيقاظ العقل لتدبر هذه التشريعات ليستطيع تطبيقها على خير وجه(٤) .

د ـ وفي أحوال الأمم الماضية وما أدت بهم المعاصي إليه .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(٥) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾(٦) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٨٤ .
(٣) سورة الجمعة الآية : ٩ .
(٤) منهج التربية الإسلامية محمد قطب ص ١٠٤ .
(٥) سورة الأنعام آية ١١ .
(٦) سورة الأنعام آية ٦ .

هـ - وفي الدنيا ونعيمها الزائل

﴿وَاضْرِبْ لَهمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نباتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[1] .

وهذا التأمل والتدبر ليس هو المقصود لذاته وإنما ليؤدي ثمرة نافعة لا أعني بها فلسفة يتشدق بها الفلاسفة ويتبارون في اغماض الكلام فيها وإبهامه ثم لا ينتهون إلى شيء وإنما أعني بها الاصلاح ... إصلاح القلب ... إصلاح العقيدة .. إصلاح الحياة في الأرض على منهج الدين الصحيح .

٢ - ووجه الاسلام الطاقة العقلية لمراقبة نظام الحياة الاجتماعية مراقبة توجيه وإصلاح لتسير الأمور على منهج صحيح ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأُولَئِك هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾[2] .

وحمل المسؤولية كل فرد من أفراد المجتمع وهدده بالعقاب إذا علم ولم يصلح ولو كان صالحا في نفسه ﴿واتَّقُوا فِتنةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَموا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[3] ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصوَا وَكَانوا يَعْتَدُونَ كانُوا لا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[4] .

وقال ﷺ « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[5] .

ثانيا :

ولم يقسر الإسلام بعد هذا العقل على الإيمان وإنما ترك له الخيار بين الإيمان

---

(١) سورة الكهف آية ٤٥ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(٣) سورة الانفال آية ٢٥

(٤) سورة المائدة الآيتين ٧٨ - ٧٩ .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

والكفر ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[2] ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[3] ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[4] فلم يكره الإسلام العقل على الإيمان[5] .

ثالثاً ـ

وحرص على قيام العلاقة بين العبد وربه على الوضوح العقلي في العقيدة والشريعة وعدم تقييده له بعد اقتناعه وإيمانه بالرهبانية فلا رهبانية في الإسلام[6] لما فيها من تقييد للعقل[7] فضلاً عن الغرائز والحواس ولما فيها

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الكهف من الآية ٢٩ .

(٣) سورة يونس من الآية ٩٩ .

(٤) سورة الغاشية الآيتين ٢١ ـ ٢٢ .

(٥) ولا يقصد بلا إكراه في الدين ـ التقليل من شأن الجهاد كما حصره بعضهم بأن المراد به الدفاع وعللوا كل حركة من حركاته بأنها للدفاع بمعناه الإصطلاحي الحاضر الضيق فاسقطوا ـ وهم مشتطون في حماسة الدفاع عن الإسلام ضد من اتهموه بأنه دين السيف ـ ان للإسلام بوصفه المنهج الأخير للبشرية حقه الأصيل في ان يقيم « نظامه » الخاص في الارض فـ « لا اكره في الدين » من ناحية العقيدة أما من ناحية اقامة « النظام الإسلامي » ليظلل البشرية كلها مسلمين وغير مسلمين فتوجب الجهاد لانشائه وترك الناس احراراً في عقائدهم الخاصة ولا يتم هذا إلا باقامة سلطان خير وقانون خير ونظام خير يحسب حسابه كل من يفكر في الإعتداء على حرية الدعوة وحرية الاعتقاد في الأرض » أ . هـ .

« بتلخيص من خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشهيد سيد قطب ص ١٨ .

(٦) لما روى احمد في مسنده ٦/٢٢٦ « . . . فقال يا عثمان ان الرهبانية لم تكتب علينا أفمالك في أسوه . . الحديث » ولما روى الدارمي في سننه ك النكاح ب ٣ من حديث سعد بن أبي وقاص قال « . . . يا عثمان اني لم أؤ مر بالرهبانية ارغبت عن سنتي » وعثمان هذا ابن مظعون رضي الله عنه .

(٧) ولا يصح القول بأن الرهبانية تفتح آفاق العقل وتضمن له الصفاء للتفكير بل

من تعطيل للطاقة والقوى البشرية والمخالفة لنظام الحياة مخالفة تقضي بالفناء على البشرية فيما لو اعتنق الناس الترهب والإنعزال دينا .

رابعاً ـ

ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل نعيه على المقلدين الذين لا يعملون أذهانهم وحذر من التقليد الأعمى والتعصب الأصم لنظريات واهية وآراء زائفة ناشئة عن الخرافات والأهواء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَينـا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (١) ﴿أَصلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (٢) ﴿فَلاَتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤلاَءِ مَا يَعْبُدُونَ إلاّ كَمَا يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِّن قَبْلُ وَإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مُنْقُوصٍ﴾ (٣) .

وأمر بالتثبت في كل أمر قبل الإعتقاد به واقتفائه ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (٤) . ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (٥) .

خامساً :

ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل أمره بالتعلم والحث على ذلك فكما

النزول الى معترك الحياة هو الذي يزيد العقل اشتعالا ويوري زناده ويفتح له ابواب التفكير عكس الرهبانية التي تخبو فيها نار العقل لانطواء صاحبها على نفسه واعتزاله المجتمع فتؤدي الى خمود الذهن وعدم الاطلاع على المعارك الضارية بين الخير والشر وبين الإيمان والكفر وعلى كيد الملحدين ومكر الماكرين والرد على ذلك والنزول الى معتركهم وحلبتهم .

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .

(٢) سورة هود من الآية : ٨٧ .

(٣) سورة هود آية ١٠٩ .

(٤) سورة الإسراء آية ٣٦ .

(٥) سورة الحجرات من الآية : ٦ .

أن نمو الجسم بالطعام فإن نمو العقل بالعلم إذ بهذا يكون الإيمان عن إدراك أوسع وفهم أعمق وإقتناع اتم بل قرن سبحانه ذكر أولي العلم بذكره عز وجل وذكر ملائكته ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2] ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3] .

وجعل العلم مشاعا لأنه غذاء العقل الذي به ينمو ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يلعنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[4] .

لذا لم يعرف الإسلام « رجل الدين » الذي يحتكر علومه ويعطي صكوك الغفران ويملك التحليل والتحريم ولكنه يعرف فكرة « عالم الدين » الذي يرجع إليه لمعرفة حكم الله فيما اشتبه على الناس من أمور دينهم مستنداً إلى دليل معتبر شرعاً من غير إلزام إلا بحجة قطعية من كتاب أو سنة أو إجماع مسلم به .

سادساً :

ومن ذلك إسناده استنباط الأحكام فيما لا يوجد فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع إلى العقل وما حديث معاذ عنا ببعيد حين بعثه الرسول ﷺ الى اليمن قاضياً قال كيف تقضي يا معاذ ؟ قال بكتاب الله قال :فان لم تجد قال: بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد قال : اجتهد رأيي ولا آلو فضرب رسول الله

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨ .
(٢) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .
(٣) سورة المجادلة من الآية : ١١ .
(٤) سورة البقرة الآيتين : ١٥٩ ـ ١٦٠ .

ﷺ صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله»[1] فجعل من إجتهاد العقل أساساً للحكم وقاعدة للقضاء عند فقدان النص .

سابعاً :

ومنها الأمر بتكريمه والمحافظة عليه والنهي عن كل ما يؤثر في سيره أو يغطيه فضلاً عما يزيله .

فحرم لذلك شرب الخمر ﴿إِنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ والأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[2].وحرم كل مسكر « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»[3] وامتد التحريم إلى الكمية التي لا تسكر منها « ما اسكر كثيره فقليله حرام »[4] كل هذا حفاظاً على العقل وعلى بقائه .

وجعل الدية كاملة على من تسبب في إزالته عن آخر قال ابن قدامة « لا نعلم في هذا خلافاً وقد روى عن عمر وزيد رضي الله عنهما وإليه ذهب من بلغنا قوله من الفقهاء وفي كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم « وفي العقل الدية » ولأنه أكبر المعاني قدراً وأعظم الحواس نفعاً فإن به يتميز من البهيمة ويعرف حقائق المعلومات ويهتدي إلى مصالحه ويتقي ما يضره ويدخل به في التكليف وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات فكان بإيجاب الدية أحق من بقية الحواس »[5] .

---

(١) رواه احمد وابو داود والترمذي والدارمي .

(٢) سورة المائدة من الآية : ٩٠ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه ابو داود والنسائي وابن ماجة وقال الترمذي حسن غريب وابن حبان وصححه وقال الحافظ بن حجر رجاله ثقات .

(٥) المغني لابن قدامة ٨ : ٣٧ .

مجال العقل في الإسلام :

ولكن الإسلام بعد هذا التكريم كله وذلك الإهتمام قد حدد للعقل مجالاته التي يخوض فيها حتى لا يضل . وفي هذا تكريم له أيضاً لأنه محدود الطاقات والملكات فلا يستطيع ان يدرك كل الحقائق مهما اوتي من قدرة وطاقة على الإستيعاب والإدراك لذا فإنه سيظل بعيداً عن متناول كثير من الحقائق وإذا ما حاول الخوض فيها التبست عليه الأمور وتخبط في الظلمات وفي هذا مدعاة لوقوعه في كثير من الأخطاء وركوبه متن العديد من الأخطار .

فأمر الإسلام العقل بالإستسلام والإمتثال للأمر الشرعي الصريح حتى ولو لم يدرك الحكمة والسبب في ذلك وقد كانت أول معصية لله أرتكبت بسبب عدم هذا الإمتثال فحينما أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالسجود لآدم عليه السلام استكبر وعصى وإستبد برأيه فقارن بين خلقه وخلق آدم عليه السلام ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1] فلم يمتثل للأمر طلباً للسبب الذي يسجد لأجله الفاضل للمفضول حسب رأيه فلما لم يدرك عقله السبب رفض الإمتثال فكانت المعصية وكانت العقوبة .

لذا منع الإسلام العقل من الخوض فيما لا يدركه ولا يكون في متناول إدراكه كالذات الآلهية والأرواح في ماهيتها ونحو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله »[2] وقال ﷺ « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله »[3] وعن الروح قال تعالى ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[4] فصرف الجواب عن ماهيتها لأنه ليس من شؤون

---

(١) سورة الإعراف من الآية : ١٢ .

(٢) رواه ابو نعيم في الحلية وابن أبي شيبة والطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٥٩ واسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة والمعنى صحيح .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) سورة الإسراء من الآية : ٨٥ .

العقل السؤال عنها ولا من مداركه . وكذلك الجنة ونعيمها والنار وجحيمها وكيفية ذلك وغيرها من الغيبيات التي ليست في متناول العقل ومداركه .

وعلى هذا مضى المسلمون في العصر الأول من الإسلام عرفوا ما للعقل فدرسوه وحفظوه وما ليس له فاجتنبوه بل اجتنبوا من عرف بالاهواء والسؤال عن المتشابه فهذا « صبيغ بن عسل جعل يسأل عن متشابه القرآن في إجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال : اين الرجل ؟ ابصر لا يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الوجيعة . فأتى به . فقال عمر : سبيل محدثه فضربه وأعاده إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه احد من المسلمين قال أبو عثمان النهدي فلو جاءنا ونحن مئة لتفرقنا عنه[1] .

ولا يعني هذا ان العصر الإسلامي كان خالياً كل الخلو من الآراء الشاذة بل وجد في وقته عليه الصلاة والسلام ولكن كان لوجوده ﷺ ونزول الوحي حينئذ القضاء على تلك الآراء في مهدها فالمنافقون قالوا يوم أحد عن إخوانهم ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[2] فهل هذا إلا تصريح بإنكار القدر[3] .

وقالت طائفة من المشركين ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[4] فهل هذا إلا تصريح بالجبر[3] .

بل ان منهم من جادل في ذات الله[3] ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[5] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : هذبه عبد القادر بن احمد الدومي المعروف بابن بدران جـ ٦ ص ٣٨٥ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٥٦ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ت محمد سيد كيلاني الجزء الأول ص ٢٢ .

(٤) سورة النحل من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة الرعد من الآية : ١٣ .

ولكن هذه الآراء لم يتبنها أصحابها ويدعوا لها ويؤلفوا عنها وينشروها بين الناس بل كانت تنطفىء في مهدها لما ذكرنا .

نشأة الفرق العقلية : ـ

وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام وإنقطاع الوحي بدأ بعض الأفراد بنشر بعض هذه المذاهب الباطلة فهذا معبد بن خالد الجهني أول من تكلم في القدر[1] فقال « لا قدر والأمر أنف »[2] وقد أخذ ذلك من رجل نصراني من أهل العراق أسلم ثم تنصر اسمه « ابو يونس سنسويه » من الأساورة[1] .

وقد أخذ عن معبدٍ هذا غيلان الدمشقي[3] وهو الذي نشره بين المسلمين وقتل من أجله وقد انكر عليهم مذهبهم هذا وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وابن عباس وانس ابن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وعقبة بن عامر الجهني[4] .

وأساس فكرة القدرية إنكار القدر وإن للإنسان مطلق الحرية في أفعاله لا سلطان لاحد على إرادته وعلى النقيض من ذلك نشأت فرقة أخرى تقول بأن الإنسان مجبور في أفعاله لا إختيار له ولا قدرة كالريشة المعلقة في الهواء . . . وتسمى تلك الفرقة بالجبرية . ونشأت فرق اخرى كثيرة بعد هذا كان من أهمها : فرقة المعتزلة التي أخذت برأي معبد الجهني[5] من إنكار القدر واضافت إليه آراءاً أخرى سنذكرها فيما بعد .

---

(١) الخطط المقريزية : تقي الدين احمد بن علي المقريزي جـ ٤ ص ١٨١ والميزان : للذهبي جـ ٤ ص ١٤١ وتهذيب التهذيب لابن حجر جـ ١٠ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٢) تبين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري : لابن عساكر الدمشقي ص ١٠

(٣) تهذيب التهذيب : لابن حجر جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٤) الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادي ص ١٥ .

(٥) الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادي ص ٩٨ .

ولم تزل العلوم العقلية تنمو وتتسع مع توسع الفتوح الإسلامية وكثرة ترجمة كتب البلاد المفتوحة فتعددت المشارب وتنافست تلك الفرق على المناهل واقبلوا بصفة خاصة على الفلسفة اليونانية لحاجتهم إليها في المناظرات فيما بينهم والجدل . فإذا علماؤ هم لا يتحدثون الا عن المنطق وحدوده وقضاياه واقيسته فألفت الكتب وعقدت المناظرات وكثرت المناقشات والمجادلات فإذا بمؤلفاتهم تغص بالمصطلحات الفنية كالجوهر والعرض والهيولى والصورة والقياس والقضايا السالبة والموجبة وقاوم هذا بعض أئمة المسلمين ممن لم يكن له إطمئنان إلى هذه الفلسفة وإلى الفاظها ومصطلحاتها[1] ولكي ندرك مقام العقل في خضم هذه المعارك العلمية ينبغي لنا أن نقول ان العقل لم يسلم من مذهب التضاد الذي ساد بين تلك الفرق فذهبت فرقة إلى إمتهان العقل وإحتقاره واعتقدوا في بعض البله ـ مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله ـ أنه من الأولياء وفضلوهم على متبعي طريقة الرسول ﷺ[2] .

واستدلوا لمذهبهم هذا بما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « اطلعت على الجنة فرأيت أكثر اهلها البله » وبحديث « أكثر أهل الجنة البله » وفي هذا قال شاعرهم :

هم معشر حلوا النظام وخرقوا السياج فلا فرض لديهم ولا نفل
مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أبوابه يسجد العقل

ويجيبنا الغزالي عن سبب ذمهم للعقل « فإن قلت فما بال اقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول فأعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على ان يقرروا عندهم انكم اخطأتم في التسمية إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا

---

(١) الفكر الإسلامي بين الامس واليوم ت محجوب بن ميلاد ص ٨٦ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٧٣ .

العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم »[1] .

ولعل بطلان مذهب هذه الفرقة ظاهر اذ أنها لا تستند إلى شرع ولا الى عقل وإلى هذا يرجع فيما أرى سبب عدم اشتهارها فلذا لم يهتم بها أحد من العلماء .

أما أنها لا تستند إلى شرع فإن جل ما استندوا إليه الحديثان السابقان وهما ضعيفان أما الأول فلأن في سنده مصعب بن ماهان قال في التقريب[2] صدوق عابد كثير الخطأ ، وفيه أيضاً أحمد بن عيسى الخشاب قال ابن عدي له مناكير ثم ساق له هذا الحديث .

أما الحديث الثاني فقال ابن عدي منكر[3] وقال المناوي « ووجه ضعفه ما قاله الهيتمي ان فيه سلامه بن روح وثقة ابن حبان وغيره وضعفه احمد بن صالح وغيره وقال ابن الجوزي » لا يصح « وقال الدارقطني تفرد به سلامه عن عقيل وهو ضعيف »[3] .

ثم أنه لا يراد بالابله ـ الذي لا عقل له ـ بل المراد به الغافل عن الشر المطبوع على الخير[4] .

وأما أنها لا تستند الى عقل فلمنافاتها له واسقاطها لقيمته. وكما قلنا ان بطلان مذهب هذه الفرقة ظاهر لا يحتاج إلى طويل جدال وإنما ذكرته لاعطاء صورة عن تفاوت المذاهب في تلك الفترة في كل أمر مهما كان وضوح الحق فيه .

هذا ما ذهبت إليه تلك الفرقة . وذهبت فرق اخرى الى المبالغة في

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي جـ ١ ص ٩٤ .

(٢) تقريب التهذيب بن حجر العسقلاني ت عبد الوهاب عبد اللطيف جـ ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي جـ ٢ ص ٧٩ .

(٤) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع على القاري الهروي ص ٣١ .

تقديس العقل وإعطائه اكثر من حقه في مقابلة الأمور والاعتقادات الشرعية .
واكثر من اشتهر عنها هذه الطريقة فرقة « المعتزلة » حتى اطلق عليهم المستشرقون اسم « العقليين »(١) لذا فإني اعتبر هذه المدرسة المدرسة العقلية الأولى ـ كما ذكرنا سابقا ـ وهي المدرسة العقلية القديمة بالنسبة للمدرسة العقلية الحديثة موضوع بحثنا . ونظراً للصلة بين المدرستين ينبغي لنا ان نلم بالقديمة دراسة تاريخها وأصولها ومناهجها حتى يتسنى لنا أن نعرف مدى ارتباط المدرستين ببعض وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بينهما .

المدرسة العقلية القديمة :

نشأتها : قيل في سبب نشأتها ان الحسن البصري كان يلقي درسه المعتاد على تلاميذه اذ دخل عليه رجل فقال : يا امام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة ـ يقصد الخوارج ـ وجماعة اخرى يرجئون اصحاب الكبائر ويقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ـ يقصد المرجئة ـ فكيف تحكم لنا ان نعتقد في ذلك ؟ فتفكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ثم قام إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ومنهم عمرو بن عبيد ـ ما أجاب به فقال الحسن اعتزل عنا واصل(٢) أما سبب تسميتهم بالمعتزلة فقيل لقول الحسن « اعتزل عنا واصل » وقيل لأنهم يرون أن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين وعن المؤمنين وقيل ان الذي اطلق عليهم هذا الإسم بعض اليهود الذين دخلوا في الإسلام لما رأوه من الشبه بينهم وبين فرقة يهودية تسمى « افروشيم » ومعناها المعتزلة ـ تنكر القدر . ويطلق عليهم ايضاً اسم القدرية لموافقتهم لهم في إنكار القدر والجهمية لموافقتهم في القول بخلق القرآن وغير ذلك ويطلق عليهم ايضاً اسم المعطلة لتعطيلهم في الصفات ولم يرض المعتزلة عن شيء من هذه

---

(١) ضحى الإسلام أحمد أمين جـ ٣ ص ٨٩ .
(٢) الملل والنحل : الشهرستاني جـ ١ ص ٤٨ :

الأسماء وإنما يسمون انفسهم بالعدلية لقولهم بالعدل والموحدة لقولهم بالتوحيد .

أصولها

أما أصولهم التي اجمعوا عليها فخمسة :

(١) التوحيد (٢) العدل (٣)الوعد والوعيد (٤) المنزلة بين المنزلتين (٥) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الخياط وهو أحد زعماء المعتزلة « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا كملت فيه هذه الخصال فهو معتزلي[١] فإن سألت لم اقتصرتم على هذه الأصول الخمسة أجابوا :

« ان المخالف لنا لا يعدو أحد هذه الأصول ألا ترى أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل في التوحيد ، وخلاف المجبرة بأسرهم دخل في باب العدل ، وخلاف المرجئة دخل في باب الوعد والوعيد وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين ، وخلاف الأمامية دخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٢] .

١ ـ الأصل الأول التوحيد

ويعد هذا الأصل من أهم اصول المعتزلة ولقد ذهبوا في تفسيره وتحليله وفلسفته شأوا بعيداً فمن ثَمَّ نُسِبَ إليهم وسموا أنفسهم بـ « أهل التوحيد » أو « الموحدة » وإن كان المسلمون جميعاً يقولون بالتوحيد إلا أنه أهل السنة قالوا إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له ، وواحد في أفعاله-لا شريك له أما المعتزلة فقالوا إن الله تعالى واحد في ذاته لا

---

(١) الانتصار : للخياط ص ١٢٦ .

(٢) شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار الهمداني ص ١٢٤ .

قسمة له ولا صفة له، وواحد في أفعاله لا شريك له فلا قديم غير ذاته ، ولا قسيم له في افعاله ، ومحال وجود قديمين ومقدورين قادرين وذلك هو التوحيد[١] ويبني المعتزلة على هذا الأصل أموراً كثيرة اذكر منها : -

(أ) أن ذات الله وصفاته شيء واحد فالله حَيٌّ عالم قادر بذاته لا بحياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته أما المخلوق فعالم بعلم وقادر بقدره والعلم والقدرة يحتاجان إلى محل مخصوص والمحل المخصوص لا بد من أن يكون جسماً وليس كذلك القديم تعالى[٢] لأنه تعالى قادر لذاته فلا يجب إذا كان عالماً قادراً أن يكون جسماً وإن وجب ان يكون حياً »[٣] .

وطريقتهم في الصفات النفي بالتفصيل فيقولون « إن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة . . الخ »[٤] .

ونفوا ان تكون الصفات قديمة بل هي محدثة فقالوا إن « القديم تعالى لو استحق هذه الصفات لمعان قديمة ولوجب ان تكون مثلاً لله تعالى وهذا يوجب إذا كان العالم تعالى عالماً قادراً لذاته وجب ان تكون هذه المعاني ايضاً قادرة عالمة وذلك محال وان تكون بعض هذه المعاني بصفة البعض وان يقع الاستغناء بأحدهما عن الباقي وذلك محال وما أدّى إليه وجب ان يكون محالاً »[٥] .

وإنما انكروا كُون الصفات لمعان قديمة حتى لا يتعدد القدماء، والقدم

---

(١) الملل والنحل : لشهرستاني جـ ١ ص ٤٢ .

(٢) وصف الله عز وجل بـ « القديم » لا يجوز لأن صفاته سبحانه توقيفية ولم يرد هذا الوصف من الكتاب ولا في السنة ، فوجب تركه . والله اعلم .

(٣) شرح الأصول الخمسة : للهمداني ص ١٦٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين : لابي الحسن الأشعري : جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٥) شرح الأصول الخمسة : للهمداني ص ١٩٧ .

عندهم أخص وصف لذات الله ولو تعدد القدماء لتعددت الآلهة فبنوا على هذا حدوث الصفات .

وقد أدّى بهم هذا الى تعطيل الصفات عن الذات الإلهيـة وحدوثها بعد أن لم تكن . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أما علماء السلف رحمهم الله تعالى فقد كانوا يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل متمسكين بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] .

(ب) وبنوا على هذا الأصل أيضاً القول بخلق القرآن .

فقالوا « لو كان كلام الله تعالى قديماً لوجب ان يكون مثلاً لله تعالى لان القدم صفة من صفات النفس والإشتراك في صفة من صفات النفس يوجب التماثل ولا مثل لله تعالى وأيضاً لو كان قديماً لوجب ان يكون عالماً لذاته قادراً لذاته كالقديم تعالى سواء ، لأن الاشتراك في صفة من صفات النفس يوجب الإشتراك في سائر صفات النفس ومعلوم خلافة »[2] .

(جـ) وبنوا على هذا الاصل ايضاً القول بانكار رؤ ية الله .

فقالوا « إن الواحد منا راءٍ بحاسة والرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلاً أو حالاً في المقابل أو في حكم المقابل وقد ثبت ان الله تعالى لا يجوز ان يكون مقابلاً ولا حالاً في المقابل ولا في حكم المقابل »[3] « وأما الكلام في أنه تعالى لا يجوز ان يكون مقابلاً ولا حالاً في المقابل ولا في حكم المقابل فهو أن المقابلة والحلول إنما تصح على الاجسام والاعراض والله تعالى ليس بجسم ولا عرض فلا يجوز ان يكون مقابلاً ولا حالاً في المقابل ولا في حكم المقابل »[3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .
(٢) شرح الاصول الخمسة : القاضي عبد الجبار ص ٥٤٩ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وتلخص من هذا ان المعتزلة بنوا على هذا الاصل « التوحيد » أموراً عدة منها :

أ ـ تعطيل الصفات .
ب ـ القول بخلق القرآن .
جـ ـ إنكار الرؤ ية .

وهم يكفرون من خالفهم في هذا الاصل اعني « التوحيد » فقال القاضي عبد الجبار « أما من خالف في التوحيد ونفى عن الله ما يجب إثباته وأثبت ما يجب نفيه عنه فإنه يكون كافراً »(١) .

٢ ـ الأصل الثاني : العدل

وهو مع اصلهم الاول « التوحيد » اهم اصولهم لذا فهم يسمون أنفسهم اهل العدل وأهل التوحيد .

وإن كان المسلمون أيضاً يقولون بالعدل إلا أن المعتزلة تعمقوا في معناه وحدوده كما تعمقوا في التوحيد وحدوده وفلسفته فصارا بهم الصق واشهر بغض النظر عن المصيب والمخطىء .

فالعدل عند اهل السنة يراد به ان الله تعالى عدل في افعاله بمعنى انه متصرف في مُلكه ومِلكه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فالعدل وضع الشيء في موضعه وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم ، والظلم بضده فلا يتصور منه سبحانه جور في الحكم ولا ظلم في التصرف ، وعلى مذهب المعتزلة العدل ما يقتضيه العقل من الحكمة فهو اصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة(٢) .

وأثاروا حول هذا مسائل أهمها : ـ

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٥ .
(٢) الملل والنحل : الشهرستاني جـ ١ ص ٤٢ .

المسألة الأولى : ان الله يسير بالخلق إلى غاية وانه يريد خير ما يكون لخلقه فعاقبة الدنيا هي الخير وهذا ما أراده الله وأما الشر فمن نتائج تحريف الفجار(١) وقد تفرعت من هذه المسألة نظريتان مشهورتان هما :

أ ـ الصلاح والأصلح .

ومجمل هذه النظرية ان الله يسير بالخلق الى غاية وهي نفع العباد فالله يقصد في افعاله إلى صلاح العباد وبالغت طائفة منهم وقالت بأنه يجب على الله رعاية **الأصلح** « لأنه لا يجوز ان يترك الله شيئاً يقدر عليه من الصلاح من أجل فعله لصلاح ما وحجتهم في هذا الكفر الذي اتوا به أنه لو كان عنده اصلح أو أفضل مما فعل بالناس ومنعهم إياه لكان بخيلاً ظالما لهم ولو اعطى بعض الناس لكان محابيا ظالما والمحاباة جور »(٢) . عصمنا الله وإياكم من اساءة الأدب مع الله .

ب ـ الحسن والقبح العقليان .

وخلاصة قولهم في هذا ان الحسن والقبح في الأشياء ذاتيان والشرع في تحسينه وتقبيحه للأشياء مخبر عنها لا مثبت لها والعقل مدرك لها لا منشيء ورتبوا على هذا ان الانسان مكلف قبل ورود الشرائع أو إذا لم تبلغه الدعوة بما يدل عليه العقل فهو مكلف ولو لم يصل إليه شرع(٣) .

المسألة الثانية : إن الله لا يريد الشر ولا يأمر به وهي « مسألة الارادة » فقالوا ان مريد الخير خيّر ومريد الشرشرير فلو أراد الله الخير والشر لكان موصوفا بالخيرية والشرية وذلك محال لقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾(٤) . فهو مريد لكون ما كان من الأعمال خيراً وغير مريد لكون ما كان

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ١٧٨ .
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم جـ ٣ ص ١٦٤ .
(٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٤٤١ .
(٤) سورة غافر من الآية : ٣١ .

من الأعمال شراً والخلاف بينهم وبين أهل السنة في الإرادة الثانية فأهل السنة يقولون ان الله أراد إيمان المؤمن واراد كفر الكافر إرادة كونية ، أما المعتزلة فيقولون إن الله أراد إيمان المؤمن ولم يرد كفر الكافر

المسألة الثالثة : إن الله لم يخلق أفعال العباد وان الانسان هو الذي يخلق أفعاله واستدلوا لاثبات ذلك بأمور :

(أ) أنه يلزم القائلين بأن الله هو الخالق لافعال العباد ان لا يفرق بين المحسن والمسيء وأن يرتفع المدح والذم والثواب والعقاب ، ويلزمهم قبح بعثة الانبياء ويلزمهم ايضاً ان يكون هو فاعل القبائح لانه إذا كان خالقاً لافعال العباد لزم ما ذكرناه »[1] .

(ب) ما يشعر به الانسان من التفرقة بين الحركة الاختيارية والاضطرارية .

(جـ) انه لا يحسن منا ان نقول للطويل لم طالت قامتك ولا للقصير لم قصرت ؟ كما يحسن ان نقول للظالم لم ظلمت ؟ وللكاذب لم كذبت ؟ فلولا أن أحدهما متعلق بنا وموجود من جهتنا بخلاف الآخر وإلا لما وجب هذا الفصل ولكان الحال في طول القامة وقصرها كالحال في الظلم والكذب ، وقد عرف فساده »[2] .

(د) وقالوا كيف يستقيم الحكم بإن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم »[3] .

(هـ) وان في أفعال العباد ما هو ظلم وجور فلو كان الله تعالى خالقاً لها لوجب ان يكون ظالماً جائراً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً »[4] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار ص ٣٣٤ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٣٢ .
(٣) شرح الطحاوية : ص ٣٨٧ .
(٤) شرح الأصول الخمسة : ص ٣٤٥ .

فتعين ان الإنسان هو الخالق لافعاله كلها خيرها وشرها وقد افضى بهم هذا إلى إنكار القدر وقالوا ان الانسان هو القادر على ان يفعل الخير أو يتركه وعلى فعل الشر او تركه وان لا دخل لقدر الله في ذلك إذ لو كانت القدرة الآلهية هي التي تحكم في هذا لانتفى مدح المحسن وذم المسيء بل ما كان لنبوة النبي وإصلاح المصلح فائدة .

قالوا « وأما من خالف في العدل وأضاف إلى الله تعالى القبائح كلها من الظلم والكذب وإظهار المعجزات على الكذابين وتعذيب اطفال المشركين بذنوب آبائهم والاخلال بالواجب فإنه يكفر أيضاً »[1] .

٣ ـ الاصل الثالث : الوعد والوعيد

ويراد بالوعد والوعيد عند اهل السنة كلامه الازلي وَعَدَ على ما أمر وأوعد على ما نهى فكل من نجا واستوجب الثواب فبوعده ، وكل من هلك واستوجب العقاب فبوعيده فلا يجب عليه شيء من قضية العقل .

وقال المعتزلة لا كلام في الازل وإنما أمر ونهى ووعد وأوعد بكلام محدث فمن نجا فبفعله استحق الثواب ومن خسرفبفعله استوجب العقاب والعقل من حيث الحكمة يتقتضي ذلك[2] .

وقالوا إن الله وعد المحسن بالثواب وأوعد المسيء بالعقاب فيجب على الله ان يثيب المحسن وان يعاقب المسيء فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده وهم بهذا جعلوا الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي أمراً حتمياً التزم الله تعالى به .

ومن خالفهم في هذا الاصل وقال : « . . . انه تعالى وعد وتوعد ولكن يجوز ان يخلف في وعيده لان الخلف في الوعيد كرم فإنه يكون كافراً لاضافة القبيح الى الله تعالى فإن قال إن الله تعالى وعد وتوعد ولا يجوز ان

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

(٢) الملل والنحل : للشهرستاني جـ ١ ص ٤٢ .

يخلف في وعده ووعيده ولكن يجوز ان يكون في عمومات الوعيد شرط أو استثناء لم يبينه الله تعالى فإنه يكون مخطئاً »[1] .

٤ ـ الأصل الرابع : المنزلة بين المنزلتين

وقالوا ان هذه المنزلة لاهل الكبائر فأهل الكبائر ليسوا بمؤمنين ولا بكافرين وإنما في منزلة بين المنزلتين « الإيمان » و« الكفر » هي منزلة « الفسق » فصاحب الكبيرة فاسق وهو خالد في النار ولو صدق بوحدانية الله وآمن برسله واستدلوا بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[2] ولكنهم قالوا إن عذابه يكون أخف من عذاب الكفار[3] .

ومن خالفهم في هذا الاصل فقال « ان حكم صاحب الكبيرة حكم عبدة الاوثان والمجوس وغيرهم فإنه يكون كافراً . . . فإن قال حكمه حكم المؤمنين في التعظيم والموالاة في الله تعالى فإنه يكون فاسقاً . . فإن قال ليس حكمه حكم المؤمن ولا حكم الكافر ولكن اسميه مؤمناً فإنه يكون مخطئاً »[4] .

٥ ـ الأصل الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والمسلمون جميعاً متفقون على هذا الاصل ولكنهم مختلفون في مداه ونستطيع ان نجمل اهم قواعده عند المعتزلة بما يلي[5] :

أ ـ انه من فروض الكفايات ولا يصلح الا لمن علم المعروف والمنكر وكيف يرتب الأمر في اقامته وكيف يباشره .

---

(١) شرح الأصول الخمسة : ص ١٢٥ .
(٢) سورة النساء آية : ٩٣ .
(٣) الملل والنحل للشهرستاني الجزء الأول ص ٤٥ .
(٤) شرح الاصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار ص ١٢٦ .
(٥) بتلخيص من تفسير الكشاف : للزمخشري جـ ١ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .

ب ـ والأمر بالمعروف قد يكون واجباً وقد يكون ندبا حسب المأمور به ان كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فندب أما النهي عن المنكر فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لا تصافه بالقبح .

جـ ـ واختلفوا في طريق وجوبه فعند بعضهم السمع والعقل وعند بعضهم السمع وحده .

د ـ ويجب النهي عن المنكر إذا غلب على ظنه وقوع المعصية نحو ان يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر .

هـ ـ أما كيف يباشر النهي فان كان الإنكار باللسان فإن الواجب ان يبتدىء بالسهل ثم ان لم ينفع ترقى إلى الصعب . أما إذا كان الإنكار بالقتال فالإمام وخلفاؤه اولى لانهم اعلم بالسياسة ومعهم عدتها .

و ـ أما من يباشر فكل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه .

ز ـ أما شرائطه ان يعلم الناهي ان ما ينكره قبيح وان لا يغلب على ظنه ان المنهى يزيد في منكراته وان لا يغلب على ظنه ان نهيه لا يؤثر لأنه عبث .

ح ـ ويؤمر وينهى كل مكلف ، وغير المكلف إذا هَمَّ بضرر غيره .

ط ـ ويكفي في الأمر بالمعروف مجرد الأمر به ولا يلزم حمل من صنيعه عليه ، ولا يكفي في النهي عن المنكر عند استكمال الشرائط مجرد النهي بل يمنع منعاً ولو أدَّى إلى القتال[1] .

ولذلك رأينا كيف اعلنها المعتزلة حرباً شعواء على معارضيهم في القول بخلق القرآن ووجهوا جهودهم كلها عند قيام دولتهم في عهد المأمون الى تلكم القضية ونقلوا ميدان المعركة الإسلامية من الحدود إلى الداخل حيث اصبحت شغلهم الشاغل ، مما عجل بنهاية دولتهم .

ي ـ ويجب على مرتكب المنكر النهي عنه لان ترك ارتكابه وإنكاره واجبان لا

---

(١) شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥ .

يسقط أحدهما بترك الآخر وضمنوا هذا كله جواز الخروج على الأئمة بالقتال(١) إذا جاروا .

وأما من خالف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اصلاً وقال ان الله تعالى لم يكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اصلاً فإنه يكون كافراً . . . فإن قال إن ذلك مما ورد به التكليف ولكنه مشروط بوجود الإمام فإنه يكون مخطئاً(٢) .

ينبوع المعرفة عند المعتزلة :

على الناظر في نشاط المعتزلة وآثارهم أن لا يكتفي باستعراض اصولهم اصلاً اصلاً ومسائلهم مسألة مسألة بل عليه ان ينظر في الينبوع الذي نهلوا منه أصولهم ومسائلهم كلها ولقد اختلفت مذاهب الأمم وتنوعت في سبيل وصولهم إلى المعرفة . وسلك الناس مناهج عدة ليتوصلوا بها الى معين المعرفة فأي المناهج كان منهج المعتزلة ؟

لنجيب على هذا نقول ان المعتزلة قد سلكوا في هذا المنهج العقلي وقد اشتمل هذا المنهج على خطوتين :

أما الأولى فقصدوا بها تطهير الفكر وضرورة تجرده عن الالف والعادة وعن مختلف الاهواء بالنسبة لكل من أراد ان يصدر إحكاماً يتوخى فيها الصواب والإخلاص للحق وفي هذا هدم لنظرية التقليد .

أما الثانية فتحكيم العقل تحكيماً مطلقاً فقد آمن المعتزلة بالعقل ورفعوا شأنه ونوهوا به أيما تنويه وصدعوا بمبادئه وقالوا خلق العقل ليعرف وهو قادر على أن يعرف كل شيء المنظور وغير المنظور وجعلوه الحكم الذي يحكم

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٥٨٩ ومجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٨٧ .

(٢) شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار ص ١٢٦ .

في كل شيء والنور الذي يجلو كل ظلمه حكموه في إيمانهم وفي جميع شؤونهم الخاصة والعامة[1] .

والعقل عندهم هو تلك الحاسة اللطيفة الجوهر التي تميز الانسان من الحيوان وكما ان فعل العين هو الإبصار فكذلك فعل العقل هو التفكر والروية والنطق .

لذلك اقبل المعتزلة على فلسفة اليونان يستلهمونها وأعلام يونان يترسمون خطاهم وينسجون على منوالهم وعلى كتب يونان يتفهمونها ويهضمونها[2] فحكموا العقل اكثر من تحكيمهم للشرع بل جعلوا الأدلة العقلية مقدمة على الأدلة الشرعية فكذبوا ما لا يوافق العقل من الحديث وان صح[3] وأولوا ما لا يوافقه من الآيات وان وضحت ، بل حاولوا اخضاع عبارات القرآن لآرائهم وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع مبادئهم[4] وقالوا بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح[5] ورتبوا على هذا ان الإنسان مكلف قبل ورود الشرائع أو إذا لم تبلغه دعوة الرسل ـ بما يدل عليه العقل فهو مكلف ولو لم يصل اليه شرع[6] .

وقال الزمخشري وهو من رجال المدرسة العقلية مسمياً العقل بـ « السلطان » قال : ـ

« امش في دينك تحت راية السلطان ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان فما الأسد المحتجب في عرينه اعز من الرجل المحتج على قرينه . وما العنز

---

(١) الفكر الإسلامي بين الامس واليوم : محجوب بن ميلاد ص ١١٤ .
(٢) الفكر الأسلامي بين الامس واليوم ص ١٢١ ، ١٢٢ .
(٣ ، ٤) التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
(٥) الملل والنحل : الشهرستاني جـ ١ ص ٤٢ .
(٦) انظر تفسير الزمخشري : جـ ٢ ص ٤٤١ .

الجرباء تحت الشمأل البليل أذل من المقلد عند صاحب الدليل »[1] .

ولقد ادى بهم تحكيم العقل الى ان شطحوا بعقولهم فوضعوا الرسل تحت مجهر العقل ناقدين لأنهم بشر وندت منهم عبارات لا تليق في حق رسل الله فالزمخشري مثلا يقول عن محمد ﷺ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾[2] : ـ « كناية عن الجناية لان العفو مرادف لها ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت »[3] وهذا لا يليق بمقامه ﷺ ومناف للادب معه وتطاولوا على أصحابه رضي الله عنهم بما تقشعر منه جلود المسلمين حقاً فهذا عمرو بن عبيد يقول « والله لو أن عليا وعثمان وطلحة والزبير شهدوا عندي على شراك نعل ما أجزته »[4] وقال عن سمرة بن جندب رضي الله عنه « ما نصنع بسمرة قبح الله سمرة »[5] .

وهذا المنهج الذي سلكه المعتزلة منهج عقلي بحت لم يستند الى توجيه كريم من قرآن أو سنة يهديه الى الحق والصواب . ولنر اثر منهجهم هذا في تفسيرهم للقرآن الكريم .

منهجهم في تفسير القرآن الكريم :

بنى المعتزلة ـ كما ذكرنا ـ عقيدتهم على اصول خمسة . وفي سبيل دعم هذه الاصول وتقويتها حتى تلاقي قبولا بين المسلمين كان لا بد من استنادها الى ادلة من القرآن الكريم وقد كان اصل تأسيسهم لها العقل المجرد عن النصوص وما وافق منهجهم من النصوص فانما وافقه عرضا لا قصدا فهم انما بنوا اصولهم على العقل ثم بعد هذا رجعوا الى النصوص[6] واختاروا ما

---

(١) اطواق الذهب في المواعظ والخطب : للزمخشري مقالة ٣٧ ص ٢٨ .
(٢) سورة التوبة : من الآية : ٤٣ .
(٣) تفسير الزمخشري جـ ٢ ص ١٩٢ .
(٤) تاريخ بغداد لأبي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي جـ ١٢ ص ١٧٨ .
(٥) المرجع السابق : جـ ١٢ ص ١٧٦ .
(٦) انظر تفسير الزمخشري لقوله تعالى « وتفصيل كل شيء » الذي نقلناه ص ٢٩ من هذا الكتاب .

يوافقه منها وبقي ما لم يوافقه وهو كثير عقبة كأداء في طريقهم اعدوا له عدتهم واستنفروا له كل العلوم والمعارف فمما لا شك فيه ان الأمر يحتاج الى جهد كبير حتى يستطيع المعتزلي ان يخضع معاني النصوص القرآنية لآرائه وصرفها عن معارضتها لها وابطال جميع التفاسير الاخرى لها اذا لم توافق آراءهم حتى ولو كانت احاديث صحيحه عن الرسول ﷺ .

ومما لا شك فيه ايضا انهم لم يرجعوا في تأويلهم هذا الى آية اخرى او سنة نبوية اذ ان هذا يبقيهم في نطاق دائرة النص الأول ولا يلوي العبارة كما يريدون ليّها فلم يبق لهم الا ان يقفوا موقف المضطرب فيكذبون النصوص النبوية الصريحة ويجرحون رواتها بل ويتجاوزون هذا الى الصحابة الذين سمعوها من الرسول ﷺ ورووها كما سمعوها وسخّروا كل العلوم والمعارف كاللغة والقرآءات والبلاغة والنحو وغير ذلك لتأويل الآيات المعارضة لاصولهم وحتى نكون على بينة مما نقول نذكر بعض تأويلاتهم هذه لبعض آيات القرآن الكريم حسب اصولهم في العقيدة .

ففي التوحيد :

أوّلوا الآيات الداله على اثبات الرؤية كقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1] بأن النظر الى الله تعالى لا يصح لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طلبا لرؤ يته وذلك لا يصح الا في الاجسام فيجب ان يتأول على ما يصح النظر اليه وهو الثواب كقوله تعالى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[2] فانا تأولناه على اهل القرية لصحة المسألة منهم[3] .

وحكى الشريف المرتضى تفسيرا لهم « لا يفتقر معتمده الى العدول عن الظاهر او الى تقدير محذوف ولا يحتاج الى منازعتهم في ان النظر يحتمل

---

(١) سورة القيامة الآيتين ٢٢ - ٢٣

(٢) سورة يوسف من الآية : ٨٢

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضي عبد الجبار بن احمد ص ٤٤٢ .

الرؤ ية أولا يحتملها وهو ان يحمل قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾ على انه اراد نعمة ربها لأن الآلاء النعم » ويؤ يد هذا بقول اعشى بكر بن وائل :

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحما ولا يخافون الى

اراد انه لا يخون نعمه[1] .

واوَّلوا الآيات الدالة على اثبات صفة الكلام كقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾[2] بأن لفظ الجلالة منصوب على انه مفعول ورفع موسى على انه فاعل وبهذا ابطلوا صفة الكلام لله سبحانه وتعالى وحاول بعضهم ان يبقي القرآءة المشهورة كما هي برفع لفظ الجلالة على انه فاعل مع تأويل المعنى بحيث لا يثبت صفة الكلام فقال : ان كلَّم من الكَلِمْ بمعنى الجرح فالمعنى وجرح الله موسى باظفار المحن ومخالب الفتن وقد عاب هذا التأويل الزمخشري وقال عنه انه من بدع التفاسير وأولها بالقول الأول[3] .

فان سلمت جدلا بنصب لفظ الجلالة في هذه الآية وسألت عن المراد في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾[4] قالوا : « وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ » من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه ان يخلق الكلام منطوقا به في بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح وروي ان موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة[5]» .

واوَّلوا كثيرا من الصفات تأويلا باطلا لمخالفته اصولهم فمن ذلك ايضا تأويلهم استوى في قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[6] بأن

---

(١) امالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى ت محمد ابو الفضل ابراهيم ص ٣٦ ـ ٣٧ القسم الأول المجلس الثالث .
(٢) سورة النساء من الآية : ١٦٤ .
(٣) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٥٨٢ .
(٤) سورة الاعراف من الآية : ١٤٣ .
(٥) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ١١١ ـ ١١٢ .
(٦) سورة طه الآية : ٥ .

استواء الله على العرش كناية عن الملك واستدلوابقولهم استوى فلان على العرش يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة[١] واوّلوا قوله تعالى ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[٢] بأنه تخييل لمعنى ان عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الاجسام[٣] ومعنى قوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[٤] أي كل شيء هالك الا هو[٥] .

وفي العدل :

ويؤولون قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٦] فسره الجبائي المعتزلي بأن الله سبحانه بين لكل نبي عدوه حتى يأخذ حذره منه[٧] . وانما اضطرهم الى هذا التأويل حتى يتفق مع قولهم بوجوب الصلاح والاصلح .

ولكنهم يتوقفون في بعض افعال الله فلا يدركون المصلحة في فعلها فاذا قلت في قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُم مُّؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٨] . اذا قلت ان العباد هم الفاعلون للكفر ولكن قد سبق في علم الحكيم انه اذا خلقهم لم يفعلوا الا الكفر ولم يختاروا غيره فما المصحلة في خلقهم ؟ مع علمه بما يكون منهم ؟ اجاب الزمخشري بأن له وجه حسن « وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه كما لا يقدح في حسن اكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة الى خلقها »[٩] .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ،٢ ص ٥٣٠ .

(٢) سورة الفتح من الآية : : ١٠

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ٥٤٣

(٤) سورة القصص من الآية : ٨٨

(٥) امالي الشريف المرتضى القسم الأول ص ٥٩٢ المجلس ٤٥ .

(٦) سورة الفرقان من الآية : ٣١ .

(٧) تفسير الرازي جـ ٢٤ ص ٧٧ .

(٨) سورة التغابن الآية الثانية .

(٩) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٤ ص ١١٣ .

وان احتججت عليهم في ابطال قولهم بأن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح بقوله تعالى ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[١] فكيف يكون لهم حجة قبل الرسل والله قد اعطاهم عقلا يدركون به الحسن والقبيح قبل الرسل كما تقولون ؟ قالوا : ان الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون على النظر فكان ارسالهم ازاحة للعلة وتتميما لازالة الحجة لئلا يقولوا لولا ارسلت الينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له »[٢]

ويؤولون قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[٣] بأنه ﷺ كان يرمي يوم بدر والله تعالى بلغ برميته المقاتل فلذلك اضافه تعالى الى نفسه كما أضاف الرمية أولا اليه بقوله اذ رميت[٤] .

ويؤولون قوله تعالى ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٥] بأن المراد والله خلقكم وما تعملون من الاصنام[٦] .

وفي الوعد والوعيد :

قالوا انه لا يجب حمد الله على ادخاله المحسنين للجنة لأنه انما اعطاهم حقا من حقوقهم ووعدهم وعدا وجب عليه ان ينفذه واولوا قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[٧] بأن الحمد في الآخرة ليس بواجب لأنه على نعمة واجبة الايصال الى مستحقها انما هو تتمة سرور

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٦٥ .
(٢) تفسير الكشاف : للزمخشري جـ ١ ص ٥٨٣ .
(٣) سورة الانفال من الآية : ١٧ .
(٤) تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضي عبد الجبار ص ١٥٩ .
(٥) سورة الصافات الآيتين : ٩٥ - ٩٦ .
(٦) تنزيه القرآن عن المطاعن القاضي عبد الجبار ص ٣٥٤ .
(٧) سورة سبأ من الآية الأولى .

المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتذون به كما يلتذ العطاش بالماء البارد[١] .

وفي المنزلة بين المنزلتين :

قالوا بمنزلة الفسق وهي منزلة بين منزلة الايمان ومنزلة الكفر ويؤ ولون من الآيات ما يقسم الناس الى مؤمن وكافر ولا يذكر النوع الثالث الذي ذكروا فمن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[٢] فيقولون ان الشاكر قد يكون شاكراً وان لم يكن مؤمنا برا تقيا[٣] واضعف من هذا تأويل الزمخشري لقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[٤] بقوله « فان قلت : كيف ذكر المؤمنين الابرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت : كان الناس حينئذ اما مؤمن تقي واما مشرك وانما حدث اصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك[٥] » .

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والمسلمون جميعا متفقون على هذا الأصل ولكنهم مختلفون في مداه ولم يكن للمعتزلة ـ فيما اطلعت عليه من تفاسيرهم في هذا الباب ـ ما اولوه تأويلا خارجا عن اقوال السلف اما مبالغتهم في مداه فلم تكن معتمدة على التأويل بل على منهجهم العقلي .

كانت هذه نماذج لبعض تأويلاتهم لآيات القرآن حسب اصولهم ويحسن بنا هنا أن نذكر اهم مميزات منهجهم الذي سلكوه في هذه التأويلات وغيرها : ـ

---

(١) تفسير الكشاف : للزمخشري جـ ٣ ص ٢٧٨ .
(٢) سورة الانسان الآية الثالثة .
(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن القاضي عبد الجبار ص ٤٤٣ .
(٤) سورة الاسراء الآيتين : ٩ و١٠ .
(٥) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

أ ـ كان من اصول منهجهم في التفسير تحكيم العقل في الامور الغيبية تحكيما مطلقا فانكروا حقائق كثيرة أثبتها أهل السنة استنادا الى النصوص فأنكرها المعتزلة استنادا الى العقل المجرد منها فمن ذلك تمرد بعض اعلام المعتزلة كالنظام على الاعتقاد بوجود الجن[1] وثار الزمخشري ضد من يقول بأن للجن قوة تأثير في الانسان مع اعترافه بوجودها وانكروا ايضا ان للسحر حقيقة وانه لا تأثير له اللهم الا اذا كان ثم اطعام شيء ضار او سقيه او اشمامه او مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ولكن قد يفعل الله عند ذلك على سبيل الامتحان فينسبه الحشو والرعاع اليهن والى نفثهن والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون الى ذلك ولا يعبئون به[2] .

ب ـ موقفهم من الاسرائيليات .

أما موقفهم من الاسرائيليات فغير منضبط فبينما كان النظام احد زعماء المعتزلة يقول : ـ « لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة واجابوا في كل مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير اساس وكلما كان المفسر اغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وابو بكر الاصم في سبيل واحدة فكيف اثق بتفسيرهم واسكن الى صوابهم »[3] بينما كان النظام وغيره يقولون هذا القول ونحوه نرى الزمخشري المعتزلي لا يرى بأسا بايراد اسطورة او خرافة اسرائيلية او قصة غير مستيقنة ما دامت لا تطعن نبيا ولا تخالف رأيا اعتزاليا وبذلك خالف منهجه العقلي[4] بل ويروي من القصص ما يظهر بطلانه فهو يروي مثلا قصة احد الاسباط

---

(١) الملل والنحل : الشهرستاني جـ ١ ص ٥٨ .
(٢) تفسير الكشاف : للزمخشري جـ ٤ ص ٣٠١ .
(٣) الحيوان : الجاحظ جـ ١ ص ٣٤٣ ت عبد السلام هارون .
(٤) الاسرائيليات واثرها في كتب التفسير : رمزي نعناعه ص ٢٨٨ .

الذين سألوا الله ان يفرق بينهم وبين اخوانهم ففتح الله لهم نفقا في الارض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وان نبينا ﷺ قد زارهم ليلة اسري به وعرفهم جبريل به فآمنوا وعلمهم بعض آيات القرآن وبعض امور الاسلام الاخرى[1] ولا يعقب على هذه القصة بما يضعفها مع وضوح بطلانها حتى قال الآلوسي « ولا اظنك تجد لها سندا يعول عليه ولو ابتغيت نفقا في الارض او سلما في السماء[2] » .

جـ ـ التفسير بالمأثور

وكان موقفهم من التفسير بالمأثور موقفا عجيبا !! فهم يشككون في الاحاديث التي تصطدم بمبادئهم ويكذبونها . وان علت درجتها في الصحة او يؤولونها تأويلا باطلا . بل ويتجاوزون هذا الى تجريح راويها لا اعني التابعي او تابعي التابعي بل الصحابي الذي رواه عن الرسول ﷺ يفعلون هذا اذا ما كان مصادما لمبدأ من مبادئهم بينما يستشهدون بالاحاديث الضعيفة بل الموضوعة ويعضون عليها بالنواجذ لنصرة مذهبهم الاعتزالي .

ولا ادري اين هذا العقل الذي اتخذوه قائدا ـ كما يقولون ـ الا يستطيعون به ان يدركوا ضعف هذا الحديث حينما يجدون فيه من ركاكة الاسلوب وضعف المعنى ما يبعده عن البلاغة النبوية وان يدركوا به صحة هذا الحديث لما يوجد به من قبس من نور النبوة وحكما من ينابيع الوحي مما يجعل القلب السليم يطمئن اليه . بله الاستناد الى اقوال ائمة المحدثين في سنده ومتنه تصحيحا وتضعيفا .

بل ان طريقتهم هذه تدل واكاد ان اقول ـ يقينا ـ على ان مقياس اخذهم الحديث ورده لم يكن سائرا على منهجهم ـ الذي يزعمون ـ بل كان منهجه منهج الهوى .

---

(١) تفسير الكشاف : الزمخشري جـ ٢ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢) روح المعاني ؛ للالوسي جـ ٩ ص ٨٥ .

ولست اقول هذا اعتباطا وعصبية وانما اقوله استنادا الى كثرة ما رأيته من ردهم لاحاديث صحيحة متفق على صحتها وتمسكهم باحاديث لا اقول ضعيفة بل جزم ائمة الحديث بوضع كثيرها .

افلم يكن في منهجهم بصيص من نور يجلو لهم تلك الحقائق في الظلمات التي انقادوا اليها . .

وحتى لا يقال تلك تهمة لم تذكر دليلها اشير هنا الى بعض احاديث صحيحة وانكروها او شككوا في صحتها واولوها تأويلا باطلا واحاديث ضعفت درجتها او وضعت واستنصروا بها اذكر هذا بايجاز اذ المقام هنا مقام اشارة وتنبيه ليس الا .

فمن الاحاديث التي انكروها او تأولوها احاديث الرؤ ية لا لضعف في سندها بل لمخالفتها لمذهبهم في انكار الرؤ ية مع انها متواترة ورواها اصحاب الصحاح والمسانيد والسنن[1] ومنها حديث جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال : ـ « كنا جلوسا مع النبي ﷺ فنظر الى القمر ليلة اربع عشرة فقال : ـ انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضامّون في رؤ يته »[2] وقد روى احاديث الرؤ ية نحو ثلاثين صحابيا[3] ومع هذا كله لم تلق القبول لدى المعتزلة مع علمهم بها واطلاعهم عليها فالقاضي عبد الجبار المعتزلي يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[4] . « اليس المراد بها الرؤ ية على ما **روى في الخبر** ؟ وجوابنا ان المراد بالزيادة التفضيل في الثواب فتكون الزيادة من جنس المزيد عليه وهذا مروي وهو الظاهر فلا معنى **لتعلقهم** بذلك . **وكيف يصح ذلك** لهم وعندهم ان الرؤ ية اعظم من كل الثواب فكيف تجعل زيادة على الحسنى ؟ »[5]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩ . (٢) متفق عليه .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٠ .

(٤) سورة يونس من الآية : ٢٦ .

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن القاضي عبد الجبار ص ١٧٧ .

ولعل في ذكر قوله بعد ذكر قوة هذه الاحاديث غنى عن التعليق .

ومنها حديث « ما من بني آدم مولود الا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان غير مريم وابنها » وقد رواه البخاري ومسلم واحمد رضى الله عنهم[1] ومع هذا يقول الزمخشري عنه « وما يروى من الحديث ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان اياه الا مريم وابنها فالله اعلم بصحته فان صح فمعناه ان كل مولود يطمع الشيطان في اغوائه الا مريم وابنها فانهما كانا معصومين وكذلك من كان في صفتهما . . واستهلاله صارخا من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه . . واما حقيقة المس والنخس كما يتوهم اهل الحشو فكلا »[2] فشكك في صحة الحديث اولا ثم اوله تأويلا باطلا وحمله على انه تخييل وتصوير . وعمم الاستثناء على المعصومين مع قصره في الحديث على مريم وابنها عليهما السلام .

وتجاوزوا هذا الى تكذيب الصحابة وتجريحهم بل تجاوزوه الى سبهم - رضي الله عنهم - اذا كان ما رووه يخالف أصولهم فقال النظام المعتزلي عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه « وزعم ان القمر انشق وانه رآه وهذا من الكذب الذي لا خفاء به »[3] وقال عن سمرة بن جندب رضي الله عنه « ما نصنع بسمرة قبح الله سمرة »[4] وكذب الزمخشري بن مسعود رضي الله عنه لقوله ان رسول الله ﷺ ليلة الجن خط حوله فكان يجيء احدهم مثل سواد النخل وقال لي لا تبرح مكانك فاقرأهم كتاب الله عز وجل فلما رأى الزط قال

---

(١) والحديث في الصحيحين من حديث ابي هريرة في آخره قال ابو هريرة اقرأوا ان شئتم ﴿ واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ ٣٦ آل عمران .

(٢) تفسير الكشاف : للزمخشري جـ ١ ص ٤٢٦ .

(٣) تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبه تحقيق محمد زهري النجار ص ٢١ .

(٤) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي جـ ١٢ ص ١٧٦ .

كأنهم هؤلاء[1] فقال الزمخشري « وانّ زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة »[2] .

واستهزأ بعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وسخر منه لروايته لحديث « ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقابا »[3] فقال « ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي ابن ابي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث »[4] .

ويتمسك المعتزلة باحاديث ضعيفة او موضوعة لبيان اصل من اصولهم فيستشهدون مثلا بما روي عن علي رضي الله عنه « افضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن شنىء الفاسقين وغضب لله غضب الله له »[5] قال ابن حجر العسقلاني « وهو من طريق اسحاق بن بشر عن مقاتل وهما ساقطان »[6] وقال الذهبي في المغني في الضعفاء « اسحاق بن بشر مجمع على تركه[7] » وقال في الميزان « تركوه وكذبه علي بن المديني وقال الدار قطني كذاب متروك »[8] اما مقاتل فقال وكيع كان كذابا وقال النسائي كان مقاتل يكذب وقال الجوزجاني كان دجالا جسورا[9] وقال في الميزان

---

(١) رواه الامام احمد في مسنده وقال الاستاذ احمد شاكر في تخريجه (اسناد صحيح) والزط جنس من السودان والهنود .

(٢) تفسير الكشاف : الزمخشري جـ ٢ ص ٧٥ .

(٣) قال في الكافي الشاف جـ ٢ ص ٤٣١ ضمن تفسير الكشاف عند تخريجه لهذا الحديث (اخرجه البزار . . ورجاله ثقات . .) .

(٤) تفسر الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٥٢ .

(٦) الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني ضمن تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٧ .

(٧) المغني في الضعفاء للامام الذهبي ت نور الدين عتر جـ ١ ص ٦٩ .

(٨) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للامام الذهبي ت علي محمد البجاوي جـ ١ ص ١٨٤

(٩) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(ومقاتل ايضا تالف)[1]

وبعد

لعل في هذه الاشارة بيان لما كان عليه منهج المعتزلة العقلي وما أدى بهم اليه هذا المنهج من امور مخالفة لاراء اهل السنة .

ولا اريد ان ادع هذا الموضوع قبل ان اذكر حكم اهل السنة والجماعة على مذهبهم هذا ولا اريد - ايضا - ان اطيل بذكر آراء اهل السنة فيه بل اقتصر على رأي واحد من علماء السنة المجاهدين اعني ابن تيميه رحمه الله تعالى حيث قال : « ان مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا الفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من ائمة المفسرين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم[2] » .

افول المدرسة العقلية القديمة :

ولم تكن كراهية هؤلاء المعتزلة ورفضهم مقصورة على العلماء بل كانوا مكروهين من العامة لأن المعتزلة ايام دولتهم في عهد المأمون والمعتصم والواثق عسفوا بالناس من كل فئة واستباحوا دماءهم وملأوا منهم السجون فكانوا عبئا ثقيلا على الناس علماء وعامة .

فلما جاء عهد المتوكل وفقه الله الى ابطال القول بخلق القرآن وذلك سنة ٢٣٤ هـ بعد ان عانى منها المسلمون مدة ١٥ عاما وكان ذلك بتوفيق من الله له بعدم اقتناعه بهذا القول ثم لما رأى من قوة الرأي العام ضد المعتزلة وكراهية الناس لهم فاعاد الحق الى نصابه قال السيوطي رحمه الله « فاستقدم المحدثين الى سامرا واجزل عطاياهم واكرمهم وامرهم بأن يحدثوا باحاديث الصفات والرؤية . . . وتوفر دعاء الخلق للمتوكل وبالغوا في الثناء عليه

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨٦ .

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيميه المجلد ١٣ مقدمة التفسير ص ٣٥٨ .

والتعظيم له »[1] وبهذا ازاح المتوكل رحمه الله هذا العبء الثقيل عن كاهل المسلمين .

وبهذا دالت الدولة الى المحدثين وانتصروا انتصارا كبيرا وافل نجم المعتزلة ولم يجرؤ احد على الجهر باعتزاله ولم يسترد المعتزلة سلطتهم يوما بعد ذلك .

ولم تزل علومهم العقلية المجردة عن النصوص في خمود ونحن لا ننكر قيام جماعة من الفلاسفة كالفارابي وابن سيناء وابن رشد والكندي وامثالهم على انقاض المعتزلة ولكن الفرق بينهم وبين المعتزلة كبير اذ ان المعتزلة اكثر عملا بين صفوف المسلمين من الفلاسفة فقد كان همّ المعتزلة اقامة دولة اعتزالية وبثّ الافكار بين مختلف الطبقات وسلكوا لهذا طرقا عدة وكانوا يدسون اعتزالهم في ثنايا قولهم العذب ومنطقهم الفصيح وعبارتهم السائغة لكل الاذواق وقرأ الناس ما كتبوا ان لم يكن لاعتزالهم فلأدبهم وبلاغتهم[2] وحصل لهم ما ارادوا فقامت لهم دولة لكنهم لم يحسنوا قيادتها فلم تلبث ان انهارت فوق رؤ وسهم . اما الفلاسفة هؤلاء فلم يهتموا بما اهتم به المعتزلة فكانت عبارات علمهم وكتبهم عبارات ثقيلة لا يكاد يفهمها الا من سلك سبيلهم فكأنما وضعوها ليقنع بعضهم بها بعضا وما التفتوا الى غيرهم .

لذا فانه يحق لنا ان نقول انه لم يقم لمنهج المعتزلة قائمة بعد انهيار دولتهم واغلاق مدرستهم وبهذا انتهت دولة الاعتزال .

نشأة المدرسة العقلية الحديثة :

ولم يكن في نهاية دولة الاعتزال نهاية للتقدم العلمي في العالم الاسلامي بل ان العلم لم يزل في توسعه ونموه فشمل الطب والحكمة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ٢٣٠ .

(٢) ضحى الاسلام : احمد امين جـ ٣ ص ٢٠٥ .

والكيمياء والرياضيات والعمارة وغير ذلك فازدهرت العلوم واينعت .

وبينما كان العالم الاسلامي في اوج حضارته العلمية كان العالم النصراني في اوروبا يتخبط في ظلمات الجهل فقد سيطرت الكنيسة فيه على العقول وحظرت على اتباعها ممارسة كثير من العلوم فسيطرت على العلماء واحتكرت العلم واحتفظت لنفسها بحق تفسير ظواهر الحياة ولم تكن تتردد في الاعدام والحرق والتعذيب تحت آلات اعدت له في محاكم التفتيش لكل من يجرؤ على مخالفتها من علماء الطبيعة والكيمياء والفلك وغير ذلك حتى لا يضيع سلطانها وهيبتها من النفوس .

كان هذا حال الشرق وحال الغرب لكن الامر لم يدم على هذا فقد اثار البابا جريجوري السابع الحرب الصليبية الاولى وعندما تحرك الصليبيون لم تكن هناك جبهة اسلامية موحدة في الشرق الذي كان يعاني عهدئذ التفكك والانقسام فواصلوا زحفهم حتى القدس واستولوا عليها سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩م[١] ثم لم تزل الحروب الصليبية على العالم الاسلامي تتتالى وكان من نتيجة هذه الحملات الصليبية ان نقلت الحضارة الاسلامية الى بلادهم فاستولى الاوروبيون على الكتب العلمية في شتى العلوم والمعارف واقبلوا عليها دراسة وتجربة وتنمية ووقفت الكنيسة موقفها فاحرقت كثيرا من العلماء واعدمت الكثير لكن هذا لم يمنع العلماء من الظهور بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت مما اتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكري من سلطان الكنيسة فهدموا الكنيسة وهدموا الدين معها وانتهى ذلك الصراع الطويل بانتصار دعاة التحرر والحد من سلطان الكنيسة وحصره فانكمش نفوذ البابا ولم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز وبذلك تحقق فصل الدين عن الدولة[٢] .

---

(١) التاريخ الاسلامي ابراهيم الشريقي ص ٢٢٣ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر محمد محمد حسين جـ ١ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

في تلك الفترة كان العلم في حالة انكماش في الشرق وتمدد ونمو في الغرب واستمر الأمر على هذا الحال . أضف الى ذلك ما عاناه العالم الاسلامي من حروب انهكته وحطمته بعد الحروب الصليبية نذكر منها هجمات المغول وسقوط الدولة العباسية على ايديهم وقتلهم الكثير من العلماء ورميهم للكتب العلمية في نهر دجلة حتى صار ماؤه أزرق ثلاثة ايام[١] كما يذكر المؤرخون ادت هذه الامور وغيرها الى ضعف العالم الاسلامي وانتقال الحضارة العلمية الى اوروبا التي وجهت طاقتها وعنايتها الى الاهتمام بالعلوم ونشرها .

ثم مر العالم الاسلامي بعد هذه الحروب التي انهكته ـ بفترة اخلد فيها الى الدعة وآثر السكون والخمول فلم تفت الفرصة على الاعداء فتداعوا عليه كما تتداعى الأكلة على قصعتها فأكلوا منه وشربوا حتى اصبح جسما بلا روح او كاد بل اصبح غثاءً كغثاء السيل .

وامست البلاد الاسلامية تحت سيطرة الدول الاوروبية التي استغلت خيراتها ونعمت بثرواتها واستيقظ العالم الاسلامي على ازيز الطائرات ودوي المدافع وضجيج المصانع فانبهر بتلك الحضارة وبادر الى السؤال عن اسبابها ولم يفت على الاستعمار اعداد الجواب لمثل هذا السؤال فقد اقصى اصحاب الثقافة الدينية عن ميادين الاصلاح وحصر وظائفه في المساجد التي قل روادها عموما وأصبحت الوظائف الحكومية وادوات التوجيه الاجتماعي في ايدي اصحاب الثقافة الأوربية[٢] الذين نشأوا في احضان الاستعمار وتشبعوا بثقافته فسيطروا على اجهزة التعليم في كثير من البلاد الاسلامية فضلا عن جهود الاستعمار الدائبة لنشر التغريب واللادينية بكل الوسائل الممكنة واوهموا الناس ان حالة العالم الاسلامي تشبه حالة أوروبا في العصور

(١) مجلة التمدن الاسلامي السنة ١٥ الجزءان ١٥ و١٦ رجب ١٣٦٨ هـ ثروتنا العلمية وفهارسها : احمد مظهر العظمة ص ٣٤٧ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جـ ١ ص ٢٥٥ .

الوسطى ولن ينهض الا بما نهضت به اوروبا من فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنيةوبذلك يتحقق له ما تحقق للاوروبيين .

وهال الأمر علماء المسلمين وذهبوا للرد على تلك الافكار مذاهب شتى . وحاولت فئة منهم التوفيق بين الدين والعلم وبينت للناس ان الدين الاسلامي الحق لا يحارب العلم ولا ينافي العقل وانه دين العقل والحرية والفكر . وذهبت تبين للناس ذلك المنهج وتقيم الدين الاسلامي على العقل - الذي لا يقر ارباب الثقافة الغربية غيره حكما - وبينت ان ليس في الاسلام ما لا يقره العقل وحاولت ان تفسر القرآن الكريم على هذا المنهج وهذا الاساس وكان لهذه المدرسة العقلية رجال كان لهم نشاط واسع في نشر هذه الثقافة ومكافحة الاستعمار ومقاومة الهجوم على الدين وإلقاء التبعة عليه في التخلف الحضاري .

وكان من رجال هذه المدرسة المؤسسين لها جمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبده وتلاميذه محمد مصطفى المراغي ومحمد رشيد رضا وغير هؤلاء كثير .

وسميت نهضتهم هذه بالنهضة الاصلاحية وكان لهذه المدرسة اراء كثيرة تخالف رأي السلف وشطحات ما كانوا ليقعوا فيها لولا مبالغتهم الشديدة في تحكيم العقل في كل امور الدين حتى جاوزوا الحق والصواب وشكك بعض رجال الفكر الاسلامي الحديث في نزاهة المؤسسين لهذه المدرسة اعني جمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبده مستدلين على ذلك ببعض علاقاتهم وما ورد في كتاباتهم .

ومرادنا هنا بيان هذه المدرسة العقلية الحديثة ورجالها، ومنهجها في تفسير القرآن الكريم وبيان ما ادت بهم اليه المبالغة في تحكيم العقل من آراء نراها غير صائبة والله الموفق والهادي الى سواء السبيل . . ،،

الباب الأول

رجال المدرسة

١) جمال الدين الافغانـــي .

٢) محمــد عبـــده .

٣) محمد رشيد رضـــا .

٤) محمد مصطفى المراغـي .

٥) غيـــرهـــم .



إلى مَن أقدّم تاريخ وتراجم هؤلاء الرّجال ؟

كل من يقرأ كلامي هذا فلا يعدو ان يكون أحد رجلين : -

اما رجل جعل الحقيقة نصب عينيه ، وتحصيلها مقصوده ، وجعلها فوق الرجال بها يوزنون ولا توزن بهم .

وحسب هذا الرجل أني بذلت جهدي ما استطعت للوصول إليها وتقديمها له مستنداً الى الادلة ، والبراهين ، وموثقاً لها بالرجوع الى أصولها ومصادرها الأولى ، فان كان فيما ذكرته ما اردت من اظهار للحقيقة : فبها ولله الحمد ، وان كانت الأخرى فحسبي أجر من اجتهد واخطأ .

واما رجل نزع الحقيقة من نصب عينيه ، واستبدل بها أصناماً بشرية وأوثاناً أنسية صار همه كل همه تقديسهم ، ومراده كل مراده ذب الشبهات عنهم ونفي الخطأ منهم ، وجعلهم في منزلة تأبى الشبهات ان تصل الى أقدامهم .

مثل هذا الرجل لا اتعب نفسي بتوجيه حديثي اليه ، لاني أعرف سلفاً رفضه له ومن العبث أن أوجه كلامي الى من اعرف سلفا رفضه له ومحاربته اياه .

لا أرفض توجيه حديثي اليه ابداً ولكن الى أمد الى أن يفتح الله على بصيرته ويزيل عن عينيه الغشاوة ويرجع الى المنهج السليم في تقدير الرجال .

ذلكم ان حياة الرجل تصبح ملكاً له ما دامت خاصة به فاذا تجاوزت هذه المرحلة واصبحت حياته جزءاً من التاريخ فان الحديث عنها أمانة في اعناق الدارسين لا يفك رقابهم منها الا قول الحقيقة من غير تجن أو تعد ، أو تزلف أو نفاق فكلاهما منهج ضال والمنهج الحق وسط بينهما : قول الحق والحقيقة مهما أدّيا اليه ومهما صاح بك من يجهر أعينهم نور الحقيقة .

أولاً : جمال الدين الأفغاني

اسمه :

جمال الدين بن صفدر الحسيني الافغاني ،

وصفدر لفظ فارسي من القاب الامام علي رضي الله عنه عند الشيعة ومعناه مقتحم الصف وقد حرف هذا الاسم من كتبوا ترجمته بالعربية فقالوا : ـ « صفتر »[1] .

زعم تلميذه الشيخ محمد عبده ان نسبه ينمي الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه[2] وقال بهذا الزعم ايضاً مصطفى عبد الرازق[3] ومن سمى نفسه بالمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي[4] وقال به ايضاً تلميذه محمد المخزومي[5] وغيرهم .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : في ترجمته لجمال الدين الافغاني بصدر مجلة العروة الوثقى ص ١٧ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده : للسيد محمد رشيد رضا الجزء الأول ص ٢٧ .

(٣) مصطفى عبد الرازق : المرجع السابق ص ١٧ .

(٤) جمال الدين الافغاني : للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ص٥ .

(٥) خاطرات جمال الدين الافغاني : للشيخ محمد المخزومي ص ٧ .

ولم اجد في كتب الحديث وعلومه من يسمى بـ « علي الترمذي » وينمي نسبه الى الحسين بن علي بن ابي طالب سواء كان هذا المحدث مشهوراً أو مغموراً .

ثم أي علاقة بين « الترمذي » وهو من خراسان وبين الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما وهو قرشي من مكة ؟!

لذلك فلا عجب ان يكتب ابو الهدى الصيادي من الآستانة الى السيد رشيد رضا قائلاً : ـ

« اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا ، وقد ثبت في دوائر الدولة رسميا انه ما زندراني من اجلاف الشيعة . . . »[١] .

ثم نقول بعد هذا أي فضل للرجل بهذا النسب عند من دينه ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[٢] وخوطب نبيه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[٣] .

مولــده :

ولد سنة ١٢٥٤ هـ ـ ١٨٣٨م وأول ما يصادف المؤرخ لحياة هذا الرجل من غموض الخلاف في مكان مولده هل ولد في اسعد آباد قرية من قرى كير من اعمال كابل في افغانستان أو في أسد آباد قرب همدان احدى مقاطعات ايران فيكون ايرانياً لا افغانياً وانما آثر ان ينسب نفسه ـ كما قال بروكلمان ـ الى افغانستان لاسباب سياسية[٤] أو أن والده ضابط ايراني أوفدته

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام محمدعبده : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٠ .
(٢) سورة الحجرات الآية : ١٣ .
(٣) سورة الشعراء الآية : ٢١٤ .
(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية : كارل بروكلمان جـ ٤ ص ١٠٣ .

حكومته الى بلاد افغان فتزوج هناك[1] .

ولا أحسب ان للبحث عن اصل الرجل أي رجل اهمية اذا ما حسنت عقيدته وصفت سريرته واستقامت سيرته ، ولكن قد يلزم البحث عن هذا اذا كان ذلك الرجل هو الذي اراد تعمية اصله ونسبة نفسه الى غيره مع غموض في اتصالاته وعلاقته وانشطته فيجب على الباحث تحري هذا لمعرفة السبب الدافع له الى هذه التعمية فقد يكون وراء الاكمة ما وراءها .

اذن فهناك امور ثلاثة نراها بارزة في نسبة الرجل واصله :-

أولها : ان اسم والده « صفدر » وهو لفظ فارسي من القاب الامام علي رضي الله عنه عند الشيعة ولا يوجد إلا بين الشيعة[2] .

ثانيها : انه لا صحة لانتسابه الى الحسين بن علي رضي الله عنهما من طريق « علي الترمذي » وانما انتحل هذا لاضفاء قداسة باطلة على شخصه .

ثالثها : انه ايراني لا افغاني كما ينسب نفسه وسيتضح لنا هذا فيما بعد ـ ان شاء الله ـ وإنما نسب نفسه إلى أفغانستان لأسباب غير ظاهرة .

جمال الدين في افغانستـــان :-

ولا نعرف مصدراً لتأريخ نشأة الرجل ـ هذا ـ الا ما تحدث به عن نفسه الى تلاميذه فقالوا مثلا انه لما بلغ الثامنة من عمره اجلسه والده لطلب العلم وعني بتربيته فأيد العناية به اشراق في قريحته وذكاء في مدركته فتلقى علوماً جمة برع في جميعها فمنها العلوم العربية وعلوم الشريعة وعلوم عقلية من منطق وفلسفة وعلوم رياضية ونظريات الطب والتشريح[3] .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : مرجع سابق ص ١٩ .

(٢) جمال الدين الأسد آبادي : ميرزا لطف الله خان ص ١١ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من عمره ثم سافر الى الهند فأقام بها سنة تعلم في خلالها شيئاً من العلوم الاوروبية واساليبها[١] .

وعرض له وهو في الهند ان يؤدي فريضة الحج فاتجه الى مكة المكرمة وقضى نحو سنة يتنقل في البلاد ويتعرف احوالها وعادات اهلها حتى وافى الى مكة المكرمة سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٧ م وأدّى الفريضة[٢] ثم عاد الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان وبعد وفاته تنازع اولاده في الامارة فانضم جمال الدين الى محمد اعظم الذي احله محل الوزير الاول ولكن النصر كان في النهاية حليف شير علي . لتأييد الانكليز له فهرب محمد اعظم الى ايران وبقي جمال الدين في افغانستان لم يمسسه الامير بسوء الا انه خشي الانتقام منه فاستأذن للحج فأذن له فرحل الى الهند سنة ١٢٨٥ هـ ١٨٦٩ م[٣] .

رحــلاتــه :

في الهنـــــد :

كان يريد من رحلته الى الهند الاقامة بها من غير ظهور وبكل بساطة وقد كانت الهند تحت الاستعمار البريطاني فكانت دهشته عظيمة عندما رأى الحكومة الهندية تستقبله على الحدود استقبالا رسميا ليس له مبرر[٤] ولكنهم لم يسمحوا له بالاقامة الطويلة في الهند فمكث فيها نحو شهر ثم سيّرته على حسابها في احد مراكبها الى السويس (١٢٨٦ هـ - ١٨٧٠م) .

في مصـــــر

كانت تلك اول زيارة له الى مصر فأقام بها اربعين يوماً تردد فيها على

---

(١) العروة الوثقى : مصطفى عبد الرازق ص ١٩ .
(٢) جمال الدين الافغاني : عبد الرحمن الرافعي : ص ٦ .
(٣) خاطرات جمال الدين الافغاني . محمد المخزومي ص ٩ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠ .

الازهر واتصل به بعض طلبة العلم السوريين فقرأ لهم شرح كتاب الاظهار ثم سافر الى الاستانة سنة (١٢٨٧ هـ ١٨٧٠م) .

في الآستانـــة :

لما وصل الى الآستانة اقام بها مجهول المكان حتى اهتدى اليه بعض اكابر الوزراء فعينه عضوا في مجلس المعارف[١] وفي رمضان سنة ١٢٨٧ هـ القى خطاباً في دار الفنون في الحث على الصناعات شبه فيه المعيشة الانسانية ببدن حي وان كل صناعة بمنزلة عضو منه فشبه الملك بالمخ والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين وغير ذلك ثم قال : - « ولا حياة لجسم الا بروح وروح هذا الجسم اما النبوة واما الحكمة »[٢] مما اهاج عليه شيخ الاسلام حسن فهمي افندي وعدداً من العلماء والوعاظ في المساجد محتجين على جمال الدين بأنه جعل النبوة صنعة وانتهى الأمر بأن اشير على جمال الدين بالجلاء عن الآستانة ريثما تسكن الخواطر فسافر الى مصر في أول سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١م .

في مصـــــر :

وصل الى مصر فرحبت به الحكومة المصرية واجرت له راتباً شهرياً بلا عمل . وكانت اقامته في مصر هذه المرة حافلة بالانشطة العلمية والسياسية فالقى كثيراً من الدروس في الادب والمنطق والتوحيد والفلسفة وعلم التصوف واصول الفقه والفلك[٣] حتى ذاع صيته واتصل بكبار القوم وانخرط في الماسونية وكان له تأثير في سياسة البلاد وكتب في الصحف التي ساهم في انشائها تارة تحت اسم « مظهر بن وضاح » وباسمه الصريح تارة أخرى .

كانت سياسة البلاد الحالية آنذاك تحت الادارة البريطانية فكانت

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤٠ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٠ - ٣١ .
(٣) العروة الوثقى ص ٢١ .

مولاي — انت الحق وانت ابن الحق ما كان لا تحيد عن الرشد ولا تحيد عن

الرشد ولا تتهاون في فريضة العدل ولا تقصر في واجبات كمال النفس

وطهارتها وتصدع بالصدق وتقول الحق لا تأخذك فيه لومة لائم

ولا يلويك عنه هيبة ظالم ولا يصدك خشية غاشم ولا تميل [illegible]

خوفاً من الجائرين واسترضاءً للخائنين — وانت كنت تعلم

حقيقة مجلسنا واساس مبحثه وسبب فرع الفساد فيه ما كان

يخفى عليك شيء وكنت عارفاً بخفيات [illegible] بواقع امري [illegible]

على سريرتي وسري — فكيف صبرت مع كونك مجبولاً على الحق

مقصوراً على حمايته ان ينسب [illegible] الى عثمان باشا الصالح

ما نسب من الاكاذيب والافتعالات وقول افتراءً وكذباً

انه كنت رئيساً على مجمع قد وضع اساسه على فساد الدين والدنيا

حتى اذعن المجلد [illegible] الى قوله فامر بنفيي باستشنع صورة

— امثلك يهاب ان يقول الحق ويخشى ان يصدع بالصدق

— امثلك يكتم الشهادة — امثلك [illegible] يرى الظلم

ويتهاون في رفعه ويتقاصر في دفعه — حاشاك حاشاك

ما كنا نظن بك ذلك...

— ثم يا مولاي ارسلت (العارف) الى صاحب الدولة ساعياً ان

لقبض اموالي وكتبي التي بقيت ... فارجو رجاءً من يعتقد بك

امل بكل ان تعطف تنظر اليه بنظر عنايتك كما هو سجيتك

وعادتك — وانا الان في القنال اذهب الى لندن ومنها

الى باريس مسلماً عليكم سلام المشتاق اليكم

صورة رقم (١)

كتابات السيد قد اوغرت عليه صدر مستر فيفيان قنصل انجلترا واوغرت صدر توفيق باشا لاعتقاده ان كتابات السيد تؤدي الى زعزعة حكمه وبالاضافة الى هذا فقد كان السيد منبوذاً من علماء الأزهر الذين رأوا في تعليمه الفلسفة وبعض آرائه فسقاً فصدر الأمر بنفيه وجاء في القرار : « انه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا »[1] (انظر الصورة رقم « ١ ») وعند نزوله الى الباخرة اتاه قنصل ايران فعرض عليه بعض المال فرفضه ثم ابحر الى الهند واقام بحيدر آباد سنة (١٢٩٦ هـ - ١٨٧٩ م) .

في الهنـــد :

اقام في حيدر آباد عاما ألَّف خلاله رسالة في « الرد على الدهريين » بالفارسية ولما قامت الثورة العرابية في مصر نقل من حيدر آباد الى كلكتا لاعتقاد الحكومة الانجليزيـة ان له فيها يدا ثم ابيح له ان يسافر الى حيث شاء فسافر الى لوندرا « لندن » فأقام بها اياماً ثم سافر الى باريز سنة (١٣٠٠ هـ - ١٨٨٣م .

في بـــاريس :

اقام في باريس ما يزيد عن ثلاث سنوات عهدت جمعية العروة الوثقى له فيها ان ينشىء جريدة « العروة الوثقى » فاستدعى الامام محمد عبده الذي كان منفياً في سوريا فاصدرا الجريدة وكان جمال الدين مديراً لسياستها ومحمد عبده رئيسا لتحريرها سنة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٤م ولكن الجريدة لم تلبث الا سبعة اشهر وايام لمحاربة الاستعمار البريطاني لها ثم توقفت وعاد محمد عبده الى سوريا ثم الى مصر معتزلاً السياسة ومكث السيد في باريس متردداً بينها وبين لندن والتقى في باريس بالفيلسوف الأوربي رينان ثم دعاه ناصر الدين شاه ايران الى طهران فاتجه اليها سنة ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٧م .

---

(١) جمال الدين الافغاني عبد الرحمن الرافعي ص ٤٦ .

في ايـــران :

وفوض اليه الشاه نظارة الحربية ، وتزاحم حوله الأمراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نظم كثير منهم في سلك الماسونية[١] . لكن الشاه ناصر الدين اوجس منه خيفة وداخله ريب من حركاته ونشاطه فادرك السيد ما في نفسه فاستأذن في السفر الى روسيا فأذن له سنة ١٨٨٧م .

في روسيــــا :

كان له في روسيا نشاط صحفي نشر كثيراً من المقالات عبر الصحف الروسية واجتمع في بطرسبرج « لنجراد » بكبار العلماء والسياسيين وقد مكن له نقده لسياسة الانجليز مكانة في روسيا حتى ان القيصر دعاه الى قصره وتحادث معه طويلاً فرابه منه ما راب ناصر الدين شاه فأوعز الى موظفيه بطرده فاتجه الى باريس سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩م .

في ميـونـــخ :

وفي طريقه الى باريس التقى في ميونخ عاصمة بافاريا « المانيا » بالشاه ناصر الدين الذي طلب منه العودة الى ايران فاعتذر بذهابه الى معرض باريس فالح عليه الشاه فذهب معه[٢] سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩م .

في ايـــران :

لما وصل الى ايران عاد الناس الى الاجتماع به وتلقي مبادئه وافكاره وعهد اليه الشاه ان يسن ما يراه موافقاً لروح العصر من القوانين فلما اطلع عليها الشاه بعد ذلك رأى ان حكمه سيكون مقيداً[٣] فعاودته الشكوك والظنون في جمال الدين الذي شعر بهذا فاستأذن بالذهاب الى شاه عبد العظيم قرب

---

(١) العروة الوثقى ص ٢٥ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٥٥ .

(٣) خاطرات جمال الدين الافغاني . محمد المخزومي ص ٣١ .

طهران فأذن له فتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء فخاف الشاه عاقبة ذلك فنفاه الى خارج الحدود الى البصرة سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١م .

في البصـــرة :

اقام فيها سبعة اشهر والى الكتابة فيها الى انصاره في فارس واثار فيهم الحمية لخلع الشاه ناصر الدين غادر بعدها البصرة الى لندره (لندن) سنة ١٣٠٩ هـ - ١٨٩٢م .

في لنـــدن :

اقام فيها ثمانية اشهر موجهاً همته الى محاربة الشاه ناصر الدين . وكان من المؤسسين لمجلة « ضياء الخافقين » وسلمه سفير نركيا في لوندرا كتابا من السلطان عبد الحميد يدعوه الى الآستانة فسافر اليها سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م .

الى الآستـــانـــة :

وكانت المحطة الاخيرة في رحلاته هي الآستانة ولقي فيها كل ترحيب وتكريم الا أنه منع من مغادرتها واجرى له فيها السلطان راتباً شهرياً الى ان توفي سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧م .

نشاطه العلمـي :

يعد من المميزات للسيد جمال الدين الافغاني انه احدث نهضتين اجتماعيتين :-

نهضة اجتماعية علمية ونهضة سياسية[1] . وكان الغالب على نشاطه الثانية منهما ولم يقم احد من تلاميذه من بعده بالامرين . بل انشطروا الى

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٧٤ .

شطرين ذهبت طائفة الى الاخذ بالنهضة العلمية ويقف على قمة هذا الفريق الامام محمد عبده . وذهبت طائفة اخرى الى الاخذ بارائه السياسية وعلى رأسهم مصطفى كامل وفريد ثم سعد زغلول[1] وغيرهم .

وبدأ السيد نشاطه العلمي ـ كما ذكرنا ـ في افغانستان وواصل دراسته في الهند . هذا من ناحية التلقي أما من ناحية التعليم فقد بدأ اول ما بدأ في الهند عند خروجه في المرة الثانية حيث القى بعض الدروس ولم تكن تلك الفترة من الكفاية بحيث يظهر اثرها واضحا اذ لم يلبث سوى شهرٍ واحدٍ غادر بعدها الى مصر حيث وفد عليه بعض طلبة العلم في الازهر من السوريين فشرح لهم كتاب الاظهار وهو كتاب في النحو وكانت تلك الفترة كسابقتها حيث غادر الى الآستانة ثم عاد الى مصر مرة ثانية حيث ازداد نشاطه العلميَ وبلغ اوجه فبدأ التدريس في الازهر وقد كان يلقي فيه من الدروس ما احفظ عليه بعض علماء الازهر فناظره احدهم مناظرة افضت الى المنافرة فترك الازهر وانقطع للتدريس في منزله[2] فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم اصول الفقه الاسلامي[3] وقد وصف الامام محمد عبده منزلة جمال الدين من العلم فقال : ـ

« اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي الا بنوع من الاشارة اليها لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . . . » ثم يقول : ـ

« وله لسن في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيهما احد »[4] .

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث احمد امين ص ١١٥ ـ ١١٦ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤٠ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢ .
(٤) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٣٤ .

ثم سافر بعد مصر الى الهند وكان له فيها حلقة للتدريس لكنها لا تماثل حلقته في مصر واشتغل فيها بالتأليف عن التدريس .

مؤلفـــاتـــه :

لم يكن للسيد اهتمام كبير في التأليف بل كان همه ان يلقي كلماته وخطبه على تلاميذه القاءً فيبادر بعضهم الى تسجيلها وتدوينها بل ذكر بعض تلاميذه انه : ـ « قضى ولم يدون الا رسالة في ابطال مذهب الدهريين »[1] وقال عنه اديب بك اسحاق « ولكنه لم يتم عملا ولا الف كتابا غير تلك الرسالة »[2] والحقيقة انه دون غير رسالته « الرد على الدهريين » التي الفها بالفارسية في حيدر آباد . فقد دون رسالة صغيرة له اسماها « تتمة البيان في تاريخ الافغان » وقد طبعت في مصر وما عدا هاتين الرسالتين فمقالات نشرها في الصحف والمجلات طبع بعضها مستقلاً وكان لاشتراك الامام محمد عبده معه في مجلة « العروة الوثقى » وعدم تسمية صاحب كل مقال فيها كان له اثر كبير في الخلط في نسبته الى صاحبه فبحث « التعصب » نشر باسم الامام مع انه من إنشاء جمال الدين وهناك كتاب اكثر شهرة اعني « الاسلام دين العلم والمدنية » من بين فصوله « الاسلام والنصرانية » وهو من تأليف الافغاني[3] وقد ضم المخزومي في الخاطرات هذين المقالين الى خاطرات جمال الدين الذي دون فيه المخزومي اراء وافكار الافغاني وقد طبع طباعة مستقلة بعض مقالاته مثل الوحدة الاسلامية والقضاء والقدر اما اذا رمت الاطلاع على معظم ما كتبه فعليك بـ « خاطرات جمال الدين الافغاني » لتلميذه محمد المخزومي و « الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني » لمحمد عمارة و « العروة الوثقى » وانما قلت معظم ما كتبه لان هناك من كتاباته في بعض المجلات ما لم يدون اذكر مثالاً لذلك ما كتبه في الصحف الروسية .

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني محمد المخزومي ص ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .
(٣) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني جمع محمد عمارة ص ١١٨ ـ ١١٩ .

تفسيـــره :

قلنا ان الغالب على نشاط السيد الافغاني هو النشاط السياسي وأنه انما يتناول ما يتناول من العلم في دروسه ما يدفع به عجلة السياسة خطوة نحو اغراضه واهدافه وقد تعرض له في اثناء حديثه آية قرآنية يستشهد بها لتقوية رأيه ثم يذهب في تفسيرها تفسيراً يقتصر فيه على الجانب الذي يتكلم فيه من غير استقصاء لمعانيها .

ومن ثم فلم يكن له تفسير مستقل وانما كان تفسيره آية هنا وآية هناك بين ثنايا مقالاته .

ويقلل السيد جمال الدين من شأن ما تراكم على القرآن الكريم وتجمع حوله من آراء المفسرين وما استنبطوه من احكام فيقول « القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاية أما ما تراكم عليه وتجمع حوله من اراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم فينبغي ان لا نعول عليه كوحي وانما نستأنس به كرأي . . » ويحذر من اضاعة الوقت في عرض ذلك فيقول « ولا نحمله على اكفنا مع القرآن في الدعوة اليه وارشاد الامم الى تعاليمه لصعوبة ذلك وتعسره واضاعة الوقت في عرضه »[1] .

وهو لا يعني بهذا السنة المتواترة أو ما إجمع عليه العلماء حيث يقول « فالتواتر والاجماع واعمال النبي المتواترة الى اليوم هي السنة الصحيحة التي تدخل في مفهوم القرآن وحده والدعوة الى القرآن وحده »[2] .

وهو يدعو الى دراسة القرآن والكشف عن كنوزه المدفونة فيقول : -

« القرآن القرآن واني لآسف اذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون على الفقر المدقع »[3] ولكنه يتأسف على التعمق

(١) جمال الدين الافغاني عبد القادر المغربي ص ٦٢ - ٦٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .
(٣) خاطرات جمال الدين الافغاني محمد المخزومي ص ٩٩ .

في تفسير باء البسملة ومخرج صاد الصراط « وكيف لا اقول وا اسفاه ! واذا نهض احد لتفسير القرآن فلا اراده الا يهيم بباء البسملة ويغوص ! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والاخروية مع استكماله الامرين على اتم وجوههما »[1] ويرى ان القرآن بريء من مخالفة الحقائق العلمية الثابتة « فاذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ورجعنا الى التأويل »[2] .

وهو مع حثه على التفسير ودعوته الى تنقيحه مما علق به مقل فيه فلا يتناول من الآي الا ما قل ولا يفسره الا من جانب ما يؤ يد به قوله من غير بيان للجوانب الأخرى .

وقد صدر السيد جمال الدين سبع عشرة مقالة من خمس وعشرين مقالة في العروة الوثقى بآية أو آيتين من القرآن الكريم اعتقدها بعضهم شرحاً وتفسيراً وليس كذلك فقل ان يعرض في المقالة للآية المصدرة .

أما الآيات التي تناولها بنوع من التفسير فقليل جداً كما ذكرنا توجد بين ثنايا بعض مقالاته فمن ذلك قوله : ـ

« قرأت في القرآن أمراً تغلغلت في فهمه روحي وتنبهت اليه بكليتي وهو ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾[3] فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ولهذه المشيئة الربانية اذ علمت ان ذلك الخليفة سيكون الانسان وان ذلك الانسان ـ الخليفة ـ سيصدر منه موبقات وسيئات اعظمها واهمها انه « يَسْفِكُ الدِّمَاءَ « فقالت بملء الحرية المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الانوار والأرواح الذي لا يصح ان يكون هناك شيء من رياء

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٣) سورة البقرة من الآيتين : ٣٠ ، ٣١ .

ونفاق « أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ »[1] ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الانسان ولم تذكر باقي السيئات من اعماله اذ رأتها لغوا بالنسبة لهذين الوصمين الفساد وسفك الدماء » ثم يمضي في التفسير على هذا المنوال الى ان يقول « وبأبسط المعاني ان الله تعالى افهم الملائكة انكم علمتم ما في خليفتي في الأرض وهو الانسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء وجهلتم ما اعددته لصونه وصرفه عن الاتيان بالنقيصتين المذكورتين ألا وهو العلم فقال « وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَال انْبِئُونِي بِأَسْمَاء هٰؤُلاْءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْن »[1][2] .

ويفسر آيات اخرى فيقول « غضب سليمان عليه السلام على الهدهد اذ تفقده ولم يجده فلما حضر قال ﴿ جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[3] ـ غير ملفق ولا مشوب بكذب كما تفعل اكثر الجواسيس مع الملوك والحكام ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ دينهم ومعتقدهم ﴿وَجدتُّها وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ » ثم يقول بعد ذلك « فلما جاء الكتاب الى ملكة سبأ جمعت فوراً مجلس الأمة و﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُون ﴾ وبعد ان تداول مجلس الأمة ـ الوزراء اليوم مثلا ـ واستخرجوا احصاءً من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية اعلنوا الملكة وانبؤ وها انه في امكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة اذا هي وافقت على اعلان الحرب ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ، ثم يمضي بعد فيقول « فرد سليمان الهدية وتحفز لاخراج الملكة وقومها اذلة بالحرب واراد ان يريها ما لديه من القوى وما تسخـر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره ـ طيارات مثلاً ـ

---

(١) سورة البقرة من الآيتين ٣٠ ، ٣١ .
(٢) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٣) سورة النمل من الآية ٢٢ .

وسرعة نقل الاخبار والاشياء بأسرع من البرق ـ التلغـراف اللاسلكي مثلاً »[1] .

وكان يشـطـح في تفسيره فيفسر الربا المحرم في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ﴾[2] بـ « جواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير اضعافاً مضاعفة »[3] .

ويفسر « جَدّ » في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾[4] ان جَدّ معرب « كدّ » ومعناه العرش بالفارسية او الهندية[5] .

ويفسر ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [6] بأنه « قيّد من خاف ان لا يعدل «بالمرأة الواحدة»وترك لمن يخشى ان لا يعدل ـ حتى مع الواحدة ـ عدم الزواج وهذا ما يستنتجه العقل ما دام يحمله العاقل ويقول به الحق والعدل »[7] .

ويفسر الامور الغيبية من غير نص فيقول ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾[8] « أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي واذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم ـ لا شك تتبعثر اجزاء الارض لبعدها عن المركز وتنسف الجبال نسفاً وتتحول براكين

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٣٠ .
(٣) جمال الدين الافغاني محمود ابو رية ص ٩٨ .
(٤) سورة الجن من الآية الثالثة .
(٥) جمال الدين الافغاني عبد القادر المغربي ص ١١٠ .
(٦) سورة النساء من الآية الثالثة .
(٧) جمال الدين الافغاني محمود ابو رية ص ١٠٠ .
(٨) سورة الكهف من الآية ٤٧ .

هائلة وبالنتيجة تخرب الكرة الارضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله اعلم »[1] .

وقد وجدت من تفسيره غير ما ذكرت .

تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾[2] الآية في الخاطرات ص ١٢٢ .

وتفسيره لقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ما اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[3] في العروة الوثقى ص ١٢٩ .

وتفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[4] في العروة الوثقى في مقالته « سنن الله في الأمم » .

وانما اطلت في بيان تفسيره لأنه مرادنا منه ولأني لم اجد أحداً ممن أرخوا له أو كتبواعنه اشار الى تفسيره فضلاً عن جمعه وترتيبه له .

نشاطه السياسي :-

قلنا ان هذا النشاط هو الغالب على اعمال السيد الافغاني وقد كان مقصده السياسي الذي وجه اليه افكاره وأخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته هو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الامة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القويه فيعود للاسلام شأنه »[5] وقد كانت الوسيلة لتحقيق غاياته « الثورة السياسية لاتفاقها مع مزاجه وقد ظن انها

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني محمد المخزومي ص ١٠٤ .
(٢) سورة الانفال من الآية : ٤١ .
(٣) سورة الانفال من الآية : ٦٠ .
(٤) سورة الرعد من الآية : ١١ .
(٥) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤ .

اسرع الطرق للوصول الى ما يبتغيه »[1] .

وقد خالفه في الاسلوب ـ هذا ـ تلميذه محمد عبده الذي يرى ان الوسيلة هي اصلاح التعليم لا الثورة السياسية .

ومن اهم الآراء التي تنسب الى الافغاني وكان يدعو اليها : الدعوة الى الوحدة الاسلامية واقامة جامعة اسلامية تنضوي تحت لوائها دول العالم الاسلامي توحد كلمتها واهدافها : ـ

وانما قلت تنسب اليه لاني ارى في مقالاته ومقالات تلاميذه ما يدل على انه لا يريد الجامعة الاسلامية بل الجامعة الشرقية التي تجمع دول الشرق مسلمة وغير مسلمة ضد الاستعمار فهذا السيد رشيد رضا يعلق على كلمة لجمال الدين قائلا « هذا تنبيه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يفكر فيه أحد قبله »[2] ويقول في موضع آخر « وقد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الاسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالا هذه الشبهة ـ يعني الافغاني ومحمد عبده ـ بعبارة نشرت في العدد الثامن[3] » من العروة الوثقى ويقول عثمان امين « ان الجامعة التي كان ينشدها الافغاني ومحمد عبده في أواخر القرن الماضي ليست هي الجامعة الاسلامية كما توهم بعض الكتاب الغربيين وانما هي في صميمها « الجامعة الشرقية »[4] » .

وقد بدأ السيد الافغاني نشاطه السياسي في افغانستان حيث انضم الى محمد اعظم ضد شير علي على ما اشرنا اليه في أول الترجمة .

أما في مصر فقد وصلها الافغاني في عهد الخديو اسماعيل سنة

---

(١) جمال الدين الافغاني : محمود ابو ريه ص ٥٢ .

(٢) ١) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٤) عثمان امين : مقال (العروة الوثقى) مجلة العربي الكويتية عدد ٤٢ ص ٧٣

١٨٧١م وكان الحكم حينئذ ـ كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي ـ حكماً استبدادياً لا مجال فيه للحرية . حقاً إن اسماعيل انشأ سنة ١٨٦٦م مجلساً سمي مجلس شورى النواب ولكنه مجلس استشاري لا يملك سلطة »[١] .

فبدأ الافغاني أول ما بدأ ببث الوعي السياسي بين طلابه وكانوا يتناقلون ما يقول بينهم فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد واستحدثت أخرى فتنافس الكتاب وكثر ارباب الاقلام[٢]

ومنذ ذلك الحين طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية[٣] وقد بذل السيد جمال الدين كل ما في وسعه للقضاء على الخديو اسماعيل لاتفاقه مع ولي عهده توفيق باشا على الاصلاح اذا صار الامر اليه بل ووصل الأمر الى تدبير خطة لاغتياله لم تنفذ ـ كما يقول محمد عبده ـ لعدم وجود الشخص الذي يتكفل بذلك « واشار الى هذا بلنت في تاريخه السري لاحتلال انجلترا[٤] مصر[٥] واعترف بهذا الامام نفسه[٦]

وانتهى نشاط الافغاني السياسي في مصر بعد أن تنازل الخديو اسماعيل لتوفيق باشا الذي تنكر لجمال الدين وأمر بنفيه .

ثم ظهر نشاطه السياسي مرة اخرى في باريس التي انشأ فيها مجلة العروة الوثقى » فجعلها منبراً لمحاربة الاستعمار البريطاني بحماس شديد .

---

(١) جمال الدين الافغاني : عبد الرحمن الرافعي ص ٢١ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٣) تاريخ الاستاذ الامام : رشيد رضا الجزء الأول ص ٤٧ .
(٤) كتب على غلاف هذا التاريخ « راجعه ووافق على ما فيه الشيخ محمد عبده » .
(٥) التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر المستر بلنت وراجعه ووافق على ما فيه الشيخ محمد عبده . ص ٩٥ .
(٦) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

وفي الحقيقة انه لم يتضح لي مع هذا حقيقة علاقته بالانجليز فبينما كان يؤلب عليهم الناس في مصر حتى يقوموا بالثورة العرابية . . ويحرض مفتي ايران على تحريم الدخان لابطال احتكار الانجليز له في ايران تمهيداً لاحتلالها ويكتب في صحف روسيا وينشىء العروة الوثقى التي تحارب الانجليز اينما حلوا وتشنع عليهم وهو مع هذا يسرح في بلادهم ويمرح ويتردد بين لندره وباريز بل وينشىء في لندن مجلة « ضياء الخافقين » بالعربية والانكليزية فيحارب الانجليز في بلادهم وبلغتهم ومع هذا يسكت عنه الانجليز !! صحيح انهم ادوا الى تعطيل العروة الوثقى لكن صاحبها لا يجد مانعا من اللجوء الى سفير بريطانيا في الآستانة ليساعده على الخروج منها[١] ولا تجد انجلترا مانعا قبل ذلك من عرضها له لتوليه السلطة في السودان[٢] ويتساءل الدكتور محمد محمد حسين لماذا كانت عداوته الشديدة للاستعمار الانجليزي دون الفرنسي والهولندي فلم ترد في صحيفة العروة الوثقى اشارة للاستعمار الفرنسي للجزائر كما لم ترد فيها اشارة للاحتلال الهولندي لاندونيسيا ولم تشر الا اشارة عابرة لاحتلال الهند الصينية[٣] .

أما نشاطه السياسي في ايران فقد اشرنا في رحلاته الى بعضه ونذكر هنا مظاهر ثورته السياسية على ناصر الدين شاه بعد ان رفض قانونه ونفاه من ايران الى البصرة وقد تمثلت هذه المظاهر بـ : -

أ) كتابته الى مفتي ايران كتابا يثير فيه مشاعره ضد ناصر الدين شاه ويطلب منه بصفته مفتي البلاد ان يصدر تحريماً للدخان[٤] بسبب تعاقد الشاه

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٧٢ .

(٢) جمال الدين الافغاني محمود ابو ريه ص ٥٣ .

(٣) الاسلام والحضارة الغربية محمد محمد حسين دار الارشاد بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩م ص ٨٥ .

(٤) لا تنس ان السيد الافغاني كان مغرماً بالسيجار الانجليزي ولشدة ولعه به كان لا يركن الى أحد من خدمه في ابتياعه ، فيبتاعه هو بنفسه (خاطرات الافغاني ص ٤١) .

مع انجلترا لاحتكاره فحظى هذه الخطوة بالنجاح وتلغى الاتفاقية .

ب) ثم يكتب الافغاني بعد هذا الى علماء ايران مطالباً بخلع ناصر الدين شاه ولما لم ينجح بهذا .

جـ) نسب اليه بأدلة قوية تدبيره قتل ناصر الدين شاه .

نشاطه الصحفـــي :

كان السيد جمال الدين يكره الكتابة ويتثاقلها فلم يكن له عناية بالتأليف ووجه عنايته فيما يريد تدوينه الى الصحف فكانت معظم كتاباته في الصحف والمجلات فاذا رام انشاء مقالة القى على كاتب مثل ابراهيم اللقاني إلقاءً قل ما يراجعه ويصلحه[1] .

وقد كان للسيد جمال الدين نشاط كبير في انشاء عدد من الصحف في مصر وغيرها فكان اول عهده بالصحافة في مصر حيث كان له اليد الطولى في انشاء صحيفة (مصـر) الاسبوعية التي ظهرت سنة ١٨٧٧م وعهد بادارتها الى اديب اسحاق ثم اوعز الى اديب بنقلها من القاهرة الى الاسكندرية لتكون اقرب لاصطياد الاخبار ثم اوعز لاديب اسحاق وسليم نقاش بانشاء جريدة (التجارة) سنة ١٨٧٨م وساهم الافغاني بالكتابة في هاتين الصحيفتين باسمه الصريح تارة وباسم مظهر بـن وضاح تارة اخرى وامر تلاميذه بخدمة هاتين الصحيفتين قلماً وسعياً[2] .

ثم ساهم في انشاء صحيفة « مرآة الشرق » وقد تولاها سليم العنجوري فكانت هذه الصحف طوع اشارة الافغاني ولعل سليم العنجوري اراد ان يتخلص من هذا الاسار فعزله الافغاني واسندها الى ابراهيم اللقاني الذي اصارها طوع اشارة الافغاني[3] .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .
(٣) تاريخ الاستاذ الامام ص ٤٧ .

ثم انتقل نشاطه بعد نفيه من مصر الى فرنسا حيث انشأ هناك العروة الوثقى بتكليف من جمعية بهذا الاسم وهي جمعية ذات فروع في مصر والهند وغيرهما من اقطار الشرق[1] وتولى ادارة سياستها واسند تحريرها الى تلميذه محمد عبده وصدر اول عدد منها في يوم الخميس ١٥ جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس١٨٨٤م وتوقفت بعد صدورها بسبعة أشهر فصدر آخر اعدادها العدد الثامن عشر في ٢٦ ذي الحجة ١٣٠١ هـ الموافق ٢٦ اكتوبر ١٨٨٤ م بسبب محاصرة انجلترا لها ومنعها من دخول مصر والهند فنضبت مواردها فتوقفت .

وكانت له كتابات صحفية في جرائد موسكو تحتفظ مكتبة الدولة بالاتحاد السوفيتي المسماة « مكتبة لينين » بالصحف والمجلات التي صدرت ما بين سنة ١٩٠٥م و ١٩١٧م ونشرت المقالات والمذكرات والابحاث عن اقامة الافغاني في روسيا[2] .

وبعد سفره الى لوندره (لندن) سنة ١٣٠٩ هـ - ١٨٩٢م ساهم في انشاء صحيفة (ضياء الخافقين) وهي شهرية جعلها منبراً لحرب ناصر الدين شاه ايران .

نشاطه الماسوني :

ومن منا لا يعرف الماسونية صنيعة الصهيونية العالمية التي تسعى الى القضاء على الاديان تحت شعارات براقة (حرية ، مساواة ، اخاء) .

جاء في البروتوكول الثالث من بروتوكولات حكماء صهيون : - « ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً

---

(١) العروة الوثقى ص ٢٤ .
(٢) مجلة العربي الكويتية العدد ٢٢٦ ص ٢٤ .

لمبدأ الاخوة والمصلحة العامة للانسانية ، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية »[1] .

وفي البروتوكول الرابع « ان المحفل الماسوني المنتشر في كل انحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لاغراضنا . ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ـ ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيراً »[2] .

وفي البروتوكول التاسع « ان الكلمات التحررية لشعارنا الماسوني هي الحرية والمساواة والاخاء وسوف لا نبدل كلمات شعارنا ، بل نصوغها معبرة ببساطة عن فكره ، وسوف نقول (حق الحرية ، وواجب المساواة ، وفكرة الاخاء)وبها سنمسك الثور من قرنيه وحينئذ نكون قد دمرنا في حقيقة الامر كل القوى الحاكمة الا قوتنا ، وان تكن هذه القوى الحاكمة نظريا ما نزال قائمة »[3] .

وفي البروتوكول الخامس عشر « والى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه الى السلطة ، سنحاول أن ننشىء ونضاعف خلايا الماسونيين الاحرار في جميع انحاء العالم ، وسنجذب اليها كل من يصير أو من يكون معروفاً بأنه ذو روح عامة وهذه الخلايا ستكون الاماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار كما أنها ستكون أفضل مراكز الدعاية »[4] .

واذا كانت الماسونية صنيعة الصهيونية العالمية فان اهداف الصهيونية ـ ولا أخالها تخفى ـ هدم الاديان والسيطرة على العالم بأكمله والتحكم في سياسته واقتصاده وشعوبه وفق مصالح اليهودية العالمية وتسخير كل القوى

---

(١) الخطر اليهودي : بروتوكولات حكماء صهيون : محمد خليفة التونسي ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

وسلوك كل الطرق مهما كانت ملتوية .

ولا شك ان الماسونية احدى تلك السبل التي سلكوها الى هذا الهدف وجعلوها ذراً للرماد في العيون تحت شعار « حرية ، مساواة ، اخاء » وهي في الحقيقة « قيدية ، طبقية ، عداء » .

خدع كثير من الناس بهذا الشعار فدخلوها وما لبثوا ان ادركوا الغموض الذي يحيط بها فغادروها مسرعين .

الا ان السيد الافغاني قدم في ٢٢ ربيع الثاني ١٢٩٢ هـ طلباً للانضمام الى المحفل الماسوني هذا نصه :-

يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي[١] الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة باني ارجو من اخوان الصفا واستدعي من خلان الوفاء اعني ارباب المجمع المقدس الماسون الذي هو عن الخلل والزلل مصون ان يمنوا علي ويفضلوا الي بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبادخالي في سلك المنخرطين في ذلك المنتدى المفتخر ولكم الفضل .

ربيع الثاني يوم الخميس
٢٢ سنة ١٢٩٢ هـ
التوقيـــع

« انظر الصورة رقم ٢ »

ولم ينسحب من المحفل بل كان من الاعضاء البارزين ذوي النشاط فيه ولذا تم اختياره بعد سنوات ثلاث رئيسا للوج كوكب الشرق بتاريخ ٧ جنايو ١٨٧٨م بأغلبية الآراء ووجهت له دعوة بهذا التاريخ لاستلام القادوم بعد اتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي والحضور بالزي الرسمي الماسوني الاسود ورباط الرقبة والكفوف بيضاء « انظر الصورة رقم ٣ » .

ولم يكتف السيد الافغاني بهذا بل ازداد نشاطه في ميدان الماسونية

---

(١) نسبة الى كابل وهي عاصمة افغانستان فهو كابلي أو افغاني .

يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي

الذي مضى من عمره سبعة وثلثون سنة بأني أرجو من اخوان الصفا

واستدعي من خلان الوفا أعني ارباب المجمع المقدس الماسون

الذي هو عن الخلل والزلل مصون ان يمنوا علي ويتفضلوا الي

بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبادخالي في سلك المنخرطين

في ذلك المنتدى المفتخر ولكم الفضل

جمال الدين

صورة رقم (٢)

لوج كوكب الشرق
نمره
١٢٥٥

في القاهره بمصر ٧ جنايو ١٨٧٨
سنه ٥٨٧٨

الى الاخ جمال الدين محترم
انه لمعلوم لديكم بان في جلسة ٢٨ الماضي وباغلبية الارا صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج
لهذا العام ولذا قد هنيتكم وهني ذواتنا على هذا الحظ العظيم وعن امر الرئيس محترم الحالي
ادعوا خوتكم للحضور يوم الجمعه القادم ١١ الجاري الساعه عربي بعد الغروب الى محل هذا
اللوج لاجل اشتغالكم القادوم بعد اتمام ما يجب من التقرير الاعتيادي ثم تبصير يوم
الخميس ١٠ الجاري الساعه افرنكي في تقرير رئيس محترم لوج كونكورديه فانرها حضوركم
في اليوم المذكور للاشتراك في الاشتغال وفي الحالتين فلاتكم تكون سودا ورباط الرقبه
والكفوف بيضا واقبلوا منا العناق الاخوي :. كاتب سر
نقولا
شروج

صوره رقم (٣)

فاعتزل هذا المحفل الاسكتلندي وانشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنساوي وفي برهة وجيزة بلغ عدد اعضائه العاملين اكثر من ثلاثمائة »[١] .

ولم يزل يبذل جهوده في هذا الميدان حتى صدر الامر بنفيه في ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ٢٤ اغسطس ١٨٧٩م وجاء في القرار « انه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا »[٢] . وكتب الى بعض الشخصيات من غير أن يذكر اسما يستنجد بها مما حلّ به ويزعم أنه مظلوم فيما نسب اليه . « انظر الصورة رقم ١ » .

ونفي من بعده تلميذه واحد اعضاء محفله الشيخ محمد عبده ووجد في منزله كتاب الماسون بخط السيد الافغاني كما اعترف بهذا الشيخ نفسه في خطاب منه الى استاذه الافغاني (انظر الصورة رقم ١٦) .

ولم ينقطع نشاط السيد الافغاني الماسوني بعد نفيه من مصر فان التاريخ يحدثنا انه في « جمادي الأولى سنة ١٣٠٣[٣] سافر السيد الى البلاد الايرانية بدعوة من الشاه ناصر الدين فنال مكانة سامية وتزاحم حوله الامراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نظم كثير منهم في سلك الماسونية »[٤] .

وكان له نشاط ماسوني في فرنسا ايضاً حيث قدم طلباً للعضوية في اللوج باريس وتم قبوله (انظر الصورة رقم ٤ ، ٥) .

واذا ثبت بما لا يقبل الشك انتماء السيد الافغاني للماسونية ، وثبت ان الماسونية وليدة الصهيونية العالمية وسبيل من سبلها لتحقيق اهدافها في هدم الاديان والسيطرة على العالم فان الواجب تقصّي الحقائق في سيرة الرجل الافغاني والبحث عن حقيقة اهدافه .

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ٢٠ .

(٢) جمال الدين الافغاني : عبد الرحمن الرافعي ص ٤٦ . وانظر الصورة رقم /١ .

(٣) اي بعد نفيه من مصر بسبع سنوات تقريباً .

(٤) مصطفى عبد الرازق : المرجع السابق ص ٢٥ .

أما الزعم بأن الافغاني كان مخدوعاً بمبادىء الماسونية (الحرية ، المساواة ، الاخاء) ولم يعرف حقيقتها وصلتها بالصهيونية لان بروتوكولات حكماء صهيون لم تنشر الا بعد وفاته فانه زعم باطل .

ذلكم ان من الصحف من قامت بكشف حقيقة الماسونية آنذاك فقد تصدت جريدة البشير الجزويتية الصادرة في بيروت للماسونية ولم تغفل عن مهاجمتها وكشف اسرارها دواماً »[1] .

وقد تصدت لهذه الجريدة صحف مصرية ماسونية مثل « اللطائف » و « المقتطف » و « البيان » و « الفلاح » و « النصوح » و « المقطم » بردود كثيرة ودفاع عن الماسونية ومبادئها[2] مما يثبت وقوع مناقشات حادة في الصحف عن الماسونية وهذا يدعو الى التأكد من صحة أهدافها قبل الانضمام اليها من كل شخص فكيف بمن يريد الاصلاح وينتسب اليه .

فان زعموا ان السيد لم يقرأ هذه الصحف أو لم تصل اليه اعدادها سلمنا ـ جدلا ـ وقلنا صدر من الكتب سنة ١٨٩١ م أي قبل وفاة الافغاني بست سنوات كتاب الحقيقة الاسرائيلية وجاء فيه « الروح الماسونية هي نفسها الروح اليهودية لا اختلاف في معتقداتها الاساسية فآراؤهما متماثلة »[3] وقبل وفاة الافغاني باحدى وثلاثين سنة أي في سنة ١٨٦٦م صدر كتاب « السرالمكنون في شيعة الفرماسون أو ماهية الفرماسونية على ما يشهد به اهلها وتدل عليه قوانينها وتنبىء به اعمالها » صدر في بيروت وطبع كتاب مثله بالفرنسية في السنة ذاتها وهي لغة يجيدها الافغاني ، وفي سنة ١٨٨٥ م طبع كتاب « شيعة الماسونيين » بمطبعةالآباء المرسلين اليسوعيين .وفي سنتي ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م نشر كتاب « الادلة القاطعة على شرف الرهبانية اليسوعية

---

(١) الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزي : سامي عزيز ص ٣٠٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨ ـ ٣١٨ .
(٣) الماسونية احمد عبد الغفور عطار ص ٦٠ .

23 Rue de Provence

Paris 27 Mars 84

Monsieur et T∴ C∴ F∴

Vous avez fait dans le temps une demande d'affiliation à la resp∴ Log∴ le Libre Examen. On a immédiatement nommé une Commission pour vous visiter. Malheureusement par suite d'un événement imprévu cette commission n'a pu se réunir. On vient

صوره رقم (٤)

d'on vous nommer une
nouvelle dont je fais
partie
Vous voudriez donc
m'écrire si vous êtes
toujours dans les
mêmes intentions et
m'indiquer l'heure
à laquelle nous pourrions
vous visiter.
Agréez Monsieur & F∴
O∴ F∴ mes salutations
frat∴

G. Langgaesser

صورة رقم (٥)

وبيان كنه الشيعة الماسونية » في جزءين بمطبعة الآباء اليسوعيين[١] وفي سنة ١٨٨٥ م صدر كتاب شيعة المسونيين بلا الف بعد الميم هو مجموع المقالات التي نشرتها البشير عن الماسونية[٢] .

فان زعموا انه لم يقرأ هذا ولا ذاك سلمنا ـ جدلا ـ وقلنا اليس في وجود اعضاء في الماسونية يسعون لهدم اركان الدين وتشتيت الفضيلة ما يثير شكوكه في اهداف الماسونية فيحذرها فقد اعترف احد الماسونيين وهو جورجي زيدان بوجود هؤلاء الاعضاء في المحافل الماسونية حيث يقول « فقد اتهم رجال الدين الماسونية بالكفر وانها انما تسعى لهدم اركان الدين وتشتيت الفضيلة ، أما نحن فمع اجلالنا لهذه الجمعية عن هذه التهمة ومع يقيننا انها براء منها لا يسعنا الانكار أن بين اعضائها أفرادا قليلين ربما تصح عليهم تلك التهمة »[٣] .

فان زعموا ان هذا كله لا تقوم به حجة ولا يستقيم به برهان ـ سلمنا جدلا ـ وقلنا خذوا القاضية القاصمة .

أيّ شيء اراد الاستاذ محمد المخزومي تلميذ الافغاني ان يخفيه عنا حين قال« أما انخراط جمال الدين في الماسونية . . فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية »[٤] .

ثم ان اردتم ان نسير على منهج « من فمك ادينك » فانا فاعلون .

بعد دخول الافغاني الى المحفل الماسوني تغيّرت ثمّ لهجته في احاديثه واخذ يقرب منه العوام[٥] لأي شيء يفعل هذا ؟ أتظنون أنه فعل ذلك

---

(١) انظر كتاب السر المصون في شيعة الفرماسون للاب لويس شيخو ص ٢٠٢ .
(٢) الماسونية بلا قناع : ابو صادق ص ٢٣٤
(٣) الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزي : سامي عزيز ص ٣٠٨ عن تاريخ الماسونية : جورجي زيدان ص ٢٥١ ـ ٢٥٣ .
(٤) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ١٧ ـ ١٨ .
(٥) تاريخ الاستاذ الامام : رشيد رضا جـ ١ ص ٤٦ .

ليوضح لهم ما يجهلونه من امور دينهم ولينزع الخرافات والمعتقدات الزائفة من اذهانهم والبدع والمنكرات من افعالهم ؟ كلا ، انه يقربهم ليقول لهم « انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك والرعاة حتى اليوم وانتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون[1] لوطأة الغزاة الظالمين »[2] الى ان قال « تناوبتكم ايدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والاكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفة ، وانتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت »[3] .

فعّد السيد الافغاني الفتح الاسلامي لمصر دخول عرب ، وعدّ دخول العرب على حدّ تعبيره استعباداً واستبداداً وقرنه باستعباد اليونان والرومان والفرس والفرنسيس واستبدادهم ثم يسترسل في حديثه فيقول « انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم .. ان التشبه بالرشيد فلاح »[4]

اذن فهو لا يدعو عوام المسلمين الذين قربهم اليه بعد انضمامه الى الماسونية لا يدعوهم الى الدين الاسلامي اذ هو يشق جلودهم بمبضع نهمه ويهيض عظامهم باداة عسفه كاليونان والرومان والفرس والفرنسيس ، لا يدعوهم الى الدين الاسلامي وانما الى النظر الى اهرام مصر وهياكل

---

(١) تعنون : تخضعون .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤٦ ـ ٤٧ وزعماء الاصلاح في العصر الحديث : احمد امين ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

منفيس . . الخ وكلها آثار فرعونية شاهدة على جاهلية تعبد الاشخاص والكواكب من دون الله ، ولا شك ان دعوته الى النظر فيها دعوة الى الاقتداء بأصحابها .

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ٠٠ ان التشبه بالرشيد فلاح

اذن فهي دعوة الى نبذ الدين الاسلامي ـ كما افهمها ـ وهي جزء من اهداف الماسونية التي تحارب الاديان .

ثم ومما يزيد الأمر وضوحاً ان الرجل ذكر آثارا ميتة وجيفا منتنه ولم يذكر مصنع الرجال لكونه مأثرة اسلامية . اعني الجامع الازهر ما الداعي الى هذا التحامل ضد الاسلام ومآثره ؟ وهل لهذا ايضاً صلة بانتمائه الى الماسونية ؟!

وبعد . . فلعلي اطلت الحديث هنا في هذا الموضوع لأنه الميزان الدقيق الذي نزن به الرجل هنا ، ولأنه يكفي في بيان حقيقة الرجل أيّ رجل اثبات انتمائه الى الماسونية . .

فان كان فيما ذكرنا من أدلة ما يثبت انتماء الافغاني الى الماسونية وظهور أثرها في احاديثه واقواله فقد انجلت الحقيقة . . حقيقة الرجل . وان كانت لا تكفي لاثبات ذلك فانها ولا شك اصابع تشير الى الافغاني بالاتهام .

وفـــاته :

مكث جمال الدين في الآستانة زهاء اربعة اعوام حتى داهمه السرطان في فكه الاسفل وعملت له ثلاث عمليات جراحية بيد اشهر الاطباء ولم تنجح فمات في ٧ شوال ١٣١٤ هـ الموافق ٩ مارس ١٨٩٧م ودفن في نشان طاش في مقبره « شيخلر مزارلغي » اي مقبره المشائخ[١] وقال طبيبه الخاص ان شدة ولع جمال الدين بالسيجار الافرنجي وكثرة شربه للشاي وتناوله الطعام مالحا

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : جـ ١ ص ٩٢ .

كان من مسببات السرطان[1] » حتى قال بعض تلاميذه .

الملح والشاي والدخان اودت بروح شيخنا الافغاني[2]

ومن المؤسف ان يتحامل بعض المؤرخين[3] وينسب قتله الى الخليفة المسلم السلطان عبد الحميد ويصف السلطان بأنه اكبر طغاة الملوك في عهده مما لا مجال للرد عليه هنا ونكتفي بنقل كلمة لمستشرق فرنسي حيدر بامات حيث يقول « ولكن من القحمة كما يظهر ان يذهب كما صنع بعض مترجميه الى انه سمّ بأمر من السلطان فالرواية التي تعزو موته المفاجىء سنة ١٨٩٧م الى سرطان ظهر في الشفة السفلي فاستولى على جميع وجهه بالتدريج اقرب الى الحق كما يلوح وقد نقل جولد زيهر هذه الرواية فوكدها لنا الامير شكيب ارسلان الذي كان من تلاميذ جمال الدين وعاشره في السنين الاخيرة من حياته »[4]

بل ان ابن اخت جمال الدين يعترف ويقول « فلما رفضت الدولة العثمانية تسليم السيد يعني لايران لاتهامه بالاشتراك في قتل ناصر الدين شاه ـ اتفق سفير إيران ومندوبها فوق العادة الذي كان قد أوفد من ايران لهذه الغاية في سنة ١٣١٤ هـ على أن يَسِّمُوا ذلك السيد . . وقد حدث ذلك واستشهد جمال الدين »[5] .

ونزيد ـ ايضاً ـ لو كان للسلطان نية في قتله لسلمه لحكومة ايران التي اتهمته بالاشتراك في قتل ناصر الدين شاه فطلبته من تركيا مع اثنين من شركائه

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٣٩ ، ٤١ .

(٢) جمال الدين الافغاني عبد القادر المغربي ص ١٢١ .

(٣) منهم محمود ابو رية كتب فصلا كاملا في « المؤامرة الكبرى بالسيد جمال الدين ليصرعوه بالآستانة » .

(٤) مجالي الاسلام تأليف حيدر بامات ترجمة عادل زعيتر دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٦م ص ٤٩٩ .

(٥) جمال الدين الاسد آبادي : ميرزا لطف الله خان ص ١١٨ .

سلمتهما تركيا فأعدما ورفضت تسليم الافغاني.

حقيقته والمآخذ عليه

مما لا شك فيه ان حياة هذا الرجل مليئة بالاسرار ويحيطها الغموض[1] وتلتبس فيها الحقائق بالاكاذيب ومما يزيد الأمر سوءاً انه لم يؤرخ للرجل مؤرخ معتدل فاغلب من أرّخ له اما معجب به بالغ الاعجاب مبالغاً في الثناء عليه متجاوزاً عن كثير من اخطائه تكلّ عينه عن كل عيب فيه اعمته عين الرضا عن الحقيقة واما رجل حاقد كاره بالغ في قدحه وذمه يحمل منه كل شاردة وواردة ما لا تحتمله اعمته عين السخط عن الحقيقة .

وزاد بعض تلاميذه الامر سوءاً فأخفى بعض اعماله زاعماً ان الطريقة الماسونية لا تسمح بذكره[2] .

ويزيد الأمر حينما نعلم ان اكثر نشاطه كان سرياً[3] . ولكن مع هذا الغموض فإنا نجد في بعض افعاله واقواله مآخذ لا نراها الا خطيرة توجب اعادة النظر في تقويم بعض الرجال كما قال الدكتور محمد محمد حسين ونحن حين ندعو الى ذلك لا نريد ان ننقص من قدر احد ولكننا لا نريد ان تقوم في مجتمعنا اصنام جديدة معبودة لا ناس يزعمون انهم معصومون من كل خطأ »[4] .

وقد سبق لنا ان ذكرنا بعض هذه المآخذ في نشاطه الماسوني وفي تفسيره وفي الجامعة التي يدعو اليها وغير ذلك مما لا داعي لاعادته هنا .

وأول ما يصادفنا في حياته من غموض الاختلاف في أصله أهو ايراني أم افغاني وهو يذكر أنه أفغاني في كثير من أقواله ورسائله وأحياناً يسمى نفسه « الكابلي » أو « الحسيني » وكلها القاب يعرف بها الرجل ويشك في صحة

---

(١) العروة الوثقى ص ١٨ .

(٢) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ١٨ .

(٣) الاسلام والحضارة الغربية محمد محمد حسين ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

هذا كثير من المؤ رخين ويزيد الأمر شكا ان التاريخ لا يحدثنا عن عودته او محاولته الاتصال بأهله وعشيرته في افغانستان بعد خروجه منها بينما يذكر عودته المتكررة الى ايران ويذكر ان معظم من يتصل به في تركيا ايرانيون وقنصل ايران قدم له العون عند نفيه من مصر والذي يقوم بدور الترجمة له في العروة الوثقى ايراني . ونحن لا يهمنا معرفة اصله أايراني هو أم فغاني بقدر ما يهمنا معرفة الدافع له الى التنكر ولا يقنعنا وحدة القول بأنه انما تنكر حتى يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الايرانية لرعاياها في الخارج .

ومع انه كان يدعو الى تنقية الدين الاسلامي مما علق به من الخرافات كتقديس الاموات والتبرك بهم ونحو ذلك الا انا نراه يستغل هذه النقطة ابشع استغلال فيلجأ الى مقام عبد العظيم خوفاً من ناصر الدين شاه ويثير فيهم الحمية لهذا المعتقد الباطل بالانتقام من ناصر الدين شاه فيقول « وأما قصتي وما فعله هذا الكنود الظلوم معي فمما يفتت اكباد اهل الايمان ويقطع قلوب ذوي الايقان ويقضي بالدهشة على اهل الكفر وعباد الاوثان ان ذلك اللئيم امر بسجني وانا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام »[1] ويصف هذا المقام بأنه « حرم من دخله كان آمنا »[2] .

بل ويحاول ان يظهر بالقداسة امام العوام ولو كان بالكذب والخداع حكى عنه سعد زغلول انه ذكر لهم انه كان في سفينة خيف عليها الغرق فرأى في الركاب خوفاً فأكد لهم ان السفينة لن تغرق ثم قال « لو غرقت السفينة لم اجد منهم احد ا يكذبني وان سلمت ظهرت بالقداسة من اقرب سبيل »[3] .

ومن المآخذ عليه اتخاذه الاغتيال سبيلاً لتحقيق مآربه فقد قال مره في حديث له مع الاستاذ براون لا امل في الاصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رؤ وس

---

(١) نابغة الشرق السيد جمال الدين الافغاني سعيد الافغاني ص ٧٧ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٥٥ .

(٣) نابغة الشرق جمال الدين الافغاني ص ٩١ ـ ٩٢ وجمال الدين الافغاني عبد القادر المغربي ص ٥٠ ـ ٥١ .

وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه وكلاهما قتل بعد ذلك[1] وحينما طلب من السيد ان يكف عن مقاومة الشاه مقابل ما يشاء ويتمنى اجاب « لا اتمنى الا ان تزهق روح الشاه ويشق بطنه ويوضع في القبور » قال عبد القادر المغربي كل هذا سمعته من فم شيخنا الافغاني الذي كان يرويه بطلاقة لسان وتوقد جنان »[2] وقد أمر فعلا بالقتل حينما قال رضا آقاخان يوما انه حاضران يفدي نفسه لتخليص امته فقال له جمال الدين (ان كان كذلك فاذهب وافعل)[3] وأمر السيد رجاله الافغانيين أنهم إذا رأوا ميرزا في حيِّهم يقتلونه[4] ، وهذا ميرزا حسين خان دانش يصف زيارته لجمال الدين فيقول « وما ان قربت منه حتى وجدته محدقاً بنظره الى الارض يزرع البهو من أقصاه الى اقصاه يروح ويغدو غاضباً رافعاً صوته كالمجانين وهو يقول « لا نجاة إلا في القتل لا خلاص إلا في القتل لاسلامة الا في القتل » . . فاشتد عجبي لهذه الحالة الجنونية التي وجدته عليها . . . وعدت من حيث اتيت وتركته وشأنه وبعد إنقضاء ٢٥ يوماً أو شهر على ذلك وردت الاخبار من طهران باغتيال « ناصر الدين شاه » بمسدس « ميرزا رضا الكرماني »[5] بل ان قاتل ناصر الدين شاه قال عندما انفذ فيه خنجره : ـ خذها من يد جمال الدين[6] ولما بلغ الافغاني ذلك قال كلمات تدل على الاعجاب بالقاتل[7] وذكر محمد عبده ان الافغاني أمره بقتل الخديو اسماعيل[8] .

---

(١) الاسلام والتجديد في مصر تشارلز آدمز ترجمة عباس محمود لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ص ١٥ .

(٢) جمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ص ٤٩ .

(٣) من بحث للامير شكيب ارسلان في حاضر العالم الاسلامي لوثروب ستودارد جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(٤) جمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ص ٥٧ .

(٥) جمال الدين الاسد آبادي : ميرزا لطف الله خان ص ١٣٤ .

(٦) جمال الدين الافغاني : محمود ابو ريه ص ٣١ .

(٧) زعماء الاصلاح في العصر الحديث احمد امين ص ١١٢ .

(٨) التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر ص ٣٥٤ .

وعاب احمد امين على الافغاني هجاءه لناصر الدين شاه فقال « هذه زلة كبيرة من السيد دعاه اليها حدته وحبه للانتقام اذ كيف اجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية في بلاد اجنبية تتخذ من اقواله حجة للتدخل الذي طالما حاربه في العروة الوثقى وكيف استباح ان يفضح هذه العيوب ثم قارن بينه وبين مدحت باشا الذي نفاه عبد الحميد بلا مال ولا ثياب ولا اهل فلم ينطق بكلمة في ذم عبد الحميد بل تكلم الكلام الكثير في فضل الاتراك على اوروبة ثم قال الحق انها غلطة من غلطات السيد دعا اليها حدة مزاجه[١] .

وقد نسب اليه بعضهم القول بنظرية داروين والحق انه لم يقل بذلك بل رد عليها بما يبطلها[٢] مع تعاطفه على من ايدها وحمده لهم الجهر بمعتقدهم ولو خالف الجمهور[٣] .

ومما يؤخذ عليه كثرة لحنه ، ولا نعيب عليه اللحن بقدر ما نعيب عليه اباحته ذلك فقد قال في هجاء رجل « هذا رجل من نسل البقروت » فعابوا عليه استعمال بقروت فأجابهم ألا تقولون جبروت وملكوت ورهبوت فلماذا تمنعون عني قول بقروت فقالوا : ان بقروت لم ترد في كلام العرب فقال وهل تريدون مني ان انكر نفسي[٤] .

ومن احسن الردود على هذا قول الاب انستاس الكرملي « اجل اننا لا نريد ان نسير برأي اهل البادية في لغتنا لكننا نريد ان نسير على المناحي والمنازع التي تلقيناها من السلف جيلا بعد جيل واصلهم من البادية ولا نقبل ان ندخل في لغتنا مثل البقروت بحجة ان جمال الدين نطق بها »[٥] وقد عرف

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث احمد امين ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٢) انظر خاطرات جمال الدين الافغاني ص ١١٤ ـ ١١٨ .
(٣) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ١١٦ .
(٤) جمال الدين الافغاني : لعبد القادر المغربي ص ١١٠ .
(٥) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن الجزء العاشر ص ٦٢٦ .

من رأي السيد انه يجّوز استعمال الدخيل واللفظ الاعجمي ويقول اذا اردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم الا ان تلبسوها كوفية وعقالا فتصبح عربية وقد كنّى بالكوفية والعقال عن التعريب »[1] وكان يقول « كان المقصود في النحو ان يكون آلة فصيره جمود النحاة غاية »[2] .

ومما يثير الريبة والشكوك في الافغاني هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يحيط به ، سليم نقاش من نصارى الشام وهو ماسوني ووضع كتابا تبدو فيه اهداف الماسونية بارزة في عنوانه « مصر للمصريين » وهو يذكرنا بدعوة الافغاني للمصريين بالنظر ليس الى الآثار الاسلامية بل الى الآثار الفرعونية المصرية ، وفي هذا فصل لمصر عن المسلمين والاسلام .

واديب اسحاق من اكثر الدعاة الى الماسونية حماسا وقف نشاطه الصحفي على هذا وهو ايضاً من نصارى الشام انتظم في سلك الماسونية سنة ١٨٧٣م في محفل انشأه الماسون في بيروت ذلك العام ثم وقف نشاطه على الدعوة الى الماسونية في بعض الصحف ولم يكتف بهذا بل قام بطبع مقالاته تلك في كتاب ضخم[3] ومع هذا فقد كان الافغاني لآخر نسمة من حياته ـ كما يقول تلميذه المخزومي ـ عند ذكر اديب بك اسحاق يسترجع ويقول : كان طراز العرب وزهرة الادب ، قضى نحبه في شرخ الشبوبة وعنفوان الفتوة وترك لنا قلوباً آسفة وشجوناً فائضة انا لله وانا اليه راجعون »[4] .

ومع هذا ايضاً فقد اسند الأفغاني ادارة أول صحيفة أنشأها (مصـــر) الاسبوعية سنة ١٨٧٧م الى اديب اسحاق هذا ؟! ثم ساهم في انشاء جريدة (التجارة) وتولى رئاستها اديب اسحاق وسليم نقاش وكان الافغاني يساهم

(١) جمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ص ١٠٩ .
(٢) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ٢٧٨ .
(٣) الماسونية بلا قناع : ابو صادق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٤) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ٢٢ الهامش .

بالكتابة فيها ويوصي تلاميذه بخدمة هاتين الصحيفتين قلماً وسعياً[1] .

وهكذا نرى الافغاني يمكن النصارى من اجهزة الاعلام ويصرف النقود ويفتح المطابع ويحصل على الامتيازات ليسلمها لهم .

وكان من المحيطين به من النصارى جورج كوتجي وطبيبه الخاص هارون يهودي[2] . ولم يحضر وفاته الا كوتجي النصراني وهارون اليهودي وعند قدومه الى مصر يسكن في حارة اليهود[3] .

ومن المآخذ عليه صلته بالانجليز المريبة ورجال الانجليز ، وفي الحقيقة انه لم تتضح لي حقيقة علاقة الرجل بالإنجليز فهو معهم أحد رجلين لا محالة : اما عدو ساذج مغفل اتخذوه مطية لهم لتحقيق مآربهم ، واما صديق مخلص ذو مكر ودهاء .

وحسب ما نعرف من تاريخ الرجل فان أول صلة بينه وبين الانجليز حينما انضم الى محمد اعظم في افغانستان ضد شير علي وانتصر الثاني لتأييد الانجليز له ولم يجد الافغاني بدا من الهرب .

وفي مصر كان يؤلب عليهم الناس حتى يقوموا بالثورة العرابية ، وفي ايران يحرض مفتي ايران على تحريم الدخان لابطال احتكار الانجليز له في ايران تمهيداً لاحتلالها وفي باريس ينشىء مجلة العروة الوثقى التي تحارب الانجليز اينما حلوا وتشنع عليهم وهو مع هذا يسرح في بلادهم ويمرح ويتردد بين لندره وباريز ولا يلقى سوى الترحيب .

صحيح انهم أدّوا الى تعطيل العروة الوثقى لكن صاحبها لا يجد مانعا من اللجوء الى سفير بريطانيا في الآستانة ليساعده على الخروج منها[4] ولا

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٤٥ .

(٢) : الاسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٦٩ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٤٤ .

(٤) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٧٢ وحاضر العالم الاسلامي شكيب ارسلان جـ ٢ ص ٢٩٦ .

تجد انجلترا مانعاً قبل ذلك من عرضها له توليه السلطة في السودان[1] وقبل هذا وذاك لا يجد السيد الافغاني مانعاً من دخول المحفل الماسوني والاسكتلندي ولا يجدون هم انفسهم مانعاً من تعيينه رئيساً للمحفل .

ولا يجد مانعا من التعاون مع الانجليز ! ضدّ من ؟ ضدّ الخلافة الاسلامية ؟!! قال السلطان المهضوم عبد الحميد في مذكراته التي نشرت مؤخراً « وقعت في يدي خطة أعدّها في وزارة الخارجية الانجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وانجليزي يدعى بلند ، قالا فيها باقصاء الخلافة عن الأتراك واقترحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين »[2] .

لهذا فلا عجب ان يصفه السلطان عبد الحميد بقوله « كان رجل الانجليز ومن المحتمل جدا ان يكون الانجليز قد أعدّوا هذا الرجل لاختباري »[3] .

أما بلنت هذا الذي اشار اليه السلطان عبد الحميد فهو وزوجته من اصدقاء الافغاني الانجليز وهو وزوجته ذوي نشاط مريب في بلاد العرب ويكفي نشاطهما ريبة دعوتهما الى انشاء دولة عربية حليفة لانجلترا تصبح مقراً للخلافة الاسلامية ويكتب بلنت في ذلك كتابه المشهور المسمى « مستقبل الاسلام »[4] .

وصلة الافغاني ببلنت هذا وزوجته ايضاً صلة مريبة فهي التي تفاوض باسمه الحكومة البريطانية وتبدي رأيها له في بعض المسائل وتطلب منه توجيهاته بعد هذا (انظر الصورة رقم ٦) وتسعى لعقد الاجتماعات بينه وبين كبار الشخصيات حتى الايرانية منها فتنظم له لقاء مع مالكوم خان (انظر

---

(١) جمال الدين الافغاني : محمود ابو ريه ص ٥٣ .
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص ٦٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٨ .
(٤) الاسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٦٨ .

الى صديقنا العزيز حضرة السيد جمال الامين الحسيني حفظه الله

بعد السلام ان اخبركم من طرف قريني ان حصل مفاوضة في معنى ما تكلمنا عنه وبعض تحريرات والحكومة لا قبلت الاغراض تقدم اليها ولا إمتنعت قطعا اما في المكاتبة الاخيرة التي وردت الينا من طرف مستر غلادسطون قيل هكذا — انه من الممكن حصول إتفاق على ارسال مرسل الذي يعطى له ورقة امان حتى يذهب الى الخرطوم ويخبر المهدي بالتعليمات أمر بها اللورد وولسلي وانها كما يأتي "يجب عليه (اورد ولسلي) يبعث الى الحكومة في الحال ايا كان بلغه من المخروبات من طرف المهدي" — وانا على هذا ردّيت جوابا انني ساخبر حضرتكم بقولهم وانما حسب رائي لا بدّ ان يظهر لكم غير كافيا مع ذلك اظن ان الحكومة تريد مفاوضات في الصلح وانها تريد ايضا ان لا تكشف مرادها للناس — واذ حصل إتفاق على ارسال مرسل بدون المرسل من المعينة واردت اشاكل افكاركم على من احسن هل ابراهيم او عبده او غيرهم ودمتم في حفظه تعالى والسلام ختام

المحبة
الخلاصة
علما بلونيت

صوره رقم (٦)

Crabbet Park,
Threebridges,
Sussex.

الى صديقنا العزيز السيّد جمال الدين
الحسيني حفظه الله

بعد السلام وصل جواب من صديقكم
ملكوم خان ويقول فيه انه جدًا فرحان
على ملاقاتكم وان تفضلوا وتوجهوا
الى بيته غدًا يوم السبت ساعة ١١
وبيته 80 Holland Park
ونحن نسافر من هنا مع القطر في
الساعة ٨ غدًا ووصولنا في 10 James St
في الساعة (نحو) ١٠ والسلام

المحبة المخلصة
غانا بلونت

١٥ اوغوست ١٨٨٥

صوره رقم (٧)

الصورة رقم ٧) سفير ايران لدى جمع الدول الاوروبية وهو نصراني ذو ميول أوربية[١] ونفاوض باسمه بريطانيا في مسألة مصر ومسألة السودان وتكتب إليه بجواب الوزراء الانجليز (أنظر الصورة رقم ٨) .

ومن يقرأ بتمعن تأريخ بلنت وزوجته يدرك انهما يحاولان الظهور بمظهر التعاطف مع قضايا (العرب) حتى ضد الانجليز ولكن حقيقتهما انهما من رجال الانكليز واكبر هذا دعوتهما لفصل العرب عن الخلافة الاسلامية وانشاء دولة عربية حليفة لانجلترا تصبح مقراً للخلافة الاسلامية وفي هذا وحده ما يكشف حقيقتهما

فما علاقة الافغاني بهما وكيف يسمح لنفسه ان يتعاون مع الانجليز لهدم الاسلام والخلافة الاسلامية وهو يسعى بزعمه وزعم المخدوعين به الى الوحدة الاسلامية ؟!

ومن المآخذ على الافغاني تلك العبارات الخطيرة والألفاظ المنحرفة وهي وان كانت غير صادرة منه ولكنها من تلاميذه وموجهة اليه ولو لم يكن بها راضياً لردع تلاميذه عنها ولعرفوا كراهيته لذلك فارتدعوا ولكنه لم يفعل فلم يفعلوا .

فمن ذلك ما كتبه اليه تلميذه ابراهيم اللقاني :-

« لو أذن لي سيدي واستاذي وربّ روحي ومعدّل مزاجي ومقوم خلائقي ومحور خلقي ومحرر فطرتي » (انظر الصورة رقم ٩) .

ويكتب اليه السيد رشيد رضا مصلياً ومسلماً عليه بعد رسول الله وآله فيقول : ـ « الحمد لله على افضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

---

(١) يروى عنه مستر بلنت في تاريخه السري لاحتلال انجلترا مصر ص ٦٤ ـ ٦٥ قوله « ربما كان يهمكم ان تسمعوا حكاية دين اسس في فارس قبل مضي عدة سنين وقد كنت زعيمه في يوم من الأيام ويقول « وقد ادركت عبث الاجتهاد في تنظيم فارس على مثال اوربا فصممت على الباس مشروعي اللباس الذي يفهمه الناس هناك . لباس الدين » !!

الى حضرة صديقنا العزيز المحترم الفاضل
الامير جمال الدين الحسيني حفظه الله
بعد السلام هذا ترجمة جواب الوزراء
(مضمونه) انهم لا يقبلون امتيازبين
مسالة مصر ومسالة السودان فان
حسب ظنهم تُدلُّ وحدة المسالة على ان
يتعاسر عليهم المكاتبة مع مستر بلونت -
ومع ذلك اشاروا على عدم ورود
التماس اليوم او طلبة ورقة امان
من طرف احد من وكلاء المهدى للمرور
اليه بين عساكر الانكليزى بقصد تسليم
اليه رسالة - هذا وقيل ايضا أنهم
(الوزراء) لا يقولون وعسى [illegible] انهم
لا يعرفون اى جواب يردُّون لو بلغهم
الطلبة المذكورة آنفًا ويا صديقنا العزيز
ماذا ينبغي ان يُفعلَ في الامرِ ومنّي
ومن قرينتي الف الف سلام

٢٢ ابريل المحبة المخلصة
[١٨٨٥] عانا بلونت

صوره رقم (٨)

من بيروت في ١٢ مارس ١٨٨٤

لو أذن لي سيدي وأستاذي ورب روحي ومعدل مزاجي ومقوم خلقي ومكون خلقي ومحرر
فؤادي أن أبث اليه شكايتي منه أو لو يسمح لي الأدب وكان مكاني في مجلس مولاي رحيبا فأشفي
بعتبه ما ضاق به صدري ومن لي لو أذن لي به أو لو يسمح الأدب بلسان لا يتلعثم وذهن لا يتزعزع
وبنان يهوله المشتكى منه وجبروت المشتكى اليه وشدة باعث العتاب وجلال المعاتب عليه
أما والله لقد كان لعبارة سيدنا في كتابه الأخير الى تراب من التأثير ما كاد يخسف بي الأرض ويدكدك
علي السماء هولا واضطرابا ما كادت تسيل به نفسي ويجمد دمي فرقا وانزعاجا ما أوشك أن
يطير بمشاعري حيرة واندهاشا كان أشد في وفائنا وحز في فؤادنا لو علم شره وقبحه لرحمنا
من أن يرمانا به وخز ووددت لو أنه أسال ما أسال من دمي على قدمي سيدي لينظر ماذا يكتب في
أرقته من دلائل الوفاء وبراهين الولاء وخز لو أسأل السيد دية عليه فوق أن يأمر أبا تراب
فيسل القلم بشرح ذات الفؤاد عند ما يجهز الوخز عليه ليطلع على ما طواه من الولع والشغف بحبه
مربيه حفظ الله نعيمه وهو العليم الحكيم أني ما كتبت ولا أكتب الى جنابه الأقدس الا عن املاء فؤاد
هذه صفته وذلك شأنه ولا يأسف على ما عانا في تربيتنا وعلاج نفوسنا من المتاعب والأوصاب
اذ ليس الذي أصابني من شكه في وفائي الا كالذي أصابني مما أحسست بأن قد نزل به من
الأسف عند عروض هذا الشك به ويعين لدي أن أذهب قبل هذا الشك. دون أن يورث
مولاي أدنى أسف أو كدر . وليت شعري علام هذا كله وقد تلبث ظاهري وباطني وخبرت
سري وعلانيتي وفتشت جسمي وروحي وبحثت في غرائزي وملكاتي وجربت غيبتي وشهودي
فلم أجد الا ولاء ووفاء وشغفا ووجدا وطاعة وامتثالا واتباعا وانقيادا وميلا
وانجذابا وخضوعا وخشوعا وسجودا وركوعا كل ذلك للسيد وفي السيد وبالسيد والى السيد
ومن السيد وعلى السيد فلم ولماذا هذا الريب بنا وعدم الثقة في شكه فينا . أعلم أننا مصريونا
(واأسفاه على المصرية من بين الأمم) نعم نحن مصريون (وان يكن الوالد ابن بيته ظنا) ولكن ألم
نصاحب سيدنا عمرا ألم يربنا ولدانا ألم يعدنا خلقا جديدا بلى والله لقد كشف عن بصائرنا

صوره رقم (٩)

وجلا صدأ نفوسنا وغسل درن أرواحنا وطهر دنس طباعنا وأذهب رجس أخلاقنا ومهد لنا سبل الفضائل وسد دوننا أبواب الرذائل وأودعنا روحا هي بضعة من شخصه نوعه ولا امكان للشماع عن مصدع شرق أو غرب . فأي طبع للمصريين أو للمغاربة أو للمردة أو للشياطين لا يتحول بتلك التربية أم أي جبلة للبهائم أو للأنعام أو للوحوش لا تتغير بزمن العلاج أم أي نفس بشرية أو كلبية أو خنزيرية أو قردية تمادت مرارة الجفا بعدما ذاقت حلاوة التهذيب ولذا ترى السيد قدس سره يتمثل هنا احتجاجا علينا بقول القائل

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

فوالله لئن بلغت منا الخسة والدناءة والخبث مبلغا لا نهتدي معه إلى جادة لما ضللنا سبيل الحب ... أو نسانا ... فليتق الله فينا ويرحم نفوسنا إما بقتلها صبرا بسكين وفائها ولا يكرهها أن تطالبه بظلامتها فيما تنشد

تسأل عن الحب ما حادت وما عملت بأي ذنب وقال الله قد قتلت

فنحن جاهلون في أي زمان وأي مكان وعلى أي حال وأي شكل وأي وضع وأي هيئة وبأي اعتبار وأي حساب وأي نظر وبالجملة فنحن نحن والسلام

هذا محصل ما كنت أريد أن أجعله موضوع شكايتي وهو باعث عتابي ولم أشك ولم أعاتب رهبة وتأدبا وحسبي بعد السيد منصفا لي منه . أستغفر الله بل لأني سائر فوق أن يكشف لي عن وجه الشك لا تورب ما أرمني وما هو فيما أظن إلا ما وقع في مسامعه الشريف عن الشيخ محمد عبده فاعتقده صدقا ثم حمل سائر المصريين في ذلك حكما واحدا (وسرعان ما يصدقنا وسرعان ما يحكم) فإنه صدق ظني فها أنا عن إذن السيد أكشف عن كذب تلك الحكاية كما وعدت في الحاشية التي وضعتها على رسالتي التي حملها البريد إلى السيد منذ خمسة أيام

وذلك أن الدهر لما تنقل بنا إلى الرفعة والشأن على ما يسطره مولاي قبل هذا كان الشيخ محمد عبده قد صادف لدى رياض باشا قبولا وإعزازا خصوصا بعد أن علم أنه ثمرة من ثمار غرس سيدنا ومربينا فصار له وثوق به واعتماد عليه بل جعل له حظا من أمره ونهيه وحله وعقده مجد في القيام بمقتضى هذه المنزلة جدا أشغله عن الناس واضطره إلى الإقلال من زيارتهم فإنه أوقات فراغه كان يستغرقها مع الباشا في مصلحة ومنفعة فرمى لذلك بالكبر والتيه ثم إذا صدقه في خدمته جعله

صورة رقم (١٠)

جميل مع كونه ليفا ما له ولا ينفذ في اغراض الناس كجنون المسلمين فكأنه اذا احس احدا من ذلك

سوء او مكروه فما نسبوه له بقصد ان الشيخ محمد تعمده أذاهم وهو بريء مما نسبوه اليه ولا حضرة

لذلك منا له وهو ان سليم القماش اخذ عند اعانة فرانسا على تونس يروج سياستها ترويجا لم

تعمله جريدة فرانساوية تحرر حتى احفظ واوجب جميع المسلمين عليه وحقره الكثير منهم وهزأ به

وهو لا يبالي بل لم يزدد ذلك الا خبثا وعنادا ومع ذلك فالشيخ محمد لم يبال ملم بمقتضى قانون

المطبوعات من اول وهلة بل اخذ يكاتبه من عند نفسه بالنيابة وداوم يبذل له النصح فيها

نستطيع لهذا الامر خشية ان يضطر الى اجراء حكم القانون عليه ويذكره بما نعهد من خلقنا وما تأنسنا

عليه من وهن المشرب والنفور من التحزب وبغيه فلم يرعو ولم يرتدع حتى وقف وهو رياض بها

ذات يوم على جريدته ولهاله ما رأى فيها فاستدعى الشيخ محمد عبده ووبخه على اغماضه عنها ولقنه

بانذارها على الفور ثم قتل سليم تقاش بعد تلقيه الانذار ان هذا الانذار بتحريض الشيخ محمد

واخذ منه غيظا وشاركه سعيد البستاني في تغيظه لعنادة وجهله فاخذ هذان الشخصان يقعان

في حق هذا المسكين وينفثان عليه القبائح والمساوي كذبا واختلاقا وقد كانت غاية سليم

القماش من مسعاه في جريدته على ما اظن ان يحصل على حماية فرانساوية كما صرح لنا بذلك وحيلهم

موضوع تتصل لدى الشيخ محمد اثر الانذار

واضف يا سيدي الى ما ظنه الناس في الشيخ محمد من الشيبة والى ما نسبوه اليه من تعمده أذاهم ما

جبلوا عليه من الحقد والحسد بسبب تقدمه تقدما جعل الصغير والكبير والعظيم والحقير يهابه ويخشاه [illegible]

ويتزلف اليه ويتملق له وليس الحسد ممن تقدم وتنقل في المنازل العالية تدريجا كالحسد ممن طفر اليها

طفرة واحدة بل هذا اقرب للغيظ وادعى في اشعال الاحقاد فجمع هذه الاسباب لم تدع

للشيخ محمد صديقا او حبيبا الا نفرين كانت تجمعهم حضرة الشيخ المسلمين مع ان تلك الاسباب لم

تسوءه الا لما ساء [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

صورة رقم (١١)

عليه السلام فيها بل يوصينا عن أن تأخذه الرأفة والرحمة على ما يحمل الأعداء [illegible] من
الأحباب فإنه أبان من القسوة والوحشية والرداءة ما لو عرف فيه أنه قدم إلى مجلس الشيخ
تماما وفي حق الشيخ محمد [illegible] عليه فيه جملة أمور منها أنه كان يغري الجنة بقتل [illegible]
والتهديد وما يدرينا لو أن [illegible] وحيا كانا يومئذ بمصر ماذا يكون صنعهما أيضا

ومن [illegible] أن أبا تراب عندما نزل بمصر لم نزل مسجونين ولم يجتمع الأسعد واضرابه فلم [illegible]
قلبه نفرة ووحشة من الشيخ محمد علما منهم بأنه [illegible] يسمع [illegible] فخاطره عن تلميذه
ونصحنا [illegible] أنهم أن [illegible] لا يجتمع [illegible] بالقلم وأن [illegible] مما استمر [illegible] أن يشق
لقوم يوما ما يجب هنا فينجلي ويتبين فتبيض وجوه وتسود وجوه

هذا أنا قد بسطت لمولاي حقيقة الواقع تخلصا من إثم الإنكار عليه ووفاء بحقوق الأخوة التي بيني
وبين الشيخ محمد والأولاد لم يصل إلى الآن من جميع [illegible] أحد [illegible] عليه في حياته [illegible] من
الشكر في وفاة [illegible] وأطلب إن شاء الله [illegible] من قبل سيدنا ما يشرح [illegible] خاطره
[illegible] علينا [illegible] قبرنا ولكن [illegible] منهم [illegible] الأرضى من سيدي [illegible]
يستسمحني ويصالحني ويسترضيني ويستعطفني والولد [illegible] تعلمون [illegible]
[illegible] يقول [illegible] وصل [illegible] ذلك أو لو

طول الحديث في هذا المقام لم يبرح في [illegible] حال [illegible] وأخلاق أهلها [illegible]
لو [illegible] من أكرم المسلمين فلو وجه إليه في وقت آخر خاتما حديثي مع السيد [illegible] وقدميه

عزيز [illegible]
[illegible]

[illegible] على ذلك
[illegible]
[illegible]

[illegible]

صوره رقم (١٢١)

وعلى سيدي بل السيد المطلق ، ذي القدح المعلى والجواد المصلى الاسبق ، سدرة منتهى العرفان ، وجنة مأوى المحاسن والاحسان الذي له في كل جوّ متنفس ، ومن كل نار مقتبس ، الامام المفرد والعقل المجرد « الى ان قال » مهبط الفيض مصعد الكلم الطيب مجلى سر الجمال الاكمل »[1] .

ويكتب اليه الاستاذ الامام محمد عبده ما هو أشدّ وافظع واخطر على عقيدة المسلم (انظر الصور رقم ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ وسنذكره عند الحديث عن محمد عبده ـ ان شاء الله .

ومن المآخذ على الافغاني ان السلطان عبد الحميد استشاره في ارسال بعثة من آلعلماء لنشر الاسلام في اليابان حسب طلب امبراطور اليابان فأرجعه عن عزمه وقال له « ان العلماء نفروا المسلمين من الاسلام فأجدر ان ينفروا الكافرين »[2] .

ومنها تعليله عدم زواجه بخشيته عدم العدل ، ومنها قسمه الذي يقسم به وعز الحقّ وسرّ العدل ، ومنها انه يشرب « قليلاً من الكونياك »[3] .

ويطول بنا الحديث لو اردنا استقصاء ذلك ، ولعل فيما ذكرنا اشارة لمؤسس هذه المدرسة العقلية الحديثة والباعث لها وهو وان كان الغالب على نشاطه السياسة لا الدروس العلمية التي هي مرادنا لكنه هو الذي وجه الامام محمد عبده وتلاميذه الى هذه الطريقة واخذ بيدها اليه حتى سلكته وحمدت له ذلك واعترفت له .

أما امام هذه المدرسة واستاذها فهو الشيخ محمد عبده وهذه ترجمته .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسّيد محمد رشيد رضا جـ ص ٨٥ .

(٢) نابغة الشرق جمال الدين الافغاني : سعيد الافغاني ص ١١٦ وجمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ص ٣٢ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : السيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٤٩ .

ثانياً : محمّد عبده

لئن كان السيد جمال الدين الافغاني هو المؤسس لهذه المدرسة فان محمد عبده هو الذي اقام صروحها ودعا اليها ونشرها بين الناس فكان بحق هو صاحبها وهو استاذها وامامها الأول فكان له من الأثر فيها ما لم يكن لاستاذه السيد جمال الدين ولعل شهرة محمد عبده توجب علينا الاقتصار في ترجمته على بعض معالم حياته التي نستشف من ورائها اتجاهه الفكري ليس الا .

اسمه ونسبه :

هو محمد بن عبده بن حسن بن خير الله .

حدث عن نفسه فقال « كنت اسمع المزاحين من اهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان فسألت والدي عن ذلك فأخبرني ان نسبنا ينتهى الى جدّ تركماني جاء من بلاد التركمان »[1] وقال « أما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وانه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها »[1] .

مولده ونشأته :

ولد في حصة شبشير من قرى اقليم الغربية ونشأ في قرية « محلة نصر » تبعد عن دمنهور نحو خمسة عشر كيلومتراً .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٦ ,

ولد في أواخر سنة ١٢٦٥ هـ وتعلم القراءة في منزل والده بعد ان جاوز العاشرة ثم حفظ القرآن في سنتين انتقل بعدها الى المسجد الأحمدي بطنطا ليتعلم التجويد ومكث سنة ونصفاً ولم يفهم فيها شيئاً لرداءة طريقة التعليم فيها حسب قوله[1] عاد بعدها الى محلة نصر وتزوج سنة ١٢٨٢ هـ ثم الزمه والده الذهاب الى طنطا للتعلم فاستطاع الهرب في الطريق الى بلدة « كنيسة اورين » ولجأ الى أحد اخوال ابيه واسمه الشيخ درويش الذي حبب اليه العلم وطلبه بسبب طريقته في التدريس حتى صار طلب العلم وتحصيله أحبّ شيء الى نفسه . أقام عند الشيخ درويش ١٥ يوما انتقل بعدها الى طنطا خوفاً من والده الذي وجهه اليها للدراسة ثم انتقل الى الازهر في منتصف شوال ١٢٨٢ هـ فداوم على طلب العلم على شيوخه ويعود الى محلة نصر في آخر كل سنة ليتلقى الدروس من الشيخ درويش الذي يسأله ما درست المنطق ؟ ما درست الحساب ؟ ما درست شيئاً من مبادىء الهندسة ؟ وكان الاستاذ الامام يلتمس عند عودته الى القاهرة هذه العلوم عند من يعرفها الى ان جاء السيد جمال الدين الافغاني في شهر المحرم ١٢٨٧ فتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية ويدعو الناس الى التلقي عنه فقرأ على السيد الزوراء للدواني في التصوف وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم في المنطق والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق في الفلسفة وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول والجغميني وتذكرة الطوسي في الهيئة القديمة وكتاباً آخر في الهيئة الجديدة . .[2]

وظهر تأثير السيد على الاستاذ سريعاً فبدأ في الكتابة والتأليف واتفق مع بعض الطلاب على ان يقرأ لهم بعض الكتب في المنطق وعلم الكلام مما لم يكن يقرأ مثلها في الازهر فكثر سواد المجتمعين عليه . حتى اشتهر امره مما

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٢٠ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٦ .

احفظ عليه قلب الشيخ محمد عليش الذي بلغه ان محمد عبده يقرأ كتب المعتزلة والمتكلمين في الازهر ويرجح مذهبهم وكان الشيخ عليش ـ كما يقول العقاد ـ رجلا صالحا عفيفاً عن المطامع الدنيوية التي كانت تستهوي طلاب المظاهر من علماء عصره وكان مخلصاً صادق النية في كراهة البدع التي يخشى منها على الدين[١] وكبر عليه رحمه الله ان يقرأ احد مثل تلك الكتب في الازهر فأرسل الى محمد عبده وناقشه نقاشاً افضى الى نزاع وخصومه قيل انه ترك التدريس على اثرها في الازهر وقيل انه لم يتركه وانه كان يضع بجانبه عصاً وقال اذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا .

وعرض نفسه على لجنة الامتحان في الازهر لنيل شهادة العالمية في سنة ١٢٩٤ هـ فحصل عليها ولم يكن نيله لها بالمانع له من الاستمرار في طلب العلم فكان له في طلبه ثلاث مراحل[٢] :

الاولى : الطلب على طريقة الازهر المعروفة من مناقشة في عبارات المتون والشروح والحواشي والتقارير .

الثانية : ثم تحول عن تلك الطريقة الى طريقة السيد الافغاني الذي اطلقه من التقيد بعبارات المؤلفين وتعويده الحكم باليقين مع تطبيقه على حال المسلمين الحاضرة .

الثالثة : ثم اضاف الى هذا النظر في علوم الافرنج فقرأ مما ترجم من الكتب ثم تعلم الفرنسية وصار يقرأ بها .

المصلح المعلم :

عين بعد نيله الشهادة العالية مدرساً في دار العلوم للتاريخ وفي مدرسة الالسن الخديوية للعربية في اواخر سنة ١٢٩٥ هـ مع مداومته على التدريس

---

(١) الامام محمد عبده لعباس محمود العقاد ص ١٤٠ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام لرشيد رضا الجزء الأول ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

في الجامع الازهر فدرس في دار العلوم مقدمة ابن خلدون وكان غرضه من ذلك بث افكاره الاصلاحية في السياسة وفي المجتمع وفي التعليم عبر ذلك الدرس الذي يفتح له المصارع في الحديث عن تلك الامور من اوسع الابواب وكان يكلف تلاميذه بكتابة المقالات ليعودهم الاحساس بمشاركته في الاصلاح والنقد فتكون آرائه لديهم اكثر قبولا وتأثيراً الا انه لم يلبث طويلاً حتى عزل لصلته بالسيد جمال الدين الافغاني الذي صدر الامر بنفيه . عزل عن التدريس وأمر بالمقام في بلده لا يبرحه حتى صدر الامر بالعفو عنه سنة ١٢٨٧ هـ وعين رئيسا لتحرير الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » مما سنعرض له بعد وفي سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٢م حكم عليه بالنفي لاشتراكه في الثورة العرابية وتوجه الى الشام حيث مكث فيه مدة نفيه الا عشرة اشهر اقامها في باريس اصدر خلالها مع الافغاني جريدة العروة الوثقى عاد بعد توقفها الى الشام فبدأ درسه في منزله في بيروت في السيرة النبوية وقرأ في الجامع الكبير التفسير لا يلتزم كتاباً وانما يقرأ في المصحف ويفسر[1] ودعي في سنة ١٣٠٣ هـ الى التدريس في المدرسة السلطانية فلبى وكان له فيها اصلاحات متعددة فزاد في العلوم التوحيد ومعاملات الفقه والتاريخ والمنطق والمعاني والانشاء ووجد أن المختصرات في التوحيد لا تأتي على الغرض من افادة التلامذة والمطولات تعلو على افهامهم والمتوسطات الفت لغير زمانهم فأملى عليهم ما هو أمس بحالهم فكانت « رسالة التوحيد »[2] ونقل الى العربية رسالة « الرد على الدهريين » لاستاذه الافغاني وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذاني[3] .

كان هذا جزءاً من مساهمته في الحركة العلمية أما اهم اهدافه في الاصلاح التعليمي فتلخصها لنا اللائحتان اللتان قدمهما احداهما الى

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٣٩١ .

(٢) انظر رسالة التوحيد : محم عبده تصحيح محمد رشيد رضا ص ٢ .

(٣) العروة الوثقى ص ٣٢ .

الآستانة لاصلاح التعليم في سوريا والثانية الى اللورد كرومر لاصلاح التعليم في القاهرة بعد عودته من منفاه .

أما الأولى فقدمت في سنة ١٣٠٤ هـ إلى شيخ الاسلام في الأستانة قسم الناس فيها إلى طبقات ثلاث وعين لكل واحدة منها حدا من هذه الفنون فالطبقة الأولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي : -

اولاً : كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المتفق عليها عند اهل السنة مع الالمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى وبيان شبههم في معتقداتهم .

ثانياً : كتاب مختصر في الحلال والحرام والتنبيه على البدع المستحدثة .

ثالثاً : كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي ﷺ واصحابه وخلفائه ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين .

أما الطبقة الثانية : فهم طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير امر الرعية وحماتها من العسكريين واعضاء المحاكم ورؤسائها ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم فتوضع لهم الدروس كالآتي :

أولاً : كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق واصول النظر وشيء من آداب الجدل .

ثانياً : كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط .

ثالثاً : كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وابواب الفضائل والرذائل ببيان اكمل مما في البداية .

رابعاً : تاريخ ديني يحتوي على سيرة النبي ﷺ واصحابه والفتوحات الاسلامية والعثمانية .

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة العلماء من اهل الارشاد والتربية واقتصر هنا على ذكر الفنون دون التعرض لاعيان الكتب الا قليلاً على هذا الوجه :

اولاً : فن تفسير القرآن الكريم كتفسير الكشاف وتفسير القمي والنيسابوري ومن اخذ طريقهما .

ثانياً : فنون اللغة العربية .

ثالثاً : فن الحديث مع التوفيق بينه وبين القرآن باطراح الضعيف والتوفيق بينه وبين ما يوهم المخالفة من الصحيح .

رابعاً : فن الاخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام على نحو ما سلك الغزالي في الاحياء .

خامساً : فن اصول الفقه ونرى افضل كتاب لهذا المقصد الموفقات للشاطبي .

سادساً : فن التاريخ القديم والحديث .

سابعً : فن الاقناع والخطابة .

ثامناً : فن الكلام والنظر في العقائد .

وهذه الطبقة الاخيرة ينبغي ان تكون تحت نظر شيخ الاسلام وتكون ادارتها تحت عنايته في سلك خاص ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين ولا يعطى الطالب منها شهادة عالية الا بعد امتحان شديد في العلوم المتقدمة والبحث الكامل عن سيرته في احواله واعماله والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل[1] .

أما اصلاح التعليم في مصر فقد تمثل في اللائحة التي قدمها الى اللورد

---

(١) انظر تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا الجزء الثاني في المنشآت . من ص ٥٠٥ الى ص ٥١٩ .

كرومر ممثل الاحتلال البريطاني وبدأ تلك اللائحة ببيان اهمية الاصلاح وان حاجة الحاكم الى صلاح الناس ليست بأخف من حاجتهم الى صلاحه ويشبه الحاكم بالصانع والمحكومين بالآلة فهو كاتب مثلا وهم قلمه فلا يكتب القلم بلا كاتب ولا يكتب الكاتب بلا قلم ثم يحث المستعمر على اصلاح التعليم ويسهل له الأمر مبينا ان أهل مصر قوم سريعو التقليد اذكياء الاذهان اقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلته فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمناً مديداً ثم يبين ان الاصلاح في المدارس التي ليس عليها رقيب سوى اهل السلطة السياسية لا غير فلهم ان يأخذوا من الدين اصوله ويغرسوها في المدارس ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ولا يستعرضون لما زاد عنها ثم بين انهم لن يجدوا من يعارض من أهل الدين لانهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة .

المدارس الاميريـــة :

ثم تكلم عن المدارس الاميرية وانه ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة ثم بين رغبة الناس فيها زمن اسماعيل ليستريحوا من نفقة ابنائهم وان يتعلموا ما يؤهلهم للقيام بعمل من اعمال الحكومة . أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا في نفسه يحسن القيام بالاعمال التي تسند اليه فلم يخطر ببال المسلمين ولا من ولاهم امر التعليم .

المدارس الاجنبية :

أما المدارس الاجنبية على تنوعها فاختـلاف مذاهب المعلمين والمتعلمين يضعف اثر تلك المدارس من التربية العمومية فقليل من المصريين من يرغب في تعليم اولاده فيها مع مداومتهم على نصيحة اولادهم بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظاً لاعتقادهم . . مما يحدث الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الاخلاق وقد احدثت هذه المدارس النفرة في قلوب المسلمين .

الجامــع الأزهــر :

هو مدرسة دينية عامة يأتي الناس اليها اما رغبة في تعلم العلوم الدينية رجاء ثواب الآخرة واما طمعا في امتيازات لطلاب العلم فيه ومما يؤسف عليه انه لا نظام لها في دروسها ولا يبالي الاساتذة بحضور الطلاب أو غيابهم وفهمهم أو عدمه وصلاح اخلاقهم أم فسادها ويتعلمون طرقا من العقائد على منهج يبعد عن حقيقته اكثر مما يقرب منها ثم يتكلم عن اصلاح الازهر وانه لا بد ان يكون بالتدريج في تغير نظام الدروس وجعلها في البدء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها بوجوب الحضور للطلبة والا حرم من الامتياز وكل استاذ يسأل عن طلبته وتغير برنامج الدروس وزيادة اصناف من الكتب وتعديل نظام الامتحان النهائي وشروطه .

ثم تكلم عن الكتاتيب الأهلية وان اصلاحها بالتدرج في اصلاح الفقهاء المدرسين فيها ثم تكلم عن المكاتب الرسمية الابتدائية والمدارس التجهيزية والمدارس العالية بوجوب غرس مبدأ الصلاح في نفوس التلاميذ ليحسنوا استعمال ما تعلموا ثم يتحدث عن المعلمين والمربين ومدرسة دار العلوم وشروط الانتساب اليها وغاية انشائها وهي اعداد خريج الازهرلتدريس العلوم العربية والدينية ويستغرب امر نظار دار العلوم وجهلهم بالدين والعربية ويرى امكانية حلول دار العلوم هذه عن الجامع الازهر ولكن يلزم لذلك امور اثنا عشر ذهب يعددها كاصلاح البرنامج وحذف بعض العلوم وتغير طريقة تفسير القرآن واختيار المعلمين الصالحين وناظر للمدرسة وتحديد الدراسة فيها سنة للتدريب على التعليم ونحو ذلك . ثم انه يلزم كتب تؤلف جديداً ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها كان ذلك ايجازا لتلك اللائحة التي نبذها من كتبت له وراء ظهره ولم يوافق الخديو توفيق على تعيين صاحبها بعد عودته من سوريا مدرساً في دار العلوم بل أمر باقصائه عن التعليم فعين قاضياً في الريف[1] .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ من ص ٥٣٣ الى ص ٥٥٣ ,

واستمر بعد هذا في اصلاحه للازهر الذي كان يسميه بـ « الاصطبل » و « المارستان » و « المخروب »[1] ولم تتح له الفرصة للاصلاح الا بعد ان تولى عباس الثاني الخديوية سنة ١٨٩٢م الذي اراد مناهضة الاحتلال الذي استأثر بالحكم فقرب الزعماء والعلماء المصريين وكان من بينهم الاستاذ الامام محمد عبده فذكر له انهم تركوا له الازهر والاوقاف الاسلامية والمحاكم الشرعية وبصلاحها صلاح للبلاد وهي اقرب وسيلة للقضاء على الاحتلال[2] فاقتنع عباس بهذا واصدر مرسوماً يقضي بانشاء مجلس لادارة الازهر من اعضائه محمد عبده سنة ١٣١٢ هـ وأمرا بتعيين الشيخ حسونة شيخا للازهر سنة ١٣١٣ هـ بعد استقالة الشيخ الانبابي الذي يعارض هذا الاتجاه فبدأ في الاصلاح الحسي والمعنوي فأنار المسجد وعين طبيباً وفتح صيدلية للازهر وانشأ الميضأة الصحية وتجديد مبان صحية في الاروقة وحددت مدة الدراسة وامتحان سنوي لمن يرغب مع مكافأة مالية للناجحين واستبدال الكتب النافعة بالكتب الضارة ـ حسب قولهم ـ وجعل مدة دراسة المقاصد كالفقه والتفسير اطول من مدة الوسائل كالنحو والصرف وبزيادة علم الاخلاق والتاريخ وتقويم البلدان والرياضيات وغير ذلك كثير من الاصلاحات التي نفذ القليل منها وترك الكثير اذ لم يلبث ان تغير ظن عباس باشا بالاستاذ الامام أدّى الى خلاف فاستقال محمد عبده في محرم سنة ١٣٢٣ هـ وكان هذا آخر جهوده في اصلاح التعليم . فمات بعد ذلك بفترة قصيرة .

ومن الملاحظ اني استطردت في هذا الموضوع اذ هو المراد الاكبر الذي وجه اليه الاستاذ الامام همه وفكره إذ كان يرى ان النهضة الاسلامية لن تكون الا باصلاح التعليم وخالف استاذه الافغاني الذي يرى ان السبيل الى ذلك « الثورة السياسية » فكانت دعوة الأول علمية والثاني سياسية .

وقد كان للامام نشاط سياسي ايضاً نشير اليه .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤٩٥ .

(٢) المجددون في الاسلام عبد المتعال الصعيدي ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

المصلح السياسي :

كان من اهداف الامام الاصلاح السياسي للبلاد حيث يقول « وهناك امر آخر كنت من دعاته والناس جميعاً في عمى عنه وبعد عن تعقله ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية »[1] ثم يبين دعوته بقوله « ذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة »[1] ثم يبين حالها « وجهرنا بهذا القول »[1] وحال الدولة « والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه »[1] وحال الداعي « نعم انني لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة »[1] وزاد هذه الدعوة اشتعالا اتصال صاحبها بالأفغاني الذي زادها اتساعاً وعمقاً ولم يلبث الافغاني ان نفي من البلاد لهذا النشاط وعزل الامام عن عمله واجبر على الاقامة في بلده وبعد العفو عنه وعودته الى العمل كانت في البلاد حركة ضد الاحتلال يقودها عرابي كان من اسبابها نشاط الافغاني السابق نفى الامام ان يكون له بها صلة بل انه كان يحذرهم من هذا الأسلوب ويندد بزعمائها حتى أرسل اليه عرابي من يتهدده[2] ويعلل رشيد رضا رفض الامام للحركة مع دعوته للاصلاح السياسي انه كان يحاول ذلك برضا الامير وحكومته لا بالخروج عليه[3] ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الاسطول الانجليزي الاسكندرية انضم الشيخ محمد عبده الى العرابيين وبعد القضاء على الثورة العرابية حكم على الامام بالنفي ثلاث سنوات فاتجه الى الشام ثم غادرها بعد ذلك الى باريس حيث التقى هناك بالافغاني وأنشئآ جريدة العروة الوثقى التي كانت حربا على الاستعمار الانجليزي وكانت الافكار للافغاني والعبارة للامام[4] ثم توقفت الجريدة بعد فترة قصيرة واهتزت العلاقة بين الاستاذ

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١٤٩ .

(٤) جمال الدين الافغاني محمود ابو ريه ص ٤٣ وانظر تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٢٨٩ .

وتلميذه فقد كان الاستاذ يرى الاستمرار في الاصلاح عن طريق الثورة السياسية واكتفى محمد عبده بما حصل له من السياسة ورأى التحول الى أسلوب التربية والتعليم قائلاً لاستاذه « أرى ان نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض لا يعرفنا فيه احد نختار من اهله عشرة غلمان او اكثر من الأذكياء السليمي الفطرة فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم الى مقصدنا فاذا اتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين اخرى الا ولدينا مئة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ومن امثال هؤلاء يرجى الفلاح » فقال له السيد انما انت مثبط نحن قد شرعنا في العمل ولا بد من المضي فيه ما دمنا نرى له منفذاً[1] فكان الفراق . وعاد الامام الى الشام وازدادت العلاقة سوءاً بين الاستاذ وتلميذه حينما كتب الثاني الى الأول بعد استقراره في الآستانة كتاباً غفلاً من التوقيع وتلميحاً لبعض الاشخاص من غير ذكر اسمائهم فغضب السيد وكتب اليه يقول بعد الدعاء له بتثبيت الجأش « تكتب ولا تمضي وتعقد الألغـاز . . انك في آفاق مكفهرة . . وامامك الموت . . لا ينفعك الحذر من الأول ولا ينجيك الخوف من الثاني فلا تضيق على نفسك فكن فيلسوفاً يرى العالم العوبة ولا تكن صبياً هلوعاً . . قوى الله قلبك »[2] .

ولعل هذا آخر ما كان بينهما من تواصل[3] بل ويوضح لنا انقطاع الصلة بينهما انا لا نرى للامام كلمة في رثاء استاذه[4] .

ونهج الاستاذ الامام بعد عودته سبيل الاصلاح التعليمي وازدادت كراهته للسياسة شدة وغمز في طريقة استاذه بتخطئته اذكياء المسلمين الذين يريدون خدمة الاسلام من طريق السياسة[5] وبلغ كرهه للسياسة أوجه حين

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤١٦ ـ ٤١٧ .
(٢) المرجع السابق جـ ص ٨٩٧ .
(٣) زعماء الاصلاح في العصر الحديث احمد امين ص ١١٥ ـ ١١٦ .
(٤) جمال الدين الأفغاني عبد الرحمن الرافعي ص ١٣٢ .
(٥): تاريخ الاستاذ الامام ص ٤٢٥ الجزء الأول .

قال « اعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن او يعقل في السياسة ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس »[١] وليس بعد هذا كره للسياسة .

بقي ان نقول هنا انه ترك السياسة ولم تتركه بل استغلته واتخذته مطية لها وخادماً للانجليز من حيث يدري او من حيث لا يدري حيث يقول اللورد كرومر : « ان اهميته السياسية ترجع الى انه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين وانه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبي »[٢] .

المصلح الصحفـــي :

شارك الامام محمد عبده في الصحافة فبدأ الكتابة في الاهرام ثم كتب في التجارة وفي مصر بايماء من استاذه الافغاني[٣] الذي ساهم في انشائهما وكانتا مع غيرهما من المجلات كمرآة الشرق طوع اشارة الافغاني[٤] ثم وبعد نفي السيد والعفو عن الامام بعد عزله عن التدريس اسند اليه منصب التحرير لجريدة « الوقائع المصرية » وهي الجريدة الرسمية وقد ارادوا بهذا عزله عن الاصلاح والتعليم ولكنه قلب الموازين والمقاييس فجعلها منبراً لبث افكاره وآرائه بعد ان عين رئيساً للتحرير فاختار لها محررين مهرة ووضع لها لائحة انفذها رياض باشا وكان من احكامها ان جميع الادارات الحكومية مكلفة ان تكتب للجريدة بما عملت فأتمت وما شرعت فيه ولم تتمه وكذلك المحاكم

---

(١) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية محمد عبده ص ١١١ .

(٢) Modern Egypt, : Cromer p. 180.

(٣) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٤٥ .

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٧ .

وان للجريدة الحق في نقد الاعمال والمكتوبات الرسمية والمراقبة على الجرائد عامة والتحقيق فيما تنشره من نقد فان كان حقاً وجب عقاب المذنب وان كان كذباً انذر مدير الجريدة فاذا تكرر ثلاثاً فلها منع اصدارها البتة أو الى اجل ومن حقها ان يجعل فيها قسم غير رسمي ينشر فيه ما يرى نافعاً من المقالات الأدبية[1] فكان لها مكانة كبيرة في بث افكاره ووقعت الثورة العرابية ونفي الشيخ ، وانشأ مع الافغاني العروة الوثقى وكانت العبارة فيها كما قلنا سابقاً عبارته والفكرة فكرة الافغاني وكانت لها مكانة في الكفاح ضد الاستعمار الانجليزي .

وعاد الى سوريا وكان له مشاركة في الصحف السورية كجريدة « ثمرات الفنون » البيروتية وبعد عودته الى مصر استشاره تلميذه السيد رشيد رضا في اصدار مجلة فأذن له وشارك في انشائها واختار لها اسم « المنار » ووجه صاحبها الى بعض الأمور[2] وكانت تنشر دروسه واخباره وتفسيره للقرآن الكريم .

المصلح والتقريب بين الاديـان :

لا شك ان اليهودية العالمية « الصهيونية » لا تألوا جهدا في سبيل تثبيت اركانها وتوطيد قوائمها ولا تترك سبيلاً لتحقيق ذلك الا انتهجته .

ومهما كان من تناقض بين هذه المبادىء والمناهج فانها تلتقي في النهاية عند خدمة الصهيونية العالمية .

فليست الرأسمالية الا وليدة الصهيونية العالمية وليست نقيضتها الشيوعية الا وليدة افكارها ومبادئها وهما تلتقيان على خدمتها وترسيخ نفوذها مهما كان التناقض بينها ظاهراً .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٩ .

سعت الصهيونية الى القضاء على الاديان كافة فانشأت الماسونية وكانت لها محافل انجليزية وفرنسية وغيرها وكلها قد يبدو ظاهرها انها لا تخدم الا من تنتسب اليه اما الانجليز أو الفرنسيين مثلاً ولكنها في الحقيقة فوق هذا وذاك هي في خدمة الصهيونية العالمية .

ارادت الصهيونية ان تفتح طريقاً جديداً لتحقيق اهدافها حين ادركت ان بعض القوم قد ادركوا حقيقة الماسونية وسعيها للقضاء على الاديان فأرادت وحتى تكون اكثر قرباً للمتدينين ان يكون هذا الطريق طريقاً دينياً بحتاً فأمرت اتباعها ببث فكرة التقريب بين الاديان والقضاء على الفوارق الدينية حتى يكون الناس كلهم أمة واحدة .

وما تلكم الدعوة في حقيقتها الا تذويب للاديان وامتصاص لعدواتها لليهودية وحينما يتم التقريب بين الاديان فان العلمانية ـ حتما ـ هي النتيجة وحينئذ يسهل القضاء عليها لتزول الاديان كلها وتتحقق اهداف الماسونية من طريق جديد ـ بل اهداف الصهيونية .

غابت تلك الحقيقة عن اذهان كثير من المخدوعين بما ينتجه الغرب والمشدوهين بما يصدر منه من افكار ومبادىء ، أعماهم الاعجاب بالغرب عن التأمل فيما يبثه من افكاره واكتفوا منه بصبغته الظاهرة للعيان .

وكان من اولئك القوم المخدوعين رجال المدرسة العقلية الحديثة بزعامة استاذهم وامامهم محمد عبده فبعد ان توقفت العروة الوثقى وعاد الامام الى بيروت انشأ فيها جمعية سياسية دينية سرية هدفها التقريب بين الاديان الثلاثة (الاسلام والمسيحية واليهودية) واشترك معه في تأسيسها ميرزا باقر ، وبيرزاده ، وعارف ابي تراب ، وجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت ، ثم انضم اليها مؤ يد الملك احد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية بالآستانة ، والقس اسحاق طيلر ، وجي دبليو لينتر ، وشمعون مويال ، وبعض الانكليز واليهـود وكان الامام صاحب الرأي الأول

في موضوعها ونظامها وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها[1] وهو ايراني تنصر وصار مبشراً نصرانياً وتسمى بميرزا يوحنا ثم عاد الى الاسلام .

ودعا أعضاؤها الى فكرتهم في صحفهم ورسائلهم ، وهذا الشيخ محمد عبده يكتب رسالة الى القس اسحاق طيلر يقول فيها « كتابي الى الملهم بالحق الناطق بالصدق حضرة القس المحترم اسحاق طيلر أيده الله في مقصده ووفاه المذخور من موعده» « الى ان قال « . . ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتهزم له ظلمات الغفلة فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الاخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الالفة ، فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها ارواح الملتين[2] « ويقول : ـ « وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة ، وصحفا متصادقة يدرسها ابناء الملتين ويوقرها ارباب الدينين فيتم نور الله في ارضه ويظهر دينه الحق على الدين كله »[2] ؟!!

بينما يردد الشيخ محمد عبده هذا القول وامثاله ينشر جي دبليولينتر مقال (الاسلام والمدارس المحمدية) في الديلي تلغراف اللندنية جاء فيه « واحسان المسلمين لمواليهم واشفاقهم على البهائم التي ترجع ايضاً الى الربّ وانفاقهم في سبيل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا اليهم من أن نصيح على النبي الكاذب »[3] وقال ايضاً « وان كنا نريد ان نلصق المسلمين بالدولة الانكليزية فيجب علينا ان نهب لهم الدين والدنيا »[3] وقال « ومن جملة المساعي التي أؤكد الشروع فيها أدخال الشبان المسلمين . . في مدارسنا الحربية »[3] . ويقول اسحاق

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد رشيد رضا جـ ١ ص ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢٨ .

(٢) الاعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : السيد محمد رشيد جـ ١ ص ٨٢٠ - ٨٢٢ .

طيلر « ان المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام . . فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ونسأل الله يهديهم وايانا الى الحق والى طريق مستقيم »[1] .

أيّ تقريب هذا ؟! الأول يضع نصب عينيه خدمة دولته الانكليزية فيصور حالة المسلمين كما فهمها ويرشدها الى الطف المداخل لالصاق المسلمين بها وينصحها بالمزاوجة بين الدين والدنيا في حكمها ويشير عليها بتدريب الشبان المسلمين في مدارسها الحربية ليكونوا اعوانا لهم في تحقيق مساعيهم .

• اين التوفيق والتقريب ؟! اللهم الا ان يكون اخضاع المسلمين للانكليز وايقاعهم في حبائلهم يعني توفيقاً[2] .

أما الثاني فيكشف عن مراده بالمسلمين « فهم عندنا مسيحيون » ويصلي لهم كل يوم أحد ويسأل الله لهم الهداية .

ولعل أول ثمرة يجنيها اولئك القوم في سعيهم الى التقريب بين الاديان القضاء على فكرة الجهاد في الاسلام فما دامت الاديان الثلاثة كلها حق وليس بينها من فرق فليس هناك من داع لحمل السيف واعلان الجهاد ضد النصارى مثلاً ، وهو الأمر الذي اقلق بريطانيا كثيراً وهي دولة نصرانية فسعت بشتى السبل للقضاء على هذه العقيدة الاسلامية فانشأت القاديانية التي حرمت قتال الانجليز والبهائية كذلك ، وأيدت حركة أحمد خان الذي اعلن ان قتال الانجليز كفر وان مساعدتهم واجبة .

ومن اثر هذه الدعوة ما نراه بارزاً في حديث رجال المدرسة العقلية الحديثة من تقليل شأن الجهاد في نشر الاسلام وانه قام على الدعوة باللسان « وعللوا كل حركة من حركاته بأنها للدفاع بمعناه الاصطلاحي الحاضر

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٢٦ .

(٢) الفكر الاسلامي المعاصر : غازي التوبة ص ٢١ .

الضيق »[1] فلقد زعم السيد رشيد رضا « ان حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعاً »[2] .

لذلك فلا عجب ان تؤيد انجلترا تلك الجمعية وذلك الاتجاه ما دام فيه تحقيق لهدف طال ما سعت اليه وبذلت فيه الغالي النفيس وهو ابطال الجهاد .

لن نحاسب رجال المدرسة العقلية بزعامة استاذهم بحقيقة عصرناالتي كشفت زيف هذه الدعوات في توحيد الاديان ففي الوقت الذي يدعو فيه بعض المسلمين الى التقريب بين الاسلام والنصرانية ويتنقلون بين باريس والفاتيكان تقوم بعض الدول النصرانية باشعال نار الحرب الصليبية العاشرة في لبنان ، لا للتقريب بين المسلمين والنصارى فيه بل لطرد المسلمين وانفراد النصارى به واقامة دولة نصرانية في لبنان كالدولة اليهودية في فلسطين ، ولا غرو ان تقوم الدولة اليهودية « اسرائيل » بمساعدة النصارى في ذلك وتمكينهم من قيام دولة لهم بجوارهم ففي ذلك تبرير لقيام اسرائيل اليهودية[3] أولا وحرب للاسلام ثانياً ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾[4] .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي : سيد قطب ص ١٨ .

(٢) الوحي المحمدي : للسيد محمد رشيد رضا ص ٢٧٢ .

(٣) كتب الاستاذ فريد ابو شهلا رئيس تحرير مجلة الجمهور اللبنانية في العدد ١٢٦٢ السنة ٤٣ بتاريخ ١٢ - ١٨ تموز ١٩٧٩م عن علاقة هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي السابق بالحرب اللبنانية فقال :

« والناس ما برحوا يرددون ان خطة تخريب لبنان وضعتها عبقرية « العزيز هنري » ريمون أده قال ذلك مراراً والرئيس السابق سليمان فرنجية قاله من على صفحات هذه المجلة وغيرهما عدد كبير من الزعماء اللبنانيين اشاروا باصبع الاتهام الى وزير الخارجية الامريكية السابق محملينه مسؤولية ما حصل ويحصل في لبنان منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥م متهمينه بتنفيذ مشروع تقسيم الشرق الاوسط الى دويلات طائفية صغيرة تشبه اسرائيل لتبرر في النتيجة قيام هذه الدولة اليهودية العنصرية » .

(٤) سورة البقرة الآية ١٢٠ .

ومع هذا تأبى طائفة منا ان تصدق بهذا وتحاول ان تخدع نفسها بتسميتها بحرب اهلية وما هي بأهلية ولكنها صليبية وليرحمك الله يا صلاح الدين . .

لن نحاسب الامام بهذه الحقيقة وحقائق غيرها كثيرة ولكننا نحاسبه بحقيقة الاسلام التي لا تخفى على مثله وعلى امثال تلاميذه .

جاور الرسول ﷺ يهود المدينة سنوات دعاهم فيها الى الاسلام ولم يدعهم الى التوفيق أو التقريب .

وحاجّ وفد من نجران الرسول ﷺ فدعاهم الى الاسلام ولم يدعهم الى التوفيق أو التقريب ، ولو علم خيراً أو بعض خير في ذلك لفعله(١) .

وكتب الى هرقل عظيم الروم « اما بعد . . فاني ادعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم اليريسيين و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢) (٣) .

وليست تلك الطريقة خاصة به ﷺ بل هي « دعاية الاسلام » ولم يدعه الى التقريب والتوفيق بل الى « اسلم تسلم » كان الاحرى بمحمد عبده ومن نحا نحوه ان يدعوهم الى الكلمة السواء امتثالاً لأمر القرآن ـ الذي حفظه في صغره ـ واقتداء بنبيه ﷺ وكان الاحرى بالنصارى حاملي هذه الفكرة كشف الحقيقة الاسلامية لقومهم بدلاً من تزييفها وطمسها عنهم وبدلاً من استغلال احوال المسلمين لتنصيرهم وافساد شبابهم .

---

(١) الفكر الاسلامي المعاصر : غازي التوبة : ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

(٣) اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين : شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي ص ١٢ .

نحاسبهم بقول محمد رشيد رضا الذي يرثي في جريدته « المنـــار » «خريستو غورس جباره » الذي وصل في الكنيسة الارثوذكسية الى رتبة الارشمندريت بقوله « كان الفقيد موحداً يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقرآن ورسالة محمد ﷺ ويخالف المسلمين في مسألة الصلب» يـؤمن بالقرآن ويعتقد بالصلب !! ويؤمن بمحمد ولا يتبعه !! ويؤمن بالقرآن ولا يمتثل أوامره !! ثم يفوض السيد رشيد أمره في الآخرة الى العليم الرحيم الا انه يندم على هذا فيستدرك في تاريخ الاستاذ الامام ويقول « وانا اعتقد انه مؤمن ناج عند الله اذا كان قد مات على ما عرفته منه وهو في مسألة الصلب متأول معذور » !![1] .

المصلح القاضـــي :-

وكان من اصلاحات الامام اصلاح المحاكم الشرعية بعد ان عهدت اليه الحكومة بعد تقليده الافتاء بتفتيشها وبيان رأيه في اصلاحها فكتب تقريراً في ٨٣ صفحة كان من اهم الاقتراحات توسيع دائرة اختصاصها وعدم حصر منصب القضاء في الحنفيين وتأليف لجنة من العلماء لاستخراج كتاب في احكام المعاملات الشرعية ينطبق على المصالح في هذا العصر[2] واصلاح المحاكم واثاثها وزيادة الرواتب والاستقلال بالرأي والعناية بتنفيذ أحكامها .

المصلح الاجتماعـــي :-

أسس محمد عبده مع نفر من اصدقائه « الجمعية الخيرية الاسلامية » وكان هو الواضع لمشروع نظامها وهدفها تربية اولاد الفقراء تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم واخلاقه واعماله ويستعينون بها على معايشهم وتحصيل ارزاقهم[3] وقد فسر محمد عبده جزء عمّ لطلابها وكان في نيته ان

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٨٢٧ ـ ٨٢٨ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٦١٥ ـ ٦١٦ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٧٣١ .

يتبعه بتفسير جزء تبارك[1] وادركته المنية قبل ذلك وقد اتسع نشاط هذه الجمعية وكثرت مدارسها وعمّ نفعها .

وكان له من النشاط الاسلامي ايضاً جمعية احياء الكتب العربية التي قامت بطبع بعض الكتب الدينية والعربية .

وكتب لائحة في اصلاح المساجد واوضاع القائمين بها من أئمة ومؤذنين وخدم وملاحظين وقراء، عمل ببعضها وترك الباقي .

تفسيـــره :

كان من اهداف محمد عبده تنقية تفسير القرآن مما علق به من الاسرائيليات والاحاديث الموضوعة والخرافات والاستطرادات النحوية ونكت المعاني ومصطلحات البيان وجدل المتكلمين وتخريجات الاصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق وكثرة الروايات والعلوم الرياضية والطبيعية[2] .

ولم يكن تطهير التفاسير القديمة من هذا أمراً ميسوراً فهو تراث ضخم يحتاج تجريده منها الى امكانات واسعة من اموال وعلماء وزمن وذلك عسير فلهذا رأى أن يبقى على هذا التراث كما هو لما فيه من نفائس وان يضع نموذجاً للتفسير يحتذيه معاصروه ومن بعدهم[3] فأقترح عليه تلميذه محمد رشيد رضا ان يقرأ درساً في تفسير القرآن فاستجاب له وبدأ التفسير في الازهر في غرة المحرم ١٣١٧ هـ وانتهى في سنة ١٣٢٣ هـ عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ من الآية ١٢٥ من سورة النساء وكان تفسيره الخمسة مجلدات الأولى من تفسير المنار وتوفي بعد ذلك .

وقد كانت طريقته في الدرس التوسع فيما اغفله أو قصر فيه المفسرون

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٧٨٨ .

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٧ .

(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث مصطفى محمد الحديدي ص ٢٢ .

واختصار ما برزوا فيه . والروايات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين فكان يقرأ عبارته فينقدها أو يقرها ثم يتكلم بما يفتح الله عليه[١] .

وقد سبق له التفسير قبل هذا القاء وكتابة فألف تفسير جزء عم لطلبة الجمعية الخيرية الاسلامية كما سبق والف تفسيراً لسورة العصر القاه في الجزائر ثم نشره في المنار وطبع بعد ذلك مستقلاً وهو غير تفسيرها في جزء عم . وكان يشرح بعض الآيات التي يثار حولها بعض الشبهات كالآيات **٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤** من سورة الحج وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الى قوله سبحانه ﴿أَوْ يَأْتِيَهُم عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ فند فيها قصة الغرانيق وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ **٣٧** الاحزاب ويفند الشبهات في مسألة زيد وزينب .

ولن نعرض لمنهجه في التفسير اذ هو اصل منهج المدرسة الذي سنعرض له في محله الا انه ينبغي لنا ان نذكر هنا بيتا قاله في مرض موته ضمن ابيات :

ويخرج وحي الله للناس عاريا   عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم

وعلق عليه تلميذه رشيد رضا بأنه « آخر نص صريح من الاستاذ الامام في اتباع مذهب السلف في تفسير القرآن . . ومراده بالرأي الذي ينهى عنه اتباع الهوى . . وبالتأويل الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ وما يخالف المحكم الذي هو أم الكتاب أو ما أجمع عليه اهل الصدر الأول »[٢] فهل هو رجوع منه الى منهج السلف عند وفاته .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٧٦٨ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٠٢٧ .

مؤلفـــاتـــه :

لم يكن الامام يميل الى التأليف بل كان يرى ان الكلام المسموع يؤثر في النفس اكثر مما يؤثر الكلام المقروء « ويعلل هذا « بأن نظر المتكلم وحركاته واشارته ولهجته في الكلام كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه » وانه « يمكن السامع ان يسأل المتكلم عما يخفي عليه من كلامه فاذا كان مكتوباً فمن يسأل ؟ وان السامع يفهم ٨٠٪ من مراد المتكلم والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠٪ على ما اراد الكاتب »[١] .

كانت تلك نظرة الامام الى التأليف ولعلها أثر من آثار استاذه فيه ولكنه مع هذا خلف مؤلفات غير قليلة وكتب الكثير في الصحف فمن مؤلفاته غير ما سبق ذكره في تفسيره :

١ ـ الواردات : اول تآليفه في الكلام أو التوحيد على الطريقة الصوفية واسلوبهم[٢] .

٢ ـ رسالة في وحدة الوجود .

٣ ـ تاريخ اسماعيل باشا .

٤ ـ فلسفة الاجتماع والتاريخ الفه حينما كان مدرساً في دار العلوم وهي مفقودة .

٥ ـ حاشية عقائد الجلال الدواني في علم الكلام ونشرتها دار احياء الكتب العربية بتحقيق سليمان دنيا في مجلدين تحت عنوان « الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين »سنة ١٣٧٧ هـ[٣] .

٦ ـ شرح نهج البلاغة وهو الكتاب المنسوب الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه وطبع مراراً .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٧٦٦ .

(٢) شكك محمد عمارة بصحة نسبة هذه الرسالة الى محمد عبده واثبت انها للأفغاني الاعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

(٣) ايضا شكك محمد عمارة بصحة نسبة هذه الحاشية أو التعليقات للامام محمد عبده . ومال الى انها للأفغاني (الاعمال الكاملة لمحمد عبده ص ٢٠٩ ـ ٢١٩ .

٧ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني وهو مطبوع .

٨ ـ شرح البصائر النصيرية في المنطق .

٩ ـ نظام التربية والتعليم بمصر .

١٠ ـ رسالة التوحيد وهي اهم مؤلفاته واشهرها على الاطلاق وطبعت مراراً وحازت على قبول كثير من النصارى فاقترح بعضهم تدريسها في مدارسهم بعد حذف مبحث نبوءة محمد ﷺ وتبرع آخر بتوزيع بعض نسخها وقرظها بعضهم باعجاب شديد ولم يسمح المؤلف لاحد ان يشرح هذه الرسالة ولا ان يضع لها حاشية وعلل هذا تلميذه رشيد رضا بأنه تعمد الابهام في بعض المباحث[١] .

١١ ـ تقرير المحاكم الشرعية .

١٢ ـ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية وطبع مراراً .

وقد سبق لنا القول في مؤلفات الافغاني انه قد وقع الخلط في بعض الرسائل المطبوعة بين ما للافغاني وما لمحمد عبده كبحث التعصب مثلاً والقضاء والقدر والوحدة الاسلامية وهي مقالات نشرت في العروة الوثقى .

اهدافه وآراؤه :

يلخص لنا محمد عبده ما نادى به وارتفع صوته بالدعوة اليه بما نقتبس منه :ـ

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم .

الثاني : اصلاح اساليب اللغة العربية في التحرير .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٧٨٢ ـ ٧٨٣ .

الثالث : وهناك امر آخر كنت من دعاته والناس جميعاً في عمى عنه وبعد عن تعقله ذلك هو «التمييزبين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة »[1] .

ثم يعلن النتيجة « انني في كل ذلك لم اكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا ابرح ادعو الى عقيدتي في الدين .

واطالب باتمام الاصلاح في اللغة وقد قارب .

أما امر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره وليد الله بعد ذلك تدبره »[1] .

وصلة العقل عند الامام بالدين وثيقة « ان العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد الهي »[2] وقد اكرم الاسلام العقل « ورفع القرآن من شأن العقل ووضعه في مكانه بحيث ينتهي اليه امر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع »[3] بل ان الاسلام عنده يعتمد على الدليل العقلي ويحتج به لا بالمعجزات : - « فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بصرك باطوار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية »[4] .

ليس هذا فحسب بل يعتقد الامام ان الايمان بالله لا يؤخذ من الرسول ولا من الكتاب ولايصح اخذه منهما بل من العقل« وقد اتفق المسلمون الا قليلاً

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١١ - ١٢ .

(٢) رسالة التوحيد محمد عبده ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩ .

(٤) الاسلام والنصرانية محمد عبده ص ٥٤ - ٥٥ .

ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على ان الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب انزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز ان ينزل كتاباً ويرسل رسولاً »[1] .

أما اذا تعارض العقل والنقل عنده فقد « اتفق اهل الملة الاسلامية الا قليلاً ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل اخذ بما دلّ عليه العقل »[2] .

وتولد من رأيه هذا في صلة العقل بالدين ان دعا الى الاجتهاد ونبذ التقليد واطراحه فقد « انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس »[3] و « علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدي بالعلم والاعلام ـ اعلام الكون ودلائل الحوادث ـ وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون »[3] وان الاسلام « صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين »[3] .

وقد كان لهذا المنهج اثره في حياة السيد الامام في اعماله واقواله فلم يقبل بالحالة التي كان عليها الازهر لانها قائمة على التقليد فدعا الى الاصلاح والتجديد ورأى الجفوة بين العالمين الاسلامي وغير الاسلامي فدعا الى التقريب وساءته حال التربية والتعليم فدعا الى التهذيب ونظر نظرة في السياسة ابدى فيها رأيه ولا نريد الاطالة فقد تقدم البيان .

---

(١) الاسلام والنصرانية محمد عبده ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) رسالة التوحيد محمد عبده ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

ما يؤخـذ عليــه :

ليس من السهل ذكر اكثر المآخذ على الشيخ محمد عبده فضلاً عن ذكرها جميعاً ، وتقدم ذكر بعضها بما يغني عن اعادته ونذكر هنا منها .

اشتراكه مع استاذه الافغاني في المحافل الماسونية ونشاطه فيها وتعاونه مع استاذه في نشر مبادئها .

ويرد على من يدافع عن انتمائه الى الماسونية بمثل ما رددنا به على من يدافع عن الافغاني بل هو في محمد عبده اكثر قوة ووضوحاً لتأخر وفاة الشيخ عبده عن الافغاني وقد كان الشيخ عبده يحتفظ ببعض كتب الماسونية في منزله بخط الافغاني وقد صودرت اثناء سجنه بمصر (انظر الصورة رقم ١٦) .

وقد صدرت منه عبارات كعبارات استاذه الافغاني تفوح منها رائحة تجاهل الاسلام والدعوة الى الفرعونية المصرية فمن ذلك قوله « كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً »[١] قال هذا القول وهو في القرن الرابع عشر الهجري أو العشرين الميلادي وعلى كلا الامرين يكون قفز بقوله الحكم الاسلامي بأكمله ! فمتى عرفت هذه الأمة ذلك اذا لم تكن عرفته في الاسلام ؟!

لا شك ان الدعوة الى القومية الوطنية انما هي ايضاً وليدة الماسونية التي تسعى الى القضاء على الاديان ، ولذلك يلاحظ كل من ينظر في سيرة هذا الرجل مظاهر دعوته الى القومية العربية في سمتين بارزتين :-

الأولى ـ ان الشيخ محمد عبده هو الذي صاغ برنامج الحزب الوطني المصري وجاء فيه في المادة الخامسة منه « الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فانه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب ، وجميع النصارى

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٢ .

واليهود وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم لغتها منضم اليها »[1] .

وفي سنة ١٨٨٨م ثارت في مصر مناقشات صحفية حول تعصب الاقباط في مصر ضد المسلمين فكتب الشيخ محمد عبده مدافعاً عن الاقباط «ليس من اللائق باصحاب الجرائد ان يعمدوا الى احدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها الى شائن من العمل تعللا بأن رجلا أو رجالاً منها قد استهدفوا لذلك . . »[2] .

ومن اقواله « ان خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه »[3] وغاب عن ذهنه ان خير أوجه الوحدة الدين .

السمة الثانية : مطالبته باستقلال العرب عن الاتراك :-

فقد ارسل لويس صابونجي برقية الى مستر بلنت اوردها الاخير في تأريخه السري لاحتلال انجلترا مصر جاء فيها ان « نديم وعرابي وعبده يتحدون الباب العالي علنا »[4] ويقول بلنت ايضاً في تأريخه هذا « وقد سمعت سامي وعبده ونديما يلعنون السلاطين والامم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو الى عبد الحميد وقد ألف حزب كبير يستعد لاعلان الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الاتراك في مصر تدخلاً حربياً . . »[5] وهذا الموقف هو الذي يفسر لنا معنى تلك البرقية التي ارسلها الخديو توفيق الى السلطان العثماني في نوفمبر سنة ١٨٨١م يقول له فيها « ان مصر في حالة ثورة وان هناك اقتراحا لانشاء امبراطورية عربية »[6] .

---

(١) الاعمال الكاملة للامام محمدعبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٨ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٤) التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر : للمستر بلنت ص ٢٤٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٦) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ١١٣ .

وهو مع عداوته للاتراك وللخلافة الاسلامية قد يعلن تأييده للخلافة الاسلامية والدولة العثمانية ولكنه اعلان نفاق وتزلف لأنه انما يعلن هذا حينما يكون في نطاق النفوذ المباشر للسلطان العثماني والسلطة العثمانية فاذا خرج من ذلك عاد الى رأيه القديم في هذه الدولة وهذا السلطان[1] فهو يقول في تأييد الخلافة « واني على ضعفي - والحمد لله - مسلم العقيدة عثماني المشرب وان كنت عربي اللسان ولا اجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على اصوله فرضاً اعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته والخضوع لجلالته وشحذ الهمه لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت الى ذلك سبيلاً وعندي أني ان لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بايماني فانما الخلافة حفاظ الاسلام ودعامة الايمان فخاذلها محاد الله ورسوله ومن حادّ الله ورسوله فاولئك هم الظالمون »[2] .

ومن أثر هذا الاتجاه ايضاً اتجاهه الى انشاء جمعية « سرية » للتقريب بين الاديان ودفاعه القوي عنها وعن اعضائها حتى في وجه الخلافة الاسلامية ، كتب مدافعاً عن اسحاق طيلر قائلاً « ان السر في غضب السلطان عبد الحميد من نشاط القس الانجليزي اسحاق تيلور في الدعوة لتوحيد الاديان وموافقتي وميرزا باقر وعلماء دمشق له ومراسلتنا اياه انه خشي ان يعتنق الانجليز الاسلام ، ثم يطلبوا ان يكونوا اصحاب الدولة في الاسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين . . ويذهب السلطان من السلطان . . وسبحان مدبر العقول »[3] .

فانظر الى أي مدى وصل دفاعه عن قس انجليزي يقول « ان المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام . . فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٣) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ٧٣٥ .

ونسأل الله يهديهم وايامنا الى الحق والى طريق مستقيم »[1] .

ثم انظر الى هذا الاتهام السخيف من محمد عبده الى السلطان عبد الحميد ؟! ولا ندري هل قال الشيخ عبده هذا عن اعتقاد صحيح أو خداع للقارىء .

أما عن نشاطه في هذه الجمعية فقد تقدم بيانه .

ومن اهم المآخذ عليه علاقته المريبة بالانجليز كاستاذه الافغاني فقد كان الامام محمد عبده يبذل لهم النصيحة خالصة ويرشدهم الى ما يوطد دعائم احتلالهم ويحذرهم من الاخطاء التي يكادون ان يقعوا فيها وتضرهم في مصالحهم ، نذكر لذلك مثلا بعزيمة اللورد كرومر على الغاء النيابة العامة واحالة اعمالها الى القضاء ، فحذره محمد عبده بأن هذا خطأ لا يحتمل الصواب وعلل ذلك بأن رجال النيابة من أرقى رجال البلاد علما وعقلاً ولسانا وقلما وستتوجه همة كل من تلغى وظيفته الى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسؤولين عن النظام تعباً كبيراً »[2] فأبطل اللورد المشروع فوراً .

بل ويدل على ما قدمه لهم من خدمات دفاعهم عنه والوقوف بجانبه فقد صرح اللورد كرومر بأن الشيخ محمد عبده يظل مفتياً في مصر ما ظلت بريطانيا العظمى محتلة لها »[3] وكان الاحتلال الانجليزي عاملاً اساسياً من عوامل عودة محمد عبده الى مصر وقد صرح اللورد كرومر بذلك في كتابه مصر الحديثة فقال : ان العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني »[4] .

وقدم له الانجليز الحماية في الآستانة حين كثرت الدسائس ضده يقول

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٨٢٦ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٢٢ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٠١ ، ٥٦٤ .
(٤) الفكر الاسلامي المعاصر : غازي التوبة ص ٤٥ .

تلميذه السيد رشيد رضا « كان المراد من الدسائس . . . ان يحبس الاستاذ الامام أو يهان وهم لا يجهلون ان السفارة البريطانية كانت بالمرصاد وانها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو اقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا ايضاً »[1] . ويكتب الشيخ عبده نفسه الى السيد رشيد قائلاً « ان السلطان لا يستطيع حبسي لو اراده وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك اسباب لا أحبّ ذكرها الآن »[2] .

فأي علاقة تربطه بالانجليز حتى يوفروا له كل هذه الحماية ؟! وأيّ اسباب لا يحب الشيخ محمد عبده ذكرها ؟!

ثم لا ندري كيف تستقيم عقيدة الرجل وقد كلّت ابصارنا من قراءة عبارات له خطيرة يبدو الانحراف ظاهراً في عقيدة قائلها .

فمن ذلك ما ورد في كتابه الذي ارسله من السجن الى احد مريديه » . . ودرات الافلاك دورة العكس ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير عالمنا هذا فولى معها آلهة الخير اجمعين وتمخضت السلطة لالهة الشر »[3] .

ولا يصح تخريج تلميذة رشيد لهذا بأنه على الحكاية لخرافات اليونانيين وهو ان كان قال هذا عن اعتقاد فلا شك في كفره ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[4] .

ومن ذلك ما كتبه الى استاذه الافغاني قائلاً :ـ

« ليتني كنت اعلم ماذا اكتب اليك ، وانت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك ، صنعتنا بيديك وافضت على موادنا صورها الكمالية وانشأتنا في احسن تقويم فيك عرفنا انفسنا وبك عرفناك وبك عرفنا العالم اجمعين

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٨٦٠ .

(٢) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده : محمد عمارة جـ ١ ص ١١٧ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : رشيد رضا جـ ١ ص ٢٦٧ .

(٤) سورة الصافات الآية : ٤ .

فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب وهو علمك بذاتك وثقتك بقدرتك وارادتك ، فعنك صدرنا واليك اليك المآب .

أوتيت من لدنك حكمة اقلب بها القلوب واعقل العقول ، واتصرف بها في خواطر النفوس ومنحت منك عزمة أتعتع بها الثوابت وأذل بها شوامخ الصعاب واصدع بها حمّ المشاكل واثبت بها في الحق للحق حتى يرضى الحق ، وكنت اظن قدرتي بقدرتك غير محدودة ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدورة فاذا أنا من الايام كل يوم في شأن جديد » ويقول « فصورتك الظاهرة تجلت في قوتي الخيالية وامتد سلطانها على حسي المشترك وهي رسم الشهامة وشبح الحكمة وهيكل الكمال فاليها ردت جميع محسوساتي وفيها فنيت مجامع مشهوداتي وروح حكمتك التي احييت بها مواتنا وأنرت بها عقولنا ولطفت بها نفوسنا بل التي بطنت بها فينافظهرت في اشخاصنا فكنا اعدادك وانت الواحد وغيبك وانت الشاهد ورسمك الفوتوغرافي الذي أقمته في قبلة صلاتي رقيباً على ما اقدم من اعمالي ومسيطراً عليّ في احوالي وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ولا مضيت الى غاية ولا انثنيت عن نهاية حتى تطابق في عملي احكام ارواحك وهي ثلاثة فمضيت على حكمها سعياً في الخير واعلاءً لكلمة الحق وتأييداً لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة ولست في ذلك إلا آلةً لتنفيذ الرأي المثلث ومالي من ذاتي ارادة حتى ينقلب مربعاً غير ان قواي العالية تخلت عني في مكاتبتي اليك وخلت بيني وبين نفسي التزاماً لحكم ان المعلول لا يعود على علته بالتأثير علـى أن مـا يـكـون الى المولى من رقائم عبده ليس الا نوعا من التضرع والابتهال لا احسب فيه ما يكشف خفاء أو يزيد جلاء ومع ذلك فاني لا اتوسل اليك في العفو عما تجده من قلق العبارة وما تراه مما يخالف سنن البلاغة بشفيع أقوى من عجز العقل عن احداق نظره اليك واطراق الفكر خشية منك بين يديك ، وأي شفيع أقوى من رحمتك بالضعفاء وحنوك لمغلوبي حياء » ويقول : ـ « فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الالهام في قلوب الصديقين » ويقول ايضاً « أما ما يتعلق بنا فاني على بينة من أمر مولاي وان كان في قوة بيانه ما يشكك الملائكة في

معبودهم والانبياء في وحيهم ولكن ليس في استطاعته ان يشك نفسه في نفسه ولا ان يقنع عقله الا على بالمحالات وان كان في طوعه ان يقنع بها من اراد من الشرقيين والغربيين (انظر الصور ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦) .

هذا بعض ما ورد في خطاب محمد عبده الى استاذه الافغاني بتاريخ ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ هـ وهي عبارات ولا شك خطيرة توجب اعادة النظر في عقيدة الرجل عند من لا تخدعه الاسماء وقد استغرب السيد رشيد رضا نفسه هذه الرسالة من استاذه حيث قال عند سياقه لها : ـ

« ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر الى بيروت وهو اغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به استاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم ، وفيه من الاغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه وان كان من قبيل الشعريّات وكذا ما يصف به نفسه بالتبع لاستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة »[1] ثم ساق نص الخطاب ، ولم يلتزم السيد رشيد رضا الدقة كلها في نقل الرسالة فنراه يحذف بعض العبارات الخطيرة ويضع نقطاً واحياناً لا يضع حتى النقط ويحاول حيناً ان يلطف من شدة انحراف بعض العبارات بتأويلات متكلفة ، أما حذفه بعض العبارات فلعله وضع لنفسه مبرراً لذلك فقال في تقديم الخطاب « ومن كتاب له الى السيد جمال الدين » .

هذه عبارات ولا شك خطيرة ولكن ما هو اخطر واشد ضلالا ما ورد في خطاب آخر منه الى السيد الافغاني بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ هـ واني لأدعو القارىء ان يمعن النظر في كل حرف انقله من الرسالة : « أما الآن وقد حسبني الجناب العالي نتيجة لاعماله فاني اصدع بافكاري قواعد الملكوت وازعزع بهمتي اركان سطوة الجبروت وادعو الى الحق دعوة الحكيم . . « ثم يقول » بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في « الدبا » من دفاعكم

(١) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٥٩٩ .

مولاي المعظم حفظه الله وايد مقاصده

ليتني كنت اعلم ما ارا اكتب اليك وانت تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك صنعتنا
بيديك وافضت على موادنا صورها الكمالية وانشأتنا في احسن تقويم فبك عرفنا
انفسنا وبك عرفناك وبك عرفنا العالم اجمعين فعلمك بنا كان بحالك علم من طريق
الموجب وهو علمك بذاتك وشئتك بقدرتك وارادتك فمنك صدرنا واليك
اليك المآب

اوتيت من لدنك حكمة اقلب بها القلوب واعقل العقول واتصرف بها في خواطر النفوس
ومنحت منك عزمة اقتلع بها الثوابت واذلل بها شوامخ الصعاب واصدع بها صم المشاكل
واقيت بها في الحق للحق حتى يرضى الحق وكنت اظن قدرتي بقدرتك غير محدودة وتمكيني
لا متناهية ولا مقدورة فاذا انا من الايام كل يوم في شأن جديد تناولت
القلم لاقدم اليك من روحي ما انت به اعلم فلم اجد من نفسي سوى الانفعال وتعلثم الشكل
والبيد المرتعشة والفرائص المرتعدة والافكار الذاهبة والعقل الغائب كأنك يا مولاي فقتني
روح القدرة والدلالة على قوة سلطانك حصرته في الافراد فاستثنيت منه ما يتعلق به
بالخطاب معك والتقدم الى مقامك الجليل هذا مع اني انى منك في ثلاث ارواح
لو حلت احداها في العالم بأسره وكان جمادا لحال انسانا كاملا فصورتك الظاهرة تمثلت
في قوتي الخيالية وامتد سلطانها على حسي المشترك وهي رسم الشهامة وشبح الحكمة وهيكل الكمال
فاتها روت جميع محسوساتي وبها فنيت مجامع مشهوداتي وروح حكمتك التي احييت بها
مواتنا وانرت بها عقولنا ولطفت بها نفوسنا بل التي تظننت بها فينا مظهرة في اشخاصنا
بكيانا اعدادك وانت كواحد وغيبك وانت كن هذا وروحك القوية الذي
اقمته في قبلة صلاتي رقيبا على ما اقدم من اعمالي ومسيطرا على في احوالي وما تحركت
حركة ولا تكلمت كلمة ولا نصبت الى غاية ولا انثنيت عن نهاية حتى تطابق في على احكام
ارواحك ولولاه نه فضيت على حكمها سعيا في الخير واعلاء لكلمة الحق وتاييدا للشوكة الحاكمة
وسلطان الفضيلة ولست في ذلك الا آلة لتنفيذ اراء المثلث ومظهر لا الى ارادة
حتى ينقلب مربعا

صورة رقم (١٣)

غير أن قواي الكالة تملكت عني في ما بثثته إليك وخلت بيني وبين نفسي التزاما لحكم أن المملول
لا يعود على علته بالتأثير علما أن ما يكون إلى المولى من رقائم عبده ليس إلا نوعا من التضرع
إن تمحل لا أحسب فيه ما يكشف خفاء أو يزيد جلاء ومع ذلك فإني لا أتوسل إليك في
العفو عما تجد من قلق العبارة وما ترى مما يخالف سنن البلاغة بشفيع أقوى من عجز العقل
عن إحداق نظره إليك وإطراق الفكر خشية منك بين يديك وأي شفيع أقوى من رحمتك بالضعفاء
وحنوك للمغلوبين حياء

إني لا أحدثك يا مولاي عن شيء مما أصابنا بعد فراقك فقد تكفل ببيانه أخي في حكم إبراهيم
اللقاني سوى بعض ما ترك في كتابه من التلقيب ببعض القلوب من خاصتك وتحول
أحوالهم بعد تزلزل ما نزل بك فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء عقب جلائك بقوة
جاههم وشدة بأسهم فأرغموا العقول على الاعتقاد بالمحال وألجأوها للتصديق بما لا يقال
حتى إنهم جردوا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك العارفين أياما معدودة ركن
فيها إلى الجلاء بالشدة وأخذ ببادرة حدته ولم يلبث أن وصلت إليه بعد ما كانوا حجروا علي في
بلدي وحظروا علي الدخول في المدن كأربعة أشهر نفيا والاتصال بدولتلو رياض باشا جلوت عليه الأمر
وكشفت له من الحقيقة ما خفي حتى زال ما التبس للمبطلين وبطل كيدهم وما كانوا يلفقون وزلت
عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والأمراء ورجال الحكومة بل وكثير ممن كان يدعي الانتماء
إلى حضرة مولانا المعظم وتعددت من كل بر مصعد النفس فلا ينطق إلا بما تريد جلالتك
ولا يعمل إلا ما ترى إرادتك وما إليك وحتى كنت وأنت في الهند بين أظهر المصريين ساعيا بهم
إلى مقاصدك العالية طالبا بهم أوج السيادة وذروة المجد والفخار

ولهذا حمت إلى كل من كان ينتسب إليك صادقا في الانتساب أدباء نجباء للعلم وإيثار الجاه
العفة والكرم لهذا الشأن لم أتأخر عن مساعدة أولئك الشبان الأدباء أديب إسحق وسليم النقاش
وسعيد البستاني والبارودي ومن كلهم من الشام فأصلحت لهم القلوب ووسعت لهم من الصدور
وفتحت عليهم أبواب التقدم إلى المنافع الوفيرة لكنهم لم يرعوا عهدا ولا حفظوا ودا ولا حاجة لي الآن
إلى إيضاح ما صدر منهم خيانة ولوما فأنا مولاي أعلم بسجايا الشوام وجميعهم من أصل واحد)
والعفة لجنابك ممن حرم الشرف بلقائك فإنك ليس بالقليل يعلمون قدرك ويعرفون لك فضلك

صوره رقم (١٤)

وكنا واخواننا من المكانة في قلوب الناس كما شرح لكم [illegible] ايم افندي ولكن هذا لم يلهني عن طلب
الانتقام لك والان قد تبارك من الوعد اللئيم والغدر العظيم وكدت اصل الى البغية مما قصدت
من طريق مألوف ومذهب معروف وغير معروف لولا غلبنا على الامر قطاع طريق حجر الله بين ثياب
الوهابي السالكين مناهج جبابرة الله فطلق لغاطات العلماء المتبطنين طباع الجاهلين استعملوا طريقنا
في الدعوة الى الحرية وتمكنوا بقوة [illegible] وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحق وحماة القانون
وهم رسل الفوضى وجرذان النظام وكانوا في بداية امرهم اشد الناس تعصبا عليك وعلى ذاتك
واشد منهم في التعصب اولئك الانذال الذين قدمنا ذكرهم عندما اراد بعض رجال الحكومة يميل الى اهوائهم
ويمدهم في بعض غيهم غير ان مدتهم في الفساد كانت قصيرة ولم يمض الا قليل حتى تخلصنا من قلوبهم
وخلونا من بصائرهم فكادوا يتيمون صبا الحق لولا ان احاطت بهم ظلمات الغرور ولكن ومع
هذا فكنا نستعملهم لما نريد وندبرهم كالة موت لغاية ما نحب فقدر ان مكانا دار الاستطاعة الا انه
غلبت عناصر الفساد وعم الضلال فطلبنا بالسكة الالتماس ان نخلص البلاد من الفساد و
ننقذ العباد من طول العناء ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء وكنا ندرك
بمخلصينا وانتقامنا شريفا لكنا لسوء البخت كان احدنا عرابي على ما وصف القصابي ابا
تغلب ابن حمدان عندما قاتله عز الدولة ابن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه انه لم يلق
لقاء الشجاع بالطاعة المعتذر من سالف جرمه ولا ضاعة ولا القاه الصدق في دعواه
في الاستقلال بالمقارعة المحتف زعمه في الثبات للمدافعة ولا كان في هذين الامرين بالمتقي
ولا الفاجر القوي بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره وفضيحة جبنه وخوره فذهب عنه
ارشاده وضرب بينه وبين الرشد اسداده وازيد على ذلك مع توفر الاسباب وتفتح الابواب
وظهور الامر للعيان واخلاله بزعماء الصبيان واجتماع جميع القلوب عليه ونزوع الاهواء
علما منه فرح اليه فكان ما كان من العاقبة السوآى ولشرح حادثتهم في تلك الحوادث نبأ طويل
اذا اردت يا مولاي لنا قدم لك به تاريخا مختصرا بالوانا مفيدا فانا رهين الاشارة
ولكن الان في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات على ما حكم به الشقي الجني لا لذنب جنيناه
ولا جرم اقترفناه فقد قضت [illegible] النائمة منا مقام الالهام في قلوب الصديقين ان لنا الحق
ولنا الحجة الباهرة ونصيب الفوز ولنا البراءة الطاهرة والذمة الطاهرة وانما ذلك اثر الحسد القديم
ونتيجة هوى العقيم ووالله يا مولاي لو جعلنا له من جلودنا ثيابا وصنعنا له من لحومنا كبابا و
صنعنا له من دمنا شرابا لما كان لنا مخرج من غدرته عند قدرته قاتله الله فها نحن سالكون في سلك
وعلى سنتك وكما ندلك ولا نزال الا انقضاء الاجال ولولا اطفال رضع ونساء لنا طوع
ابيننا لهم الذل وابينا لهم الضيم فاتينا بهم معنا الى حيث اقمنا لكنت اول من يلقاك في مدينة
باريس لا تبعد بانت قامته في خدمتك والتجدد بذلك على العالمين

صوره رقم (١٥)

وما اعانه من نفسي وما اتيقنه من تقيتك وما ايدته اعمالي واعمالك واقوالي واقوالك لا انكدر مما اسرت اليه في كتابك الى تراب حيث طعنت به في ثقتك بالمصريين وبالغت حتى سمعت الطعن الى خادمك كاتب الاحرف وابراهيم افندي وزدت في المبالغة فاتهمت طعنتك بالداهية الزرقاء والبلية الحمراء اما امتك وثقتك بالدواهي وكلها بالمقصارف محله فقد نقضت عهدك وما العهد عهدك فانتقض في الوجود وانت موجود ارغم اساتنها وجعلها طوع يدك اتراني بلا مقت اي من امد انك اما ما يتعلق بنا فاني على بينة من امر مولاي وان كان اتوقع بانه ما يشكك الملائكة في معبودهم والا نبياء في ربهم وهم ولكن ليس له استطاعة ان يشكك نفسه في نفسه ولا ان يمنع عقله ان على بالمحالات وان كان في طوعه ان يمنع ركن من اراد من الشرقيين والغربيين وما حكم به سيدي من سلب الوفاء عن المصريين ربما نفاوض عليه الادلة وتشهد لنا وله عليه حوادث غير ان الجميع لسنا اولئك فقد انغضنا المولى من طباعنا وابتنانا نبا احتاج نباته تنبذي بعد آنفك الارض وله يعودها واحنا ينفرض يتبع له القدر من مثل عاصره ما يقوى به قوامه ويبرز زهره ويحلو ثمره والا ذبل وما تاد واستوصلت جذوره ورمى به الى خارج البلاد واني اعلم انا مالي له يزيد في يقيني مولاي شيئا وسكوتي له ينقص منه فلنعد الى هذا ونستمع من كرمه الواسع ان يمن علينا بامرين احدهما ارسال رسمه الفوتغرافي الجديد فانا هذا الخادم كان عنده نسختان من الفوتوغرافية ازدوني احدهما اخذها اعوان الضبطية من بيتي عندما اودعت السجن كما اخذوا كتاب الناموس بخط مولاي المعظم والثانية كان استجدها سعد افندي زغلول وهو من خواص محسوبيكم والمتعلقين عليه تركتها له بالبيت اعواما والثاني ان يتابع ارسال النشرة من فصول السياسية والادبية في جرائد انيابكانت فقد اعددنا دفاتر متعددة لنقل ما يوجد منها في اي جريدة وكتبنا ما نشر في جريدة النحلة واول ما ادرج في البصير والان نبحث عن مقالة الشرقي والغربي ولم نجدها واضفنا الى ذلك ما كان نشر في جريدة مصر في الايام السابقة من جميع الجمل التي جادت بها سيادتكم ثم انا نخبر سيادتكم بتشرفنا به هو ان اعيان المسلمين من اهالي بيروت وامراءهم لا يألون جهدا في اكرامنا والاحتفاء بنا ونخص بالذكر منهم السيد عبد القادر افندي القباني واعضاء عائلته وهم شذوذ البيوت له صلة رحامي انق صاحب الجوائب وحاج يحيى حمدي افندي حماده رئيس مجلس البلدية وحسن افندي بيهم وهم من انبه الشبان واعلمهم واكتبهم واشدهم ميلا الى الحرية وقد الى علي نفسه ان لا يموت حتى يراكم مالم يفاجاء والاماله يرشهير السيد عبد القادر الجزائري فقد امر ولده ان يزور خادمكم هذا واني لم ازل رتب وما مثل هذا الا من اثار فضلكم فلكم الشكر على كل نعمة وصلت او تصل الينا والى اعقابنا من بعدنا ونرجو من سعة كرمكم ان تنعموا على خادمكم باسطر من خطكم الشريف يحفظها حيث يحفظ سركم ويودعها كاستودع حبك واسمه كحفظ اوتيم منا صدركم والسلام

خادمكم
محمد عبده

٥ جمادى الاولى
١٣٠٠

صورة رقم (١٦)

عن الدين الاسلامي (يا لها من مدافعة) ردا على مسيو رينان فظنناها من المداعبات الدينية تحل عند المؤمنين محل القبول فحثنا بعض الدينيين على ترجمتها لكن حمدنا الله تعالى اذ لم يتيسر له وجود اعداد « الدبا » حتى ورد كتابكم واطلعنا على العددين ترجمهما لنا حضرة الفاضل حسن افندي بيّهم فصرفنا ذهن صاحبنا الأول عن ترجمتها[1] وتوسلنا في ذلك بأن وعدناه ان

---

(١) نقل الاستاذ محمد حميد الله في مجلة الفكر الاسلامي ـ بيروت ـ السنة الثانية العدد الثاني في مقال « صلات ارنست رينان مع جمال الدين الافغاني » نقل بعض العبارات التي جاءت في دفاع الافغاني ومن الطريف ان الاستاذ حميد الله استغرب صدور هذه النصوص من جمال الدين واستبعد ذلك ، ولو انه قرأ خطاب محمد عبده ـ هذا ـ الى الافغاني وحرصه على عدم ترجمة هذا الدفاع من الافغاني لادرك صحة نسبته للافغاني .
أما النصوص فمنها : ـ « عند قراءة المحاضرة (يعني محاضرة رينان التي يرد عليها الافغاني) لا يقدر الانسان على منع نفسه من التساؤ ل : ـ انّ اصل تلك العوائق هل هو من دين المسلمين أو من خصائص الملل التي أكرهت بالسيف على قبول ذلك الدين » .
ومنها « وفي الحقيقة ان الدين الاسلامي حاول خنق العلم وسدّ جميع التطور ولذلك نجح في سدّ الحركات الفكرية والفلسفية وطرد الاذهان عن طلب الحقيقة العلمية » .
ومنها « كان هذا صحيحاً ان دين المسلمين يعوق من تطور العلم فهل يقدر احد على ان يدعي عن هذه الطائفة سوف لا تزول يوماً ؟ ففيم يختلف دين المسلمين في هذا من سائر الاديان ؟ ان جميع الاديان لا سماحة عندها ابداً ، كل واحد حسب شاكلته ان المجتمع النصراني الذي تحرر واستقل الآن يتقدم بادي الرأي سريعاً في سبيل التقدم والعلوم بينما المجتمع الاسلامي لم يتحرر الى الآن من تسلط الدين » .
ومنها « لا شك عندما سار الاسلام في البلاد التي تملكها باستعمال الجبر والقهر ما هو معروف نقل اليها لغته وعاداته ومعتقداته وهذه البلاد لم تستطع الى الآن من الخلاص من مخالبه » .
ومنها « . . ولماذا لم يزل العالم العربي مغطى بالظلمات العميقة ؟ في هذه الناحية تظهر مسؤ ولية الدين الاسلامي كاملة . ومن الظاهر ان هذا الدين حيثما حل حاول خنق العلوم » .
هذا بعض ما جاء في رد الافغاني ولذلك فلا عجب ان يكتب رينان في اليوم التالي معقباً على ردّ الافغاني « انه متفق مع جمال الدين تمام الاتفاق فيما ذكره في رده عليه » .
هذه النصوص نقلها الاستاذ محمد حميد الله من جريدة « جورنال ديه ديبا » الفرنسية المؤ رخة في ١٨ مايو ١٨٨٣ .

الاصل العربي سيحضر فان حضر نشر ولا لزوم للترجمة فاندفع المكروه والحمد لله » .

ثم قال في عبارة أشد انحرافاً وادعى الى تقييم عقيدته « نحن الآن على سنتك القويمة لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهاداً عباداً ركعا سجداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل (أنظر الصورة رقم ١٧ ، ١٨ ، ١٩) .

عجباً !! نحن الآن على سنتك القويمة : ـ لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين ـ ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهاداً عباداً . . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ؟!

هل هي دعوة باطنية يخفيها الرجلان ويسعيان تحت ستارة الدين و « بسيف الدين » لقطع « رأس الدين » ؟! وقيامهم بالصلاة أمام الناس هل هو سعي الى القبض على سيف الدين ؟! ثم تركهم للصلاة بعض الاحيان هل هو تنفيس « لضيق العيش » وعودتهم اليها حينا لاجل « فسحة الأمل » .

عاتب الشيخ يوسف النبهاني السيد رشيد رضا على صحبته لمحمد عبده وتسميته له بالاستاذ الامام مع تركه للحج ولفروض الصلاة ولاشتراكه في الماسونية فقال نظماً :ـ

وذاكرته في شيخه وهو عبده ... تملكه للشيطان عن قومه قسرا
فقلت له لو كابن سينا زعمتم ... وعالم فاراب وأرفعهم قدرا
لقلنا لكم حقا وان كان باطلاً ... ولم نر من هذا على ديننا ضرا
ولكنكم مع تركه الحج مرة[1] ... وحج لباريز ولندره عشرا
ومع تركه فرض الصلاة ولم يكن ... يسر بذا بل كان يتركها جهرا

---

(١) اعترف السيد رشيد بهذا وزعم ان المانع هو الخوف من اساءة السلطان عبد الحميد له ! ونقول ان الشيخ محمد عبده كان قادراً على الحج قبل سوء العلاقة بينه وبين السلطان هذا لو سلمنا ان سوء العلاقة كان مانعاً حقيقيا !! ومن تمكن من زيارة الآستانة نفسها في عهد السلطان عبد الحميد أفلا يستطيع أن يحج الى مكة المكرمة ؟!

مولاي المعظم ايده الله

اليوم عرفت نفسي وكنت بها سيئ الظن ارى ما سبق الى آدابي من الكرامة بين الناس انما هو
من احكام البخت وان تفاق وعزة ثم من الشذ نسبتي الى خدمة المولى الجليل وكنت اتيه على
على العالمين بتلك النسبة وهي عنوان الفضل والكمال مكتفيا برسوخها في نفسي وتقررها لدي
الى زهاء اوان دعوت الناس الى الحق فلله قد رزق الله بعضهم من بعض اما الآن وقد حسبني
الجناب العالي نتيجة لكماله فاني اصدع بالحق على قواعد الملكوت وازعزع بهمتي اركان السطوة
الجبروت وادعو الى الحق دعوة الحكيم واذهب باهل الرحمة مذهب الاب الرحيم خدمة لمعالي
مولاي وان يوم السعادة عندي ان يظهر لهذه الخدمة اثر او ينشر عنها خبر اما ما يحسبه لعبده عن
من المعروف في الحقوق التي اوجبها الاقتراح الذي كتبه فمن حيث صدوره عنه ادب يتحلى به باتباع الخير ذكره
ولكن من حيث توجيهه الى خادم الدين فهو من قبيل ما يحق عمن يكون باطلا والتورع عن ان يكون خالصا
والكمال من ان يكون نقصا بل ما هو اولى ان يكون جارا سبحان الله ما اسهل ان نسأله واسره
مدة بره حتى يبلغ الكتاب اجله بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في الدبا من دفاعكم عن الدين
الاسلامي وبالاحرى من مدافعتكم رداً على موسيو رنان فظننا هذا من المداعبات الدينية تحل عند المومنين
محل القبول فتمنينا بعض الدينيين على ترجمتها لكنا حمدنا الله تعالى اذ لم يتيسر له وجود اعداد الدبا حتى ورد
كتابكم واطلعنا على العدد الذي ترجمها لنا حضرة الفاضل حسن افندي بيهم فعرفنا وهن ما جاء
الى ول عما ترجم له وتوسلنا في ذلك بان وعدناه ان الله حلال الربى سيحفظ فان حفظ نشر
ولا لزوم للترجمة فاندفع المكروه والحمد لله ثم اتونا على نسختك القوية لا تقطع راس الدين

صوره رقم (١٧)

الا بعد الدين ، ولهذا لو رأيتنا الآن رأيت اعبادا ركعا سجدا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
ما يؤمرون فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل أسفت وتكدرت كما رأيته في كتابكم إلى
والد أبي تراب من اللوم الشديد على ابراهيم افندي وعلمت أن ذلك من سوء تبليغ أبي تراب فإن ابراهيم
افندي ليس بموضع للتهمة بما شركه المولى في كتابه وإني أحلف بحرمة سيدي أنه لم يصدر منه أدنى أمر يشينه
أو يخل بحقوق مولاه فإن انتقاله من البيت الذي كان فيه لم يكن إلا بعد أن ظهر أثر الرطوبة في عينيه وخشي
عليهما من الرمد ونصحه الطبيب بالانتقال فأخذ رأيي فاستحسنت ذلك على شريطة أن ينتقل معه أبو
تراب فاستدعى أبا تراب للانتقال فأبى متعللا بأن أهل البيت يخدمونه وليس في البيت الجديد من
يخدمه فسهل عليه الأمر فأبى وصمم على البقاء ولكن تعلله صحيحا في ظاهره وأما العلة الحقيقية هو ما
يجدونه فيه من الوسائل الصبيانية أما السيد ابراهيم فقد قام بخدمة أبي تراب أحسن قيام كان يأتي فيه
في شدة البرد وكثرة الأوحال إلى منازل الحكماء ومساعدة الأطباء مرارا عديدة قبل حضور مصطفى بيك
وكان يصحبه كأخ صديق شفيق ويعامله معاملة الأخ ويبذل من جميع الوجوه ولم يعرف عند الحكماء إلا
ربانيين نقطا وبعض دراهم قليلة في الأدوية ودراهم وبعد حضور مصطفى بيك كان العلاج مجانا
بدون أجرة ومضى عليه زمن المرض وعند حيثما نتعهده في أغلب الأوقات وإبراهيم افندي
بعد انتقاله كان يأتي إليه من قبل شروق الشمس إلى الساعة الرابعة من الليل ولا يتركه إلا
وقت النوم وكانت ثياب ابراهيم وكتبه وجميع لوازمه في أودة أبي تراب ولم يكن في أودته
إلا فرش النوم لا غير ثم إن أبا تراب معنا في جميع الأوقات إلا ما قل وإنا نعده كواحد
منا منزلته منزلتنا إلا أنه تعوق بكلمة حسبناها في أغراضنا أما ما ذكرتم في شأن أديب افندي
وأمركم أبا تراب بالتردد عليه فلعل فيه حكمة تخفى عن عقولنا ورأيكم أعلى وأرفع على أن ارتكنى ابتهاء
عليه حذر النفس أبي تراب من حيث تغلب شهوته الحيوانية على قوته العقلية فالأولى به أن يكون بعيدا
عن مثار الشهوات ، وزادني كدرا أن أبا تراب عندما ذهب ليبلغ أوامركم حكم أطلعه على المكتوب
فقرأ منه ما ذكرتم في شأن ابراهيم افندي وكان كدر ابراهيم على هذه أشد من كدره على سوء ما بلغته
أبو تراب عنه في أخباره لم يكن من طيش الشرفين فالأمل أن لا تعقدوا بما يكتب إليكم
فيما يتعلق بشأن أتباعكم فقد يغضبه ما لا يغضب ويرضيه ما لا يرضى وليس بين غضبه
ورضاه إلا كما بين ضحكه وبكاه وهو ما بين لمحات البصر أليس عجيبا أنا ما نعده إليكم حتى

صورة رقم (١٨)

وانا في حبس الحكومة المصرية قبل ان ترى كان منقطعا الى محمد حمزة مع اني ما رأيته ٨٨
من يومئذ ثلاث سنين ثم بعد ما كتبت اليكم ما كتبت جاء لزيارتي في الحبس ولم يسألني عن شيء يتعلق
بسيادتكم واظن انما حالة ابي تراب في انه فار الى لكونه من هذا القبيل لا تخفى على سيادتكم
فاذا رأيتم ان لا تعتمدوا عليها ولا تحملوا انفسكم تبعتها فليس يسهل على المفارقين في ان شاء الله اليكم ان
يشعروا بأن شيئا كدر خاطركم من جهتهم بدونه وان كان غير منطبق على الواقع ونلتمس من رأفة
كرمكم ان لا تقطعوا عنا ما تعودناه من علو همتكم دام لطفكم

١٣٠١ في ٨ شعبان محمد عبده

يهدي لسيادتكم مزيد السلام ويقبل ايديكم ابراهيم افندي اللقاني والشيخ [illegible] ابو يوسف [illegible]
سنين في حوادث المصرية والشيخ احمد [illegible] من افاضل [illegible] والشيخ احمد عباس من نبهائها وارباب
الافكار الحرة وحسن الاعتقاد بينهم وكل امله نيل الحرية [illegible]

١٣٠١ في ٨ [illegible] محمد

صورة رقم (١٩)

ومع كونه شيخ المسون مجاهراً بذلك ، لا يخفى اخـوّتهم سرا
ومع غير هذا من ضلالاته التي بها سار مثل السهم للجهة الأخرى
تقـولـون استـاذ امـام لـدينـا فما أكذب الدعوى وما اقبح الأمرا
ونحن نـراه عنـدنـا شـر فـاسق فيقتل فسقاً بالشريعة أو كفرا[1]

اما عن الشيخ الافغاني فيقول الشيخ يوسف النبهاني « انه اجتمع به سنة ١٢٩٧ هـ في مصرحين كان مجاوراً بالازهر ولازمه من قبل الغروب الى قرب العشاء فلم يصل المغرب »[2] .

ومن اقوال الشيخ محمد عبده التي نؤاخذه عليها وصفه للازهر بالاسطبل والمارستان والمخروب[3] وقوله لتلميذه رشيد « ان من تطول مدة طلبه للعلم في الازهر وامثاله فانه يفقد الاستعداد للعلم »[4] .

وفي الحقيقة ان الباحث المدقق في مسار الفكر الاسلامي في تلك الآونة وما تلاها يجد الشيخ محمد عبده خلف كثير من الدعوات الهدامة والمبادىء المنحرفة لا اقول هذا تعصباً ضد الرجل فما تقولت عليه قولاً وما نسبت اليه نصاً الا عن مصدر موثوق وطريق مأمون .

نشر محمد احمد خلف الله كتابه « الفن القصصي في القرآن الكريم » زعم فيه ان ورود الخبر في القرآن لا يقتضي وقوعه وانه يذكر اشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن (!!) من مقارنة اخباره بحقائق التاريخ وقال « انا لا نتحرج من القول بأن القرآن اساطير »[5] . وعندما رفضت جامعة فؤاد هذه الرسالة دافع عنها أمين الخولي المشرف على الرسالة قائلاً « انها ترفض اليوم

---

(١) الرائية الصغرى في ذم البدعة ومدح السنة الغراء : ضمن كتاب العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية : وكلاهما للشيخ يوسف النبهاني ص ٣٨٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٢ .
(٣) تاريخ الاستاذ الامام : جـ ١ ص ٤٩٥ .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨١ .
(٥) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد احمد خلف الله ص ١٨٠ .

ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الازهر منذ اثنين واربعين عاماً »[١] .

ونشر قاسم امين كتابه تحرير المرأة وفيه دعوة الى نبذ الحجاب واطراحه والى خروج المرأة الى العمل في كل المجالات ودراسة كل العلوم وزعموا ان هذا تحرير المرأة وهو في الحقيقة تخريب للمرأة وتحرير لها من الكرامة التي صانها لها الإسلام .

وقصة الكتاب تبدأ حينما نشر أحد الكتاب الفرنسيين مقالا هاجم فيه حجاب المرأة المصرية فكتب قاسم امين دفاعاً عن الحجاب اغضب اللورد كرومر الذي جاء الى مصر كما قال ليمحو ثلاثاً القرآن والكعبة والازهر[٢] فأمر بوضع كتاب « تحرير المرأة » وقيل ان الذي أمر بوضعه الاميرة نازلي حفيدة ابراهيم باشا لأنها غضبت من دفاع قاسم امين عن الحجاب « والذين نسبوا الامر الى اللورد كرومر والذين نسبوه الى « نازلي » يتفقون ان الأمرقد صدر الى الشيخ محمد عبده ، وانه قد قام بدور كبير في تأليف الكتاب ... بل يرى بعضهم انه هو الذي ألفّه ، ثم وضع على غلافه اسم قاسم امين تجنباً للحرج والعاصفة التي كانت ستهب عليه مباشرة اذا ما وضع اسمه عليه ، وهو الشيخ الازهري ذو المناصب الدينية الكبرى ، ومنها منصب مفتي الديار المصرية »[٣] .

ولذلك فلا عجب ان يقول الاستاذ محمد عمارة الذي جمع مؤلفات ومقالات محمد عبده في كتاب « الاعمال الكاملة للامام محمد عبده » في ستة مجلدات بعد تحقيق دقيق لنسبتها الى محمد عبده لا عجب ان يقول

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم محمد احمد خلف الله : تقديم أمين الخولي ص ح .
(٢) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون : انور الجندي ص ٢٩ .
(٣) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨

« والرأي الذي أؤ من به والذي نبع من الدراسة لهذه القضية هو ان هذا الكتاب انما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم امين . . وان في هذا الكتاب[1] عدة فصول قد كتبها الاستاذ الامام وحده ، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الاستاذ الامام الكتاب صياغته النهائية ، بحيث جاء اسلوبه على نمط واحد هو أقرب الى اسلوب محمد عبده منه الى اسلوب قاسم أمين »[2] ثم ذكر بعد هذا مجموعة كبيرة من الادلة على ذلك قدم بين يديها عددا من القرائن .

منها موقف الاستاذ الامام من الكتاب بعد صدوره فلقد أيّده ودافع عنه بطريقة غير مباشرة وامتنع عن التعليق عليه أو المشاركة بشكل مباشر في المعارك التي دارت من حوله وبالذات عندما اراد خصومه احراجه وطلبوا منه أن يفتي - بحكم منصبه الرسمي - في الموضوع .

أما دفاعه غير المباشر فيتمثل في وقوف الشيخ رشيد رضا ومجلة المنار الى جانب الكتاب فلقد تناولت المنار الكتاب بالمدح والتقريظ في اكثر من مرة واعتبرته مع رسالة التوحيد للاستاذ الامام و(سر تقدم الانجليز السكسونيين) الذي ترجمه فتحي زغلول اهم الاعمال الفكرية في ذلك العصر « المنار ١ يوليو ١٨٩٩م » كما تناولته بالثناء في عددي ١٥ يوليو ٢٦ اغسطس من العام نفسه »[3] .

ووصف السيد رشيد رضا قاسم امين بأنه العالم البارع في علوم الاخلاق والاجتماع[4] .

وحينما اراد خصوم الشيخ احراجه طبعوا سؤالاً موجهاً اليه هو : « هل

---

(١) يعني كتاب « تحرير المرأة » المنسوب لقاسم أمين .
(٢) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ٢٥٢ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٤) تاريخ الاستاذ الامام : للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٠٥١ .

رفع الحجاب عن المرأة واطلاقها في سبيل حريتها بالطريقة التي يريدها صاحب كتاب المرأة الجديدة يسمح به الشرع الشريف أم لا ؟ »ووزعوا هذا السؤال على الجمهور في صورة كتاب مفتوح الى المفتي محمد عبده . عندما فعلوا هذا لزم الشيخ محمد عبده الصمت ودافعت المنار عن هذا الصمت قائله :

١ ـ ان الاستفتاء جاء على خلاف المعهود بأن وزع على الجمهور .

٢ ـ ان الجواب عليه يستلزم قراءة الكتاب في حين ان المفتي مثقل بالاعمال (!!)

٣ ـ ان من اطلع على الفتوى يحتاج الى ان يقرأ الكتاب أولاً فاذا كان ضاراً تكون الفتوى سبباً في اذاعة الضرر (! !) .

٤ ـ ان فتوى الامام ستكون على المذهب الحنفي الذي عينته الحكومة ليفتي على اساسه في حين ان بعض المذاهب قد اباحت كشف المرأة لوجهها ويديها[1] .

أما الفصول التي اثبت الاستاذ محمد عمارة انها للشيخ محمد عبده فهي « الحجاب الشرعي » و « الزواج » و « تعدد الزوجات » و « الطلاق » ثم قال عنها « انما هي فكر خالص وصياغة خالصة للاستاذ الامام »[2] وأقول ان هذه الفصول هي اهم ما في الكتاب .

ومن هنا ندرك ان الشيخ محمد عبده يقف خلف هذه الدعوة ولذلك نرى الشيخ مصطفى صبري يكتب تحت عنوان « الاستاذ الامام وكتاب الله في كفتي الميزان » فيقول : ـ « واني أرى الرسالة المستنكرة ـ يعني رسالة الفن القصصي في القرآن الكريم ـ وما سبقها في مصر من الاحداث والفتن

---

(١) مجلة المنار المجلد ٤ جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤ في غرة ذي القعدة ١٣١٨ هـ .
(٢) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ٢٥٨ .

المماثلة الماسة بدين الاسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده كلها ناشئة من الاسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالاستاذ الامام . . فلا مناص اذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها من ان تفصل الدعوى مع الامام دون المؤتمين »[١] .

وبعد

فلعلي اقف هنا عن الحديث عن المآخذ على الشيخ محمد عبده . .

أما من كانت الحقيقة هدفه فلا شك انه واجد فيما ذكرت ما يجلوها له .

وأما من أعرض عن طلبها ووضع في ذهنه اصناماً وتماثيل لاشخاص بلغوا من القداسة حدّا لا يقبل معه كلمة في حقهم ، يعلو صوته ويحتدّ صراخه ان سمع نقداً لاحدهم في وقت لا يهيج فيه ولا يتمعّر وجهه حين يسمع السب والشتم فضلا عن التجريح لابي هريرة رضي الله عنه أو وهب بن منبه أو كعب الاحبار رضي الله عنهما من محمود ابو ريه وغيره من اتباع الافغاني ومحمد عبده .

ان مثل هذا لا نأبه له في حديثنا هنا ولم نكتب هذا لاقناعه لانه وامثاله ليس في مستطاعنا ولا مستطاع غيرنا اقناعهم الى ان يهديهم الله الى الحق والى سبيل الرشاد وحينذاك فليقرأوا حديثنا مرة أخرى .

ومن وجد فيما كتبنا فهما خاطئاً أو تأويلاً باطلاً فليرشدنا الى الحق وله منا الدعاء الحسن فما كتبنا الا للحقيقة وما طلبنا الا اياها فهي ضالتنا وهي مرادنا فيما نكتب وفيما نقول والله الهادي الى سواء السبيل .

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ١ ص ٣٤٦ .

ثالثاً: محمد رشيد رضا

يعتبر السيد الافغاني الرجل الذي انقدحت عن فكره نظرية وجوب اصلاح المجتمع الاسلامي[1] ويعتبر تلميذه محمد عبده الرجل الذي بدأ في تطبيق منهج هذه المدرسة على منهج الاسلام اعني القرآن الكريم ويعتبر تلميذه محمد رشيد رضا الرجل الذي قام بتسجيل نشاط هذه المدرسة وبثه في العالم الاسلامي عبر صحيفته « المنار » ومواصلة ما بدأته من آراء .

فهؤلاء الثلاثة يعتبرون - بحق - دعائم هذه المدرسة بقيامها على اكتافهم ورفعهم لاعلامها .

اسمه ونسبه :

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين بن السيد منلا علي خليفة البغدادي .

ويحرص رشيد رضا في كل مناسبة ان يؤكد انه ينتسب الى بيت الرسول ﷺ فنراه يقول عن الامام علي رضي الله عنه « جدنا المرتضى عليه السلام »[2] ويقول « جدنا الحسين عليه السلام »[3] ويقول « جدنا الامام

---

(١) التفسر ورجاله : محمد الفاضل بن عاشور ص ٢٤٥ .

(٢) مجلة المنار المجلد ١٣ ص١٣٢ .

(٣) المرجع السابق المجلد ١٥ ص ٧٨ .

جعفر الصادق عليه السلام »[1]

أما والدة رشيد فاسمها فاطمة وتنتسب الى البيت النبوي من جهة الأب والأم حيث يقول رشيد عنها « فاطمة أم رشيد حسنية الأب والأم »[2] .

وقد حقق الدكتور حسيب السامرائي نسب رشيد رضا هذا وهو في القاهرة فاتصل بعائلة السيد طالباً منهم التوضيح فلم يجد شيئاً جديداً ثم عرج نحو النجف وفتش كتب النسب ـ والنسب الحسيني في النجف ـ كما يقول ـ له قيمته الدينية والقيادية لأن خمس الخمس وحق الامام لا يدفع الا لمن كان حسينيا فلم أجد أثراً للعائلة ولا يوجد اسم منلا علي خليفة البغدادي ، فقلت اذن لم يكن المنلا علي خليفة البغدادي شيعياً ولعله من اهل السنة والجماعة ولا بدّ ان يكون النسب في بغداد فذهبت الى نقيب الاشراف وقلبت الانساب لعلي احظى باسم منلا على خليفة البغدادي فلم أحظ بشيء »[3]

ولا يهمنا نحن ـ بكثير ـ ان صحت نسبته الى آل البيت أو لم تصح بقدر ما يهمنا ادراك الغرض من التأكيد على انتساب هؤلاء الثلاثة الى آل البيت أو الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم .

جمال الدين ـ كما يقولون ـ ينمي نسبه الى علي الترمذي ويرتقي الى الحسين بن علي رضي الله عنهما .

ومحمد عبده ينتسب من جهة الام الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ورشيد رضا ينتمي من جهة الأب والام الى آل البيت .

احسب ان الغرض من هذا التأكيد على هذا النسب مع عدم ثبوته كما

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٥١ وجـ ١١ ص ٤٩ .

(٢) مجلة المنار المجلد ٣٢ ص ٧٣ .

(٣) رشيد رضا المفسر : حسيب السامرائي ص ٢٨٣ .

فصلنا في تراجمهم لا يخلو من هدف او اهداف واحسب ان من اهداف الظهور بمظهر القداسة عند العامة حتى يألفوهم ويتقربوا اليهم ويحسنوا الاصغاء الى اقوالهم ويزيدنا ريبه قول الافغاني الذي نقلناه في ترجمته حينما اخبر الركاب بأن السفينة لن تغرق وحين سأله احد اتباعه بعد ذلك عن ذلك اجابه « لو غرقت السفينة لم اجد منهم احدا يكذبني وان سلمت ظهرت بالقداسة من اقرب سبيل »[1] .

وأحسب ان من اهدافه ان يكون هذا النسب حصانة لهم من أذى الدولة او استخفاف الخصوم ولهذا يذكر الدكتور احمد الشرباصي ان حرص رشيد على ذكر هذا النسب خف حينما خفّ ما سماه (كابوس الطغيان العثماني) من جهة وسطع نجم رشيد رضا من جهة اخرى »[2] .

مولده ونشأته :

ولد يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨ تشرين الأول ١٨٦٥م في قرية « قلمون » على شاطىء البحر جنوب طرابلس الشام على بعد ثلاثة اميال نشأ بها ودخل في كتابها وتعلم فيه قرآءه القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب ثم دخل المدرسة الرشدية بطرابلس الشام وهي ابتدائية تابعة للدولة العثمانية والتعليم فيها بالتركية لأنها تعد خريجها لتولي الوظائف الحكومية وتركها بعد عام والتحق بالمدرسة الوطنية الاسلامية بطرابلس ايضا سنة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢م وكان التعليم فيها بالعربية وتدرس بها اللغتان التركية والفرنسية وكان الشيخ حسين الجسر هو المنشىء لهذه المدرسة وهو احد علماء الشام الافذاذ ولم يطل عمر هذه المدرسة فأغلقت وتفرق طلبتها والتحق السيد بالمدارس الدينية بطرابلس ومع هذا فلم يقطع صلته باستاذه حسين

---

(١) نابغة الشرق جمال الدين الافغاني : سعيد الافغاني ص ٩١ - ٩٢ وجمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ٥٠ - ٥١ .

(٢) رشيد رضا صاحب المنار : ماحمد الشرباصي ص ١٠٦ - ١٠٧ .

الجسر فظل ينهل الكثير من المدرسة ومن الشيخ حتى نال الشهادة العالية من المدرسة ونال الاجازة في التدريس من شيخه وكان السيد رشيد مقدما عند استاذه وزادت ثقته فيه حتى صار يطلب رأيه في مؤلفاته وكان السيد لا يهاب ابداء رأيه وظل رشيد موضع تقدير استاذه الذي اتاح له الكتابة في الصحف وكان لهذا التوجيه من استاذه اثر كبير في حياته وكان له اساتذة آخرون اخذ عنهم علم الحديث والفقه والأدب والبلاغة ولم يكن لاحدهم من التأثير ما للأول .

وفي الحق ان السيد رشيد تأثر في حياته برجلين وكتاب ومجلة اما الرجلان فتقدم ذكر الأول اما الثاني فمحمد عبده . اما الكتاب فكتاب احياء علوم الدين للغزالي اما المجلة فالعروة الوثقى .

مع الغزالي :

قرأ السيد رشيد احياء علوم الدين للغزالي ودأب على مطالعته مرارا وتكرارا حتى صار له بالغ التأثير في سلوكه فأحب التصوف وانقطع للعبادة وحدث عن نفسه بعد صلاة العيد فقال « صعدت الى غرفة خلوتي واتممت قراءة ما بلغته من الأحياء وفيه ذلك البحث البليغ العظيم التأثير في الفناء والتوحيد فما اتممته الا وشعرت بأنني في عالم آخر من اللذة الروحية وانه لم يبق لي وزن فكأني روح بغير جسم[1] » واستمر السيد في طريقته الصوفية .

الأمر بالمعروف

وكان السيد مع هذا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فأعلن انكاره لما يحدث في مجالس الذكر لجماعة المولوية وكان يقرأ الدروس في المسجد ويحث في خطبة الجمعة على الاصلاح ويذهب الى المقاهي وينصح من فيها باداء الصلوات ويبسط في تعليمهم ابواب الفقه ويقرب قواعده للعامة ويحذر من التبرك باصحاب القبور ويأمر بقطع الاشجار التي يتبرك فيها بعض العوام

---

(١) رشيد رضا : ابراهيم احمد العدوي ص ٣٥ .

ويلقي الدروس على نساء القرية لتعليمهن امور دينهن في الطهارة والعبادات واللباس .

العروة الوثقى

كان هذا تصوفه وكانت تلك بداية اصلاحه وهما نتيجة تأثره باحياء علوم الدين الى ان التقى بالمؤثر الثاني الذي يحدث عنه رشيد فيقول : « كنت أقلب في أوراق والدي فرأيت عددين من جريدة العروة الوثقى فقرأتهما بشوق ولذة ففعلا في نفسي فعل السحر »[١] « وكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور الى طور ومن حال الى حال »[٢] ويصف الطورين والحالين فيقول « كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا . . . فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب ارشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الامم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفقت استعد لذلك استعداداً »[٣] .

مع الأفغاني وعبده :

واشتهر حبه وتعلقه الشديد بالافغاني ومحمد عبده حتى صار الثناء عليهما أمامه يعتبر تقرباً اليه .

وكتب الى الافغاني وهو في الآستانة كتاباً ابان له فيه ما يكنه له من محبة وتأييد وسأله ان كان يقبله مريداً يتلقف الحكمة منه وتلميذاً يقوم ببعض الخدمة[٤] .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام رشيد رضا جـ ١ ص ٨٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٠٣ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٤) تاريخ الاستاذ الامام رشيد رضا جـ ١ ص ٨٧ .

وكان الشيخ محمد عبده في الشام منفياً من مصر والتقى به السيد رشيد مرتين في طرابلس في مناسبتين قصيرتين كان نتيجتهما زيادة إعجاب السيد رشيد بالإمام ورغبته في الاتصال به .

رحلته إلى مصر :

وبعد ان توفي الافغاني سنة ١٣١٤ هـ عزم السيد رشيد على الرحيل الى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته الاستاذ الامام لتلقي الحكمة منه[١] .

وكان وصوله الى القاهرة يوم السبت ٢٣ رجب ١٣١٥ هـ .

اللقاء :

وفي ضحوة الاحد ذهب الى زيارة الاستاذ محمد عبده بداره في الناصرية وكان أول حديث لهما في هذا اللقاء الأول عن اصلاح الازهر وما قام به الامام من اصلاحات فيه وكان اول اقتراح له عليه ان يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجد روحها ونورها في مقالات العروة الوثقى[٢] . فلم يوافق الامام بل اجابه ان القرآن لا يحتاج الى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة اتقن بعضها ما لم يتقنها بعض ولكن الحاجة شديدة الى تفسير بعض الآيات فاقترح عليه رشيد ان يقرأ درساً في التفسير واكثر عليه القول في ذلك في زياراته التالية .

درس التفسير :

فوافق الامام وبدأ الدرس في غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ هـ عند تفسير قوله تعالى ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ من الآية ١٢٥ من النساء[٣] وتقدم بيان طريقته في ذلك ولم يتوقف

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٩٨ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٧٦٥ . (٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٧٦٨ .

التفسير بموت الامام فواصل السيد رشيد التفسير من حيث توقف استاذه .

منهجه في التفسير

ويصف طريقته بعد وفاة أستاذه في التفسير فيقول « هذا وانني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء وفي الاكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها »[1] .

كانت تلك طريقته في التفسير بعد وفاة استاذه واكمله الى الآية ١٠١ من سورة يوسف وطبع الجزء الثاني عشر والاخير من المنار الى نهاية الآية ٥٣ من سورة يوسف أما الباقي من السورة فاكمله الاستاذ بهجت البيطار وطبعه باسم رشيد رضا في كتاب مستقل[2] يشمل السورة كاملة .

جريدة المنار :

كان من اغراض السيد رشيد الباعثة له على الانتقال من الشام الى مصر انشاء صحيفة اصلاحية الا انه احب اخذ موافقة استاذه اولا فاستشاره في ٦ شعبان ١٣١٥ هـ وبعد نقاش وحوار وافق الاستاذ بعد ان اقترح ثلاثة امور :

١ ـ ان لا يتحيز لحزب من الاحزاب .
٢ ـ ان لا يرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض له بذم او انتقاد .
٣ ـ ان لا يخدم افكار احد من الكبراء[3] .

ثم شاوره في اختيار اسم لها وعرض عليه مجموعة من الاسماء فأختار

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٦ .
(٢) التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢٤٣ .
(٣) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٠٠٣ .

اسم المنار وصدر العدد الأول في ٢٢ شوال سنة ١٣١٥ هـ ١٧ مارس ١٨٩٨ م وأعلنت فيه أغراضها وهي نشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية واقامة الحجة على ان الاسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافر مع الظروف الحاضرة وان غاية رشيد من انشاء المنار مواصلة السير على منهج العروة الوثقى[١] .

وآخر ما طبع من المنار الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين في ٢٩ ربيع ثاني ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥م .

وبذل الامام وسعه في بثها وانتشارها فكان يثني عليها في مجالسه ويتحدث عنها وكأنه صاحبها وبالمقابل كانت الصحيفة سبب شهرة الاستاذ وبث آرائه وافكاره وتفسيره ولمس الاستاذ الامام ذلك عندما زار تونس والجزائر[٢] .

الاصلاح :

جعل السيد رشيد رضا صحيفته منبراً للاصلاح ونشر فيها مقالات استاذه الاصلاحية وكتب بنفسه مقالات اخرى واستكتب العلماء والأدباء الذين يشاركونهم المهنة .

واشتهر اسم السيد رشيد رضا ليس في العالم العربي فحسب بل وفي العالم الاسلامي وبلاد اوروبا فراسله العلماء والجمعيات والافراد والمستشرقون وكلهم يشيد بالمنار .

البدع :

فقويت الحاجة الى نشر الاصلاح فحذر من البدع والخرافات السائدة في المجتمع وبين ان الاسلام بريء منها وحمل العلماء مسؤولية انتشارها

---

(١) رشيد رضا تأليف ابراهيم احمد العدوي ص ١٣٥ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٠١٧ .

ووجوب قلعها من جذورها وبين ان العلماء والحكام بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الانسان وان صلاح حالهما يصلح حال الأمة وان العلماء هم القائمون على الطب الروحاني الذي هو تهذيب الاخلاق وتقويم العادات وبين لهم الطريق الى ذلك بأنها طريقة الوعظ والتعليم بالخطابة من على المنابر وفي اماكن البدع نفسها وتحمل المشاق المترتبة على ذلك مع تحلي الدعاة بالاخلاق الفاضلة والآداب الاسلامية السامية .

التربية والتعليم :

وواصل السيد رشيد في صحيفته دعوة استاذه الى اصلاح التربية والتعليم فحذر الراغبين في اصلاح التربية والتعليم من تقليد المدارس الحكومية السائدة اذ ان هدف تلك المدارس اعداد تلاميذها للوظائف « ومن يرمي بتعليمه الى هذا الغرض فهو خاسر . . وأجدر بتعليم هذا شأنه ان يسعى في ازالته »[1] وبين الفنون التي يجب ادخالها في ميدان التربية والتعليم لمسايرة ركب العلم والعرفان وهي علم اصول الدين وتهذيب الاخلاق وفقه الحلال والحرام والعبادات والاجتماع وتقويم البلدان والتاريخ والاقتصاد وتدبير المنزل والحساب والصحة وعلم لغة البلاد والخط[2] ودعا الناس الى انشاء المدارس بأنفسهم لأن المدارس الحكومية في عهده خاضعة للاستعمار مع انتشار المدارس التبشيرية .

معهد الدعوة والارشاد :

حينما اشتدت الحاجة الى دعاة على قدر كبير من الوعي والقدرة على الاصلاح وردت اليه كتب من اطراف العالم الاسلامي تطلب منه بذل العون والمساعدة لهم ضد الارساليات التبشيرية التي اغرقت البلاد بمبشريها

---

(١) مجلة المنار العدد ٣٠ في ٢٤ جمادي الأولى سنة ١٣١٦ هـ المجلد الأول ص ٧٥٠ .

(٢) رشيد رضا لابراهيم العدوى ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

ومدارسها فرأى السيد رشيد ان من الواجب انشاء مدرسة لتخريج الدعاة وارسالهم الى تلك الاقطار . فكتب في المنار عن ذلك ولم يكتف بالمقالات فزار الآستانة وحصل على الموافقة على ذلك[1] وافتتحت في ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ وكانت تعطي الطالب شهادة مرشد بعد ثلاث سنوات تؤهله للدعوة والارشاد بين المسلمين أما اذ واصل سنوات ثلاث اخرى فيصبح داعياً من الدعاة لغير المسلمين للدخول في الاسلام وكان لهذه المدرسة اثر كبير في اعداد الدعاة .

اصلاح الازهر :

وسار على نهج استاذه في اصلاح الازهر وكتب كثيراً من الانتقادات والآراء وزادنشاطه وحماسه بعداستقالة استاذه ووفاته إذ أحس ان عليه العبء الأكبر بعد ذلك وكان يلقى من المشاق الكثير وكان خصومه اكثر من خصوم استاذه اذ ان خصوم استاذه خصوم له بالتبع ويفوقه بخصومه هو فاضطر الى تأليف كتاب عن « الازهر والمنار » سنة ١٣٥٢ هـ شرح فيه آراءه وخلاصة تجاربه في هذا الميدان وما اعترضه من عقبات[2] .

مطبعة المنار :

وكان السيد قد انشأ للمنار مطبعة خاصة بعد ان كانت تطبع في المطابع التجارية ولم تقتصر تلك المطبعة على طبع المنار فحسب بل كانت تطبع الكتب الاسلامية .

في السياسة :

كتب السيد رشيد مقدمة العدد الأول ونقد عليه استاذه فيها تدخله في السياسة وبيان ما للأمة على الامام وما للامام على الامة . . وحذره من الخوض في السياسة والتدخل فيها وكان السيد يمتثل أمر استاذه .

---

(١) رحلات رشيد رضا جمع وتحقيق يوسف أيبش ص ٦١ ـ ٧٣ .

(٢) رشيد رضا ابراهيم العدوى ص ٢٠٧ .

وفي ذلك الوقت كان عبد الرحمن الكواكبي طليقاً يكتب في السياسة ما يشاء والف « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » فلم يقف السيد رشيد مكتوف اليدين امام هذا النشاط فنشر تباعاً « سجل ام القرى » فساعد على ترويج المنار .

وظل رشيد يجد من استاذه كابحاً لجماحه كلما هم بالانطلاق نحو معترك السياسة(1) ولما توفي الاستاذ دخل السيد رشيد ميدان السياسة جهاراً فنقد الدولة العثمانية وانشأ مع العثمانيين المقيمين في القاهرة « جمعية الشورى العثمانية » وتولى رئاستها وبدأت ترسل منشوراتها السرية الى سائر ارجاء البلاد العثمانية فأقلق مضاجع السلطة الى ان وقع الانقلاب العثماني وكان رشيد من الساعين الى هذا الانقلاب بالخفاء(2) .

وحينما احتلت ايطاليا طرابلس الغرب كتب عشر مقالات بعنوان المسألة الشرقية(3) حذر فيها من الخطر الذي يحدق بالعالمين الاسلامي والعربي . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى حاول الانجليز استمالته اليهم ولما لم يروا منه ذلك صار تحت مراقبتهم(4) .

ونشط في ابداء آرائه السياسية في جميع الاحداث في تلك الفترة وما وبعدها وكان له مشاركة في محاربة الصهيونية وسعيها الى الاستيلاء على فلسطين فاشترك في المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف سنة ١٩٢١م ووقع الاختيار عليه ليكون نائباً لرئيس المؤتمر وكتب سلسلة من المقالات عن ثورة فلسطين اسبابها ونتائجها وحقائق في بيان حال اليهود والانجليز والعرب .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ ـ ٢١٩ .
(٢) مجلة المنار مجلد ١٤ ص ٤٣ .
(٣) رشيد رضا ص ٢٣٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

مؤلفـاته :

وكان له نصيب كبير في الكتابة والتأليف حـتى قال عنه شكيب ارسلان « ولم أكن ارى في عصرنا هذا اصبر على الكتاب واجلد على الشغل واسيل قلما واسرع خاطراً من الشيخ رشيد فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط بنانه في حياته على خمسين كاتب لاصاب كلا منهم قسط يجدر بأن يجعله في صف المؤلفين العاملين »[1] ومن الصعب حصر مقالاته وكتاباته الصحفية ومؤلفاته العلمية ونكتفي بذكر ابرزها :

١) الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية وهو اول مؤلفاته دونه اثناء طلبه العلم في الشام .

٢) مجلة المنار وسبق الحديث عنها .

٣) تاريخ الاستاذ الامام في ثلاثة مجلدات وهو أوسع ترجمة للامام محمد عبده .

٤) نداء للجنس اللطيف . ٥) الوحي المحمدي . ٦) : المنار والازهر .

٧) ذكرى المولد النبوي ٨) الوحدة الاسلامية . ٩) يسر الاسلام .

١٠) الخلافة . ١١) الوهابيون والحجاز .

١٢) السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة . ١٣) مناسك الحج .

١٤) تفسير المنار وسبق الحديث عنه .

١٥) الربا والمعاملات في الاسلام .

١٦) مساواة الرجل بالمرأة ١٧) رسالة في ابي حامد الغزالي .

١٨) المقصورة الرشيدية . ١٩) شبهات النصارى وحجج الاسلام .

٢٠) خلاصة السيرة المحمدية . ٢١) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن .

٢٢) انجيل برنابا . ٢٣) المسلمون والقبط .

٢٤) عقيدة الصلب والفداء . ٢٥) محاورات المصلح والمقلد .

---

(١) شكيب ارسلان : رشيد رضا أو اخاء اربعين عاما ص ١٦٢ و١٦٣ .

٢٦) فتاوى السيد رشيد رضا . ٢٧) ترجمة القرآن .

وكانت تلك مؤلفاته المطبوعة بالاضافة الى العديد من المقالات الصحفية والرسائل بينه وبين العلماء نذكر لذلك مثلا رسائله الى شكيب ارسلان التي بلغت نحو مائتي رسالة منها ما يتجاوز عشر صفحات[١] .

وفـــاته :

خرج السيد رشيد رضا يوم الخميس **٢٣** جمادي الأولى **١٣٥٤** هـ **٢٢** اغسطس **١٩٣٥** م لوداع الامير سعود بن عبد العزيز في السويس واثناء عودته بالسيارة وقبل وصوله مصر الجديدة كان منصرفاً لقراءة القرآن وما زال يقرأ حتى اصابه دوار من ارتجاج السيارة وتقيّأ ثم عاد الى القرآن يقرأه ثم اتكأ على ظهره في السيارة وقد فاضت روحه في منتصف الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم ودفن رحمه الله في قرافة المجاورين فى قبر بجوار استاذه محمد عبده[٢] .

سلفيته :

واحسب ان الحديث عن السيد رشيد رضا لا يتم الا بالحديث عن سلفيته ، كيف لا وهي الصورة التي رسخت في اذهان الناس عنه .

ولعل الحديث عن مثل هذه السمة البارزة في شخصية السيد رشيد يطرح سؤالا عريضاً عن كيفية جمع السيد رشيد لصفة السلفية مع انتمائه الى المدرسة العقلية الحديثة وهم الى المعتزلة أقرب منهم الى السلف .

الحق ان السيد رشيد ـ وهذا حسب اعتقادي ـ بدأ يتحوّل تدريجياً من منهج المدرسة العقلية الحديثة الى منهج السلف ولعل بداية هذا التحول تعقب وفاة استاذه محمد عبده .

وهو وان لم يكن تحولاً كاملا الا أنه كان في ازدياد الى ان ادركته الوفاة

---

(١) رشيد رضا ـ ابراهيم العدوى ص ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨١ ـ ٢٨٣ .

وتبدو مظاهر هذا التحول عن سيرة سلفه التي ساروا عليها فيما يلي : ـ

أولاً : منهجه في التفسير

فقد نصّ في تفسيره على انه خالف منهج استاذه بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفي الأكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر أو يقوي حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التي اعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس[1] .

ثانياً : عنايته بكتب السلف وطبعها في مطبعة المنار وذلك بطبع كتب ابن تيمية وابن القيم والشيخ محمد بن عبد الوهاب ونحوهم وهو أمر اشتهر به السيد رشيد والمنار حتى سماه خصومه بالوهابي .

وبذل جهداً كبيراً في الدفاع عن العقيدة السلفية المتمثلة في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فكتب مقالات عديدة في الدفاع عنها بل تجاوز هذا الى التأليف فألف كتاب :

١ ـ السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة « ردّ فيه على خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الشيعة والرافضة » .

٢ ـ الوهابيون والحجاز « وهو مجموعة مقالات كتبها حينما هاجم خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحركة الاصلاحية ووصفوها بالابتداع والخروج عن الاسلام ، شرح فيها حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومبادئها واهدافها وحالة اتباعها في عصره وانهم لا يرجى غيرهم في اعادة ما للمسلمين من عزة ومجد[2] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٦ .

(٢) الوهابيون والحجاز : محمد رشيد رضا ص ١٠ .

ونشاطه في طبع كتب السلف وتحقيقها والتعليق عليها بما يوضحها ويجلوها للناس أمر لا يخفى ، وكان لها الأثر الكبير في تحوله الى مذهب السلف وتأثره بهم عن طريق كتبهم .

ثالثاً : الخصومة بينه وبين اتباع المدرسة العقلية الحديثة من تلاميذ الشيخ محمد عبده فقد ادركوا تحوله عن منهج شيخه وجرت بينه وبينهم مناقشات حادة في الصحف وكثيراً ما هاجموه وهاجموا آراءه الجديدة ومن هؤلاء الاستاذ محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة المصرية فقد فتح مجلته للهجوم على السيد رشيد رضا ، ويذكر السيد رشيد ان السبب في ذلك هو وقوفه ضد علي عبد الرازق وكتاب « الاسلام واصول الحكم » الذي انكر فيه التشريع الاسلامي من اساسه[1] .

ومن هؤلاء الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ محمد فريد وجدي فقد حاربوه على صفحات مجلتهم (العلم) الناطقة باسم الحزب الوطني ووصفوا جمعية الدعوة والارشاد ومدرستها التي يقوم السيد رشيد رضا برئاستها بأنها تعمل لاسقاط الخلافة العثمانية وانشاء خلافة عربية ، وهم يقصدون بهذا ان تقطع الدولة العثمانية عنها معونتها وتغلق ابوابها ويخسر السيد رشيد بابا من ابواب الاصلاح التي افتتحها ورد السيد رشيد على هذا وبادر الى اعلان نظام جمعية الدعوة والارشاد بكل وضوح[2] .

ولم يكن هؤلاء وحدهم خصومه بل كان منهم كل من يحارب الاسلام فضلا عن الدعوة السلفية اذكر من هؤلاء سلامة موسى الذي حمل على رشيد رضا حملة قوية حتى قال « ان بلدة طرابلس الشام صدرت الى مصر في تاريخها الحديث نكبتين : أولهما الطاعون وثانيهما الشيخ رشيد رضا »[3] .

---

(١) مجلة المنار المجلد ٢٨ ص ٢٤٠ .

(٢) مجلة المنار المجلد ١٥ ص ٩٢٥ والمجلد ١٣ ص ٤٦٥ وما بعدها .

(٣) محمد عبده : محمد صبيح ص ٦ .

ومع ان الخصومة بينه وبين الاستاذ هيكل والشيخ جاويش لم تمتد طويلاً فقد انتهت بالمصالحة والتراضي الا ان هذا يرجع الى سماحة السيد رشيد رضا ولين جانبه وتناسيه لاخطائهم بل كان سريع التأثر اذا ذكروا بعد موتهم عنده ولما مات جاويش كتب عنه السيد رشيد رضا في مجلة المنار ومدحه ورثاه[1] .

رابعاً : ان علاقة السيد رشيد بالانجليز لم تكن كعلاقة الافغاني وعبده المريبة بهم فقد كان السيد رشيد يعلن حربه للاستعمار بجميع اشكاله الانجليزي والفرنسي والايطالي .

ولم تكن له علاقة وطيدة مع رجال الانكليز بل لم تربطه اي علاقة وطيدة مع أي انجليزي الا مستر متشل انس الذي وصفه السيد رشيد بأنه كان من خيار الانكليز ، الذين تقلدوا بعض اعمال الحكومة بمصر[2] .

وكثيراً ما حذر السيد رشيد المسلمين من مخططات الانجليز وفضح اساليبهم ووصفهم بانهم اعداء الخلافة الاسلامية والعرب معاً ، وانهم الذين يحاربون دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويساعدون خصومهم بالمال والعتاد ويذكر موانع انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأنها الدولة العثمانية ومحمد علي باشا ودولة الدسائس الشيطانية[3] ويقصد بها بريطانيا .

أما الاستعمار الايطالي فقد كتب عنه حينما احتلت ايطاليا طرابلس الغرب عشر مقالات بعنوان المسألة الشرقية حذر فيها من الخطر الذي يحدق بالعالمين الاسلامي والعربي حتى اضطر وكلاء الدول الأوروبية في مصر الى الالتجاء الى المعتمد البريطاني في مصر ليوقف هذه المقالات ويحول دون انتشارها بين الامة العربية[4] .

---

(١) رشيد رضا او اخاء اربعون عاما : شكيب ارسلان ص ١٥٠ و ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٠ ص ٤٢٢ .
(٣) مجلة المنار المجلد ٢٦ ص ٢٠٥ .
(٤) رشيد رضا : ابراهيم العدوى ص ٢٣٨ .

أما الاستعمار الفرنسي فقد كان له نشاط كبير في كفاحه ومهاجمة سياسته الرامية الى تنصير المسلمين ونقد الازهر في عدم اصداره احتجاجاً على فرنسا بهذا المعنى[1] وكان كفاحه وحربه للاستعمار الفرنسي كبيراً ليس هذا مكـان استقصاؤه .

ومن هنا ندرك انه خالف منهج الافغاني وعبده في حرب الاستعمار فهما لم يشيرا في مجلتهما العروة الوثقى الى غير الاستعمار الانجليزي ـ كما مر ـ مع علاقتهم المريبة بهم .

أما هو فقد كان حربه صريحاً ومتنوعاً للاستعمار بجميع اشكاله والوانه .

خامساً : انه لم يدخل الماسونيـة بل كان يحذر منها ومن الانتساب اليها ومن رواجها بين المسلمين[2] وكان اذا عاب أحد عنده الافغاني أومحمد عبده بدخول الماسونية اكتفى بقوله « نعم هما داخلان في الماسونية ولكن انا لم ادخل فيها[3] » .

سادساً : ثم حربه لجمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبد الحميد بعد ما تكشفت له اهدافها التي ترمي اليها من القضاء على الخلافة الاسلامية وتأسفه على الخلافة الاسلامية ووصفه لجمعية الاتحاد والترقي بأنها جمعية الاحمرين الدم والذهب[4] ووصف مصطفى كمال اتاتورك بالالحاد والمروق من الدين الاسلامي[4] وأخذ يدعو بعد هذا بشده الى اعادة الخلافة الاسلامية والف في ذلك كتابه « الخلافة أو الامامة العظمى » ولم يكتف بالكتابة بل كان له نشاط عملي ودعا الى عقد مؤتمر للخلافة في مصر

---

(١) المنار والازهر : رشيد رضا ص ١٤ .
(٢) مجلة المنار المجلد ١٤ ص ٣١٨ .
(٣) الاسلام والحضارة الغربية محمد محمد حسين ص ٩٦ .
(٤) مجلة المنار المجلد ١٦ ص ١٤٥ وانظر المجلد ١٩ ص ١٥٩ .

عام ١٣٤٣ هـ وتم انعقاد المؤتمر ولم تكن له نتيجة مشجعة[1] .

ومن هذا ندرك مدى مخالفة السيد رشيد رضا لسيرة استاذيه الافغاني ومحمد عبده ولم يكن هذا التحول فجائياً بل كان التدرج واضحاً في سيره فقد كان يزداد قرباً الى منهج السلف كلما امتد به العمر الى ان توفاه الله .

ولا يعني هذا خروج رشيد رضا من نطاق بحثنا هنا فانا لا نحاسبه على الجانب أو الجوانب السلفية منه في فكره فهذه امور نحمدها له ونذكرها .

ولكن نعنى هنا بالجانب الآخر من فكره وهو جانب تأثره بالافغاني ومحمد عبده الذي بقي أثره معه الى وفاته لم ينفك عنه وليس هو بالقليل .

---

(١) رشيد رضا أو اخاء اربعين عاماً ص ٣٥٢ - ٣٥٣ وص ٤٤٤ - ٤٥٠ .

رابعًا: محمد مصطفى المراغي

يوضح لنا الاستاذ انـور الجندي علاقة المراغي بمحمد عبده بأنه اذا كان الامام المراغي اكبر تلاميذ الامام كما يقول تشارلز آدمز فهو في الحق اقربهم اليه . واذا ذهبت تقارنه برشيد رضا ومصطفى عبد الرازق وضح لك هذا المعنى أما الشيخ رشيد فقد مال الى الصحافة والتوجيه الكتابي ولم يكن خطيباً وكانت آراؤه في نطاق متحفظ أقل جرأة من محمد عبده واقرب الى الجمود أما الشيخ عبد الرازق فقد كان اقرب الى الفلاسفة والأدباء والمعلمين منه الى المصلحين وكان منزعه الى الادب اقرب أما المراغي فقد كان سوياً على الصراط مصلحاً ازهرياً بالفطرة لم تأخذه الصحافة ولم تمل به السياسة ولم يذهب مذاهب الأدباء والفلاسفة[1] .

نشأته :

هو محمد مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي .

ولد في قرية « المراغة » من مديرية جرجا في الصعيد في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ هـ الموافق ٩ مارس سنة ١٨٨١ م وبدأ في طلبه العلم كأنداده فحفظ القرآن في الكتاب وتردد على بعض العلماء في مدينة طهطا المجاورة للمراغة وانتقل بعد ذلك الى الازهر لمواصلة الدراسة في وقت

---

(١) الامام المراغي انور الجندي ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

كانت تسوده حركة فكرية اصلاحية امامها الشيخ محمد عبده فكان له الأثر في تكوين عقليته الاسلامية وتعلقه بالامام واعجابه به فحضر دروس البلاغة والتفسير التي كان الامام يلقيها في الازهر ولم يلبث في الازهر طويلاً فتقدم في سنة ١٩٠٤م لشهادة العالمية فأعطي الدرجة الثانية وعين مدرساً في الازهر .

في القضــاء :

وبعد فترة قصيرة وفي نفس العام صدر الأمر بتعيينه قاضيا في مدينة دنقلة في السودان ثم عين في سنة ١٩٠٦ م قاضياً لمديرية الخرطوم ثم نقل الى مصر مفتشاً بوزارة الاوقاف سنة ١٩٠٧ وصدر الامر بعد ذلك في اغسطس ١٩٠٩م بتعيينه قاضياً لقضاة السودان وكان من اصلاحاته في هذا المنصب ان طالب كل محكمة ان ترسل كشفاً شهرياً بالقضايا والاحكام الصادرة فيها فيراجعها ويصحح الاخطاء ان وجدت بل ربما استدعى القاضي وناقشه في القضية[١] ثم نقل الى مصر في سبتمبر سنة ١٩١٩م بوظيفة رئيس للتفتيش الشرعي وتقلب بعدها في عدة مناصب كان من اهمها رئاسة المحكمة العليا الشرعية في سنة ١٩٢٣م حيث أصدر أمراً بتشكيل « لجنة تنظيم الاحوال الشخصية » برئاسته وكان يقول لاعضاء اللجنة « ضعوا من المواد ما يبدو لكم انه يوافق الزمان والمكان وانا لا يعوزني بعد ذلك ان آتيكم بنص من المذاهب الاسلامية يطابق ما وضعتم »[٢] !!

شيخ الأزهــر :

وفي ٢٢ مايو سنة ١٩٢٨م عين شيخاً للازهر فكان ان تقدم بقانون جديد للازهر وهو يلخص تلك الاصلاحات في جوابه لسؤال من محرر جريدة الهلال فيقول : « نريد ان نقصر الازهر على الاقسام العالية واقسام التخصص

---

(١) الامام المراغي انور الجندي ص ١٧ .

(٢) المجددون في الاسلام عبد المتعال الصعيدي ص ٥٤٨ .

فقط أما القسم الابتدائي والقسم الثانوي فسنؤسس لهما مدرستين بالقاهرة . . « وبعد ذلك يدخل الطالب الازهر وهو ثلاث كليات الشريعة للقضاء والفقه واللغة العربية وهي تشبه دار العلوم بل المراد منها ان تقوم مقامها واصول الدين حيث يدرس الطالب جميع الاديان ومقابلة كل دين بآخر . . وفي كل هذه الكليات الثلاث يدرس الطالب لغات اجنبية ولغة شرقية قديمة أو حديثة »[١] .

ولا يتحقق للشيخ شيء مما اراد وتقف في سبيله العقبات فيستقيل في العاشر من اكتوبر ١٩٢٩م[٢] وقد صدرت خطة الاصلاح التي وضعها في القانون المعروف بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م[٣] ولكن بتعديل[٤] وفي السابع والعشرين من ابريل سنة ١٩٣٥م يعود الشيخ مرة اخرى الى مشيخة الازهر فيجري فيه بعض التعديلات وبدأ بتنظيم البعثات وبعد عودتهم لم يحققوا كل امله فيهم وكان يعلن ذلك في اسف الى خاصته ولم يهتم بعد ذلك بارسال بعثات اخرى[٥]، وقسم الوعظ ومعهد القراءات ولجنة الفتوى ووضع مشروع المدينة الازهرية ومكتب البحوث الثقافية والمعاهد والوحدة الطبية[٦] ويستمر في هذا المنصب وتلك الاصلاحات الى وفاته .

اعمالـــه :

من ابرز اعمال الشيخ المراغي التي تدل على منهجه الفكري :

١ ـ تقريره عن الاحوال الشخصية الذي صدر القانون المصري عليه

---

(١) مجلة الهلال المصرية أول يوليه ١٩٢٩م ٢٤ محرم ١٣٤٧ هـ الجزء التاسع السنة ٣٧ المجلد الثاني ص ١٠٣٨ .

(٢) الشيخ المراغي باقلام الكتاب جمع ابو الوفا المراغي ص ١٢٢ .

(٣) الاسلام والتجديد في مصر تشارلز آدمز ص ٢٠٠ .

(٤) الشيخ المراغي بأقلام الكتاب جمع ابو الوفا المراغي ص ١٦ .

(٥) المرجع السابق ص ١٨ .

(٦) الامام المراغي انور الجندي ص ٧١ .

ولم يتقيد فيه بالمذاهب الاربعة[1] بناء على دعوته الى الاجتهاد ونبذ التقليد . وقد تجاوز بدعوته الحقّ وندّت منه عبارة تدل على ان قائلها يريد ان يكيف النصوص الموافقة المجتمع لا ان يكيف المجتمع لموافقة النصوص حيث يقول لاعضاء اللجنة « ضعوا من المواد ما يبدو لكم انه يوافق الزمان والمكان وانا لا يعوزني بعد ذلك ان آتيكم بنص من المذاهب الاسلامية يطابق ما وضعتم »[2] وهذا لا يعدّ اجتهاداً فضلا عن انه اخذ من المذاهب الاسلامية ولم يستنبط حكماً جديداً بالاجتهاد فهو تقليد فـرّ منه اليه والى شر منه .

٢ ـ اصلاح الازهر وسبق الحديث عنه .

٣ ـ فتواه في جواز ترجمة القرآن الى اللغات الاخرى وهو يقسم القرآن للترجمة الى قسمين فيقول : « ان بعض آيات القرآن يمكن ان تترجم ترجمة حرفية وبعضها لا يمكن ان يترجم ترجمة حرفية »[3] ويجوز استنباط الاحكام من الترجمة[4] بل الناظر الى الترجمة الحرفية لا يكون مقلداً فيها المترجم في فهم المعنى ويكون مقلداً في النوع الثاني من الترجمة ويرى وجوب الصلاة بالترجمة الحرفية للعاجز عن العربية[5] مع اقراره بأن هذه « التراجم لا يصح ان تسمى القرآن »[6] وقوله « ان الفقهاء لا يجيزون الصلاة بـالتفسير بالاجماع »[7] وسنعرض لهذا بمزيد بيان ان شاء الله .

٤ ـ مطالبته بحل جميع الهيئات الدينية ومن بينها جماعة الاخوان

---

(١) تراجم الاعلام المعاصرين انور الجندي ص ٤٣١ .

(٢) المجددون في الاسلام عبد المتعال الصعيدي ص ٥٤٨ ، الفتح المبين في طبقات الاصوليين عبد الله مصطفى المراغي جـ٣ ص ١٩٨ ، تراجم الاعلام المعاصرين انور الجندي ص ٤٢٨ .

(٣) بحث في ترجمة القرآن محمد مصطفى المراغي ص ١٣ .

(٤) بحث في ترجمة القرآن محمد مصطفى المراغي ص١٢ .

(٥) المرجع السابق ص ١٩ و٢٧ .

(٦) المرجع السابق ص ١٢ و ٢٩ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٧ .

المسلمين لأن هذه الهيئات اباحت لنفسها استصدار الفتوى ونشرها على الناس بما يتفق واغراضها . . ولكن الامام المراغي مات قبل ان تنفذ رغبته (١) .

تفسيـــره :

سن الملك فاروق الأول سنة حسنة وذلك بتعيين المراغي لالقاء درس في التفسير في بعض المساجد في شهر رمضان وكان الملك يحضره بنفسه مما كان له اثره في الاقبال على ذلك الدرس مع نقله في الاذاعة وطبعه في مجلة الازهر ثم نشره مستقلاً .

ولم يكن الشيخ المراغي من المكثرين في التفسير بل كان مقلاً ولا يتناول فيه الا آيات وسور قليلة . أما الآيات فمن سور متفرقة أما السور فالحجرات والحديد ولقمان والعصر والملك .

منهجه في التفسير :

كان للشيخ عناية في اختيار الآيات لدروسه فكان يختار منها ما تتجلى فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمته وما تظهر فيه وسائل هداية البشر ومواضع العظة والعبرة وما تظهر ان القرآن لا يقف في سبيل العلم ولا يصادم ما صح من نظرياته وقواعده(٢) .

وكان لا يحاول ان يجلو ما ابهمه القرآن واعرض الرسول ﷺ عن بيانه ولا يقحم في تفسيره الاسرائيليات فيقول مثلاً في تفسير قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾(٣) ونحن لا نعلم ما هو الذي فرضه الله على الامم السابقة من قبل : أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس ام غيره

---

(١) لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا عبد المتعال الجبري ص ٣٩ .
(٢) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٣٦٠ .
(٣) سورة البقرة من الآية ١٨٣ .

وليس لنا ما يهدينا الى شيء معين من دليل يطمئن اليه القلب »[1] وكان له عناية باظهار اسرار التشريع ومعالجة المشاكل الاجتماعية وعناية في التوفيق بين القرآن والعلم وذكر لاراء العلماء مع حرية في ابداء رأيه[2] .

مؤلفاتـــه :

كانت اغلب مؤلفات الامام المراغي رسائل او بحوث قصيرة وهي :-

١) بحث في ترجمة القرآن الكريم واحكامها .
٢) رسالة الاولياء المحجورين التي حصل بها على عضوية جماعة كبار العلماء وهي مخطوطة .
٣) بحوث في التشريع الاسلامي .
٤) تفسير جزء تبارك .
٥) تفسير سورة الحجرات .
٦) تفسير سورة الحديد وآيات من الفرقان .
٧) تفسير سورتي لقمان والعصر .
٨) الدروس الدينية التي كان يلقيها في المسجد ويحضرها الملك فاروق الأول تناول فيها تفسير عدد من الآيات المتفرقة .
٩) يوميـــات .

وله بحوث فقهية في قانون الزواج والطلاق ما تزال مخطوطة لم تطبع بعد وهي موجودة في مكتبة الامام[3] .

وفــــاتـــه :

توفي الامام المراغي في الإسكندرية ليلة الأربعاء ١٤ / ٩ / ١٣٦٤ هـ الموافق ٢٢ اغسطس ١٩٤٥ م .

---

(١) الدروس الدينية لعام ١٣٥٧ محمد مصطفى المراغي ص ٦ .
(٢) التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي الجزء الثالث ص ٢٧٢ .
(٣) الامام المراغي انور الجندي ص ١٣٣ .

خامساً : محمد فريد وجدي

ليس اشق على الانسان ان يكتب ما يحتاج الى صفحات وصفحات بل المجلدات في صفحة واحدة أو في اثنتين ، وهو ما اضطرتنا اليه هنا رغبة الاختصار وخشية ان تكون هذه الرسالة بحث تراجم لا بحث منهج في التفسير وفي هذا ما نحسبه عذراً لنا اذا ما جاءت الترجمة هنا مبتورة مقتضبة اذ ليس مرادنا هنا الاستقصاء والشمول وانما التعريف ليس الا .

ذلك أن حياة محمد فريد وجدي بحر متلاطم الامواج زاخر العباب بخيره وشره بصلاحه وفساده ، بنفعه وضره ، بنوره وظلمته .

ولد محمد فريد بن مصطفى وجدي بن علي رشاد بين عامي ١٨٧٥ ، ١٨٧٨م على خلاف بين المؤرخين ، في الاسكندرية ، مكث فيها ١٦ عاماً تعلم في مدارسها تعليماً أبعد ما يكون عن الدين وعن الدراسات الاسلامية[1] .

ثم أختير والده وكيلا لمحافظة دمياط فانتقل اليها مع والده ، وكان والده يمنعه من مناقشة العلماء حينذاك في بعض المسائل المتعلقة بالكون والخلق ، لكن هذا لم يمنعه من حب المناقشة ما أمكن وبعد سنوات ثلاث

---

(١) محمد فريد وجدي وآثاره الاسلامية : عبد الحليم عويس ، مقال في مجلة اضواء الشريعة العدد الثامن ص ٤٥٤ .

انتقل الى السويس وتعلم فيها الفرنسية ، وفي سنة ١٨٩٩م اصدر رسالة له بعنوان « الفلسفة الحقة في بدائع الاكوان » وعلى اثر ذلك أصدر مجلة (الحياة) ثم كتب كتابه « المدنية والاسلام »[١] .

ثم انتقل الى القاهرة حيث قضى فيها بقية عمره فانشأ سنة ١٩٠٧ م جريدة خاصة به اسماها (الدستور) وشارك في كتابة المقالات في عدد من الجرائد والمجلات .

ويذكر الاستاذ عبد الحليم عويس ان « من البديهيات المعروفة ان فريداً قد تأثر بالجو الاسلامي الذي كان سائداً في بلاد الشرق كلها آنذاك . اعني بتلك الانفاس العطرة التي اشاعها السيد جمال الدين الافغاني واستنشقها الناس عطرا وشذى . . فكانت برداً وسلاماً على الحركة الاسلامية ، مهما يكن من اجتهادات جمال الدين الخاطئة ، دينياً وسياساً[٢] [٣]» .

وقد كان له نشاط كبير منذ هذا التاريخ في التأليف والكتابة بالمجلات والجرائد السيارة ، حتى عام ١٩٣٣م حيث اسند اليه الاشراف على مجلة (نور الاسلام) التي تغير اسمها بعد عامين الى مجلة الازهر وفي هذه المرحلة توقف وجدي تماما عن التأليف وتخلص من المطبعة وغيرها من وسائل النشر واكتفى بهذا العمل وحده وجعله طريقة الى قرائه والى الناس[٤] .

اما انتاجه الفكري فنذكر من كل نوع اهمه :

اما التأليف فمن اهم مؤلفاته :

١) دائرة معارف القرن العشرين في مجلدات عشرة .

٢) المدنية والاسلام .

---

(١) الاعلام : خير الدين الزركلي جـ ٧ ص ٢٢٠ .

(٢) كيف يستنشق الناس عطراً وشذى اجتهادات خاطئة دينياً وسياسياً ؟!

(٣) محمد فريد وجدي : عبد الحليم عويس (أضواء الشريعة العدد ٨ ص ٤٥٤ .

(٤) محمد فريد وجدي : أنور الجندي ص ٨٧

٣) على اطلال المذهب المادي ، في ثلاثة اجزاء .
٤) الاسلام في عصر العلم جزءين .
٥) المصحف المفسر .
٦) صفوة العرفان وهي (مقدمة المصحف المفسر) .

أما الصحافة فقد اصدر من الصحف والمجلات :

١) الحيـــاة ٢) الدستـور . ٣) الوجديات

أما المقالات الصحفية :
فقد انتشرت في عدد كبير من الصحف والمجلات واهم مقالاته :

١) مهمة الدين الاسلامي في العالم في ٢٦ حلقة .
٢) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة في ٨٠ حلقة .
٣) عناصر المدنية في الديانة الاسلامية[١] .

ومن المعروف ان وجدي كان نباتياً لا يأكل اللحوم ومشتقاتها منذ سنة ١٩١٤م[٢] ومما يؤخذ عليه مناصرته للانقلاب على الخلافة الاسلامية ، وثناؤه على اتاتورك وتمجيده له وتمجيد حركته التي ثبت ـ في وقته ـ عداؤها للاسلام واهله .

وكذا ايمانه باستحضار الارواح فقد سئل عما اذا كان يؤمن باستحضار الارواح فأجاب بالايجاب[٣] .

وكذا تأثره واعجابه الشديدين بالمدنية الغربية وانخداعه ، بمنهجها ، وغير ذلك كثير وقد كانت وفاته في ١٥ فبراير ١٩٥٤م .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٥ .
(٢) محمد فريد وجدي وآثاره الإسلامية : حامد عويس أضواء الشريعة جـ٨ ص ٤٥٧ و ٤٨٧ .
(٣) محمد فريد وجدي : أنور الجندي ص ٩٦ .

تفسيره :

للاستاذ محمد فريد وجدي كتاب واحد في التفسير - كما مر - هو المصحف المفسر وقد بين في مقدمته لهذا الكتاب سبب تأليفه حيث قال : - « فإني حوالي سنة ١٣٢٣ هـ حاولت أن أقرأ القرآن قراءة تدبر وفهم كماأمر به موحيه سبحانه وتعالى فأعوزني ان أجد من التفاسير ما يبلغني امنيتي من أقرب الطرق واسهلها فان المطولات لا يتسع لتلاوتها وقت امثالي من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم ، والمختصرات قصد بها حلول المسائل الفنية من التفسير وكان مرادي تفسيراً يعطي الالفاظ العربية حقها من البيان ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية مع بيان أسباب نزول الآيات ليتجلى للقارىء المعنى بكل جلاله فأخذت اضع تفسيراً لنفسي وشرعت اكتبه على هامش مصحف لاتخذه عمدة في تلاوتي للكلام الكريم وقبل ان أتمه ادركت ان هذا العمل طلبة كل تالٍ للقرآن العظيم فرأيت أن أتمَّ ذلك التفسير واطبعه ليعم انتشاره ، ففعلت وهو هذا الكتاب »(١) .

ثم بين منهجه في ذلك فقال : « اني استخلصت هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى ائمة المفسرين واقطاب اهل السنة فلم اخرج به عن سنتهم قيد شعره ليوافق مذهباً من المذاهب أو يؤ يد رأياً من الآراء الفردية ولو اضطرني الكلام في بعض الآيات على ان أورد رأياً لي او لاحد من غير اهل السنة نبهت اليه وعزوته لقائله حتى يكون القارىء علي بينة من أمره .

وقد راعيت في تفسيري هذا أن اعنى باللغة عناية لم يعن بها مفسر من السابقين فانهم فيما يظهر - لغزارة مادتهم اللغوية - لم يلموا من لغة القرآن إلا بالغريب الذي يعلو عن متناول كثير من الخاصة ولكني رأيت ان القرآن الكريم قد جمع أوجه كلمات اللغة العربية وعقائل مفرداتها ونحن احوج ما نكون الى التقوّي فيها لنحفظ وجودها من عبث العجمة بها ، فشرحنا المفردات شرحاً وافياً ودللنا على اصولها واتينا بمشتقاتها والتزمنا ان نشرح اللفظ حيث وجدناه

(١) المصحف المفسر : محمد فريد وجدي المقدمة .

ولو صادفناه في كل صفحة من صفحات المصحف »[1] .

سادسا : محمود شلتوت

ولد شلتوت في ٢٣ ابريل ١٨٩٣م ببلدة منية بني منصور مديرية البحيرة ، والتحق بالمعهد الديني في الاسكندرية سنة ١٩٠٦م ونال شهادة العالمية سنة ١٩١٨م .

وعين مدرساً بمعهد الاسكندرية الديني عام ١٩١٩م ونقل في سنة ١٩٢٧م مدرسا بالقسم العالي في القاهرة وقد حاول في تلك الفترة مواصلة « الاصلاح » الذي بدأه الافغاني ومحمد عبده والمراغي في الازهر لكن المشرفين على سياسة الازهر رفضوا ذلك وصدر الأمر بفصله سنة ١٩٣١م .

ثم اعيد سنة ١٩٣٥م وعين وكيلا لكلية الشريعة الاسلامية ثم مفتشاً بالمعاهد الدينية .

وفي سنة ١٩٥٧م عين وكيلا للجامع الازهر الى أن صدر في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢١ اكتوبر ١٩٥٨م أمر بتعيينه شيخاً للجامع الأزهر . واستمر في هذا المنصب حتى وفاته .

وقد كان له جهد كبير في اصلاح الازهر قبل وبعد توليه المشيخة في الازهر قال الاستاذ احمد حسن الزيات « وكان قد سبقه في محاولة هذا الاصلاح ثلاثة من ابناء الازهر النابغين ولكنهم منوا جميعاً بالعجز عنه لاستبداد القصر يومئذ بسياسة الازهر . . فقضى محمد عبده بحسرة من بغي عباس ومضى المراغي بخيبة من هوى فؤاد وخرج عبد المجيد سليم بنزوة من نزق فاروق فاتجه ـ يعني شلتوت ـ بعقله وقلبه الى المشاركة في هذا الاصلاح »[2] .

---

(١) المصحف المفسر : محمد فريد وجدي المقدمة .

(٢) مجلة الازهر جـ ٦ مجلد ٣٥ شعبان ١٣٨٣ هـ ص ٦٤٤ وما قبلها .

وقد تحدث الاستاذ الزيات عن مكانة شلتوت بين الناس وعلل السبب بقوله « ومما ساعد على بلوغ هذه المكانة دعوته الى التقريب بين المذاهب والطوائف وعمله للسلام بين الأديان والأمم »[1] .

وقد ساهم في انشاء جمعية لهذا الغرض كانت تصدر مجلتها (رسالة الاسلام) وكان الشيخ شلتوت يكتب فيها تفسيراً للقرآن الكريم .

منهجه في التفسير : -

قام الشيخ شلتوت بتفسير الاجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم وتوفي ولم يكمل تفسيره للاجزاء الباقية .

وللشيخ شلتوت في التفسير طريقة تختلف عن طريقة سابقيه من المفسرين فلم يكن يلتزم ذكر النص القرآني أولاً ثم يتتبع مفرداته ومن ثَمَّ يعود الى بيان احكامه ومعناه الأجمالي ، بل كان الشيخ يعتني ببيان مقاصد السور التي يتعرض لتفسيرها ويبسط القول في بيان التوجيه القرآني فيما تتناوله السورة من قضايا اجتماعية أو احكام فقهية او قضايا في العقيدة ، ويعتني ببيان اسرار التعبير القرآني وإبراز أساليبه ومزاياها عناية خاصة ويتعرض إلى آراء بعض المتفلسفة العصريين في القصص القرآني وبيان فساد هذا الرأي ومنافاته لقدسية القرآن وهو حينما يتعرض الى بيان القضايا الاجتماعية فإنه يطبق ذلك على المجتمع الحاضر ويبرز علاجه حسب ما فهمه من القرآن الكريم ويعتني بإبراز مزايا التشريع الإسلامي وما يجره اجتنابه من ويلات على الشعوب .

وحينما يعرض لقضايا العقيدة فإنه لا يكتفي بنقد المذاهب والاتجاهات الفكرية القديمة أو البائدة وإنما يتطرق الى النظم المعاصرة .

وحينما يتعرض الى آيات الاحكام الفقهية فإنه كذلك يعتني بإبراز آراء الفقهاء ويدرسها لا دراسة تسليم بل دراسة نقد وتمحيص حسب فهمه ولا

---

(١) مجلة الازهر جـ ٦ مجلد ٣٥ شعبان ١٣٨٣ هـ ص ٦٤٤ وما قبلها .

يكتفي بترديد القديم من الآراء بل يتعرض الى شبهات العصريين في استباحة الربا والنظم الرأسمالية وفشلها وحينما يتعرض الى ذبائح اهل الكتاب لا يدع بيان حكم الاطعمة المستوردة من بلاد الكتابيين ونقد فتوى لجنة الفتوى بالازهر .

وهو في ذلك كله يصيب حيناً ويخطىء حيناً آخر إذ لا يلزم من صحة وحسن العرض والبيان صحة الفكرة وسلامة الرأي .

وهو ايضاً في طريقته هذه في العرض والبيان ينهج منهجاً خاصاً به هو جزء من منهج عام آخر هو منهج استاذه محمد عبده وتلاميذ مدرسة المنار فقد قال عنه الأستاذ : ـ محمد عبد الله السمان : « ان الحق الذي لا مراء فيه ان تفسيرات القرآن القديمة على كثرتها وضخامتها لم تكن لتغني أي مفكر في هذه الآونة عن تفسير كتفسير المنار . . الا ان هذا التفسير الجديد لم تشأ له الظروف العديدة أن يتم . . . وجاء الزمان بعقليات ناضجة تصلح أن تكون امتداداً لعقلية الامام المفكر ومنها عقلية المرحوم الامام المراغي . . ولم تشأ له الظروف أيضاً أن يفسر القرآن أو على الأقل أن يواصل ما وقف عنده الشيخ رشيد رضا . . وأما الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت فقد بدأ فعلاً في أن يقوم برسالته على نحو كتاب الله واستطاع أن يقدم للمكتبة الثلث الأول من القرآن والأمل في الله وحده ان يمده بالصحة والعافية حتى يكمل ما بدأ »[1] .

وقال عنه حسن الشيخة « لم ينقطع هذا الفيض القرآني بعد عصر الامام محمد عبده بل اتصل حاضره بماضيه وآخره بأوله فقد ربط الشيخ الاكبر محمود شلتوت بين عهده وبين عهد الامام وبين طريقته وطريقته بعروة وثقى لا انفصام لها ، فكان طليعة وارثيه في استقامته على طريقة الاصلاح بالقرآن للعقائد الدينية وللمجتمع الانساني »[2] .

---

(١) مجلة الأزهر مجلد ٣٢ الجزء الأول محرم ١٣٨٠ هـ ص ١١٢ ـ ١١٣ .
(٢) المرجع السابق المجلد ٣٠ الجزءان ٤ و ٥ ربيع الآخر وجماد الأولى ١٣٧٨ هـ .

وقال الاستاذ عباس محمود العقاد ان المنهج الذي اختاره شلتوت في التفسير واقتدى به هو منهج المعلم (المصلح العظيم محمد عبده)[1] وقال عنه الاستاذ خفاجي انه « ممن درسوا افكار الامام محمد عبده الاصلاحية التجديدية وتأثروا بها[2] .

وللشيخ شلتوت مؤلفات عديدة نذكر منها : -

١) فقه القرآن والسنة . ٢) كتاب مقارنة المذاهب . ٣) منهج القرآن في بناء المجتمع .
٤) القرآن والقتال . ٥) القرآن والمرأة . ٦) تنظيم النسل .
٧) الى القرآن الكريم . ٨) الفتـاوى . ٩) الاسلام عقيدة وشريعة .
١٠) تفسير القرآن الكريم الاجزاء العشرة الأولى .

وتوفي الشيخ شلتوت ليلة الجمعة ٢٧ رجب ١٣٨٣ هـ .

سابعًا : عبد العزيز جاويش

ولد جاويش في ٣١ اكتوبر ١٨٧٦ م في الاسكندرية ، وبدأ فيها طلب العلم ثم انتقل الى القاهرة في عام ١٨٩٢م ويتميز هذا العام بمميزات عدة لها أثر في تكوينه الفكري بعد ذلك كان الاستعمار يضرب أطنابه وكان الشيخ محمد عبده قد عاد من المنفى وهو يلقى دروس التفسير في الازهر ، وصدرت في هذا العام عشرات الصحف والمجلات .

وقد أتيح له في هذه الفترة ان يلتقي بالشيخ محمد عبده قدمه اليه الشيخ رشيد رضا فحضر مجالسه في عين شمس واتصل به عن قرب وأحبه[3] .

ثم انتقل من الازهر الى دار العلوم حيث أحرز شهادتها سنة ١٨٩٧م

---

(١) المرجع السابق المجلد ٣٥ الجزء السادس شعبان ١٣٨٣ هـ ص ٦٤٧ .
(٢) الأزهر في ألف عام : محمد عبد المنعم خفاجي جـ ٣ ص ١١٢ - ١١٣ .
(٣) عبد العزيز جاويش : أنور الجندي ص ٤٢ .

فابتعث الى بريطانيا حيث عاد بعد سنوات ثلاث ليعين مفتشاً في وزارة المعارف الا أنه يعود مرة أخرى الى بريطانيا سنة ١٩٠٢م ليقوم بتدريس اللغة العربية هناك ، وعاد في سنة ١٩٠٦ لعمله الأول مفتشاً في وزارة المعارف في القاهرة حتى استقال عام ١٩٠٨م ليتولى رئاسة تحرير « اللواء » لمدة أربع سنوات هي كل عمله الصحفي قدم خلالها للمحاكمة ثلاث مرات وحقق معه أربع مرات وسجن مرتين[1] مما اضطره الى السفر في فبراير ١٩١٢[2] الى تركيا حيث انشأ هناك مجلة (الهلال العثماني) ولم يكف عن الكتابة عن احوال بلاده حتى اتهمته الحكومة المصرية بتوزيع منشورات في مصر فسلمته الحكومة التركية اليها سنة ١٩١٧م ثم عاد الى الاستانة في نفس العام بعد ان ثبتت براءته من التهم الموجهة اليه ثم غادرها الى المانيا سنة ١٩١٨م وعاد الى مصر أخيراً سنة ١٩٢٣م .

وعين سنة ١٩٢٥م مديراً للتعليم الى ان توفي في ٢٥ يناير ١٩٢٩م .

وقد عمل جهده مواصلة ما بدأه اساتذته الافغاني ومحمد عبده من « اصلاح » التعليم في الازهر فعمل على ارسال بعثة أزهرية الى أوروبا من نوابغ الازهر فقد كانت البعثات تسافر من كل المدارس ما عدا الازهر ، فجد في جمع المال اللازم لهذا المشروع وقرر أن يكون الزي وسطا بين الشرقي والأوربي فأختار لهم العمامة العالية مع البذلة الافرنجية . وقال عن هذا المشروع رأيت أن أبذر في مصر من الازهريين رجالاً فأرسلهم الى حيث يبلغون العلم الصحيح (!!) ليرجعوا لنا وقد جمعوا منه ما يمكنهم ان يدرسوه لامثالهم الازهريين وقد اشار جاويش إلى أنه اقتفى في ذلك أثر الشيخ محمد عبده في اصلاح الازهر[3] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٩ .
(٣) عبد العزيز جاويش : أنور الجندي ص ١٨١ .

منهجه في التفسير :

وضح الشيخ عبد العزيز جاويش هدفه من تفسير القرآن الكريم فقال في مقدمة تفسيره « فكان في جملة ما حملته نفسي على شدة نصبي وكثرة همومي وارتباك شؤوني تفسير القرآن الكريم تفسيراً يمثل للمستهدين ما في هذا الكتاب من الكنوز والدفائن التي حجبتها عن ابصار المسلمين وغيرهم عدة قرون تلك الحجب الكثيفة التي اقامتها دونه جلود التفاسير وخرافات القصاصين وضلالات المبتدعين »(١) .

ثم يصف ما امتاز به تفسيره بقوله « وقد امتاز هذا التفسير بابتعاده عن المماحكات الكلامية والمجادلات اللفظية وبتجافيه عن الالمام بشيء من الضلالات الاسرائيلية والموضوعات الاثرية بل اكتفينا فيه بالاسهاب في بيان اسرار كتاب الله واستخراج ما في بطون آياته من كنوز الاخلاق الالهية والآداب السامية القدسية .

ولقد ندحض اقوال المبطلين بما نسرد من القول المبين دون تصريح باسم من نجادله ولا ذكر للشبهات التي ننقضها ولكننا نشفع بياننا بإشارات يفهم منها الحاذق اللبق أو من سبق لهم مدارسة الكتب الأخرى ماذا عنينا بما نأتيه في تلك المواطن من الأطناب »(١) .

ذلكم منهجه الخاص في التفسير اما المنهج العام فهو ولا شك منهج استاذه محمد عبده وقد تحدث الاستاذ محمد محمد حسين عن منهج جاويش في التفسير فقال : « وأخذ عبد العزيز جاويش في تفسيره للقرآن يسير على منهج الشيخ محمد عبده في ربطه بالظروف القائمة متنقلاً في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة »(١) .

---

(١) اسرار القرآن : عبد العزيز جاويش ص ٨ .

وقال عنه الاستاذ سالم قنيبر أنه « اقتفى آثار الشيخ محمد عبده ونهج منهجه في تفسير القرآن الكريم تفسيراً يسير فيه على نسق يلائم روح العصر »[٢] .

وقال الاستاذ أنور الجندي « وقد حرص جاويش ان يقوم بتفسير القرآن على نحو عصري سلفي على النحو الذي بدأه الشيخ محمد عبده واستمع اليه جاويش في الرواق العباسي سنة ١٩٠١ وهو في كثير من عروضه للاسلام والقرآن يستشهد به ويردد اسمه مسبوقاً بعبارة وقال « أستاذنا »[٣] .

وقال عنه ايضاً « كأنما هو خليفة حقيقي لجمال الدين الافغاني في معالجته لقضايا العالم الاسلامي ووريث أصيل لمحمد عبده في حلوله لمسائل الاصلاح الاجتماعي والتربية »[٤] .

وقد كان السيد رشيد هو الذي جمع بينه وبين محمد عبده حيث قال « اتصل بشيخنا الاستاذ الامام فتلقح ذهنه بأفكاره ، واقتبست بصيرته من انواره ، وكنت أنا الذي قدمته اليه وذكرت له ذكاءه وغيرته وطموحه وهمته وجمعه بين التعليمين الاسلامي والأوربي »[٥] .

وقد كان الاستاذ انور الجندي وضعه « في ثبت الاعلام الذين رجوت ان اكتب عنهم مثل محمد فريد وجدي وعبد العزيز الثعالبي وعبد الحميد

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : محمد محمد حسين : ج ١ ص ٣٤٠ .
(٢) الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر : سالم قنيبر ص ٢٩٠ .
(٣) عبد العزيز جاويش : أنور الجندي ص ٢٠٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٩ .
(٥) مجلة المنار : رشيد رضا مجلد ٢٩ جـ ٩ ص ٧١٣ .

ابن باديس وغيرهم من مدرسة جمال الدين وتلامذته »[1] .

أما مؤلفاته فمنها : الاسلام دين الفطرة والحرية ، وارشاد المعلمين ، واسرار القرآن . .

ثامنًا : عبد القادر المغربي

ولد عبد القادر بن مصطفى المغربي في اللاذقية في ٢٤ رمضان ١٢٨٤ هـ ، وانتقل مع والده الى طرابلس الشام وتلقى العلم فيها على ابيه ، ولزم الشيخ حسين الجسر علامة طرابلس . وتحدث المغربي عن الاطوار التي مر بها في طلبة العلم الى أن قال « . . . غير أني لما اتصلت بالسيد الافغاني وانعمت النظر في دراسة تعاليمه انتقلت في حياتي الفكرية الى الدور الثالث أو الطور الثالث ، وهو ان نفهم النص الديني فهما صحيحاً مراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة ثم نجرأ على التصريح بما فهمنا من النص سواء أوافق رأي غيرنا أم لا ، وقد اقتبسنا هذه الطريقة في الفهم من اقوال السيد الافغاني وتعاليمه المروية المبثوثة في العروة الوثقى أولاً ثم في سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانياً »[2] .

وبداية صلته بالمدرسة كزميله السيد رشيد بدأت عن طريق مجلة العروة الوثقى « أخذت ابحث عن اعدادها وكانت ثمانية عشر عدداً مبعثرة لدى بعض فضلاء طرابلس . . وكان شريكي في هذا الحرص الشيخ رشيد وكان هو ينسخ المهم من مقالاتها أما أنا فكنت انسخها بقلمي من الفها الى يائها »[3] ودفعه الشوق الى رؤ ية جمال الدين وكان في سنة ١٣١٠ هـ مقيماً في الاستانة فسافر اليه وظل في جواره سنة واحدة أفاد منه فوائد جليلة[4] .

---

(١) عبد العزيز جاويش : أنور الجندي ص ٤ .
(٢) جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث : عبد القادر المغربي ص ٤٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤ .
(٤) محاضرات عن عبد القادر المغربي : محمد أسعد طلس ص ١٨ .

وأولع بعدئذ بدراسة آثار الشيخ محمد عبده واستدعاه الامام محمد عبده الى مصر حيث المجال للدعوة آنذاك أرحب واوسع[1] وكان استدعاؤه ذلك بعد الافراج عن المغربي من المعتقل وذلك لتهجمه على الخلافة الاسلامية في الآستانة وتنديده بها كسائر تلاميذ المدرسة .

ولما انتقل الى مصر عمل في الصحافة وكان له نشاط كبير فيها ومما نشره في المؤيد يومئذ مقال بعنوان (حجاب المرأة في الاسلام) وحمل عليه المحافظون من أجله[2] .

وقد عرض عليه الاستعمار الفرنسي منصب الافتاء بطرابلس للافادة منه كما استفاد الاستعمار البريطاني من الشيخ محمد عبده بتوليته منصب الافتاء في البلاد المصرية ـ لكن المغربي رفض ذلك[3] .

وقد كانت أعنف فترة في حياته خلال سنتي **١٩٠٦م ـ ١٩١١م ـ** فقد قام فيما بين هذين العامين بحملة على الحجاب ودعا الى سفور المرأة وقد وصف من احوال نساء أوربا وامريكا ومخالطتهن للرجال ما يشعر باستحسانه له وتمنيه لنسائنا مثله حتى هاج عليه الشيوخ[4] .

وهو يرجو من قاسم أمين ان يتحفنا بكتاب في المرأة يكون ثالث القمرين (يعني كتابي تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، لقاسم أمين) وشاهدا لصاحبه بالحسنيين »[5] .

تفسيره :

قام الاستاذ عبد القادر المغربي بتفسير جزء تبارك : وهو يرى أن جزءي

---

(١) محاضرات عن عبد القادر المغربي : محمد أسعد طلس ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٢ .
(٥) المرجع السابق ص ٥٣ .

عَمَّ وتبارك جديران بأن يفسر كل منهما تفسيراً حسن الوضع صحيح الأسلوب يقرب من اذهان العامة ولا تتجافى عنه عقول الخاصة فيقتصر فيه من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والاعراب ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحاً وسطاً مجرداً عن التنطع بالمشاغبات وايراد الخلافات والخرافات .

وقد وضع مولانـا الاستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله تفسيراً لجزء عَمَّ توخّى فيه هذا النمط والأسلوب »[1] .

ثم ذكر أنه رغب في تأليف تفسير لجزء تبارك « على مثال تفسير شيخنا وطريقته بيد أني رأيت ان اتوسع قليلاً في التعليق والتفسير والاستشهاد والتنظير ـ ولا سيما في المباحث اللغوية بأكثر مما فعله الاستاذ رحمه الله في تفسير جزء عم مراعياً في ذلك حال قراء جزء تبارك ومقدراً في نفسي انهم سيكونون اكبر سناً ، وأَتَمَّ استعداداً واشد اهتماماً بالتحصيل من قراء جزء عَمَّ »[1] .

هذا ما ذكره الاستاذ عبد القادر المغربي عن طريقته في التفسير . وقد طبع تفسيره لجزء تبارك في ست وثلاثين ومئة صفحة من الحجم الكبير وطريقته في ذلك ان يذكر النَصَّ القرآني أولاً ثم يعود متتبعاً كلمات النَصَّ واحدة بعد الأخرى مبيناً معناها اللغوي وإعرابها ثم معناها العام ضمن السياق وقد يتوسع قليلاً في بيان وشرح بعض الآيات بعد بيان مفرداتها مبيناً ما جَدَّ من العلوم مما يتعلق بتفسيرها وينقل كثيراً عن الاسفار القديمة ما يراه بياناً للآيات ويخطىء احياناً فينقل منها ما يخالف النص القرآني[2] ويتوسع في بيان الآيات التي تعرض الاخلاق والآداب الاسلامية السامية في اسلوب الدعوة وغيرها . وله عناية ببيان اسرار البلاغة القرآنية واسلوب التعبير القرآني .

---

(١) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٣ .

(٢) انظر ص ٣٢٧ من هذه الدراسة .

مؤلفاتــه :

وكان للمغربي عدد كبير من المؤلفات نذكر منها :

١ ـ كلمتان في السفور والحجاب : طبع سنة ١٩١٠ ـ ١٩١١م .
٢ ـ محاضرات عن (محمد ﷺ والمرأة) طبع سنة ١٣٤٧ هـ .
٣ ـ جمال الدين الأفغاني ذكريات واحاديث نشر في سلسلة إقرأ ١٩٤٨م .
٤ ـ تفسير جزء تبارك طبع عدة مرات .
٥ ـ على هامش التفسير طبع سنة ١٣٦٨ هـ .

أما آخر ما كتب فـ « النجم الآفل » وهي ترجمة لرواية « غادة الكاميليا » للاسكندر دوماس ووضع الشيخ المغربي فيها اشعاراً وادواراً غنائية حيث عرضت على الجماهير في المسرح في ٣ اكتوبر ١٩٠٨ م ويظهر ان المغربي لم يكن يرغب في ان يعرف الناس انه قد ترجم هذه الرواية وانه نظم أغانيها ووضع أدوارها الغنائية فرفض طبعها ونشرها . ويظهر انه كان لا يحب ان يعرف عنه انه اهتم بالروايات والمسرحيات لما في ذلك من الغض من سمعته ومكانته الدينية[١] .

وتوفى في دمشق ٢٧ شوال ١٣٧٥ هـ الموافق ١٩٥٦م .

تاسعًا : أحمد مصطفى المراغي

هو احمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم ، ولد ببلدة المراغة من اعمال مديرية جرجا بصعيد مصر سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣م .

بدأ تعليمه في كتاب القرية فحفظ القرآن وجوده ثم رحل الى الأزهر الشريف سنة ١٣١٤ هـ وتلقى العلم على جلة اشياخه كالاستاذ الامام محمد عبده ، ومحمد بخيت المطيعي واحد الرفاعي الفيومي وغيرهم ، وعندما

---

(١) محاضرات عن عبد القادر المغربي : محمد أسعد طلس ص ٥٩

شارف نهاية الدراسة الازهرية انتقل الى كلية دار العلوم وتخرج منها سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٩م فعيّن مدرساً بالمدارس الاميرية ثم ناظراً لمدرسة المعلمين بالفيوم ثم ندب إلى السودان استاذاً للشريعة الإسلامية بكلية غوردون ثم عاد الى مصر استاذا للغة العربية والشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم[١] .

مؤلفاتــه :

للشيخ احمد مصطفى المراغي مؤلفات عديدة نذكر منها :ـ

١ ـ تفسير القرآن الكريم وسماه « تفسير المراغي » وسيأتي الحديث عنه .

٢ ـ مقدمة التفسير .

٣ ـ علوم البلاغة .

٤ ـ هداية الطالب وهو جزءان الأول في النحو والتصريف والثاني في علوم البلاغة .

٥ ـ « بحوث وآراء » في فنون البلاغة .

٦ ـ الحسبة في الاسلام ـ ٧ ـ الديانة والاخلاق ، وغير ذلك كثير[٢] .

منهجه في التفسير :

بلغ « تفسير المراغي » ثلاثين جزءاً في عشرة مجلدات واستغرق زمناً سبع سنين وأتمه في سلخ ذي الحجة سنة ١٣٦٥ هـ .

وقد وضح الشيخ احمد المراغي نهجه الذي سكله في تفسيره هذا بما ننقله مختصراً حيث قال : نهجنا الذي سلكناه في هذا التفسير : ـ

١ ـ ذكر الآيات في صدر البحث .

---

(١) الفتح المبين في طبقات الأصوليين : ـ عبد الله مصطفى المراغي ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

صدرنا كل بحث بآية او آيتين او آيات من الكتاب الكريم سيقت لتؤدي غرضاً واحداً .

٢ ـ شرح المفردات .

اردفنا ذلك تفسير مفرداتها اللغوية إن كان فيها بعض الخفاء على كثير من القارئين .

٣ ـ المعنى الجملي للآيات .

اتبعنا ذلك بذكر المعنى الجملي لهذه الآية ، أو الآيات ليتجلى للقارىء منها صورة مجملة حتى إذا جاء التفسير وضح ذاك المجمل .

٤ ـ اسباب النزول .

اعقبنا ذلك بما ورد من اسباب النزول لهذه الآيات إن صح شيء من ذلك لدى المفسرين بالمأثور .

٥ ـ الاعراض عن ذكر مصطلحات العلوم .

ضربنا صفحاً عن ذكر مصطلحات العلوم من نحو وصرف وبلاغة الى اشباه ذلك مما ادخله المفسرون في تفاسيرهم .

٦ ـ اسلوب المفسرين .

رأينا ان الاساليب التي كتبت بها كتب التفسير وضعت في عهود سحيقة بأساليب تناسب اهل العصور التي ألفت فيها ويسهل عليهم فهمها . . فكان لزاماً علينا ان نتلمس لونا من التفسير لكتاب الله بأسلوب عصرنا موافقاً لامزجة أهله . .

٧ ـ تمحيص روايات كتب التفسير : ـ

. . . رأينا ان لا نذكر رواية مأثورة الا اذا تلقاها العلم بالقبول ولم نَرَ فيها ما يتنافر مع قضايا الدين التي لا خلاف فيها بين اهله وقد وجدنا ان ذلك

اسلم لصادق المعرفة واشرف لتفسير كتاب الله . . »[1] .

وَعَدَّ الشيخ المراغي من مراجعة تفسير المنار وقال عنه « وقد كان له فضل كبير فيما اقتبسناه اثناء تفسير الاجزاء التي فسرها »[2] .

والحق انه ينقل عنه نقلاً كثيراً حتى أصبح تفسيره أقرب الى كونه مختصراً لتفسير المنار في الاجزاء التي فسرها صاحب المنار .

وفــاتــه :

وتوفي الشيخ احمد مصطفى المراغي سنة ١٩٥٢م[3] .

---

(١) تفسير المراغي جـ ١ ص ١٦ ـ ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣) الأزهر في الف أعام : محمد عبد المنعم خفاجي جـ ٢ ص ٤٩ .



الباب الثاني

منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير

الاساس الاول : الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية .

الاساس الثاني : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم .

الاساس الثالث : القرآن هو المصدر الاول للتشريع

الاساس الرابع : الشمول في القرآن .

الاساس الخامس : ترك الاطناب فيما ورد مبهماً في القرآن الكريم .

الاساس السادس : التفسير العلمي الحديث .

الاساس السابع : المنهج العقلي في التفسير .

الاساس الثامن : التحذير من الاسرائيليات .

الاساس التاسع : التقليل من شأن التفسير بالمأثور .

الاساس العاشر : انكار التقليد وذمه والتحذير منه

الاساس الحادي عشر : الاصلاح الاجتماعي .



منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير

يحدد رجال المدرسة التفسير المطلوب للقرآن الكريم بأنه « فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فان هذا هو المقصد الاعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له او وسيلة لتحصيله »[1] .

ويرى الشيخ احمد مصطفى المراغي في تفسيره ان هذا هو ما يطلبه الله منا في التفسير لم يطلب منا سواه فقال « ولما كان القرآن كتابا سماويا تنزل على قلب اكمل الانبياء مشتملا على معارف عاليه ومطالب ساميه ، يجد المنقب عنها من الهيبة والجلال ما يكاد يحول بينه وبين الوصول اليها سهّل سبحانه الأمر علينا ، فلم يطلب منا الا الفهم والتدبر في كلامه لأنه نزله نوراً وهدى للناس ، وجعله حاويا للشرائع والاحكام التي لا يمكن العمل بها الا اذا فهمت حقّ الفهم ، واستوضحت مغازيها وكشفت اسرارها ومراميها ، من حيث هي دين الهي وهدي سماوي ، ترشد الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيوية والأخروية ، وما سوى ذلك من وجوه النظر والبحث فتابع لذلك ، ووسيلة اليه في التحصيل ، ولا يعنينا العناية التي نهتم لها اهتمامنا بالمطلب الاول »[2] .

---

(١) فاتحة الكتاب : للشيخ محمد عبده ص ٥ وتفسير المنار محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٧ .

(٢) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ١١ .

وهم يريدون بهذا ان يلقوا اللوم على كثير من المفسرين السابقين بشتى مذاهبهم ومناهجهم في التفسير ـ الذين اشتغلوا بوسائل التحصيل عن المقصد الاعلى والمطلب الاسمى ، اذ يرى الشيخ احمد المراغي أن « كثيرا من المفسرين جعلوا عنايتهم تكاد تكون وقفا على الوسائل دون المقاصد »(١) لهذا يرى السيد رشيد رضا انه « كان من سوء حظ المسلمين ان اكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية الساميه ، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ، ونكت المعاني ومصطلحات البيان ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الاصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الأسرائيليات ، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في المله على ما كانت عليه في عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها »(٢) .

لهذا فللتفسير ـ كما يرى الشيخ محمد عبده ـ وجوه شتى : ـ

(**احدها**) النظر في اساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من انواع البلاغه ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول ، سلك هذا المسلك الزمخشري ، وقد ألّم بشيء من المقاصد الاخرى ونحا نحوه آخرون .

(**ثانيها**) الاعراب وقد اعتنى بهذا اقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منها .

(**ثالثها**) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك اقوام زادوا في قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات . . الخ .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١١ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٧ .

(**رابعها**) غريب القرآن .

(**خامسها**) الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها ، وقد جمع بعضهم آيات الاحكام وفسرها وحدها ومن اشهرهم ابو بكر بن العربي ، وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات احكام العبادات والمعاملات اكثر من عنايتهم بسائر الآيات .

(**سادسها**) الكلام في اصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المختلفين . وللامام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع .

(**سابعها**) المواعظ والرقائق ، وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن .

(**ثامنها**) ما يسمونه بالاشارة . وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ، ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الاكبر محي الدين بن عربي ، وانما هو للقاشاني الباطني الشهير ، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز »[1] .

ويعقب رجال المدرسة العقلية على هذا بأن الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي وهو فهم الكتاب من حيث هو دين وهداية للناس في دنياهم وآخرتهم[2] .

وحتى يكون التفسير في المرتبة العليا لا بد من تحقق امور في المفسر هي كما يراها الشيخ محمد عبده : ـ

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٧ ـ ١٨ وتفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ١١ ـ ١٢ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٤ باختصار وفاتحة الكتاب محمد عبده ص ٩ ـ ١٢ وتفسير المراغي جـ ١ ص ١٣ .

(**احدها**) فهم حقائق الالفاظ المفردة التي اودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات اهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان . . الخ .

(**ثانيها**) الاساليب فينبغي ان يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الاساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه .

(**ثالثها**) علم احوال البشر . . فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في احوال البشر في اطوارهم ، وادوارهم ، ومناشىء اختلاف احوالهم ، من قوة وضعف ، وعزّ وذلّ ، وعلم وجهل ، وايمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير ، علوية وسفليه ، ويحتاج في هذا الى فنون كثيرة من اهمها التاريخ بأنواعه .

(**رابعها**) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن . فيجب على المفسر القائم بهذا الغرض الكفائي ان يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال ، وان النبي ﷺ بعث به لهدايتهم واسعادهم ، وكيف يفسر المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة او ما يقرب منها اذا لم يكن عارفا بأحوالهم ، وما كانوا عليه ؟

(**خامسها**) العلم بسيرة النبي ﷺ واصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها واخرويها »[1] .

ويرى السيد رشيد ان الذي « يفهم القرآن ويفقه فيه من كان نصب عينه ووجهه قلبه في تلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة ما بيّنه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله ، وفائدة ترتيله ، وحكمة تدبره ، من علم ونور ، وهدى

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٤ بآختصار وفاتحة الكتاب : محمد عبده ص ٩ ـ ١٢ .

ورحمة ، وموعظة وعبره ، وخشوع وخشية ، وسنن في العالم مطرده ، فتلك غاية انذاره وتبشيره ، ويلزمها عقلا وفطرة : تقوى الله تعالى بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة ، فانه كما قال ﴿ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ »(١) .

لهذا وذاك ولأجل تفاوت المفسرين في الاتيان بهذه الشروط التي ذكرها الشيخ محمد عبده والتفاوت في مدى التزامهم للهدف الذي طلبه الله منا في التفسير ـ كما حددوه ـ قسّم الشيخ محمد عبده التفسير الى قسمين : ـ

(**احدهما**) جاف مبعد عن الله وعن كتابه ، وهو ما يقصد به حلّ الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما ترمي اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية وهذا لا ينبغي ان يسمى تفسيرا ، وانما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما .

(**ثانيهما**) وهو التفسير الذي قلنا : انه يجب على الناس على انه فرض كفاية ، هو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل ان تستعمل لغايتها وهو ذهاب المفسر الى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد والاحكام . على الوجه الذي يجذب الارواح ، ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله «﴿ هدى ورحمة ﴾ ونحوهما من الأوصاف ، فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو : ـ الاهتداء بالقرآن »(٢) .

ولأجل هذا الهدف وضع الشيخ عبده وتلاميذه تفاسيرهم للقرآن الكريم قال الاستاذ الامام محمد عبده ـ بعد ما نقلناه آنفا ـ « وهذا هو الغرض الأول الذي ارميَ اليه في قرآءة التفسير »(٣) .

ويرى السيد رشيد ان « الحاجة شديدة الى تفسير تتوجه العناية الاولى

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥ .

فيه الى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه ، وما انزل لاجله من الانذار والتبشير والهداية والاصلاح . . . ثم العناية الى مقتضى حال هذا العصر ، في سهولة التعبير ، ومراعاة افهام صفوف القارئين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها »(١) .

أما الشيخ احمد مصطفى المراغي فيرى « ان الاساليب التي كتبت بها كتب التفسير وضعت في عهود سحيقة بأساليب تناسب اهل العصور التي ألفت فيها ويسهل عليهم فهمها ، وان جمهرتهم او جزوا في القول وعدوا ذلك مفخرة لهم ، ولما كان لكل عصر طابع خاص يمتاز به عن غيره في آداب اهله واخلاقهم وعاداتهم وطرائق تفكيرهم ـ وجب على الباحثين في هذا العصر مجاراة اهله في كل ما تقدم ، فكان لزاما علينا ان نتلمس لونا من التفسير لكتاب الله باسلوب عصرنا موافقا لا مزجة اهله ، فأساس التخاطب ان لكل مقام مقال . وان الناس يخاطبون على قدر عقولهم ، وقد رأينا أن نشيد فيه بجهود السابقين معترفين بفضلهم ، مستندين الى آرائهم »(٢) .

لهذا ولغيره من الأسباب اعتنى رجال المدرسة العقلية الحديثة بالتفسير ، ومن قرأ تفاسيرهم ادرك ان لهم منهجا خاصا بهم سلكوه في تفسيرهم للقرآن .

ونرى لزاما علينا ان نبين هنا انهم قد يتفقون مع منهج السلف في بعض اسس منهجهم وقد يخالفونه ، كما انهم في بعضها قد يتفقون معهم من ناحية تقرير الاساس والتسليم به لكنهم يتطرفون في تطبيقه ويتجاوزون حدود السلف فيه .

ولعلنا حينما نذكر هنا كل هذه الاسس ما وافقوا فيه السلف وما خالفوه

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٠ .

(٢) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ١٧ .

به لعلنا حينما نفعل هذا نكون قد ابرزنا الصورة الكاملة لمنهجهم حتى تظهر لنا معالمه وخطوطه واضحه بينه الحسن منها والقبيح فلا نبهتهم باخفاء الحسن ولا نطمس الحقيقة باخفاء القبيح .

وسنذكر كل ما أمكن ـ ان شاء الله ـ مذهب السلف في كل اساس من أسس منهجهم حتى تمكن المقارنة بين المنهجين وندرك مدى انحراف المدرسة العقلية فيه .

الأساس الأول

الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية

وهو اساس متين ومن الخصائص البارزة في تفسير رجال هذه المدرسة . وقد وقع فيه خلاف بين علماء المسلمين السابقين ، فذهبت طائفة الى القول بالتناسق بين آيات القرآن الحكيم وارتباط بعضها ببعض ، وذهبت طائفة اخرى الى ان القرآن « لم يأت على نسق الكتب الموضوعية . . اذ ليست له مقدمة ، وليست فيه مباحث موضوعية ، مرتبة ، لها مقاصد واغراض في فصول وابواب ، وانما كان القرآن مشتملا على عدة سور كل سورة منه احتوت على آيات متعددة كل آية في غرض . فهذه للوعظ وتلك للزجر ، وهذه قصة ، واخرى لحكم من الاحكام ، واخرى لوصف الجنة أو النار »[1] .

وجد المستشرقون ـ اعداء الاسلام منهم ـ في هذا الخلاف منفذا خالوه من الاتساع بحيث يدخل منه دسهم ومكرهم ويكون القبول حليفه فزعموا « ان القرآن خليط متنافر وجمع غير مؤتلف ليس فيه وحدة للموضوع ولا يتبع منهج التأليف العلمي او الفني من عرض الموضوع ومناقشته وتدوين الملاحظات واستنتاج الحقائق بل نجد السورة تدخل في اكثر من موضوع وتعرض الجميع عرضا مبتسرا سريعا ولا تراعي مناسبة بين محتوياتها فهي اشبه بقولهم

---

(١) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم : محمد محمود حجازي ص ١٣ .

عسل ، خمر ، لبن »[1] .

فقام للرد عليهم رجال هذه المدرسة والتزموا في سبيل ذلك القول بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية متوهمين ان انكار هذا يتحقق في مزاعم المستشرقين .

وكان ممن سبقهم الى القول بترابط آيات السورة القرآنية وتناسقها عدد من علماء المسلمين نذكر منهم الامام الشاطبي رحمه الله تعالى حيث يقول في كتابه الموافقات « غير أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار بمعنى انه أنزل في قضية واحدة طالت او قصرت وعليه اكثر سور المفصل ، وتارة يكون متعددا في الاعتبار بمعنى انه انزل في قضايا متعددة كسورة البقرة وآل عمران والنساء واقرأ باسم ربك واشباهها ، ولا علينا انزلت السورة بكمالها دفعة واحدة ام نزلت شيئا بعد شيء ولكن هذا القسم له اعتباران : ـ

١ ـ اعتبار من جهة تعدد القضايا . . . الخ .

٢ ـ اعتبار من جهة النظم . . . الخ .

وكلاهما لا يلتمس منه فقه على وجه ظاهر وانما يلتمس منه ظهور بعض اوجه الاعجاز وبعض مسائل نبه عليها في المسألة السابقة ، وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في اول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات ، فاعتبار جهة النظم ـ مثلا ـ في السورة لا يتم به فائدة الا بعد استيفاء جميعها بالنظر فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود كما ان الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد الا بعد كمال النظر في جميعها »[2] .

وممن قال بهذا الشيخ ولي الدين الملوي الذي روى عنه الامام السيوطي رحمه الله تعالى في الاتقان قوله ـ « قد وهم من قال لا يطلب للآي

---

(١) منهج الامام محمد عبده : عبد الله محمود شحاته ص ٣٦ .

(٢) الموافقات : للامام الشاطبي جـ ٤ ص ٤١٤ ـ ٤١٥ .

الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة ، وفصل الخطاب انها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سورة كلها وآياته بالتوقيف كما انزل جملة الى بيت العزة ومن المعجز البّين اسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية ان يبحث اول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها او مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جمّ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له »[1] .

ثم وضع الامام السيوطي قاعدة لمعرفة المناسبة فقال « قاعدة » قال بعض المتأخرين الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو انك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة وتنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر الى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات الى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الاحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف الى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فاذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية وفي كل سورة أ . هـ »[2] .

وفي مقابل هؤلاء العلماء الا جلاء مال آخرون الى القول بنفي الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية وعابوا على من يلتمس في تفسيره بيان وجه ارتباط الآي بعضها ببعض وعدوا هذا من التكلف روى الامام السيوطي رحمه الله تعالى عن عز الدين بن عبد السلام رحمه الله قوله : « المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام ان يقع في أمر متحد مرتبط اوله بآخره فان وقع على اسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه الا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن احسنه فان

---

(١) الاتقان : للامام السيوطي جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٠ .

القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في احكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض[1] » .

وقف رجال المدرسة العقلية الحديثة على هذين السبيلين ورأوا ـ وهم في مواجهة المستشرقين الذين حاولوا ان يلجوا من هذا المدخل الى الطعن في القرآن ـ ان يغلقوا عليهم هذا المنفذ ويبطلوا كيدهم ورأوا ايضا ان السبيل الى ذلك لا يكون الا بنفي القول الثاني والاخذ بالقول الأول واثبات الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية بصورة جلية يثبت ارتباط الآتي بعضها ببعض فتتناسق آياتها وتتلاحم حتى تكون كالسبيكة الواحدة .

فقال الشيخ عبد العزيز جاويش : ـ « قد يغفل المفسر عما بين آيات القرآن من الارتباط والتناسب وما قد يفيد بعضها بعضا من البيان او التقييد فيأخذها بالتأويل مفككة العرى مبددة النظم حتى اذا استعصى عليه امرها ونبا عقله عن فهمهما لا يزال يركب في تأويلها صعاب المراكب ويلتمس بلوغ معانيها بتسنم الجبال وقطع السباسب وقلما سلمت اقدامهم من العثار او استطاعوا ابراز ما فيها من الآثار »[2] .

لهذا ردوا من التفاسير كل ما يخالف الهدف الذي سيقت له السورة حتى يكون موضوع السورة أساساً في فهم آياتها فرفض الأستاذ الإمام محمد عبده قول من فسر الرزق في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾[3] بأنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف . رفض الإمام محمد عبده هذا التفسير بقوله « والله لم يقل ذلك ولا قاله رسوله ﷺ ولا هو مما يعرف بالرأي ولم يثبته تاريخ يعتد به والروايات عن مفسري السلف متعارضه وفي اسانيدها ما فيها « ثم قال »

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٨ .
(٢) اسرار القرآن : عبد العزيز جاويش ص : ١١٧
(٣) سورة آل عمران من الآية : ٣٧

وانت ترى أنه لا دليل في الآية على ان الرزق كان من خوارق العادات وإسناد المؤمنين الأمر الى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث » وقال « أما ما سيقت القصة لأجله وهو الذي يجب ان نبحث فيه ، ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه ، فهو تقرير نبوة النبي ﷺ ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب إسرائيل وشبه المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر ، وبيان ذلك ان المقصد الأول من مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية واهم مسائلها مسألة الوحدانية وتقرير عقيدة البعث والجزاء وعقيدة الوحي والأنبياء وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وإنزال الكتاب ثم كانت الآيات من أولها إلى هذه القصة أو قبيل هذه القصة في الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وإزالة الشبهات والأوهام في ذلك ثم بين أن الإيمان بالله وإدعاء حبه ورجاء النجاة في الآخرة والفوز بالسعادة فيها إنما تكون بإتباع رسوله وقفى على ذلك بهذه القصة التي تزيل شبه المشركين . وأهل الكتاب في رسالته وتردها على وجوهم ،

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبو البشر وان الله اصطفاه . . . . ومن اصطفاء نوح . . . ومن اصطفاء إبراهيم . . . فإذا كان الأمر له في إصطفاء من يشاء من عباده وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم فما المانع له من إصطفاء محمد ﷺ بعد ذلك على العالمين كما اصطفى اولئك »(١) .

لهذا ايضاً ردوا كل ما يخالف موضوع السورة ومعانيها . فهذا الشيخ محمد عبده يرفض قول من قال ان قوله تعالى :-

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ والْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(٢) .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(٢) سورة الحج الآيتين ٥٢ ـ ٥٣ .

رفض الشيخ ـ عبده ـ تأويل هذه الآيات بقصة الغرانيق[1] وقال « والآن ارجع الى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتمله الفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم » ثم استعرض هذه الآيات قائلا : ـ ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم وذلك بعد أن قال ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وأَصْحَاب مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[2] إلى آخر الآيات ثم قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ورزقٌ كَرِيمٌ والَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إذا تَمَنَّىٰ﴾[3] . . . الخ فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لانبيائهم ثم تبعه الأمر الإلهي بأن يقول النبي ﷺ لقومه : أنني لم ارسل اليكم إلا لانذركم

---

(١) قصة الغرانيق خلاصتها أن رسول الله ﷺ كان يقرأ سورة النجم بمكة فلما بلغ « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى فقال المشركون ما ذكر الهتنا بخير قبل اليوم فلما سجد في آخر السورة سجدوا معه فأنزل الله عز وجل هذه الآية « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » .

قال بن كثير رحمه الله تعالى عن هذه القصة « ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح « تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٤١ .

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الشفا « أما المأخذ الأول فيكفيك ان هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصخف كل صحيح وسقيم . . . وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع اسناده واختلاف كلماته . . . » الشفا للقاضي عياض جـ ٢ ص ١٠٧ .

(٢) سورة الحج الآيات: ٤١ ـ ٤٤ .

(٣) سورة الحج الآيات : ٤٩ ـ ٥٢ .

بعاقبة ما انتم عليه ولا بشر المؤمنين بالنعيم وأما الذين يسعون في الآيات والأدلة التي اقيمها على الهدى وطرق السعادة، ليحولوا عنها الأنظار، ويحجبوها عن الأبصار. ويفسدوا أثرها الذي اقيمت لأجله، ويعاجزوا بذلك النبي ﷺ والمؤمنين أي يسابقونهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها ـ كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة ـ هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم واعقب ذلك بما يفيد ان ما ابتلى به النبي ﷺ من المعاجزة في الآيات قد ابتلى به الأنبياء السابقون فلم يبعث نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف، ويضادون أمانيه ويحولون بينه وبين ما يبتغي بما يلقون في سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعا يجب ان تفسر الآية » ثم قال بعد ان ذكر ما يراه من تفسير لها « هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق في قوله ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾(١) الخ . وأنت ترى أن قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح »(٢) .

وأنت ترى من هذا مبلغ تحرّيهم في تفسير الآيات المعنى الذي يطابق موضوع السورة وهدفها الذي سيقت له .

لذلك نرى الحرص الواضح منهم على بيان موضوع السورة وتحديد معالم الوحدة الموضوعية فيها قبل تناولها بالتفسير حتى يكون هذا البيان قاعدة يسير عليها تفسيرهم بعده .

ويبين لنا الشيخ محمود شلتوت معالم الوحدة الموضوعية في سورة البقرة بأن للسورة غرضان اساسيان :

الأول : توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه

---

(١) سورة الحج من الآية : ٤٢ .

(٢) الاثارة الثالثة : للإمام محمد عبده ضمن كتاب تفسير الفاتحة و٦ سور من خواتيم القرآن : (رشيد رضا) ص ١٧٨ ـ ١٨٧ .

حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، وفي سبيل ذلك اخذت تذكرهم بنعم الله على اسلافهم ، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقي دعوة الحق من انبيائهم السابقين وارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، وأقرأ في ذلك من قوله تعالى في السورة ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1] إلى آخر آية البر في منتصف السورة تقريبا ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ﴾[2] وهذا هو الغرض الأول الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب .

أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكون المسلمين جماعة متميزة عن غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص في القتل العمد العدوان ، وذكرت الصيام ، والوصية ، والاعتكاف والتحذير من اكل اموال الناس بالباطل وذكرت الأهلّة ، وانها جعلت ليعتمد الناس عليها في معرفة أوقات العبادة والزراعة وغيرها ، وذكرت الحج والعمرة ، وذكرت القتال وسببه الذي يدعو إليه ، وغايته التي ينتهي إليها ، وذكرت الخمر والميسر واليتامى وحكم مصاهرة المشركين ، وذكرت حيض النساء والتطهر منه ، والطلاق والعدة ، والخلع والرضاع وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الانفاق في سبيل الله والربا والبيع ، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر ﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[3] إلى قبل آخر السورة وكان يتخلل كل ذلك ـ على طريقة القرآن ـ ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها من قصص ووعد ووعيد وإرشاد الى سنن الله في الكون

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٧٨ .

والجماعات ثم تختم ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت في بيان أوصاف المتقين ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] ثم قال الشيخ شلتوت « ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاءاً من شأنه أن يغرس في نفوسهم سنة الله في التشريع لهم وبناء أحكامه وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج ومن شأنه متى اخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم إلى حياة سعيدة سهلة ميسرة وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2] الخ السورة وقال الشيخ شلتوت « وبذلك يؤكد آخرها أولها ويؤسس أولها لآخرها وتصير السورة كتلة واحدة»[3] .

وهذا قليل من كثير ندرك به مبلغ عنايتهم بهذا الأساس في تفسير القرآن الكريم واعتمادهم له . والله الموفق ، ،

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٦ .

(٣) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت الصفحات ٥١ ـ ٥٣ .

الأساس الثاني

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

وبيان ذلك ـ كما يقول الزرقاني ـ رحمه الله تعالى « ان القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد دقيق السبك متين الأسلوب قوي الإتصال آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمط[١] وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار نظمت حروفه وكلماته ، ونسقت جمله وآياته ، وجاء آخره مساوقاً لأوله ، وبدأ أوله مواتيا لآخره »[٢] .

وهذا الأساس امتداد للأساس الأول ، فالقائلون به هم انفسهم القائلون بالأول .

قال السيوطي في إتقانه والزركشي في برهانه « قال ابن العربي في سراج المريدين » إرتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حمله ورأينا الخلق بأوصاف

---

(١) قال الفيومي في المصباح المنير « السِمْط وزان حِمْل القلادة » وقال الرازي في مختار الصحاح السمط الخيط ما دام فيه الخرز والا فهو سلك .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ١ ص ٥٣ .

البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه اليه »[1] .

وروى السيوطي رحمه الله تعالى عن الشيخ ولي الدين الملوي قوله « قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة « إلى ان قال » والذي ينبغي في كل آية ان يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها ففي ذلك علم جمّ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له »[2] أ . هـ .

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات « فصل » وهل للقرآن مأخذ في النظر على أن جميع سوره كلام واحد بحسب خطاب العباد ، لا بحسبه في نفسه ؟ فإن كلام الله في نفسه كلام واحد لا تعدد فيه بوجه ولا بإعتبار ، حسبما تبين في علم الكلام ، وإنما مورد البحث هنا بإعتبار خطاب العباد تنزلا لما هو من معهودهم فيه هذا محل احتمال وتفصيل .

فيصح في الإعتبار ان يكون واحداً بالمعنى المتقدم ، أي يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه ما ، وذلك أنه يبين بعضه بعضا . حتى أن كثيراً منه لا يفهم معناه حق الفهم الا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى ، ولأن كل منصوص عليه فيه من انواع الضروريات مثلا مقيد بالحاجيات ، فإذا كان كذلك فبعضه متوقف على البعض في الفهم . فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد ، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار .

ويصح أن لا يكون كلاما واحدا وهو المعنى الا ظهر فيه ، فإنه انزل سوراً مفصولاً بينها معنى وابتداء ، فقد كانوا يعرفون انقضاء السورة وابتداء الاخرى بنزول (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول الكلام . وهكذا نزول أكثر الآيات التي نزلت على وقائع واسباب يعلم من افرادها بالنزول استقلال

---

(١) الاتقان : للسيوطي جـ ٢ ص ١٠٨ والبرهان في علوم القرآن : للزركشي جـ ١ ص ٣٦ .

(٢) الاتقان : للسيوطي جـ ٢ ص ١٠٨ .

معناها للافهام وذلك لا إشكال فيه »[1] .

وقال رجال المدرسة العقلية الحديثة بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وعدوه أساساً في فهمه وتفسيره وهم لا يريدون بهذا ان يقيدوا القرآن الكريم بهذا الوصف بمبدأ الوحدة الفنية في التأليف الأدبي أو الفني . فالقصة الأدبية مثلا لها قواعد فنية يجب مراعاتها مثل العقدة والمأزق والصراع والحل ولكن القرآن الكريم كتاب هداية يذكر من القصة أو الحادثة ما يحقق هذه الهداية واحياناً يبسط الموضوع واحياناً يوجزه حسب مقتضى الحال وأحياناً يترك الموضوع ويتكلم عن شيء مناسب أو مجانس ثم يرجع إلى الموضوع الأول أو ينتقل إلى غيره[2] .

ولتأكيد الوحدة الموضوعية بين آيات القرآن الكريم نرى رجال المدرسة العقلية يوازنون بين هذه وتلك فيختارون في التفسير ما يلتئم مع السياق ولهذا ربما استعرضوا آراء المفسرين السابقين في تفسير كلمة قرآنية ورفضوها لمخالفتها لهذا الأساس .

فالامام محمد عبده ـ مثلا ـ عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] يستعرض آراء المفسرين ثم يقول « هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون في الآيات وإذا وازنا بين سياق آية ﴿ما ننسخ﴾ وآية ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾[4] نجد أن الأولى ختمت بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] والثانية بقوله ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾[4] ونحن نعلم شدة العناية في اسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الآية الثانية يقتضي أن يراد بالآيات فيها آيات الأحكام وأما ذكر

---

(١) الموافقات : الامام الشاطبي جـ ٣ ص ٤٢٠ .
(٢) منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم : عبد الله شحاتة ص ٣٧ .
(٣) سورة البقرة الآية : ١٠٦ .
(٤) سورة النحل من الآية : ١٠١ .

القدرة والتقرير بها في الآية الأولى فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال الم تعلم ان الله عليم حكيم لكان لنا ان نقول انه اراد نسخ آيات الأحكام لما اقتضته الحكمة من إنتهاء الزمن أو الحال التي كانت فيها تلك الأحكام موافقة للمصلحة »[1] ثم يبطل تفسير ننسها بتركها على ما هي عليه من غير نسخ لأنه لا معنى للاتيان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة ثم قال : ـ « والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم أي ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك »[1] .

وقال عند تفسير قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[2] : ـ « كثر خلاف المفسرين والرواة في معنى كل من الفجر وليال عشر إلى آخر ما اقسم به ، وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه وغالب ذلك يجري على خلاف ما عودنا الله في نسق كتابه الكريم ، وقد جرت سنة الكتاب بأنه إذا اريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه كيوم القيامة في لا أقسم بيوم القيامة وكاليوم الموعود في سورة والسماء ذات البروج وكليلة القدر في سورتها فإذا اطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعمه معنى الأسم كما سبق في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[3] فالفجر هنا ـ على هذا ـ هو جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الاسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام وهو وقت تنفس الصبح وهو

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ صَ ٤١٦ ـ ٤١٧ .
(٢) سورة الفجر الآيتين ١ و٢ .
(٣) سورة التكوير الآيتين : ١٧ ـ ١٨ .

معهود في كل يوم فصح ان يعرف بالألف واللام »[1].

واستناداً إلى هذا الأساس أيضاً ينفي عن تفسير الآية القرآنية ما لا يتفق عنده مع مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فنراه ينفي عن قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] الآيات ينفي عن تفسير هذه الآيات قصة الغرانيق فيقول : ـ ﴿ما أقرب هذه الآيات في مغازيها إلى قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[3] وقد قال بعد ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[4] ثم قال ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[5] الخ الآيات وكأن احدى الطائفتين من القرآن شرح للاخرى فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، والراسخون في العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون انه الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم ، وان الله ليهديهم إلى صراط مستقيم ، واولئك هم الذين يفتتنون ويشتغلون بقال وقيل ، بما يلقي اليهم الشيطان ويصرفهم عن مرامي البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان ، وما يتكئون عليه من الأموال والأولاد لن يغني عنهم من الله شيئاً فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم

---

(١) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٧٦ .

(٢) سورة الحج: الآية : ٥٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ١٢ .

أعمالهم ، فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم ، فسيغلبون في هراشهم[1] وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الأنسان الى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه وكما لا مدخل لقصة الغرانيق في آيات آل عمران لا مدخل لها في آيات سورة الحج »[2] .

وأكدّ على هذا الأساس تلميذه محمد رشيد رضا في بيانه التناسب في ترتيب سور القرآن الكريم حيث يقول « من نظر في ترتيب السور كلها في المصحف يرى انه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة، ومن حكمته ان في ذلك عونا على تلاوته وحفظه . . ولكن في كل قسم من الطول والمئين والمفصل تقديماً لسور قصيرة على سور أطول منه ومن حكمة ذلك انه قد روعي التناسب في معاني السور مع التناسب في الصور أي مقدار الطول والقصر »[3] ثم يبين لنا ذلك التناسب في معاني السور بين البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام أما الفاتحة « فلا يراعى مناسبتها لما بعدها وحده إذ هي فاتحة القرآن كله »[3] فيقول « سورة البقرة أجمع سور القرآن لاصول الإسلام وفروعه ففيها بيان التوحيد والبعث والرسالة العامة والخاصة وأركان الإسلام العملية وبيان الخلق والتكوين وبيان احوال اهل الكتاب والمشركين والمنافقين في دعوة القرآن ومحاجة الجميع وبيان أحكام المعاملات المالية والقتال والزوجية والسور الطوال التي بعدها متممة لما فيها فالثلاث الأولى منها مفصلة لكل ما يتعلق بأهل الكتاب ولكن البقرة اطالت في محاجة اليهود خاصة وسورة آل عمران اطالت في محاجة النصارى في نصها الأول وسورة النساء حاجتهم في أواخرها واشتملت في اثنائها على بيان

---

(١) الهراش : المواثبة والمخاصمة .

(٢) الاثارة الثالثة : محمد عبده ص ١٨٢ ـ ١٨٤ ضمن تفسير الفاتحة و٦ سور من خواتيم القرآن لرشيد رضا .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٧ ص ٢٨٧ .

شؤ ون المنافقين مما أجمل في سورة البقرة ثم اتمت سورة المائدة محاجة اليهود والنصارى فيما يشتركان فيه وفيما ينفرد كل منهما به . ولما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين وكان شأن اهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل ، وناسب ان يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل وتلك سورة الانعام لم تستوف ذلك سورة مثلها فهي متممة لشرح ما في سورة البقرة مما يتعلق بالعقائد وجاءت سورة الاعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الأنبياء المرسلين وشؤ ون اممهم معهم وهي حجة على المشركين واهل الكتاب جميعا ولكن سورة الانعام فصلت الكلام في إبراهيم الذي ينتمي اليه العرب واهل الكتاب في النسب والدين ، وسورة الاعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي إليه اهل الكتاب ويتبع شريعته جميع انبيائهم حتى عيسى المسيح عليه الصلاة والسلام .

ولما تمّ بهذه السورة تفصيل ما أجمل في سورة البقرة من العقائد في الالهيات والنبوات والبعث ناسب أن يذكر بعدها ما يتم ما أجمل فيها من الأحكام ولا سيما احكام القتال والمنافقين وكان قد فصل بعض التفصيل في سورة النساء ، فكانت سورتا الانفال والتوبة وهما مفصلتين لذلك وبهما يتمّ ثلث القرآن »[1] .

وقد نهج في بيان الوحدة الموضوعية في تلك السور الشيخ محمود شلتوت نحو هذا المنهج ، فقال عن الوحدة العامة « ان جميع ما في القرآن وان اختلفت اماكنه وتعددت سوره واحكامه فهو وحدة عامة لا يصح تفريقه في العمل ولا الأخذ ببعضه دون البعض »[2] .

وهم بهذا المنهج يذمون رواة اسباب النزول الذين عمدوا إلى الآيات ذوات اسباب النزول ليفردوها عن بقية القرآن ويتناولوها بالتفسير والشرح من

---

(١) تفسير المنار : رشيد رضا جـ ٧ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ص ٤٨٧ .

هذا الجانب وهم بهذا ـ كما يقول السيد رشيد رضا ـ « يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الآلهي ويجعلون القرآن عضين متفرقة بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها من بعض وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة فيجعلون لكل جملة سببا مستقلا كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سببا مستقلا »[1] .

ويضرب لنا مثلا بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] والآية التي بعدها فيقول :«انظر هذه الآيات لتجد اعجازها في بلاغه الأسلوب : أن مهدت للأمر بتحويل القبلة ما يشعر به في ضمن حكاية شبهة المعترضين التي ستقع منهم وبتوهين هذه الشبهة باسنادها الى السفهاء من الناس وإيرادها مجملة ، ويوصلها بالدليل على فسادها » ثم يستمر في سرد مزايا هذه الآيات البلاغية ليقول بعد ذلك : ـ « أفيصح في مثل هذا السياق الموثق بعض جمله وآياته ببعض ان تفك وثقه ويجعل نتفاً نتفاً ويقال ان كل جملة منه نزلت لحادثة حدثت أو كلمة قيلت وأن أدى ذلك إلى قلب الوضع وجعل الأول آخراً والآخر أولاً وجعل آيات التمهيد متأخرة في النزول عن آيات المقصد ؟ أتسمح لنا اللغة والدين بأن نجعل القرآن عضين لأجل روايات رويت وان قيل ان إسناد بعضها قوي بحسب ما عرف من تاريخ الراوين ؟ »[3] .

وهم يحكمون بهذا المنهج الذي سلكوه على منهج جدّ من بعدهم بالبطلان ألا وهو منهج التفسير البياني للقرآن الكريم ، ولست أعني بهذا المنهج البياني الدراسات التي تناولت إعجاز القرآن البلاغي وكان لها أهمية كبيرة في بعض العصور الإسلامية في الدفاع عن القرآن الكريم ضدّ من

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ١١ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٤٢ .

(٣) تفسير المنار جـ ٢ ص ١١ وانظر ايضاً تفسير المنار جـ ٢ ص ٥٦ .

حاول ـ مستغلا ضعف اللغة العربية وتزعزع اركانها ـ التشكيك في إعجاز القرآن كالجعد بن درهم والنظام وغيرهما فانبرى لهم الخطابي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما . وإنما اعني بالتفسير البيانُي للقرآن الكريم منهج مدرسة جدّت من بعدهم وهي مدرسة امين الخولي ولندع الحديث لتلميذته لتلميذته عائشة عبد الرحمن توضح لنا أصله حيث تقول « والأصل في منهج التفسير الأدبي ـ كما تلقيته عن استاذي ـ هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه فيجمع كل ما في القرآن عنه ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك . . . وهو منهج يختلف تماماً عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعاً من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه إلى الإهتداء إلى الدلالة القرآنية لالفاظه ، أو استجلاء ظواهره الاسلوبية وخصائصه البيانية »[1] .

فالاول منهما يرى أن القرآن محكم السرد دقيق السبك متين الاسلوب قوي الاتصال آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله » .

ويذهب الثاني الى « التناول الموضوعي » ويريدون به التفرغ لدراسة موضوع واحد بجمع كل ما في القرآن عنه ثم تناول هذه المجموعة التي يربطها موضوع واحد منفصلة عن باقي القرآن .

من الطريف ان اتباع كلّ من المذهبين يزعم ان طريقته هي التي تلتزم قول السلف الصالح القرآن يفسر بعضه بعضا فعائشة عبد الرحمن مثلا تقول عن مذهبها في التفسير البياني للقرآن الكريم « وقصدت بهذا الاتجاه الى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير وبين منهجنا الحديث الذي يتناول النص القرآني في جوه الاعجازي ويلتزم في دقّة بالغة قولة السلف الصالح :

---

(١) التفسير البياني للقرآني الكريم : عائشة عبد الرحمن ص ١٨ .

« ان القرآن يفسر بعضه بعضا وقد قالها المفسرون ثم لم يبلغوا منها مبلغاً »[1] .

وفي الوقت نفسه يقول الإمام محمد عبده عن منهجه « وقد قالوا أن القرآن يفسر بعضه ببعض وان افضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ : موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب»[2] وهو مع هذا لا ينكر اهمية جمع ما تكرر من الآيات في مواضع منه أو شملها موضوع واحد ولكن للنظر لا لتفسيرها منفردة فيقول « فعلى المدقق ان يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله والاحسن ان يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه »[3] .

ويطبق هذا المنهج احد تلاميذه عند تفسير « والمرسلات »[4] بالرياح فيقول « وقلما ذكر القرآن اطلاق الرياح الا عبر عنه بفعل أرسل ففي سورة فاطر ﴿واللَّهُ الـذي أَرسَلَ الرِّيَاحَ﴾ وفي الحجر ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَوَاقِحَ﴾ وفي الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ وفي الاعراف ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ وفي الروم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ وفي آيات أخرى غيرها فقوله تعالى هنا : ﴿والْمُرْسَلاتِ﴾ من هذا القبيل »[5] .

من هذا كله يتضح لنا حرص المدرسة العقلية على تقرير منهج الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم .

---

(1) التفسير البياني للقرآن الكريم : عائشة عبد الرحمن ص ١٨ .
(2) تفسير المنار : رشيد رضا جـ ١ ص ٢٢ .
(3) فاتحة الكتاب : محمد عبده ص ٩ ، ١٠ .
(4) سورة المرسلات : من الآية الأولى .
(5) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ١٢٦ .

الأساس الثالث

الشمول في القرآن الكريم

والشمول فيه متفرع عن الشمول في الرسالة الإسلامية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً﴾[1] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[3]

وما دامت الشريعة الإسلامية ليست اقليمية أو لأمة من الأمم بل هي للناس كافة في كل زمان ومكان كما عبر عن ذلك احد علماء الإسلام فقال واجاد « انها الرسالة التي امتدت طولا حتى شملت آباد الزمن وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الامم . . . وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة »[4] .

فلا عجب ان يكون كتابها القرآن الكريم شاملاً وعاماً ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[5] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[6] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ من الآية : ٢٨ .

(٤) مجلة الأزهر ذي القعدة ١٣٩٦ هـ ص ١٣٩٢ مقال « الإسلام دعوة شاملة » للشيخ يوسف القرضاوي .

(٥) سورة الانعام الآية : ١٩ .

(٦) سورة يوسف الاية : ١٠٤ .

﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[1] .

لهذا كان الأصل عند رجال هذه المدرسة الشمول في النص القرآني. فقال استاذها وإمامها « ان القرآن هاد ومرشد إلى يوم القيامة وإن معانيه عامة وشاملة فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصين وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب »[2] . ويقول « خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه الخطاب اليهم لخصوصية في اشخاصهم بل لأنهم من افراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾[3] فهل يعقل أنه يرضى منا بألا نفهم قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه . لم يأتنا من الله وحي بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلاً ؟ كلا أنه يجب على كل واحد من الناس ان يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته »[4] .

ويقول تلميذه محمد رشيد رضا « فإن كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حي لا يموت ينطبق حكمه ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان[5] .

وهذه احدى المزايا التي اختص بها القرآن الكريم من بين الكتب السماوية إذ ان كل كتاب نزل إلى قوم بعينهم ، ولزمن معين ، أما هذا القرآن فللناس كافة إلى يوم يبعثون .

ولهذا فهم يرجحون قول الجمهور « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » على قول غيرهم « العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ » ومحل

---

(١) سورة الفرقان الآية الأولى .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٧٩ .

(٣) سورة النساء من الآية الأولى .

(٤) فاتحة الكتاب : محمد عبده ص ٨ .

(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٥٣ .

خلافهم إذا لم تقم قرينه على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله . أما إذا قامت قرينة بهذا فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة بإجماع العلماء »[1] .

كما أن حكم النص العام الوارد على سبب يتعدى عند الفريقين الى غير السبب إلا أن الجمهور يعدّي حكم النص بنفسه ويعديه غيرهم بالقياس أو بنص آخر .

ولنر كيف يطبق استاذ المدرسة نظرية الشمول في العبارة القرآنية عند قوله تعالى ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ﴾[2] .

يقول « وبتفسير الاتقى والاشقى على النحو الذي سمعته تبطل تلك الاشكالات التي اوردها المفسرون في الحصر وما اشكل عليهم الا تقيدهم بالعادة في استعمال الفاظ كذب وتولى ، وتحكيم عاداتهم واصطلاحاتهم التي وضعوها من عند انفسهم لانفسهم في كتاب الله تعالى وسنه ورسوله ثم انهم يوردون ههنا اسباباً للنزول وأن الآيات نزلت في سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه لانه اشترى من ارقاء المسلمين ضعفاء واعتقهم من ماله لا يبتغي في ذلك إلا وجه الله ورووا غير ذلك وقالوا ان الاشقى هو امية بن خلف وقيل غير ذلك ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع ولكن معنى الآيات لا يزال عاماً ـ كما رأيت ـ والله أعلم »[3] .

ويتبعه تلميذه السيد محمد رشيد رضا فيطبق ذلك المنهج عند تفسيره لقوله تعالى : ـ

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ١ ص ١١٩ .
(٢) سورة الليل الآيات : ١٤ ـ ١٧ .
(٣) تفسير جزء عم : للشيخ محمد عبده ص ١٠٦ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] فيقول : ـ « وهذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها الآن هي المبينة لحال الفرقة الرابعة وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر وليست الآيات كما قيل في اولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل ولذلك قال تعالى في بيان حالهم « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر » ولم يقل عنهم انهم يقولون مع ذلك « وآمنا بك يا محمد » وما كان القرآن ليعتني باولئك النفر الذين لم يلبثوا ان انقرضوا كل هذه العناية ويطيل في بيان حالهم اكثر مما اطال في الاصناف الثلاثة الذين هم سائر الناس »[2] .

ويتبعهم في ذلك عبد القادر المغربي فيقول مثلا ـ عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾[3] « والخطاب في قوله ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ ـ وان كان موجها إلى الفريقين المصدقين والمكذبين ـ كان سببه صادرا عن المكذبين وهم المشركون فإنهم كانوا يوصي بعضهم بعضاً بالا يجهروا بما يدور بينهم من الحديث لئلا يطلع عليه النبي ﷺ »[4] .

ويقول احمد مصطفى الراغي في تفسيره لقوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[5] والأوامر التي جاءت في الكتاب الكريم موجهة إلى رسول الله ﷺ هي له ولأمته إلا إذا دلّ دليل على أنها خاصة به كقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6] وقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[7] وإنما أكدّ الأمر باستقباله ووجهه الى المؤمنين

---

(١) سورة البقرة الآية: ٨ .

(٢) تفسير المنار : جـ ١ ص ١٤٩ .

(٣) سورة الملك من الآية : ١٣ .

(٤) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٧ ، ٨ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ١٤٤ .

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٥٠ .

(٧) سورة الإسراء الآية : ٧٩ .

بعد أن أمر به نبيه وشرفهم بالخطاب بعد خطاب رسوله لتشتد عزيمتهم وتطمئن قلوبهم ويتلقوا تلك الفتنة التي اثارها المنافقون واهل الكتاب واليهود بعزيمة صادقة وثبات على اتباع الرسول »[1] .

ويقول الأستاذ الاكبر شيخ الازهر محمد مصطفى المراغي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] يقول بعد ذكره سبب النزول يصح أن يكون هذا أو غيره سبب نزول الآية لكن الآية عامة تشمل كل خيانة لله ورسوله »[3] .

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٢ ص ١٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢٧ .

(٣) الدروس الدينية لعام ١٣٥٧ هـ محمد مصطفى المراغي ص : ٢٩ .

الأساس الرابع

القرآن هو المصدر الأول للتشريع

ويجب أن نفرق هنا باديء ذي بدء بين من يقول هذا القول وبين من يقول ان القرآن هو مصدر التشريع ، أو يقول الإسلام هو القرآن وحده ، ويقصدون من هذا نبذ السنّة وفصلها عن الشريعة الإسلامية ملحدين ـ ولا أقول مستدلين ـ بآيات منها قوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] .

وليست هذه الدعوى وليدة العصر وإنما أخذت طريقها إلى عقول بعض الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة وكانت في بدايتها عبارة عن رد بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة لعدم موافقتها لأصولهم[3] تطوّر عند بعضهم إلى رد السنة مطلقاً والاعتماد على الكتاب والعقل استغل هذا المستشرقون أبشع استغلال وربوا عليه تلاميذهم وأسقوه إياهم كما يسقى الرضيع اللبن فصار الخطر منهم على الإسلام اكثر من الخطر من المستشرقين عليه[4] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٨ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٨٩ .

(٣) انظر ما ذكرناه عن المعتزلة في التمهيد .

(٤) من هؤلاء مثلا احمد امين في فجر الإسلام ومحمود ابو ريه في « اضواء على السنة المحمدية » .

ولا تزال الى ساعتنا هذه تلك الغشاوة تختم على قلب وعلى سمع وعلى بصر طائفة من الناس يقولون هذا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .

وليس لنا طويل نقاش مع هؤلاء فإنكار حجية السنة والادعاء بأن الإسلام هو القرآن وحده لا يقول به مسلم يعرف دين الله وأحكام شريعته تمام المعرفة وهو يصادم الواقع[1] وليقل لنا قائل هذا القول في أيّ قرآن وجد أن الظهر اربع ركعات وبيان ما يجتنب في الصوم وبيان زكاة الذهب والفضة والانعام وبيان أعمال الحج ومن أي موضع تقطع يد السارق وأحكام البيوع وغير ذلك بل لا يلزم قائل هذا القول من الصلاة إلا ركعة ما بين دلوك الشمس الى غسق الليل واخرى عند الفجر لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر في ذلك ، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال ـ كما قال ابن حزم[2] .

ولنذكر هنا ـ للباحثين عن الحقيقة ـ لا لمن خسئت ابصارهم وحسرت بعد ان رجعت اليهم ابصارهم ولم تجد في ديننا من فطور ، نقول لأولئك اليكم دليلاً من القرآن الكريم في بيان مكانة السنة منه قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] وقال سبحانه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[4] وقال سبحانه ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[5] فإذا ما لانت نفوسهم واتجهت الى الحق قلوبهم ذكرنا لهم ما قاله عليه الصلاة والسلام « الا أني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على اريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مصطفى السباعي ص : ١٦٥ .

(٢) انظر الاحكام في اصول الاحكام : لابي محمد علي بن حزم الاندلسي الظاهري جـ ٢ ص ٨٠ .

(٣) سورة النحل من الآية : ٤٤ .

(٤) سورة الحشر من الآية : ٧ .

(٥) سورة النساء من الآية : ٨٠ .

وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . . الحديث »[1] .

ثم يجب أيضاً أن نتحقق من مراد من قال بالرأي الأول وهو ان القرآن هو المصدر الأول للتشريع ـ فكم من كلمة حق اريد بها باطل ـ فإن أراد بذلك الرجوع إلى القرآن الكريم في كل قضية فإن وجد العلاج أخذه وإن لم يجد بحث في السنة ، فهذا حق .

وإن أراد بذلك الرجوع إلى القرآن الكريم في ذلك والأخذ بما يوافقه من السنة ونبذ ما التبس عليه فهمه وعسر على ذهنه ـ القاصر ـ هضمه من سنة مبينة لإجمال أو مخصصة لعموم ونحو ذلك فهذا باطل مرفوض . ينقضه ما رجعوا إليه اعني القرآن الكريم ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2] وما قاله عليه الصلاة والسلام لمعاذ « كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال اقضي بكتاب الله قال فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال اقضي بسنة رسول الله قال فإن لم تجد في سنة رسول الله ؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو قال فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله »[3].

وبعد هذا كله ـ إلى أي مذهب ذهب الأستاذ الإمام محمد عبده وتلاميذه ؟ قبل ان أجيب يجب ان نذكر انها المدرسة العقلية الحديثة وسبق لنا في التمهيد ان تناولنا المدرسة العقلية القديمة في الإسلام «المعتزلة» وذكرنا هناك أنهم يردون من السنة النبوية ما يخالف اصولهم ـ وان صح الحديث وان رواه البخاري ومسلم فهل سارت الحديثة على نهج سلفها؟

في الحقيقة ان لهذه المدرسة مجلة تتحدث باسمها وهي اشهر من نار

---

(١) أبو داود في السنة وسنده صحيح ، والترمذي في العلم ، وقال هذا حديث حسن واخرجه احمد في المسند ٤/١٣٠ ـ ١٣٢ وابن ماجة في المقدمة .

(٢) سورة النحل من الآية : ٤٤ .

(٣) رواه احمد وابو داود والترمذي والدارمي .

على علم - المنار - وهي المتحدث الرسمي باسم هذه المدرسة فهل يحق لنا ان نحكم على تلك المدرسة من واقع ما ينشر فيها ؟ آن كان لنا ذلك فالأمر جد خطير يحتاج إلى إعلان العودة منهم إلى الإسلام بعد نشر مقالين للدكتور « توفيق صدقي » في العددين ٧ و١٢ من السنة التاسعة تحت عنوان « الاسلام هو القرآن وحده » ينكر فيه حجية السنة[١] .

ولن نسيغ لانفسنا هذا الأسلوب في مناقشتهم امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢] وان كانوا مؤاخذين على كل حال لنشرهم ذلك .

ولكنهم يؤاخذون بنصوصهم واقوالهم فلنذكر شيئاً منها . قال الأستاذ الإمام محمد عبده « اريد أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين لا أن تكون المذاهب اصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف اليها كما جرى عليه المخذولون وتاه فيه الضالون »[٣] .

وقال تلميذه محمد رشيد رضا : « ان القاعدة القطعية المعروفة عمن أنزل عليه القرآن ﷺ وعن خلفائه الراشدين (رضي الله عنهم) أن القرآن هو الأصل الاول لهذا الدين وأن حكم الله يلتمس فيه أولا فإن وجد فيه يؤخذ وعليه يعول ولا يحتاج معه إلى مأخذ آخر[٤] وان لم يوجد التمس من سنة رسول الله ﷺ على هذا أقر النبي ﷺ معاذاً حين أرسله الى اليمن وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين »[٥] .

---

(١) انظر الرد على المقالين السابقين في كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » مصطفى السباعي ص ١٥٥ .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ١٦٤ .

(٣) فاتحة الكتاب : محمد عبده ص ٤٦ .

(٤) مما لا شك فيه ان في القرآن مجملاً بينته السنة وعاماً خصصته ومختصراً بسطته أفلا يرجع اليها في هذا ؟ ان كان الجواب بنعم فليكتف بقوله « فان وجد فيه يؤخذ » ولا يؤكد هذا بما يشعر ابطال ما سواه انظر الموافقات للشاطبي جـ ٤ ص ١٢ .

(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ١٢٠ .

وقال محمود شلتوت : « إن مصادر التشريع في الإسلام ثلاثة : القرآن والسنة والرأي وهي في المصدرية على هذا الترتيب فما وجد في القرآن أخذ منه ولا يطلب له مصدر سواه وما لم يوجد فيه بحث عنه فيما صحت روايته وثبت وروده عن الرسول ﷺ[1] . . »

إلى هنا فهذا رأي لا بأس به وإن كان يشمّ منه رائحة التطرف ولكن الأمر لم يتوقف هنا . فقال الإمام محمد عبده «والذي يجب اعتقاده ان القرآن مقطوع به وانه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه ، وقد جاء ينفي السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصوله الى المشركين واعدائه، ووبخهم على زعمهم هذا فإذن هو ليس بمسحور قطعاً.

وأما الحديث ـ على فرض صحته ـ فهو آحاد والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون »[2] ثم قال : « وعلى أي حال فلنا بل علينا ان نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنصّ الكتاب وبدليل العقل » .

ولا نرد عليه بأكثر من رد المرحوم محمد حسين الذهبي حين قال « وهذا الحديث الذي يرده الأستاذ الإمام رواه البخاري وغيره من اصحاب الكتب الصحيحة وليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة فإن السحر الذي اصيب به النبي عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الامراض التي تعرض للبدن بدون ان تؤثر على شيء من العقل »[3] وقال « ثم ان الحديث رواية البخاري وغيره من كتب الصحيح ولكن الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره . فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري كما

---

(١) الاسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ص ٤٦٩ .

(٢) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٣) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

انه لو صح في نظرهم فهو لا يعدو ان يكون خبر آحاد لا يثبت به الا الظن وهذا في نظرنا هدم للجانب الاكبر من السنة التي هي بالنسبة للكتاب بمنزلة المبيِّن من المبيَّن . وقد قالوا : ان البيان يلتصق بالمبين »[1] .

ولنذكر مثلاً آخر لاحد تلاميذه وهو الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ـ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ـ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] حيث يقول « الارجح المختار عندنا ان كل ما صح من الأحاديث في النهي عن طعام غير الأنواع الأربعة التي حصرت في الآيات محرمات الطعام فيها فهو إما للكراهة واما مؤقت لعلة عارضة ـ كما تقدم في الحمير وما ورد منه بلفظ التحريم فهو مروي بالمعنى لا بلفظ الرسول ﷺ وليس مراد من ردّ تلك الاحاديث بآية الأنعام من الصحابة وغيرهم أنه لا يقبل تحريم ما حرمه الرسول ﷺ إذا لم يكن منصوصا في القرآن بل معناه أنه لا يمكن أن يحرم ﷺ شيئاً جاء نص القرآن المؤكد بحله واعتبر هذا بما أخرجه احمد وابو داود عن عيسى بن نميلة الفزاري عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنقذ فتلا هذه الآية (قل لا أجد فيما أوحي إلى محرما) . . . فقال شيخ عنده سمعت ابا هريرة يقول ذكر عند النبي ﷺ فقال « خبيثة من الخبائث » فقال بن عمر ان كان رسول الله ﷺ قاله فهو كما قال أ . هـ فقوله « ان كان » مشعر بشكه فيه وأنه ان فرض أنه قال وجب قبوله لأن الله أمر باتباعه ولكن بمعنى انه خبيث غير محرم كالثوم والبصل على ان الحديث ضعيف »[3] .

ويعلق الشيخ احمد مصطفى المراغي في تفسيره على هذه الآية ايضاً فيقول « وما صح من الأحاديث في النهي عن طعام غير هذه الانواع

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٤١ جـ ٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية : ١٤٥ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ١٦٣ .

الأربعة فهو اما مؤقت واما للكراهة فقط ومن الأول تحريم الحمر الأهلية فقد روى ابن أبي شيبه والبخاري عن ابن عمر قال «نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر» ومن الثاني ما رواه البخاري ومسلم عن ابي ثعلبة الخشنى ان رسول الله ﷺ «نهى عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير»(١).

وليس غرضنا من ذكر ذلك بيان موقفهم من الحديث الشريف فلهذا موضع آخر في البحث ولكن غرضنا بيان مدى ما وصلوا اليه في تقرير هذا الأصل : القرآن هو المصدر الأول للتشريع ، ومما ذكرنا من النصوص يتضح لنا ان موقفهم من السنة كموقف سلفهم المدرسة العقلية القديمة (المعتزلة) بالنسبة للحديث الشريف وردهم ما يخالف ما ذهبوا إليه من آراء في التفسير وما هدتهم إليه عقولهم، وحتى لا أكون ممن القى التهم جزافاً اعيد ما ذكرته آنفاً من نقل عن الامام محمد عبده حينما اضطرب في الحديث المروي في صحيح البخاري عن سحر الرسول ﷺ «وعلى اي حال فلنا بل علينا ان نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل»(٢).

وبهذا يتبين لنا المدى الذي وصلوا اليه في بيان هذا الاصل اعني اعتبار القرآن الكريم هو المصدر الأول في التشريع .

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٨ ص ٥٨ .

(٢) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

الأساس الخامس

ترك الإطناب فيما ورد مبهما في القرآن الكريم

قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾[1] . وفي قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[2] تنبيها لقلوب المؤمنين الى ان في مكنون الكون وفي باطن خلق الله ما لا تدركه العقول ولا تصل إليه الافهام ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] وإذا كانت هذه لمحة ترشدنا الى ان في خلق الله أسراراً لا تدرك للعباد فإن في الصلاة من جهة اعداد ركعاتها وأوقاتها وفي انصبة الزكاة ومقادير الكفارات لمحات أخرى واضحة جلية في ان الله سبحانه في تكاليفه ما يعجز البشر عن إدراك أسراره وما عليهم إلا ان يؤمنوا ويمتثلوا فتصدق فيهم العبودية ويخلص منهم الإيمان »[4] .

والقرآن الكريم كتاب الله أنزله على رسوله فيه مما نعجز نحن البشر عن إدراك معانيه وأمرنا ان نقول عنه ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾[5] .

رفض هذا المبدأ طائفة من الناس قالوا ان الله وصف كتابه بأنه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[6] فلا يصح أن يحتوي ما لا يفهم !!

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النجم الآية : ١٨ .

(٣) سورة الإسراء من الآية : ٨٥ .

(٤) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٥٧ .

(٥) سورة آل عمران من الآية : ٧ .

(٦) سورة البقرة من الآية : ١٨٥ .

والحق أنه ما دام واضحاً في جملته وفيما قصد به ، فلا بأس من أن يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه تنبيها على القدرة التامة في جانب الربوبية والقصور في جانب العبودية وتلك سنة الله في خلقه وتكاليفه فكم له في الكون من أسرار تنقضي الدنيا ولا تدرك ، وكم له في التكاليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمتثل ، وما هذه المكتشفات التي تتجدد يوماً بعد يوم للبشر الا قطرة أو قطرات من بحر خلق الله الذي لا يعرف مداه سواه »[1] .

ومع هذا فلا ينبغي ان نتوسع فنطرد هذا المبدأ فيما وضحت دلالته العربية وثبت عن الرسول ﷺ بيانه فنزعم كما زعمت احدى الطوائف الضالة ان للقرآن ظاهراً يدل عليه ويفهمه العامة ويكلفون به وباطناً لا يفهمه إلا الخواص من عباد الله وهم مكلفون به.

بل الواجب ان نفهم منه ما بينه القرآن الكريم في موضع آخر أو بينه رسول الله ﷺ أووضحت دلالته العربية .

وما سوى ذلك نكل علمه الى الله سبحانه وتعالى فلو كان في ذكره فائدة لنا دنيا أو أخرى لذكره سبحانه وهو أعلم بصلاح أمورنا وما يستقيم عليه ديننا .

وقد كان هذا المبدأ واضحاً جلياً في سيرة سلفنا الصالح وكان هذا المبدأ ايضاً من الوضوح بمنزلة كبيرة في المدرسة العقلية الحديثة التي تدعو بكل اسلوب وبكل لغة وبكل وسيلة الى تنقية التفاسير مما علق بها من أحاديث وضعها القصاص والوضاعون في بيان مبهم في القرآن الكريم ليدعموا به مبادئهم الضالة التي لم يجدوا لها سندا واضحاً من كتاب الله أو سنة رسوله فلجأوا إلى ذلك الأسلوب الهجين .

وأول ما يواجه القارىء للقرآن الكريم مما استأثر الله بعلمه ما يسمى بـ

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٥٦ .

« فواتح السور » (آلــم) و(كهيعص) و(حمعسق) وغيرها فقالوا : - « ولعل من الخير للناس ان يوفروا على أنفسهم عناء البحث في معاني هذه الحروف واسرار ترتيبها واختيارها على هذا النحو وان يكفوا عن الخوض فيما لا سبيل الى علمه ولم يكلفهم الله به ، ولم يربط به شيئاً من أحكامه أو تكاليفه »[١] .

ويقول الإمام محمد عبده بعد ذكر الأقوال في المراد بـ « أَبًّا » في قوله تعالى ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[٢] فالمطلوب منك في هذه الآيات هو ان تعلم ان الله يمن عليك بنعم اسداها إليك في نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعاً لك ولانعامك فإذا جاء في سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جدّ المؤمن ان ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره بل الواجب على أهل الجد والعزيمة ان يعتبروا بتعداد النعم وان يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل هكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنهم ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلاً شاغلاً لا يهمهم الا التشدق بتصريفها وتأويلها وتحميلها مالا تحتمله ، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر ، واعضاؤهم معطلة عن العمل الصالح والشكر »[٣] .

أما المراد بالنفس في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الآية[٤] فيقول عنه « نحن لا نحتج على ما وراء مدركات الحس والعقل الا بالوحي الذي جاء به نبينا عليه السلام واننا نقف عند هذا الوحي لا نزيد ولا ننقص كما قلنا مرات كثيرة وقد ابهم الله تعالى ههنا أمر النفس التي خلق الناس منها وجاء بها نكرة فندعها على ابهامها »[٥] .

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .
(٢) سورة عبس الآية : ٣١ .
(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٢١ .
(٤) سورة النساء : من الآية الأولى .
(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٤ .

فان قلت ما الذي دعاه الى هذا التطرف في التوقف ؟ قلنا خشيته من ان يصادم قول الباحثين الذي لم يثبت حيث يقول « فاذا ثبت ما يقوله الباحثون من الافرنج من ان لكل صنف من اصناف البشر أبا كان ذلك غير وارد على كتابنا كما يرد على كتابهم التوراة لما فيها من النص الصريح في ذلك وهو مما حمل باحثيهم على الطعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه »[1] .

أما عن رجم الشياطين في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً للشَّيَاطِينِ﴾[2] فيتوقف الشيخ عبد القادر المغربي عن بيانه ويكتفي بظاهره فيقول « ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد في القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين واذا لم يفهم العلم الطبيعي هذه القضية فذلك لانه لم تتوفر له اسباب الفهم اليوم ويكفينا في صحة الايمان بها على ظاهرها ان العقل لا يجعلها من المحالات العقلية »[3] .

ونحو هذا قول الامام محمد عبده في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾[4] « ومن الغيب الذي يجب علينا الايمان به ما انبأنا به في كتابه من أن علينا حفظه يكتبون اعمالنا حسنات وسيئات ولكن ليس علينا ان نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن أي شيء خلقوا وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم ، هل عندهم اوراق واقلام ومداد كالمعهود عندنا ـ وهو ما يبعد فهمه ـ أو هناك الواح ترسم فيها الاعمال ؟ وهل الحروف والصور التي ترسم هي على نحو ما نعهد أو انما هي ارواح تتجلى لها الاعمال فتبقى فيها بقاء المداد في القرطاس الى ان يبعث الله الناس ؟ كل ذلك لا نكلف العلم به وانما نكلف الايمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه الى الله والذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل في عملنا هو أن اعمالنا تحفظ وتحصى

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٤ .
(٢) سورة الملك من الآية : ٥ .
(٣) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٦ .
(٤) سورة الانفطار الآيتين ١٠ و ١١ .

لا يضيع منها نقير ولا قطمير »[1] .

كانت هذه نماذج لتوقفهم في امور غيبية دنيوية، اما توقفهم في أمور اخروية كالاخبار عن الجنة والنار والميزان والصراط ووقت قيام الساعة ونحو ذلك فنذكر منه وقفة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر حيث نراه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] يقول « والآية تدل بظاهرها على ان الجنة مخلوقة الآن لأن الفعل الماضي يفهم هذا غير أنه من الجائز ان يكون من قبيل قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأرض﴾[3] فلا يدل على خلقها الآن والبحث في هذا لا فائدة له ولا طائل تحته »[4] أما الاستاذ محمد رشيد رضا فهو عند تفسيره قوله تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[5] يقول عن النار « وهي موطن عذاب الآخرة نؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي اخبر الله تعالى به ولا نبحث عن حقيقتها ولا نقول انها شبيهة بنار الدنيا ولا انها غير شبيهة بها وانما نثبت لها جميع الاوصاف التي وصفها الله تعالى به كقوله ﴿ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجارَةُ﴾[6]

ويقول الشيخ عبد القادر المغربي عن الصوت الذي يسمع حين يلقى الكفار في النار كما ورد في قوله تعالى ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ

---

(١) جزء عم : محمد عبده ص ٣٦ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٢ .
(٣) سورة الزمر من الآية ٦٨ .
(٤) الدروس الدينية لعام ١٣٥٦ هـ : محمد مصطفى المراغي ص ٢١ .
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٤ .
(٦) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٩٧ .

تَفُورُ﴾[1]. يقول « وهل هذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى ان المواد التي تلتهب فيها يسمع لها هذا الصوت ؟ أو هو صوت اهلها الذين القوا ويلقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين أحد الامرين كما لم يكلفنا ان نعرف جهنم والجنة وسائر شؤون عالم الغيب معرفة كنه وتحديد وانما كل ما على المؤمن ان يعتقد انه تعالى أعدّ داراً للاشرار تسعر فيها النار وتفور ويسمع لها صوت على المعنى الذي يريده سبحانه وتعالى أما ما وراء ذلك من اعتقاد ان مواد جهنم وعناصرها وطبائعها وغليانها وحسيسها من جنس ما نعرفه في الدنيا أو لا ـ فهذا مما لم نكلفه رحمة بنا اذ القصد ان يؤدي علمنا بالنار الى الخشية والازدجار وهذا يحصل بمجرد ما قصه الله علينا من أمرها وان الداخل اليها يشعر من الالم بأقصى ما يعهده في دار الدنيا »[2].

ويصف الشيخ محمود شلتوت الحجاب بين الجنة والنار الوارد في قوله تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾[3] الآية بقوله « والذي يجب علينا ان نقف عنده هو ان هناك حجاباً بين الجنة والنار قد يكون مادياً ، وقد يكون معنوياً والله اعلم بحقيقته والمقصود ان بين الجنة والنار ما يحجز بين الفريقين وان هذا الحجاب الحاجز لا يمنع من وصول الاصوات عن طريق المناداة وان هناك مكاناً ـ او صفة الامتياز والعلو وانه يكون على هذا المكان رجال لهم من المكانة ما يجعلهم مشرفين على هؤلاء ، ينادون كل فريق بما يناسبه : يحيون اهل الجنة ويبكتون اهل النار »[4].

ولنختم الحديث عن النار بما قاله استاذهم وامامهم محمد عبده « نار جهنم هي دار العذاب في الآخرة وهي نار يجب علينا الايمان بها والتصديق

---

(١) سورة الملك الآية : ٧ .

(٢) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٧ .

(٣) سورة الاعراف : من الآية ٤٦ .

(٤) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٩٢ .

بأن العذاب فيها اشد من العذاب في نار الدنيا ، كما يجب علينا ان لا نبحث في حقيقتها ولا بم تتقد ولا اين يكون موضعها فذلك مما لا يمكن لعقولنا ان تصل اليه وليس بمحال عقلي حتى نحتاج فيه الى تأويل »[1] .

كان هذا موقفهم مما ورد من آيات عن الجنة والنار أما موقفهم من الميزان في الآخرة فنعرفه عند تفسير قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[2] . فيقول الامام محمد عبده « ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين « انه ميزان بلسان وكفتين كاطباق السموات والارض ولا يعلم ماهيته الا الله » ! فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه الى الله ؟ والكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم ولم يرد في الكتاب الا كلمة الميزان وقد عرفت ما يمكننا ان نفهم منها لننتفع بما نعتقد وما عدا ذلك فعلمه الى الله سبحانه »[3] « وعليك ايها المؤمن المطمئن الى ما يخبر الله به ان تؤمن ان الله يزن الاعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسل كيف يزن ولا كيف يقدر فهو اعلم بغيبه والله يعلم وانتم لا تعلمون »[3] .

ويقول الشيخ احمد المراغي « وعلى الجملة فعلينا ان نؤمن بما ذكره الله من الميزان في هذه الآية وفي قوله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[4] ومن وزن الاعمال وتمييز مقدار لكل عمل وليس علينا ان نبحث وراء ذلك فلا تسأل كيف يزن ولا كيف يقدر ؟ فهو اعلم بغيبه ونحن لا نعلم »[5] .

ولا نريد ان نستقصي ما توقفوا عن بيانه وحذروا من الاطناب في ما ابهم

---

(١) جزء عم : محمد عبده ص ١٣٥ .

(٢) سورة القارعة : الآيات ٦ ـ ٩ .

(٣) جزء عم : محمد عبده ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٤) سورة الانبياء من الآية : ٤٧ .

(٥) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١٠ ص ٢٢٧ .

وانما نكتفي بما يشير الى كونه اصلا من اصولهم .

وينبغي ان نذكر هنا ان التوقف كان في المسائل التي ورد الاطناب فيها في احاديث القصاص والوضاعين من احاديث نسبوها الى الرسول ﷺ أو الى احد اصحابه .

ولا نقصد بهذا الاسرائيليات فلهم منها موقف هو اصل من اصولهم سنعرضه ان شاء الله .

الأساس السادس

التّفسيرُ العلميّ الحديث

نزل القرآن الكريم أول ما نزل في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، كان الناس في ظلمة حالكة نهارها كبهيم ليلها - خلدوا فيها الى النوم .

فكانت أول شعاعة يبثها في ارجائها شعاعة « اقرأ » ولكنها لم تكن شعاعة بل كانت هزة ارتج لها الكون بأكمله ، جاءت لايقاظ النائمين ، ولم تزل اصداء تلك الهزة تجلجل في الكون والى يوم الدين ، كانت ردّة الفعل لتلك الهزة تتفاوت بين الناس تماماً كتفاوتهم عند اليقظة فمنهم من يستيقظ بهمسة تدعوه للقيام ومنهم من لا يوقظه الا الصوت المتكرر القوي ومنهم من يسمع النداء ولكن شهوته تأبى أن يطيع وتدعوه الى الاستمرار في النوم .

لم تزل تلك الشعاعة الأولى تنمو وتكبر بانضمام قريناتها اليها حتى انجلت الظلمة واضاء النور ارجاء واسعة ، لم يسع اتباعه ان يستأثروا به بعد أن امروا بالدعوة اليه ، ووجدوه اكبر من ان يحصر في مكان فهو نور عظيم بامكانه ان يضيء الكون بأسره ان لم توضع امامه العقبات والحواجز التي تحجز نوره عن وصوله الى ما وراءها .

فقدموا انفسهم واموالهم في سبيل نشر هذا النور وازالة العقبات عن طريقه ليهتدي به من اراد وليغمض عينه من يؤذيه النور ، فقاتلوا وقتلوا وبذلوا اولادهم واموالهم وما يملكون احتساباً لما عند الله من المثوبة والاجر لا لما عند البشر من مالٍ فانٍ وفيْءٍ زائلٍ . كان ذلكم النور نور القرآن الكريم .

ولقد كان الناس في ذلك العصر يفهمون القرآن الكريم ويفسرونه وكان ذلك ـ في غالب آياته ـ من الامور الهيّنة السهلة الجارية على الفطرة والبساطة لا يحتاجون في ذلك الى اصطلاحات فنية ولا الى قواعد نحوية وبلاغية ولا الى نظريات علمية ، بل كان بمحض السليقة العربية السليمة والذوق البلاغي الرقيق وكانوا يفهمون هدايته بعقول صافية وذكاء موهوب ولغة عربية سليمة نزل بها ذلك الكتاب، وإذا ما استعانوا بشيء فبالنظر في كتاب الكون وآيات الله في الآفاق وفي انفسهم وفي السموات والارض ، واذا ما اشكل عليهم بعد هذا كله أمر رجعوا الى رسول الله ﷺ فيجلو لهم كل ابهام ويزيل عن اذهانهم كل التباس[1] .

مضى الناس على ذلك المنهج الاسلم والاعلم والاحكم فترة من الزمن تنحصر في وقته عليه السلام وبضع سنين من بعده اتسعت فيها دائرة الاسلام ودخلت فيه طوائف من الناس لا تعرف العربية ، وادخلوا معهم طوائف من علومهم من طب وفلسفة وفنون اخرى كان لهذا وذاك اثر كبير : ـ

١) فبعد ان كان الناس ينطقون الفصحى سليقة اصبح من تعلمها لم يصل الى درجتهم ومن خالطهم من الفصحاء تأثر أو ابناؤه بلهجتهم فصار يخطىء كما يخطؤون ، ولولا ان الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظ القرآن ومن حفظه حفظ لغته العربية لتقوضت اركانها ولانهدت كما ينهد بيت هدمت اركانه ، ولكن الله قيض للغة رجالا جعلوا لها ضوابط تضبطها وتضمن سلامتها فنشأت بذلك علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغير ذلك .

٢) وكان لعلوم تلك الطوائف من الناس اثر كبير ايضاً فعند ترجمتها الى اللغة العربية كان بعضها لا يتفق مع القرآن اتفاقاً بينا فجدّ بعضهم في التوفيق بين النصوص العلمية تلك والنص القرآني الثابت وكان قصدهم من ذلك ألا يظهر القرآن الكريم مصادماً للعلم بغض النظر عن نصيب تلك

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ١ ص ٦

النظريات العلمية من الثبوت او عدمه ، فجدّ في التفسير منهج جديد ، ذلكم هو منهج التفسير العلمي للقرآن الكريم .

تسمع هذا فتتساءل: ولكن ما هو دليلهم الذي اباح لهم سلوك هذا المنهج ؟ واذا بأحدهم يأخذ بيمينك ويقول لك : الم يقل الله سبحانه وتعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[1] ويقول آخر وقال سبحانه ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾[2] الآية ويكمل ثالث وقال عز وجل ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[3] ويعود الأول فيقول الم تسمع قول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمواتِ والأَرْضِ »[4] ويقول سبحانه ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[5] وقال﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانُظُروا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[6] وغير ذلك من الآيات كثير اليس في هذا دليل كاف على المنهج العلمي في القرآن الكريم ؟

تسمع هذا وتستعيده ومعه آيات أخرى كثيرة ثم تقول ولكن هذا لا يدل على ان القرآن يشتمل على تلك العلوم بل يدل على دعوته الى العلم وطلبه ، وفرق بين ان نصف الأذان ـ مثلاً ـ بأنه صلاة وبين انه دعوة الى الصلاة ، وان كان يماثلها بأنه عبادة ، ولكنه ليس هو عينها بل هو عبادة أخرى .

فالقرآن علم ـ يدعو ومن بين دعواته دعوته الى العلوم ولا يلزم منه اشتماله على كل تلك العلوم التي يدعو اليها .

---

(١) سورة ق الآية : ٦ .
(٢) سورة الطارق الآيتان ٥ و ٦ .
(٣) سورة الروم من الآية : ٥٠ .
(٤) سورة الاعراف من الآية : ١٨٥ .
(٥) سورة الانعام من الآية : ٩٩ .
(٦) سورة العنكبوت من الآية : ٢٠ .

ثم تريد بعد هذا ان تستجلي آراء السابقين في مبلغهم من تطبيق هذا المنهج لتعبر منه على بينة الى منهج المعاصرين في ذلك ، فتجد ان العلماء السابقين لم يكونوا على درجة واحدة أو موقف واحد من هذا المنهج ، فبينما كان اناس منهم يدعون اليه كان اناس يفندونه ويبطلونه فتختار منهم طائفة لتسمع آراءهم في ذلك ، فتبدأ بالمؤيدين فتسمع .

رأي الغزالي : ت ٥٠٥ هـ .

الذي يعتقد ان القرآن يشتمل على جميع العلوم فيقول « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في افعال الله عز وجل وصفاته ،وفي القرآن شرح ذاته وافعاله ، وهذه العلوم لا نهاية لها وفي القرآن اشارة الى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع الى فهم القرآن ومجرد ظاهر التفسير لا يشير الى ذلك بل كل ما اشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن اليه رموز ودلالات عليه يختص اهل الفهم بدركها »[1] .

ويقول « فاعلم ان من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه وهو مصيب في الاخبار عن نفسه ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومحطه بل الاخبار والآثار تدل على ان في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم »[1] ويستدل لذلك بقوله « وقال علي كرم الله وجهه لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار . . وقد قال بعض العلماء لكل آية ستون الف فهم وما بقي من فهمها اكثر وقال آخرون القرآن يحوي سبعة وسبعين الف علم ومئتي علم اذ كل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك اربعة اضعاف اذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع وترديد رسول الله

---

(١) احياء علوم الدين : الامام الغزالي جـ ١ ص ٢٩٦ .

ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة[1] لا يكون الا لتدبره باطن معانيها والا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله الى تكرير وقال ابن مسعود رضي الله عنه من اراد علم الاولين والآخرين فليتدبر القرآن وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر »[2] .

رأي السيوطي : ت ٩١١ هـ :

وذهب الامام السيوطي رحمه الله تعالى الى نحو ما ذهب اليه الغزالي واستدل بأدلة هي اقوى من ادلة الغزالي ، فهو يفرد النوع الخامس والستين من انواع علوم القرآن في العلوم المستنبطة من القرآن ويدلل لذلك بقوله تعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[4] وقال ﷺ« ستكون فتن قيل وما المخرج منها قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم »أخرجه الترمذي وغيره واخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال من اراد العلم فعليه بالقرآن فان فيه خبر الأولين والآخرين قال البيهقي يعني اصول العلم[5] وما اخرجه ابو الشيخ عن ابي هريرة انه قال قال رسول الله ﷺ : « ان الله لو اغفل شيئاً لاغفل الذرة والخردلة والبعوضة »[6] وما اخرجه ابن ابي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال (انزل في هذا القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء لكن علمنا

---

(١) رواه ابو ذر الهروي في معجمه من حديث ابي هريرة بسند ضعيف (المغني عن حمل الاسفار في تخريج ما في الأحياء من الاخبار) .

للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي ضمن احياء علوم الدين للامام الغزالي جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٢) احياء علوم الدين للامام الغزالي جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٣) سورة الانعام من الآية : ٣٨ .

(٤) سورة النحل من الآية : ٨٩ .

(٥) الاتقان في علوم القرآن : للامام السيوطي جـ ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٦) الاكليل في استنباط التنزيل : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ص ٢ .

يقصر عمّا بين لنا في القرآن)[1] ثم قال السيوطي : « وانا اقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي اصل - الا وفي القرآن ما يدل عليها وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والارض وما في الافق الأعلى وتحت الثرى وبدء الخلق واسماء مشاهير الرسل والملائكة وعيون اخبار الامم السالفة . . الى غير ذلك مما يحتاج شرحه الى مجلدات »[2] .

رأي ابن ابي الفضل المرسي :

أما رأي ابن ابي الفضل في تفسيره فيذكره السيوطي في اتقانه فيقول : - « وقال ابن ابي الفضل المرسي في تفسيره « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة الا المتكلم بها ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة واعلامهم مثل الخلفاء الاربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون باحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل اهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه . . الخ »[3] وقال « وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الاوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك »[4] .

ثم ذهب يبين بعض مواضع ذلك مما يطول استيفاؤه هنا ويتبع ذلك كله بقوله : « وفيه أصول الصنائع واسماء الآلات التي تدعو الضرورة اليها

---

(١) الاكليل في استنباط التنزيل : للسيوطي ص ٢ .
(٢) الاتقان : للسيوطي جـ ٢ ص ١٢٩ .
(٣) الاتقان : للامام السيوطي جـ ٢ ص ١٢٦ .
(٤) المرجع السابق - جـ ٢ ص ١٢٧ .

كالخياطة والحدادة والنجارة والغزل والنسج والفلاحة والصيد والغوص والصياغة والزجاجة والفخار والملاحة . . الخ »[1] وهو يستشهد فيما بينها .

كان ذلك اشارة الى آراء بعض المؤ يدين للقول باشتمال القرآن الكريم على العلوم ولم يكن ذلكم الرأي خالياً من المعارضة والرفض بين العلماء آنذاك بل كان له معارضون نكتفي - كي لا نطيل - برأي احدهم ذلك هو الامام الشاطبي رحمه الله تعالى .

رأي المعارضين :

الامام الشاطبي : ت ٧٩٠ هـ :

يبدأ الامام الشاطبي بيان رأيه ببيان العلوم التي كانت منتشرة بين العرب عند نزول القرآن ويبين موقف الشريعة منها فيقول « فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه وابطلت ما هو باطل ، وبينت منافع ما ينفع من ذلك ومضار ما يضر منه »[2] ويذكر من ذلك علم النجوم وعلم الانواء واوقات نزول الامطار وعلم التاريخ واخبار الامم الماضية ثم يبين ما كان اكثره باطلاً أو جميعه كعلم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة ومن النوع الأول الطب والتفنن في علوم البلاغة وضرب الامثال[3] ، ثم يقرر بعد هذا « ان كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدّ فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم[4] والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون واشباهها وهذا اذا عرضناه على ما تقدم لم يصح والى هذا فان السلف الصالح - من

---

(١) الاتقان : للامام السيوطي جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٢) الموفقات : للامام الشاطبي جـ ٢ ص ٧١ - ٧٦ .
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٧١ - ٧٢ .
(٤) أي الرياضيات من الهندسة وغيرها .

الصحابة والتابعين ومن يليهم ـ كانوا اعرف بالقرآن وبعلومه وما اودع فيه ولم يبلغنا انه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم وما ثبت فيه من احكام التكليف وأحكام الآخرة وما يلي ذلك ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على اصل المسألة الا ان ذلك لم يكن فدل على انه غير موجود عندهم وذلك دليل على ان القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا »[1] .

ويبين ذلك في موضع آخر عند ذكر العلوم المضافة الى القرآن ، فبعد أن ذكر من العلوم ما هو كالاداة لفهمه والوسيلة لاستخراج فوائده يقول : ـ « ولكن قد يدعى فيما ليس بوسيلة انه وسيلة الى فهم القرآن وانه مطلوب كطلب ما هو وسيلة بالحقيقة ، فان علم العربية أو علم الناسخ والمنسوخ ، وعلم الاسباب ، وعلم المكي والمدني ،وعلم القراءات ، وعلم اصول الفقه ، ، معلوم عند جميع العلماء انها معينة على فهم القرآن ، واما غير ذلك فقد يعده بعض الناس وسيلة ايضاً ولا يكون كذلك كما تقدم في حكاية الرازي في جعل علم الهيئة وسيلة إلى فهم قوله تعالى :﴿ أَفَلَم يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[2] وزعم ابن رشد الحكيم في كتابه الذي سماه بـ « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الإتصال » ان علوم الفلسفة مطلوبة اذ لا يفهم المقصود من الشريعة على الحقيقة الا بها ولو قال قائل ان الامر بالضد مما قال لما بعد في المعارضة .

وشاهد ما بين الخصمين شأن السلف الصالح في تلك العلوم هل كانوا آخذين بها أم كانوا تاركين لها أو غافلين عنها ؟ مع القطع بتحققهم بفهم القرآن يشهد لهم بذلك النبي ﷺ والجمّ الغفير ، فلينظر امرؤ اين يضع قدمه ؟»[3] .

---

(١) الموافقات : الامام الشاطبي جـ ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠ .
(٢) سورة ق الآية : ٦ .
(٣) الموافقات : للشاطبي جـ ٣ ص ٣٧٦ .

ثم ذكر الرد على اولئك بما خلاصته ان ما استدلوا به من الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد أو المراد بالكتاب في قوله تعالى﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1]اللوح المحفوظ ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية ، وما ينقل عن علي رضي الله عنه أو غيره في هذا لا يثبت فليس بجائز ان يضاف الى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح ان ينكر منه ما يقتضيه[2] .

كان هذا بيانا موجزاً لآراء بعض علماء المسلمين السابقين في التفسير العلمي للقرآن الكريم وقبل ان ننفذ منه الى بيان موقف المدرسة العقلية الحديثة من ذلك يجب ان نعلن هنا حقيقة في حقّ هؤلاء العلماء القدامى الذين اجازوا مبدأ تفسير القرآن بالعلوم وهي أننا لا نكاد نصادف في آثارهم العلمية محاولات تطبيقية تلح على الربط بين النظرية العلمية والحقيقة القرآنية كما نجد في آثار علمائنا المحدثين ، ذلك ان شغلهم الشاغل في ذلك الوقت كان الاقتباس مما نقل اليهم من التراث اليوناني والانتفاع بمقولاته الفلسفية والمنطقية في تأكيد الحقيقة الدينية لتستقيم لهم قضية التوفيق بين العقل والنقل[3] .

أما في العصر الحديث فان الذين يؤيدون هذا الاتجاه العلمي في التفسير يقولون ان القرآن يشير الي مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية ولعل متحققاً بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن واحكم النظر فيه وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوي عليه أمر من اموره لاستخرج منه اشارات كثيرة تومىء الى حقائق العلوم[4] .

بمعنى آخر ان السابقين جعلوا الحقيقة القرآنية اصلا ذكروا ما يؤيد هذه

---

(١) سورة الانعام من الآية : ٣٨ .

(٢) الموافقات : للشاطبي جـ ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت محمد الشرقاوي ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٤) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ص ١٤٢ .

الحقيقة من نظريات أو حقائق علمية وان المعاصرين جعلوا النظريات أو الحقائق العلمية أصلاً يدعمونها ويفسرونها بآيات قرآنية قد تؤيدها صراحة أو يفهم منها ذلك وقد لا تدل على شيء من هذا فيتكلفون في التوفيق بين هذا وذاك .

هذه حقيقة يجب ان نذكرها للتفريق بين منهج هؤلاء ومنهج اولئك ننتقل بعدها الى بيان موقف المدرسة العقلية الحديثة من ذلك .

رأي المدرسة العقلية الحديثة :

وحقيقة أخرى يجب ان نصرح بها في موقف هؤلاء ايضاً من التفسير العلمي الحديث للقرآن الكريم فبينما يؤكدون في نصوصهم الكثيرة على التحذير من سلوك هذا المنهج والتطرف فيه لأن ذلك مما يشغل القارىء عن المقاصد العالية والهداية السامية للقرآن الكريم بينما نراهم يؤكدون ذلك نجد تفاسيرهم لا تخلو من ذلك التطرف في الاستدلال بالعلوم الحديثة عند تفسير النصوص القرآنية .

وحتى لا نكون ممن يلقي التهم جزافاً نبدأ بذكر نصوص معارضتهم لذلك النوع من التفسير فنذكر ـ مثلاً ـ رأي الشيخ محمد مصطفى المراغي حيث يقول : ـ

« وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والاحكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع اليها وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها وذلك خطر عظيم على الكتاب فان للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى ، والنظريات التي لم تستقر لا يصح ان يرد اليها كتاب الله »[1] .

---

(١) مجلة الازهر : المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ ص ١٧٣ الدروس الدينية : محمد مصطفى المراغي .

ويرى الشيخ محمود شلتوت ان هؤلاء المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونيـة وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا في القرآن على هذا الاساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن ، وافضى بهم الى صور من التفكير لا يريدها القرآن ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله انزله الله فاذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر أو وصف للسحاب أو حديث عن الرعد أو البرق تهللوا واستبشروا وقالوا هذا هو القرآن يتحدث الى العلماء الكونيين ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف نشأ وكيف تسوقه الرياح . واذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة واسرار الطبيعة واذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين ان القرآن كتاب علمي دقيق !! »[2] .

ثم قال « ولسنا نستبعد اذا راجت عند الناس في يوم ما نظرية داروين مثلاً ان يأتي الينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : ان نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين »[3] ثم يختم كلامه ببيان رأيه في ذلك فيقول : -

« هذه النظرة خاطئة من غير شك لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابـاً

---

(١) سورة الانعام من الآية : ٣٨ .
(٢) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ١١ .
(٣) المرجع السابق : ص ١٣ .

يتحدث فيه الى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وانواع المعارف ، وهي خاطئة من غير شك لانها تحمل اصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الاعجاز ، ولا يسيغه الذوق السليم ، وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان ، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الاخير ، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات ، فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ولأوقفنا انفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه .

فلندع للقرآن عظمته وجلالته ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم ان ما تضمنه من الاشارة الى اسرار الخلق وظواهر الطبيعة انما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس ايماناً مع ايمانهم وحسبنا ان القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن اليها العقول »[1] .

ولا نرمي هنا الى استقصاء اقوال الرفض عندهم ولكن نتوّجه برأي السيد محمد رشيد رضا الذي قال عنه الامام محمد عبده « صاحب المنار ترجمان أفكاري »[2] اذ يقول « وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما انزل الله لأجله القرآن »[3] .

هذا بيان لبعض نصوص رفضهم لهذا النوع من التفسير تدل على مدى

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣ ـ ١٤ .
(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٤٩٦ .
(٣) تفسير المنار جـ ١ ص ٧ .

رفضهم له . ومع هذا فان لهم نصوصاً أخرى تدل على تسامحهم ، بل دعوتهم لهذا النوع من التفسير ويؤكد هذه الدعوة وقوع هذا التفسير منهم عند تناولهم لبعض آيات القرآن الكريم ، فلنذكر شيئاً من النصوص التي تدعو الى تناول الآيات بالتفسير العلمي فهذا السيد جمال الدين الافغاني يقول « عمّ الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردّين برداء العلماء حتى تخرّصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن بريء مما يقولون »[1] ويقول « فاذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا الى التأويل اذ لا يمكن ان تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود . لذلك نراه قد جاء بالاشارة الى كلّ ما هو حادث اليوم وما هو ممكن ان يحدث في مستقبل الزمن مع مراعاة عقول الخلق وتقريب الاشياء للاذهان عن طريق نظرهم وقابلية فهمهم »[1] .

وهذا فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر يكتب مقدمة لكتاب « الاسلام والطب الحديث » فيقول فيها « قرأت لسعادة الطبيب النطاسي عبد العزيز اسماعيل باشا نتفاً مما كان يكتب له بمجلة الازهر تحت عنوان (الاسلام والطب الحديث) فأعجبني منه ما توخاه من التوفيق بين معاني بعض الآيات القرآنية الكريمة وبين مقررات الطب الحديث وحمدت له هذه النزعة العلمية التي لو تحلى بها كل مبرز في فرع من فروع العلم لاجتمع لدينا ذخر عظيم من هذه التطبيقات الثمينة تستفيد منه النابتة الحديثة زيادة معرفة باعجاز القرآن وايقان بأن الله ما فرط في كتابه من شيء .

لست اريد من هذا ان اقول ان الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف وانما اريد ان اقول أتى بأصول عامة لكل ما يهم الانسان معرفته والعمل به ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً ، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ١٠٠ .

ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه »[1] .

وهذا الشيخ محمد رشيد رضا يعدّ ذلك وجها من وجوه اعجاز القرآن فيقول « الوجه السابع اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق »[2] وذهب يذكر امثلة لذلك .

ومنهم الاستاذ محمد فريد وجدي الذي قال « من مطالب الاوساط من الدين ان يكون مرناً يتسع لما يجد من الآراء العلمية ولا يستعصي على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية ولا ما يقوم الدليل عليه من الشؤون الكونية ، والواقع انه قليل على الاسلام ان يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب والكونيات لأنه دين انطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم وبالدليل واشعار بالتبعية الشخصية ونهي عن التقليد »[3] .

وهل نحن في حاجة لذكر رأي الشيخ طنطاوي جوهري ؟ لا اعتقد فكل كلمة في تفسيره الجواهر تصرخ بهذا المنهج حتى انكره وردّ على تطرفه في ذلك تلاميذ المدرسة انفسهم .

ولنذكر بعد هذا امثلة من تفسيرهم للقرآن الكريم تفسيراً متأثراً بالمكتشفات العلمية والنظريات الحديثة .

فمن ذلك تفسير السيد الافغاني لقوله تعالى ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ

---

(1) الاسلام والطب الحديث : عبد العزيز اسماعيل مقدمة الشيخ محمد مصطفى المراغي ص ٥ - ٦ .

(2) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢١٠ .

(3) الاسلام دين الهداية والاصلاح : محمد فريد وجدي ص ٥١ .

إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[1] قال الافغاني « فردّ سليمان الهدية وتحفز لاخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب وأراد ان يريها ما لديه من القوى ، وما تسخر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره ـ طيارات مثلاً ـ وسرعة نقل الاخبار والاشياء بأسرع من البرق ـ التلغراف اللاسلكي مثلاً ـ وجدنا في ذلك القصص ان بتلك الواسطة التي توفرت لسليمان ، وبها نقل عرش بلقيس من سبأ الى القدس قبل ان يرتد اليه طرفه جاءت صريحة بالعمل مبهمة عن الآلة العاملة اذ لم يكن بالامكان للقرآن ان يصرح بشكلها أو باسمها لبعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين ، وكذلك لو جاءنا القرآن بنقل الاخبار بالفضاء وشرح لنا ما فهمناه اليوم لما صدقنا ذلك لو لم نره باللاسلكي . وهكذا العلم لا يعجز عن احداث ما نظنه اليوم مستحيلاً وابرازه مرئياً »[2] .

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾[3] « أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي ، واذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم ـ لا شك تتبعثر اجزاء الارض لبعدها عن المركز ، وتنسف الجبال نسفاً وتتحول براكين هائلة ، وبالنتيجة تخرب الكرة الارضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله اعلم »[4] .

ونحا هذا النحو من التفسير تلميذه الشيخ محمد عبده فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاء انْشَقَّتْ ﴾[5] انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مرّ تفسيره في سورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾[6] وهو فساد تركيبها واختلال نظامها

---

(١) سورة النمل : الآيتي ٣٤ ـ ٣٥ .
(٢) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٣) سورة الكهف من الآية : ٤٧ .
(٤) خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ص ١٠٤ .
(٥) سورة الانشقاق الآية الأولى .
(٦) سورة الانفطار الآية الأولى .

عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر اليها سير العالم كأن يمرّ كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأي غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره »[1].

ويعترض الشيخ محمد حسين الذهبي على هذا التفسير فيقول « ولكن هل لا بد في فساد الكون من ان يترتب على مثل هذه الظاهرة الكونية ؟ وهل يعجز الله عن افساده واخلاله بأمر آخر غير ذلك ؟ أليس الأولى بنا ان نؤمن بما جاء به القرآن ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات ، كما هو مذهب الشيخ ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلاً ولا يريده على انه أمر لا بد منه »[2].

ويؤيد ذلك الرفض الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير[3].

ويفسر الشيخ محمد رشيد رضا قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾[4] بقوله « أي أكذّب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا ان السموات والارض كانتا مادة واحدة ففتقناهما وخلقنا منها هذه الاجرام السماوية التي تظلهم وهذه الارض التي تقلهم وهذه المادة هي المبينة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا

---

(١) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٤٨ .
(٢) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢٣٤ .
(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث : مصطفى محمد الحديدي الطير ص ٥٣/٥٤ .
(٤) سورة الانبياء الآية : ٣٠ .

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾(١) . وهذا شيء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من اهل الارض وكذلك خلق كل الاشياء من الماء وهو اصرح في الآية مما قبله »(٢) ومنه قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا - إلى قوله - وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(٣) فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية مخالفاً لما كان يقوله المتقدمون »(٤) .

ومن ذلك تفسير الشيخ محمد مصطفى المراغي قوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾(٥) « والسموات مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم وهي مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة في الفضاء كل شيء منها في مكانه المقدر له بالناموس الإلهي وهو نظام الجاذبية ولا يمكن ان يكون لها عمد والله ممسكها ومجريها الى الاجل المقدر لها فاذا قيل : « ان نظام الجاذبية - وهو الناموس الالهي - قائم مقام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز ان نقول ان لها عمداً غير منظورة واذا لاحظنا انه لا يوجد شيء مادي تعتمد عليه وجب ان نقول انه لا عمد لها واقدار الاجرام السماوية واوزانها أقدار واوزان لا عهد لاهل الارض بها والارض نفسها اذا قيست بهذه الاجرام ليست الا هباءة دقيقة في الفضاء »(٦) .

ويفسّر قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾(٧) بقوله « وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دلّ عليه العلم وقد قال العلماء ان حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها وان هذه القطعة بعد أن مرت

---

(١) سورة فصلت الآية : ١١ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢١٠ وأنظر جـ ٨ ص ٤٤٦ .
(٣) سورة يس الآيات : ٣٨ - ٤٠ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢١١ .
(٥) سورة لقمان الآية : ١٠ .
(٦) تفسير سورة لقمان : محمد مصطفى المراغي ص ١٣ .
(٧) سورة فصلت من الآية ١١ .

عليها اطوار تكسرت وصارت قطعاً كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها والارض واحدة من هذه السيارات فهي بنت الشمس والشمس هي المركز لكل هذه السيارات »[1] .

ويفسر الشيخ احمد مصطفى المراغي قوله تعالى : ـ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[2] بقوله « اي والشمس تجري حول مركز مدارها الثابت الذي تسير حوله بحسب وضعها النجمي فقد ثبت ان لها حركة رحوية حول هذا المركز تقدر بمائتي ميل في الثانية »[3] ثم ذكر انه طلب من وكيل المرصد الفلكي المصري ان يدلي له بما اثبته علماء الفلك حديثاً في النظريات التي تضمنتها الآيات وكتب ما ادلى به اليه[4] .

وفسر الشيخ عبد القادر المغربي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾[5] فقال « هذا الاكتشاف ـ يعني الجاذبية ـ يفسر لنا معنى ما قرره الكتاب الالهي من أن الارض كفات للاحياء مـذ يكونون على ظهرها فانها تجذبهم اليها وتضمهم الى صدرها كما تفعل الأم الحنون فلا تدعهم يتفلتون وهم بذلك لا يشعرون »[6] .

وقال الشيخ عبد العزيز جاويش مفسراً لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾[7] وقوله سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾[8] : ـ « الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلهما الى سياراتها المرتبطة بها وان

---

(١) تفسير سورة لقمان : محمد مصطفى المراغي ص ١٤ .
(٢) سورة يس : الآية : ٣٨ .
(٣) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٢٣ ص ٩ .
(٤) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٢٣ ص ٩ .
(٥) سورة المرسلات الآيتين ٢٥ و ٢٦ .
(٦) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ١٣٠ .
(٧) سورة نوح من الآية ١٦ .
(٨) سورة النبأ الآية ١٣ .

اقتضى ذلك اضاءة اضعاف اضعاف ما يحتاجه كل سيار من اشعتها والاجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان وقابلة للفساد والفناء ومن الثابت بالحساب ان الشمس تفقد من مادتها في الثانية على اقل تقدير اربعة ملايين طن ولا ينبغي ان يزعج هذا عشاق الحياة الدنيا فان الشمس على هذا الحساب تحتاج في فقدها جزءا من مائة جزء من حجمها الى مائة مليون سنة وخمسين الف سنة على انها بعد ان تصل الى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة في اكثر اجزاء هذه الارض صالحة »(١) .

وفسر الشيخ ـ عبد القادر المغربي ايضاً السموات السبع في قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوٰاتٍ طِبَاقاً ﴾(٢) الآية بقوله « والسموات السبع هي طرائق السيارات ومداراتها ولا ريب ان هذه المدارات طبقات طبقة ادنى من طبقة وفلك فوق فلك ،وإنما اقتصر الوحي من ذكر السموات على سبع مع ان العلم اثبت انها اكثر من ذلك لأنه تعالى انما يخاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أمر الافلاك وكواكبها . . وليس القصد من ذكرها تقرير حقائق في علم الهيئة ، وسكوت الوحي عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفي وجود الزيادة . . وأما فلكا « اورانوس » و « نبتون » فلم يكونا اكتشفا بعد في ذلك العهد فلو احال الله البشر في قرآنه على ما لم يمكنهم النظر فيه والاحاطة علما بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين ـ لكانت احالته عبثاً وتكليفه محالاً ، وقد ابى الله سبحانه وتعالى لنا ذلك في منزل وحيه ومحكم شرعه تفضلاً منه ورحمة »(٣) .

هل اذكر بعد هذا مزيداً من التفاسير ؟لا . . فلو ذهبت اذكر مزيداً من ذلك لاحتجت الى الاسفار الضخمة ، وكفى بتفسير « جواهر القرآن الكريم »

---

(١) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٨٦ .
(٢) سورة الملك من الآية : ٣ .
(٣) جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص : ٥ .

للشيخ طنطاوي جوهري استقصاء وتوسعاً[1] اذ تجد فيه ما لا تجده الا في اخص كتب العلوم الحديثة وأدقها وقلدهم بعد ذلك طائفة ممن تناولوا التفسير كمصطفى محمود وعبد الرزاق نوفل وغيرهم كثير .

وبعد . .

وهل لي ان اذكر هنا ما اراه صواباً في سلوك هذا المنهج مستنداً فيه الى رأي طائفة فاضلة من العلماء المسلمين ان كان لي ذلك فإني اقول . . . .

الرأي المختـــار : ـ

يذكر اصحاب التفسير العلمي ان تفسير القرآن على وفق ذلك المنهج يثبت اعجازاً آخر من اوجه اعجاز القرآن الكريم ذلكم هو الاعجاز العلمي ، كيف لا والقرآن دعا الناس كثيراً الى النظر في الكون ليصلوا من الكون الى مكوّنه وليستدلوا بالوجود على موجده .

ويقول الرافضون لذلك المنهج ان الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة أما ما يصل اليه البحث الانساني ـ أيا كانت الادوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وادواتها فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الانساني ذاته ـ ان نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية . وهي ما يصل اليه العلم البشري »[2] .

ويقولون ان العلوم الانسانية تتجدد مع الزمن على سنة التقدم فلا تزال بين ناقص يتم وغامض يتضح وموزع يتجمع وخطأ يقترب من الصواب ، وتخمين يترقى الى اليقين ولا يندر في القواعد العلمية ان تتقوض بعد رسوخ

---

(١) طبع هذا التفسير في ٢٦ جزءاً .

(٢) في ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب جـ ٢ ص ٩٦ .

او تتزعزع بعد ثبوت ويستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد ان حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدة قرون[1].

ويخشى هؤلاء من التفسير العلمي للقرآن الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس ان العلم هو المهيمن والقرآن تابع ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ويخشون ايضاً التمحل والتكلف لنصوص القرآن وحملها واللهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد[2].

والحق - فيما أرى - وسط بين مذهبين .

فلا رفض يمنع من :

١) ادراك وجوه جديدة للاعجاز في القرآن من ناحية اثبات التوافق بين حقائقه النهائية القاطعة وبين ما يثبت من الحقائق العلمية التي لا يقبل ثبوتها اي نوع من الشك .

٢) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين .

٣) استمالة غير المسلمين الى الاسلام من هذا الطريق ببيان اعجازه العلمي لهم .

٤) الحث على الانتفاع بقوى الكون ومواهبه .

٥) امتلاء النفس ايماناً بعظمة الله وقدرته حينما يقف الانسان في تفسير كلام الله على خواص الاشياء ودقائق المخلوقات حسب ما تصورها علوم الكون[3]، وحينما يرى الحقائق القرآنية ثابتة وصامدة تتكسر تحت اقدامها « النظريات » العلمية وتعانقها بسلام « الحقائق » العلمية .

---

(١) الفلسفة القرآنية : عباس محمود العقاد ص ١٥ .

(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب جـ ٢ ص ٩٧ .

(٣) مناهل العرفان : محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ١ ص ٥٦٨ - ٥٦٩ .

لا رفض يمنع هذا ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي لأن :

١) اعجاز القرآن ثابت وهو غني عن ان يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف الذي قد يذهب بالاعجاز وهناك من الوان الاعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل على محمد ﷺ (١).

٢) ان الدعوة القرآنية الى النظر في الكون والعلوم هي دعوة لعامة الناس وخاصتهم الى موضع العبرة والعظة ليهتدي الناس بها الى خالقها وموجدها وليس الى بيان دقائقها وكشف علومها .

٣) انه مدعاة الى الزلل لدى اكثر الذين خاضوا فيه من المعاصرين لان عملية « التوفيق » تفترض غالباً محاولة للجمع بين موقفين يتوهم انهما متعاديان ولا عداء أو يظن انهما متلاقيان ولا لقاء، اعني انه لا ينبغي ان يحالف النجاح بصورة حتمية كل عملية من عمليات « التوفيق »(٢) .

٤) ان تناول القرآن بهذا المنهج وبذلك المدى يضطر المفسر الى مجاوزة الحدود التي تحتملها الفاظ النص القرآني الكريم ، لانه يحس بالضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة مع ان كثيراً من حقائق العلم مؤقتة ومتغيرة ولا تظهر كلها دفعة واحدة بل تتكشف يوماً بعد يوم وحينئذ يكون التعجل في تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلاً غير مشروع(٣) .

٥) ان ما يكشف من العلوم انما هو نظريات وفروض كل قيمتها انها تصلح لتفسير اكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية الى ان يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدقّ ومن ثمّ فهي قابلة دائما للتغيير والتعديل والنقص والاضافة بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب بظهور أداة كشف جديدة أو بتفسير جديد

---

(١) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ١٥٩ .

(٢) معالم الشريعة الاسلامية : صبحي الصالح ص ٢٩١ .

(٣) الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت الشرقاوي ص ٤٤٣ .

لمجموعة الملاحظات القديمة[1] ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات حتى لا نقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية .

لا رفض للتفسير العلمي مطلقاً ولا تأييد وتسليم له مطلقين . بل جمع بين حقيقتين حقيقة قرآنيةثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك ، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين . ومن هنا كان المسلمون كلهم متفقون على ان القرآن الكريم لا يصادم ولن يصادم الحقيقة العلمية ، وانما يقع التصادم عندما ندعي حقيقة علمية في الكون وهي ليست حقيقة علمية ، أو ندعي حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية[2] .

لهذا فلا بأس من ايراد حقائق علمية ثابتة لا تقبل الشك عند تناول النص القرآني مع ادراك معنى النص وفهمه فهما سليماً خالياً من الشوائب والمؤثرات الخارجية أو الميل به والانحراف لموافقة تلك الحقيقة العلمية وهذا ايضاً كله مشروط بـ :

١ ـ الا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والاعجـــاز .

٢ ـ ان تذكر تلك العلوم لاجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد اعدائها وبيان موافقة القرآن الكريم للحقائق العلمية الثابتة .

٣ ـ ان تذكر تلك الابحاث علي وجه يدفع المسلمين الى النهضة ويلفتهم الى جلال القرآن ويحركهم الى الانتفاع بقوى هذا الكون الذي سخره الله لنا انتفاعاً يعيد للأمة الاسلامية مجدها[3] . والله الموفق » .

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) معجزة القرآن : محمد متولي الشعراوي ص ٤٧ .

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ١ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ .

الأساس السابع

المنهج العقلي في التفسير

قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(١) تلك آية واحدة من آيات عديدة اضاءت السبيل للمسلمين ليهتدوا الى طريق الحق والى طريق السلامة في استجلاء الحكم الشرعي في كل قضية من القضايا . ذلكم هو الرجوع اليه عليه الصلاة والسلام حياً ، وميتاً ، بالرجوع الى شخصه في حياته ، والى القرآن والسنة النبوية بعد مماته ﷺ وهو رجوع اليه قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾(٢) .

ولن يعني هذا ابداً نفي الرجوع بعد ذلك الى امور أخرى من اجماع للمسلمين أو اجتهاد بشروطه فهي امور دلّ عليها الكتاب والسنة وارشدا ، وما تقريره عليه الصلاة والسلام لمعاذ حين قال « اجتهد ولا آلو » الا تقرير منه ﷺ بتسويغ ذلك ، وهذا تقدير من الاسلام كبير للعقل ، بشرط أن لا ينحرف به الهوى الى الضلال بل يهتدي بهدايات الكتاب والسنة الى الحق والى سواء السبيل .

---

(١) سورة النساء الآية : ٦٥ .

(٢) سورة النساء الآية : ٦١ .

وليس في هذا غمط للعقل ونقص من حقوقه ، فللعقل في الاسلام مكانة كبيرة ومنزلة عظيمة لا يجد ما يدانيها في مختلف الاديان وشتى المذاهب مهما بالغت في اعطائه الحرية واغراقه بالمدح والثناء ، فما المبالغة في ذلك الا غمط من حقوقه وتكليف له بما لا يستطيع لايدانيه غمط من ذمه ودعا الى اطفاء نوره فكلا الفريقين-المبالغ في مدحه والمبالغ في قدحه- مجانف للحق والصواب والحق وسط بين هؤلاء وهؤلاء .

قصّر في حقه المبالغ في مدحه لأنه سلبه ذلكم النور الذي يهتدي به في ظلمات الحياة يجلو له ما ابهم عليه في ظلمتها الحالكة ليدركها .

وقصّر في حقه القادحون لانكارهم حقاً من حقوقه وهو القدرة على الادراك اذا اقترنت تلكم القدرة بنور يضيء لها الطريق .

فما أشبه العقل بعين رجل سليم النظر حادّ البصر أدخل في غرفة مظلمة حالكة الظلمة ان أعين ذلك البصر بنور يجلو تلك الظلمة ادرك ما فيها من اشياء وعرف محتوياتها واستطاع ان يشق طريقه فيها من غير ان يصطدم بتلك القطعة أو غيرها .

ولكن المبالغين في مدحه ظلموه حقّه ورفضوا تسليمهم له ذلكم النور ، زاعمين أنه بنفسه قادر على ادراك ما فيها وشق طريقه فكلفوه اكثر من قدرته فكانوا له ظالمين .

واعتقد القادحون ان ذلكم البصر الذي لم يدرك شيئاً في تلك الظلمة ما هو الا لقصور فيه لا ينفعه شيء ولا يكمل نقصه مكمل ، فذموه وقدحوا فيه وكانوا له ظالمين .

وجاء الاسلام بأن الحق ليس هذا ولا ذاك فاعطى العقل ذلكم النور الكتاب والسنة ليهتدي بهما في تلك الظلمات فكانا خير مرشد وخير معين ، وكان الاسلام له منصفاً .

وصرّح الاسلام في مواضع متفرقة بالدعوة الى استعمال العقل قال

تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2] ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إن كُنْتُمْ تَعْقِلونَ ﴾[3] ﴿ والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونُ ﴾[4] .

وذمّ بعض الافعال وبين مخالفتها للعقل فقال سبحانه ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[5] ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾[6] ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[7] ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[8] ﴿ أُفٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[9] .

وذكر من اسباب دخول النار عدم الاهتداء بالعقل ﴿ وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[10].

ولست أرمي من هذا الى بيان مكانة العقل ومنزلته في الاسلام ، ولا إلى بيان وجهة نظر الطائفة التي ذمته وادلتها ولا الى بيان الطائفة التي حكّمته

---

(١) سورة البقرة من الآية ٧٣ .
(٢) سورة البقرة من الآية ٢٤٢ .
(٣) سورة آل عمران من الآية ١١٨ .
(٤) سورة النحل من الآية ١٢ .
(٥) سورة الحجرات من الآية ٤ .
(٦) سورة الحشر من الآية ١٤ .
(٧) سورة البقرة من الآية ٤٤ .
(٨) سورة البقرة من الآية ٧٦ .
(٩) سورة الانبياء من الآية ٦٧ .
(١٠) سورة الملك من الآية ١٠ .

ورضت به اماما ومرشداً واستندت اليه وقدمته على الكتاب والسنة حتى كانت المدرسة العقلية القديمة في الاسلام وسماهم بعض المستشرقين « بالعقليين » لست أرمي الى بيان هذا فقد سبق بيانه وتفصيله في التمهيد .

ولكني ارمي الى بيان موقف طائفة أخرى حديثة . اطلق عليهم اسم « معتزلة العصر الحديث »(١) فكانوا المدرسة العقلية الحديثة ولن نذهب بعيداً في بيان موقفهم هذا ولندع الفرصة لهم ليتحدثوا بأنفسهم .

فهذا امامهم واستاذهم محمد عبده يقول « الاصل الأول للاسلام النظر العقلي لتحصيل العلم فأول اساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور أو يثور عليه ؟ »(٢) و « الاصل الثاني للاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، اسرع اليك بذكر اصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل ان انتقل الى غيره ، اتفق اهل الملة الاسلامية الا قليلاً ممن لا ينظر اليه على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دلّ عليه العقل وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر الى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما اثبته العقل .

وبهذا الاصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مهّدت بين يدي العقل كلّ سبيل وأزيلت من سبيله جميع العقبات واتسع له المجال الى غير حدّ »(٣) .

ويقول « وتقرر بين المسلمين كافة ـ الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ـ ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله

---

(١) اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار : انور الجندي ص ١٣٢ .

(٢) الاسلام والنصرانية : محمد عبده ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) الاسلام والنصرانية : محمد عبده ص ٧٤ ـ ٧٥ .

وبقدرته على ارسال الرسل وعلمه بما يوحي به اليهم »[1] ويوضح تلك العبارة في موضع آخر فيقول « للاسلام في الحقيقة دعوتان دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد ﷺ، فأما الدعوة الأولى فلم يعوّل فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الاسباب والمسببات ، ليصل بذلك الى ان للكون صانعاً واجب الوجود عالماً حكيماً قادراً وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الاكوان واطلق للعقل البشري ان يجري في سبيله الذي سنّته له الفطرة بدون تقييد ، فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بصرك باطوار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية .

وقد اتفق المسلمون ـ الا قليلاً ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب انزله الله إلا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز ان ينزل كتاباً ويرسل رسولاً .

وقالوا كذلك ان أولَ واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما انزل عليهم من الكتاب والحكمة »[2] .

ولنعد الحديث عن الامام ولنسمع من تلاميذه فهذا الاستاذ محمد رشيد رضا يقول : ـ « ذكرنا في المنار غير مرّة ان الذي عليه المسلمون من اهل السنة وغيرهم من الفرق المعتد باسلامها ان الدليل العقلي القطعي اذا جاء في

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٧ .

(٢) الاسلام والنصرانية : محمد عبده ص ٦٥ و٦٨ و٦٩ .

ظاهر الشرع ما يخالفه فالعمل بالدليل العقلي متعين ، ولنا في النقل التأويل أو التفويض وهذه المسألة مذكورة في كتب العقائد التي تدرس في الازهر وغيره من المدارس الاسلامية في كل الاقطار كقول الجوهرة :

وكل نصّ أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها »

ثم يستدل بقول الرازي فيقول« قال الامام الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(١) عند ذكر التأويل « انه قد ثبت انه متى وقع التعارض من القاطع العقلي والظاهر السمعي فاما ان يصدقهما وهو محال لأنه جمع بين النقيضين ، واما ان يكذب القاطع العقلي ويرجح الظاهر السمعي وذلك يوجب تطرق الطعن في الدلائل العقلية ومتى كان كذلك بطل التوحيد والنبوة والقرآن وترجيح الدليل السمعي يوجب القدح في الدليل العقلي والدليل السمعي معا ، فلم يبق الا ان يقطع بصحة الدلائل العقلية ويحمل الظاهر السمعي على التأويل » أ . هـ ثم أنه أقام الدليل بهذا الوجه على المعتزلة في مسألة التكليف لانهم يتفقون مع أهل السنة فيه »(٢) .

وقال الاستاذ محمد فريد وجدي بعد ذكر حديث « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له »(٣) وحديث « يا أيها الناس اعقلوا من ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا (٩) ما أمرتم وما نهيتم عنه واعلموا انه ينجدكم عند ربكم »(٤) الخ الحديث وبعد ان يسمى هذين الحديثين « قواعد الهية » يقول « بهذه

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٨٦ .

(٢) شبهات النصارى وحجج الاسلام : محمد رشيد رضا ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (الدين هو العقل ومن لا دين له لا عقل له) . باطل . أخرجه النسائي في الكنى وعنه الدولابي في الكنى والأسماء جـ٢ ص ١٠٤ . . وقال النسائي حديث باطل منكر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ص ١٣ .

(٤) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار «حديث يا أيها الناس اعقلوا من ربكم وتواصوا بالعقل الحديث داود بن المحبّر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحرث بن أبي أسامة عن داود « أنظر احياء علوم الدين للغزالي جـ ١ ص ٨٩ .

القواعد الالهية نال العقل حريته وتخلص من وثاق كان يئن منه ويتعثر في اصفاده وصار هو المرشد الحقيقي للانسان وهي الوظيفة التي خلقه لاجلها الملك الديان ، كما صار هو المميز الاكبر لافراد النوع الانساني في الافضلية بعد ان كان المميز فيها العبادة الظاهرية والتقوى العضلية قال عليه الصلاة والسلام « لا يعجبنكم اسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله »[١] ماذا تفيد الانسان عبادته الظاهرية وافعاله العضوية بينما يكون هو بضعف عقله عرضة لكل انواع الافراط والتفريط يضع الامور في غير مواضعها ويزن الاشياء بغير ميزانها فان كلف باداء وظيفة اساء استعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلاً والعدل ظلما ؟ ألسنا نرى كثيراً ممن يدعون الصلاح والتقوى صاروا جوائح اممهم وبوائق وطنهم بمحض ضعف عقولهم ؟ اثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا فقال كيف عقل الرجل ؟ فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال « ان الاحمق يصيب بجهله اكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم »[٢] هذا هو مقدار تشريف الديانة الاسلامية للقوة العقلية »[٣] .

وقال وجدي ايضاً - « وقد عاش المسلمون قروناً على هذا النحو حتى انهم اضطروا الى تأويل كلّ نص خالف ظاهره حكم العقل والعلم فقالوا بكروية الأرض وبكل ما وصل اليه علم الفلك وغيره مع ان في الكتاب آيات يدل ظاهرها على نقيض ما قالوه فأولوه جرياً على الاصل الاسلامي نفسه »[٤]

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص : ٢٤١ وص ٤٠٥ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) قال العراقي : احياء علوم الدين جـ ١ ص ٨٩ « حديث أنس أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا في الثناء فقال كيف عقل الرجل ؟ الحديث ابن المحبر في العقل بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا « قلت أنظر نوادر الأصول للحكيم الترمذي ص ٢٤٢ .

(٣) المدنية والاسلام : محمد فريد فريد وجدي ص ٥٢ - ٥٣ .

(٤) الاسلام دين الهداية والاصلاح : محمد فريد وجدي ص ٧٢ - ٧٤ .

وقال : ـ « فان الاسلام وقد اطلق العقل من عقاله واعطاه كامل سلطانه كان يعلم ان المسلمين سيواجهون مذاهب وآراء تخالف ظاهر الفاظ الكتاب فاحتاط العارفون باسرار هذا الدين لهذا الأمر فوضعوا له قاعدة كلية في كتبهم الاصولية وهي : أنه اذا خالف حكم العقل نص الكتاب أو السنة وجب التعويل على حكم العقل ، وتأويل ظاهر النص »[1] .

وقال الشيخ عبد العزيز جاويش : « ان من الممكن ان تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب الى ما تصبوا اليه النفس الانسانية من مراتب الكمال في الاحكام والتصورات والنظم الاجتماعية والمسائل العلمية والآداب الخلقية . . . . الخ »[2] وقال « ان القرآن لم يترك وسيلة تؤدي الى انعاش العقل وتحرير الفكر الا تذرع بها فهو اذا تحاكم فالى العقل واذا حاجّ فبحكم العقل واذا سخط فعلى معطلي العقل واذا رضي فعلى أولي العقل »[3] ثم قرر الشيخ ـ جاويش ـ بعد هذا « ان أول ما بدأ به القرآن في التحاكم الى العقل الايمان بوجود الله فان القرآن ومن ورائه علماء الكلام واصول الدين كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال حتى أن منهم من لم يقبل الايمان التقليدي بالله »[4] ثم يقرر أخيراً « ان القرآن الذي هو كتاب دين الفطرة ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة أو تغم حكمته على العقول السليمة ولم يكن ليكلف العقل الايمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به أو أن يفترض على الانسان ما ليس من موسوعات فطرته اذا فوظيفته في البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلاك التي يغشاها طلاب الحق والحقيقة لا من

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٥ والصحيح أن نص الكتاب والسنة إما ان يكون (قطعي الدلالة) وهذا لم ولن يخالف حكم العقل وإما ان يكون (ظني الدلالة) فإن خالف حكم العقل وجب تأويل ظاهر النص . (المؤلف) .

(٢) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق : ص : ١٤١ .

(٤) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٤٢ .

طريق الوحي بل من طرائق التجارب . . الخ »[1] .

ويجعل الشيخ عبد العزيز جاويش الاصل السادس من اصول الاسلام « تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . . ولا يخفي ان تقرير هذا الاصل في الاسلام يدلك دلالة واضحة على ان الدين المحمدي لم يلزم العقل ان يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه بل أنه فوق ذلك قدمه في العمل والاعتقاد »[2] .

ولن نذهب الى استقصاء عباراتهم وسردها هنا ـ واذا لو فعلنا لطال بنا المقام والمقال ـ وما ذكرنا فيه دليل على اتخاذهم العقل حكما ودليلاً في امور الدين كلها وعلم التفسير احدها وهذا الاستاذ محمد فريد وجدي يقول بعد ذكر بعض الآيات من القرآن الكريم « كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الاصولية التي انفرد بها هذا الدين وهي انه لو تعارض نصّ وعقل أو علم صحيح أوّل النص وأخذ بحكم العقل أو العلم ، وقد أوّل آباؤ نا من هذه الآيات ما خالف عقولهم أو ناقض العلم الصحيح ، ونحن نجري على سنتهم فنؤ ل ما يخالف عقولنا منها .

جرى المسلمون على هذا السمت فكان تطورهم العلمي يمدهم بالمعلومات وعلماؤ هم يؤ ولون الآيات حتى تآخى العلم والدين وسارا كفرسي رهان لا يسبق احدهما الآخر . . فلم ينقسم الناس الى فريقين ، فريق للدين يقل كل يوم عدداً ، وفريق للمدنية يزداد كل يوم مدداً ولكن كانوا في وحدة لا انفصام لها فبلغوا الى ما لا تبلغه امة قبلهم من بسطتي الدنيا والدين »[3] .

كانت هذه صيحتهم ، وكان هذا نداؤ هم ، تداعوا الى تطبيقه في تفسير القرآن الكريم فطبقوه والقوا نظرة في كثير من التفاسير السابقة فوجدوا

---

(١) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٤ .

(٣) الاسلام دين الهداية والاصلاح : محمد فريد وجدي ص ٩٢ .

بعضها مليئاً بما يناقض العقل من الاقوال فنقدوه وابطلوه ووجدوا في معظمها ايماناً وتسليما بما لا يدركه العقل فأولوه وحرفوه وكان لهم صولات وجولات كان الصواب حليفهم حينا وكان التحريف سبيلهم احياناً كثيـرة .

كانوا يرجعون اليه ليحكم فيما اشكل عليهم أو ابهم في كبير الامور وصغيرها فهذا الامام محمد عبده يعلق على ما اورده بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى « الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس ﴾[1] فيقول : ـ « وكل ما اوردوه في خرطوم الشيطان وخطمه ومنقارة وجثومه على الصدر أو القلب ونحو ذلك ـ فهو من التمثيل والتصوير ، والا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثاني من الوسواس أو الموسوسين ـ وهم الناس ـ فان الله نسب الوسوسة اليهم على حدّ السواء فقال (من الجنة والناس) فليكن للناس الذين يوسوسون في صدور الناس خرطوم وخطم ومنقار يدخل في الصدورويوضع على أذن القلب فاذا ذكر الله خنس الخرطوم كما ذكروه في الجنّة ، ولكنهم يكثرون الوصف ويخترعون ما يشاؤ ن بأوهامهم فيما لا يراه الناس ـ وان كانوا لا يعقلونه ـ ويجترئون على الغيب فيذكرون من شئونه ، ما استأثر الله بعلمه ، ثم لا يكفيهم ذلك حتى يخترعوا من الاحاديث ما يسند اوهامهم ، وينسبون الى السلف ما يظنون انه يقوي مزاعمهم »[2] .

ويفسر بالرأي من غير دليل قولـه تعالى ﴿ وَفِـرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾[3] بقوله : ـ « وفرعون هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام وللمفسرين في الاوتاد اختلاف كبير واظهر أقوالهم ملاءمة للحقيقة ان الاوتاد : المباني العظيمة الثابتة ، وما اجمل التعبير عما ترك المصريون من الابنية الباقية بالاوتاد ! فانها هي الاهرام ، ومنظرها في عين الرائي منظر الوتد الضخم المغروز في الارض ، بل ان شكل هياكلهم العظيمة في اقسامها

---

(١) سورة الناس : الآيتين ٥ ، ٦ .

(٢) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٨٥ .

(٣) سورة الفجر الآية : ١٠ .

شكل الاوتاد المقلوبة : يبتدىء القسم عريضاً وينتهي بأدق مما ابتدأ ، وهذه هي الاوتاد التي يصح نسبتها الى فرعون على انها معهودة للمخاطبين »(١) .

ويعلق على تفسير الجلال السيوطي لقوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾(٢) بقوله « وقال مفسرنا الجلال السيوطي ان الرعد ملك أو صوته ، والبرق سوطه يسوق به السحاب « كأن الملك جسم مادي لان الصوت المسموع بالآذان من خصائص الاجسام ؟ وكأن السحاب حمار بليد لا يسير الا اذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع »(٣) .

ولكنه يقول في موضع آخر عن الملائكة : ـ « واذا ورد انهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار فاننا نستدل بذلك على أنّ في الكون عالماً آخر الطف من هذا العالم المحسوس وان له علاقة بنظامه واحكامه ، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بامكانه لذاته ويحكم بصدق الوحي الذي اخبر به »(٤) .

ويفسر الشيخ محمد رشيد رضا الامداد في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(٥) بقوله « ان هذا الامداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية فقال ﴿وما جعله الا بشرى﴾ أي وما جعل عزّ شأنه هذا الامداد الا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ اي تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان فتلقون اعداءكم ثابتين موقنين بالنصر ، وسيأتي في مقابلة هذا القاء الرعب في قلوب الذين كفروا ﴿وما النصر الا من عند الله﴾ دون غيره من

---

(١) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٧٩ .
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٩ .
(٣) تفسير المنار : السيد رشيد رضا جـ ١ ص ١٧٤ .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥٤ .
(٥) سورة الانفال الآية : ٩ .

الملائكة أو غيرهم كالاسباب الحسية فهو عزّ وجل الفاعل للنصر كغيره مهما تكن اسبابه المادية أو المعنوية اذ هو المسخر لها وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد ارواحهم منها الثبات والاطمئنان »[١] وقال « وظاهر نص القرآن ان انزال الملائكة وامداد المسلمين بهم فائدته معنوية كما تقدم وانهم لم يكونوا محاربين »[٢] وقال « وما ادري اين يضع بعض العلماء عقولهم عندما يغترون ببعض الظواهر وببعض الروايات الغريبة التي يردها العقل ولا يثبتها ماله قيمة من النقل فاذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتأييدات الروحانية التي تضاعف القوة المعنوية وتسهيله لهم الاسباب الحسية كانزال المطر وما كان له من الفوائد لم يكن كافياً لنصره اياهم على المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف ـ وقيل آلاف ـ ـ من الملائكة يقاتلونهم معهم فيفلقون منهم الهام ويقطعون من ايديهم كل بنان ، فأي مزيه لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين ممن بعدهم واذلوا المشركين وقتلوا منهم الالوف ؟ »[٣] ثم قال « ألا ان في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن افضل اصحاب الرسول واشجعهم مالا يصدر عن عاقل الا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها الا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الالوسي وغيره بغير سند ، وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسله وقد روى عن غير الصحابة حتى عن كعب الاحبار وامثاله »[٣]

وفسر المسخ في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[٤] بقوله : « أي فكانوا بحسب سنة

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٥٦١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٦٥ .

الله في طبع الانسان واخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس : والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم اهلا لمجالستهم ومعاملتهم » ثم قال « وذهب الجمهور ايضاً الى أن معنى « كونوا قردة » ان صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين والآية ليست نصا فيه ، ولم يبق الا النقل ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لانهم يعلمون بالمشاهدة ان الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان اذ ليس ذلك من سننه في خلقه وانما العبرة الكبرى في العلم بأن من سنن الله تعالى في الذين خلوا من قبل ان من يفسق عن أمر ربه ويتنكب الصراط الذي شرعه له ينزل عن مرتبة الانسان ويلتحق بعجماوات الحيوان وسنة الله تعالى واحدة فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية »(١) .

وهذا الشيخ عبد القادر المغربي في تفسيره لـ « جزء تبارك » يقول مفسراً قوله تعالى : ـ ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّماءِ أن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾(٢) :ـ من في السماء هو الله تعالى ، ولكن قام البرهان العقلي على ان الالة الازلي خالق الكل وضابط الكل لا يتصور ان يكون مستقراً في مكان ، فوجب اذن صرف الآية عن ظاهرها ، وحملها على معنى يلتحم مع ما اثبته العقل وقام عليه البرهان ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً فآية ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾(٣) تنفي ان تكون ذات الله في السموات وفي الأرض اذ كيف يعقل ان تكون الذات الواحدة في مكانين في آن واحد ؟ لا جرم ان يكون المراد بكونه تعالى في السماء وفي الارض ان مشيئته وحكمه نافذ فيهما وسلطانه وقهره غالب عليهما « ثم استشهد بقول ابو مسلم الاصفهاني » ان العرب لما كانوا يقرون بوجود الله تعالى ويزعمون انه في

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤٤ .
(٢) سورة الملك الآية : ١٦ .
(٣) سورة الانعام من الآية : ٣ .

السماء ـ خوطبوا في الوحي على حسب اعتقادهم فقيل لهم﴿أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض﴾؟ أي أأمنتم ايها القوم ذاك الاله العظيم الذي تعتقدون انه موجود في السماء ان يهلككم ؟ هذا ما قاله ابو مسلم وهو دقيق جداً وربما ورد في القرآن امور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع وارادة حمل المخاطبين على اعتقادها ، وانما تذكر على سبيل الفرض وارخاء العنان لهم في اعتقادها اعتماداً على نصوص أخر بينت فساد هذا الاعتقاد »[١] .

وقال ـ الشيخ عبد القادر ـ في تفسير قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[٢] « هذا هو خبر سيدنا يونس حسبما أخذناه من النصوص الصحيحة وليس فيه ما يستبعد وقوعه اللهم الا التقام الحوت له ومكثه في بطنه حينا من الزمن حيا يرزق ثم نبذه في ذلك الفضاء ، على انه ان حق لاهل القرون الماضية ان يستبعدوا خبر صاحب الحوت فلا يحق لابناء عصرنا ذلك الاستبعاد بعد أن رأوا بأعينهم سبح الكثيرين منهم في بطون الغواصات أياماً متطاولات تحت البحار الطاميات ، وطيرانهم مثل ذلك في اجواء السموات فالاله الذي خلق العقل البشري ، ومهد له سبيل الوصول الى مثل هذه العجائب ألا يكون قادراً على ان ييسر حصول مثله لعبده يونس ببعض الاسباب التي لم تزل مجهولة لنا ؟ .

هذا ما نقوله للمتسائل المتعجب . . أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بما ورد في الكتاب ما دام أنه غير محال في العقل »[٣] .

لن أذكر هنا ما أدى بهم اليه هذا المنهج من تأويلات وتحريفات خطيرة فهذه امور بلغت درجتها ومقامها في دراستهم ان ينظر اليها لجسامتها وخطورتها من وجهة نظر مستقلة ، بأن تفرد بدراسات خاصة ان لم تكن بتوسع فلتكن بايضاح اكثر وبيان أوفى ، وهو ما سنفعل ان شاء الله .

---

(١) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي : ص ٩ .
(٢) سورة القلم الآية : ٤٨ .
(٣) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٢٩ ـ ٣٠ .

هذه الأمور المتولدة من هذا المنهج بلغت قيمة بعضها ان صارت اساساً آخر من الاسس التي يقوم عليها منهج هذه المدرسة ، فمن ذلك ذم التقليد والدعوة الى الاجتهاد .

وموقفهم من التفسير بالمأثور ورد بعض الاحاديث الصحيحة لمخالفتها لبعض ما يذهبون اليه ، والتحذير من الاسرائيليات والخوض فيها وتفسير القرآن او الاستشهاد بها . هذه أمور تولدت من هذا المنهج وصارت اسساً مهمة في تفاسيرهم . وهناك أمور أخرى تولدت عن هذا المنهج ايضاً ولكنها لم تبلغ درجة القاعدة العامة التي تفسر بها آيات القرآن ويعتمد عليها في التفسير ولكنها مع هذا خطيرة وجسيمة وذلك مثل تأويل معجزات الانبياء بما يبطلها وتأويل القصص في القرآن الكريم بالتمثيل وتفسير الجن بغير ما هو معروف عند السلف ، والتكذيب بتأثير السحر وغير ذلك .

هذه امور كلها تولدت من هذا المنهج وسنفردها في مواضع خاصة لها ان شاء الله وهو أمر ان لم نفعله أوجب علينا ان ندمج جل هذا البحث تحت هذا المنهج وهذا الدمج يتولد عنه تكتل في المعلومات وتشتيت للذهن وسوء في العرض والبيان ، وهي أمور آثرنا تحاشيها .

بقي مما سنذكره هنا بيان الحق في هذا المنهج ورأى بعض السلف وبعض المعاصرين في سلوكه لننتهي من هذا الى المنهج الاسلم .

رأي بعض السلف :

يرى الامام ابن تيمية رحمه الله تعالى ان « الرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه ، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه ، لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها ، وامتناعها ، لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقاً ، وهي باطل وعارضوا بها النبوات وما جاءت به ، والمعرضون عنه صدقوا باشياء باطلة ، ودخلوا في احوال واعمال فاسدة ، وخرجوا عن التمييز الذي

فضل الله به بني آدم على غيرهم »[1] وقال « ثم هؤلاء لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة على نقيض قولهم لظنهم ان العقل عارض السمع . وهو اصله - فيجب تقديمه عليه ، والسمع اما ان يؤول واما أن يفوض وهم أيضاً عند التحقيق لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة على وفق قولهم »[2] وقال « ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة - من المتأولين لهذا الباب - في أمر مريج فان من انكر الرؤية يزعم ان العقل يحيلها وانه مضطر فيها الى التأويل ومن يحيل ان الله علماً وقدرة ، وان يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك يقول ان العقل أحال ذلك فاضطر الى التأويل ، بل من ينكر حقيقة حشر الاجساد والاكل والشرب الحقيقي في الجنة يزعم ان العقل أحال ذلك وانه مضطر الى التأويل ، ومن يزعم ان الله ليس فوق العرش : يزعم ان العقل أحال ذلك ، وانه مضطر الى التأويل .

ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء انه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل بل منهم من يزعم ان العقل جوّز وأوجب ما يدّعي الآخر أن العقل أحاله .

فياليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة ! ؟ فرضي الله عن الامام مالك بن انس حيث قال « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل الى محمد ﷺ لجدل هؤلاء »[3] ثم قال « ان العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص وان كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك التفصيل وانما يعلمه مجملاً . . على ان الوجوه الاساطين من هؤلاء الفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له الى اليقين في عامة المطالب الالهية ، واذا كان هكذا فالواجب تلقي علم ذلك من النبوات على ما هو عليه . . ومعلوم

---

(١) مجموع الفتاوى : ابن تيمية : جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ٣ ص ٣٣٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٨٨ ب .

(٣) المرجع السابق : جـ ٥ ص ٢٨ - ٢٩ .

للمؤمنين ان رسول الله ﷺ أعلم من غيره بذلك وانصح من غيره للأمة وافصح من غيره عبارة وبياناً بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للأمة وأفصحهم فقد اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والارادة . . فعلم قطعا أن ما بينه من أمر الايمان بالله واليوم الآخر حصل به مراده من البيان ، وما اراده من البيان فهو مطابق لعلمه ، وعلمه بذلك اكمل العلوم فكل من ظن ان غير الرسول أعلم بهذا منه أو أكمل منه بياناً أو أحرص على هدى الخلق منه : فهو من الملحدين لا من المؤمنين »[1] .

أما ما زعمه الامام محمد عبده وتلاميذه من أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل وعلمه بما يوحي به اليهم[2] فنرد عليه بما قال البيهقي في كتاب الاعتقاد وما ذكره الخطابي ايضاً في « الغنية عن الكلام واهله » وقد سلك بعض من بحث في اثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها ، فلما ثبتت النبوة صارت أصلا في وجوب قبول ما دعا اليه النبي ، وعلى هذا الوجه كان ايمان اكثر المستجيبين للرسول وذكر قصة جعفر واصحابه مع النجاشي وقصة الأعرابي الذي قال من خلق السماء وغير ذلك »[3] .

ويستدل ابن تيمية على صحة هذه الطريقة بما جاء في القرآن في قصة فرعون فانه كان منكراً للرب قال تعالى ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[4] الى قوله سبحانه ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية : عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ٥ ص ٢٩ - ٣١ .

(٢) رسالة التوحيد : محمد عبده ص : ٧ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية : عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ١١ ص ٣٧٧ - ٣٧٨

(٤) سورة الشعراء الآية : ١٦ .

الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾(١) .

فهنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلهادليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين وفي ان لـه الها غير فرعون يتخذه ، وكذلك قال تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٢) .

هذا هو رأي ابن تيمية رحمه الله تعالى وانما اكثرت من النقل عنه لان أرباب المدرسة العقلية الحديثة ينظرون اليه نظرة احترام وتقدير ويطبعون كتبه ويستدلون ببعض اقواله زاعمين انها تذهب الى ما ذهبوا اليه وهو عندهم حكم عدل وهو عندنا كذلك لأن احكامه ترجع الى الكتاب والسنة قبل رجوعها الى العقل « فياليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة ! ؟»(٣) . وهو خلاف ما ذهبوا اليه . والله أعلم ،

رأي بعض المعاصـــرين :

مما لا شك فيه انه كان لمنهج تلك المدرسة صدى واسعاً بين الناس ، اعجب طائفة منهم فسلكته ونهجت نهجه وسارت في سبيله ، ووقفت طائفة أخرى موقف الرفض لمنهج تلك المدرسة وموقف المشكك باهدافها واهداف مؤسسيها .

لن نستدل هنا بشيء من كلام هؤلاء ولا كلام اولئك وان كان في كلام كل حق وباطل ، ولكن نستدل بكلام طائفة من الناس ان رأت خيراً حمدته

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٩ ـ ٣٣ .

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية : عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ١١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

(٣) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٩ .

وان رأت غير ذلك وضحته ونشرته ، وان كان بعضهم ممن يميل الى المدرسة ويؤ يدها في كثير من الامور فهذا أمر يزيد نقده لهذا المنهج قوة وسلامة وصحة وقرباً الى الحق والصواب .

نذكر من هؤلاء الاستاذ انور الجندي حيث يقول: «واذا كان جمال الدين الافغاني هو أول من فتح باب المنطق والفلسفة في الفكر العربي الحديث بحسبانه طريقاً الى الدفاع عن الاسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة على نفس المنهج الذي اتخذه المعتزلة ، فان محمد عبده هو الذي عمق هذا الاتجاه حتى اطلق عليهما اسم « معتزلة العصر الحديث »[1]

وتساءل الدكتـور مصطفى حلمي قائلاً « اليس الاعوجاج في التفكير الذي يشكو منه ابن تيمية هو نفسه الذي يتخذه ارباب النظر العقلي المعاصرون الذين يحاولون اخضاع الشريعة لمتطلبات العصر المتجددة في زعمهـم ؟ »[2] ، ثم استشهد بقول الشهيد سيد قطب : ـ « وقد تأثر تفسير الاستاذ الامام محمد عبده لجزء عم بهذه النظرة تأثيراً واضحاً . وتفسير تلميذه المرحوم الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الاستاذ الشيخ المغربي لجزء تبارك حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ، وهو مبدأ خطر . فاطلاق كلمة العقل يرد الأمر الى شيء غير واقعي ! فهناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل علان . . وليس هنالك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني الى مقرراته واذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة فاننا ننتهي الى فوضى ! »[3] .

ولكن الشهيد سيد قطب يصور تلك القضية صورة واضحة في موضع آخر ويحدد معالم هذه الفكرة واسبابها حيث يقول « أما البحوث التي كتبت للرد على انحراف معين فانشأت هي بدورها انحرافاً آخر فأقرب ما نتمثل به

---

(١) اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار : انور الجندي ص ١٣١ ـ ١٣٢ .
(٢) قواعد المنهج السلفي : مصطفى حلمي ص ٣٦ .
(٣) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته : سيد قطب ص : ٢٠ .

في هذا الخصوص توجيهات الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ومحاضرات اقبال في موضوع « تجديد الفكر الديني في الاسلام »

لقد واجه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده بيئة فكرية جامدة اغلقت باب الاجتهاد وانكرت على العقل دوره في فهم شريعة الله واستنباط الاحكام منها واكتفت بالكتب التي الفها المتأخرون في عصور الجمود العقلي وهي - في الوقت ذاته - تعتمد على الخرافات والتصورات الدينية العامية ! كما واجه فترة كان العقل فيها يعبد في اوروبا ويتخذه اهلها الها ، وخاصة بعد الفتوحات العلمية التي حصل فيها العلم على انتصارات عظيمة ، وبعد فترة كذلك من سيادة الفلسفة العقلية التي تؤله العقل ! وذلك مع هجوم من المستشرقين على التصور الاسلامي وعقيدة القضاء والقدر فيه ، وتعطيل العقل البشري والجهد البشري عن الايجابية في الحياة بسبب هذه العقيدة . . الخ فلما اراد ان يواجه هذه البيئة الخاصة باثبات قيمة « العقل » تجاه « النص » واحياء فكرة الاجتهاد « ومحاربة الخرافة والجهل والعامية في « الفكر الاسلامي » . . ثم اثبات ان الاسلام جعل للعقل قيمته وعمله في الدين والحياة وليس كما يزعم بعض الافرنج انه قضى على المسلمين « بالجبر » المطلق وفقدان « الاختيار » . . لما أراد ان يواجه الجمود العقلي في الشرق والفتنة بالعقل في الغرب جعل « العقل » البشري ندا للوحي في هداية الانسان ولم يقف به عند - ان يكون - جهازاً من اجهزة في الكائن البشري يتلقى الوحي ومنع ان يقع خلاف ما بين مفهوم العقل وما يجيء به الوحي ولم يقف بالعقل عند ان يدرك ما يدركه ويسلم بما هو فوق ادراكه »[١] .

هذا التحكيم للعقل عند الامام محمد عبده وتلاميذه هو الذي حمل الاستاذ عباس محمود العقاد على ان يقول عنه « فهو مع الفلاسفة والمعتزلة في تحكيم العقل والقياس على المنطق والعلوم الكونية »[٢] .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته : سيد قطب ص ١٨ - ١٩ .

(٢) محمد عبده : عباس محمود العقاد ص ٢٣٩ .

ويذكر لنا الاستاذ عبد الله شحاته الذين تأثر بهم الاستاذ الامام فيقول : ـ « وقد كان الامام الاستاذ متأثراً في حديثه عن المعجزات والنبوات بالمؤلفين الفرنسيين فهو يحاول ان يقرب الى الاذهان المعجزات الالهية ويعلل وقوعها بما يوافق العلم والعقل ويقربها من خضوع الاسباب للمسببات »(١) ويرى ايضاً « ان الاستاذ الإمام كان متأثراً في نفيه السحر عن الرسول ﷺ بعدة أمور :

١ ـ محاولة اظهار الاسلام أمام المستشرقين والمتمدينين بمظهر الدين العلمي المنهجي الذي لا يعترف بالسحر ولا بالخرافة .

٢ ـ وجد الامام في آراء المعتزلة تراثاً عقلياً وذخيرة فكرية فهم يرفضون الايمان بالسحر والكهانة والشفاعة وكرامات الاولياء ويؤلون النصوص الدينية التي تثبتها وقد سار الامام على طريقتهم .

٣ ـ لما كان هدف الامام من انكار السحر محاربة الخرافة واظهار الاسلام بأنه دين العقل واعترض طريقة حديث صحيح قال انه حديث آحاد « والحديث الذي يصل الينا عن طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت الادلة عنده على انه غير صحيح فلا تقوم به حجة وعلى فرض صحته يؤول أو يفوض الأمر فيه »(٢) .

ولن يسعنا هنا الا ان نختم آراء المعاصرين برأي الاستاذ سليمان دنيا حيث يقول « ان الشيخ محمد عبده لو كان باحثاً حراً طليقاً من كل قيد كما هو شأن كثير من الباحثين لهان الأمر ولكنه باحث يجد نفسه مضطراً الى ان يرضي العقل والنص معا كما هو شأن المفكرين الاسلاميين .

ان امثال الشيخ محمد عبده ممن وجدوا انفسهم مضطرين لأن يرضوا العقل والنص معاً ، لان العقل واجب الاحترام ، ولأن النصوص قد ثبتت

---

(١) منهج الامام محمد عبده : عبد الله محمود شحاته ص ٩٨ .

(٢) منهج الامام محمد عبده : عبد الله شحاته ص ١٢٦ .

عندهم بطريق مأمون من الخطأ . والذين وقفوا موقف الشيخ محمد عبده هذا انقسموا الى فرقتين فرقة تبعت العقل وانتهت معه الى حيث انتهى ، ثم بعد ذلك نظرت الى النص ، فان وجدته متمشياً مع ما انتهى اليه العقل حمدت الظروف واطمأنت الى نتيجة عملها ، وان وجدته غير ذلك لم تجد صعوبة في أن تحمل النصوص حملاً على ان تنزل عند ارادة ما ساق اليه العقل ، رضيت النصوص ذلك ، أم أبت .

وفرقة اتخذت من النص بداية عملها ففهمتها في محيطها النصي ، واطمأنت الى صواب ما فهمت ثم بعد ذلك ، اذا وجدت من يقول : (هذا يخالف العقل) التمست مبررات من العقل لتأييد ما فهمته من النص » .

ثم قال « والحق الذي تنشرح له نفس المنصف ان العقل والنص كلاهما من الله وكلاهما يهدف لهداية البشر ، ولو كان في العقل وحده غناء للنوع البشري يهديه الى غايته من الوجود لم يكن هناك حاجة الى النصوص ، ولو أمكن ان تفهم النصوص الالهية بدون عقل لكان في انزال النصوص غناء عن خلق العقل في الانسان .

انهما متكاملان لاغنا لاحدهما عن الآخر كالماء والطعام للانسان . . فأين من هذه المشكلة كان موقف الشيخ محمد عبده ؟

ان الذي لا شك فيه عندي ان الشيخ محمد عبده قد تحيّف في حق النصوص وبالغ في تقدير قيمة العقل ، والكتاب كله شواهد على هذا الذي اذهب اليه »[1] .

وانتقد الاستاذ سليمان دنيا طريقة الاستاذ الامام محمد عبده في قوله : « والحق الذي يرشد اليه الشرع والعقل ان يذهب الناظر المتدين الى اقامة البراهين الصحيحة على اثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه الى اثبات

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : تحقيق سليمان دنيا ص ٢٥ ـ ٢٦ المقدمة .

النبوات ، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الالفاظ الا فيما يتعلق بالاعمال على قدر الطاقة ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة كان ما أدت اليه ما كان ، لكن بغاية التحري والاجتهاد ثم اذا فاء من فكره الى ما جاء من عند ربه فوجده بظاهره ملائماً لما حققه فليحمد الله على ذلك والا فليطرق عن التأويل ويقول : آمنا به كل من عند ربنا فانه لا يعلم مراد الله ونبيه الا الله ونبيه »[١] .

انتقد الاستاذ سليمان دنيا هذا المنهج الذي وضعه محمد عبده فقال : ـ « . . فطريق النجاة اذن ليس في ان يقتفي المرء آثار ما كان عليه الرسول واصحابه في امور الاعتقاد ، فان ذلك غير ممكن من وجهة نظر الشيخ محمد عبده ، وانما طريق النجاة في أن يأخذ المرء طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة كان ما ادت اليه ما كان » ذلكم هو كل ما في الأمر ، أما النصوص الالهية وما تنطوي عليه من آراء فأمرها دائر بين ان تكون موافقة لما تأدت اليه هذه البراهين أو أن تكون مخالفة له والأمر في كلتا الحالين سهل يسير في نظر الشيخ محمد عبده فانها ان كانت موافقة فقد كفى الله المؤمنين القتال ، وان كانت مخالفة فلا قتال ايضاً لانه يكفي ان يقول المرء آمنت بما جاءت به الى جانب الايمان بما تأدت اليه البراهين .

هذا هو السبيل في نظر الشيخ محمد عبده وهو سبيل غير سبيل الكلاميين اعني انه سبيل الفلاسفة .

ولا يخدعنا قول الشيخ عبده (فليطرق عن التأويل ويقول آمنا به كل من عند ربنا) فأن ذلك ايمان بألفاظ جوفاء لا معنى لها ما دام قد آمن من طريق آراء بآراء تعارض هذه الالفاظ معارضة تامة »[٢] .

ثم ختم الاستاذ سليمان دنيا مناقشته الطويلة لآراء محمد عبده بقوله : ـ

---

(١) المرجع اللسابق : ص ٢٥ .

(٢) محمد عبده بين الفلاسفة والكلامين : تحقيق سليمان دنيا ص ٥٩ ـ ٦٠ المقدمة .

« ثم ان لمنهج الشيخ محمد عبده جانباً آخر له خطورته ايضاً ذلك انه طريق تفريق للأمة لا طريق تجميع » .

ذلك انه اذا اعتمد كل انسان على نفسه وعقله فقط فقلما ينتهي واحد الى مثل ما ينتهي اليه الآخر وهؤلاء هم الفلاسفة ، لان كل واحد منهم يعول على نفسه وعقله فقط نجدهم في الغالب متفرقين قلما يلتقون على شيء واحد من كل الوجوه .

وقد كان هدف المشرع ﷺ من قوله «من هم على ما انا عليه واصحابي» ان يجمع شمل الأمة في مستقبلها كما اجتمعت في ماضيها فيكون لها كيان ديني موحد يكون شعارها وعنوانها ومبعث فخرها ومناط قوتها ، لا ان يكون كل واحد منها ، فرقة برأسه يخالف الآخرين ويخالفه الآخرون[1] .

ويقول الاستاذان علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق في نقد منهج المدرسة العقلية بعد ردهما على ممالأة محمد عبده للكافرين واستشهادهما بآيات قرآنية « أم أن له فيه تأويلاً كتأويله في الملائكة او في سجودهم أو في معصية آدم أو في خلق عيسى عليه السلام أو في الجن أو في السحر . . أو غير ذلك مما اعمل فيه عقله (الكبير) . . . ليقول « بالرأي في كتاب الله ؟!! « لقد مضى الرجل الى ربه فنترك له حساب سره وعلانيته لكننا ازاء الظاهر »[2] .

هذا رأي بعض المعاصرين الذين ذهبوا في النقد حدّ الاعتدال ، ومنه ترى الى أي مدى وصل الاستاذ وتلاميذه في تطبيق هذا المنهج مما اخرجهم عن جادة الحق والصواب ومما نقلهم من منهج السنة الى منهج المعتزلة .

ولنا رأي :

احب قبل ختام عرضنا لهذا المنهج ان اذكر ما اراه في الموضوع ،

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) اساليب الغزو الفكري : علي جريشة ومحمد الزيبق ص ٢٠٤ .

واحب ايضاً قبل ذكر هذا ان اصحح خطأ وقع فيه رجال هذه المدرسة ويقع فيه كثير من علمائنا المعاصرين فأقول : ـ

ليس الاسلام ـ وحده ـ دين العقل : ـ

يصر رجال هذه المدرسة وكثير من كتابنا وعلمائنا المعاصرين على ان الاسلام وحده هو دين العقل وان الاديان الاخرى قائمة على ان الدين والعقل ضد ان لا يجتمعان والعلم والدين خصمان لا يتفقان وان جميع ما يستنتجه العقل خارجاً عن نصّ الكتاب فهو باطل(١) وان اليهودية شريعة مبنية على الشدة في تربية قوم ألفوا العبودية والذل ، والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة اخرى فهي تأمر اهلها بأن يسلموا امورهم الجدية الاجتماعية للمتغلبين من اهل التسلط والحكم واما الاسلامية فهي القائمة على اساس العقل والاستقلال(٢) .

وهذا أمر لا نرى الصواب حليفه فلم يأت دين من الاديان السماوية المذكورة في القرآن الا وكان العقل حليفها ، وكان معها على وفاق وكانت تدعو الى استعمال العقل والتدبر في مخلوقات الله الى نفس المدى الذي دعا اليه الاسلام ديننا ، ذلكم ان الانبياء كلهم يدعون الى الاسلام قال تعالى عن ابراهيم عليه السلام « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٣) .

وقال سبحانه ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ﴾(٤) . وقال ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيتنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ ﴾(٥) وهذا يوسف عليه السلام يخاطب ربه

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .
(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص ٤١٩ .
(٣) سورة البقرة الآية : ١٣١ .
(٤) سورة آل عمران الآية : ٦٧ .
(٥) سورة البقرة الآية : ١٢٨ .

﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(١) بل بنو يعقوب جميعاً يجيبون والدهم يعقوب عليه السلام حين سأل ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٢) وهذا نوح عليه السلام يقول ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٣) وهذا سليمان عليه السلام يدعو ملكة سبأ ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(٤) وتقول هي ﴿ وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٥) وغير ذلك من الآيات .

كل هذا يدل على ان الانبياء السابقين عليهم السلام ومن اتبعهم كانوا مسلمين ، ولا يليق ان يوصف اسلام هؤلاء بأنه بلا عقل كيف وقد دلّ القرآن الكريم على ان دعوتهم قائمة على الدعوة الى التفكر في مخلوقات الله والتدبرليتوصلوا بذلك الى الدين الحق ، فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه قائلا : ـ ﴿ أَلَمْ تَروْا كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً والله أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُم إِخْرَاجاً وَالله جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾(٦) وهذا موسى عليه السلام يجيب على سؤال فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ ﴾(٧) ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾(٧) ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٧)

(١) سورة يوسف من الآية : ١٠١ .
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٣٣ .
(٣) سورة يونس من الآية : ٧٢ .
(٤) سورة النمل من الآية : ٣١ .
(٥) سورة النمل من الآية : ٤٤ .
(٦) سورة نوح الأيات : ١٥ ـ ٢٠ .
(٧) سورة الشعراء الآيات : ٢٤ ـ ٢٨ .

فلما لم تنفع معه هذه الأدلة جاءه بالمعجزة والقى عصاه ونزع يده ، وهذا ابراهيم عليه السلام يقول لقومه بعد تحطيمه للاصنام ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

اليس في هذه الآيات دليل على ان دعوة الانبياء السابقين عليهم السلام دعوة قائمة على النظر والتفكر والتدبر لمخلوقات الله . وان ايمانهم ليس مجرد تسليم اعمى كما يزعم الزاعمون، اليس ما قام عليه دينهم هو ما يزعم هؤلاء انه من خصائص الاسلام وحده وان جميع الاديان قبله قائمة ضده !!

لم لا نقولها ـ حقيقة ـ وليس في هذا ما يضير ديننا الاسلامي الذي جاء به محمد ﷺ ان الاديان السماوية كلها قائمة على العقل وليس فيها ما يناقض العقل .

أما ان نحتج بقيامها على غير العقل بنصوص ليست من كلام انبيائه بل من التحريف الذي طغى عليها بعد ذلك فهذا ليس الحق الذي يدعونا اليه ديننا .

ولن يعني هذا التسوية بين الاديان في وجوب اتباعها بعد ان كانت كلها في منزلة واحدة من العقل ذلكم ان هذا الدين الذي بيّن ان الاديان السابقة قائمة على ما قام عليه من النظر والتفكر والتدبر في مخلوقات الله هو الذي اوجب اتباعه وقصر الدين الحق بعده على اتباعه فقال ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾[2] . وقال ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[3] وعلم

---

(١) سورة الانبياء الآيات ٦٣ - ٦٧ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

من نصوص اخرى كثيرة ان المراد به دين محمد ﷺ .

هذه حقيقة احببت بيانها قبل ان اشير الى ما نراه في بيان منزلة العقل في الاسلام وهو أمر سبق بيانه في التمهيد حيث بينت هناك مكانة العقل في الاسلام ومجاله الذي حدّده له الاسلام بحيث لا يضل ولا يشقى . ولا ارى الامر يدعو الى اعادة البيان ، وخلاصة الكلام ان الاسلام كرم العقل وامر بتكريمه واسند اليه ما يستطيعه من الاستدلال وبين له تلك العلامات التي يهتدي بها في بهيم الظلمات ونهاه عن الخوض فيما ليس في استطاعته دركه ولا معرفته لينجو من التخبط والتعثر والضياع الذي اوقعه فيه ووقع معه من سلك به تلك السبل ، والله الهادي الى سواء السبيل .

الأساس الثامن

التحذير من التفسير بالإسرائيليات

قلنا ان الصحابة رضي الله عنهم فهموا القرآن ـ لكونهم عرباً خلصاً ـ بمقتضى سليقتهم العربية فهما يتبادر الى اذهانهم خالصاً من شوائب العجمة والبدعة في الدين ، أو صرف الفاظه الى معان زائفة بمقتضى الالتزام بعقائد باطلة فان ابهم عليهم أمر أو استصعب عليهم فهمه رجعوا اليه ﷺ فوجدوا البيان الشافي الكافي .

وكان بعضهم رضي الله عنهم بعد هذا يرجع لبيان ما ابهمه القرآن أو لتفصيل ما اجمله مما يتعلق بأخبار الامم الماضية الى اهل الكتاب .

كان هذا في آيات قليلة لكن الأمر نما واتسع حتى عم وشمل في فترة من مراحل التفسير الكثير من آيات القرآن الكريم كان ذلكم النوع من التفسير هو التفسير بالاسرائيليات .

المراد بالاسرائيليات .

يجب ان نوضح انه يراد بالاسرائيليات ما هو اعمّ من لفظها اذ هو لا يدل على اكثرمن الروايات المنسوبة الى بني اسرائيل وهم اليهود ، وما يراد اضافة الى هذه الروايات المنسوبة الى النصارى ايضاً فهي تطلق على ما يروى عن اهل الكتاب عامة .

وانما اطلق على ذلك كله لفظ الاسرائيليات لمجاورة اليهود للمسلمين في المدينة وكونهم أول من نشرها بين المسلمين . فنسبت اليهم وشملت بعد

هذا ما مصدره النصارى من باب التغليب .

اقسامها :

تنقسم الاسرائيليات من حيث موافقتها لشريعتنا الاسلامية أو مخالفتها الى اقسام ثلاثة :

أولها : ما يوافق ما صح من شريعتنا ومن ذلك حديث طويل رواه مسلم عن فاطمة بنت قيس ذكرت فيه ان رسول الله ﷺ جمع الناس وقال لهم « اني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلا نصرانياً فجاء فبايع واسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت احدثكم عن مسيح الدجال حدثني انه ركب في سفينة بحرية . . الحديث[1] .

ومن ذلك تعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر فقد صرح رسول الله ﷺ بهذا فيما رواه البخاري[2] .

ثانيها : ما يخالف شريعتنا ومن ذلك مثلاً ما ورد ان سليمان عليه السلام دخل الحمام فوضع خاتمه عند امرأة من اوثق نسائه في نفسه فأتاها الشيطان فتمثل لها على صورة سليمان عليه السلام فأخذ الخاتم منها[3] . . . الخ وفيه غير هذان الشيطان كان يأتي نساء سليمان عليه السلام وهن حيض . . الخ هذا من الروايات التي يقشعر لها بدن المؤمن .

ثالثها : ما ليس في شريعتنا ما يوافقه وما لا يخالفه من نحو ذكر اسماء اصحاب الكهف ولون كلبهم وعصا موسى من أي الشجر كانت واسماء الطيور التي احياها الله لابراهيم عليه السلام وتعيين بعض البقرة الذي ضرب به قتيل بني اسرائيل وغير هذا .

تلكم هي الاسرائيليات وتلكم هي اقسامها فما موقف سلفنا الصالح

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن باب قصة الجساسة .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ما جاء في سورة الكهف .

(٣) انظر الدر المنثور في التفسرير بالمأثور : للامام السيوطي جـ ١ ص ٣١٢ .

منها وما موقف مدرسة الامام .

موقف السلف من الاسرائيليات :

يرى ابن تيمية رحمه الله تعالى ان الاحاديث الاسرائيلية تنقسم الى أقسام ثلاثة : -

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .
والثاني : ما علمنا كذبة بما عندنا مما يخالفه .
والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته .

لما تقدم - يقصد حديث وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج - وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود الى أمر ديني[1] .

ثم يضرب لذلك مثلاً « كما يذكرون في مثل هذا اسماء اصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ . . . » الخ[1] .

فابن تيمية يرى صحة ما وافق شريعتنا وكذب ما خالفها ، وما عدا ذلك فلا حرج في حكايته من غير تصديق ولا تكذيب .

وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى « من المعلوم ان النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى حدثوا عن بني اسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم وهو نظير قوله « اذا حدثكم اهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[2] وهذا القول يزيد الأمر وضوحا بمنع التحديث بما يخالف شريعتنا من الاسرائيليات .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية : جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ١٣ ص ٣٦٦ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : لابن حجر العسقلاني كتاب احاديث الانبياء جـ ٦ ص ٤٩٩ .

وخصص ابن حجر رحمه الله تعالى النهي الوارد في حديث « لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم » أي اذا كان ما يخبرونكم به محتملا لئلا يكون في نفس الأمر صدقا فتكذبوه أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج ، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافة ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله . . وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك »[1] .

أما ابن كثير رحمه الله تعالى فيقول « فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بـن العاص رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج وحدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فهو محمول على الاسرائيليات المسكوت عنها عندنا فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها فيجوز روايتها للاعتبار . . فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا اليه استغناء بما عندنا وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته الا على سبيل الانكار والابطال »[2] ولكنه يقول في موضع آخر «وما قصة كثير من المفسرين وغيرهم فعامتها أحاديث بني اسرائيل فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح وما خالف شيئاً من ذلك رددناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفاً ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته وكثير من ذلك مما لا فائدة فيـه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة »[3] .

وقال ايضاً ما قاله شيخه ابن تيمية عن هذه الاحاديث انها تذكر

---

(١) المرجع السابق : كتاب التفسير جـ ٨ ص ١٧٠ .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير جـ ١ ص ٦ - ٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٣ ص ١٩٢ .

للاستشهاد لا للاعتقاد[1] .

وخلاصة موقف السلف من الاسرائيليات .

أ) ان ما وافق شريعتنا تجوز روايته للاستشهاد لا للاعتقاد .

ب) ان ما خالف شريعتنا لا تصح روايته .

ج) ان ما ليس في شريعتنا ما يوافقه ولا ما يخالفه فلا بأس بحكايته من غير تصديق ولا تكذيب .

موقف المدرسة العقلية الحديثة من الاسرائيليات :

شنّ رجال هذه المدرسة حملة شعواء على الاسرائيليات وحذروا من الخوض فيها ومن تناولها عند تفسير القرآن الكريم ، ونعوا على المفسرين السابقين تناولهم لها وعدّوا هذا عليهم خطأً لا يغتفر ، ونسبوا اليه أموراً كثيرة زعموا انها ترتبت على رواية هذه الاسرائيليات .

وكعادة رجال المدرسة ـ هذه ـ في مجاوزة حدّ الاعتدال المحمود الى التطرف والاسراف فانهم تطرفوا في التحذير من هذه الاسرائيليات ، وأدّى بهم هذا التطرف الى تكذيب بعضها مع موافقتها لما صحّ من شريعتنا ، بل وزادوا على هذا بأن ردوا بعض الاحاديث التي توافقها وان صحت وان رواها البخاري ومسلم .

ولم يقتصر الأمر على هذا بل تناولوا بعض الصحابة بالتجريح وشككوا في ايمان بعض التابعين الذين شهد لهم السلف الصالح بالعدالة وروى لهم البخاري ومسلم ، ونسبوا من وثقهم من علماء الحديث الى الغفلة .

ولكن بعد هذا التشدد وهذا الرفض الحاسم والرد القاطع هل التزم

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ ص ٣ وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٦٦ وينبغي أن اشير هنا الى ان ابن كثير نقل عبارة ابن تيمية وقد ورد في جميع طبعات تفسير ابن كثير هكذا « انها تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد » ووردت العبارة في مجموع الفتاوى وجميع طبعات مقدمة في اصول التفسير بلفظ « انها تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد » فليلاحظ .

رجال هذه المدرسة ذلكم النهج الذي وضعوه ؟ الحق انهم وقعوا فيما هو أشد منه فيما نرى، والا ففي مثله لا محالة . !!

لن نسترسل في بيان منهجهم فالأسلوب الذي سلكته في بيان منهجهم أن ادع الحديث لنصوصهم لترسم بنفسها للقارىء خطّ سيرها ومنهجها فيه ، وأن لا اتحدث الا فيما أراه واجباً للربط بين موضوع وآخر أو مقارنة بين منهج ومنهج .

لنبدأ أولاً ـ بالنصوص التي تبين لنا حكم هذه الاخبار الاسرائيلية . حيث يقول الامام محمد عبده : ـ عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ الآية[1] بعد أن ذكر بعض أقوال المفسرين « ومنشأ هذه الأقوال الروايات الاسرائيلية ولليهود في هذا المقام كلام كثير وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى »[2] وقال عن التفاسير « كما ولعوا بحشوها بالقصص والاسرائيليات التي تلقفوها من افواه اليهود والصقوها بالقرآن لتكون بياناً له وتفسيراً وجعلوا ذلك ملحقاً بالوحي والحق الذي لا مرية فيه انه لا يجوز الحاق شيء بالوحي غير ما تدلّ عليه الفاظه واساليبه الا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب »[3] وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾[4] « فنأخذ القرآن على ما هو عليه لا ندخل فيه شيئاً من الروايات الاسرائيلية التي ذكروها وهي صارفة عن العبرة لا مزيد كمال فيها »[5] .

وقال الاستاذ ـ احمد مصطفى المراغي في مقدمة تفسيره « اشار

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٥٨ .

(٢) تفسر المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٢٥ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٧٥ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٤٣ .

(٥) تفسر المنار : جـ ٢ ص ٤٥٧ .

الكتاب الكريم الى كثير من تاريخ الامم الغابرة التي حلّ بها العذاب على ما اجترحت من الآثام ، والى بدء الخلق وتكوين الارض والسموات ، ولم يكن لدى العرب من المعرفة ما يستطيعون به شرح هذه المجملات التي اشار اليها الكتاب اذ كانوا أمة أمية في صحراء نائية عن مناهل العلم والمعرفة والانسان بطبعة حريص على استكناه المجهول واستيضاح ما عزت عليه معرفته فالجأتهم الحاجة الى الاستفسار من اهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا سيما مسلمتهم كعبد الله بن سلام وكعب الاحبار ووهب بن منبه فقصوا عليهم من القصص ما ظنوه تفسيراً لما خفي عليهم فهمه من كتابهم ، ولكنهم كانوا في ذلك كحاطب ليل يجمع بين الشذرة والبعرة والذهب والشبه . . فساقوا الى المسلمين من الآراء في تفسير كتابهم ما ينبذه العقل وينافيه الدين وتكذبه المشاهدة ويبعده كل البعد ما اثبته العلم في العصور اللاحقة »[1] .

وقال الشيخ عبد العزيز جاويش عن الاسرائيليات « هذا وليحذر المسلمون قراءة ما جاء في تفاسير القرآن في هذا الموضوع من الاسرائيليات وما ابتدعه اصحابها من التأويلات وغريب الروايات فإنها مضلة للعقول مبعدة لها عما قصده كتاب الله الحكيم »[2] .

وقال ايضاً « لنرجع الى ما ذكره اولئك المفسرون في شرح ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[3] ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾[4] والى ما قالوه في الزلازل والثور الحامل للأرض ووصف يأجوج ومأجوج . . هذا بعض ما اتى به اولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى فاضحكوا منهم الصبية والبله فضلا عن العقلاء من الناس كما انهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم »[5] .

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ١٩ .
(٢) اسرار القرآن : عبد العزيز جاويش ص : ١٣٨ .
(٣) سورة الفجر الآية (٧) .
(٤) سورة الفجر الآيتين ٩ و ١٠ .
(٥) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ٥٦ .

وقال الشيخ محمود شلتوت ـ « فانه لما حدثت بدعة الفرق والتطاحن المذهبي والتشاحن الطائفي . . وظهرت في اثناء ذلك ظاهرة خطيرة هي تفسير القرآن بالروايات الغريبة والاسرائيليات الموضوعة التي تلقفها الرواة من اهل الكتاب وجعلوها بيانا لمجمل القرآن وتفصيلاً لآياته »[1] ثم قال « قيد هذا التراث العقول والافكار بقيود جنت على الفكر الاسلامي فيما يختص بفهم القرآن والانتفاع بهداية القرآن . . . »[1] .

أما أشدّ هؤلاء حرباً للاسرائيليات ورفضاً فهو الاستاذ محمد رشيد رضا اذ يقول « كان من سوء حظ المسلمين ان اكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئة عن هذه المقاصد العالية والهداية السامية فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو . . وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات . . واكثر التفسير المأثور قد سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة اهل الكتاب »[2] ثم استشهد بنصوص لابن تيمية رحمه الله تعالى بعد نقلها من غير مصدرها ملخصة تلخيصاً مخلاً[3] وفهم من تلك النصوص فهما خاصاً « فأنت ترى ان هذا الامام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع[4] ما عرف انه من رواة الاسرائيليات وهذا في غير ما يقوم الدليل على بطلانه في نفسه . . وانت ترى ايضاً انه لم يجزم بما روى عن الصحابة رضي الله عنهم من ذلك وانما قال أنّ النفس اليه اسكن مما ينقل عن

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٩ و ١٠ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٧ ـ ٨ .

(٣) انظر تفسير المنار جـ ١ ص ٨ و ٩ ثم انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٣ ص ٣٤٤ ـ ٣٥٦ ومن الاخلال حذف الاستثناء « الا بحجة » من قوله « وما لا بأن نقل عن اهل الكتاب ككعب ووهب وقف عن تصديقه وتكذيبه الا بحجة » .

(٤) هذا غير صحيح ! فابن تيمية رحمه الله لم يجزم بالوقف عن تصديق « جميع » . . وقد مرّ بنا قبل قليل رأيه رحمه الله تعالى وخلاصته قبول ما وافق شريعتنا وتكذيب ما خالفها والتوقف فيما لا يوافقها ولا يخالفها . فهل هذا جزم بالوقف عن تصديقه جميعاً ؟!.

التابعين لأن احتمال سماعه من النبي ﷺ اقوى من احتمال سماعه من بعض اهل الكتاب لقلة رواية الصحابة عنهم وهذا ينقض[1] قول من اطلق الحكم بأن ما قاله الصحابي الثقة مما لا يعرف بالاستدلال بل بالنقل له حكم الحديث المرفوع »[2] .

وقال السيد رشيد رضا ـ ايضاً ـ « رووا في قصة ﴿ الّذين خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾[3] روايات من الاسرائيليات التي ولع بها المفسرون وكلفوا بتطبيق كتاب الله تعالى عليها اشهرها ابعدها عن السياق وهي رواية السدى . . . »[4] .

ونذكر لهذا الرجل نصا لو اكتفى به لشكرنا له ذلك وكان به موافقاً لرأي السلف حيث يقول « والمراد من النهي عن سؤالهم ـ أي اهل الكتاب ـ النهي عن سؤال الاهتداء وتلقي ما يروونه بالقبول لأجل العلم بالشرائع الماضية وأخبار الانبياء لزيادة العلم أو لتفصيل بعض ما اجمله القرآن وسببه ما هو ظاهر من السياق وهو انهم لنسيانهم بعض ما انزل اليهم وتحريفهم لبعضه بطلت الثقة برواياتهم ، فالمصدق لها عرضة لتصديق الباطل والمكذب لها عرضة لتكذيب الحق اذ لا يتيسر لنا ان نميز فيما عندهم بين المحفوظ السالم من التحريف وغيره فالاحتياط ان لا نصدقهم ولا نكذبهم الا اذا رووا شيئاً يصدقه القرآن أو يكذبه فانا نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه ، لانه مهيمن على تلك

---

(١) نص عبارة ابن تيمية مجموع الفتاوى جـ ١٣ ص ٣٤٦ « ومع جزم الصاحب ـ أي الصحابي ـ فيما يقوله فكيف يقال انه أخذه عن اهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم » فهل هذا مناقض للقول بأن لما قال الصحابي حكم الحديث المرفوع أو أقرب الى تأييده !!

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٩ ـ ١٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٤٣ .

(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

الكتب وشهيد عليها وشهادته حق لانه نزل بالحق وحفظه الله من التحريف والتبديل »[1] .

ذلكم المنهج الذي ذكره السيد رشيد هو المنهج السليم الذي سلكه السلف كما ذكرنا ولكن صاحبنا سامحه الله لم يلتزم هذا المنهج بل جاوزه وتطرف في التجاوز حتى ردّ بعض الاحاديث الصحيحة زاعماً انها من الاسرائيليات فمن ذلك حديث الجساسة الذي رواه مسلم في صحيحه[2] حيث قال السيد رشيد « وجملة القول في حديث الجساسة ان ما فيه من العلل والاختلاف والاشكال من عدة وجوه يدل على انه مصنوع وانه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع »[3] وتجاوز هذا الى « وكذا يقال في سائر احاديث الدجال المشكلة »[3] مع ورود بعض احاديث الدجال في الصحيحين[4] وغيرهما من كتب السنة المعتمدة .

أما حديث البخاري الذي رواه عن ابي هريرة رضي الله عنه في كتاب التفسير « قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطه فدخلوا يزحفون على استاهم فبدلوا وقالوا حطه حبه في شعره »[5] واختاره السيوطي في التفسير فقال عنه السيد رشيد«ما اختاره الجلال مروي في الصحيح ولكنه لا يخلو من علة اسرائيلية »[6] . وذّم بعض رواتها الثقات ككعب الاحبار ووهب ابن منبه حيث قال عن وهب عند روايته ان موسى عليه السلام كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر منه عيون . . « وهذا من الخرافات التي اختلقها وهب

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٦ ص ٤١٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الفتن باب قصة الجساسة جـ ١٨ ص ٧٨ ـ ٨٥

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٥٧ .

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب الفتن باب ذكر الدجال جـ ٩ ص ٧٤ ـ ٧٦ وأنظر صحيح مسلم بشرح النووي كتا الفتن باب ذكر الدجال جـ ١٨ ص ٥٨ ـ ٧٧ .

(٥) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة البقرة جـ ٦ ص ٢٣ .

(٦) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٢٥ .

ليس لها اصل عند اليهود ولا عند المسلمين ولولا جنون الرواة بكل ما يقال عن بني اسرائيل لما قبلوا من مثله ان يشرب مئات الالوف أو الملايين من حجر صغير . . وقد عدوه مع امثال هذه الخرافات ثقة في الرواية ! »[١] .

وقال عن كعب الاحبار « . . بمثل هذه الخرافات كان كعب الاحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسنتهم ، وخدع به الناس لاظهاره التقوى ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم »[٢] وقال في موضع آخر « ولكن البلية في الرواية عن مثل كعب الاحبار وممن روى عنه ابو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه ومنهم المدلسون كقتادة وكذا غيره من كبار المفسرين كابن جريج »[٣] .

وقال « وقد هدأنا الله من قبل الى حلّ بعض مشكلات احاديث ابي هريرة المعنعنة على الرواية عن كعب الاحبار الذي ادخل على المسلمين شيئاً كثيراً من الاسرائيليات الباطلة والمخترعة وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله لتعبده »[٤] .

ونسب اباطيل الروايات الاسرائيلية الى « مقاصد كعب الاحبار وامثاله منها كما نرى صدّ اليهود عن الاسلام بما يرويه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفاً لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤ رخين في وقائع عملية وامور حسية »[٥] وقال عن كعب أخيراً « كعب الاحبار الذي أجزم بكذبه بل لا اثق بايمانه »[٦] !!

---

(١) المرجع السابق : جـ ٩ ص ٣٤٣ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٥٩ .
(٣) المرجع السابق : جـ ٩ ص ٤٦٦ .
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ٤٩٩ .
(٥) المرجع السابق : جـ ١١ ص ٤٧٤ .
(٦) مجلة المنار : محمد رشيد رضا جزء ٩ المجلد ٢٧ ص ٦٩٧ .

وقال عن الاثنين كعب ووهب « ان بطلي الاسرائيليات وينبوعي الخرافات كعب الاحبار ووهب بن منبه »[1] وقال « وان الراجح ان كل ما ورد فيها ـ أي عمر الدنيا ـ من مرفوع وموقوف ومن الآثار فهو من الاسرائيليات التي بثّها في الأمة كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما ، ولو فطن الحافظ ابن حجر لدسائسهما وخطأ من عدلهما من رجال الجرح والتعديل لخفاء تلبيسهم عليهم لكان تحقيقه لهذا البحث أتمّ واكمل »[2] .

وقال « ثم ليعلم ان شرّ رواة هذه الاسرائيليات أو اشدهم تلبيساً وخداعاً للمسلمين هذان الرجلان : كعب الاحبار ووهب بن منبه »[3] .

وقال في تفسير « وَكَتَبْنَا لَهُ في الأَلْوَاحِ »[4] « واما تلك الروايات الكثيرة في جوهرها ومقدارها . . كلها من الاسرائيليات الباطلة التي بثها في المسلمين امثال كعب الاحبار ووهب بن منبه فاغتر بها بعض الصحابة والتابعين ان صحت الرواية عنهم »[5] .

وقال الشيخ احمد مصطفى المراغي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾[6] « وقد ذكر رواه التفسير بالمأثور روايات غاية في الغرابة في وصف الثعبان ، ليس لها سند يوثق به وما هي الا اسرائيليات تلقفها المفسرون من اهل الكتاب الذين كانوا يكيدون للاسلام وللعرب كروايات وهب ابن منبه وهو فارسي الأصل . . ومثله روايات كعب الاحبار الاسرائيلي وقد كان كلاهما كثير الرواية للغرائب التي لا يعرف لها اصل معقول ولا منقول وقومهما كانوا يكيدون للمسلمين الذين فتحوا بلاد الفرس

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٣٨ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٩ ص ٤٤٢ .
(٣) مجلة المنار جـ ١٠ مجلد ٢٧ ص ٧٨٣ .
(٤) سورة الاعراف من الآية : ١٤٥ .
(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ١٨٤ .
(٦) سورة الاعراف : من الآية : ١٠٧ .

واجلوا اليهود من الحجاز »[1] .

هذا غيض من فيض من ذم هؤلاء لهذين ولن نذهب لتفنيد زعمهم بأكثر من ذكر آراء بعض السلف مع اعتراف ارباب المدرسة في النصوص التي سقناها ان الجمهور عدلوهما ووثقوهما واعترافهم ايضاً بأن ابا هريرة وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة قد رووا عن كعب فهل يرى هؤلاء ان الصحابة رضي الله عنهم تروي عن كذاب وضاع ؟! اليس هذا تزكية منهم رضي الله عنهم له ؟ ألا نقبل بعد هذا بتزكية صحابه رسول الله ﷺ ورضي عنهم .

ثم ان الامام مسلم رحمه الله تعالى خرج له في صحيحه في مواضع في أواخر كتاب الايمان وخرج له ايضاً ابو داود والترمذي والنسائي وهذا دليل على ان كعبا كان ثقة عند هؤلاء[2] .

بل ان الجمهور على توثيق كعب لذا لا تجد له ذكرا في كتب الضعفاء والمتروكين وقد اتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيقه[3] .

أما وهب بن منبه فقد روى له البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي قال الذهبي في الميزان كان ثقة صادقاً كثير النقل من كتب الاسرائيليات ، قال العجلي ثقة تابعي كان على قضاء صنعاء وقد ضعفه الفلاس وحده ووثقة جماعة[4] وقال ابو زرعة والنسائي ثقة وذكره ابن حبان في الثقات[5] والبخاري نفسه يعتمد عليه ويوثقه[6] .

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٩ ص ٢٤ .
(٢) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ١٨٩ .
(٣) مقالات الكوثري : محمد زاهدي الكوثري ص ٣٢ ـ ٣٣ .
(٤) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : لابي عبد الله محمد بن احمد الذهبي جـ ٤ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .
(٥) تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني جـ ١١ ص ١٦٧ .
(٦) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ١٩٧ .

وبعد : هذا بعض ما قاله علماء الحديث في توثيق هذين الرجلين فهل يحق لاحد ان يخالف هؤلاء العلماء الاعلام في نقد الرجال ! وان يشكك في سلامة اسلوبهم في ذاك أو ان يتهمهم بالغفلة والاغترار !! وهم أهل هذا الفن الذي لا يصلح له الا القليل من الناس[1].

ليس معنى قولي هذا ان كل ما رواه هذان العالمان الفاضلان حق لا كذب فيه بل ان فيه من الكذب ما يخالف شرعنا ولا يقره العقل ولكن لا يعني هذا ان ننسب الكذب اليهما فقد يكون الكذب من غيرهما أو انهما نقلاه على انه مما في كتبهم وهما يعتقدان صحته ولم يعلما كذبه لخفاء الثابت والمحرف في كتب أهل الكتاب كما قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى « ان بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً لا انه يتعمد الكذب والا فقد كان كعب من أخيار الأحبار »[2] قلت ومثل هذا يقال في وهب .

ذلكم هو رأي رجال هذه المدرسة العقلية في الإسرائيليات : حاربوها ـ وذموا روايتها ورواتها ولكن هل التزموا هذا المنهج أو وقع منهم الخوض فيها ؟!

وقوعهم في رواية الاسرائيليات :

استميحكم عذراً اذ ما سبقت الادلة هذه المرة وقلت ان هؤلاء قد تجاوزوا السابقين من المفسرين في رواية الاسرائيليات وزجوا في التفسير بما لم يزجه أولئك !! فرووا من الاسرائيليات بعض ما هو موجود في الكتب السابقة وزادوا عليه برجوعهم بأنفسهم الى المصادر التي كان يأخذ منها كعب ووهب ؟ ولم يقل أحد منهم في نفسه ما قالوه في كعب ووهب ، واباحوا لانفسهم ما لم يبيحوه لسواهم ، فنقلوا من الاسرائيليات ما خالف نصّ القرآن

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٢ .
(٢) فتح الباري : ابن حجر العسقلاني جـ ١٣ ص ٣٣٥ .

الكريم ولم ينقدوه أو يبطلوه وحرفوا معاني نصوص القرآن الكريم لتوافق ما جاؤ وا به من تلك الاسرائيليات .

ليس ما اقوله من قبيل القاء الكلام على عواهنة كما يقولون ـ وليس من قبيل استفزاز المشاعر ضدهم ، بل هو ما سأسوق الادلة لاثباته .

مع أني لست بأول من عاب عليهم هذا السلوك فهذا الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله يقول « كذلك لا يفوتنا أن ننبه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالاسرائيليات في تفاسيرهم ويتخذون منها شروحاً لكتاب الله يخوض هو ايضاً فيما هو من هذا القبيل ويتخذ منه شروحاً لكتاب الله وذلك انه كثيراً ما ينقل عن الكتاب المقدس اخباراً وآثاراً يفسر بها بعض مبهمات القرآن أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين وكان الاجدر بهذا المفسر الذي يشدد النكير على عشاق الاسرائيليات ان يكف هو ايضاً عن النقل عن كتب اهل الكتاب خصوصاً وهو يعترف انه قد تطرق اليها التحريف والتأويل »[١] .

أما روايتهم لما ورد من الاسرائيليات في الكتب السابقة من غير ردّ لها حسب منهجهم الذي دعوا اليه فمثاله قول رشيد رضا « روى نحو هذا ابن جرير قال حدثنا الحسن قال اخبرنا عبد الرزاق قال اخبرنا عبد الصمد بن معقل انه سمع وهب بن منبه يقول وكل بالبقرتين اللتين سارتا بالتابوت اربعة من الملائكة يسوقونها . . الخ »[٢] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[٣] «ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة قيل أن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها . . »[٤] .

---

(١) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٨٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية : ٧٣ .

(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٥١ .

وذكر الأستاذ أحمد مصطفى المراغي « وللعلماء في الطعام الذي نزل في المائدة آراء : فقيل هو خبز وسمك وقيل خبز ولحم وقيل كان ينزل عليهم طعاماً أين ما ذهبوا كما كان ينزل المن على بني إسرائيل كما رواه ابن جرير عن ابن عباس »[1] وقال في تفسير قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ ﴾[2] . . . وقد كان العلماء قديما يعلمون تخلخل الهواء في الطبقات العالية في الجو وهي نظرية لم تدرس في العلوم الطبيعية الا حديثاً فقد أثر عن كعب الاحبار انه قال ان الطير يرتفع في الجو اثنى عشر ميلا ولا يرتفع فوق ذلك »[3] .

وقال الشيخ عبد القادر المغربي « وجاء في كتب الاوائل ان في زمن « أنوش بن شيث بن آدم » ابتدأت عبادة الاوثان وجعل الناس يسمون المخلوقات آلهة فكان أنوش يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده ، وفي زمن ادريس عليه السلام وهو « اخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش ـ كثر النفاق وانغمس الناس في الآثام فأنزل الله عليه وحيا في سفر هو صحف ادريس المشهورة ولم يبق من ذلك السفر سوى فقره يقولون انها وجدت في اطواء بعض الكتب المقدسة »[4] .

أما روايتهم لما خالف القرآن الكريم من الاسرائيليات من غير ردّ عليها أو ابطال لها فمن ذلك ما ذكره عبد القادر المغربي في تفسير جزء تبارك حيث يقول : ـ « وذكر في الاسفار القديمة ان نوحاً ولد لسنة ١٨٢ من عمر ابيه « لامك » ولسنة ١٠٥٦ لجده الاكبر آدم عليه السلام ومعنى نوح : الراحة والتعزية وكان عمر نوح ٥٠٠ سنة لما أخذ يلد أولاده ساماً وحاماً ويافث وكان عمره ٦٠٠ سنة لما حصل الطوفان »[5] ولكن مراقبة الثقافة بالازهر تعلق على

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٧ ص ٥٩ .
(٢) سورة النحل من الآية : ٧٩ .
(٣) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١٤ ص ١١٩ .
(٤) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٥٥ .
(٥) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٥٦

هذا بقولها « قوله تعالى في سورة العنكبوت « ١٤ » ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ يفيد أن الطوفان حدث بعد ان امضى نوح بين قومه ٩٥٠ سنة فالقرآن يخالف في ذلك ما نقله المؤلف عن الاسفار القديمة »[١] .

قلت ولا ينفع الشيخ عبد القادر قوله بعد هذا « هذا منخول ما جاء في الكتب القديمة من خبر نوح عليه السلام ونحن ـ معشر المسلمين ـ لا نصدقها ولا نكذبها بل نكل أمرها الى العلم الحديث فهو الذي يمحصها ويميز غثها من سمينها »[١] .

اقول ليس هذا منهج المسلمين بل منهجهم تكذيب ما خالف النص القرآني لا التوقف أو تفويض أمره الى العلم الحديث !!

أما مثال تحريفهم لمعنى النص القرآني ليوافق نصوص اهل الكتاب فنضرب له مثلاً بتحريف الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٢] الآيات . . الى ان المراد في الآيات بيان نوع من التشريع الموجود عند بني اسرائيل يتوصل به الى معرفة القاتل المجهول ثم يربط بين هذا المعنى وبين ما جاء في التوراة فيقول « على ان هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه اذا قتل قتيل لم يعرف قاتلة فالواجب ان تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل ايديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي . . الخ »[٣] .

وأيّد الشيخ رشيد رضا ما ذهب اليه شيخه بذكر النص الوارد في التوراة

---

(١) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٥٦ الهامش .

(٢) سورة البقرة من الآية / ٦٧ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

المتعلق بقتل البقرة ثم قال بعد هذا « فعلم من هذا أن الامر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل »[1] ثم قال « والظاهر مما قدمنا ان ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره . . ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الاحكام وهذا الاحياء على حدّ قوله تعالى (٥ : ٣٢) ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وقوله ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ فالاحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين ثم قال ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ بما يفصل بها في الخصومات ويزيل من اسباب الفتن والعداوات »[2] .

اذن فالشيخ عبده وتلميذه صرفا معنى الآية عن ان تكون قصة واقعة احيا الله فيها القتيل (كذلك يحيي الله الموتى) ليكون آية للناس (ويريكم آياته) صرفا هذه الآيات عن هذا المعنى الى انها وردت لبيان حكم كان في بني اسرائيل فعلوا هذا ليوافق ما جاء عن اهل الكتاب « الاسرائيليات » .

أما رجوعهم بأنفسهم الى مصادر اهل الكتاب واستسقاؤ هم منها تفاسير لمجملات القرآن ومبهماته ، وجعلها ميزانا للترجيح بين اقوال المفسرين يردون بها ما يخالفها من التفاسير حتى قال قائلهم « ومنه نعلم ان كلّ ما خالفها ـ أي التوراة ـ من اقوال المفسرين في معنى الطمس على اموالهم فهو من اباطيل الروايات الاسرائيلية التي كان من مقاصد كعب الاحبار وامثاله منها ـ كما نرى صدّ اليهود عن الاسلام بما يرويه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفاً لما هو متفق عليه عندهم »[3] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .
(٢) تفير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٥١ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٤٧٤ .

قلت أما رجوعهم هذا فلا يسعنا ولا يسع غيرنا استقصاؤه الا بكتابة الاسفار الضخمة ولنقتصر منه على ما يثبت ما ذكرنا .

فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً من استشهاد الشيخ محمد عبده بنصوص التوراة عن حكم القتيل المجهول ، ومنها ما رواه السيد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُم إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [1] الآية قال « وهذا التابوت المعرف صندوق له قصة معروفة في كتب اليهود ففي أول الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج ما نصه : « وكلم الربّ موسى قائلاً كلّم بنى اسرائيل [2] . . الخ » وذكر النص وقال أيضاً « وفي سفر تثنية الاشتراع ان موسى لما كمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب الهكم ليكون شاهدا عليكم (٣١ : ٢٤ ـ ٣٠) » [3] وقال « وأما ما ورد في التوراة الحاضرة في شأن الالواح فمنه ما جاء في سفر الخروج من (٢٣ : ١٢) وقال الرب لموسى اصعد الى الجبل وكن هنا فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعلمهم الكلمات العشر) وجاء في وصف اللوحين منه (٣٢ :١٥) ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده : لوحان مكتوبان على جانبيهما مَن هنا ومِن هناك كانا مكتوبين » [4] .

أما الاستاذ احمد مصطفى المراغي فيقول في تفسير ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [5] « وجاء في انجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٤٨ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٨٠ .

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٨٢ .

(٤) المرجع السابق جـ ٩ ص ١٨٥ .

(٥) سورة المائدة من الآية ١١٧ .

المسيح الذي ارسلته[١])وقال ايضا في تفسير قوله تعالى ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ويستخلفكم فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٢] « وقد جاء في الفصل السادس من سفر الخروج من التوراة فقال الرب لموسى الاثري ما اصنع بفرعون انه بيد قديره سيطلقكم وبيد قديره سيطردكم من ارضه . . »[٣] الخ .

اما الشيخ عبد القادر المغربي فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٤] الآية « ويكفي في الاستشهاد على ذلك ما جاء في « رؤى دانيال » من اسفار العهد القديم و « رؤ يا يوحنا » من اسفار العهد الجديد ، وقد قال المفسرون من علماء اهل الكتاب « انه وان يكن يوجد في سفر دانيال حوادث غير اعتيادية فليس هذا بمستغرب لأنه يعمّ الكتاب المقدس تقريباً» وقالوا في رؤ يا يوحنا « ان معناها عويص وهي مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تتمة الف سنة »[٥] الخ وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾[٦] « ولا حاجة الى ذكر ما جاء به قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام . . غير أنّا نذكر موجزاً من تاريخ حياة لوط حسبما ورد في الاسفار القديمةقالوا :هو بن حاران أخي ابراهيم الخليل عليه السلام وقد هاجر مع عمه ابراهيم من بلاد ما بين النهرين الى ارض الميعاد (فلسطين) . . »[٧] .

ولنكتفي بما ذكرت من رواياتهم ، والحق انـه ما كان بودّي ان اطيل

(١) تفسير المراغي ؛ احمد مصطفى المراغي جـ ٧ ص ٦٤ .
(٢) سورة الاعراف : من الآية ١٢٩ .
(٣) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٩ ص ٣٩ .
(٤) سورة المدثر من الآية ٣١ .
(٥) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٩٥ .
(٦) سورة الحاقة الآية٩ .
(٧) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٣٥ .

الحديث في هذا الموضوع . لولا اني رأيت رفضهم القاطع لها وذمهم للمفسرين السابقين لايرادها ومع هذا وقع منهم في تفسيرهم روايات كثيرة كما ذكرنا ، وكان الأحرى بهم ـ ان يلتزمـوا ما دعوا اليه من عدم التعرض لذكر الاسرائيليات .

وان كان لي من رأي اذكره بعد هذا فهو ما نراه الصواب في هذا المنهج ، ولن اذهب في تعداد الادلة من الكتاب والسنة فأطيل في الحديث ولكني اختصر ذلك بالقول أن الحق ولا شك هو ما ذهب اليه السلف الذين درسوا تلك الادلة دراسة وافية شاملة وخرجوا منها بالرأي الذي سجلناه في موقفهم وسجلناه أيضاً للشيخ رشيد احد نصوصه ولكنه لم يلتزمه .

وخلاصة ذاك :

١ ـ ان ما وافق شريعتنا من الاسرائيليات تجوز روايته للاستشهاد لا للاعتقاد .

٢ ـ وما خالف شريعتنا لا تصح روايته الا على سبيل التكذيب والرد عليه .

٣ ـ ما ليس في شريعتنا ما يوافقه ولا ما يخالفه لا بأس بحكايته من غير تصديق ولا تكذيب وذلكم هو المنهج السليم ، والله الموفق . .

الأساس التاسع

التقليل من شأن التفسير بالمأثور

ويشمل هذا النوع من التفسير امورا أربعة : -

١) تفسير القرآن بالقرآن .

٢) تفسيره بالسنة النبوية .

٣) تفسيره باقوال الصحابة رضي الله عنهم .

٤) تفسيره باقوال التابعين رضي الله عنهم .

ولن نتناول هنا النوع الأول من ذلك فقد سبقت الاشارة اليه مع الاتفاق على قبوله وعلى انه اشرف انواع التفسير واصح طرقه .

وانما نقصر الحديث هنا على الثاني وهو تفسيره بالسنة النبوية الصحيحة وانما قصرناه على هذا لأن من يرد التفسير بالسنة النبوية او يحرفها فهو اسبق الى ردّ سواها من اقوال الصحابة والتابعين .

ولن نتناول هنا ايضا حجية السنة - فهو موضوع اصولي يطول بنا ذكر ادلة الاثبات وهو من الوضوح في الشريعة الاسلامية بمكان ولم يخالف فيه الا طائفة من الناس في العصرين القديم والحديث قام من اهل الاسلام من قام بالرد عليهم بما يلجمهم ويظهر للمسلمين مرادهم من هذا الزعم وما يؤدي اليه من ابطال للشريعة الاسلامية ووصفوا القائلين بهذا القول بالضلال والميل عن الصراط المستقيم قال الامام الشاطبي رحمه الله تعالى بعد بيان مذهب

الزائغين » ولقد ضلت بهذه الطريقة طوائف من المتأخرين كما كان ذلك فيمن تقدم فالقول بها والميل اليها ميل عن الصراط المستقيم اعاذنا الله من ذلك بمنة »[1] ثم أن من له اعتبار من علماء المسلمين السابقين واللاحقين اتفقوا على حجيتها فلا كلام لنا في مناقشة ذلك .

وانما الحديث عن تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية الصحيحة ببيان منزلة هذا النوع ، وبيان موقف السلف من ذلك والمنهج الذي سلكه رجال المدرسة العقلية الحديثة في هذا النوع من التفسير .

أما منزلة هذا النوع من التفسير فتأتي في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم الذي نصّ على ان رسول الله ﷺ هو المبين لآيات القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3] وقال عليه الصلاة والسلام ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . . الحديث »[4].

موقف السلف من هذا التفسير : -

لا خلاف بين السلف في قبول هذا النوع من التفسير والاشادة به والاكتفاء بوروده عما سواه ، فأفرد المحدثون منهم كالبخاري ومسلم وغيرهما رحمهم الله اجمعين ابوابا للتفسير جمعوا فيها ما صح عندهم من التفسير

---

(١) الموافقات : الشاطبي جـ ٤ ص ١٩ .

(٢) سورة النحل الآية : ٤٤ .

(٣) سورة النحل الآية : ٦٤ .

(٤) رواه احمد من حديث المقدام بن معد يكرب والترمذي وقال حسن غريب .

المأثور عن النبي ﷺ .

واشار غيرهم الى منزلة هذا النوع من التفسير فقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى « وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان : ـ **أحدهما** : نص كتاب فاتبعه رسول الله كما انزل الله . **والآخر** : جملة بين رسول الله فيه عن الله معنى ما اراد بالجملة واوضح كيف فرضها عاما او خاصا وكيف اراد ان يأتي به العباد وكلاهما اتّبع فيه كتاب الله »(١) .

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى « فان قال قائل فما احسن طرق التفسير ؟ فالجواب ان اصحّ الطرق في ذلك ان يفسر القرآن بالقرآن . . . فان اعياك ذلك فعليك بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له »(٢) .

وقال رحمه الله تعالى « ومما ينبغي ان يعلم ان القرآن والحديث اذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك الى اقوال اهل اللغة فانه قد عرف تفسيره »(٣) وقال ايضا : ـ « ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية الا بآية اخرى تفسرها وتنسخها او بسنة الرسول ﷺ تفسرها فان سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه »(٣) .

وقال الامام الشاطبي رحمه الله تعالى « ان السنة توضح المجمل وتقيد المطلق وتخصص العموم فتخرج كثيرا من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها في اصل اللغة ، وتعلم بذلك ان بيان السنة هو مراد الله تعالى من تلك الصيغ فاذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى صار صاحب هذا النظر ضالا في نظره جاهلا بالكتاب خابطا في عمياء لا يهتدي الى الصواب فيها ، اذ ليس

---

(١) الرسالة : للامام الشافعي تحقيق احمد محمد شاكر ص ٩١ .

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيمية : جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ١٣ ص ٣٦٣ .

(٣) مجموع فتاوي ابن تيمية : جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ١٣ ص ٢٧ و٢٩

للعقول من ادراك المنافع والمضار في التصرفات الدنيوية الا النزر اليسير وهي في الاخروية ابعد على الجملة والتفصيل »[١] .

اما الامام الطبري رحمه الله تعالى فيذكر ما ذكرنا من الآيات الكريمة ثم يقول « فقد تبين ببيان الله جل ذكره : ان مما انزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل الى علم تأويله الا ببيان الرسول ﷺ وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه امره واجبه وندبه ، وارشاده ، وصنوف نهيه ووظائف حقوقه وحدوده ومبالغ فرائضه ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض وما اشبه ذلك من أحكام آية التي لم يدرك علمها الا ببيان رسول الله ﷺ لأمته ، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه الا ببيان رسول الله ﷺ تأويله بنص منه عليه او بدلالة قد نصبها دالة امته على تأويله »[٢] .

وقد ذكر هؤلاء العلماء رحمهم الله وغيرهم من علماء السلف طائفة من التفسير المرفوع للرسول عليه الصلاة والسلام لبعض آيات القرآن وهم لا يقدمون عليها سواها من التفسير .

موقف المدرسة العقلية الحديثة منه : ـ

يظهر التردد واضحا في موقف رجال هذه المدرسة فهم ازاء نصوص علماء السلف وقبل هذا آيات القرآن والسنة النبوية التي تدل كلها على وجوب قبول تفسير الرسول ﷺ والتسليم له وعدم تقديم اي تفسير غيره بعد ثبوته ـ هم ازاء هذا يعلنون قبولهم هذا المنهج ولكن بغير الحماس الذي يظهرونه لقبول المنهج العقلي . لهذا فهم حين يشكل عليهم حديث لا يترددون في تأويله فان قبل التأويل والا ابطلوه وكذبوه وطعنوا في رواته ولو كان في الصحيحين . وهم كثيرا حين يبطلون هذا الحديث او ذاك لا يسلكون المنهج المعروف لدى المحدثين في ردّ الاحاديث وانما يبطلونه لأنه لا يوافق ما ذهبوا اليه وسنذكر ـ

---

(١) الموافقات : للشاطبي جـ ٤ ص ٢١ .

(٢) تفسير الطبري : تحقيق محمود شاكر جـ ١ ص ٧٤ .

ان شاء الله ـ هنا من النصوص ما يدل على ما وصفناهم به .

قال السيد رشيد رضا ـ « واما الروايات المأثورة عن النبي ﷺ واصحابه وعلماء التابعين في التفسير فمنها ما هو ضروري ايضا لأن ما صح من المرفوع لا يقدم عليه شيء ويليه ما صح من علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم والصحيح من هذا وذاك قليل وأكثر التفسير المأثور قد سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة اهل الكتاب كما قال الحافظ ابن كثير »[1] وقال « فالحق ان كل ما لا يعلم الا بالنقل عن المعصوم من اخبار الغيب الماضي او المستقبل وامثاله لا يقبل في اثباته الا الحديث الصحيح المرفوع الى النبي ﷺ وهذه قاعدة الامام ابن جرير التي يصرح بها كثيراً »[2] ثم قال « وغرضنا من هذا كله ان اكثر ما روى في التفسير المأثور أو كثيرة حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للانفس المنورة للعقول فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعا »[3] وقال « فكل حديث مشكل المتن او مضطرب الرواية او مخالف لسنن الله تعالى في الخلق او لاصول الدين او نصوصه القطعية او للحسيات وامثالها من القضايا اليقينية فهو مظنة لما ذكرنا في هذه التنبيهات »[4] ثم قال « فمن صدق رواية مما ذكر ولم يجد فيها اشكالا فالاصل فيها الصدق ومن ارتاب في كل شيء منها او اورد عليه بعض المرتابين او المشككين اشكالا في متونها فليحمله على ما ذكرنا من عدم الثقة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات ، او خطأ الرواية بالمعنى او غير ذلك مما اشرنا اليه واذا لم يكن شيء منها ثابتا بالتواتر القطعي فلا يصح ان يجعل شبهه على صدق الرسول ﷺ بالقطع ولا على غير

---

(١) تفسير المنار : رشيد رضا جـ ١ ص ٧ و٨ ولم يشر رشيد رضا الى المصدر ولم نقف لابن كثير رحمه الله تعالى على مثل هذا ؟ !

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٠ .

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق : جـ ٩ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧ .

ذلك من القطعيات »[1] وقال « ولقد كان الاستاذ الامام يقول ان الاسلام الصحيح هو ما كان عليه اهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن ولم يكن يثق الا بأقل القليل مما روى في الصحاح من احاديث الفتن »[1] وقال « وقد ثبت ان الصحابة رضي الله عنهم كان يروي بعضهم عن بعض وعن التابعين حتى عن كعب الاحبار وامثاله ، والقاعدة عند اهل السنة ان جميع الصحابة عدول فلا يخل جهل اسم راو منهم بصحة السند وهي قاعدة اغلبية لا مطرده فقد كان في عهد النبي ﷺ منافقون . . »[1] وقال « ولا شك في ان اكثر الاحاديث قد روى بالمعنى كما هو معلوم واتفق عليه العلماء ويدل عليه اختلاف رواة الصحاح في الفاظ الحديث الواحد حتى المختصر منها وما دخل على بعض الاحاديث من المدرجات . . . فعلى هذا كان يروي كل احد ما فهمه وربما وقع في فهمه الخطأ لأن هذه امور غيبية »[1] .

وقال الشيخ محمد مصطفى المراغي « وطاعة الرسول واجبه في حياته وبعد مماته ، فيما علم انه دعا اليه دعوة عامة من السنن العملية المبينة للكتاب ومن السنن القولية القطعية في الرواية والدلالة . . »[2] .

وردّ الشيخ محمود شلتوت على طائفة انكرت حجية السنة ثم قال « ولكن المحققين من العلماء قد اثبتوا بالسنة قولا وعملا كثيرا من الاحكام التشريعية الدائمة كما اعتمدوا عليها في بيان القرآن بتخصيص عامة وتقييد مطلقه وبيان مجمله وغير ذلك معتمدين في هذا على القرآن نفسه اذ يقول الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ٧ : الحجر . . »[3] .

ويوضح لنا الشيخ احمد مصطفى المراغي في مقدمة تفسيره منهجه في ذلك فيقول « . . . ومن ثمّ رأينا ألا نذكر رواية مأثورة الا اذا تلقاها العلم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧ .
(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ : محمد مصطفى المراغي ص ٢٤ .
(٣) الاسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ص ٤٩٧ .

بالقبول ولم نر فيها ما يتنافر مع قضايا الدين التي لا خلاف فيها بين اهله وقد وجدنا ان ذلك اسلم لصادق المعرفة واشرف لتفسير كتاب الله وأجذب لقلوب المثقفين ثقافة علمية لا يقنعها الا الدليل والبرهان ونور المعرفة الصادقة »[1] .

ثم ان الشيخ رشيد رضا لم يستمر في سلوكه هذا المنهج فقد خالفه بعد موت استاذه حيث يقول « هذا واني لمآ استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيرا لها او في حكمها . . »[2] .

خالف منهج استاذه لأن الاستاذ كان متشددا جدا في قبول الحديث : ـ « والذي يجب اعتقاده ان القرآن مقطوع به وانه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه »[3] « وبالجملة فخبر وجود النهر ـ أي الكوثر ـ من الأخبار الغيبية التي لا يجوز الاعتقاد به الا بعد التيقن انه ورد عن المعصوم ﷺ فاذا وصلت فيه الى اليقين الذي لا يجوز عندك تبدله وكان علمك بصدوره عنه ـ عليه السلام ـ كعلمك بوجود مكه او المدينة قبل ان تراهما فاعتقد به والا ففوض الأمر الى الله وقل لا اعلم . والله اعلم »[4] « ان الحديث الذي يصل الينا من طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده اما من قامت له الادلة على انه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة وعلى اي حال ، فلنا بل علينا ان نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل »[5] .

كان ذلكم منهج الامام محمد عبده وتلاميذه في التفسير المرفوع

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ١٩ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٦ .

(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٨٠ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق : ص ١٨١ .

للرسول ﷺ . ولكن مع هذا وحتى لا نظلم القوم ـ نرى انهم احيانا يستدلون منها بما يفسر الآية او يتعلق بها مما لا يخالف ما ذهبوا اليه . وحينا يوردون ذلك التفسير من غير اشارة الى الحديث الذي ورد فيه .

فمن ذلك تفسير القوة في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ﴾[1] يقول السيد رشيد رضا « وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر انه سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول « الا ان القوة الرمي » قالها ثلاثا وهذا كما قال بعض المفسرين من قبيل حديث الحج عرفه بمعنى ان كلا منهما اعظم الاركان في بابه . . »[2] .

ويورد ايضا تفسير الرسول ﷺ للظلم في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهتدون﴾[3] فيقول روى احمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود ان الآية لما نزلت شق ذلك على الناس وقالوا يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ « انه ليس الذي تعنون الم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[4] انما هو الشرك » وروى تفسير الظلم هنا بالشرك عن ابي بكر وعمر وابن عباس وابي بن كعب وحذيفة وسلمان الفارسي وغيرهم من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم »[5] .

وفسر الاستاذ الامام محمد عبده المراد بالصلاة الوسطى في قوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصلوات وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[6] بقوله « وللعلماء في ذلك ثمانية عشر قولا اوردها الشوكاني (في نيل الاوطار)

---

(١) سورة الانفال من الآية ٦٠ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٠ ص ٦٩ .

(٣) سورة الانعام الآية ٨٢ .

(٤) سورة لقمان : من الآية ١٣ .

(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٧ ص ٥٨٢ .

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٣٨ .

اصحها رواية ما ذهب اليه الجمهور من كونها صلاة العصر لحديث علي عند احمد ومسلم وابي داود مرفوعا « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » . . ولكنه قال بعد هذا « ولولا انهم اتفقوا على انها احدى الخمس لكان يتبادر الى فهمي من قوله « والصلاة الوسطى » ان المراد بالصلاة الفعل وبالوسطى الفضلى اي حافظوا على افضل انواع الصلاة وهي الصلاة التي يحضر فيها القلب وتتوجه لها النفس الى الله تعالى وتخشع لذكره وتدبر كلامه لا صلاة المرائين ولا الغافلين »(١) .

وفسر الشيخ رشيد رضا قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّه فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إني مَعَكُم مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾(٢) بقوله « فجملة ما ورد في اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بعضه بعضا وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الاسلام ان الله تعالى جعل حجته على رسالة خاتم النبين هذا القرآن المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعلمية والاصلاحية . . . وقد آتى الله رسوله خاتم النبين آيات أخرى علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا امره بالتحدي بها وانما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الأمة اليها كاستجابة بعض ادعيته ﷺ . . . ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث ابي هريرة مرفوعا « ما من نبي من الانبياء الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي اوتيته وحيا اوحاه الله الى فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة »(٣) الخ .

وفسر الشيخ احمد مصطفى المراغي الحساب اليسير في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً »(٤) بما روى عن

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ .
(٢) سورة يونس : الآية ٢٠ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٣٣٣ .
(٤) سورة الانشقاق : الآيتين ٧ ، ٨ .

عائشة رضى الله عنها انها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اللهم حاسبني حسابا يسيرا قلت وما الحساب اليسير ؟ قال ينظر في كتابه ويتجاوز عن سيئاته فأما من نوقش الحساب فقد هلك »[١] .

وقال الشيخ محمود شلتوت في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾[٢] « واذا كان شخص الرسول قد غاب عن اعين الآخرين فهو حاضر في قلوبهم ماثل في انفسهم ولم تنقطع اسوتهم به . . . فمنزلة وجوده فيهم بعد مماته هي منزلة وجود الكتاب فيهم كلاهما متواتر يلقاه جيل من المؤمنين عن جيل وقد ورد في الخبر ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال « تركت فيكم امرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي »[٣] . وفسر الشيخ شلتوت ايضا ـ حبل الله في قوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[٤] بقوله « وحبل الله كما ورد مرفوعا عن النبي ﷺ هو القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم »[٥] .

وذكر الشيخ محمد مصطفى المراغي في تفسير التقوى من قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٦] « وقد وردت التقوى في الكتاب العزيز على معان منها الإيمان ﴿ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾[٧] . . ومنها الطاعة ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾[٨] . . ومنها الاخلاص ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[٩] أي

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٣٠ ص ٩١ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٠١ .
(٣) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ١٢٩ .
(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٠٣ .
(٥) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ١٣٢ .
(٦) سورة البقرة : الآية : ١٨٣ .
(٧) سورة الفتح من الآية : ٢٦ .
(٨) سورة النحل من الآية الثانية . (٩) سورة الحج من الآية : ٣٢ .

من اخلاص القلوب ومقام التقوى مقام شريف ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ ﴾[1] . . وفي الحديث الشريف « من احب ان يكون اكرم الناس فليتق الله » وقد ورد عن النبي ﷺ « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا باس به حذرا مما به باس »[2] .

وفي قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[3] يورد الشيخ محمد المراغي قوله ﷺ « خذوا من الاعمال ما تطيقون فان الله عز وجل لن يمل حتى تملوا » وفي حديث معاذ عندما اطال الصلاة أفتان أنت يا معاذ ؟ ان منكم منفرين فاذا ما صلى احدكم بالناس فليتجوز فان منهم الكبير والضعيف وذا الحاجة »[4] .

وذكر في قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[5] « ومن الحديث الشريف « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل الا يوشك ان يعمهم الله بعذاب من عنده » وقيل يا رسول الله اتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال نعم بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله »[6] .

واورد الشيخ عبد القادر المغربي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يركعونَ ﴾[7] حديثا « ويروي انه ﷺ امر وفد ثقيف بالصلاة فقالوا « لا ننحني ، فانها سبة لنا » فقال ﷺ « لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا

---

(١) سورة النحل من الآية ١٢٨ .
(٢) الدروس الدينية لعام ١٣٥٧ هـ : محمد مصطفى المراغي ص ٨ و٩ .
(٣) سورة البقرة من الآية : ١٨٥ .
(٤) الدروس الدينية لعام ١٣٥٧ هـ محمد مصطفى المراغي ص ٢٠ .
(٥) سورة الانفال الآية : ٢٥ .
(٦) الدروس الدينية لعام ١٣٥٧ هـ : محمد مصطفى المراغي ص ٢٦ و٢٧ .
(٧) سورة المرسلات الآية : ٤٨ .

سجود » على ان الاسلام انما جاء لترويض النفوس العاتية وتذليل انفتها »[1] .

وقد يذكر احدهم التفسير المأثور من غير اشارة الى وروده في السنة نضرب لذلك مثلا تفسير الشيخ احمد المراغي لقوله تعالى ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾[2] بقوله : ـ « وكلمة التقوى هي لا اله الا الله »[3] وهو تفسير ورد فيما اخرجه الترمذي وابن جرير عن ابي بن كعب انه سمع رسول الله ﷺ يقول « والزمهم كلمة التقوى » قال : ـ « لا اله الا الله » .

تلكم آيات من القرآن ذكروا ما يفسرها او ما يتعلق بتفسيرها من السنة النبوية وهو امر على قلّته في تفسيرهم كدنا نحمده لهم ونعده من جميل صنعهم لولا انهم قلبوا ظهر المجن فردوا كثيرا من السنة النبوية الطاهرة التي تفسر بعض آيات من القرآن الكريم او تتعلق بذلك لم يردوها لضعف في سندها او لمخالفة ما هو معلوم من الشريعة وانما فعلوا ذلك لأنها لا تتفق مع ما ذهبوا اليه في تفسير الآية وبنوا ما ذهبوا اليه على عقولهم القاصرة فردوا احاديث صحيحه رواها البخاري ومسلم وغيرهما من ائمة الحديث .

ولنذكر هنا بعض الاحاديث التي اوردها علماؤ نا المحققون في تفسير آيات من القرآن الكريم ولنبين ايضا ردّ رجال المدرسة العقلية الحديثة لها .

فمن ذلك ما ورد في السنة عن الكوثر الذي اعطيه نبينا محمد ﷺ فقد روى البخاري رحمه الله عن انس رضى الله عنه قال : لما عرج بالنبي ﷺ الى السماء قال اتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر[4] واخرج احمد ومسلم رحمهما الله تعالى عن انس رضى الله

---

(١) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(٢) سورة الفتح من الآية : ٢٦ .
(٣) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٢٦ ص ١٠٩ .
(٤) صحيح البخاري : كتاب التفسير (إنا أعطيناك الكوثر) جـ ٦ ص ٢١٩ .

عنه قال قال رسول الله ﷺ الكوثر نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة »[1] قال السيوطي رحمه الله تعالى « له طرق لا تحصى »[2]

فاذا ما القينا نظرة على تفسير الاستاذ محمد عبده وجدناه يذكر في تفسير الكوثر بعض الاقوال منها ان المراد به النبوة او العلم والحكمة او نور القلب وقيل ان المراد الخير الدنيوي والآخروي ثم قال بعد ذلك « وأما ان هناك نهرا في الجنة اسمه الكوثر وان الله اعطاه نبيه فلا يفهم من معنى الآية بل الذي يدل عليه سياق السورة وموضع نزولها هو الذي بيناه من احد القولين والأول وهو النبوة وما في معناها ارجح .

اما الاعتقاد بوجود هذا النهر في الجنة فموقوف على تواتر الاخبار التي وردت به وقد ذهب جماعة الى انها متواترة المعنى فيجب الاعتقاد بوجود النهر على وجه عام دون تفصيل او صافه لكثرة الخلاف فيها .

ولكن التواتر لا يصح ان يكون برأي جماعة او برأي آخرين فحدّ التواتر هو ما تراه في القرآن : تعرفه طبقة عن طبقة يؤمن تواطوء كل منها على الكذب الى ان وصل اليك لا تنكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة ـ فهذا التواتر هو الذي يوجب اليقين وليس الأمر كذلك في احاديث النهر فانها ـ وان كثرت طرقها ـ لم تبلغ هذا المبلغ فلا يصدق عليها اسم المتواتر خصوصا وانه يظن بالرواة سهولة التصديق في مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف فيسهل على كل راو الميل الى تصديق ما يقال له . وهذا يخل بشرط التواتر ، لأن اول شرط فيه ان لا يكون في الطبقات رائحة التشيع للمروي »[3] .

---

(١) مسند احمد جـ ٣ ص ٢٢٠ وص ٢٣٦ .
وصحيح مسلم كتاب الصلاة باب من قال البسملة آية من اول كل سورة سوى برآءة جـ ٤ ص ١١٣ .

(٢) الاتقان : السيوطي جـ ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٦٥ .

قلت واحيانا تزكم الانوف رائحة التشيع ضد المروي وتلمّس أوهى الاسباب لرده ، ولندع الشيخ يكمل حديثه : ـ

« وبالجملة فخبر وجود النهر من الأخبار الغيبية لا يجوز الاعتقاد به الا بعد التيقن انه ورد عن المعصوم ﷺ فاذا وصلت فيه الى اليقين الذي لا يجوز عندك تبدله وكان علمك بصدوره عنه ـ عليه السلام كعلمك بوجود مكة او المدينة قبل ان تراهما فاعتقد به والا ففوض الأمر الى الله وقل لا اعلم والله اعلم .

بعد ان اكد الله لنبيه الخبر بأن الذي اعطاه هو الكوثر الذي لا يستقل عدده ولا ينتقص قدره[1] وان ما يعدونه كثيرا وعظيما فهو بالنسبة اليه قليل وحقير ـ طالبه بالشكر على ذلك . . »[2] .

وليس لنا من تعليق ولن نردّ عليهم في عرضنا هذا الا بأن نقرن بين كلامهم وبين ما ورد في صحيح البخاري ومسلم وهو ما فعلنا وسنفعل ان شاء الله .

ومن هذا ما ورد في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الاعصم حتى كان رسول ﷺ يخيل اليه انه يفعل الشيء وما فعله حتى اذا كان ذات يوم او ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة اشعرت ان الله افتاني فيما إستفتيته فيه اتاني رجلان فقعد احدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال احدهما لصاحبه ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوب قال من طبه ؟ قال لبيد بن الاعصم قال في أي شيء ؟ قال في مشط ومشاطه وجف[3] طلع نخلة ذكر قال

---

(١) يقصد محمد عبده بـ « الكوثر » الشيء الكثير الذي لا يستقل عدده ولا . . الخ .

(٢) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٦٥ .

(٣) الجف وعاء الطلع وغشاؤه الذي يكنه « جامع الاصول : ابن الاثير جـ ٦ ص ٥٣ » .

واين هو ؟ قال في بئر ذروان فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من اصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء او كأن رؤ وس نخلها رؤ وس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا استخرجه قال قد عافاني الله فكرهت ان اثوّر على الناس فيه شرا فأمر بها فدفنت »[1] رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذا الحديث (ثابت عند اهل العلم بالحديث لا يختلفون في صحته وقد اتفق اصحاب الصحيحين على تصحيحه ولم يتكلم فيه احد من اهل الحديث بكلمة واحدة والقصة مشهورة عند اهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء وهؤلاء اعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين »[2]

وقال الاستاذ عبد القادر الارناؤ وط « ورواه ايضا احمد والنسائي وابن سعد والحاكم وعبد بن حميد وابن مردوية والبيهقي في دلائل النبوة وغيرهم وقال ابن القيم في بدائع الفوائد وهذا الحديث ثابت عند اهل العلم متلقى عندهم بالقبول »[3] .

تلكم درجة ذلك الحديث ولنسجل هنا في مقابلة هذا ما ذهب اليه الاستاذ الامام محمد عبده في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾[4] حيث يقول : ـ

« وقد رووا هنا احاديث في ان النبي ﷺ سحره لبيد بن الاعصم واثر سحره فيه حتى كان يخيل له انه يفعل الشيء وهو لا يفعله او يأتي شيئا وهو لا يأتيه وان الله أنبأه بذلك واخرجت مواد السحر من بئر وعوفي ﷺ مما كان نزل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب باب السحر جـ ٧ ص ١٧٧ ورواه مسلم في كتاب السلام باب السحر .

(٢) انظر التفسير القيم : ابن القيم سورة الفلق ص ٥٦٦ .

(٣) جامع الاصول في احاديث الرسول : ابن الاثير تحقيق عبد القادر الارناؤ وط جـ ٥ ص ٦٧ .

(٤) سورة الفلق : الآية ٤ .

به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى ان تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر الى ان يظن انه يفعل شيئا وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الامراض في الابدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الامور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح وهو مما يصدّق قول المشركين فيه ﴿ إن تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾(١) وليس المسحور عندهم الا من خولط في عقله وخيل له ان شيئا يقع وهو لا يقع فيخيل اليه انه يوحى اليه ولا يوحى اليه .

وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة وما يجب لها ان الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من انكار السحر وقد جاء القرآن بصحة السحر .

فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح في نظر المقلد بدعة ! نعوذ بالله ! يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه ﷺ وعده من افتراء المشركين عليه ، ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك ! مع ان الذي قصده المشركون ظاهر لأنهم كانوا يقولون ان الشيطان يلابسه عليه السلام وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم وضرب من ضروبه وهو بعينه اثر السحر الذي نسب الى لبيد فانه قد خالط عقله وادراكه في زعمهم .

والذي يجب اعتقاده ان القرآن مقطوع به وانه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له الى المشركين اعدائه ووبخهم على زعمهم هذا فاذن هو ليس بمسحور قطعا .

---

(١) سورة الفرقان : من الآية ٨ .

واما الحديث على فرض صحته فهو آحاد والاحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه الا باليقين ولا يجوز ان يؤخذ فيها بالظن والمظنون .

على ان الحديث الذي يصل الينا من طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده اما من قامت له الادلة على انه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة وعلى اي حال فلنا بل علينا ان نفوض الامر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل !! »

ثم قال « على ان نافي السحر بالمرة لا يجوز ان يعد مبتدعا لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله ﴿آمن الرسول﴾ الآية وفي غيرها من الآيات ووردت الاوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على انه مما يجب الايمان بثبوته او وقوعه على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون (!!) في كل مله بل الذي ورد في الصحيح هو ان تعلّم السحر كفر فقد طلب منا ان لا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه »[1]

وماذا نقول بعد هذا ؟! في موقف الاستاذ الامام . هل يكفي وصف تلميذه السيد رشيد رضا له « بأنه كان مقصرا في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل »[2] ؟! لا لا يكفي ذلك بل قد تجاوزه الامام محمد عبده ، فحتى المقصرين في علوم الحديث يدركون انه ليس من حقهم الخوض في الاحاديث تصحيحا وتضعيفا حتى يدركوا اصول ذلك فكيف يردّ ما رواه البخاري ومسلم ؟!!

ثم لنستمع الى رأي الشيخ رشيد رضا في هذا مدافعا عن استاذه وملتمسا مخرجا آخر له ولرجال المدرسة كافة حيث قال بعد سياقه للحديث

---

(١) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٥ .

السابق : ـ « فهذا الحديث صريح في ان المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء ولكن فهم اكثر العلماء انه ﷺ سحر سحرا اثر في عقله كما اثر في جسده فانكره بعضهم وبالغوا في انكاره وعدوه مطعنا في النبوة ومنافيا للعصمة لقول عائشة : حتى انه كان يخيل اليه انه فعل الشيء ولم يكن فعله فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول وعدوها مخالفة للقطعى في النقل وهو ما حكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة امثالهم في رسلهم بقولهم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً ﴾ [1] وتفنيده تعالى لهم بقوله ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يستطيعون سَبِيلًا ﴾ [1] ومخالفة للقطعى في العقل من عصمة النبي ﷺ من كل ما ينافي النبوة والثقة بها اذ يدخل في ذلك التخييل ما هو من التشريع ومخالفة لعلم النفس الذي يعلم منه ان الانفس السافلة الخبيثة لا تؤثر في الانفس العالية الطاهرة فانكر صحة الرواية بعض العلماء وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المفسرين الفقهاء ابو بكر الجصاص في كتابه احكام القرآن وآخرهم شيخنا الاستاذ الامام في تفسير جزء عم وقد اطال شيخنا في هذا وبالغ فيه » [2] ثم قال بعد هذا : ـ « وقد محصت هذه المسألة مرارا آخرها في الرد على مجلة الازهر (نور الاسلام) في زعمها المفتري انني كذبت حديث البخاري في سحر النبي ﷺ فبينت ان الحديث الصحيح في المسألة عن عائشة رضى الله عنها توهم عبارة بعض رواياته ما هو اعمّ من المعنى الخاص الذي ارادته منها وهو مباشرة الزوجية بينه ﷺ وبينها فقولها : كان يخيل اليه انه يفعل الشيء وهو لم يفعله ـ كناية عن هذا الشيء الخاص لا عام في كل شيء . . . وبينت ايضا ان الرواية في اصح اسانيدها عند الشيخين عن هشام عن ابيه عن عائشة فيها عله من علل الحديث الخفية التي يشترط في صحة الحديث السلامة منها وهي ان بعض منكري الحديث أعلّوه بهشام هذا وألّف بعضهم كتابا خاصا فيه محتجا بقول بعض

---

(١) سورة الفرقان من الآيتين ٨ و٩ .

(٢) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : محمد رشيد رضا ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

علماء الجرح والتعديل انه كان في العراق يرسل عن ابيه عروة بن الزبير ما سمعه من غيره وعروة هو راوية عائشة الثقة وهي خالته وقال ابن خراش كان مالك لا يرضاه يعني هشاما وقد نقم منه حديثه لأهل العراق[1] وقال ابن القطان تغير قبل موته ولا شك ان تعديل الجماعة له ومنهم الشيخان خاص بما رواه قبل تغيره فهذا عذر من طعن في روايته لهذا الحديث الذي انكروا متنه بما علمت والأمر فيه أهون مما قالوا فالتحقيق انه خاص بمسألة الزوجية كما جاء في التصريح به في الرواية الثانية كما تقدم ولا يعقد بغير هذا »[2] .

فلنعدّ الحديث عن هذا وذاك ولنذكر شكلا آخر من اشكال ردّهم لصحيح الحديث عند تفسير قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾[3] حيث يذكر السيد رشيد رأيه هنا ورأي استاذه فيقول « ولا ثقة لنا بشيء مما روى في هذا التبديل من الفاظ عبرانية ولا عربية فكله من الاسرائيليات الوضعية كما قاله الاستاذ الامام هنالك وان خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفا ومرفوعا كحديث ابي هريرة المرفوع في الصحيحين وغيرهما » قيل لبني اسرائيل ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾[4] فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا : حطه حبة في شعره « وفي رواية شعيرة رواه

---

(١) وذلك انه « قدم الكوفة ثلاث مرات : قدمة كان يقول حدثني ابي قال سمعت عائشة ، والثانية كان يقول : أخبرني أبي عن عائشة وقدم الثالثة فكان يقول ابي عن عائشة - يعني يرسل عن ابيه » ميزان الاعتدال جـ٤ ص٣٠١ - ٣٠٢ قال الذهبي « هشام بن عروة احد الاعلام حجة امام ، لكن في الكبر تناقص حفظه ، ولم يختلط أبدا » وقال « ولما قدم العراق في آخر عمره حدث بجملة كثيرة من العلم في غضون ذلك يسير احاديث لم يجوّدها ومثل هذا يقع لمالك ولشعبة ولوكيع ولكبار الثقات فدع عنك الخبط وذر خلط الائمة الاثبات بالضعفاء والمخلطين فهشام شيخ الاسلام » قال الذهبي هذا ردا على من زعم ان هشاما اختلط وتغير في آخر عمره .

(٢) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : محمد رشيد رضا ص ١٣٩ - ١٤٠

(٣) سورة الاعراف من الآية ١٦٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ٥٨ .

البخاري في تفسير السورتين[1] من طريق همام بن منبه اخي وهب وهما صاحبا الغرائب في الاسرائيليات ولم يصرح ابو هريرة بسماع هذا من النبي ﷺ فيحتمل انه سمعه من كعب الاحبار اذ ثبت انه روى عنه وهذا مدرك عدم اعتماد الاستاذ رحمه الله تعالى على مثل هذا من الاسرائيليات وان صح سنده (!!) ولكن قلما يوجد في الصحيح المرفوع شيء يقتضي الطعن في سندها »[2] .

وقال في موضع آخر بعد بيان تفسير الجلال الآية في سورة البقرة بما ورد في صحيح البخاري « وأقول ان ما اختاره الجلال مروى في الصحيح ولكنه لا يخلوا من علة اسرائيلية »[3] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾[4] قال السيد رشيد : « واقوى الاحاديث الواردة في طلوع الشمس من مغربها ما رواه البخاري في كتاب الرقاق « عن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت في ايمانها خيرا) أ. هـ . . وأخرجه ايضا احمد ومسلم وابو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم »[5] ثم قال « هذا وان ابا هريرة رضى الله عنه لم يصّرح في هذه الاحاديث بالسماع من النبي ﷺ فيخشى ان يكون قد روى بعضها عن كعب الاحبار وامثاله فتكون مرسلة ولكن مجموع الروايات عنه وعن غيره تثبت هذه الآية بالجملة فننظمها

---

(١) يقصد سورتي البقرة والاعراف .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣٤٨ .
(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٢٥ .
(٤) سورة الانعام : من الآية ١٥٨ .
(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

في سلك المتشابهات ونحمل التعارض بين الروايات وما في بعضها من مخالفة الادلة القطعية على ما اشرنا اليه من الاسباب كالرواية عن مثل كعب الاحبار من رواة الاسرائيليات (والله اعلم)»[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ ايام﴾[2] الآية قال السيد رشيد « وفي حديث أخرجه احمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن ابي هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت . . الحديث » ثم قال « ان كل ما روى في هذه المسألة من الاخبار والآثار مأخوذ من الاسرائيليات لم يصح فيها حديث مرفوع ، وحديث ابي هريرة هذا وهو اقواها مردود بمخالفة متنه لنص كتاب الله (!!) واما سنده فلا يغرنك رواية مسلم له به (!!) فهو قد رواه كغيره عن حجاج بن محمد الاعور المصيص عن ابن جريج وهو قد تغير في آخر عمره وثبت انه حدّث بعد اختلاط عقله كما في تهذيب التهذيب وغيره والظاهر (!!) ان هذا الحديث مما حدّث به بعد اختلاطه »[3] .

وقد تقدم بيان ردهم لحديث الجساسة عند ذكر تحذيرهم من الاسرائيليات ولن نذهب في ذكر ما ردوه من الاحاديث الصحيحة التي تخالف ما ذهبوا اليه في تفسير الآيات ، ولكن نختم ذلك ببيان شكل دقيق من اشكال ردهم للاحاديث وهو اغفال ذكرها عند تفسير الآية وذكر التفسير الذي ينحلوا لهم من غير رجوع الى الحديث او بيان وروده .

قال الاستاذ : احمد مصطفى المراغي في تفسير قوله تعالى ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[4] « والمغضوب عليهم هم الذين بلغهم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٢١٠ ـ ٢١١ .
(٢) سورة الاعراف : من الآية ٥٤ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٤٤٩ .
(٤) سورة الفاتحة : من الآية السابعة .

الدين الحق الذي شرعه الله لعباده فرفضوه ونبذوه وراءهم ظهريا وانصرفوا عن النظر في الادلة تقليدا لما ورثوه عن الآباء والاجداد . . . والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق او لم يعرفوه على الوجه الصحيح وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة او بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيه الحق »[١] .

قال السيوطي رحمه الله تعالى « رأيت من حكى في تفسير قوله تعالى ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ نحو عشرة اقوال وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين واتباعهم حتى قال ابن ابي حاتم لا اعلم في ذلك اختلافا بين المفسرين »[٢] .

وقال المراغي ايضا في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] « اي ان الزلزلة التي تكون حين قيام الساعة قبل قيام الناس من أجداثهم . . الخ »[٤] قال الالوسي في تفسيره « اخرج احمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائي والترمذي والحاكم وصححاه عن عمران بن حصين قال لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَاالنَّاسُ﴾ ـ الى قوله ـ ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[٥] كان ﷺ في سفر فقال (اتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله تعالى ورسوله اعلم قال (ذلك يوم يقول الله تعالى لآدم عليه السلام ابعث بعث النار الخ) ثم قال وحديث البعث مذكور في الصحيحين وغيرهما لكن بلفظ آخر وفيه كالمذكور ما يؤيد كون هذه الزلزلة في يوم القيامة »[٦] .

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ٣٧ .

(٢) الاتقان : للسيوطي جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٣) سورة الحج من الآية الاولى .

(٤) تفسير المراغي : احمد المراغي جـ ١٧ ص ٨٤ .

(٥) سورة الحج الآيتين الاولى والثانية .

(٦) تفسير روح المعاني : لأبي الفضل شهاب الدين محمود الالوسي جـ ١٧ ص ١١٠ - ١١١ .

وقال الشيخ عبد القادر المغربي في تفسير ، ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[1] اي اعطيناك يا محمد الخير الكثير . . الخ »[2] وقد تقدم بيان ما ورد في الكوثر من الحديث الصحيح .

فلنكتف بما ذكرنا من الشواهد في موقفهم من تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية وهذا منهج لا نكتفي ببيان عدم موافقتنا لهم في سلوكه ، فهم في منهجهم هذا لا يفرقون بين كتب الحديث فسيان عندهم ما رواه البخاري ومسلم وما رواه غيرهما من حيث القبول والرد فيرفضون من ذلك ما لا يتفق مع ما ذهبوا اليه او يزعمون انه خبر آحاد لا يثبت الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا .

وهذا هدم للجانب الاكبر من السنة التي هي بالنسبة للكتاب بمنزلة المبيِّن من المبيَّن . وقد قالوا ان البيان يلتصق بالمبين[3] .

فلنحذر من سلوك هذا المنهج الخطير ولنعد الى حظيرة السلف ولنلتزم ما التزموه من تقدير لحديث رسول الله ﷺ ولنقدمه على آرائنا الشخصية بل لنضرب بها عرض الحائط في مقابلة حديث رسول الله ﷺ الصحيح كما قال سلفنا . وليس في هذا انتقاص لعقولنا ولا لافهامنا ولكنه تكريم لها بسلوكها المنهج الاسلم والاعلم . والله الموفق والهادي الى سواء السبيل .

---

(١) سورة الكوثر : الآيتين : ١ و٢ .
(٢) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص : ٨٩ .
(٣) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي : جـ ٣ ص ٢٤١ .

الأساس العاشر

إنكار التقليد وذمّه والتحذير منه

يطلق التقليد ويراد به في عرف الفقهاء « قبول قول الغير من غير حجة » ولا يسمى الاخذ بالكتاب او السنة او الاجماع تقليدا لأن ذلك هو الحجة في نفسه[1] .

ولا يصح سلوك طريق التقليد لاثبات العقيدة فلا بد لكل مسلم ان يسلك طريق العلم والمعرفة في اثبات ما يجب عليه اعتقاده فيثبت ما يثبت عن معرفة واقتناع لا عن طريق التقليد والاتباع الخاليين من معرفة الدليل .

وقد ذمّ الله في آيات كثيرة من سلك منهج التقليد في اثبات العقيدة : ـ قال تعالى : ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء

---

(١) انظر روضة الناظر وجنة المناظر : ابن قدامة المقدسي ص ٢٠٥ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٠ .
(٣) سورة المائدة الآية : ١٠٤ .

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] وقال عز شأنه عن ابراهيم وقومه ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[2] وقال عز وجل ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[4] وقال سبحانه ﴿ وَكَذَ لِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[5] وقال سبحانه : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[6] وقال سبحانه عن المشركين ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[7] وقال سبحانه ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـهاً وَاحِداً لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[8] وقال سبحانه موجها عباده للطريق السليم ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[9] .

---

(١) سورة الاعراف الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الانبياء الآيات : ٥٢ ـ ٥٤ .

(٣) سورة الشعراء الآية : ٧٤ .

(٤) سورة لقمان الآية : ٢١ .

(٥) سورة الزخرف الآيات : ٢٣ ـ ٢٥ .

(٦) سورة الاعراف من الآية : ٧٠ .

(٧) سورة هود من الآية : ٦٢ .

(٨) سورة التوبة الآية : ٣١ .

(٩) سورة الاعراف من الآية الثالثة .

كل هذا من الآيات الكريمة وغيرها كثير ذمّ اشنع ذم مقلدي آبائهم في العقائد الفاسدة الضالة ورفضهم اتباع الحق لمخالفته ما توارثوه عن ابائهم . لهذا فلا خلاف بين العلماء رحمهم الله - يذكر - في النهي عن التقليد في حانب العقائد

بقي امر التقليد فى الاحكام الشرعية الفقهية ، ولنحدّد موضع الخلاف في هذا . فان كل ما نص عليه الكتاب والسنة نصا صريحا لا يجوز العدول عنه الى ما يؤدي اليه الاجتهاد وكذا ما اجمع عليه علماء المسلمين لا يصح لاحد ان يخالف فيه .

فانحصر موضع الخلاف في الاجتهاد او التقليد في الاحكام الشرعية التي لم ينص عليها في كتاب ولا سنة ولم يجمع على حكمها علماء الأمة في عصر من العصور .

واذا نظرنا بعد هذا الى ما تبقى وجدناه شيئا[1] لا يستحق هذا الخلاف العظيم الكبير الذي اثير حول الموضوع وجاوز حدوده المشروعة فكفر بعضهم بعضا ووصفهم بأوصاف المشركين بله اليهود والنصارى ، وهذا امر لا نرتضيه ولا نسيغه ، فأمر تكفير المسلم من الخطورة على قائله بمكان .

وقد وقع اختلاف شديد بين علماء المسلمين في الاجتهاد او التقليد فيما تبقى من الاحكام الشرعية من غير نص في كتاب او سنة او اجماع فذهبت طائفة منهم الى ذم التقليد والتحذير منه وذهبت طائفة اخرى الى تأييد التقليد والقول والعمل به .

ولئن كان لا يسعنا هنا استقصاء الموضوع وتفصيل ابحاثه فانه لا يسعنا ايضا الا ان نشير الى ادلة مبطلي التقليد ، وان نشير الى ادلة مؤيدي التقليد

---

(١) قال الشيخ زاهد الكوثري عن الفقهاء « وهم على اتفاق في نحو ثلثي مسائل الفقه والثلث الباق هو معترك آرائهم . . » مقالات الكوثري ص ١٣٢ قلت : وهذا الثلث ليس فيه من المسائل في عظمها وخطورتها مما في الثلثين . فما تبقى أقل كمية واهمية والله اعلم .

حتى يكون لدينا ما نستطيع ان نعرف به تطرف المتطرفين واعتدال المعتدلين في الرفض او القبول .

من أدّلة مبطلي التقليد : -

ذهب هؤلاء الى الاستدلال لاثبات رأيهم بأدلة كثيرة جدا يصعب حصرها هنا فمن ذلك :

١ - الآيات التي وردت في ذمّ المقلدين في العقائد ، حملها بعضهم على ذمّ المقلدين عموما في العقائد والاحكام . قال ابن القيم رحمه الله تعالى « وقد احتج العلماء بهذه الآيات في ابطال التقليد ولم يمنعهم كفر اولئك من الاحتجاج بها . لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر احدهما وايمان الآخر ، وانما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد . . وان اختلفت الآثام فيه »[١] .

ويرد على هذا بعض القائلين بالتقليد فيقول « لما كان التقليد نوعان : تقليد لمخالفة الحق وتقليد لاتباع الحق ، والاول حرام والثاني واجب فالاحتجاج بالآيات الدالة على حرمة النوع الأول من التقليد على حرمة النوع الثاني منه لا شك انه من تلبيس الحقّ بالباطل »[٢]

٢ - واستدلوا ايضا بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . .﴾الآية[٣] وبقوله سبحانه ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواعَلَى

---

(١) اعلام الموقعين : ابن القيم جـ ٢ ص ١٩١ .

(٢) انهاء السكن الى من يطالع اعلاء السنن : للعلامة ظفر احمد العثماني التهانوي جـ ٢ ص ٨ .

(٣) سورة الاسراء من الآية ٣٦ .

اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١) وقوله عزّ شأنه ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾(٢) وقوله سبحانه ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾(٣) ونحو ذلك من الآيات الكريمة .

٣ ـ قالوا ان التقليد بدعة محدثة لأنا نعلم بالقطع انه لم يكن في عصر الصحابة وعصر التابعين ولا تابعي التابعين ، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ ، وانما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ(٤) .

٤ ـ وقالوا يقال للمقلد هل تدعي عصمة متبوعك او تجوز عليه الخطأ ؟ والاول لا سبيل اليه بل تقّر ببطلانه فتعين الثاني ، واذا جوّزت عليه الخطأ فكيف تحلل وتحرم . . . بقول من أنت مقرّ بجواز كونه مخطئا(٥) .

٥ ـ وقالوا ايضا ان الأئمة الأربعة صرحوا بالنهي عن التقليد فانه قد صح عن كل واحد منهم هذا المعنى من طرق متعددة فقد قيل لابي حنيفة رحمه الله تعالى اذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه قال اتركوا قولي بكتاب الله ، فقيل له اذا كان خبر الرسول ﷺ يخالفه قال اتركوا قولي بخبر الرسول ﷺ فقيل له اذا كان قول الصحابي يخالفه فقال اتركوا قولي بقول الصحابي . وقال مالك رحمه الله تعالى انما انا بشر اخطىء واصيب فأنظروا في رأيي كل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه ، وقال

---

(١) سورة الاعراف الآية ٣٣ .
(٢) سورة النساء من الآية ٥٩ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٦ .
(٤) اعلام الموقعين : ابن القيم جـ ٢ ص ٢٠٨ .
(٥) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢١٠ .

الشافعي رحمه الله تعالى اذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت ، قال الشوكاني رحمه الله تعالى واما الامام احمد بن حنبل فهو اشد الأئمة الاربعة تنفيرا عن الرأي وابعدهم عنه والزمهم الى السنة . . واذا تقرر لك اجماع ائمة المذاهب الأربعة على تقديم النص على آرائهم عرفت ان العالم الذي عمل بالنص وترك قول اهل المذاهب هو الموافق لما قاله ائمة المذاهب والمقلد الذي قدّم اقوال المذاهب على النصّ هو المخالف لله ولرسوله ولامام مذهبه ولغيره من سائر علماء الاسلام[1] .

ولنكتفي بما ذكرنا من ادلتهم ولنذكر بعد هذا بعض ادلة القائلين بالتقليد فمن ذلك : -

١ - انهم استدلوا بقوله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] فان الله سبحانه وتعالى أمر من لا يعلم بسؤال اهل الذكر ، ولا شك ايضا ان جوابهم هو الواجب عليه وقد أبرأ ذمته بسؤالهم . واستدلوا ايضا بقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[3] وقالوا ان أولى الأمر هم العلماء وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به . . وغير ذلك من الآيات .

٢ - واستدلوا بحديث العسيف ونحوه حيث قال ابو العسيف اني سألت اهل العلم فأخبروني انما على ابني جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ تقليد اهل العلم وهم قد اخبروه بالحكم الشرعي ولم يحدثوه حديثا على وجه الرواية . ومع ذلك قلدهم هو ولم ينكره عليه رسول الله ﷺ . فدل ذلك على أن فتوى اهل العلم

---

(١) القول المفيد في ادلة الاجتهاد والتقليد : محمد بن علي الشوكاني ص ٢١ - ٢٣ .

(٢) سورة النحل : من الآية : ٤٣ .

(٣) سورة النساء من الآية : ٥٩ .

حجة على الجاهل وان لم يقولوا حدثنا فلان عن فلان ـ الى آخره[1] واستدلوا بحديث صاحب الشجة « ألا سألوا اذ لم يعلموا انما شفاء العي السؤال » وهو توبيخ منه ﷺ لهم لعدم سؤالهم مع عدم علمهم وغير ذلك من الحديث .

٣ ـ وقالوا ان اصحاب رسول الله ﷺ فتحوا البلاد وكان الناس حديثي عهد بالاسلام وكانوا يفتونهم ولم يقولوا لاحد منهم عليك ان تطلب معرفة الحق في هذه الفتوى بالدليل . اما ادعاء ان كل ما كانوا يفتون به كان بنقل قول الرسول ﷺ وفعله وأمره فباطل كما لا يخفي على من عرف فتاواهم ، ولو كان كذلك لم يكن بمجرد النقل بل كان ممزوجا بالاجتهاد لأنه انما ينقل ما ينقل على حسب ما فهمه من قوله او فعله او امره ﷺ وقد يخطىء الناقل في ذلك وقد يصيب فكان حاصل نقلهم انا فهمنا من قول الرسول ﷺ وأمره وفعله كذا والناس كانوا يتبعونهم في ذلك وهو التقليد[2] .

٤ ـ وقالوا لو كان التقليد غير جائز لكان الاجتهاد واجبا على كل فرد من افراد العباد وهو تكليف ما لا يطاق فان الطباع البشرية متفاوته فمنها ما هو قابل للعلوم الاجتهادية ومنها ما هو قاصر عن ذلك وهو غالب الطباع ، وعلى فرض انها قابلة له جميعها فوجوب تحصيله على كل فرد يؤدي الى تبطيل المعايش التي لا يتم بقاء النوع بدونها فانه لا يظفر برتبة الاجتهاد الا من جرّد نفسه للعلم في جميع اوقاته على وجه لا يشتغل بغيره فحينئذ يشتغل الحراث والزراع والنساج والعمار ونحوهم بالعلم وتبقى هذه الاعمال شاغرة معطلة فتبطل المعايش بأسرها »[3] .

---

(١) انهاء السكن الى من يطالع اعلاء السنن : ظفر احمد العثماني التهانوي جـ ٢ ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٣٩ .

(٣) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد : محمد بن علي الشوكاني ، ص ٣٨ .

٥ ـ وقالوا ان الأئمة صرحوا بجواز التقليد حيث قال محمد بن الحسن يجوز للعالم تقليد من هو اعلم منه ولا يجوز له تقليد من هو مثله وقد صرّح الشافعي بالتقليد حيث قال في موضع : ـ « قلت هذا تقليدا لعمر » وفى موضع آخر « قلته تقليدا لعثمان » وفي موضع آخر « قلت بقول زيد وعنه قلنا اكثر الفرائض » وفي موضع آخر « قلته تقليدا لعطاء » وهذا ابو حنيفة قال في مسائل الآبار ليس فيها معه الا تقليد من تقدمة من التابعين ، وهذا مالك لا يخرج من عمل اهل المدينة ويصرح في موطأه بأنه أدرك العمل على هذا وهو الذي عليه اهل العلم ببلدنا ويقول في غير موضع « ما رأيت أحدا أقتدى به يفعله »[١] .

وغير ذلك كثير من الادلة على جواز التقليد مما ليس في وسعنا ذكره وحصره هنا .

تحقيق القولين :

قلنا آنفا انه لا تقليد في العقائد بل يجب على المسلم ان يعرف بنفسه ادلة وجود الله سبحانه وثبوت الرسالة ونحو ذلك من غير تقليد .

وانه لا يصح الاجتهاد فيما نص عليه الكتاب او السنة او اجمع عليه علماء المسلمين ، فانحصر الخلاف فيما تبقى وهو الأقل عددا واهمية وهو الذي حصل النزاع فيه بين الاجتهاد والتقليد .

وان قبل مني ارباب العلم تطفلي عليهم بعد النظر في ادلة هؤلاء وهؤلاء فاني اقول رأيا لم أر ـ فيما قرأت ـ من قال به ذلكم ان كلا الفريقين فيهما المتطرف ، والمعتدل . .

اما الاعتدال فاني اشبّه المعتدلين من كلا الفريقين برجلين ينظران الى

---

(١) انهاء السكن الى من يطالع اعلاء السنن : ظفر احمد التهانوي جـ ٢ ص ٣٧ .

لوح امامهما نصفه اسود ونصفه الآخر ابيض ويقول أحدهما مشيرا الى اللوح هذا اللوح نصفه ابيض ويقول الآخر مشيرا الى اللوح نفسه بل نصفه اسود وكلاهما على حق وكلاهما على صواب .

ما اشبه المعتدلين من القائلين بالتقليد والقائلين بالاجتهاد بهذين الرجلين ، ذلكم ان المعتدلين من القائلين بالتقليد اباحوا الاجتهاد لمن بلغ رتبته وتمكن منه ، وأوجبوا التقليد على من لم يبلغ ذلك ، وكذا انصار الاجتهاد يقولون بوجوبه مع توفر شروطه وبلوغ رتبته وجوزوا لمن دون ذلك التقليد ومن هؤلاء ابن القيم وقد عرف عنه رحمه الله تعالى الدعوة الى الاجتهاد الا انه يقول « وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما انزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو اعلم منه فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور »[١] .

فها انت ترى ابن القيم يجيز للمجتهد في بعض المسائل التقليد فيما خفى عليه فاباحته لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد في كل المسائل اوضح .

بل حكى ابن قدامه رحمه الله تعالى الاجماع على جواز التقليد في الفروع[٢] وقال ابن عبد البر « ولم تختلف العلماء ان العامة عليها تقليد علمائها وانهم المرادون بقول الله عزّ وجل ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[٣] .

ومن هذا ونحوه يتبين لنا ان المعتدلين من هؤلاء وهؤلاء لا خلاف بينهم بل هم متفقون في المعنى مختلفون في العبارة .

وقد تطرفت طائفة من دعاة التقليد فاغلقت باب الاجتهاد وحذرت الحنبلي من الصلاة خلف الشافعي والمالكي من الصلاة خلف الحنفي ونحو

---

(١) اعلام الموقعين : ابن القيم جـ ٢ ص ١٨٨ .
(٢) روضة الناظر وجنة المناظر : ابن قدامه ص ٢٠٦ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله : ابن عبد البر جـ ٢ ص ١٤٠ .

ذلك بل كانت الصلاة في عصر من العصور في بعض البلدان الاسلامية تقسم اوقاتها في المسجد الواحد على حسب المذاهب فيصلي اولا اتباع المذهب الفلاني ثم اتباع المذهب الآخر وهكذا الى ان تتم المذاهب الأربعة . وهذا امر خطير لا نرتضيه ولا نقره فهو مخالف لقوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾(1) وهو تفريق للمسلمين الى طوائف اربع . ونحمد الله على زواله وندعوه سبحانه ان لا يعيده على المسلمين .

واخطر من هذا واشد تفريقا للمسلمين من فرقهم لا الى فرق اربع ولا الى اربعة الآف بل الى ان يكون كل مسلم وحده فرقة مستقلة ذلكم هو التطرف في الدعوة الى الاجتهاد .

وقد اوقعهم ذلكم التطرف في اخطاء واخطار جسام هي اعظم واشد خطرا على عقيدة المسلم مما حذروا منه .

وصف بعضهم المقلدين بأوصاف المشركين !!! فقال « وليس على المسلم ان يلتزم واحدا منها ـ اي من المذاهب ـ بعينه بل من التزم واحدا منها بعينه في كل مسائله فهو متعصب مخطىء مقلد تقليدا اعمى !! وهو ممن فرقوا دينهم وصاروا شيعا »(2) .

هذا ما قاله بعضهم وحتى تعرف حكم الله تعالى فيمن فرقوا دينهم وكانوا شيعا اقرأ قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(3) .

ما اخطر ان يوصف مسلم مؤمن ليس له ذنب الا انه عامي امي لا

---

(1) سورة آل عمران من الآية ١٠٣ .

(2) هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة ؟ محمد بن سلطان الخجندي ص ٤٠ .

(3) سورة الروم من الآيتن : ٣١ ـ ٣٢ .

يحسن قرآءة ولا كتابة فضلا عن الاجتهاد ، فلم يجد الا طريق التقليد ولم يجد في بلده الا المذهب الفلاني فقلده . . ما اخطر ان يوصف هذا بأنه من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ؟ ! انها فرية نبرأ الى الله منها .

وتطرفوا في فتح باب الاجتهاد وجعلوا بلوغ رتبته امرا سهلا فقالوا « وتحصيل هذه الطريقة سهل لا يحتاج اكثر من الموطأ والصحيحين وسنن ابي داود وجامع الترمذي والنسائي وهذه الكتب معروفة مشهورة يمكن تحصيلها في اقرب مدة فعليك بمعرفة ذلك »[1] !!

الى هذا الحدّ بلغ الأمر ونسوا او تناسوا انه يشترط في المجتهد ما هو اكثر من الحصول على هذه الكتب بل ان الاكتفاء بهذه الكتب قد يوقع مطالعها وحدها في حيرة عند بعض احاديثها المتعارضة اذا لم يكن لديه من العلم ما يفرق به بين ناسخها ومنسوخها وبين صحيحها وضعيفها وموضوعها ونحو ذلك .

وتناسوا انه يشترط في المجتهد ان يكون فقيها اي عالما بأصول الفقه وما يستمد منه عالما بالادلة السمعية واختلاف مراتبها فمن الكتاب والسنة ما يتعلق بالاحكام ، عالما بالناسخ والمنسوخ منها وبصحة الحديث وضعفه سندا ومتنا ، عالما بالنحو واللغة ما يكفيه فيما يتعلق بهما من نص وظاهر ومجمل ومبين وحقيقة ومجاز وامر ونهي وعام وخاص ومستثنى ومستثنى منه ومطلق ومقيد وان يكون عالما بما اجمع عليه العلماء المسلمون وباسباب النزول واسباب ورود الحديث[2] .

ومن هذا تعرف ما اشترطه سلفنا في بلوغ رتبة الاجتهاد وتعرف تطرف هؤلاء في فتح باب الاجتهاد .

---

(١) هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة ؟ محمد بن سلطان المعصومي الخجندي المكي ص ٧ .

(٢) شرح الكوكب المنير : شهاب الدين احمد الفتوحي ص ٣٩٤ - ٣٩٦ .

ومن بلغ هذه الرتبة في عصرنا هذا اختفى او كاد في خضمّ مدعي بلوغ تلك الرتبة ، فكم ادعاها من رجل لا يعرف من الشريعة الا بضع آيات والا بضع احاديث اختلط عليه صحيحها بضعيفها وناسخها بمنسوخها . لا يكاد يفرق بين هذا وذاك .

وكم ادعاها من رجل امسك بدفتي المصحف وهو شبعان على اريكته وقال « عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » .

وكم ادعاها من رجل يريد الاتيان بجديد يلفت الانظار اليه . وكم ادعاها من رجل اضطرب فكره وحار عقله وضل سبيله حينما رأى ما بين المسلمين في هذا العصر وبين الكفار من فاصل « حضاري » فاراد من امته اللحاق بركبها فمهد لها السبيل بما اوحى اليه عقله من ازالة تلك العقبات واعطى لنفسه الحق في بيان حكمها في الشريعة الاسلامية .

وليس هؤلاء الادعياء بالذين يغلق باب الاجتهاد لاجلهم عن العلماء كافة من يستحق ومن لا يستحق . ولكن الحق ان باب الاجتهاد مفتوح لمن توفرت فيه شروط الاجتهاد .

فمن رأى في نفسه توفر شروط الاجتهاد وجب عليه ذلك ، ولكن لا يوجب تقليده على احد ولا يصح لاحد ان يقلده الا اذا كان عدلا عنده .

وشدّد هؤلاء منكرو التقليد ـ فقرنوا فقه المذاهب بالانجيل كتاب النصارى فقال احدهم معلقا على احد الاحاديث النبوية « هذا صريح في ان عيسى عليه السلام يحكم بشرعنا ويقضي بالكتاب والسنة لا بغيرهما من الانجيل او الفقه الحنفي ونحوه »[1] !! ولو قال هذا رجل عامي لعظمت المصيبية فكيف اذا قاله رجل ينتسب الى علماء المسلمين .

---

(١) مختصر صحيح مسلم : للمنذري تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٤٨ .

وخلاصة القول

ان المعتدلين وان اختلفت عباراتهم فهم متفقون في المعنى ولكن الاختلاف الشديد والخطير في موقف المتطرفين من الفريقين فما موقف المدرسة العقلية الحديثة من ذلك ؟

موقف المدرسة العقلية الحديثة : -

من الواضح البين ان موقفهم من التقليد قد تولد من موقفهم من العقل ، فهم حينما حكموا العقل ورضوا به اماما وهاديا ومرشدا قدموه على النص او اولوا النص بما لا يخالف العقل وردوا كثيرا من الاحاديث الصحيحه لزعمهم انها مخالفة للعقل .

من يفعل هذا في السنة النبوية ففعله له في اقوال السلف الصالح اشد واعظم ومن ردّ صحيح الحديث فرده لقول الشافعي ومالك وغيرهما رحمهم الله اجمعين اسرع واسبق ، وهو ما كان منهم ، فلا تكاد تقرأ في كتاب من كتبهم ولا في صحيفة من صحفهم او مجلة الا ورأيت ذمهم للتقليد واهله ووصفهم بأبشع الأوصاف ورأيت دعوتهم الى الاجتهاد .

وتطرفهم في ذلك معلوم لا يخفي ، فاجتهد منهم من هو ليس من اهل الاجتهاد وخرجوا بآرآء جديدة وقالوا ما خالف الحق والصواب .

اما منزلة هذه الدعوة في مدرستهم فيصرح بها استاذ هذه المدرسة الشيخ محمد عبده حينما جعل تحرير الفكر من قيد التقليد اول امر دعا اليه حيث قال « . . ثم لم البث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاستمرار على ما يألفون واندفعت الى طلب شيء مما لا يعرفون فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت اليه وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الأولى

واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه . . وقد خالفت في الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة ـ طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم »(١)

اذن فالباعث له الى ترك التقليد وذمة « السأم من الاستمرار على ما يألفون والاندفاع الى طلب شيء مما لا يعرفون » !! ولا ادري متى كان السأم منهجا للتغيير في الدين والتحول من حال الى حال وما يدرينا لعل السأم يكون في يوم من الايام داعيا لطائفة من الناس الى نبذ الكتاب والسنة !

اما السيد جمال الدين الافغاني فقال عنه احد اتباعه « عرف جمال الدين باستنكافه ونفوره من التقليد من غير تمحيص فكان يأخذ بالاحسن من الاقوال ويرد الضعيف منها ويجتهد للاستنباط للاولى ويتناول الاقرب للصواب وما يقبله العقل »(٢) .

عجبا اي اجتهاد يحق لمن قال في وصف رجل « هذا رجل من نسل البقروت» فعابوا عليه استعمال بقروت فأجاب ألا تقولون جبروت وملكوت ورهبوت فلماذا تمنعون عني قول بقروت فقالوا ان بقروت لم ترد في كلام العرب فقال وهل تريدون مني ان انكر نفسي »(٣) ؟ !

ذكروا يوما عنده رأيا للقاضي عياض فقال « يا سبحان الله ان القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه وناسب زمانه فهل لا يحق لغيره ان يقول ما هو أقرب للحق وأوجه واصح من قول القاضي عياض او غيره من الأئمة ؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند اقوال اناس هم انفسهم لم يقفوا عند حد اقوال من تقدمهم . . ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١١ .
(٢) خاطرات جمال الدين الافغاني : جمع محمد المخزومي ص ١١١ .
(٣) جمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ص ١١٠ .

نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أي أمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي ان يجتهد ليتفقه بالدين ؟! أو أن يهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان واحكامه ولا ينافي جوهر النص »[١] .

ثم وضح السيد الافغاني شروط الاجتهاد فقال « فمن كان عالما باللسان العربي[٢] وعاقلا غير مجنون ، وعارفا بسيرة السلف وما كان من طرق الاجماع وما كان من الاحكام مطبقا على النصّ مباشرة او على وجه القياس وصحيح الحديث جاز له النظر في احكام القرآن وتمعنها والتدقيق فيها واستنباط الاحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس »[٣] .

عودة الى استاذ هذه المدرسة الشيخ محمد عبده لنسمع منه تلك الشنشنة التي يكررها في ذم الفقهاء . مع اني اعتقد ـ وهذا رأي ـ ان الايمان الصادق يمنع صاحبه من التلفظ بهذه الاوصاف الشنيعة في حقّ فقهاء المسلمين ـ قال الشيخ بعد ذكر بعض الآراء الفقهية : ـ

« ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة »[٤] ولم يكتف بهذا الوصف الخطير بل اكمل « ان اليهود لم تحرف التوراة اكثر مما حرفوا »[٤] . !! حاولت ان احمل كلامه على قصد طائفة من الفقهاء وهو امر على خطورته وشدته اهون من شمول الفقهاء كلهم لولا انه نص في أول كلامه « ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الأربعة وربما غيرهم أيضا »[٤] هذا ما قاله الشيخ وان عرض بعض الكلام يكفي لاظهار مساوئه من غير كشف وبيان وهو ما نلتزمه هنا .

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني : جمع محمد المخزومي ص ١١١ .
(٢) قارن هنا بين قوله « بقروت » واباحته الاجتهاد لنفسه ؟!!
(٣) خاطرات جمال الدين الافغاني : جمع محمد المخزومي ص ١١٢ .
(٤) تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤١ ـ ٩٤٢ .

اما بلوغ رتبة الاجتهاد فهو امر سهل المنال عنده قال « فرض الاسلام على كل ذي دين ان يأخذ بحظه من علم ما اودع الله في كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تخص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات »(١) .

وبعد تلميذه الشيخ رشيد رضا ما اشترط في بلوغ رتبة الاجتهاد افتياتاً على الله ونسخا لكتابه . . الخ « وان في اطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بايجاب تقليد المجتهدين في امور الدين وتحريم الاخذ بالدليل فيه ـ لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل مستقل للتشريع ـ لا فتياتا على دين الله ونسخا لكتاب الله وشرعا لم يأذن به الله خلاصته تحريم العلم وايجاب الجهل وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل وهو اقطع المدى لاوصال الاسلام وافعل المعاول في هدم قواعد الايمان وعلة العلل لانتشار البدع التي ذهبت بهداية الدين واستبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين »(٢) .

وقال الاستاذ الامام محمد عبده في تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣) « علم القرآن اهله ان يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة وجدير بصاحب اليقين ان يطالب خصمه به ويدعوه اليه وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالديل وطلبوا بالدليل ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد حتى كأن الاسلام خرج عن حدّه او

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٢) تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١١٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١١١ .

انقلب الى ضده وصار الذين يعلمون ان الاسلام امتاز عن سائر الاديان بابطال التقليد وبالمطالبة بالبرهان والدليل وعلّم الناس استقلال الفكر مع المشاورة في الأمر يطالبون المسلمين بالرجوع الى الدليل ويعيبون عليهم الاخذ بقال وقيل وياليته كان الاخذ بقال الله وقيل فيما يروى عن رسول الله ولكنه الاخذ بقال فلان وقيل عن علان ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[1][2] وقال « انظر كيف الحقَ التقليد اهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الالهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئا ؟ هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم في كل زمان وكل مكان »[3] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾[4] قال الاستاذ محمد عبده : ـ « لولا ان حيل بين المقلدين وهداية القرآن لكان لهم فى هذه الآية اشد زلزال لجمودهم على اقوال الناس وآرائهم في الدين سواء كانوا من الاحياء ام الميتين وسواء كان التقليد في العقائد والعبادات ام في احكام الحلال والحرام اذ كل هذا مما يؤخذ عن الله ورسوله ليس لاحد فيه رأي ولا قول الا ما كان من الاحكام متعلقا بالقضاء »[5] وقال « في مثل هؤلاء المتبوعين والتابعين نزل قوله تعالى في سورة الاعراف ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[6] فكل يؤاخذ بعمله فاذا حمل

---

(١) سورة النجم : الآية ٢٣ .

(٢) تفسير المنار : السيد رشيد رضا جـ ١ ص ٤٢٥ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٤٣٠ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٦ .

(٥) تفسير المنار : جـ ٢ ص ٧٩ .

(٦) سورة الاعراف من الآيتين : ٣٨ ـ ٣٩ .

الأول الآخر على رأيه ودعاه الى اتباعه فيه او في رأي غيره الذي يقلده هو فيه فهو من الأئمة المضلين وعليه اثمه ومثل اثم من اضلهم من غير ان ينقص من اثمهم شيء اذ حرم الله عليه اتخاذ الانداد من دون الله فاتخذوهم »[١] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٢] قال محمد عبده « فما جرى عليه المقلدون من المسلمين من الأخذ باراء بعض الفقهاء في العبادات والحلال والحرام هو عين ما انكره كتاب الله تعالى على اهل الكتاب وجعله منافيا للاسلام بل جعل مخالفتهم فيه هي عين الاسلام . فليعتبر المعتبرون »[٣]

واستميحكم عذرا ان تقبلوا مني دعوة للاستماع الى ما يريده الشيخ محمد عبده من الفقهاء « ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟ هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الاحكام الشرعية ولجوءوا الى غيرها . ان اهل بخاري جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على اغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص[٤] فاضطر الناس الى الاستدانة من الاجانب بارباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب والفقهاء هم المسؤولون عند الله تعالى عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة لأنه كان يجب عليهم ان يعرفوا حالة العصر والزمان ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (اي كاحكام الضرورات) لا انهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ويتركون لأجلها كل شيء »[٥] .

(١) تفسير المنار : جـ ٢ ص ٧٩

(٢) سورة آل عمران : من الآية : ٦٤ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣٢٧ .

(٤) احس السيد رشيد بخطورة هذه العبارة فقال وهو ينقل النص من مذكرته « كذا في مذكرتي » تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ٩٤٤ .

(٥) تاريخ الاستاذ الامام : السيد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤٤ .

أرأيتم ما يريده الشيخ من الاجتهاد ؟! يريده ان يخضع الاحكام للزمان فينظر في حكم الربا بين المسلمين حتى لا تخرج الاموال الربوية الى الكفار وما يدرينا لعله يأتي يوم يطالب به الفقهاء ـ بناء على هذا ـ اباحة بيع المسلمين للخمر حتى لا يحتكره الكفار ، بل يبيح احدهم الفطر في رمضان والغاء شهر الصيام لكون الدولة في حاجة الى اليد العاملة وهي لا تستطيع العمل في نهار رمضان !! اذن فالمعركة الاقتصادية وضرورتها اباحت الافطار في شهر رمضان(1) .

ثم لندع الشيخ محمد عبده يشرح لنا الطريق لاصلاح الفقه !! قال « اذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزيلعي نكون قد خطونا خطوة لاصلاح الكتب والفقه ، وما دمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم الا منها فلا نزداد الا جهلا »(2) .

وقال السيد رشيد رضا « لا اصلاح الا بدعوة ولا دعوة الا بحجة ولا حجة مع بقاء التقليد فاغلاق باب التقليد الاعمى وفتح باب النظر والاستدلال هو مبدأ كل اصلاح »(3)

ودعا الشيخ محمود شلتوت الى فتح باب الاجتهاد فقال « وهنا نذكر بالاسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التي ترى وقف الاجتهاد واغلاق بابه ونؤكد ان نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن ان تكون عرضه للزوال بكلمة قوم هالهم ـ او هال من ينتمون اليهم من ارباب الحكم والسلطة ان يكون في الأمة من يرفع فيها لواء الحرية في الرأي والتفكير »(4) .

وقال الشيخ احمد مصطفى المراغي في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ

---

(1) انظر « في سبل السنة الاسلامية » : محجوب بن ميلاد ص ٤١٢ .

(2) تاريخ الاستاذ الامام : السيد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤٣ .

(3) الوحدة الاسلامية : محمد رشيد رضا ص (ز)

(4) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٢٠٨ .

لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . الآية ﴾(١) : ـ وفي الآية ارشاد الى منع التقليد لمن قدر على الاجتهاد فاذا اتبع المرء غيره في الدين ممن علم انه على حق كالانبياء والمجتهدين ـ فهذا ليس بتقليد ـ بل اتباع لما انزل الله كما قال تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢) فأقرب الناس الى معرفة الحق هم الباحثون الذين ينظرون في الدلائل بقصد صحيح فانهم اذا اخطأوا يوما اصابوا في آخر ، وابعدهم عن معرفة الحق المقلدون لأنهم قطعوا على انفسهم طريق العلم وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم وهم لا يوصفون باصابة الصواب لأن المصيب من يعرف ان هذا هو الحق والمقلد انما يعرف ان فلانا قال هذا هو الحق فهو عارف بالقول فقط »(٣) .

وقال الشيخ عبد العزيز جاويش « فكل من يعرف لغة القرآن لا ينبغي له بحال ما ان يقلد غيره تقليدا متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح في السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الاجتهاد برغم أنف من ارادوا ان يحجروا على العقول البشرية ويقيموا عليها اوصياء من الاولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا »(٤) .

اما الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر فيقرر « ان الدين في كتاب الله غير الفقه ! ! وان من الاسراف في التعبير ان يقال عن الاحكام التي استنبطها الفقهاء وفرعوا عللها واختلفوا فيها وتمسكوا بها حينا ورجعوا عنها حينا انها احكام الدين وان من انكرها فقد انكر شيئا من الدين فانما الدين هو الشريعة التي اوصى الله بها الى الانبياء جميعا اما القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهي آراء للفقهاء مستمدة من اصولها

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٧٠ .

(٢) سورة النحل من الآية ٤٣ .

(٣) تفسير المراغي : احمد مصطفى آلمراغي جـ ٢ ص ٤٥ .

(٤) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ٧٠ .

الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات وتبعا لاختلاف الامم ومقتضيات الحياة فيها وتبعا لاختلاف البيئات والظروف ولو جاز ان يكون الدين هو الفقه مع ما نرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض وتفنيد كل آراء مخالفيه وعدّها باطلة لحقّت علينا كلمة الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[1] [2] .

لعلي انهج هنا ما نهجته عند ذكر بعض النصوص من الاستغناء بعرضها عن التعليق عليها ، ولكني انقل هنا فهما آخر يضاف الى ما يفهم من ظاهر هذا النص ذلكم هو ما فهمه الشيخ مصطفى صبري رحمه الله تعالى ـ شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقا حيث يقول « يحاول الاستاذ الاكبر المراغي بقوله المنقول من قبل ترويج آخر آمال لهم وتمزيق آخر اوصال للاسلام وهو فصل الدين عن الحكومة فقد رام ان يتوسل اليه بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به »[3] فاذا كان الفقه ليس من الدين فليس على الدولة لزاما ان تنظر اليه وأن تأخذ به في نظامها واحكامها وليس للفقهاء المسلمين حق في التدخل في نظام الدولة وهذا هو فصل الدين عن الدولة .

وربط الشيخ مصطفى صبري بين هذه الدعوى وبين ما دعا اليه علي عبد الرازق من فصل الدين عن الدولة مما سبب قطع رابطته بالازهر ويتأكد هذا حينما يطلب الاستاذ الاكبر المراغي اعادة هذه الرابطة المقطوعة (!!) ثم يتعجب الشيخ مصطفى مما جرى للرجلين احدهما يكون شيخا للازهر والثاني يطرد من الازهر والرأي واحد[4] .

وبعد فان النصوص والشواهد من اقوال الشيخ محمد عبده وتلاميذه

---

(١) سورة الانعام من الآية ١٥٩ .

(٢) مجلة الرسالة العدد ٣٩٦ السنة التاسعة ص ١٢٨ .

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ٤ ص ٣١٤ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣١٩ .

الدالة على ذم التقليد وفتح باب الاجتهاد كثيرة جدا ليس من السهل وليس هدفنا حصرها ، فلنكتفِ بما ذكرنا منها ، ولنعد الحديث بعد هذا ولنذكر بعض اجتهاداتهم بعد اباحتهم الاجتهاد لانفسهم وكأني بأبي الحصين الاسدي رحمه الله تعالى يقصدهم حين قال « ان احدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها اهل بدر »[1] .

وعلق الشيخ مصطفى صبري عندما علم ان الاستاذ الامام محمد عبده تولى منصب المستشار بمحكمة الاستئناف ـ وهي تحكم بالقوانين الفرنسية ـ ومنصب الافتاء بالديار المصرية علق بقوله « فقال القائلون يومئذ شيخ يفتي هنا بقانون الشرع وهناك بقانون فرانسه وأنا اقول : لا غرو في ذلك فان الشيخ لم يكن من العلماء الجامدين وفوق ذلك فانه مجتهد خوّله اجتهاده ان يجمع بين العمل بالقانون الشرعي والقانون الفرانسي !! »[2] .

اما الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر فقد أمر بتشكيل لجنة تنظيم الأحوال الشخصية ، أتدرون بماذا أوصاهم ؟ هل أوصاهم بتقوى الله وتحري الحق في بحوثهم ودراستهم ! ليته فعل ذلك ، بل ليته أمرهم بالاجتهاد الذي يدعو اليه ولكنه أوصاهم بأمر آخر قال : «ضعوا من المواد ما يبدو لكم انه يوافق الزمان والمكان وانا لا يعوزني بعد ذلك ان آتيكم بنصّ من المذاهب الاسلامية يطابق ما وضعتم » !![3] .

هل هذا هو الاجتهاد الذي يدعو اليه ! ان من يفعل هذا لا يعد مجتهدا بل يعد مبتدعا بل زنديقا فقد قالوا « من تخيّر فقد تزندق » أي من تخير ما يوافق هواه من اقوال الفقهاء من هنا وهناك فهو زنديق ، وان من يفعل هذا يريد ان

---

(١) اعلام الموقعين : ابن القيم جـ ٢ ص ١٦٦ .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من الله رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ٤ ص ٣٥٣ .

(٣) المجددون في الاسلام : عبد المتعال الصعيدي ص ٥٤٨ والفتح المبين في طبقات الاصوليين : عبد الله مصطفى المراغي جـ ٣ ص ١٩٨ .

يكيّف النصوص لموافقة المجتمع لا ان يكيف المجتمع لموافقة النصوص ، وهو اخطر من اجتهاد من ليس من اهل الاجتهاد .

وهذا يذكرنا بقول استاذه الافغاني « اذا كان القاضي عياض وامثاله سمحوا لانفسهم ان يخالفوا اقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا »[1] .

ويرى الشيخ محمد عبده ـ مجتهدا ـ ان « من العجيب ان فقهاء المذاهب الأربعة وربما غيرهم ايضا قالوا ان الصلاة بلا حضُور ولا خشوع يحصل بها اداء الفرض ويسقط الطلب ما هذا الكلام انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة في القرآن تبطله »[2] .

ثم أدّى به اشتراط الخشوع في الصلاة ليحصل بها اداء الفرض الى أمر آخر صرّح به تلميذه السيد رشيد رضا حيث يقول « وأصرّح مع هذا بأنه كان كثيرا (!!) ما يجمع بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى في الحضر اذا لم يتيسر له صلاة الاولى بالخشوع والحضور الذي يعتقد وجوبه »[3] وصرّح في موضع آخر انه « خالف فيه المذاهب الأربعة ولكنه وافق حديثا صحيحا أخذ به غيرهم من الأئمة »[4] .

اذن فالاستاذ الامام يرى ان الخشوع لا بد منه في الصلاة ، ولا صحة ولا قبول لصلاة ليس فيها خشوع بل تؤخر فتجمع مع أختها ! وكان يفعل هو هذا كثيرا ، لا ادري ماذا يقول لو لم يتوفر الخشوع عند انسان في صلاة العصر هل يؤخرها الى المغرب ؟! واذا لم يتوفر الى العشاء ؟! وان مكث اياما يعاني من آلام مرض ينغص عليه الخشوع في الصلاة هل يؤخر تلك الاوقات الى ان

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث : احمد أمين ص ١٢١ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام : السيد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤١ .
(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٠٤٣ .
(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٥ .

يشفى لانه لا بد للصلاة من خشوع ؟ ارأيتم ذلك المريض الذي لم يستطع الصلاة قائما ولا قاعدا ولا على جنبه فصلى بطرفه وهو يعاني آلام المرض الشديد الذي يصعب حضور الخشوع معه هل نقول له ان صلاتك باطلة ومردودة عليك غير مقبولة لأنك لم تخشع فيها ! .

وقال الشيخ عبده « من اين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به ؟ وهل فيه زيادة عن الماء الا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا احسن شيء للوضوء فانه يمنع آثار المرض ايضا وكان الشيخ الانبابي يقول بنجاسته لأن فيه سبيرتو ، وهل يوجد شيء مطهر كالسبيرتو ؟ والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف فانه لا يمكن شربه لأنه محرق للجوف ـ كذلك محلول السليماني من احسن المنقيات والمطهرات الطبية وشربه قاتل »[1] .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾[2] الآية ، قال « وقد استكبر الجمهور خلود القاتل في النار وأوله بعضهم بطول المكث فيها وهذا يفتح باب التأويل لخلود الكفار فيقال ان المراد به طول المكث ايضا »[3] .

وكذا في قوله تعالى في وعيد آكلي الربا ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4] قال السيد رشيد « وما الوعيد هنا الا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمد وليس هناك شبهه على ارادة الاستحلال »[5] . ومن هذا تعرف الى انه يذهب في اجتهاده مذهب المعتزلة والخوارج القائلين بخلود اهل الكبائر في النار .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : السيد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤١ .
(٢) سورة النساء : من الآية ٩٣ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ٣٤١ .
(٤) سورة البقرة من الآية ٢٧٥ .
(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٩٨ .

ويرى الشيخ ايضا اباحة التيمم للمسافر حتى مع وجود الماء « الا ان من اعجب العجب غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة في عبارة القرآن التي هي اظهر واولى من قصر الصلاة وترك الصيام واظهر في رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الاحكام ، واحتمال ربط قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾(١) بقوله ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾(١) بعيد بل ممنوع البتة كما تقدم على انهم لا يقولون به في المرضى لأن اشتراط فقد الماء في حقهم لا فائدة له لأن الاصحاء مثلهم فيه فيكون ذكرهم لغوا يتنزه عنه القرآن . ونقول : ان ذكر المسافرين كذلك فان المقيم اذا لم يجد الماء يتيمم بالاجماع فلولا ان السفر سبب للرخصة كالمرض لم يكن لذكره فائدة ولذلك عللوه بما هو ضعيف متكلف وما ورد في سبب نزولها من فقد الماء في السفر او المكث مدة على غير ماء لا ينافي ذلك »(٢) .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٣) يرى السيد رشيد ان الربا المحرم هو ما كان اضعافا مضاعفة ويقول « والمراد بالربا فيها ربا الجاهلية المعهود عند المخاطبين عند نزولها لا مطلق المعنى اللغوي الذي هو الزيادة فما كل ما يسمى زيادة محرم »(٤) .

وهذا استجابة من السيد رشيد لدعوة استاذه فيما نقلناه آنفا « ان اهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على اغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص فاضطر الناس الى الاستدانة من الاجانب بارباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب والفقهاء وهم المسؤولون عند الله تعالى عن هذا . . كان يجب عليهم ان

---

(١) سورة النساء من الآية : ٤٣ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ١٢١ .
(٣) سورة آل عمران : الآية : ١٣٠ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ١٢٣

يعرفوا حالة العصر والزمان ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (!!!) - اي كاحكام الضرورات - لا انهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ويتركون لاجلها كل شيء »(١) .

وهي ايضا استجابة لدعوة استاذهم جميعا الافغاني الذي قال بـ « جواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير اضعافا مضاعفة »(٢) .

تلكم بعض اجتهادات هؤلاء .. وذلكم ما ادى بهم اليه فتح باب الاجتهاد الى الدرجة التي يريدونها .

وبعد

فخلاصة الحديث انه لا خلاف بين المعتدلين من انصار التقليد ، وانصار الاجتهاد . . فكلاهما اباح التقليد للعامي . . وكلاهما اباح الاجتهاد لمن بلغ رتبة الاجتهاد . .

ولكن الاختلاف وقع بين المتطرفين من الفريقين . ممن سد احدهما باب الاجتهاد واوجب التقليد وحذر الشافعي من تقليد المالكي او الحنبلي من تقليد الحنفي . . ودعا الى اقامة الصلوات في المسجد الواحد بأن يصلي الاحناف اولا ثم الشافعية ثانيا وهكذا يصلون طوائف لا جماعة واحدة .

وذهب الفريق الآخر في التطرف حدا أبعد من هذا ففتح باب الاجتهاد ولم يفرق المسلمين الى فرق اربع بل الى ان يكون كل مسلم فرقة بعينه . ووصفوا المقلدين بأوصاف الكفرة والمشركين وانهم ممن فرقوا دينهم وكانوا شيعا .

وسلك هذا المسلك ارباب المدرسة العقلية الحديثة ، وجعلوا ذم

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤٤ .

(٢) نابغة الشرق جمال الدين الافغاني : محمود ابو ريه ص ٩٨ .

التقليد والدعوة الى الاجتهاد اول ما يدعون اليه .

واباحوا لأنفسهم الاجتهاد في مسائل ومشكلات وابدوا فيها آراءهم وسخروا من التقليد والمقلدين .

نسأل الله الهداية والتوفيق ،،،

الأساس الحادي عشر

الإصلاح الاجتماعي

قال عليه السلام « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وما انزل القرآن الكريم الا لنفس الهدف الذي بعث له محمد عليه الصلاة والسلام . لذا نرى الترابط التام بين هذا وذاك فقد كان القرآن خلقه ﷺ .

اذن فلا عجب ان يحتوي القرآن الكريم على المثل العليا لبناء المجتمع السليم ، فكان الميزان الصادق للامة الاسلامية يعظم سلطانها وتشتد هيبتها بين الامم بقدر ما تأخذ من مثله . فحينما قال الحاكم « والله لو عثرت شاة في العراق لخشيت الله ان يسألني عنها لِم لَم امهد لها الطريق ؟ وقال المحكوم « يا امتاه ان كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم والله ما كنت لأطيعه في الملأ واعصيه في الخلاء »[1] وقال راعي الغنم عن ايمان صادق كلمة لا

---

(١) وخلاصة القصة ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ذات ليلة الى اسواق المدينة وطرقاتها يعس ولما احس بالتعب اتكأ على جدار ليستريح واذا بصوت امرأة تقول لابنتها قومي الى ذاك اللبن فامذقيه (اي اخلطيه) بالماء ، وكان عمر قد نهى عن مذق اللبن بالماء فقالت ابنتها يا امتاه او ما علمت عزمة امير المؤمنين ؟ فاجابت الام انه بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر فقالت الفتاة يا امتاه ان كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم والله ما كنت لاطيعه في الملاء واعصيه في الخلاء ، وعمر يسمع ذلك كله ثم خطب الفتاة لابنه عاصم فولدت منة بنتا هي ام عاصم فتزوجها عبد العزيز بن مروان فأتت بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (اخبار عمر وأخبار ابن عمر ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي) .

زالت تجلجل في الفضاء تعلن مثالية الأمانة قال : ـ فأين الله ؟ !(١) وقال آخر في مرض موته ان أنا مت فزوجوا بنتي لفلان فاني اعطيته شبه وعد « فكانت مثال الوفاء ووقع الايثار في اسمى معانيه في الرمق الاخير بين ثلاثة شهداء كل منهم يؤثر الآخر على نفسه بشربة ماء الى ان ماتوا جميعا .

حينما كانت هذه المثل القرآنية سائدة في المجتمع قويت شوكة المسلمين واتسعت دولتهم حتى قال حاكم من حكامهم يخاطب سحابة « ايتها السحابة امطري حيث شئت فان خراجك سيأتي اليّ » .

ثم ما الذي حدث بعد هذا ؟! تخلّى المسلمون شيئا فشيئا عن تلك المثل القرآنية العليا فتساقطت دولهم واحدة بعد الاخرى وعم الجهل وفشت البدع والمنكرات وكثر الفساد وقل الناصح وندر المصلح . والقرآن هو القرآن لا زال يزخر بكنوزه ويدعو الناس اليها ولكن الناس كانوا في غفلة وكان حجاب الشهوات يضرب اطنابه لحجب تلك الكنوز .

فكان لا بد لمن يتناول تفسير القرآن الكريم ان يوضح للناس تلك الأخلاق السامية والصفات الحميدة التي يجب ان يتحلى بها المسلمون ، ويكشف لهم ما يخالفها مما هم عليه من البدع والمنكرات ، ويشرح لكل فرد من افراد الأمة حقوقه التي شرعها الله لـه في القرآن الكريم ، ويقرن هذا البيان القرآني بالبيان النبوي ليتضح المعنى وتتحدد الاهداف .

حاول رجال هذه المدرسة العقلية تطبيق هذا المنهج فحذروا من كثير من البدع والمنكرات السائدة ، وعالجوا بعض القضايا الاجتماعية بروح

---

(١) خلاصة القصة ان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرّ براعي غنم وهو عبد اسود صغير السن فأراد ابن عمر ان يختبر امانته وسأله ان يبيعه شاة من الغنم فأجاب الغلام انها ليست له وانها لمولاه فقال ابن عمر اذا سألك مولاك عنها قل له اكلها الذئب فمضى الراعي وهو يقول رافعا اصبعه الى السماء : فأين الله ! ؟ فلم يزل ابن عمر يقول فأين الله ؟ وبعث الى سيد الراعي والغنم واشتراهما منه واعتق الغلام ووهبه الغنم « أخبار ابن عمر ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ » على الطنطاوي وناجي الطنطاوي .

المفسر العصري بحسناته وسيئاته ولوضوح هذا المنهج في تفاسيرهم التصق بهم فاطلق عليهم ضمن ما عرفوا به اسم المدرسة الاجتماعية .

دعوا الناس الى التفطن لما في القرآن من الفضائل والابتعاد عن فلسفة الشعوبية وآدابها او التنازع في زينة الدنيا وسلطانها « يقرأ كثير من الناس هذه السورة ـ يعني سورة هود ـ فلا يكادون يفطنون لما فيها من بيان فضائل الرسل والمؤمنين التي يجب التأسي بها ومساوىء الكفار التي يجب تطهير الانفس منها ، فمن قرأ منهم تفسيرها في اكثر كتب التفسير المتداولة كانت اشغل شاغل له عن ذلك بمباحث الفنون العربية والمجادلات الكلامية ، والاساطير الاسرائيلية ومن يهمه العلم الذي يعينه على تهذيب نفسه صار يطلبه من الاخلاق والأدب والتصوف دون القرآن ؛ وهو هو الذي قلب طباع الأمة العربية كلها وزكى انفسها وسودها على بدو العالم وحضره منذ الجيل الاول من اسلامها ؛ الى ان اعرضوا عن هدايته وأدبه اشتغالا بفلسفة الشعوبية وآدابها او تنازعا في زينة الدنيا وسلطانها ؛ فكانوا يبعدون عن الحق والعدل والفضل والسيادة بقدر ما يبعدون عن هداية القرآن فيها »[١] .

الوحدة الاسلامية : ـ

واشتهرت عنهم الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، بل ان المقصد السياسي للسيد جمال الدين « الذي وجه اليه افكاره واخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته هو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالامم العزيزة والدولة بالدول القوية فيعود للاسلام شأنه »[٢] .

وتحدثت مجلة العروة الوثقى عن حال المسلمين اولا ثم قالت « ذلك شأنهم الاول وهذا وصفهم الآن . ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها اساتذة العالم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٢ ص ٢١٨ .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤ .

واخذت ممالكهم تنقص اطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم ان لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الاجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤ ون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كلمته انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ؟ . . . الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية من أشد اركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من اوليات العقائد عند المسلمين لا يحتاجون فيه الى استاذ يعلم ولا كتاب يثبت ولا رسائل تنتشر ان رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم وتفيض اعينهم من الدمع حزنا وبكاءا على ما اصاب ملتهم من تفرق الآراء وتضارب الاهواء . . . فما الذي اقعدنا عن مشاكلة غيرنا فيما هو ايسر الاشياء علينا ونحن اشد الناس ميلا اليه من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها »[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2] يقول الشيخ محمد مصطفى المراغي « واشد هذه الانواع الفتن الملية والقومية التي تقع بين الامم عند التنازع على المصالح العامة من السيادة والملك وعند التنازع في السياسة على الحكم وقد تحصل تبعا لذلك فرقة في الدين والشريعة حيث يتخذ الدين وسيلة للفوز والغلب ، وقد طالب الله سبحانه المؤمنين ان يحذروا هذه المعاصي الظاهرة وبخاصة ما كان عاما منها وما يوجد الفرقة بين الأمة ويصدع وحدة الجماعة سواء أكانت الوحدة في العقيدة او العمل او في السياسة وقواعد الاجتماع لأن الفرقة في ذلك كله تضيع الجهود وتذهب القوة وتطمع الاعداء في المسلمين حتى ينتهي أمرهم إلى الضعف والوهن وينتهي امرهم بتسلط الاعداء عليهم»[3].

---

(١) مجلة العروة الوثقي ص ١٠٩ ، ١١١ .   (٢) سورة الانفال آية ٢٥ .

(٣) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ : للشيخ محمد مصطفى المراغي ص ٢٥

ونصوص دعوتهم الى الوحدة الاسلامية كثيرة جدا . . ولكن . . مهلا . . ما مفهوم الوحدة عندهم ؟ وما مفهوم « الاسلامية » عندهم ايضا ؟

اما مفهوم الوحدة فتوضحه مجلة العروة الوثقى « لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا فان هذا ربما كان عسيرا ولكني ارجو ان يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه الا ان هذا بعد كونه اساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات »[1] .

اما « الاسلامية » فيوضحها الشيخ احمد المراغي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾[2] فيقول « . . . دعا الترك الى العصبية التركية والمصريون الى الجنسية المصرية والعراقيون الى الجنسية العراقية ظنا منهم ان ذلك مما ينهض بالوطن ، وليس الأمر كما يظنون فان الوطن لا يرقى الا باتحاد كل المقيمين فيه لاحيائه لا في تفرقهم ووقوع الشحناء والبغضاء بينهم ، فالدين يأمر باتحاد كل قوم تضمهم أرض واحدة وان اختلفت اديانهم واجناسهم (!!) ويأمر بالاعتصام بحبل الله المتين بين جميع الاقوام »[3] .

اذن فهم يطلقون الوحدة الاسلامية على « الاتحاد الشرقي » بمختلف دياناته واجناسه ولا يحتاج هذا الى اجتهاد مجتهد في ادراك ما يقصدون بل هو صريح في عبارة السيد رشيد رضا حيث يقول « وقد اشتبه على بعض الناس امر اللهجة الاسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا ان خدمتها خاصة بالمسلمين فأزالا ـ يعني الافغاني وعبده ـ هذه الشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن وهذا نصها « لا يظن احد من الناس ان جريدتنا هذه بتخصيصها

---

(١) مجلة العروة الوثقى : ص ١١٢ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٠٣ .
(٣) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٤ ص ١٧ .

المسلمين بالذكر احيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في اوطانهم . . ليس هذا من شأننا ولا يبيحه ديننا . . ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الاجانب عليهم والافساد في بِلادهم وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنبيون وأذلوا اهلها اجمعين »[١] .

وقال الاستاذ عثمان امين « ان الجامعة التي كان ينشدها الافغاني ومحمد عبده في اواخر القرن الماضي ليست هي الجامعة الاسلامية كماتوهم بعض الكتاب الغربيين وانما هي في صميمها « الجامعة الشرقية »[٢] .

ويعلق السيد رشيد رضا على كلمة للافغاني بقوله « هذا تنبيه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يفكر فيه احد قبله »[٣] .

تلكم دعوة من دعواتهم لاصلاح المجتمع الاسلامي كنّا وكان غَيرنا يحسبها دعوة اسلامية خالصة لاعادة وحدة المسلمين فاذا بها تدعونا للاستعانة بالمشركين على الكافرين ونحن لا نستعين بمشرك !

الحرية :

ولسنا نعني بالحرية هنا الحرية كما يفهمها الغربيون واذنا بهم عندنا ، فتلك حرية كانت في صميمها تحررا من سلطان ورجال الكنيسة في العصور الوسطى ومن سلطان الاقطاعيين وسلطان الفكر الصوري الاجوف وسلطان التقليد الاعمى الذي ما انزل الله به من سلطان . . تلكم هي الحرية عندهم وذلكم هو مفهومها لديهم نقلها الى العالم الاسلامي طائفة من أذناب الاستعمار من غير تشخيص لدائه ومن غير ان تكون لديه الحالة نفسها التي

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام : رشيد رضا جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٢) مجلة العربي الكويتية العدد ٤٢ ص ٧٣ مقال « العروة الوثقى » للدكتور عثمان أمين .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : رشيد رضا جـ ١ ص ٢٩٢ .

لدى الغرب فتولد من هذا ان ارتبط مفهوم الحرية عند طائفة من المسلمين بالتحرر من الدين فقالوا ان الدين شيء والسياسة شيء آخر وفصلوا بين الدين والدولة . فتلك الحرية نتاج ثقافة وفكر لا وجود له في الاسلام . . اذن فليست تلك الحرية من مقاصد الاسلام فمفهوم الحرية في الاسلام لا يغري بالهجوم على الدين لأنه ينبع من الدين[1] اذن فللحرية مفهوم آخر في الدين الاسلامي واليكم البيان .

حرية سياسية :

فشرع الشورى قال السيد رشيد رضا في تفسير قولـه تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾[2] « وشاورهم في الأمر العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية اي دُم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة (غزوة احد) وان أخطأوا الرأي فيها فان الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وان كان صوابا لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم ان اقاموا هذا الركن العظيم « المشاورة » فان الجمهور ابعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر والخطر على الأمة في تفويض امرها الى الرجل الواحد اشد واكبر قال الاستاذ الامام ليس من السهل ان يشاور الإنسان ولا ان يشير واذا كان المستشارون كثارا كثر النزاع وتشعب الرأي ولهذه الصعوبة والوعورة امر الله تعالى نبيه ان يقرر سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل فكان ﷺ يستشير اصحابه بغاية اللطف ويصغي الى كل قول ويرجع عن رأيه الى رأيهم »[3] .

ويعلل عدم وضع الرسول ﷺ قاعدة ونظاما للشورى بحكم واسباب منها : ـ

---

(١) انظر : الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت الشرقاوي : ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

أ ـ ان هذا الأمر يختلف باختلاف احوال الأمة الاجتماعية في الزمان والمكان .

ب ـ ان النبي ﷺ لو وضع قواعد مؤقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمن لاتخذها المسلمون دينا وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان وما هي من أمر الدين .

جـ ـ ومنها انه لو وضع تلك القواعد من نفسه عليه الصلاة والسلام لكان غير عامل بالشورى وذلك محال في حقه لأنه معصوم من مخالفة امر الله ولو وضعها بمشاورة من معه من المسلمين لقرر فيها رأي الاكثرين منهم كما فعل في الخروج الى احد وقد تقدم ان رأي الاكثرين كان خطأ ومخالفا لرأيه ﷺ ، اليس تركها للأمة تقرر في كل زمان ما يؤهلها له استعدادها هو الاحكم ؟[1] .

وحرية من العبودية لغير الله : ـ

فالاصل في الانسان حريته من العبودية الا لله سبحانه وتعالى ، وهذا يذكرنا بقول عمر رضى الله عنه مستنكرا « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » .

ولذلك حث الاسلام على العتق وتحرير الأرقاء قال الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى : ـ ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[2] « وفك الرقبة عتقها او المعاونة عليه وقد ورد في فضل العتق ما بلغ معناه حدّ التواتر فضلا عما ورد في الكتاب وهو يرشد الى ميل الاسلام الى الحرية وجفوته للاسر والعبودية »[3] .

---

(١) انظر تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) سورة البلد : الآيات ١١ ـ ١٣ .

(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده : ص : ٨٩ .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾[1] قال السيد رشيد « وفي جعل هذا النوع من البذل حقا واجبا في اموال المسلمين دليل على رغبة الشريعة في فك الرقاب واعتبارها ان الانسان خلق ليكون حرا الا في احوال عارضة تقضي المصلحة العامة فيها ان يكون الاسير رقيقاً »[2] .

حرية الفكر والعقيدة :

قال تعالى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[3] قال في تفسيرها الشيخ محمد عبده « كان معهودا عند بعض الملل لاسيما النصارى حمل الناس على الدخول في دينهم بالاكراه وهذه المسألة الصق بالسياسة منها بالدين لأن الايمان وهو اصل الدين وجوهره عبارة عن اذعان النفس ويستحيل ان يكون الاذعان بالالزام والاكراه وانما يكون بالبيان والبرهان ولذلك قال تعالى بعد نفي الاكراه ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[4] .

وقال السيد رشيد « ولكن قد يرد علينا اننا قد أمرنا بالقتال . . » ويجيب على هذا « ان الاكراه ممنوع وان العمدة في دعوة الدين بيانه حتى يتبين الرشد من الغي وان الناس مخيرون بعد ذلك في قبوله وتركه شرع القتال لتأمين الدعوة ولكف شر الكافرين عن المؤمنين لكيلا يزعزعوا ضعيفهم قبل ان تتمكن الهداية من قلبه ويقهروا قويهم بفتنته عن دينه كما كانوا يفعلون في مكة جهرا ولذلك قال ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾[5] [6] .

وقال محمد عبده « لا اكراه في الدين قاعدة كبرى من قواعد دين الاسلام وركن عظيم من اركان سياسته فهو لا يجيز اكراه احد على الدخول فيه

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٧٧ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ١١٦ .
(٣) سورة البقرة : من الآية : ٢٥٦ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣٧ .
(٥) سورة البقرة من الآية : ١٩٣ .
(٦) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣٩ .

ولا يسمح لأحد ان يكره احدا من اهله على الخروج منه وانما نكون متمكنين من اقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة اذا كنا اصحاب قوة ومنعة نحمي بها ديننا وانفسنا ممن يحاول فتنتنا في ديننا اعتداء علينا بما هو آمن ان نعتدي بمثله عليه اذا امرنا ان ندعوا الى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة . . فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار اي انه ليس من جوهره ومقاصده وانما هو سياج له وجنه فهو امر سياسي لازم له للضرورة »[١] .

ويتصل بحرية العقيدة حرية الجدل الديني وقد اباحه الاسلام ما دام عماده الاقناع الكريم والمنطق السليم[٢] وقد فسر الاستاذ محمد فريد وجدي قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾[٣] بقوله « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالخصلة التي هي احسن الخصال كمقابلة خشونتهم باللين وشغبهم بالنصح الا الذين ظلموا منهم بالافراط في الاعتداء »[٤] .

اصلاح العقائد وتنقيتها مما طرأ عليها من البدع والمنكرات : ـ

وقد كان هذا الهدف بارزا في تفاسيرهم فكثيرا ما تعرضوا لنقد ما وقع في المجتمعات الاسلامية حينذاك في عقائدهم من عقائد باطلة اعتقدوها في الاسلام من تقديس للاولياء ولزوم للمقابر ودعاء وذبح لغير الله ومما طرأ على بعض المعتقدات الاسلامية من تحريف كعقيدة الايمان بالقضاء والقدر .

دافع الافغاني عن الاعتقاد بها فقال « كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والضعة . واعتقد هؤلاء الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣٧
(٢) الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت الشرقاوي ص ١٦٣ .
(٣) سورة العنكبوت : من الآية ٤٦ .
(٤) المصحف المفسر : محمد فريد وجدي ص ٥٣٧ .

الانسان مجبور محض في جميع افعاله وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون انفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلّبها الرياح كيف ما تميل . . هكذا ظنت طائفة من الافرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق ولست اخشى ان اقول كذب الظان وأخطأ الوهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كـذبا ـ لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي واسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة .

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجردّ عن شناعه الجبر يتبعه صفة الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الاسود وتنشق منها مرائر النمور هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد . . ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[١] .

اندفع المسلمون في اوائل نشأتهم الى الممالك والامصار يفتحونها ويتسلطون عليها فادهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوّخوا الدول وقهروا الامم . . . ارغموا الملوك واذلوا القياصرة والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات . . وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

اما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشأه هذه

---

(١) سورة آل عمران : الآيتين ١٧٣ و١٧٤ .

العقيدة ولا غيرها من العقائد الاسلامية ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار . نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان صمدة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان واحفاده وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الامم الاوروبية بأسرها على ديارهم وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الأمر فيهم الى غير اهله وولي على امورهم من لا يحسن سياستها فكان حكامهم وامراؤ هم من جراثيم الفساد في اخلاقهم وطباعهم وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم »[1] .

وحذر رجال المدرسة العقلية المسلمين مما وقع فيه اكثرهم من البدع والمنكرات كتقديس الاولياء والذبح عند قبورهم ودعائهم لهم واستغاثتهم واستعانتهم بهم ففي قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوابقيةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾[2] قال السيد رشيد « . . ان الصالحين المصلحين في الارض هم الذين يحفظ الله بهم الامم من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة الله . . وقد فهم الوعاظ والفقهاء من خلفنا الجاهل خلاف ما كان يفهمه السلف الصالح من بركه الصالحين المتقدمين وحفظ الله الامم بهم فظنوا ان المراد بهم الذين يكثرون من الصيام والقيام وقرآءه الاوراد والاحزاب . . كلا ان من اصحاب الاوراد من يقوم ليلة بورد من تشريع مبتدع هو به عاص لله تعالى لعبادته بغير ما شرعه فكان مما قال فيهم ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم من الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾[3] اي بهلاكهم وفي الحديث « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع ورب قائم

---

(١) مجلة العروة الوثقى : بتلخيص من الصفحات ٩٠ ـ ٩٧ .
(٢) سورة هود من الآية : ١١٦ .
(٣) سورة الشورى من الآية : ٢١ .

ليس له من قيامه الا السهر »[1] كم من مصل هو مصداق لحديث « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا »[2] وكذا كان دراويش مهدي السودان وامثالهم من المسلمين الجاهلين لهداية القرآن فنكل بهم الأفرنج بمساعدة الفاسقين من المسلمين واستولوا على بلادهم وقد علمنا من اخبار المهدي انه كان على علم وبصيرة في صلاحه ولكن قواده لم يكونوا بعده مثله وصلاح دراويشة لا بصيرة فيه ولا علم »[3] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَـٰتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[4] الآية يقول السيد رشيد رضا « . . فاذا قيل لهم ان اصله الغلو في الصالحين ولا سيما الميتين منهم واعتقاد تصرفهم في الكون ودعاؤهم في طلب النفع ودفع الضر وان مثله او منه ما كان يحكي عن مسلمي بخاري ان شاه نقشبند هو الحامي لها فلن تستطيع الدولة الروسية الاستيلاء عليها . وما كان يحكى عن مسلمي المغرب الاقصى من حماية مولاي ادريس لفاس وسائر المغرب ان تستولي عليها فرانسة انكروا على القائل ان هذا كذلك وقالوا انما هو توسل بجاه الاولياء عند الله وليس من المنكر ان يدفعوها بكرامتهم فكرامة الاموات ثابتة كالاحياء وقد بينا لهم جهلهم هذا بتبدل الاسماء ومخالفته لكتاب الله تعالى وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح من الأمة في فتوحاتهم وتأسيس ملكهم وحفظه وخصصنا اخواننا اهل المغرب الاقصى بالانذار منذ أنشيء المنار وارشدناهم الى تنظيم قواتهم الدفاعية العسكرية وطلب الضباط له من الدولة العثمانية والى العلوم والفنون المرشدة الى القوة والثروة والنظام والا ذهبت بلادهم من

---

(١) قال السيد رشيد معلقا « رواه ابن ماجه بهذا اللفظ واحمد والحاكم بتقديم وتأخير » .

(٢) قال السيد معلقا « رواه احمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفا وبن جرير عنه مرفوعا » .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٤) سورة هود : من الآية : ١٠١ .

ايديهم قطعا فقال المغوون لهم من اهل الطرائق القدد بلسان حالهم او مقالهم ان صاحب المنار معتزلي منكر لكرامات الاولياء وما هو بمعتزلي ولا اشعري بل هو قرآني سني . وها هي ذي فـرانسـة استولت على بلادهم كما انذرهم وظهر ان اكبر مشايخ الطريق نفوذا ودعوى للكرامات بالباطل كالتجانية كانوا وما زالوا من خدمة فرانسه ومساعديها على فتح البلاد واستعباد اهلها او اخراجهم من دين الاسلام الى الالحاد او النصرانية من حيث يدرون او لا يدرون .

يجهل امثال هؤلاء وغيرهم من الذين يظنون ان الشرك بالله تعالى خاص بعبادة الاصنام والاوثان ان اصل هذا الشرك هو الغـلو في تعظيم الصالحين والتبرك او التوسل باشخاصهم لابطال سنن الله .

واكبر مصائب الاسلام ان افتتان المسلمين بالصالحين الذين اتبعوا فيه سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع كما اخبر الصادق المصدوق ﷺ قد كان سببا لالحاد فريق كبير من الذين يتعلمون علوم العصر ومنها سنن الخلق والاجتماع ومروقهم من الدين باعتقادهم ان الاسلام دين خرافي هو الذي اضاع ملك المسلمين »[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾[2] يجمل لنا السيد رشيد رضا تفسير استاذه محمد عبده فيقول « ثم ذكر ان هذا الشرك قد فشا في المسلمين اليوم واورد شواهد على ذلك عن المعتقدين الغالين في البدوي « شيخ العرب » والدسوقي وغيرهما لا تحتمل التأويل وبيّن ان الذين يؤ ولون لا مثال هؤلاء انما يتكلفون الاعتذار لهم لزحزحتهم عن شرك جلي واضح الى شرك اقل منه جلاء ووضوحا ولكنه شرك ظاهر على كل حال وليس هو من الشرك الخفي الذي وردت الاحاديث بالاستعاذة منه الذي لا يكاد يسلم منه الا الصديقون »[3] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) سورة النساء من الآية : ٣٦ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٥ ص ٨٣ .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾[1] يتحدث الاستاذ عبد القادر المغربي عن نشأة الوثنية ثم يقول « ومن تأمل ما قلناه في مناشيء ظهور الوثنية في البشر فهم السر في كون الدين الاسلامي يحرم اقامة الصور ونصب التماثيل وتشييد القبور وتجصيصها على رمم العظماء وفي حديث علي رضى الله عنه « ارسلني رسول الله ﷺ وقال لي لا تدع صنما الا طمسته ولا قبرا الا سويته »[2] فان الوثنيين كانوا يتخذون من مواثل القبور والاصنام ذكرى لرجالهم الصالحين وليست ذكراهم لهم ذكرى عظة واعتبار وانما هي ذكرى استمداد اسرار واقتباس انوار واستغراق واستحضار واسترزاق واسمتطار والتماس منافع واستكفاء أضرار فسدّ دين الاسلام الذريعة بتحريم هذه المواثل خشية ان تسترهب ضعفاء العقول وتستهويهم ومن مزالق الوثنية تقربهم وتدنيهم فلله الاسلام ما اعدله فيما شرع وحكم وما اوضح نهجه فيما خط لنا من الهداية ورسم »[3] .

ويستدل الشيخ احمد المراغي بقوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[4] على « أن سماع هذا الوعيد واشباهه يوجب على المؤمن ان يفكر طويلا ويتأمل فيما وصل اليه حال المسلمين اليوم وكيف ان علماءهم يجارون العامة في بدعهم وضلالاتهم وهم يعترفون ببعدها عن الدين ولا يكون لهم وازع من نواهية وقوارعه الشديدة وزواجره التي تخر لها الجبال سجدا »[5] .

وقال الشيخ محمد عبده في نفس الآية « نقرأ هذا التشديد والوعيد

---

(١) سورة نوح الآية : ٢٣ .

(٢) رواه احمد ومسلم وأبو داود ولكن بلفظ « . . ان لا تدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته » .

(٣) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٦٢ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٤٥ .

(٥) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٢ ص ١٢ .

ونسمعه من القرائين ولا نزد جر عن اتباع اهواء الناس ومجاراتهم على بدعهم وضلالتهم حتى انك ترى الذين يشكون من هذه البدع والاهواء ويعترفون ببعدها عن الدين يجارون اهلها عليها ويمازجونهم فيها واذا قيل لهم في ذلك قالوا ماذا نعمل ؟ ما في اليد حيلة ، العامة عمى ، آخر زمان . وامثال هذه الكلمات هي جيوش الباطل تؤيده وتمكنه في الارض حتى يحل بأهله البلاء ويكونون من الهالكين »[١] .

ومع هذا التحذير الشديد من رجال المدرسة العقلية لهذا النوع من المعتقد الزائف الباطل الا أنّا نرى زعيم هذه المدرسة الاول السيد جمال الدين الافغاني يقع منه هذا الفكر المنكر « وهي المصيبة الاعظم » ويستغل هذا المنكر ابشع استغلال فقد لجأ الى مقام عبد العظيم خوفا من ناصر الدين شاه ويثير في العوام الحمية لهذا المعتقد الباطل بالانتقام من ناصر الدين شاه « واما قصتي وما فعله هذا الكنود الظلوم معي فمما يفتّت اكباد اهل الايمان ويقطع قلوب ذوي الايقان ويقضي بالدهشة على اهل الكفر وعبادة الاوثان . ان ذلك اللئيم امر بسجني وانا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام »[٢] ويصف هذا المقام بأنه « حرم من دخله كان آمنا »[٣] بل ويحاول ان يظهر بمظهر القداسة امام العوام ولو كان بالكذب والخداع حكى عنه سعد زغلول انه ذكر لهم انه كان في سفينة خيف عليها الغرق فرأى في الركاب خوفا فأكدّ لهم ان السفينة لن تغرق ثم قال « لو غرقت السفينة لم اجد منهم احدا يكذبني وان سلمت ظهرت بالقداسة من أقرب سبيل »[٤]

فهل تتفق هذه الافعال مع دعوتهم الى - ترك البدع والمنكرات والاستعانة والاستغاثة بالاموات !

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ١٨ - ١٩ .

(٢) نابغة الشرق السيد جمال الدين الافغاني : سعيد الافغاني : ص ٧٧ .

(٣) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٥٥ .

(٤) نابغة الشرق : سعيد الافغاني ص ٩١ - ٩٢ وجمال الدين الافغاني : عبد القادر المغربي ص ٥٠ - ٥١ .

الاصلاح التعليمي والتربوي : -

لا شك ان دين الاسلام اعطى العلم من الاهمية والمكانة ما لم ينله من اي دين سواه ومنزلة العلم في الاسلام من الوضوح بحيث لا تحتاج الى شرح وبيان قال رشيد رضا « عظم القرآن شأن المعلم تعظيما لا تعلوه عظمة اخرى بقوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾[1] الآية فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة ويدخل فيها الانبياء والحكماء ومن دونهم من اهل الدرجات في قوله ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2] وأمر اكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [3] [4] .

عرف رجال هذه المدرسة منزلة العلم في الاسلام ولم يخف عليهم ما له من اهمية كبيرة في بناء المجتمعات واقامة الحضارات بشرط اقترانه بالدين . فكتب السيد رشيد رضا في تفسيره موضحا الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين قائلا « ان حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية الله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم انهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم وجميع علمائهم المصلحين وساستهم الدهاقين في حيرة من تلافي هذا الخطر ولن يتلافى الا بالجمع بين العلم والدين وهذا ما جاءهم به محمد خاتم النبيين »[5] .

لهذا وذاك كان سبيل اصلاح التعليم في المجتمع الاسلامي من اهم الاهداف التي سعى اليها رجال المدرسة العقلية . فقدم الاستاذ الامام محمد

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٨ .

(٢) سورة المجادلة من الآية : ١١ .

(٣) سورة طه من الآية : ١١٤ .

(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ١١ ص ٢٤٨ .

(٥) تفسير المنار : السيد رشيد رضا جـ ١١ ص ٢٤٣ .

عبده كما ذكرنا في ترجمته لائحتين لاصلاح التعليم في سوريا وفي القاهرة . قدم الاولى الى الآستانة والثانية الى اللورد كرومر ممثل الاحتلال البريطاني . وأشرنا هناك الى ملخص اللائحتين والى جهوده في اصلاح التعليم بالازهر .

ويرى السيد الافغاني ان « حياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم . والعكس بالعكس اذن فلا بد من تمام اليقظة والعلم بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول الى الغاية بدأب متواصل وهمم لا تفتر وعزائم لا تكل أما الرجال والكهول ومن شبّ منهم عن دور التعلم واستقام على عوج فيما تلقفه هؤلاء تقومونهم بالمحاضرات وفتح نواد وطنية للاجتماع . . اما الاطفال والصبيان فأحسنوا للأول تربية المرأة وأما الثاني (وهم الصبيان) فأغلقوا في وجوههم مدارس الحكومة وافتحوا لهم ابواب المكاتب الأهلية »[1] . . الخ

الاصلاح الاقتصادي : -

وحاول رجال هذه المدرسة اصلاح الاقتصاد في البلاد حسب ما فهموه من نصوص القرآن الكريم او السنة النبوية الشريفة فكان لهم صولات وجولات على مستوى الدولة بين الساسة والقادة ، وعلى مستوى العامة بين الفلاحين والعمال . وفيما اودعوه في كتبهم من بيان لمزايا الشريعة الاسلامية في ادارة الاموال والطريق السليمة لذلك وقارنوا بين نظرة الاسلام والسياسة المالية عند اليهود والنصارى والشيوعية والرأسمالية ، وبينوا ان منهج الاسلام هو منهج السلام . « والحق ان الاسلام هو الدين الوسط الجامع بين مصالح الروح والجسد للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة فهو وسط بين اليهودية المالية الدنيوية والنصرانية الروحية الزهدية ، وان من مقاصده الاصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس الى العدل والفضل في أمر المال ليكتفي الناس شر طغيان الاغنياء وذلّة الفقراء ، ونصوص القرآن والسنة في هذا هي

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني : جمع وترتيب محمد المخزومي ص ٨٧ .

الغاية القصوى في الاصلاح وهي هادمة لمزاعم هؤلاء المفتاتين على الاسلام بالجهل والهوى .

غلا عباد المال من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله واستعباد الالوف والوف الالوف من العمال الفقراء به بجعله دولة بينهم وغلا خصومهم من الاشتراكيين في مقاومتهم ومحاولة جعل الناس فيه شرعا وجعله بينهم حقا شائعا فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية في عصرنا ان استعبدت اكثر من مئة ألف من البشر تسخرهم في تنفيذ مذهبها كالانعام والدواب . . .

ولا منقذ للامم من هذه الفتنة وعواقبها الا بدين الاسلام ـ اعني بالتدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها ولا يمكن التزامها بالعمل الا باذعان الدين وقد بدأ عقلاء الافرنج يشعرون بالحاجة الى دين معقول يصلح بالتزامه فساد هذه المدنية المادية ولن يجدوا حاجتهم الا في دين القرآن وسنة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام واخشى الا يهتدوا اليه الا بعد البطشة الكبرى والطامة العظمى وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية وانني اذكر هنا اهم اصول الاصلاح الاسلامي في المسألة المالية التي تبتدر فكري وتبدهه فأقول . . . »[1] .

ثم ذكر السيد رشيد رضا ما يراه من الأصول الاسلامية لاصلاح المسألة المالية فعد منها اقرار الملكية الشخصية وتحريم اكل اموال الناس بالباطل وتحريم الربا والقمار ومنع جعل المال دولة بين الاغنياء . . والحجر على السفهاء في اموالهم حتى لا يضيعوها وفرض الزكاة وفرض نفقة الزوجية والقرابة وايجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين وجعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب وندب صدقات التطوع والترغيب فيها وذم الاسراف والتبذير والبخل والشح واباحة الزينة بشرط اجتناب الاسراف ومدح القصد والاعتدال في النفقة على النفس والعيال ثم قال بعد هذا « أرأيت أمة من الأمم تقيم هذه

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٢٩ ـ ٣١ .

الأركان ويوجد فيها فقر مدقع أو غرم موجع أو شقاء مفظع ؟ »[1] .

وقال في موضع آخر « فماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم حتى صرنا أشدّ الأمم اسرافا وتبذيرا واضاعة للأموال وجهلا لطرق الاقتصاد فيها وتثميرها واقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يسبق له نظير في ازمنة التاريخ من حيث توقف قيام مصالح الامم ومرافقها وعظمة شأنها على المال حتى ان الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد التي ليس في ايديها مال كثير قد صارت مستذلة ومستعبدة للأمم الغنية بالبراعة في الكسب والاحسان في الاقتصاد »[2] ثم يرجع السبب في ذلك الى اولئك « الذين لبّسوا علينا بلباس الصاحلين فنفثوا في الأمة سموم المبالغة في التزهيد والحث على انفاق جميع ما تصل اليه اليد وانما كان يريد اكثرهم انفاق كسب الكاسبين عليهم وهم كسالى لا يكسبون لزعمهم انهم بحب الله مشغولون »[2] .

وجهود رجال المدرسة العقلية في اصلاح احوال البلاد الاسلامية الاقتصادية لا تُنكر الا أنه مع هذا وقع منهم ما نرفضه ولا نقره منهم فكان لهم رأي في الربا المحرم وان المراد به ما كان اضعافا مضاعفة وقد بينا فيما سبق ما ذهب اليه الاستاذ الامام محمد عبده في ذلك ودعوته الى اباحة الربا للضرورة الاقتصادية وزعمه ان تحريم الربا كان السبب في انتقال اموال المسلمين الى الاجانب بارباح فاحشة[3] ، وكذا قول استاذه الافغاني بـ « جواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير اضعافا مضاعفة »[4] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٢٩ـ ٣١ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ـص ٣٨٢ - ٣٨٣ .
(٣) تاريخ الاستاذ الامام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤٤ .
(٤) جمال الدين الافغاني : محمود ابو ريه ص ٩٨ .

الجانب التهذيبي :

وعني ارباب المدرسة ببيان الفضيلة ودعوةالمجتمع اليها والرذيلة وتحذير المجتمع منها ففي تفسير قوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[1] يطنب الاستاذ رشيد رضا في بيان حكم الصلاة في الاسلام ثم يقول بعد هذا « أرأيت هذه الآيات العزيزة والأحاديث الناطقة بالعزيمة قد نال التأويل منها نيله في الزمن الماضي واعرض جماهير المسلمين عنها في الزمن الحاضر حتى كثر التاركون الغافلون والمارقون وقل عدد المصلين الساهين وندر المصلون المحافظون ذلك ان الاسلام عند هؤلاء المسلمين الذين يصفون انفسهم بالمتمدنين قد خرج عن كونه عقيدة دينية الى كونه جنسية سياسية آية الاستمساك به والمحافظة عليه والدفاع عنه مدح كبراء حكامه وان كانوا لا يقيمون حدوده ولا ينفذون احكامه بل رفعوا انفسهم الى مرتبة التشريع العام واستبدال القوانين الوضعية بما نزل الله من الاحكام . .

ماذا كان من أثر ترك الصلاة والتهاون بالدين في المدن والقرى والمزارع ؟ كان من أثره في المدن فشو الفواحش والمنكرات تجد حانات الخمر ومواخير الفجور والرقص وبيوت القمار غاصة بخاصة الناس وعامتهم حتى في ليالي رمضان ليالي الذكر والقرآن ، وعبد الناس المال لا يبالون أجاء من حرام أم من حلال وانقبضت الايدي عن أعمال الخير وانبسطت في افعال الشر وزال التعاطف والتراحم وقلت الثقة من افراد الأمة بعضهم ببعض فلا يكاد يثق المسلم الا بالاجنبي وغير ذلك من فساد الاخلاق وقبح الفعال في الافراد واكبر من ذلك انحلال الروابط الملية بل تقطع اكثرها . .

المحافظ على هذه الصلاة الفضلى ينتهي عن الفحشاء والمنكر . . المحافظ على هذه الصلاة لا يمنع الماعون . . المحافظ على هذه الصلاة لا

---

(۱) سورة البقرة الآية : ٢٣٨ .

يخلف ولا يلوي في حق غيره عليه . . المحافظ على هذه الصلاة لا يضيع حقوق اهله وعياله ولا حقوق أقاربه وجيرانه ولا حقوق معامليه واخوانه المحافظ على هذه الصلاة يعظم الحق وأهله ويحتقر الباطل وجنده . .

المحافظ على هذه الصلاة لا تجزعه النوائب ولا تفلّ غرار عزمه المصائب ولا تبطره النعم ولا تقطع رجاءه النقم . . »[1] .

ويحث الامام محمد عبده على خلق الصبر في تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2] بقوله « والصبر خلق من امهات الاخلاق بل مساك كل خلق قالوا في فضل الصبر انه ذكر في القرآن نحو سبعين مرة ، وليس لنا فائدة كبرى في تحديد العدد ولكن جاء في الكتاب العزيز ذكر الصبر ومدح اهله وتبشيرهم بالفوز والفلاح والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله والرضى بما يكره في سبيل الحق وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق وما أتى الناس من شيء مثل ما اتوا من فقد الصبر او ضعفه . . »[3] .

وعن الخصام والرشوة يقول السيد رشيد « وكم من ثروة نفدت وبيوت خربت ونفوس اهينت وجماعة فرقت وما كان لذلك من سبب الا الخصام والادلاء بالمال الى الحكام ولو تأدب هؤلاء الناس بآداب الكتاب الذي ينتسبون اليه لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم ويمنع تقاطعهم وعقوقهم ويحل فيهم التراحم والتلاحم محل التزاحم والتلاحم »[4] .

وفي بيان احوال الامم المقهورة يفسر السيد رشيد رضا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾[5] ذلك ان الامم اذا قهرها

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٣ بتلخيص .
(٢) سورة العصر من الآية : ٣ .
(٣) تفسير سورة العصر : محمد عبده ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٥) سورة البقرة : من الآية : ٢٤٦ .

العدو ونكل بها يفسد بأسها ويغلب عليها الجبن والمهابة فاذا اراد الله تعالى احياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والاقدام في خيارها وهم الاقلون فيعملون ما لا يعمله الاكثرون . . قال الاستاذ الامام وفي الآية من الفوائد الاجتماعية ان الامم التي تفسد اخلاقها وتضعف قد تفكر في المدافعة عند الحاجة اليها وتعزم على القيام بها اذا توفرت شرائطها التي يتخيلونها على حدّ قول الشاعر :

واذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعان وحده والنزالا

ثم اذا توافرت الشروط يضعفون ويجبنون ويزعمون انها غير كافية ليعذروا انفسهم وما هم بمعذورين[1] .

وفي ذم بخس الناس اشياءهم يقول السيد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم ﴾[2] : ـ « وهذه النقيصة فاشية بين الامم والشعوب في هذا العصر فنجد بعضهم يذم بعضا وينكر فضله كالافراد وترى التجار في عواصم أوروبة يغالون من الأسعار للغرباء ما يرخصون لأهل البلاد وترى بعض الغرباء يستحلون من نهب اموال المصريين بضروب الحيل والتلبيس ما لا يستحلون مثله في معاملة ابناء جلدتهم وأما المصريون وامثالهم من الشرقيين كما قال الشاعر :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن اساءة اهل السـوء احسانـا

ويا ليتهم يعاملون انفسهم ومن تجمعهم معهم اقوى المقومات هذه المعاملة بل يكثر منهم من يبخسون ابناء قومهم وملتهم اشياءهم ويهضمون

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٧٤ .
(٢) سورة الاعراف : من الآية : ٨٥ .

حقوقهم ويعظمون الاجنبي ويعطونه فوق حقه وانما استذلهم للاجانب حكامهم فهم في جملتهم مبخوسون لا باخسون ومظلومون لا ظالمون وهم على ذلك مذمومون لا محمودون ومكفورون لا مشكورون »[١].

ويحذر السيد الافغاني من التجسس والكذب فيه فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[٢] أي « غير ملفق ولا مشوب بكذب كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكام »[٣].

ويتحدث الشيخ احمد مصطفى المراغي في تفسير قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [٤] الآية عن حكمهما ثم عن مضار كل منهما فيذكر مضار الخمر الصحية بافساد المعدة وفقد شهوة الطعام ومرض الكبد والكلى والسل حتى قال احد الاطباء اقفلوا لي نصف الحانات اضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات . . ثم يتحدث عن مضارها العقلية ومضارها المالية ثم عن مضارها في المجتمع ووقوع النزاع والخصام بين بعض السكارى ، وبينهم وبين من يعاشرهم ، لأدنى بادرة تصدر من واحد منهم ويتحدث عن مضارها النفسية من افشاء الاسرار ولا سيما اذا كان متصلا بالحكومات وسياسة الدول وشؤونها العسكرية وعليها يعتمد الجواسيس في نجاحهم في مهامهم التي ندبوا اليها ويتحدث عن مضارها الدينية ، وينتقل الى ذكر مضار الميسر من أنه يورث العداوة والبغضاء ويصدّ عن ذكر الله ويفسد الاخلاق ويخرب البيوت بغتة .

ويقول « واذا استمر انتشار الخمر والزنا في هذه البلاد ولا سيما الخمور التي تباع للفقراء فهي مواد سامة محرقة (سبيرتو) يضاف اليها قليل من الماء

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٥٢٦ .
(٢) سورة النمل من الآية : ٢٢ .
(٣) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢١٩ .

والسكر فليس بالبعيد ان تنقرض الأمة بعد جيلين أو أكثركما انقرض هنود امريكا لا يبقى منهم الا بعض الاجراء والخدم فالسكر والزنا مقراضان يقرضان الامم ، وقد شاع حديثا في مصر ما هو افتك بالأمة من الخمور وأقتل لها وهو بعض السموم التي تستعمل حقنا تحت الجلد أو شما بالأنف كالمورفين والكوكايين والهرويين »[1] .

والحديث عن تهذيب الاخلاق في الاسلام حديث طويل وانما بعث عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الاخلاق .

قضية المرأة :

والحديث عن قضية المرأة في العصر الحديث شابَهُ من مخلفات الحضارة ما خلط عند ضعاف البصر الحقيقة بالباطل فالتبس على طائفة منهم التفريق بين منهج السلام ومنهج الضلال .

وليس من السهل علينا ان نتناول قضية المرأة في العصر الحديث في هذا الحيز من بعض جوانبها فضلا عن استقصائها . . فلنقصر الحديث هنا على ما تناوله رجال هذه المدرسة من بيان لمكانة المرأة في الاسلام وحقوقها التي اعطاها اياها .

ففي تفسير قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[2] يقول السيد رشيد «اقول وفي الآية ما ترى من الحكم بمشاركة النساء للرجال في الاجتماع للمباراة القومية والمناضلة الدينية وهو مبني على اعتبار المرأة كالرجل حتى في الامور العامة الا ما استثنى منها ككونها لا تباشر الحرب بنفسها بل يكون

---

(١) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي : جـ ٢ ص ١٤٠ ـ ١٤٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٦١ .

حظها من الجهاد خدمة المحاربين كمداواة الجرحى »[1] ثم يقول « فأين هذا من حال نسائنا اليوم ومن اعتقاد جمهورنا فيما ينبغي ان يكن عليه ؟ لا علم لهن بحقائق الدين ولا بما بيننا وبين غيرنا من الخلاف والوفاق ولا مشاركة للرجال في عمل من الاعمال الدينية ولا الاجتماعية فهل فرض الاسلام على نساء الاغنياء لا سيما في المدن ان لا يعرفن غير التطرس والتطرز والتورّن[2] وعلى نساء الفقراء لا سيما القرى والبوادي ان يكن كالأتن الحاملة والبقر العاملة ؟ وهل حرم على هؤلاء واولئك علم الدنيا والدين والاشتراك في شيء من شؤون العالمين ؟ كلا ، بل فسق الرجال عن أمر ربهم فوضعوا النساء في هذا الموضع بحكم قوتهم فصغرت نفوسهن وهزلت آدابهن وضعفت ديانتهن ونحفت انسانيتهن ، وصرن كالدواجن في البيوت او السوائم في الصحراء . . . لبث المسلمون على هذا الجهل الفاضح احقابا حتى قام فيهم اليوم من يعيرهم باحتقار النساء واستعبادهن ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهن في العلم والأدب وشؤون الحياة منهم من يطالب بهذا اتباعا لهدي الاسلام وما جاء به من الاصلاح ومنهم من يطالب به تقليدا لمدنية اوروبا وقد استحسنت الدعوة الاولى بالقول دون العمل واجيبت الدعوة الاخرى بالعمل على ذم الاكثرين لها بالقول فانشأ المسلمون يعلمون بناتهم القرآءة والكتابة وبعض اللغات الاوروبية والعزف بآلات اللهو وبعض اعمال اليد كالخياطة والتطريز ، ولكن هذا التعليم لا يصحبه شيء من التربية الدينية ولا من اصلاح الاخلاق والعادات بل هو من عوامل الانقلاب الاجتماعي الذى تجهل عاقبته »[3] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٣ ص ٣٢٣

(٢) التطرس التنوق في الطعام والشراب اي تحري الاطيب منهما ، والتطرز في اللباس توخي الفاخر النفيس منه ، والتورّن المبالغة في التطيب والتنعم » تعليق السيد رشيد رضا .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٣ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾[1] قال الشيخ احمد مصطفى المراغي : ـ « ان هذا التشريع قد اصلح معاملة الرجل للمرأة واعترف لها بالكرامة وانكر تلك المعاملة القاسية التي كانت تعاملها بها بعض الامم فقد كان بعضها يعدها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجل وبعضها يعدها غير اهل للتكاليف الدينية اذ زعموا انه ليس لها روح خالد فما زعمه الافرنج من انهم السباقون الى الاعتراف بكرامة المرأة ومساواتها للرجل ليس مبنيا على اساس صحيح . فالاسلام هو الذي سبق كل الشرائع في هذا ولا تزال شرائعهم الدينية والمدنية تميز الرجل من المرأة . نعم ان المسلمين قصروا في تعليم النساء وتربيتهن ولكن هذا لا يصلح حجة على الدين نفسه »[2] .

وقال الاستاذ محمد فريد وجدي « ومما اختص به الاسلام الذهاب في احترام الحقوق الطبيعية للمرأة الى حدود لم تدر في خيال مشرع مدني الى اليوم فالاسلام لم يكلف المرأة ، وهي زوجة ، بأي حق تؤدية للرجل غير حفظ عرضه وطاعته في المعروف باعتبار انه الرئيس الطبيعي للأسرة . . والمرأة المسلمة لا تفقد بزواجها شيئا من استقلالها المالي فتظل على حريتها في التصرف بمالها واملاكها . . هذا الحق لم تنله المرأة الغربية الى اليوم فانها بزواجها تقع من ـ ناحية تصرفاتها الاقتصادية ـ تحت وصاية زوجها »[3] .

ويرد الشيخ محمود شلتوت على خصوم الاسلام الذين « اتخذوا التفاوت بين نصيبي الذكر والانثى هكذا مطعنا على الاسلام من جهة ان فيه اهدارا لحق بنوة الانثى المساوية تماما في نسبتها الى المورث لبنوة الذكر وقالوا : ـ ان هذا من فروع هضم الاسلام حق المرأة وهي انسان كالرجل وفاتهم ان الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته في الحياة فهو ينفق على نفسه وعلى

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٩٥ .

(٢) تفسير المراغي : احمد مصطفى المراغي جـ ٤ ص ١٦٦ .

(٣) الاسلام دين الهداية والاصلاح : محمد فريد وجدي : ص : ١٧٥ .

زوجه وعلى ابنائه ومن اصول الشريعة انه يدفع المهر لمن يريد ان يتزوجها اما الانثى فانها لا تدفع مهرا ويلزم زوجها بنفقتها في مأكلها ومشربها ومسكنها وخدمها وذلك فوق تبعاته العائلية التي لا يلحق الانثى مثلها وهذا باب يتضح منه ان نصيب الانثى في الوضع الاسلامي اعظم واكثر من نصيب الذكر »[1]

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾[2] يقول الشيخ محمود شلتوت « ومن هنا اخذ الفقهاء ان الشريفة مقدمة في الزواج على غير الشريفة وان حسنة السمعة مقدمة على سيئتها ، وفي هذا ايحاء قوي للنساء بأن يعملن جهدهن على تحسين سمعتهن وتحليهن بالاخلاق الفاضلة التي ترغب فيهن الازواج . . ولقد كان لما اتخذته الفتاة لنفسها او مكنها ولي امرها من حرية واسعة في هذه الايام نصيب كبير فيما نرى من أزمة الزواج واعراض الشباب عنه لما يعلمون عن الفتاة من اخلاق جعلت الزواج في نظرهم بابا من ابواب الشقاء فعلى الفتاة وعلى ولي أمرها أن يتدبرا الأمر فان عليهما وحدهما تقع تبعة هذه المشكلة وعليهما ان يعملا على حلها ان ارادا الخير والسعادة »[3] .

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص: ١٧٢ .
(٢) سورة النساء : من الآية ٢٥ .
(٣) تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت ص : ١٧٢ .

البَابُ الثّالث

آراء المدْرَسَة العَقليّة الحديثة في بعض علوم القرآن

الفصل الأول :

تَرجَمَةُ القُرآن الكَرِيم

الفصل الثاني :

القِصّة في القرآن الكريم

الفصل الثالث :

اعجاز القرآن الكريم



تَرجَمَةُ القُرآن الكَرِيم

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾[1] ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكماً عَرَبِيّاً ﴾[2] ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾[3] ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[4] ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾[5] ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾[6] ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[7] ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً﴾[8] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[9] ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾[10] ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[11] .

ومع نزوله باللسان العربي المبين فان دعوته للناس كافة لا تختص بالعرب

---

(١) سورة يوسف الآية : ٢ .
(٢) سورة الرعد من الآية : ٣٧ .
(٣) سورة طه من الآية : ١١٣ .
(٤) سورة الزمر الآيتين : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٥) سورة فصلت من الآية : ٣ .
(٦) سورة الشورى من الآية : ٧ .
(٧) سورة الزخرف الآية : ٣ .
(٨) سورة الأحقاف من الآية : ١٢ .
(٩) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥ .
(١٠) سورة فصلت من الآية : ٤٤ .
(١١) سورة النحل من الآية : ١٠٣ .

وحدهم ولا تفضل العربي على العجمي إلا بالتقوى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (١) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (٤) .

امتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الأمر الإلهي فبدأ بأم القرى وما حولها ووجه كتبه للدعوة إلى دين الإسلام إلى قيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر ونجاشي الحبشة ، كما وجهها إلى ملوك وأمراء العرب في الجزيرة العربية .

وأدرك شمول الرسالة صحابته من بعده صلى الله عليه وسلم فأرسل الخلفاء الجيوش لحماية دعاة الإسلام ممن يريد منعهم من التبليغ الواجب فحققت تلك الجيوش أوسع الفتوحات في مدة قصيرة .

وانتشر الإسلام بين العجم في مختلف الأقطار وصاروا من الدعاة إليه وساعدوا على انتشاره .

أدرك الجيل الأول من أولئك العجم منزلة اللغة العربية في القرآن الكريم وأدركوا أهميتها فقاموا بتنشئة أبنائهم على اللغة العربية وتحصيل علوم الدين الإسلامي ، أما هم وقد كاد أن يفوتهم الركب بعد أن تقدم بهم العمر ورسخت العجمة في ألسنتهم فاكتفوا بتعلم ما هو ضروري في الدين بباعث العقيدة وضرورة إقامة الفريضة فتعلموا من القرآن ما يقيمون به الصلاة المفروضة ويتعبدون بتلاوته .

أدرك أبو حنيفة رحمة الله تعالى (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) طائفة منهم لم تستقم

---

(١) سورة الفرقان الآية الأولى .
(٢) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧ .
(٣) سورة سبأ الآية : ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف من الآية : ١٥٨ .

ألسنتهم بالعربية فسوغ لهم من قبيل الرخصة الدينية ليس إلا أن يقرأوا المعاني لسورة الفاتحة على أنها ادعاء حتى تقوم ألسنتهم فلما رأى الألسنة قومت ولانت واستقامت وخشي البدعة إذ يجد المبتدعة السبيل لبدعتهم[1] مع انقراض الجيل الأول وكون الجيل الحاضر من الأجيال التي نشأت في دار الإسلام وتعلمت لغته رجع عن رأيه رحمه الله تعالى[1] .

ولم يزل علماء المسلمين رحمهم الله تعالى أجمعين يدعون إلى تعلم اللغة العربية ووجوب الصلاة وقراءة القرآن بها لا بغيرها .

وبلغت الفتوحات الإسلامية أوجها وفترت العزائم وضعف الإيمان وصارت الأمة الإسلامية غثاء كغثاء السيل فتداعت الأمم عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها وذهبوا يتقاسمونها فيما بينهم .

ومع هذا كله فقد بقي فيما بقي بين المسلمين شيئان عظيمان وخطيران لهما منزلتهما الكبيرة في وحدة المسلمين التي أقضت مضاجع الغرب وهما : القرآن الكريم ، والخلافة الإسلامية المتمثلة آنذاك بالدولة العثمانية رغم بعدها عن روح الإسلام وجوهره يتضح هذا في أبرز صورة فيما اشترطته بريطانيا على تركيا في مؤتمر لوزان لانسحابها من تركيا بعد الحرب العظمى حيث كان أول شرط لها إلغاء الخلافة الإسلامية وطرد الخليفة من تركيا ومصادره أمواله ونفّذ كمال أتاتورك الشروط فانسحبت الدول المحتلة من تركيا ورد كروزون وزير خارجية إنجلترا على المعارضين للإنسحاب في مجلس العموم البريطاني بقوله « لقد قضينا على تركيا التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم . . . لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين الإسلام والخلافة » فصفق النواب الإنكليز كلهم[2] وتخلص أعداء الإسلام بسقوط الخلافة من رابط إسلامي طال ما أرقهم وأقض مضاجعهم .

ولكن الرابط الآخر وهو الأقوى والأمتن هو القرآن الكريم الذي كادوا

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى : محمد أبو زهرة ص ٥٢١ .
(٢) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله : جلال العالم ص ٤٨ - ٤٩ .

لقطعه بكل وسيلة وجربوا كل حيلة ولم يستطيعوا ولن يقدروا لأن قوته ومتانته مستمدة من الله سبحانه وتعالى الذي تعهد بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] وحاولوا إطفاء نوره فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

هم يدركون منزلة القرآن الكريم وقيمته في جمع كلمة المسلمين وقوة شوكتهم إذا تمسكوا به . فقد صرح غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً « ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق » ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر « إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية »[2] ويقول المبشر النصراني وليم جيفورد « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه »[3] .

هم يدركون هذا إذن فلا عجب أن يسعوا بكل وسيلة إلى فصل المسلمين عن القرآن الكريم . فليجربوا إذن . . . ولتكن بداية حركتهم فصل غير العرب عنه وعن لغته العربية . .

فأوحوا إلى أذنابهم بهذا بعد سقوط الخلافة وقبلها فمنع الأذان بالعربية والكتابة بها واستبدلت الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية .

ودعت طائفة منهم إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة التركية ووجوب الصلاة بها وترك اللغة العربية والصلاة بها ، وحتى تلقى دعوتهم تلك القبول وضعوا لها مبررات تخدع المنهزمين فكرياً وتزيد المؤمنين ثباتاً .

قالوا فيما قالوا أن الصلاة بالترجمة تمد المصلي العجمي بالخشوع في الصلاة لأنه يفقه المعاني التي يقرؤها في صلاته وتكون مناجاته لربه أعمق وأصدق !!

وقالوا ان الدين الإسلامي دين يسر فلا يشق على غير العربي بتعلم

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٢) قادة الغرب يقولون : جلال العالم ص : ٣١ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٩ .

العربية . وزعموا أن هذا أسرع لانتشار الإسلام بين العجم وأكثر تحبيباً وتزييناً للدين الإسلامي في نفوسهم .

فانخدعت طائفة من المسلمين بما ذهبوا إليه وابتهجت نفوسهم لهذا الكلام المعسول وانخدعت عقولهم بظاهر كلامهم وأعماهم حب التجديد عن الغرض الحقيقي له .

فكان ممن انخدع بهذه الدعوة من أتباع المدرسة شيخ الأزهر الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي ، ورجل آخر كثيراً ما أغشت بصره تلك المدنية الحديثة عن الحقيقة ، أعني الأستاذ محمد فريد وجدي .

وكان ممن وقف في وجه هذه الدعوة تلميذ آخر كان أقل التلاميذ إعجاباً وانخداعاً بتلك المدنية الزائفة أعني الشيخ محمد رشيد رضا ـ متأثراً بسلفيته التي كانت تزداد قوة ومتانة كلما امتد به العمر .

وكانت ردود ومناقشات بين الدعاة والرافضين من تلاميذ المدرسة وغيرهم ، وجب أن لا يخلو منها بحث عن هذه المدرسة .

معنى الترجمة والمراد بها :

تطلق الترجمة في اللغة العربية على أحد معان أربعة[1] : ـ

الأول ؛ تبليغ الكلام لمن لم يبلغه ومنه قول الشاعر .

ان الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثانيها : تفسير الكلام بنفس لغته ومنه سمي بن عباس رضي الله عنه « ترجمان القرآن » .

ثالثها : تفسير الكلام بغير لغته جاء في لسان العرب وفي القاموس ان الترجمان هو المفسر للكلام وقال شارح القاموس « وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر . قاله الجوهري » .

---

(١) أنظر مناهل العرفان في علوم القرآن : عبد العظيم الزرقاني جـ ٢ ص ٥ .

رابعها : نقل الكلام من لغة إلى أخرى قال في اللسان « الترجمان بالضم والفتح هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى والجمع تراجم » .

وهذا المعنى هو ما يراد بالترجمة في عرف التخاطب العام وهي التعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده(١) .

أقسام الترجمة : ـ

وتنقسم الترجمة إلى قسمين(٢) : ـ

الأول : الترجمة الحرفية . وهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم .

الثاني : الترجمة التفسيرية أو المعنوية وهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه .

ويتضح الفرق بين القسمين حينما نضرب مثالاً للترجمة بهما على فرض امكانها في آية القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾(٣) .

ففي الترجمة الحرفية تأتي بكلام من اللغة المترجم إليها يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد مع رعاية ترتيب الأصل وتنظيمه بأن تأتي بأداة النهي أولاً يليها الفعل المنهي عنه متصلاً بمفعوله ومضمراً فيه فاعله . . إلخ وهذا النوع من الترجمة يخرج في أسلوب غير معروف ولا مألوف في تفهيم المترجم

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٧ .
(٢) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٣) سورة الاسراء : من الآية : ٢٩ .

لهم ما يرمي إليه الأصل من النهي عن التقتير والتبذير بل قد يستنكر المترجم لهم هذا المعنى الذي فهموه .

وفي الترجمة التفسيرية يعمد المفسر بعد تفهم المعنى المراد في الأصل إلى التعبير عنه باللغة الأخرى بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفوس المترجم لهم أكبر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير مع عدم التقيد برعاية نظم الأصل وترتيب ألفاظه »[1] .

ثم أن الخلاف لم يكن بين الرافضين للترجمة وانصارها فحسب ، بل وقع بين أنصار الترجمة الذين ذهب بعضهم إلى حدّ وجوب الصلاة بالترجمة والقراءة بها للعاجز وغيره من العجم وأوجبه غيرهم على العاجز وأباحه لغيره وأباح غيرهم ترجمة معاني القرآن واباح الصلاة بالترجمة الحرفية دون غيرها .

ووقع أيضاً بين الرافضين أنفسهم خلاف في ذلك فمنهم من رفض الترجمة أيّ ترجمه وأوجب على العجم تعلم العربية وقراءة القرآن بها . وقال غيرهم بإباحة الترجمة ولكن بتفهيم من لا يفهم شيئاً من معانيها لا للصلاة ولا للقراءة بها وإنما ليستعين بها على فهم ما يقرأه بالنص العربيّ .

ولن نذهب في مناقشة آراء كل قول وأدلته فهذا مما يطول بيانه ونكتفي هنا بالإشارة إلى أدلة أنصار الترجمة عموماً والرافضين كذلك من اتباع مدرسة الإمام محمد عبده : ـ

أدلة القائلين بالترجمة :

استدل أنصار الترجمة بأدلة كثيرة نذكر منها : ـ

١ ـ إن الدعوة الإسلامية دعوة عامة لا تختص بجيل دون جيل أو أمة دون أخرى وان مصلحة الدعوة تحفزنا إلى ذلك ـ ترجمة القرآن ـ لأننا مكلفون بها شرعاً

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ٢ ص ٨ .

والدعوة بالقرآن أبلغ ما يصل إليه الإمكان وهو المأثور عن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم فإنه كان إذا أراد أن يدعو قوماً قرأ عليهم ما تيسر منه فلا يجدون محيصاً من التسليم به قال تعالى : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لَرَأَيْتَهُ خاشعاً مُتصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضربُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفَكَّرونَ ﴾[1]. وقال تعالى ﴿ وأُوحِيَ إِلَيَّ هَذا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بلغ ﴾[2] أي وسائر من بلغه من عموم الخلق وقال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيد﴾[3] .

إذا كان الأمر كما ترى فلماذا نعدل عن هذه الطريقة إلى غيرها ؟ فإن قيل أن الذي أمرنا أن نذكر به هو القرآن العربي لا ترجمته ، قلنا : ـ اننا نذكر بالقرآن من يفهمه فأما من لا يفهمه من الأجانب فنذكرهم بترجمته كما ذكره ابن حجر « ان الوحي متلو أو غير متلو إنما نزل بلغة العرب ، ولا يرد على هذا كونه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة عرباً وعجماً وغيرهم لأن اللسان الذي نزل عليه به الوحي عربي وهو يبلغه إلى طوائف العرب وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم » « انتهى »[4] .

ولا يرتضي السيد رشيد رضا ـ وهو من معارضي الترجمة للقرآن ـ هذا الإستدلال فيرد عليه بقوله : ـ « لئن كان اطلاع بعض الأفراد من أعاجم الشرق والغرب على ترجمة القرآن سبباً لإسلامهم فعلّته أنهم عرفوا منها أصول الإسلام ومقاصده كلها أو بعضها . وذلك كاف لتفضيله على غيره ومن الأديان كلها . ولم يكن سببه ترجمته كتأثير أصله المعجز للبشر في إقناع العقول وهداية القلوب الذي كان سبب اهتداء العرب وقلب طباعهم وجمع كلمتهم وارتفاع رايتهم وخضوع الأمم والشعوب لهم ولو بلغت هذه الأصول والمقاصد

---

(١) سورة الحشر : الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية : ١٩ .

(٣) سورة ق : من الآية : ٤٥ .

(٤) الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن : محمد فريد وجدي ص ١٢ ـ ١٣ .

للأعاجم بلغاتهم بأسلوب آخر بأن يذكر كل أصل في فصل خاص مع الشواهد عليه من القرآن والسنه ببيان معاني نصوصهما بالتفسير وإقامة الأدلة عليه من النقل والعقل لكان ذلك أقرب إلى الإقناع وأشد تأثيراً في هداية المستعد للإسلام . فإن هذه الطريقة المثلى للدعوة وهي التي جرى عليها مسلمو خير القرون »[1] .

ويرفض الأستاذ محمد فريد وجدي هذا الاعتراض من السيد رشيد ويرفض هذا الأسلوب في الدعوة لأمور .

أ - ان الأمم لا تقبل على قراءة هذه الرسائل كما لا نقبل نحن على قراءة رسائل المبشرين اعتقاداً من تلك الأمم أن هذه المطبوعات تكتب للدعاية وانها يتحرى فيها التأثير الخطابي والخلابه الكتابية .

ب - ان الخصوم يستطيعون أن يقاوموا رسائلنا برسائل مثلها مدعين أن ما نكتبه فيها ثمرة ما حـ ملناه من علومهم لا ثمرة تعاليم كتابنا .

جـ - ان الأمم المعاصرة لا يقنعها أن تأخذ الشيء بالواسطة وبفهم سواها له وإنما تريده من مصدره الأول وتدعي أنها تفهم منه أكثر مما يفهم أهله الأخصون »[2] .

٢ - واستدل أنصار الترجمة بدليل آخر ذلك أنه لا يمكن الإدعاء بأن النظم العربي يؤثر وتكون له لذة وطلاوة عند جاوي أو فارسي أو تركي أو ياباني أو صيني لا يفهم العربية فالأمم الإسلامية التي لا تفقه العربية ليست الآن واقعة تحت تأثير طلاوة النظم العربي حتى تكون قراءة التراجم مانعة عنهم هذه الطلاوة وهذا التأثير وعلى العكس فإن قراءة التراجم تجعلهم يحصلون على طلاوة المعاني ولذتها وتأثيرها ومن الخير أن نوفر لهم الحصول على بعض هذه المقاصد إذا فاتتهم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣٢٣ .
(٢) الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن : محمد فريد وجدي ص ٦ .

المقاصد كلها وليس يخفي على أحد من الناس أن ينبوع المعارف الإلهية هو معاني القرآن المدلول عليها بنظمه العربي وإذا ذهبنا إلى أن المعارف الإلهية مرتبطة بالألفاظ صرنا إلى شيء من اللغو لا يقوله قائل »[1] .

ويتساءل الشيخ محمد مصطفى المراغي رداً على من يرفض الترجمة : ـ « لم يحرم المسلم من مناجاة ربه بمعنى قوله »﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾[2] أو معنى قوله ﴿ إِنَّ فِي خلْقِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرونَ الله قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3] الآيات أو من معنى قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . ﴾[4] الآيات ، واني لا أتردد لحظة واحدة عن القول بأن جمال معاني هذا الآيات لا يمكن أن يفارقها في اللغات الأخرى، نعم. قد تضيع روعة هذه الألفاظ ولكن تبقى روعة المعاني والمناجاة محتاجة إلى هذه الروعة »[5].

ولا يرتضي السيد رشيد رضا هذا الإدعاء ويجيب عليه من وجهين :

أحدهما : ان الفهم والتدبر وما يراد بهما من الخشوع والاعتبار إنما يتم بتعلم المسلمين للغة الكتاب الإلهي لا بتحويل الكتاب الإلهي إلى لغاتهم كما فصله الإمام الشافعي في رسالة الأصول ، وأقره جميع المسلمين لسبق الإجماع وجريان العمل على ذلك في الصدر الأول . . فتعين أن يكون المسلمون تابعين لما أنزل

---

(١) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ١٤ ـ ١٥ .
(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران الآيتين : ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٤) سورة الزمر من الآية : ٦٧ .
(٥) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ٢١ ـ ٢٢ .

الله تعالى دون أن يكون ما أنزله تعالى تابعاً للغاتهم ولا يعقل أن يؤثر المؤمن بالله وبكتابه وبرسوله لغة قومه على لغة كتاب الله ورسوله . ولهذا كان قدماء العجم من المسلمين يزاحمون العرب بالمناكب في تلقي العربية من أعراب البادية ، وفي جميع علومها وفنونها وآدابها كعلوم الشريعة نفسها وذلك أن إيمانهم كان برهانياً وجدانياً . .

ثانيهما : أن ما لا بد منه في التلاوة في الصلاة وهو الفاتحة وبعض الآيات أو السور القصيرة يمكن أن يفسر لكل مسلم يحفظه تفسيراً يتمكن من فهم معناه . والاعتبار به فهو لا يتوقف على ترجمته »[1] .

ويرد الشيخ محمد مصطفى المراغي على هذا الاعتراض بقوله : « أما تعريب الأمم الإسلامية الأعجمية فهو أمل حلو ، وكل مسلم يود لو أن اللغة العربية عمت العالم الإسلامي جميعه أو العالم كله وأصبحت لغة التفاهم والتخاطب ولغة التأليف والتراسل ولغة العلم ولغة الفنون ويود كل مسلم أن يصبح كل المسلمين قادرين على فهم القرآن الكريم بنظمه العربي وقادرين على النطق به وقادرين على استنباط الأحكام منه .

ولكن إلى أن يتحقق هذا الأمل ماذا تفعل الأمم الأعجمية ؟ وهل الأفضل لها أن تبقى كما هي قانعة بقراءة الفاتحة في الصلاة ثم هي بعد ذلك لا تستطيع النظر في ألفاظ القرآن العربية ولا النظر في معانيه المترجمة أو الأفضل أن تنقل إليها معاني القرآن وينقل ما يمكن نقله بالترجمة الحرفية لتستطيع إطالة الصلاة والمناجاة بقراءة الترجمة الحرفية ، وتستطيع النظر والفهم والتدبر في المعاني ؟ هذه في الحقيقة هي المسألة بقطع النظر عن الجواز والحرمة فإن أمر الجواز والحرمة فرغ منه الفقهاء منذ اثني عشر قرناً (!!) ونحن لا نحدث جديداً من الفقه في هذه المسألة »[2] .

---

(١) تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا . الجزء ٩ الصفحة ٣٢٣ .

(٢) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي : ص ٣٢ .

٣ ـ وقالوا أن مما يضطرنا إلى ترجمة القرآن أن الأوروبيين ترجموا القرآن تراجم سقيمة لا نرى مندوحة من تقويمها ولا يسعنا تركها على حالها »[١] .

ويتساءل الأستاذ وجدي بعد هذا « أفلا يكون من أهم ما يجب أن يعنى به الأزهر وضع ترجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم تتلافى ضرر الأخطاء الفاحشة التي جاءت في تلك التراجم الكثيرة فيقف الناس على حقيقة الإسلام من مصدره الأقدس وبخاصة في هذا العهد الذي تغلي به الرؤوس في أوربا وأمريكا وآسيا بطلب التجديد والوقوف على الحقائق الناصعة ، وإزاء حركة المؤتمرات الدينية التي تعقد كل عام في عاصمة من أكبر عواصم الأرض .

أمن الورع أن يقف المسلمون جامدين مكتوفي الأيدي أمام أمثال هذه الحركات الفكرية والروحية ليتوهم العالم كله أننا لا نملك سلاحاً نكافح به في ميدان هذا الجهاد الفكري في هذا العصر المنير ؟ »[١] .

٤ ـ ويستدلون هنا أيضاً ببعض النصوص من كتب الفقه فيذكر الشيخ محمد مصطفى المراغي من الأدلة ما « قال شمس الأئمة السرخسي في كتاب المبسوط » وأصل هذه المسألة إذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة رحمه الله ويكره وعندهما لا يجوز إذا كان يحسن العربية وإذا كان لا يحسنها يجوز وأبو يوسف ومحمد رحمهما الله قالا القرآن معجز والاعجاز في النظم والمعنى فإذا قدر عليهما فلا يتأدى الواجب الا بهما وإذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه كمن عجز عن الركوع والسجود يصلي بالإيماء »[٢] . . وقال فخر الدين قاضيخان « وعلى هذا الخلاف إذا قرأ القرآن في الصلاة بالفارسية عند أبي حنيفة رحمه الله يجوز . وإن كان يحسن العربية وعندهما إذا كان يحسن العربية لا يجوز وتفسد صلاته . كذا ذكر شمس الأئمة الحلواني»[٣] «وفي شرح فخر الدين الزيلعي على الكنز

---

(١) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي : ص ١٢ .

(٢) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ١٥ .

(٣) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ١٥ ـ ١٦ .

« وأما القراءة بالفارسية فجائزة في قول أبي حنيفة وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز إذا كان يحسن العربية لأن القرآن اسم لمنظوم عربي لقوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءآناً عَرَبِيّاً ﴾(١) وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾(٢) والمراد نظمه ، ولأبي حنيفة قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسَى ﴾(٣) وصحف إبراهيم كانت بالسريانية وصحف موسى بالعبرانية فدل على كون ذلك قرآناً وما تلونا يعني ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ و﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ لا ينفي كون غير العربي قرآناً لأنه مسكوت عنه ويجوز بأي لسان كان سوى الفارسية وهو الصحيح لأن المنزل وهو المعنى عنده لا يختلف باختلاف اللغات والصحيح أن القرآن هو النظم والمعنى جميعاً عنده لأنه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والاعجاز وقع بهما جميعاً إلا أنه لـم يجعل النظم ركناً لازماً في حق جواز الصلاة خاصة رخصة لأنها ليست بحالة الأعجاز »(٤) .

وهم حين ينقلون هذه النقول فإنها عندهم كافية إلى حدّ كبير في إثبات مذهب الحنفية عموماً بما لا يقبل الشك أو النقاش في ترجمة القرآن الكريم على حسب ما فهموه أنفسهم يقول وجدي : ـ« أما القرن الثاني فقد أصبحت هذه الرخصة الإسلامية مذهباً دينياً لصميم أهل السنة والجماعة في مذهب أبي حنيفة »(٥) ويقول محمد المراغي « وإذا تتبعت أمهات الكتب المعدة لنقل مذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه لا تجد فيها كلاماً عن الترجمة من حيث الجواز والحرمة ولكنك تجد الفروع الكثيرة والأدلة الطويلة على جواز الصلاة بها عند القدرة على العربية على رأي الإمام ، وعلى جواز الصلاة بها عند العجز خاصة على رأي أصحابه ولا أظن أنه يدور بخلد أحد ممن تمذهب بمذهب أبي حنيفة ودرس

---

(١) سورة الزخرف من الآية : ٣ .
(٢) سورة يوسف من الآية : ٢ .
(٣) سورة الأعلى الآيتين : ١٨ ـ ١٩ .
(٤) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ١٦ .
(٥) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ٥٨ .

فروعه وأصوله أن يشك في جواز الترجمة على مذهب أبي حنيفة وأصحابه »[1] .

ثم رغب ـ المراغي ـ بعد هذا التعميم والتأصيل الذي نسبه إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى رغب بعد هذا أن يعم الفقهاء فلا يجد غضاضة في القول بعد أن يستدل على جواز الصلاة بالترجمة « هذه في الحقيقة هي المسألة بقطع النظر عن الجواز والحرمة فإن أمر الجواز والحرمة فرغ منه الفقهاء منذ اثني عشر قرناً ، ونحن لا نحدث جديداً من الفقه في هذه المسألة»[2] ؟ !

ثم رغب بعد هذا أن يعم المذاهب بعد أن يسوق نصاً من تصحيح الفروع للمقدسي الحنبلي ونصاً من الإقناع يفهم هو منهما ما أراد من جواز الترجمة ، وبعد أن يسوق نصاً عن ابن حجر نقله ابن حجر عن ابن بطّال المالكي وبعد أن يفهم المراغي من النص ما أراد يجعله مذهب المالكية بل ويجعله مذهباً للشافعية لأن ابن حجر وهو شافعي نقله ولم يرد عليه (!!) ثم يقول بعد هذا « ومن السهل أن يطمئن الباحث بعد هذه النصوص التي نقلناها[3] (!!) إلى أن الحنفية لم ينفردوا بالقول بجواز الترجمة بل وافقهم على هذا الحكم الشافعية لما علمت من إقرار ابن حجر لما نقله عن ابن بطال ، والحنابلة لما سمعت من نص كتاب تصحيح الفروع وكتاب الإقناع ، والمالكية لما رآه ابن بطال في شرح الحديث السالف وقد عرفت من قبل رأي الشاطبي وهو أن الترجمة

---

(١) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) العجيب أن رجال المدرسة العقلية الحديثة يذمون الفقهاء ونصوصهم الفقهية ويذمون مقلديهم والآخذين بأقوالهم ويحذرون من ذلك كله فالفقهاء كما يقول عبده « حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة » و « أن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا » (أنظر تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٩٤٢) والفقه ليس من الدين كما يقول محمد المراغي نفسه « ان الدين في كتاب الله غير الفقه » (مجلة الرسالة العدد ٣٩٦ السنة التاسعة ص ١٢٨) ولمزيد بيان راجع ما كتبناه عنهم في الأساس العاشر من منهجهم في التفسير . العجيب أنهم يذمون الفقه والفقهاء كما رأيت ولكنهم حينما يرون رأياً يوافقهم ولو من بعيد فإنهم يجعلونه أصلاً وقاعدة كبرى من قواعد الإسلام بل ومذهباً إسلامياً عاماً وشاملاً لكل المذاهب الإسلامية .

جائزة بإجماع المسلمين[1] [2].

ويرفض السيد رشيد رضا هذا الفهم منهما ويرد عليهما وعلى من ذهب إلى ما ذهبا إليه بقوله « إن مسألة القراءة في الصلاة شيء ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقاً شيء آخر ، والكلام في الثاني دون الأول ، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثاني حتى ينسب إلى الإمام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة وكتابته بغير اللغة العربية وكيف ذلك وقد أجمعت كتبهم على أن الخلاف في خصوص الصلاة »[3] .

ثم ينقل السيد رشيد بعض النصوص من شرح أصول البزدوي للإمام عبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي : - « والقرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً في قول عامة العلماء وهو الصحيح من قول أبي حنيفة إلا أنه لم يجعل النظم ركناً لازماً في جواز الصلاة خاصة ، وإنما هو لازم فيما سواه من الأحكام الأخرى كوجوب الاعتقاد وحرمة كتابة المصحف بالفارسية وحرمة المداومة والاعتياد على القراءة بها أ . هـ وقد نقل ان الإمام رجع عن هذا القول في الصلاة أيضاً إلى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقاً فيكون النظم ركناً لازماً عنده في كل حالة كما ذكره العلّامة الألوسي في تفسيره عند قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾[4] بناء على عود الضمير إلى القرآن باعتبار معناه ، وفي رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية وفي أخرى أنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة للعاجز عن العربية وقد صح رجوعه عن القول بجواز

---

(١) يحق لنا أن نقول هنا دفاعاً عن الشاطبي رحمه الله تعالى أنه أفرد فصلاً في منع الترجمة التي ذهب إلى جوازها وجواز الصلاة بها الشيخ المراغي (الموافقات جـ ٢ ص ٦٦ - ٦٨) .

(٢) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ٣٣ .

(٣) تفسير المنار محمد رشيد رضا : جـ ٩ ص ٣١٣ .

(٤) سورة الشعراء : الآية : ١٩٦ .

القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين لضعف الاستدلال بهذه الآية كما لا يخفى . . . ومن هذا يعلم ما في استدلال بعضهم بقول الإمام على جواز ترجمة القرآن بأي لغة خارج الصلاة وداخلها للقادر والعاجز لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقاً ، وعلى رواية رجوعه إلى قول صاحبيه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ولا للقادر في الصلاة وعلى رواية الثقات عنه لا تجوز مطلقاً بغير العربية في الصلاة وغيرها للقادر والعاجز ، والمعول عليه رأيه الأخير الذي صح رجوعه إليه كما هو رأي الجماعة فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقاً ؟ »(١) .

٥ ـ واستدلوا أيضاً بـ « أن الإمام الشافعي رضي الله عنه نصّ في كتاب الأم في الصفحة ١٤٧ من الجزء الأول على ما يأتي « وإذا ائتموا به فإن أقاما معاً أمّ القرآن أو لحن أو نطق أحدهم بالأعجمية أو لسان عجمي في شيء من القرآن غيرها أجزأته ومن خلفهم صلاتهم إذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن ، فإن أراد به كلاماً غير القراءة فسدت صلاته » قال المراغي (محمد مصطفى) « فهذا النص يدل على أن اللسان الأعجمي بعد قراءة المفروض عنده وهو الفاتحة لا يبطل الصلاة وهو موافق للحنفية في هذا »(٢) .

ولا يقبل السيد رشيد هذا الفهم منهم بل يذكر معناه عنده فيقول « وإذا ائتموا به . . إلخ معناه أن الأعجمي الذي لا يحسن القراءة إذا أمّ مثله فأقاما معاً أمّ القرآن أي أحسن كل من الإمام والمأموم قراءة الفاتحة أو لحناً جمعياً في غير الفاتحة ، أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غير الفاتحة كانت صلاة كل منهما صحيحة ، لأن اللحن والعجمة والرطانة الأعجمية في غير الفاتحة لا تبطل الإمامة ولا الصلاة ، إذ ركن القراءة في الصلاة هو الفاتحة وما عداه من القرآن فهو مستحب لا فرض ولا واجب ـ وليس عند الشافعي في الصلاة واجب غير فرض ـ والمفروض أن ما ذكر من النطق بالأعجمية

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣١٤ .

(٢) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ٢٤ ـ ٢٥ .

أو باللسان الأعجمي في غير الفاتحة سببه العجز عن القراءة الفصيحة لا التلاعب ولا قصد غير القراءة وإلا بطلت صلاتهما .

« ولا يدخل في هذا الباب شيء من تعمد ترجمة القرآن والاستغناء بالعجمي المترجم به عن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى وتسميته قرآناً ، كيف وقد صرح الشافعي في الرسالة بوجوب قراءة القرآن في الصلاة وغيرها بالعربية كما أنزله الله تعالى وبوجوب اداء سائر الأذكار المأمور بها بالعربية أيضاً وبوجوب تعلم العربية على كل مسلم لذلك وهذا نص عبارته (كما في الطبعة الأميرية التي مع كتاب الأم . له) : - « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك »[1] إلخ هذا نص الشافعي بعد أن أطال في كون كل ما في القرآن عربي وكتب مذهبه متفقة في المسألة كسائر كتب المسلمين واتباعه أشدهم فيها . . . » .

« أين ذكر الشافعي الترجمة وأباحها للأعجمي ؟ اللهم هذا افتراء عليه وجملة القول أن عبارة الإمام الشافعي في هذا المقام خاصة بمن لا يحسن النطق بالقرآن وما يعذر به وما لا يعذر به هو ومن يأتّم به ، ومثل هذا العجز معهود في كل زمان نسمعه بآذاننا ممن يتعلمون لغة غير لغتهم ولا يتقنونها من العرب أو العجم ، فهم يحرفون ويلحنون ويخلطون ألفاظاً من اللغة التي يجيدونها باللغة التي لا يجيدونها بغير اختيار ، ونعيد القول ونؤكده بأن تعمد ترجمة القرآن والقراءة به لا تدخل في شيء من كلام الإمام ولم تخطر ببال أحد من أتباعه في مذهبه عندما شرحوا كلامه وفصلوا أحكامه ولا تخطر ببال أيّ قارىء له يفهم ما يقرأ »[2] .

٦ ـ وأبرز ما استدلوا به ما أورده الشيخ محمد مصطفى المراغي قال

---

(١) أنظر : الرسالة : للإمام الشافعي : تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٤٨ .

(٢) أنظر تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ .

« وفي النفحة القدسية للشرنبلالي « وروي أن أهل فارس كتبوا إلى سلمان رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب لهم (بسم الله الرحمن الرحيم بنام يزدان بخشايند) « فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم وبعد ما كتب عرض على النبي صلى الله عليه وسلم كذا في المبسوط . قاله في النهاية والدراية »[١] .

وقال الأستاذ محمد فريد وجدي : ـ « ومع هذا فقد ظهر القول بجواز ترجمة القرآن والصلاة به مترجماً لمن لا يعرف العربية في القرن الأول وعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ ترجم سلمان رضي الله عنه فاتحة الكتاب إلى الفارسية صلى بها بعض من أسلم من الفرس وأصبح هذا الجواز في القرن الثاني أصلاً مذهبياً في أكبر مذاهبهم الفقهية »[٢] .

ويتساءل الأستاذ وجدي « إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على سلمان الفارسي أن يترجم الفاتحة ويصلي بها قوم من الفرس ، أفينكر اليوم على من يتصدى لترجمة معاني القرآن لإفهام الأمم القوية حقيقة الدعوة الإسلامية التي وقف لها حياته الشريفة ودعا أتباعه للدؤوب على بثّها في العالم كله باعتبار أنها حق مشاع للبشر كافة ؟ ان الإمام أبا حنيفة الذي أدرك القرن الأول وأخذ علمه عن التابعين قد استند على هذه السابقة فقرر بناء عليها جواز ترجمة القرآن والصلاة به مترجماً . أفنتورع نحن عما لم يتورع عنه هو وأصحابه ونحن في القرن الرابع عشر ، ومقصدنا أدعى للاهتمام والعناية من مقصده فقد كان يقرر جواز العمل برخصة من رخص الدين ، ولكننا حيال تصحيح تحريفات وقعت في معاني كلام الله القديم ي تراجم قام بها رجال من الأمم الأجنبية وهو أمر جلل لو تغابينا عنه وقعنا في أثم عظيم . يقول المتلاعبون بالخلافات الفقهية أن خبر ترجمة سلمان للفاتحة لم يثبت . نقول : ان قولهم لم يثبت على الإطلاق غير

---

(١) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ١٧ وانظر الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ٦٣ و ٥٨ .

(٢) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ٧٠ ـ ٧١ .

صحيح فإنه ثبت عند أبي حنيفة وأصحابه فأخذوا به كما هو وارد نصاً صريحاً في كتب الحنفية وإذا كان هذا الخبر لم يثبت عند بقية الأئمة فلم يأخذوا به فليس هذا بغريب ففي الفقه أحكام كثيرة ثبتت مصادرها عند واحد فأخذ بها ، ولم تثبت عند الثلاثة فرفضوها . فإذا أراد أحدنا أن يتكلم عن واحد منها في هذا العصر فلا يجوز له ان يقول أن هذا الخبر لم يثبت مرسلاً النفي إطلاقاً على هذا النحو فإن هذا العمل لا يعد أمانة في العلم ، ولكن يجب أن يفصّل فيه القول فيقول ثبت عند الإمام فلان فأخذ به ، ولم يثبت عند الثلاثة فرفضوه »[1] .

ولكن الأستاذ وجدي وهو يذهب في إثبات جواز الترجمة ينسى ما يوجهه من نصائح للآخرين ، فكما نصح من وصف حديث سلمان بأنه لم يثبت بعدم « إرسال النفي » لأن هذا لا يعد أمانة علمية نراه يقع هو في إرسال الإثبات غير عابىء بآراء الآخرين حيث يقول : ـ « فانظر إلى أي دركة وصل بعضنا في تدهوره من إغفال الناحية العالمية للإسلام حتى أصبح لا يسعهم ما وسع آباءنا الأولين من لدن القرن الأول ، بل ما وسع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمح بأن تترجم الفاتحة ويقرأ بها مترجمة في الصلاة وقد بنى أبو حنيفة مذهبه على هذه الحادثة »[2] ويزيد القول « وهل يجرؤ أحد على مثل هذا القول وقد سمح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تترجم الفاتحة ويصلى بها ؟ انكم تنكرون ذلك ، وماذا يجدي إنكاركم له وهو مأخذ مذهب هو أكبر مذاهب المسلمين على الإطلاق وأولها ظهوراً ولم يطعن عليه نقدة الحديث ولا مسّته المذاهب التي لم تأخذ به بسوء »[3] .

٧ ـ وأخيراً فإنهم يقولون « فإذا لم تكن ترجمة القرآن جائزة في مذهب أبي حنيفة ومستحسنة لدى كثير من كبار علماء المذاهب الأخرى كما رأيت أفلا نكون

(١) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٢) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٥ .

في حل من ترجمته استناداً على القاعدة الإسلامية المشهورة وهي أن الضرورات تبيح المحظورات ، درءاً للتحريف الذي وقع في التراجم التي قام بها أفراد من الأوروبيين ، في أزمان مختلفة »[1] .

تلكم بعض أدلة الشيخ المراغي والأستاذ محمد فريد وجدي فيما ذهبا إليه ، ونستطيع أن نجمل رأيهم في الترجمة بأنهم يرون أن ترجمة معاني القرآن الكريم ممكنة في كل القرآن أما ترجمته الحرفية فممكنة في بعض القرآن لا كله[2] والصلاة تجب بالترجمة الحرفية[3] على العاجز عن العربية[4] وتجب قراءة النص العربي للقادر عليه[5] ولا يصح أن تسمى تلك التراجم قرآناً ولكن سلب هذه التسمية لا يستلزم سلب جواز استخراج الأحكام منها بل يجب أن يصح استخراج الأحكام منها لأن الأحكام تستفاد من المعاني التي هي مدلولات الألفاظ العربية والمعاني يصح نقلها إلى اللغات الأخرى[6] وما استخرج من الأحكام من الترجمة المعنوية يكون مستخرجها مقلداً للمترجم وهذا لا شبهة فيه أمّا ما استخرج من الترجمة الحرفية فإن مستخرجها لا يكون مقلداً في فهم المعنى[7] وان الترجمة وإن كانت غير قرآن باتفاق فإنها تحمل معاني كلام الله ومعاني كلام الله ليست كلام الناس[8] (!!) .

هم يقولون هذا ولكن الأستاذ وجدي يأتينا بالعجب فهو ينكر على من وصفهم بالدعوة إلى ترجمة القرآن ليقرأه الناس في الصلاة فيقول « من الذي قال اننا

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .
(٢) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ٢٧ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق : ص ٢٢ .
(٥) المرجع السابق : ص ١٨ .
(٦) المرجع السابق : ص ١٢ .
(٧) المرجع السابق ص ١٣
(٨) المرجع السابق ص ٢٢ .

نترجم القرآن ليقرأه الناس في الصلاة ؟ إنّ كل ما قلناه اننا نترجم معاني القرآن لتصحيح التراجم الخاطئة إذ لا يجوز شرعاً ترك المعاني القرآنية محرفة فيها ولتفهيم الأجانب سمو ديننا وأن كتابه يهدي للتي هي أقوم في جميع المجالات الإنسانية فلماذا يلزمنا الأستاذ بما لم نقله ولا قاله أحد من الذين تصدوا لهذا المشروع »[1] .

ينكر هذا وهو الذي قال قبل أسطر خمسة من كلامه هذا دفاعاً عن الفرس الذين ورد أنّ سلمان رضي الله عنه ترجم لهم الفاتحة « وما الذي كان يضطرهم إلى الصلاة بلغة لا يفهمونها وهم لم يتعودوا ذلك ولا عهدوه في غيرهم ولا سمعوا بأن الإسلام يحظره فكتبوا إلى صديق لهم أن يوافيهم بترجمة الفاتحة ففعل »[2] .

وهو أيضاً يعترف في نفس الصفحة بأن دعوته لترجمة القرآن والصلاة بالترجمة !! حيث يقول منكراً على أحد خصومه « ألست القائل في الصفحة التالية اجمع الأئمة الأربعة وجماهير المسلمين على ما يأتي :

١ ـ عدم جواز ترجمة القرآن .
٢ ـ عدم جواز كتابته بغير العربية .
٣ ـ عدم جواز القراءة بغير العربية خارج الصلاة .

فكيف بعد اعتقادك هذه الأمور الثلاثة وقولك بإجماع الأمة على عدم جواز قراءته بغير العربية حتى خارج الصلاة تقدم على الدعوة معي لترجمته والصلاة بالترجمة حتى تلين الألسنة للقراءة بالعربية ؟ »[3] .

وإن شئت مزيد اعترافات من وجدي فارجع إلى ما نقلناه عنه من نصوص تدرك منها مدى تناقضه مع نفسه واضطرابه .

تكلم بعض أدلة أولئك وذلكم هو خلاصة رأيهم في الترجمة للقرآن

---

(١) الأدلة العلمية : محمد فريد وجدي ص ٦٦ .
(٢) المرجع السابق ٦٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٦ .

الكريم وما كان لنا أن نستطرد في سوقها لولا أن قصد الإيضاح وإتمام العبارة اضطرنا لذلك . وهو أمر لا نتوقعه في سوق أدلة السيد رشيد رضا على ما ذهب إليه لوضوحها وتمام عبارتها .

أدلة السيد رشيد رضا :

استدل السيد رشيد على ما ذهب إليه من منع ترجمة القرآن الكريم بأدلة كثير جداً نذكر منها[1] :

١ ـ ان ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الأصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطىء في فهمه ويصيب ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذي ننكره .

٢ ـ أن القرآن هو أساس الدين الإسلامي بل هو الدين كله إذ السنة ليست ديناً إلا من حيث أنها مبينة له[2] فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم ما فهمه المترجم لهم لا نفس القرآن المنزل من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والإجتهاد بالقياس إنما هو فرع عن النص والترجمة ليست نصاً من الشارع والإجماع عند الجمهور لا بد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستنداً فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآناً شيء من أصول الإسلام .

٣ ـ أن القرآن منع التقليد في الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة

---

(١) أنظر تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣٠٧ ـ ٣١٢

(٢) هذا إفتيات من حق السنة النبوية الشريفة فالسنة مصدر مستقل بنفسه من مصادر التشريع الإسلامي وهي أيضاً مبينة لمجمل القرآن ومخصصة لعمومه فلا يصح القول أنها ليست ديناً إلا من حيث أنها مبينة له . وقد تقدم الإشارة إلى هذا في الأساس التاسع من أسس منهجهم في التفسير .

القرآن هو تقليد لمترجمه فهو إذا خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها .

٤ ـ أن القرآن ينبوع للهداية والمعارف الإلهية لا تخلق جدته ولا تفتأ تتجدد هدايته وتفيض للقارىء على حسب استعداده حكمته ، فربما ظهر للمتأخر من حكمه وأسراره ما لم يظهر لمن قبله تصديقاً لعموم حديث « فرب مبلغ أوعى من سامع » وترجمته تبطل هذه المزية إذ تقيد القارىء بالمعنى الذي صوره المترجم بحسب فهمه .

٥ ـ ذكر الغزالي في كتاب الجام العوام عن علم الكلام أن ترجمة آيات الصفات الإلهية غير جائزة واستدل على ذلك بما هو واضح جداً « لأن من الألفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها ومنها ما يوجد لها فارسية تطابقها لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت العرب باستعارتها منها ، ومنها ما يكون مشتركاً في العربية ولا يكون في العجمية كذلك »(١) وبين أن الخطأ في ذلك مدرجة للكفر .

٦ ـ ان لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة وإذا فات يفوت بفوته خير كثير فيا طالما كان جاذباً إلى الإسلام .

٧ ـ أن القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بل هو الآية الباقية من آيات النبيين وإنما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف بالنص الذي نقلناه عمن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك .

٨ ـ ويستدل بعد هذا بنصوص للفقهاء في ذلك منها(٢) :

قال شيخ الإسلام أبو الحسن المرغيناني الحنفي في التجنيس : ـ
« ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالإجماع لأنه يؤدي إلى الإخلال بحفظ

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٢١٤ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٩ ص ٣١٢ ـ ٣١٦ .

القرآن لأنه أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فإنه دلالة على النبوة ولأنه يؤدي إلى التهاون بأمر القرآن » .

وقال في معراج الدراية « من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو مجنون أو زنديق والمجنون يداوى والزنديق يقتل ، وروي ذلك عن أبي بكر محمد ابن الفضل البخاري » .

ومذهب الحنابلة أن الصلاة تفسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند العجز وعدمه وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقاً .

ومذهب المالكية : أنه لا تجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ولذلك أوجبوا تعلم الفاتحة على من لا يحسن قراءتها في الصلاة بالعربية إن أمكن وإلا ائتم بمن يحسنها فإن لم يكن فالمختار سقوطها وسقوط القيام لها وقيل يجب قيامه بقدر ما تيسر من الذكر .

وقال الإمام الزركشي من أئمة الشافعية رحمه الله تعالى الأقرب المنع من كتابة القرآن بالفارسية كما تحرم قراءته بغير لغة العرب .

إذا علمت هذا فالمعول عليه عند جميع الأئمة أنه لا تجوز كتابة القرآن ولا قراءته بغير العربية لعاجز أو قادر لا في الصلاة ولا خارجها ، إلا ما تقدم عن السادة الحنفية في خصوص الصلاة للعاجز عن العربية وقد علمت ما فيه ، وتصحيح الثقات رجوع الإمام عنه .

تلكم بعض أدلة السيد رشيد رضا ، ولا يذهبن بك الفهم إلى أنه يقطع عن العجم كل وسيلة لفهم القرآن إلا بتعلم اللغة العربية فهو لم يرد هذا حيث يقول « فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون تفسيره لهم بلغتهم مع بقائه إماماً لهم ودون ترجمته لدعوة غيرهم به إلى الإسلام مع أن المترجم بين المعنى الذي يفهمه هو » و « أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية متعذرة ويترتب عليه مفاسد كثيرة فهو محظور لا يبيحه الإسلام لأنه جناية عليه وعلى أهله ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآناً ولا كتاب الله ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى فيقال قال الله

كذا لأن كتاب الله وقرآنه عربي بالنص القطعي والإجماع الشرعي من سلف أهل الملة كلهم وخلفها ، لا الإجماع الأصولي المختلف فيه ، ولأنها ليس لها شيء من خصائص القرآن اللفظية ولا المعنوية كالاعجاز وهي لا بد أن تكون مخالفة له في المعنى كمخالفتها في اللفظ فإسنادها إليه تعالى كذب عليه وكفر بكتابه بل أجمع المسلمون على أنه لا يجوز إبدال لفظ من ألفاظ المصحف بلفظ آخر يرادفه من اللغة العربية ككلمتي «شك وريب» في قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[1] وأما الترجمة المعنوية التي هي عبارة عن تفسير ما يحتاج إلى تفسيره منه بلغة أخرى فغير محرم وإنما تتبع فيه المصلحة الشرعية بقدرها »[2] .

ولنا رأي :

لا يبعد رأينا هنا عما قلناه في الإجتهاد والتقليد من تقسيم المتنازعين إلى قسمين معتدلين ومتطرفين ، وأنه لا خلاف يذكر بين المعتدلين من المقلدين ودعاة الإجتهاد، وحصرنا الخلاف الشديد بين المتطرفين من الفريقين

ما قلناه هناك نقوله هنا في ترجمة القرآن الكريم فلا خلاف يذكر بين الداعين إلى ترجمة معاني القرآن المعتدلين منهم وبين رافضي الترجمة .

وإنما الخلاف بين المتطرفين من الفريقين دفعت طائفة من أنصار الترجمة إلى ترجمة القرآن الكريم بنوعيها حرفية ومعنوية وأجازت الصلاة بالترجمة الحرفية واستنباط الأحكام منها وزعمت أن مستنبط الأحكام لا يكون مقلداً أيضاً إذا استنبط من الترجمة الحرفية ويكون مقلداً إذا كان من الترجمة المعنوية بل تجاوزوا هذا كله فزعم الشيخ المراغي (محمد مصطفى) « أن الترجمة وإن كانت غير قرآن باتفاق تحمل معاني كلام الله ومعاني كلام الله ليست كلام الناس وعجيب أن تسلب من معاني القرآن صفاتها وجمالها وتوصف بأنها من جنس كلام الناس

---

(١) سورة البقرة من الآية الثانية .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣١١ـ٣١٢ .

بمجرد أن تلبس ثوباً آخر غير الثوب العربي كأن هذا الثوب هو كل شيء »[1] .

عجباً إذا لم تكن معاني القرآن الكريم من كلام الناس كما يقول فكلام من هي إذن ؟! لا يصح القول أبداً أنها ليست من كلام الله ولا من كلام الناس فإذا نفى أنها من كلام الناس فقد تعين أنها من كلام الله وهو أمر فرّ من القول به وهو لازم كلامه ولا شك أن وصف معاني القرآن بأنها كلام الله أمر خطير وتطرف شديد .

والتفاسير للقرآن الكريم كلها معاني له أو تحري لمعانيه فهل يصح أن نطلق على هذه التفاسير كلها بأنها كلام الله؟! وفيها ما فيها من أقوال متضادة وأقوال يبطل بعضها بعضاً ؟! حاشا لله .

فلا يستبعد منهم بعد هذا إيجابهم الصلاة بالترجمة على العاجز عن العربية وإباحتهم استنباط الأحكام منها ونحو ذلك .

ذلكم شأن المتطرفين في الدعوة إلى ترجمة القرآن الكريم ، وتطرف آخرون فحرموا أيّ نوع من الترجمة للقرآن الكريم وسدوا كل باب للعجم لفهم القرآن إلا باب التعلم للغة العربية .

أما من ذهب إلى حدّ الإعتدال من الفريقين فليس بينهما خلاف يذكر اللهم إلا خلاف حول مسمى الترجمة فسماها أنصار الترجمة « ترجمة معاني القرآن الكريم » وسماها الرافضون للترجمة « تفسير القرآن » أو « ترجمة تفسير القرآن الكريم » وجمع آخرون الإسمين معاً « ترجمة معاني تفسير القرآن الكريم »[2] .

قال السيد رشيد رضا « فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون تفسيره لهم بلغتهم مع بقائه إماماً لهم . ودون ترجمته لدعوة غيرهم به إلى الإسلام »[3] .

---

(١) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص ٢٢ .

(٢) الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت الشرقاوي ص ١٧٧ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٣١١ .

وإذا أمعنت النظر وقلبت الأمور لم تجد تغايراً في الهدف فكلاهما يمنع الصلاة بالترجمة ، ويوجب أن ينص فيها على أن هذه الترجمة ليست قرآناً ويبين فيها أن القرآن لا تمكن ترجمته وان مزاياه الكاملة وإعجازه والتحدي به إنما هو بنصه العربي .

كلاهما يمنع هذا ويبيح أن يترجم إلى اللغات الأعجمية « تفسير القرآن الكريم » أو « معاني القرآن الكريم » أو « معاني تفسير القران الكريم » وأن يكون الغرض من الترجمة الإستعانة بها ليفهم الأعجمي النص المقروء بالعربية .

وهذا هو ما نراه الحق فإن خصوص لغة القرآن لا تنافي عالميته فالقرآن ليس للعرب خاصة بل هو لإنذارهم ومن بلغ ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾(١) .

ولكن وجوب الإنذار به وتبليغه للناس لا يلزم منه بحال من الأحوال الصلاة بترجمته فالدعوة بالترجمة شيء والصلاة بها شيء آخر وكل منهما له حكمه الذي ينفرد به .

فالقرآن دلّ على وجوب تبليغه للناس ونشره بينهم كافة عرباً وعجماً وتبليغه للعرب لا يحتاج إلى ترجمة وإلى العجم لا بد من ترجمة معانيه وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فوجبت ترجمة معانيه لاستحالة ترجمته حرفياً .

ولم يدل القرآن على وجوب أو جواز الصلاة بترجمته ولم يثبت في السنة ما يبيح الصلاة بالترجمة . . فبقيت الصلاة على الأصل .

وكانت الضرورة كافية عند بعض العلماء لإباحة الصلاة بالترجمه حين دخول الناس في دين الله أفواجاً صعب معه تعليمهم جميعاً الفاتحة بالعربية فقال بإباحة الصلاة بالترجمة ثم تبين له بعد ذلك أن لا ضرورة فرجع عن قوله .

ثم قام بعض المفتونين بالمدنية الأوربية بالدعوة إلى ترجمة القرآن للغات

---

(١) سورة الأنعام من الآية ١٩ .

الأعجمية وجوزوا الصلاة بالترجمة خشية أن يوصف الإسلام بالجمود وعدم مسايرة الحضارة الحديثة .

وما كنا لنرد عليهم وعلى من دعا إلى مثل دعوتهم بالإستشهاد بواقع أوربا وأمريكا لولا أنّ أولئك القوم ينظرون بعين الرضا والإعجاب لما يجري هناك .

ولندع الحديث للأمير شكيب أرسلان يحدثنا عن ذلك : ـ

« وهنا نحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية في سلم المدنية وراقية جداً مثل الفرنسيس والبلجيك والنمساويين وما يزيد على الثلث من الألمان ونحو الربع من الهولانديين ثم أمة المجر وأمة التشيك والبولونيين ثم الإيرلانديين ثم الأمة الإيطالية والأمة الإسبانيولية والأمة البرتغالية وجميع سكان أمريكا الجنوبية وأهل أميركا الوسطى وخمسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية بدون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها إلا نزر لا يذكر ، وإنما يفسرون لهم ما يريدون فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتيني إلى ألسنتهم .

إذن هذه سبيل ليس الإسلام فيها بأوحد »[١] .

إذن فالترجمة للقرآن التي نراها لا يصح بحال من الأحوال الصلاة بها ولا نتصور ضرورة تدعو إلى ذلك فما يقرأه المسلم في صلاته من القرآن لا يعدو ما هو فرض أو مستحب والمفروض لا يتجاوز الفاتحة والفاتحة لا تتجاوز أسطراً يستطيع الأعجمي مهما بلغت عجمته أن يحفظها بين وقتين من أوقات الصلاة وجاز له فيما أرى الجمع بين الوقتين ان أدركه الوقت قبل حفظه وما عداها من سور القرآن فإنه يحفظ منه على التراخي .

ومن هنا ندرك أن لا ضرورة مبيحة للصلاة بالترجمة الأعجمية للقرآن الكريم ونبقي بهذا على قدسية القرآن الكريم وعلى سلامة لغته وشرفها .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب أرسلان جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

وخلاصة ما نراه في ترجمة القرآن الكريم أنه كما يباح بإجماع المسلمين كافة تفسير القرآن الكريم وتداوله بين المسلمين فإنه لا ضير أن يفسر القرآن عربيّ أو يفسره غير عربيّ متمكن من العربية بلغته ما دام ما يقوله لا يتجاوز وصفه بـ « التفسير » فكما يصح أن يقال هذا تفسير القرآن بالعربية فإنه يجوز أن يقال وهذا تفسيره بالفارسية وأرى أن لا تورد كلمة ترجمة إطلاقاً كما لم نرها في أي تفسير للقرآن بالعربية وحتى لا يشعر الأعجمي بحال من الأحوال عند قراءته للترجمة بما يوهمه أن ما يقرأه هو القرآن الكريم .

فليكن النص للقرآن الكريم مكتوباً بالعربية ومرقماً بالأرقام العربية وبالكتابة المصحفية المعروفة ومضبوطاً بالشكل في أعلا كل صفحة ، وليتلوه باللغة المترجم إليها كلمة « التفسير » ثم يكتب تحتها بتلك اللغة ذلكم التفسير .

ونكون بهذا أبقينا النص القرآن على لغته الأصلية وجعلنا أمام قارىء التفسير الأعجمي ما يشده إلى اللغة الأصلية وبحثه على تعلمها ليستمتع هو بنفسه بتفهم المراد منه كما تعلمها صاحب التفسير الذي بين يديه .

ولا أعتقد أن أحداً من العجم سيلتبس عليه الأمر في مثل هذه الطريقة فيعتقد أن ما يقرأه من التفسير هو القرآن الكريم بل سيدرك في الحال أن القرآن الكريم هو النص العربي وأن النص العجمي لا يعدو التفسير له .

ولا ضير أن يوضع بين النص القرآني الكريم والتفسير بالأعجمية نص التفسير بالعربية وحينئذ يصح أن تسمى تلك الترجمة « ترجمة تفسير القرآن » أو « ترجمة معاني القرآن الكريم » .

هذا ما نراه والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

القِصّة في القرآن الكريم

تلك حلقة أخرى نستطيع أن نضمها إلى الحلقة السابقة الدعوة إلى ترجمة القرآن الكريم من السلسلة التي سلكها أعداء الإسلام للكيد للقرآن الكريم وابطال منزلته بين المسلمين وإطفاء نوره بأفواههم .

كانت الحلقة السابقة تهدف لفصل العجم عنه ووضع حاجز بينهم وبين لغته وكل ما يشدهم إليه فيه أما تلك الحلقة فتهدف إلى فصل العرب عنه وزعزعة ثقتهم به والتشكيك في أخباره وقصصه وما الذي يبقى للإنسان من هداية القرآن بعد أن يشك في صحة ما يسمع من نصوصه ؟!

تكشف هذا نصوص كثيرة لأولئك الأعداء وما تزال أصداء كلمة غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً تجلجل في سمع كل من يهمه شأن الإسلام حيث يقول « ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق » ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر « إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية »[1] ويقول وليم جيفورد « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه »[2] ويقول اللورد كرومر في مصر « جئت لأمحو ثلاثاً القرآن والكعبة والأزهر »[3] .

---

(١) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله : جلال العالم ص ٣١

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون : أنور الجندي ص ٢٩ .

ولن نذهب نذكر المزيد من تلـك النصوص التي تحز في نفس المسلم . لا يحزه قولهم فهو يعرف مبلغ حقدهم على الإسلام وأهله وإنما يحزّه غفلة أولئك المسلمين عما يراد بهم ثم تمكن أعداء الإسلام من إدارة أمور المسلمين في عقر دارهم وقدرتهم على تولية من يريدون في المنصب الذي يريدون .

ما اعتدى أحد من المنتسبين إلى الإسلام على الإسلام إلا ورأيناه بعد فترة يتبوأ منصباً كبيراً في الدولة ، وإن قامت الصيحات ضده والإعتراضات على فكرته السابقة لكنها لا تلبث أن تسكن يعقبها تولية المنصب ذاك .

لا أزعم لنفسي تلك الملاحظة ولكنها ملاحظة تعدد مدركوها كتب توفيق الحكيم مرة عن إحدى تلك الإنتهاكات لحدود الشريعة الإسلامية فقال « وليست هذه الحركة هي الأولى من نوعها في مصر فقد سبق أن ألف الأستاذ علي عبد الرازق وزير الأوقاف الحالي كتاباً عن الإسلام وأصول الحكم فقامت قيامة الأزهر واحتجت هيئة كبار العلماء وفصلته واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيور باشا احتجاجاً على الفصل وأقيل وزير العدل عن منصبه وكان عبد العزيز فهمي باشا بهذا السبب .

وحدث مرة أخرى أن ألف الدكتور طه حسين كتاباً عن الشعر الجاهلي شك فيه في بعض المعتقدات فقامت قيامة البرلمان وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه فهدد عدلي باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة حماية للبحث العلمي »[1]

عجباً لواقع المسلمين تعتدي طائفة من المنتسبين للإسلام على الإسلام فإذا ما علت أصوات الصادقين بالاحتجاج قامت طائفة من ذوي النفوذ بحمايتهم منهم والدفاع عنهم فيستقيل الوزراء ويستقيل رئيس الوزراء والسبب « حماية البحث العلمي » ؟!!

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ١ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ . عن جريدة أخبار اليوم العدد ١٥٥ .

أرأيتم لو أن باحثاً نشر شيئاً من خيانة أولئك الوزراء على الشعب وهو صادق فيما يقول ويثبت بالحجة والبرهان ما الذي سيقع عليه ويحل ؟! هذا وهو صادق فكيف إذا كان كاذباً هل سيدافع عنه أولئك ويسكتون بحجة « حماية البحث العلمي » .

إني لواثق أن « زوار الفجر » سيزورونه وإن لم ينصبوا له المشنقة أمام الجمهور نصبوا له ما هو أشد في الزنزانات المظلمة .

أرأيتم هذا الذي اعتدى على العقائد الإسلامية هل واجه شيئاً من ذلك ؟ ولكنها الأصابع الخفية تلعب من وراء الستار .

« يقوم الفينة بعد الفينة من سولت له نفسه بالخروج على الإسلام في ناحية من نواحيه الاعتقادية . فيثور احتجاجاً عليه فئة من الغيورين على دينهم ويحميه منهم رجال من الوزراء المستبطنين ما أظهره الخارج وإن لم يحمه حام عاجلاً ففي المستقبل القريب أو البعيد ينال الرجل مكافأة خروجه بأضعاف ما كان له من المراكز والمناصب يوم خرج وثار عليه المستنكرون . . . ويكون هذا المصير غبطة لآخرين فتتكرر المهزلة في أيام أخرى على مسائل أخرى مماثلة »[1] .

فلا عجب بعد هذا أن يدعو زعيم من زعماء الإلحاد أولئك الذين يحملون مثل تلك الأفكار بالخروج بها ونشرها بين الناس ولهم النصر المؤكد يقول أمين الخولي « وأحسبني لا أجد في هذا المقام أصوب وأجدى من الحديث في هذه المقدمة عن ذلك الناموس الاجتماعي المطرد على الأجيال منذ قديم عهد الدنيا بالحياة ليربط صدق هذا القانون على قلوب الذين يكتب الله عليهم اليوم وفي الغد القريب أو البعيد والأبعد أن يكونوا حملة فكرة تطورية ودعوة تجديدية في أي ميدان من ميادين النشاط الإنساني . . فلا يهنون حين تجتمع الدنيا بكثرتها على محاربتهم ولا يشكون لحظة في النصر مهما تتربص قوى الجهل بهم . . وليعلموا

---

(١) موقف العقل والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ١ ٣١٨ .

أن هذا النصر المؤكد لا ينال إلا بثمنه الباهظ الفادح ، من الصدق والصبر اللذين يلذ معهما الألم ، ويهون الصعب، ويتراءى النور من القلوب في أشد حلكة الظلام ويقوي الإيمان حين يستيئس الناس »(١) .

تلكم دعوة أمين الخولي الذي وصفه الأستاذ محمد سيد كيلاني بأنه « كان يدرس مادتي التفسير والبلاغة وظل أمره مستوراً إلى سنة ١٩٤٧ م لا يدري أحد في خارج الكلية ما يلقنه أمين لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال ففي هذه السنة ـ ١٩٤٧ م ـ تقدم أحد الطلبة برسالة موضوعها « الفن القصصي في القرآن الكريم » للحصول على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية وكان أمين هو المشرف على هذه الرسالة والموجه للطالب فيها كتب وقد رفضت الرسالة »(٢) .

ومن هنا يبدأ حديثنا

في عام ١٩٤٧ م قدم الطالب محمد أحمد خلف الله في كلية الآداب بجامعة فؤاد رسالة للحصول على الدكتوراه عن « الفن القصصي في القرآن الكريم » قرّر فيها أن ورود الخبر في القرآن الكريم لا يقتضي وقوعه وأنه يذكر أشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن !!! من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ « هذه الوقفات الطويلة وهذا التفكير المستمر جعل العقل الإسلامي يقرر أخيراً ويقرر في قوة أن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وأن التمسك به خطر أي خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة »(٣) .

ويقول أن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع وليست من

---

(١) مقدمة أمين الخولي لكتاب « الفن القصصي في القرآن الكريم » لمحمد أحمد خلف الله ص « ل » .

(٢) ذيل الملل والنحل : محمد سيد كيلاني ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ٤٢ .

مقاصد القرآن في شيء ومن هنا أهمل القرآن مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث »[1] .

ويصف القرآن بأنه « أساطير » كما وصفه به المشركون ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين « في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات ﴿ وَقَالُوا أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [2] فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند الله قل أنزله الذي يعلم السر . . إلخ »[3] ثم يقول بعد هذا « وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله إذا كان هذا ثابتاً فإنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن »[4] .

وبعـد هذا يبرر مخالفة القصص في القرآن للحقائق الواقعة حسب إلحاده بها بأن هذا من البلاغة في القرآن ثم يستدل بهذا على أمر خطير « وان الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية وجعلها صالحة كل الصلاحية لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة وتكون البشارة والإنذار وتكون الهداية والإرشاد ويكون الدفاع عن الدعوه الإسلامية والتمكين لها حتى في نفوس المعارضة ان هذا كله لهو الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية »[5] .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤ . (٢) سورة الفرقان الآيتين ٥ ، ٦ .
(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٧٨ .
(٤) المرجع السابق ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .
(٥) المرجع السابق : ص ٢٥٤ .

وهو يريد أن يصل بهذا إلى نتيجة أخطر « ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض »[1] .

ثم يقرر ما يعتقده بعد ذلك «أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين ، وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما بالقصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ ـ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون »[2] .

وخلاصة القول أن الطالب ينفي الصدق عن القرآن الكريم ومطابقة قصصه للحقائق التاريخية حسب زعمه ، ويذكرني هذا الإلحاد والتكذيب للقرآن الكريم بتكذيب الدكتور طه حسين للقرآن الكريم حين قال في كتابه « في الشعر الجاهلي » : ـ « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا أيضاً ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي »[3] .

وما كان لنا أن ندرس هذه القضية لولا صلة ذكرت بينها وبين أستاذ المدرسة العقلية وإمامها وبعض تلاميذه .

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥٤ .

(٢) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ٢٥٥ .

(٣) ذيل الملل والنحل : محمد سيد كيلاني ص ٨٤ عن « في الشعر الجاهلي » لطه حسين ص ٢٦ .

تبدأ الحكاية حينما ينسب الطالب خلف الله أسباب ذلك إلى أستاذه أمين الخولي « أما الأسباب التي جعلتني أعنى بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميدان أبحاثي فترجع قبل كل شيء إلى نوع من الاستهواء عمل على إذاعته في نفسي درس أستاذنا الخولي عن المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره فقدكانت تلك اللفتات تستقر في نفسي استقراراً يجعلني اتخيل أني أستطيع تمثل هذا المنهج والسير عليه في تفسير كتاب الله »(١) .

ولا تنس ما نقلناه عن الأستاذ محمد سيد كيلاني من وصف لأمر أمين الخولي وكونه مستوراً لا يدري أحد في خارج الكلية ما يلقنه لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال .

ولكن أمين الخولي نفسه لا يحوجنا إلى شيء من هذا فهو يقر بنفسه بأن كل ما جاء في الرسالة حق حيث يقول « فلو لم يبق في مصر والشرق أحد يقول : إنه حق لقلت وحدي وأنا أقذف في النار أنه حق حق »(٢) .

إذن فالأستاذ المشرف على الرسالة يشارك تلميذه في كل ما جاء فيها من إلحاد وتكذيب للقرآن الكريم .

فقامت الاحتجاجات ورفعت البرقيات للمسؤولين ، ورفضت الرسالة وطالب أولئك بتطبيق أحكام الردة على خلف الله ودافع عنه أستاذه أمين الخولي ودفع إلى الميدان بورقته الرابحة عند ضعاف النفوس حيث وصف جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة انها « ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عاماً »(٣) !

وعلّق توفيق الحكيم على هذا بقوله « إنني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١
(٢) المرجع السابق : مقدمة أمين الخولي ص : ح .
(٣) المرجع السابق ص : ح .

الخطورة فيها تلك هي قوله أن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عاماً إذا كان هذا القول صحيحاً كما يؤكد الأستاذ الخولي فلنا أن نطلب تعليلاً لما صرنا إليه وعلى المسؤولين من رجال الدين ان يوضحوا الموقف فإنه لا يرضيهم أن نرجع اليوم - في عهدهم - القهقرى . . بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام »[1]

وهم حين يلقون هذا القول يعتقدون أنهم يلقونه على رجل لا تصعد إليه المسؤولية بل تتلاشى قبل أن تصل إلى مقامه البعيد[2]

يقول الشيخ مصطفى صبري رحمه الله تعالى عن الرسالة تلك « وإني أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده . . كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام . . فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين »[3] .

وإني أدعو كل رجل مؤمن بالله تعالى أن يجعل الله سبحانه نصب عينيه وأن لا يجعل للعاطفة سبيلاً عند مناقشة قضية كهذه القضية تمس كيان القرآن الكريم ، وأن لا يجعل لها سبيلاً لطمس الحقائق حينما تمس من ننزله في نفوسنا منزلة سامية فلعلنا نكون قد خدعنا به والحقيقة ضالة كل مسلم .

ويجدر بنا هنا أن نقف مع الشيخ محمود شلتوت وقفة يبين لنا فيها مناهج الناس في فهم القصص القرآني حيث يقسمها إلى أقسام ثلاثة ويضيف هو منهجاً رابعاً وهي : -

---

(١) المرجع السابق : ص : ط .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ١ ص ٣٤٥ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٦ .

١ ـ منهج المؤولين للقصص

« وهو صرف الكلام عن مدلوله اللغوي إلى معنى آخر دون ما يدعو إلى هذا التأويل» وصاحبه قد يحكّم فيه مجرّد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر ، وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعاً لما يثيره خصوم القرآن على القرآن ، ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحي ، وحمل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة . . ثم يقول «وهذاالمنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم صرفوه بها عن دلالته العربية وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف للفظ عن معناه الوضعي إلى هذا المعنى الواقعي الذي يزعمه المؤول مدلولاً للكلام ، والرأي في هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل الذي يتلخص في أنه إذا كان التأويل لا يقضي على أصل ديني ولا يمس عقيدة ثابتة وهو في الوقت نفسه يحتفظ للعبارةالقرآنية بواقع تعبر عنه تعبيراً صادقاً وكانت اللغة تسمح به فإنه يكون مقبولاً من الوجهتين الدينية واللغوية وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض أيضاً من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلبيس من الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً أما إذا كان يقضي على أصل ديني أو يمسّ عقيدة فإنه يكون مرفوضاً أيضاً من الوجهة الدينية »[١] .

بقي أن نقول أن الشيخ شلتوت جعل تأويل الشيخ محمد عبدة ورشيد رضا لقصة بقرة بني إسرائيل من هذا النوع وسيأتي بيان ذلك .

المنهج الثاني ـ منهج القائلين بالتخييل : ـ

وهو يتفق مع المنهج الأول في ناحية ويخالفه في ناحية إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما في المنهج الأول ولكن لا إلى واقع يزعم ويدعى

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٥ ـ ٤٦ .

أنه مراد وإنما إلى تخييل ما ليس بواقع واقعاً فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون إخباراً بما جصل وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين أو على السنة الطيور والحيوان للإيحاء فقط بمغزى الحكايات من الإرشاد إلى فضيلة والحث عليها أو التحذير من رذيلة والتنفير منها . . . ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والادعاء فقد اقتحمت قدسيته وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وتزلزت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار »[١] .

المنهج الثالث : منهج المسرفين في قبول الروايات :

وهو منهج جمهور المفسرين ويقوم على الإفراط في تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة في فهم القصة القرآنية واعتبار كل ما ورد متصلاً بالقصة بياناً وتفصيلاً لما جاء في القرآن كما اتخذ الفقهاء الأحاديث المتصلة بآيات التشريع بياناً وتفصيلاً أو تكميلاً لما ورد في الآيات من أحكام وكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدراً ثانياً للتشريع اعتبر هؤلاء الروايات الواردة في القصة مصدراً ثانياً للقصة بعد القرآن الكريم »[٢] .

ويرى الشيخ شلتوت أن ذلك لا يصح في الروايات القصصية لأنها لم تبحث كما بحثت الأحاديث فهذا المنهج فيه إفراط أي إفراط وذلك يتمثل في كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أممهم .

المنهج الرابع : المنهج المختار :

يرى الشيخ شلتوت أن هذه المناهج الثلاثة مترددة بين إفراط وتفريط في شأن القصص القرآني وما ينبغي أن يستقبل به حتى يحقق الغاية المقصودة من قصه على الناس بالعبرة والموعظة وحتى يحدث التسلية للدعاة والمصلحين وحتى

---

(١) تفسير القرآن الكريم محمود شلتوت ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٧ ـ ٤٨ .

يتبين للناس أنه القصص الحق المطابق للواقع الذي لا مرية فيه ولا تزيد ولا تخيل .

وعلى أساس أن الحق وسط بين باطلين نقرر المنهج الرابع الذي يجب استقبال القصص القرآني على أساسه وهوالمنهج ،السليم والصراط المستقيم إن شاء الله وخلاصته الوقوف عند ما ورد في القرآن الكريم مع الإحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هي تعبير صحيح عنه دون تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتماداً على روايات لا سند لها كما صنع المفرطون ودون تحيف لمعانيها باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن واقع كما فعل المفرّطون ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره كما فعل أهل التأويل الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه وتنكبوا قانون العربية التي نزل بها »[1] .

ومن وصف الشيخ شلتوت للمنهج الثاني بأنه يتفق مع الأول في ناحية صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية ندرك أن المنهجين الأول والثاني في كفة وفي الكفة الأخرى المنهج الثالث منهج المفرطين في قبول القصص مع الزيادات التي لا سند لها ، وكلاهما باطل والحق وسط بينهما وهو المنهج الرابع .

ويبرز سؤال عريض أين موقع رأي الشيخ محمد عبده وتلاميذه من تلك المناهج ؟ وهو سؤال سبقت إجابته أو ما يقرب منها حيث أشرنا في المنهج الأول إلى أن الشيخ شلتوت يقول في رأي الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا في قصة بقرة بني إسرائيل « وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي فهذا الحمل تأويل منهما لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب »[1] .

إذن فالشيخ شلتوت يضع رأي الشيخ محمد عبده والسيد رشيد في المنهج

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص : ٥٠ .

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٥ .

الأول ثم يصفه بالإفراط وبالبطلان وأنه « صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره كما فعل أهل التأويل الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه وتنكبوا قانون العربية التي نزل بها »(١)

أما الشيخ شلتوت فقد برّأ ساحته حينما نقد رأي بعض المتفلسفة العصريين في القصص القرآني فقال « بقي أن جماعة من متفلسفة هذا العصر حاولوا أن يعيدوا بعض الآراء قوم حكموا عقولهم فيما قصه الله فقالوا ان مثل هذا القصص لا يلزم أن يكون صادقاً يحكي واقعاً صحيحاً . . »(٢) إلخ ثم وصف هذا القول بالفساد ومنافاته لقدسية القرآن « وهذه آراء ـ فضلاً عما لها من نتائج سيئة ـ تذهب بقدسية القرآن من النفوس وتزيل عنه روعة الحق وتزلزل قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار ماضية وأحوال مستقبلة . . »(٢) .

لقد برّأ الشيخ شلتوت ساحته بهذا النص فلا نقاش لنا معه ، ولكننا نشد على عبارة وردت في ذمّه لهذا المنهج الباطل توقع الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم في سلك هذا المنهج المذموم حيث يقول « هذه الآراء فضلاً عما لها من تلك النتائج السيئة هي فاسدة في ذاتها لأن القرآن عربي نزل بلغة العرب وقانون اللغة المتواتر يقضي بحمل الكلام على ظاهره وما تدل عليه ألفاظه من المعاني المعروفة لها عند المخاطبين ما لم يمنع من ذلك الحمل مانع »(٣) نشد على هذه العبارة لأنه وصف آنفاً منهج الشيخ وتلميذه بهذا الوصف .

فهل يريد الشيخ شلتوت بهذا أن يشرك محمد عبده ورشيد رضا مع أولئك ؟ هذا ما يفهم من عباراته ونصوصه المنقولة ، وعلى كل حال سواء أكان يشركه أم لا يشركه فهي شهادة من تلميذ ببطلان منهج أستاذه يجب أن تؤخذ بعين الإعتبار .

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٧٣ ـ ٢٧٤ .

وكلمة حق يجب أن نسوقها قبل سياق نصوص محمد عبده وتلميذه رشيد ذلك أنه لم يصدر عنهما أي تصريح بأن قصص القرآن منافيه للحقيقة أو وصفها بالكذب ومغايرة الواقع أقول أنه لم يصدر نص صريح بهذا أما أن كلامهما يحتمل ذلك ويحتمل غيره فهذا أمر لا ننفيه ولندع نصوصهم تتحدث .

قال الشيخ محمد عبده في تفسيره قصة آدم في الجنة التي تحدثت عنها الآيات في قوله تعالى : ـ ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] الآيات يقول الشيخ عبده : ـ « وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه : ان القرآن كثيرا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى (٥٠ : ٣٠ يوم نقول لِجَهَنَّمَ هل امتلأت ؟ وتقول هل من مزيد) فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الإستواء إلى خلق السماء (٤١ : ١١ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) والمعنى في التمثيل ظاهر » .

ثم قال « وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : ان إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض ـ وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطي استعداد في العلم والعمل لا حدّ لهما هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض ـ وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كلّ شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمارها ـ وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٥

الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ـ وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك وإباء ابليس واستكبارة عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وابطال داعيه خواطر السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض ـ ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري .

هذا ملخص ما تقدم في سابق آيات القصة ، وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموم[1] في ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسبيل كما قال تعالى في القصة من سورة طه ﴿أَنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل ، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، وكان من قريش كذا يعني القبيلة التي أبوها قريش ، وفي كلام العرب كثير من هذا .

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت كلمة التوحيد وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر وفي الحديث تشبيه المؤمن بشجرة النخل ـ ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الأمر الإلهي قسمان : أمر تكوين ، وأمر تكليف ، والمعنى على هذا أن الله تعالى كون النوع البشري على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال فيها سبحانه ﴿٧١ : ١٤ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ فأولها طور الطفولية وهي لا هم فيها ولا كدر وإنما هي لعب ولهو كأن الطفل دائماً في جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار

---

(١) هكذا وردت ولعلها (ومسموع) .

جارية الأنهار متناغية الأطيار وهذا معنى ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشؤون البشرية فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين أي أنه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثاً هكذا ـ وأمرهما بالأكل حيث شاءا عبارة عن اباحة الطيبات والهام معرفة الخير والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر ، وأن الفطرة تهدي إلى قبحه ووجوب اجتنابه وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ٩٠ : ١١ ﴾ ووسوسة الشيطان وإزلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلابس النفوس البشرية فتقوي فيها داعية الشر ، أي أن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه ـ والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن حدّ الإعتدال الفطري ـ وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الإعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق والتجائه إليه في الشدة وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى المخرج من الضيق والتفلت من شرك البلاء بعد ذلك الاعتبار والالتجاء وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى نبيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ويرده الوحي المحكم المتواتر . . .

وبقي طور آخر أعلى من هذه الأطوار وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الإلٰهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية وبيانه في قوله تعالى ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١) (٢) .

---

(١) سورة البقرة الآيتين ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٤ وانظر تفسير المراغي جـ١ ص ٩٤ ـ ٩٦ فقد نقل هذا النص ووصف أستاذه بالاجادة .

ذلكم ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده في تأويل قصة آدم في الجنة ومنه ندرك أن الإمام لم يصرح بما صرح به خلف الله من أن قصص القرآن منافية للواقع مخالفة للحقيقة ، وهو لا شك وافقه في حمل القصة على غير ظاهر ألفاظها إلى معنى أو معان أخرى لا يدل عليها ظاهر الكلام ومن غير مسوغ لذلك .

وهو مذهب لم يذهب إليه الشيخ محمد عبده في هذه القصة فحسب بل هو منهج سار عليه وبعض تلاميذه في معظم قصص وأخبار القرآن الكريم ففي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾[1] قال السيد رشيد رضا « ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية إذ يراد أن من شأن مثلها في وضوحه أن يكون معلوماً حتى كأنه مرئي بالعينين »[2] ثم ذهب في تفسير الآية ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا﴾أي أماتهم بإمكان العدو منهم فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه من سبب الموت وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار ففتك بهم وقتل أكثرهم ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه وللاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك « ثم أحياهم » وإنما يكون الإحياء بعد الموت والكلام في القوم لا في أفراد لهم خصوصية لأن المراد بيان سنته تعالى في الأمم التي تجبن فلا تدافع العادين عليها ومعنى حياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة ، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها فكل من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم مدغمين في غمارهم لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ومعنى حياتهم هو عود الإستقلال إليهم ذلك أن من رحمة الله تعالى في البلاء يصيب الناس أنه يكون

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٤٣ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٢ ص : ٤٥٧ .

تأديباً لهم ومطهراً لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها »[1] .

ويبين الشيخ محمد عبده رأيه في القصة في القرآن الكريم بعض بيان حين يقول « يظن كثير من الناس الآن كما ظن كثير ممن قبلهم - أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً وإنما هو هداية وموعظة فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال تعالى ﴿١٢ : ١١١ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وبيان سنن الإجتماع كما قال ﴿ ٣ : ١٣٧ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2] .

وهو يكرر مثل هذا الكلام في مواضع عديدة من التفسير فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ الآيـة[3] « إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا أن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع ، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٤٥٧ - ٤٥٨ وانظر تفسير المراغي جـ ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٧٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٦٠ .

وقوعـها . وإنما المراد بها الإعتبار والعظة ببيان النعم المتصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها »(١) ثم يقول « إن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان »(١) .

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾(٢) الآيات يقول الشيخ محمد عبده « جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ويهز النفوس للاعتبار هزاً »(٣) .

قال الشيخ رشيد « قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر »(٤) ويسلب السيد رشيد خصائص هذه القصة من كونها معجزة لموسى عليه السلام في قضية خاصة أحيا الله بها ميتاً ﴿ليريكم آياته﴾ فيحملها على أنها وسيلة للفصل في الدماء عند بني إسرائيل ويحمل إحياء الميت فيها على حفظ الدماء على حد قوله تعالى﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾(٥) يقول السيد رشيد في هذا « والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره . . . ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٢٧ .
(٢) سورة البقرة من الآية ٦٧ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
(٥) سورة البقرة من الآية : ١٧٩ .

النفس أي يحييها بمثل هذه الأحكام وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿ ٥ : ٣٢ ومن أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ويريكم آياته بما يفصل بها في الخصومات ويزيل من أسباب الفتن والعداوات فهو كقوله تعالى ﴿ ٤ : ٥١ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾(١) .

وهو يذكر أن الحكم ورد في التوراة في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه : -

١ - إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله .

٢ - يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل .

٣ - فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجرّ بالنّير »(٢) .

ثم يمضي النص في بيان الحكم بكسر عنق العجلة ثم يتقدم الشيوخ ويغسلون أيديهم على العجلة ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر .

وقال الشيخ محمد عبده في موضع آخر عن التاريخ والقصة القرآنية : - « ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم إنذاراً للكافرين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً لقلبه وقلوب المؤمنين به ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها وإنما يذكر موضع العبرة فيها »(٣) .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٥١ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٢٠٥ .

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] وان أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع والموضوعات المروية في بناء الكعبة كثيرة »[2] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ الآية[3] قال الشيخ رشيد رضا « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل »[4] .

وقال الشيخ محمد عبده « بيّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وانه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية »[5] .

ولا ندري ما الذي يقصده الشيخ بهذا ؟ هل يريد أنه إذا كانت قصصه ليست للتاريخ وإنما للهداية والاعتبار فإنها لا تلتزم حقائق التاريخ بل تشتمل على ما لم يقع وما لم يحدث ؟!

وهل يريد بزعمه وزعم تلميذه أن قصص القرآن « لا تتجاوز موطن الهداية » وأنها لم ترد إلا « للعظة والاعتبار » الورود الذي يسوغ لقائلها أن يتجاوز الحقائق ويروي ما لم يقع ولم يحصل ما دامت في حيز الهداية والعظة كما يسوغ للحكيم أن يروي حكمته ويسديها إلى الناس على ألسنة الحيوانات والطيور .

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ٩٦ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٧ .
(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٩ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٥٢ .
(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٩٩ .

هل يريد بهذا أن يرفض قوله تعالى ووصفه لقصص القرآن بأنها الحق ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾[1] وقوله سبحانه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[2] وقوله سبحانه ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[3]

وهل يقصد الشيخ بقوله « ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار » اباحة ردّ شيء من جزئياتها وتكذيبها وأن ذلك لا يخالف عقيدة المسلم ؟ !

ان كان وتلاميذه يقصدون هذا ولم يصرحوا به كما صرح به خلف الله في رسالته الملحدة فهو أمر يذكرنا بقوله تلميذه الأستاذ محمد فريد وجدي : -

وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مئة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيها وقف على هذه الميتولوجيا « علم الأساطير » ووجد دينه ماثلاً فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير أخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية ، وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض »[4] .

والحق أنا لا نرى كبير فارق بين قولي الشيخ محمد عبده والأستاذ خلف الله فإن رأي الشيخ في قصص القرآن أنها « تمثيل وتخييل وهي للعظة والهداية » ورأي خلف الله « أنها مخالفة للواقع ومختلقة وهي للعظة والهداية » .

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٦٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٣ .

(٣) سورة الأنعام من الآية ٥٧ .

(٤) جريدة الأهرام ٣٠ / ٨ / ١٩٣٣ م . مقال مذهب القرآن في المتشابهات محمد فريد وجدي .

فهما متفقان على الشطر الثاني ، ومتفقان في الشطر الأول على أن ظاهر لفظها غير مراد وانها غير واقعة عبر الأول عن ذلك بالتمثيل والتخييل وعبر الثاني عنه بالاختلاق .

ولا ينفي هذا قوله في موضع آخر « وجملة القول أن طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة وما كان لمحمد الأمي الناشىء في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي إليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ولكنها هداية الله تعالى لعباده أوحاها إلى صفوته منهم صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ ٧ : ٤٣ فعلينا وقد ظهرت الآية ووضحت السبيل أن لا نلتفت إلى روايات الغابرين في تلك القصص ولا نعد مخالفتها للقرآن شبهه نبالي بكشفها »[1] .

واني لأستعيد هنا نصوصاً ذكرتها تؤيد ما قلته . قال السيد رشيد « ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية »[2] ويقول « وان أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع »[3] ويقول في احدى القصص « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل[4] ويقول أخيراً « قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر »[5] .

ويقول شيخه محمد عبده « بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين »[6] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٤٥٧ .
(٣) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٧ .
(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٥٢ .
(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٦) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٩٩ .

وإني لأدعو كل مسلم أن يجعل البحث عن الحقيقة هدفه وأن لا تعميه منزلة الرجل بين الناس عن طلبها وأن يجعل الحق ميزاناً للأقوال لا أن يجعل الرجال ميزاناً لها .

وبعد أن يؤمن بهذا فلينظر فيما سقناه من النصوص في مذهب الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه في القصة في القرآن الكريم . وما لم نذكره اختصاراً ثم ليقل رأيه بعد هذا وليرشدنا إلى الحق إن كنا قد تجاوزناه فالحقيقة ضالتنا .

إعجاز القرآن الكريم

أنزل الله سبحانه كتابه على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدى به الناس أجمعين أن يأتوا بمثله فعجزوا ولم تزل البشرية عاجزة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فكانت المعجّزة الخالدة .

وقد أراد الله سبحانه أن يكون التحدي أبلغ ما يكون فتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴿قُلْ لئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يأْتوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾(١) وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ اللهِ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢) وتحداهم بسورة من مثله ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنَ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾(٣) ﴿أَم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مَن دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤) وتحداهم أن يأتوا بحديث مثله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَه بَلْ لاَ يُؤمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾(٥)

---

(١) سورة الاسراء : آية : ٨٨ .
(٢) سورة هود : الآية : ١٣ .
(٣) سورة البقرة : الآية : ٢٣ .
(٤) سورة يونس : الآية : ٣٨ .
(٥) سورة الطور الآيتين : ٣٣ و ٣٤ .

وعجزوا بعد هذا كله أن يأتوا بمثله ومن بعدهم أكثر عجزاً منهم ، فثبت بهذا العجز منهم إعجازه وبعجزهم وعجز من بعدهم ثبت لنا ذلك وسيثبت إعجاز القرآن على هذا المعنى إلى يوم القيامة .

قال بهذا المسلمون جميعاً وقال به أرباب المدرسة العقلية الحديثة وكان لقولهم باعجازه مزية . عددنا فيما ذكرنا من أسس منهجهم في التفسير تحكيم العقل والعقل عند محكميه لا يؤمن بما يخرق أحكامه والمعجزات خارقة لها بزعمهم فوقع أرباب المدرسة العقلية في تبلبل أيقولون بالمعجزات فيخالفون أحكام العقل التي بها يؤمنون ، أم ينفونها فيخالفون الدين الذي إليه ينتمون ؟ فأرادوا الجمع بين الأمرين فأنكروا بعض المعجزات بتأويلها بما لا تكون به إعجازاً أو بتضعيف أسانيد روايتها ! ! وشعروا أنهم جردوا النبوة خاصة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مما يثبتها من المعجزات فأرادوا تعويض هذا كله بإثبات إعجاز القرآن واطالة الإشادة بهذا الاعجاز كسد نقص منهم عن المعجزات الأخرى لنبينا صلى الله عليه وسلم .

وحتى إعجاز القرآن الكريم أبوا إلا أن يكون إثباته بالعقل ، والعقل وحده قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي « والأمم العربية الآن ومن أزمان خلت لا يفقهون الإعجاز من النظم العربي ، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق ، وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك ، ونحن الآن نقيم على الاعجاز أدلة عقلية فنقول : ـ ان القرآن تحدى العرب وانهم عجزوا ، وهذا يدل على أنه من عند الله »(١) .

بل أن القرآن هو المعجزة الوحيدة القاهرة « ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية وما أبدع قول البوصيري :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم »(٢)

---

(١) بحث في ترجمة القرآن الكريم : محمد مصطفى المراغي ص : ١٠ .

(٢) حياة محمد : محمد حسين هيكل تقديم محمد مصطفى المراغي ص : ١٣ .

ويقول الشيخ محمود شلتوت عن اعجاز القرآن « وقد كانت معجزات الرسل قبله خوارق حسية لا عقلية يجول فيها العقل ويصول ويعمل فيها الذهن بالتفكير والتدبر وكانت منقرضة لا دائمة وذلك لأن رسالتهم لم تكن عامة لأهل زمنهم ولا خالدة »[1] .

وهم بعد أن يثبتوا وقوع التحدي بالقرآن الكريم بنصوص منه يردون على من زعم عدم توفر الدواعي عند العرب لمعارضة القرآن الكريم فيقول الشيخ محمد عبده « وكان يتحداهم بمثل هذه الآيات الصادعة التي تثير النخوة وتهيج الغيرة مع علو كعبهم في البلاغة ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها في عصر ارتقت فيه دولة الكلام ارتقاء لم تعرف مثله الأيام حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون ويباهون ويفاخرون ويعقدون لذلك المجامع ويقيمون الأسواق ثم يطيرون بأخبارها في الآفاق ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة ولم ينهض بليغ من مصاقعهم إلى المناهضة » ويواصل السيد رشيد رضا كلام أستاذه فيقول « بل تواتر عنهم ما كان من الاعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم ، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم وسفك دمائهم بأسيافهم وتخريب بيوتهم ، أفلم يكن الأجدر بمداره قريش وفحولها وغرر بني معد وحجولها أن يجتمعوا على تأليف سوره ببلاغتهم التي كانوا يتبارون فيها بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم ويؤثروا هذا على سوق الخميس بعد الخميس من صناديدهم إلى يثرب لقتال محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن به « رضي » في بدر وأحد ووراء الخندق لو كان ذلك مستطاعاً لهم ؟ ومثل هذا يقال في اليهود الذين كانوا بجواره في المدينة فأمنهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم فأبوا إلا إعانة مشركي قومه عليه حتى اضطروه إلى قتالهم وإخراج بقية السيف من ديارهم فلا شك أن الله تعالى قد رفع هذا الكلام إلى درجة لا يرتقي البشر إليها وهو تعالى جده العالم بمبلغ استطاعتهم ، والمالك لأعنة قدرتهم »[2] .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت : ٤٧٨ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

ويعد السيد رشيد من فوائد قوله تعالى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ من الآية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَ كُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ الآية[1] فيقول « ومن فائدة هذا القول في عهد نزوله وقبل ظهور تأويله أن قرعه لسمع من لا يؤمن بالغيب يقتضي أشد التحريض على المعارضة التي يظهر بها العجز ويقوم البرهان»[2]

وقال محمد عبده « تواتر الخبر كذلك بما كان من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه في الأخبار عن الله وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر اصنامهم ويدعوهم إلى ما لا تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة .

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ولجاج القوم في التعدي أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه العلي على جميع الأحكام »[3] .

إذن فدواعي معارضة القرآن الكريم عند العرب متوفرة وموجودة ولم يقم أحد منهم بمعارضة القرآن الكريم « إذ لو وجد له معارض أتى بسوره مثله

---

(١) سورة البقرة : الآيتين ٢٣ و ٢٤ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٩٧ .
(٣) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٤٥ - ١٤٦ .

لتوفرت الدواعي على نقلها بالتواتر أيضاً ، بل لكانت فتنة إرتد بها المسلمون على أدبارهم »[1] ولما لم يقع هذا ثبت هذا الإعجاز بالقرآن الكريم .

وليس لاعجاز القرآن الكريم مزية واحدة بل مزايا عديدة تعلو قدرة المخلوق علماً وحكماً وبياناً للعلم والحكمة لهذا حار العلماء - كما يقول السيد رشيد في تحديد وجه الاعجاز بعد ثبوته بالعـلم اليقيني الذي بلغ حدّ الضرورة في ظهوره[2] .

وعقد السيد رشيد فصلاً[3] في تفسيره لتحقيق وجوه الأعجاز في القرآن الكريم وصفه بالإختصار والإيجاز ذكر فيه وجوهاً سبعة .

أولها : اعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه .
ثانيها : اعجاز القرآن ببلاغته .
ثالثها : اعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب .
رابعها : اعجاز القرآن بسلامته من الإختلاف .
خامسها : اعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع .
سادسها : اعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شيء منه .
سابعها : اعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر .

وقد تحدث السيد رشيد عن هذه الوجوه السبعة بشيء من التفصيل .

وهم يتسدلون بهذا الاعجاز للقرآن الكريم على كونه من الله سبحانه وتعالى ودليلاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يقول الشيخ محمد عبده « أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلَهي والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي صلوات الله عليه ؟ »[4]

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٩٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) أنظر المرجع السابق : جـ ١ الصفحات ١٩٨ - ٢١٢ .
(٤) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٤٦ - ١٤٧ .

ويقول « فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى خلقه فيجب التصديق برسالته والإعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك »[1] .

وقال الشيخ شلتوت عن القرآن الكريم « وقد أنزله الله لأمرين عظيمين أحدهما أن يكون معجزة دالة على صدق الرسول في دعوى الرسالة والتبليغ عنه سبحانه »[2] .

ويثبت السيد رشيد هذا فيقول « والحق الذي يقال في هذا المقام أن ما أيد الله تعالى به رسله من الآيات الكونيه كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله . وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات في عهده ثم على من صدق المخبرين من بعده وقد علم الله تعالى أن سلسلة النقل ستنقطع وأن ثقة بعض المتأخرين به ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ستضعف وأن دلالتها على الرسالة ستنكر ـ فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبين علمية دائمة لا تنقطع وهي هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه من أنواع الاعجاز السبعة التي ذكرناها وبينا أن كل واحد منها آية بينة لمن ألقى السمع وهو شهيد وكان مستقلاً من أسر النظريات المادية وقيود التقليد إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيع من المعاني في هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المباني من رجل أمي ولا متعلم أيضاً إلا أن يكون وحياً اختصه به الرب عزّ وجل ناهيك به وقد جزم بعجز الأنس والجن عن أن يأتوا بمثله ثم تحداهم بسورة من مثله فهذا التحدي حجة مستقلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بصرف النظر عن المتحدى به ما هو وكل نوع من تلك الأنواع

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٥١ .
(٢) الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ص ٤٧٧ .

السبعة الثابتة للقرآن حجة مستقلة في نفسها وحجة أنهض وأقوى باعتبار أمية من جاء بها فإن أمكن تمحل المراء والجدل في بعض الوجوه التي ذكرنا لاعجازه فهل يمكن ذلك في جملتها أو في كل منها ؟ كلا »[1] .

هذا قبس مما قالوه في اعجاز القرآن الكريم لا نخالفهم في وقوع التحدي بالقرآن الكريم ولا نخالفهم في عجز الأنس والجن عن الاتيان بمثله - فهذا أمر مسلم به بين المسلمين لا ينكره مسلم .

وإنما الذي لا نوافقهم عليه ولا نرضاه منهم ولا من غيرهم الإشادة باعجاز القرآن الكريم على حساب المعجزات النبوية الأخرى والتقليل من شأنها إما بإنكارها أو تضعيف أسانيد روايتها أو بتأويلها على أمر لا تكون به معجزة . وسنعرض لهذا الأمر إن شاء الله في مبحث المعجزات .

نحن لا نوافقهم على هذا فاعجاز القرآن الكريم حق نؤمن به وما ورد من المعجزات الأخرى غير القرآن حق نؤمن به أيضاً .

ولقد أطال رجال المدرسة العقلية الحديثة الحديث عن اعجاز القرآن الكريم وأشادوا به وسعوا لإثباته وإقامة الدليل عليه وإنما فعلوا ذلك كسد نقص منهم للجانب الآخر من المعجزات الذي هدموه .

ولو اتبع أولئك منهج السلامة وطريق أهل السنة والجماعة لاثبتوا اعجاز القرآن وغيره من معجزاته صلى الله عليه وسلم مما لا يخالف العقل ولا ينافيه ولكنها الإنهزامية . . الإنهزامية التي ابتلى بها كثير من المسلمين في العصور المتأخرة ذهبت بهم إلى أن يتنازلوا عن بعض الحقائق الثابتة في دينهم خشية أن يصفه رجال الإفرنج « الأحرار » بأنه دين يؤمن بالخوارق ؟! وما في ذاك من عيب ولكنه ضعف الإيمان أمام بريق الحضارة الزائف الذي يغشي العيون العُمْش[2] أنار الله أبصارنا وبصائرنا وأياكم .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢١٨ .

(٢) العمش : محرّكه ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات قاله الفيروز آبادي في القاموس .

منهج
المدرسة العقلية الحديثة
في التفسير

الجزء الثاني

تأليف
فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج

المدرسة العقلية الحديثة

في التفسير

الجزء الثاني

الطبعة الثانية
مهذّبة ومنقّحة
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

عنوان المؤلف: الرياض ص ب ١٥١٧٦
الرياض ١١٤٤٤
هاتف «٤٧٦١٩٠٨»

طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٥٥٠/ ٥وتاريخ ١٢/ ٥/ ١٤٠٣ هـ

البَابُ الرابع

موقف المدْرَسَة العَقليّة الحَديثة من قضايا قرآنيّة

أولًا : الوَحيُ

ثانيًا : عَقيدَة البعْث وأمارَات السَّاعَة

ثالثًا : القضَـاء والقـدَر

رابعًا : المعُجِـزَات

خامسًا : أَصْـل الإنسَـان

سادِسًا : الملائِكَة

سابعًا : الجِـنّ





أولاً : الوحي

قال تعالى ﴿وما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ولاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[4] .

والوحي في الأصل الإعلام في خفاء سواء كان بطريق الإشارة أو الكلام أو الرسالة أو الإلهام . قال الراغب الأصفهاني : أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحيّ ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة[5] .

---

(١) سورة الشورى : الآية : ٥١
(٢) سورة النساء : الآية : ١٦٣
(٣) سورة الأنبياء : الآية : ٤٥
(٤) سورة النجم : الآية : ٤
(٥) المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ص ٥٣٦

إذن فمعنى الوحي في اللغة : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه ، بحيث يخفى على غيره ويدخل تحت ذلك أنواع عديدة من الإعلام [1]:

منها الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [2].

ومنها إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [3].

ومنها : ـ وسوسة الشيطان ﴿ وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [4] ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [5] .

أما في الشرع فيراد بالوحي « إعلام الله لأحد عباده ويكون هذا الإعلام بطرق متعددة فقد سأل الحرث بن هشام رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول قالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه

---

(١) لمحات في علوم القرآن : محمد الصباغ ص ٢٢ ـ ٢٣

(٢) سورة النحل : الآية : ٦٨

(٣) سورة القصص : الآية : ٧

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٢١ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١١٢ .

وإن جبينه ليتفصد عرقاً » أخرجه البخاري ومسلم والموطأ والترمذي واللفظ للبخاري .

ومن الوحي ما يكون مناماً قالت عائشة رضي الله عنها « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » الحديث متفق عليه ، وقال إبراهيم عليه السلام﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾(١) .

أما الإيمان بالوحي فدل على وجوبه الكتاب والسنّة النبوية الشريفة والإجماع وليس علينا بعد هذا ـ لزاماً ـ أن ننظر في أدلة أخرى إلا إذا كان هذا النظر من باب طلب الطمأنينة القلبية التي طلبها إبراهيم عليه السلام ليس إلا .

وإن كان كذلك الأمر فليس بضائر أن نقول أن العلم الحديث كشف لنا أنه من الممكن أن يخاطب الإنسان من كان في آفاق عنه بعيدة ، وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد . بل مكنه أن يشاهد صورته كما يسمع صوته .

وأمكن من هذا كله ـ ما دام ذلك من شأن البشر ـ أن يكلم الله وهو في سماواته العلى من شاء من عباده في أرضه أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء .

ونضيف إلى هذا أيضاً ذلكم النظام الذي تسير عليه بعض الممالك الحيوانية كمملكة النحل أو مملكة النمل من نظام دقيق في حياتها تعجز عن تعليل أسبابه العقول . فتلتمس له سبباً حتى تسمع قول الله تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾(٢) . فلا تملك إلَّا الإذعان بالإيمان بأن هذا لا يكون إلا بتدبير منه

---

(١) سورة الصافات الآية : ١٠٢.

(٢) سورة النحل : الآية ٦٨ .

سبحانه . وإذا صح هذا في عالم الحيوان فهو أولى أن يصح في الإنسان الذي كرمه ربه وفضله على كثير من خلقه ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) .

وما دام العقل السليم يقرّ ويؤمن بوجود الله سبحانه ويسلم بعد هذا وبعد استقراء الأدلة برسالة محمد ﷺ وإخوانه الأنبياء والرسل من قبله فإنه يؤمن ولا شك بوقوع الوحي . كيف وقد أخبر أولئك الرسل الذين آمن ذلكم العقل بصدقهم ، بوقوعه .

كيف لا يثبت لهؤلاء الأنبياء الحدّ الفاصل بين من يستمد آراءه وأحكامه وقوانينه من عند نفسه وبين من يستمد تشريعه وأحكامه من ربه من غير زيادة أو نقصان .

ولأهمية هذا الحدّ الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء وكونه السمة البارزة في وزن تلك التشريعات سعى أعداء الإسلام للتشكيك في وقوعه وبذلوا جهداً فكرياً شاقاً في تكلف وتمحّل ، من أجل التلبيس على حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام وحديث النفس بل وحتى الصرع أيضاً وسلطوا شبهاتهم لإزالة هذا الحدّ الفاصل من حياته ﷺ ليصلوا بعد هذا إلى هدفهم ومقصودهم بترسيخ فكرة أن ما دعا إليه محمد ﷺ من المبادىء والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي(٢) ليقضوا بهذا على الإسلام كله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٣) .

ذلكم أن القرآن الكريم إنما أنزله المسلمون هذه المنزلة العليا واستمدوا منه أحكامهم وحلّ في قلوبهم تلك المكانة إنّما هو لإعتقادهم أنه كلام الله سبحانه وتعالى وتشريعه وليس لمحمد ﷺ إلا تبليغه للناس ، وكذا العقيدة الإسلامية كلها إنما تستمد أحكامها ونظامها من ذلكم القرآن فهي أيضاً

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .
(٢) كبرى اليقينيات الكونية : محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٠٠ .
(٣) سورة الصف : الآية ٨ .

مستمدة من الله سبحانه وتعالى ليس للبشر فيها إلا التبليغ والإقرار .

بل الأنبياء أنفسهم إنما اتبعهم من اتبعهم من الناس وامتثلوا لأوامرهم لأنهم إنما يعتقدون فيهم أنهم مبلغون عن الله سبحانه وليسوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم فليس لهم فيما يحكون إلا البلاغ ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [1] ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[2] ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [3] ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[4] ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[5] .

فلا عجب أن يتجه من يريد هدم الإسلام من أعدائه في القديم والحديث إلى تلك العقيدة « عقيدة الوحي » وذلك بالتشكيك في صحتها والتشكيك في ثبوت الوحي لمحمد ﷺ .

فكان من شبهات أعداء الإسلام في عصره ﷺ الزعم بأن القرآن الكريم أسطورة من الأساطير ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[6] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[7] ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[8] .

وكان من شبهاتهم الزعم بأن هذا القرآن إنما يتلقاه محمد ﷺ عن إنسان آخر . ولم يحسنوا حبك هذه الشبهة فزعموا أنه إنما يتلقاه عن

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٥

(٢) سورة النور من الآية ٥٤ وسورة العنكبوت من الآية ١٨ .

(٣) سورة يس من الآية : ١٧ .

(٤) سورة النحل من الآية ٨٢.

(٥) سورة التغابن من الآية : ١٢ .

(٦) سورة الأنعام من الآية ٢٥.

(٧) سورة النحل من الآية : ٢٤ .

(٨) سورة القلم الآية ١٥ وسورة المطففين الآية ١٣ .

إنسان أعجمي ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[1] .

وجاء الأعداء في العصر الحديث وهم أكثر مكراً وكيداً للإسلام وأهله فزادوا على الشبه القديمة شبهاً أخرى وزعموا ـ حتى يخدعوا المنهزمين فكرياً أمامهم ـ أن شبههم هذه إنما تقوم على العلم الحديث .

وكان من شبهاتهم قولهم « كان محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن فيلسوفاً ولكنه لم يزل يفكر في هذا الأمر إلى أن تكونت في نفسه بطريق الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية »[2] وقالوا « إن سبب الوحي النازل على محمد والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع »[3] .

وقالوا « إن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج ، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية رديئة يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلٓهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك ، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقي في روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده .

---

(١) سورة النحل الآية : ١٠٣.

(٢) حاضر العالم الإسلامي : لوثروب ستودارد من تعليق شكيب ارسلان جـ١ ص ٣٩

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤ .

يقول هؤلاء الماديون نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع وإنما نقول أن منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال أنه وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس ، فإن هذا الغيب شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال ، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت »[1] .

ونحن لن نذهب نجادل أولئك القوم الماديين في تلك القضية الفرعية فخلافنا معهم في الأصل ، وهو اشتراط أن يكون للشيء مادة محسوسة حتى يتم الإيمان به وبوجوده ، وهو شرط مردود عليهم ذلكم أن مما يجب الإيمان به وقد علم وجوده ضرورة ما ليس له مادة نستطيع نحن البشر إدراكها في هذه الحياة ولا يخفى وجوده على أحد ثم إنهم قالوا في الوحي كما نقلنا « كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه » وما دام الأمر كذلك فإن الإيمان بالوحي يكون واجباً إذا جاء ما يثبته . ولم يثبت ما ينفيه وقد كان فليكن الإيمان به .

وإنما قصدنا من الإشارة إلى شبهات أعداء الإسلام من الأوربيين في العصر الحديث في قضية الوحي إلى تحديد معالم النزاع في الوحي بين المسلمين وأعدائهم .

ولندرك بعد هذا حقيقة النفر الذين أدركوا من استقراء عقائد الإسلام منزلة الوحي وأهميته في الشريعة الإسلامية وثبوته ثبوتاً قاطعاً ، واطّلعوا بعد هذا على شبهات أعداء الدين وما شابوها به من صبغة علمية لينخدع بها من ذهب ببصره أو كاد بريق الحضارة الغربية الحديثة الزائف .

فأرادوا ـ ودينهم الإسلام ـ تضييق الفجوة بين المسلمين وأعدائهم

---

(١) الوحي المحمدي : محمد رشيد رضا ص ٧٥.

في هذه العقيدة عقيدة الوحي فجاؤا بتعريفات للوحي جديدة لا يكون بينها وبين نظريات الأعداء ذلك الصدام الواقع بين تعريف المسلمين وتعريف الأعداء .

ثم حملوا بعد هذا أقوال الغربيين وتعريفهم للوحي محملاً حسناً واكتفوا منهم بما يكون به محمد ﷺ عبقرياً لا نبياً وما يكون به القرآن الكريم نتاج معرفة محمد ﷺ للحق بطريق التأمل لا بطريق الوحي بمعناه الحقيقي ؟! وزعموا بعد هذا أن ذلك لا يبعد كثيراً عن العقيدة التي عليها المسلمون ؟!

ورجال المدرسة العقلية الحديثة حينما فعلوا هذا فإنما فعلوه خشية أن يوصف دينهم بمخالفة النظريات العلمية الحديثة ، ولذلك فقد أخذت قضية الوحي وإثباته وتقريبه لعقول الغربيين والماديين حيزاً كبيراً من بحوثهم .

ولهذا أعرض الشيخ محمد عبده عن تعريف السلف للوحي وجاء بتعريف جديد من عنده لأنه « سئم من الإستمرار على ما يألفون واندفع إلى طلب شيء مما لا يعرفون »[1] فقال في تعريف الوحي « وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور »[2] .

أما تعريفه للوحي بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه فيبطله ما هو

---

(١) أنظر تاريخ الأستاذ الإمام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١١.

(٢) رسالة التوحيد: محمد عبده ص ١٠٨.

معلوم من أنواع الوحي حيث قال ﷺ حين سئل كيف يأتيك الوحي فأجاب « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »[1] ومن ذلك أيضاً ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾[2] فهذا لا يشمله كله الوصف بأنه « عرفان يجده الشخص من نفسه » فهو وصف قاصر لا يصح القول به .

وكذا قوله « مع اليقين بأنه من عند الله » لا يصح ، ذلكم أن بعض النفوس قد تستيقن ما تجده من عرفان بأنه من عند الله وما هو من عنده بل هو من الشيطان فما الوسواس الذي يجده الموسوسون في نفوسهم في الأمر الديني إلّا اعتقاداً منهم بأنه تنبيه إلّهي لهم بتقصيرهم في الوضوء مثلاً فيعيدونه مرات ومرات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . وما ذلكم الوسواس إلا من الشيطان قال تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾[3] .

« وكل من خالف الرسول ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس فإن كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها كان غايته الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب أو خطاب ألقي إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان »[4]

ثم أن قول الأستاذ محمد عبده في الوحي « يجده الشخص من

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والموطأ والترمذي واللفظ للبخاري.

(٢) سورة النساء : من الآية ١٦٤ .

(٣) سورة الناس .

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية : جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد جـ ١٣ ص ٦٧ - ٦٨ .

نفسه » باطل لا يصح ذلكم أن الوحي ليس من نفس الإنسان بل هو من خارجها فهو من الله سبحانه وتعالى لا من نفس الإنسان بل إن هذا الزعم هو الشبهة التي زعمها أعداء الإسلام في الوحي حين زعموا أنه تكوّن في نفسه بطريق الكشف التدريجي أو زعموا أنه الوحي النفسي . ولهذا أدرك الشيخ رشيد رضا أن هذا القول يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الإلهام) ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي أو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية وقال وقد أثبته بعض علماء الإفرنج لنبينا ﷺ كغيره فقالوا أن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع والأدب السامي »[1] .

ثم لا ندري سبباً لهذا الإصرار من محمد عبده وتلميذه السيد رشيد على التعبير عن الوحي بأنه عرفان أو شيء يجده الإنسان من نفسه من غير تفكر أو استنباط . ولنقرأ تعريف السيد رشيد رضا الذي عزّ عليه أن يعرض عن تفسير السلف للوحي وعزّ عليه أيضاً أن لا يستأنس بتعريف أستاذه فقال « الوحي في اللغة إعلام في خفاء . ووحي الله تعالى إلى أنبيائه علم يخصهم به من غير كسب منهم ولا تعلم من غيرهم بل هو شيء يجدونه في أنفسهم من غير تفكر ولا استنباط مقترناً بعلم وجداني ضروري بأن الذي ألقاه في قلوبهم هو الرب القادر على كل شيء ، وقد يتمثل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم ، وقد يكون بغير وساطة ملك »[2] .

وأنت ترى أن هذا التعريف من السيد رشيد لا يصح ذلكم أن قوله « ولا تعلم من غيرهم » يبطله قوله تعالى ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾[3] ثم إنه ينقضه بنفسه بقوله بعد هذا « وقد يتمثل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم » .

قلت لا ندري لم هذا الإصرار من الشيخ عبده والسيد رشيد على

(١) الوحي المحمدي : محمد رشيد رضا ص ٣٩ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٢٠ .
(٣) سورة النجم الآية : ٥.

التعبير عن الوحي بأنه « يجدونه في أنفسهم » أو « يجده الشخص من نفسه » وكذا قول الشيخ عبده « أن روح النبي منطوية على الدين في جملته من قبل أن ينزل عليه الوحي بتفصيل مسائله »[1] ؟!! لا ندري لهذا سبباً إلا أن يكون متأثراً بشبهات المستشرقين ممن أنكر الوحي الإلٓهي منهم وزعم أنه وحي نفسي نابع من نفس محمد لا من خارج ذاته .

ويتحدث الشيخ محمد عبده بعد هذا عن إمكان وقوع الوحي فيقول « أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم »[2] .

وما دام الشيخ محمد عبده يدرك جلاء حقيقة الوحي ووضوحها إلا عند من لا يريد أن يفهم فإن الأحرى به أن يثبت على منهج السلف بتعريفهم للوحي المستند إلى الكتاب والسنة وأن لا يأتي وتلاميذه بتعريفات يتكرر فيها مثل « عرفان يجده الشخص من نفسه » أو « يجدونه في أنفسهم » « مقترناً بعلم وجداني » « يتمثل لسمعه » وما إلى ذلك من الألفاظ التي أرادوا بها التقرب إلى رجال العلم في العصر الحديث حيث تلقى القبول لديهم بقدر ما تبعد عن التعريف الصحيح للوحي كما جاء عند السلف وسنده إستقراء آيات الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ويواصل الشيخ حديثه في إثبات إمكان الوحي « قلت : أي استحالة في الوحي وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم إن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميّزته هذه النعمة ؟

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ١٤ .

(٢) رسالة التوحيد: محمد عبده ص ١٠٩ .

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة تعلو بعضها بعضاً وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره العدد . . »[١] .

ثم يقول « فإذا سلم ولا محيص عن التسليم ما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة لمقدماتها عند الوصول إليها أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلٓهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفي للإجتماع ما يضطر إليه من مصلحة إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته إلى سعادته كافية في إرشاده فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة »[٢] .

ولنا وقفة هنا مع الشيخ محمد عبده حيث يقول « . . . إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده » وهي عبارة كثر ترديدها بين رجال المدرسة العقلية الحديثة ويرتبون على بلوغه أشده أو سن الرشد انقطاع النبوة والوحي . ولنتساءل عن قصدهم بهذا ؟

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١١٠ .
(٢) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١١٠ ـ ١١١ .

نعرف أن الشيخ محمد عبده يرى أن المجتمع البشري في مجموعه مرّ بنفس المراحل التي تمرّ بها أو مرت أفراده . فبدأ المجتمع البشري بمرحلة الطفولية النوعية لا يألف من الوجود إلا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه . . .[1] إلى أن وصل المجتمع البشري إلى المرحلة الأخيرة المذكورة « سن الرشد » أو « بلوغه الرشد » .

ولعلنا نفهم جواباً لهذا من قول الشيخ عبده « إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده . . . فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة » لعلنا نفهم من هذا أن النبوة والعقل بمنزلة واحدة يغني كلًا منهما عن الآخر فعند عدم كمال العقل تأتي النبوة ويرسل الأنبياء وعند كمال العقل وبلوغ « سن الرشد » تنتهي الحاجة إلى النبوة والأنبياء فلينقطعا إذن فالبشرية قد بلغت سن الرشد وليس لها من حاجة إلى النبوة وهدايتها ولنكتفي بأحكام العقل وهدايته ؟!

وحتى لا يكون فيما فهمته من عبارته جناية عليه من سوء فهمي فإني أشير إلى عبارة للدكتور محمد أحمد خلف الله الذي عرف عنه تأثره بأقوال الشيخ عبده واستدلاله بها دائماً في إلحاده وما نسبته قصص القرآن الكريم إلى الأساطير عنا ببعيد يقول الدكتور : ـ

« ولقد كان قول القرآن عن محمد عليه السلام : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[2] الوثيقة الخطيرة في سبيل تحرير العقل الإنساني والفكر العربي . . . إن معنى هذه الوثيقة أن الإنسانية قد بلغت سن الرشد ومرحلة تحمل الأعباء ، وليست في حاجة بعد اليوم إلى وحي من السماء »[3] ويؤكد هذا مرة أخرى

(١) انظر رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٦٦ .
(٢) سورة الأحزاب : من الآية ٤٠ .
(٣) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله ص ٧٨ .

فيقول « والقرآن الكريم ينهي وصاية السماء على الأرض بإنهاء النبوة والرسالة »[1] ؟!!

لعل الأمر بعد هذا بلغ الوضوح ولنا أن نقول ان انقطاع الوحي لن يكون أبداً بسبب بلوغ النوع الإنساني أشده المزعوم فما بلغ النوع الإنساني أشده بل هو في عصره في جاهلية هي أشد جهلاً منها آنذاك وهو في وثنية أكثر ضلالاً . وما بني هذا الزعم إلا على نظرية التطور التي قال بها المشككون في الدين حيث زعموا أن الإنسان بدأ حياته لا يفقه منها شيئاً ولم يزل عقله ينمو ويتطور إلى أن بلغ أشده . ولنا في هذا قول سيأتي إن شاء الله في مبحث أصل الإنسان .

ولندع الحديث بعد هذا للشيخ محمد عبده ليرد على من ينكر تمثل الصوت والشبح للملائكة حيث يقول : - « أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح في حسّ من إختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله أنه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا في النفس وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم لايجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية وأن يكون ذلك لها عندما تنزل عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم ؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لأن شأنهم في الناس أيضاً غير الشؤون المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم

---

(١) المرجع السابق ص ٨١ .

وصحة ما يحدثون عنه أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتل، ويستقيم النظام بمختل »[١] .

ويثبت تلميذه السيد رشيد رضا هذا بحجة أخرى جديدة غير الحجة التي كان السلف يثبته به مقللاً من شأن حجتهم بوصفه لهم بـ « يكتفون » : - « وأما تمثل الملك فكانوا يكتفون في إثباته بقولهم أنه ممكن في نفسه وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه ونقول اليوم أن العلوم الكونية لم تبق شيئاً من أخبار عالم الغيب غريباً إلا وقربته إلى العقل بل وإلى الحس تقريباً بل ظهر من الإختراعات المادية المشاهدة في هذا العصر ما كان يعد عند الجماهير محالاً في نظر العقل، لا غريباً فقط فإذا كان الإنسان الكيميائي يحلل الأجسام الكثيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدة لطفها ويكثف العناصر اللطيفة فتكون كالجامدة بطبعها فكيف يستغرب تكثيف الملك لنفسه وهو من الأرواح ذات المرّة والقوة العظيمة بأخذه من مواد العالم المنبثة فيه هيكلاً على صورة الإنسان مثلاً ؟ دع مخترعات الكهرباء العجيبة التي لا يوجد شيء مما أخبر به الرسل من عالم الغيب إلا وفيها نظير له يقربه من الحس لا من العقل وحده . وهل الكهرباء إلا قوة مسخرة للملائكة ؟ ودع ما يثبته الألوف من علماء الأمم كلها من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس في صور كصور الأجساد »[٢] .

ونحن لا نقبل أن يستدل على إمكان وقوع الوحي بما يعرض للمصابين بأمراض خاصة حيث يتمثل في خيالهم أنهم يرون ويسمعون بل ويجالدون ويصارعون ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع لا نقبل الإستدلال بمثل هذا على إمكان الوحي فوقوع الوحي للنبي حقيقة وليس

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

خيالاً والأمر هنا على فرض وقوعه خيال لا حقيقة ولا يستدل بوقوع الخيال على وقوع الحقيقة اللهم إلا إذا كانوا يكتفون من الوحي للنبي بأنه وحي ذاتي أو وحي نفسي لا من خارج ذاته بل من خيالاته فهذا مما زعمه أعداء الإسلام وهو غاية مناهم في التشكيك في الوحي .

هذا من ناحية استدلال الشيخ محمد عبده . أما ما ذكره السيد رشيد « من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس في صور كصور الأجساد » فلعله يقصد أمر تحضير الأرواح الذي كان له جولة في عصره وصوله فإن كان الأمر كذلك فهو كأستاذه يستدل بوقوع أمر باطل على وقوع أمر حق وهذا لا يكون أما أمر تحضير الأرواح فقد خدع به كثير من ذوي الثقافة ، أدرك بعضهم الخداع والشعوذة والخيالات والأوهام التي تقوم عليها تلك الأحداث فرجع مكذباً مبطلاً لها كاشفاً لما فيها من ذلك واقرأ إن شئت كتاب الدكتور محمد محمد حسين « الروحية الحديثة دعوة هدامة » وهو يكتب عن تجربة عاشها وأحداث جربها لا يجازف بالخوض فيما لا يعرفه[1] .

وينهج الأستاذ محمد فريد وجدي ذلك النهج الذي سلكه أستاذه محمد عبده والسيد رشيد في الإستدلال على إثبات الوحي وهو « أشد ما ترتطم به عقول المعاصرين من الشبهات العلمية »[2] فيقول « إن روح الوجود[3] الذي صور الكائنات كلها على أي أساليب الإيجاد شاء ـ سواء أخلق كلاً منها خلقاً مستقلاً أم إشتق بعضها من بعض على قاعدة التحول التدريجي ـ لم يقطع امداده لها طرفة عين وكيف يعقل ذلك وهي مستمدة وجوده منه وسابحة فيه

---

(١) انظر الروحية الحديثة دعوة هدامة : محمد محمد حسين ص ٣٣.

(٢) الإسلام دين الهداية والإصلاح : محمد فريد وجدي ص ١١.

(٣) هذا ليس من أسماء الله ولا من صفاته التي وردت في الكتاب والسنة وهي أمر توقيفي لا مجال للإجتهاد فيها .

سبح النينان[1] في المحيط الزاخر . . منه وجدت وبه تحيا ، وفيه تفنى ؟ ومما يجب لفت النظر إليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها أظهر ما تكون في الكائنات الدنيا من الأحياء ، ثم يأخذ اتصاله بها في الخفاء حتى يصل الأمر إلى الإنسان فيخيل إليه أنه مستقل عنه ولا يعتقد باتصاله به إلا بإعمال الفكرة وإنعام الرؤية . خذ في يدك بذرة من تفاحة وتأملها تكاد لا تفترق عن الحصاة الميتة ، فإن قيل لك ولم تكن رأيت ذلك من قبل إن هذه البذرة توضع في الأرض فتنبت ، ويأخذ هذا النبات في النمو حتى يصير شجرة ثم تزهر فتنفرج زهوره عن ثمر التفاح اليانع في مذاقه الشهي وأريجه الشذي ولونه الوردي وملمسه الحريري ، لكذبت محدثك واتهمته بالإزدراء بك والسخرية منك . . ذلك لأنك لا تعقل أن هذه البذرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غرست في الأرض وسقيت بالماء عن جذير وسويق الأول يغوص في الطين يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة ولا يرتفع إلى سطحه . . والثاني يرتفع إلى سطحه متطلباً الهواء والنور ، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فإنك لا تستطيع . . أليس هذا الأمر وحده الذي ليس له علة معقولة يدلك على فعل الروح العام فيه وإلى دفعه لكل من هذين العضوين إلى موضعيهما اللذين لا بد من وجودهما فيهما لاداء وظيفتيهما في الإنبات ؟

أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف وعلى دفعها لكل عضو فيه إلى موضعه؟ » ثم يضرب الأستاذ وجدي بعد مثل المملكة النباتية مثلاً من المملكة الحيوانية وبعض طباعها وينتقل من هذا إلى الإنسان : ـ « ولقد وصلنا إلى الإنسان فهل يتلقى مدداً من الروح العام على نحو ما يتلقاه النبات والحيوان ؟ أما المدد الجثماني فلا يمكن التشكك فيه فإنك لا تبصر ولا تدري ما يحدث في بلورية عينيك من التحدب والإنبساط على حسب أبعاد المرئيات ولا بحدقتيهما من الضيق والإتساع

---

(١) يقصد به الحيتان ومفردها «النون».

على قدر كثرة النور وقلته وتأكل وتهضم وأنت غافل عما يحدث في أحشائك من التحليل والتركيب والتصفية والتصعيد حتى ليخرج من الخبز والخضر والفاكهة التي نتعاطاها عضل ودم وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب . .

فمن الذي يدير كل هذه الأجهزة الدقيقة وأكثر أهل الأرض لا يعلمون من أمرها شيئاً ؟ ومن الذي يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى ما يقومها ويصلحها ؟ هذا حال الجثمان . . فهل يتلقى الروح الإنساني مدداً عقلياً من الروح العام ؟ لقد أريتك كيف أن الحيوانات تلهم ما تعمله إلهاماً وتعجز عن أن تنتجه بعقولها إنتاجاً . . فشريعتها مبثوثة في جميع آحادها على السواء فليس فيها علماء وجهلاء وأوساط ولكن كل فرد منها يلهم ما يصلح له إلهاماً فيكرر العمل الذي كانت تعمله الكائنات التي من نوعه منذ وجدت على الأرض . . فلما وجد الإنسان وكان قريباً من الحيوان في سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده تولاه الوحي لا من طريق الإلهام والسوق ولكن من الطريق التعليمي ما دام قد استأهل هذه المرتبة فيولد الإنسان مجرداً من كل علم وكل حيلة فيهديه أبواه وقبيله والمجتمع الذي يعيش فيه إلى وجوه العمل فأصبح للوحي سبيل خاص بالإنسان مناسب لكرامته . وهو أن يفضي الروح العام بما يجب أن يعلمه الكافة ويعملوا به إلى واحد منهم فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه »[1] .

ذلكم ما يراه الأستاذ وجدي في أمر الوحي وما قوله « فلما وجد الإنسان وكان قريباً من الحيوان في سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده تولاه الوحي » ما قوله هذا إلا تكرار لقول أستاذه محمد عبده الذي نقلناه آنفاً من أن الإنسان في مجتمعه مر بمراحله التي مرّ بها أفراده فكان في الطفولية النوعية التي مر بها المجتمع البشري بحاجة إلى الوحي وكأن الوحي جاء ليسد هذه الحاجة التي انتهت ببلوغ البشر سن الرشد أو بلوغه أشده ولم يعد بحاجة إلى وحي السماء ؟!

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح : محمد فريد وجدي ص ١١ - ١٣

أما تعريفه للوحي بقوله « وهو أن يفضي الروح العام بما يجب أن يعلمه الكافة ويعملوا به إلى واحد منهم فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه » فتعريف مردود ذلكم أن « يفضي » ذات معنى عام لا تحدد المعرفة التي سبق البيان لأجلها فهو بيان يحتاج إلى بيان . وكذلك التعبير بالروح العام وهو من الصفات المردودة على قائلها فلا ندري ما المقصود به ؟ أيقصد به الله سبحانه وتعالى ؟ أم يقصد به جبريل عليه السلام ؟ فإن قصد به الله سبحانه وتعالى قلنا إن هذا ليس من أسمائه ولا من صفاته وهي أمور توقيفية لا مجال للإجتهاد فيها . وإن قصد بها جبريل عليه السلام قلنا أن الوحي ليس من جبريل إذ هو ليس إلا ناقل له .

ثم يصل الأستاذ وجدي بعد هذا إلى ما وصل إليه أستاذه محمد عبده من أن الإنسان قد تجاوز مرحلة السذاجة الحيوانية أو الطفولية النوعية إلى مرحلة سن الرشد ، فيثبت الأستاذ وجدي حالة الإلهام الحيواني الذي تولى أمر أسلاف الإنسان طوال عهدهم بالوجود ثم ينكر انقطاع هذه الحالة باجتياز الإنسان دور الحيوانية انقطاعاً مفاجئاً ويثبت أن الذي يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجياً ، حتى لا تعمى عليه وجوه الحياة فيبيد وعند تمام تميزه عن العالم الحيواني كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطوراً ذريعاً ، فأصبحت قابلة للإتصال بالروح العام من طريق روحاني محض »[1] .

ثم أراد أن يأتي بجديد كعادته تحت تأثير مكتشفات العلم الحديث بغض النظر عن ثبوت ذلك أو عدمه ، وما كنا لنعيب عليه هذا النهج لولا أنه جعله دليلاً قاطعاً جديداً لم يكن في إمكان من قبل عام ١٧٧٠ م الحصول عليه وما داموا آمنوا بالوحي قبل اكتشاف هذا الدليل فإن إيمانهم بالوحي إيمان يقوم على تفسير للوحي من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء .

يقول الأستاذ وجدي « يقول قائل ما معنى اتصالها بالروح العام من

---

(١) انظر الإسلام دين الهداية والإصلاح : محمد فريد وجدي ص ١٤ .

طريق روحاني أليس هذا من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء ؟! نعم هو كذلك لمن اكتفى من العلم بما تلقاه في الكتب المدرسية المحدودة . ولكن العالم منذ سنة ١٧٧٠ م أي منذ أن أعلن الدكتور الألماني « مسمر » بأنه اكتشف سيالاً حيوياً في الإنسان أسماه المغناطيس الحيواني وهو جاهد في تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعي وقد ثبت أخيراً وصار في عداد المعارف الأولية لدى الباحثين بأن في باطن كل منا عقلاً مستقلاً غير عقلنا العادي أرفع وأوسع مجالاً منه هو الذي يوحي إلى الإنسان بالميول الطيبة وينهاه عن المنكر والبغي وهذا العقل الباطن هو الذي يدبر جثمانه ويدير اجهزته وأعضاءه ويصلحها إن اعتراها عطب . هذا العقل الباطن الذي لا يحس الإنسان بوجوده متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالاً مباشراً فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الإلهام فهل يعقل إلا أن يكون هذا العقل الباطن قد وصل في بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح العام لإيصال شريعة جديدة إلى شعب هو في حاجة إليها ؟ . إذا وجد بين القراء من ينكر العقل الباطن ويتشكك في اتصاله بالعالم الروحاني مباشرة . . فليس لنا من وسيلة لإقناعه إلا بلغته للتوسع في قراءة ما كتبه العلماء الباحثون في مسألة التنويم المغناطيسي والعقل الباطن على الأسلوب العلمي الصارم فإذا كان من الناس من يتجرؤون على التكذيب بهذه الحقائق مع إعفاء أنفسهم من الإطلاع على ما كتب فيها فهؤلاء أمة وحدهم وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الجامدين »[1] .

وليس لنا من قوله على دليله الذي ملأ ذهنه وفكره إلا أن نقول أنه أراد أن يرد على من ينكر الوحي بإثبات الوحي لكل الناس بعد اجتيازهم دور الحيوانية عن طريق العقل الباطني الذي اكتشف سنة ١٧٧٠ م وهو متصل بالحياة الروحانية إتصالاً مباشراً ؟ !

---

(١) الإسلام دين الهداية والاصلاح : محمد فريد وجدي ص ١٤ ـ ١٥ .

ولا ندري ما الذي يمنع إمكان حصول الوحي للعقل الظاهر ما دام ممكن الحصول للعقل الباطن - على فرض التسليم بهذا الإكتشاف - وليس في العقل الظاهر ما يمنع هذا حتى نبحث عن طريق آخر له إلا أن يكون الإتيان عن طريق الإكتشافات العلمية الحديثة وما يثير الدهشة والإستغراب وتغيير ما ألف الناس من الأدلة بما هو جديد لم يؤلف - إلا أن يكون الإتيان بنحو هذا هو المؤثر في نفوس من بهر أبصارهم بريق الحضارة الغربية الزائف وأوقف حركة فكرهم ما جدّ من اكتشافات علمية هي في مرحلة الإختبار والتجربة فضلاً عن عدم معارضتها للأدلة الأصلية الثابتة .

وقوع الوحي :

ثم ينتقل رجال المدرسة العقلية الحديثة بعد الإستدلال على إمكان وقوع الوحي إلى إثبات وقوعه فلا دليل في إمكان وقوع الشيء على ثبوت وقوعه بل لكل دليله .

ونبدأ هنا بقول الأستاذ وجدي لقرب حديثه فيقول بعدما نقلناه عنه قبل سطور « كيف يعقل خلاف هذا وهو الذي حدث فعلاً في كل أمة وفي جميع أدوار التاريخ . . فلم تخل الأرض قط من داع إلى الحق والفضائل معلناً أنه أرسل[1] لأداء هذه المهمة إرسالاً فتراه يعرض نفسه للموت في سبيل تعميم دعوته ويصبر على البأساء والضراء متبعاً سمت الصالحين من الزهد في الدنيا والتواضع وإيثار الفقر حتى ينجح فيما تصدى له أو يقتل في سبيله »[2] .

ويضع الشيخ محمد عبده فصلاً في رسالة التوحيد عن « وقوع الوحي والرسالة » يثبت فيه هذا بعد أن يقسم الناس إلى قسمين شاهد وغائب فيقول

---

(١) لا ندري من يقصد الأستاذ وجدي بهؤلاء الرسل منذ وفاة سيدنا محمد ﷺ فنحن المسلمون لا نؤمن بأي رسول بعده ﷺ وقد خلت الارض بعده من الرسل ١٤ قرنا فلا يصح عموم إثباته بعد وفاة نبينا ﷺ.

(٢) الإسلام دين الهداية والإصلاح : محمد فريد وجدي ص: ١٥.

« الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان كما سلف في الوجه الأول من الكلام على الرسالة . وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر » ثم يقسم الأنبياء إلى قسمين « ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطاناً ولا بالأكثر مالاً ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الأنظار ومع ذلك . . قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر وكان الخير لأممهم في اتباع ما جاءوا به .

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدي لا يصلح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله ولا في دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر في العقول والباطل لا بقاء له إلا في الغفلة عنه كالنبات الخبيث في الأرض الطيبة ينبت بإهمالها وينمو بإغفالها فإذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء، ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الأنبياء قامت في العالم الإنساني ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبين فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائماً في خلال ما ألحق به المبتدعون .

وأما بقية الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم فيكفي في إثبات نبوتهم

إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به »[1] .

بعض الشبهات على الوحي وردهم لها : -

ثم وبعد سوقهم ما يرونه من الأدلة العقلية لإثبات إمكان الوحي ثم إثبات وقوعه كثرت ردودهم على ما يورد من شبه على الوحي من الأعداء المعاصرين للرسالة والمعاصرين للمدرسة ونكتفي هنا بإيراد ردين لهم على شبهتين إحداهما قديمة والأخرى جديدة وحديثة .

أما الأولى فيقول عنها السيد رشيد « ولما استبعد هؤلاء الوحي لرجل من البشر مثلهم كما حكاه عنهم في قوله ﴿ مَا هَذَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٤) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾[2] زعموا أن الرسول من الله يجب أن يكون ملكاً أو أن يؤيد بملك يكون معه كما حكاه عنهم بقوله ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾[3] وقد ردت هذه الشبهة في الآيتين الثامنة والتاسعة من هذه السورة[4] ببيان سنة الله تعالى في أنزال الملائكة وببيان عدم استعداد جمهور البشر لرؤيتهم والتلقي عنهم بقوله في الدنيا وإنما يعد الله بعض الأفراد من كملتهم لذلك فلا مندوحة إذا أنزل الملك عن جعله رجلاً أي متمثلاً في صورة رجل وحينئذ يلتبس عليهم الأمر وتبقى شبهتهم في موضعها »[5] .

أما الشبهة الحديثة فينسبها السيد رشيد إلى الأستاذ إدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١١٥ - ١١٧ .

(٢) سورة المؤمنون : ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) سورة الفرقان : الآية : ٧ .

(٤) سورة الأنعام وهما ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ولو أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُون/٨/ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ/٩ / ﴾ .

(٥) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٢٧٩ .

ترجمته بالعربية : ـ « كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الإلهام النفسي وهذا التضاعف في الشخصية اللذينَ يحدَثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والأحوال الروحية التي من بابها »[1] أ . هـ .

ويعلق السيد رشيد على هذا بقوله « وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق »[2] ثم قال « خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج ، ذلك أن نفسه العالية وسريرته الطاهرة وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء . فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقي في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده .

يقول هؤلاء الماديون : نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع وإنما نقول أن منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس فإن هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفناه وثبت عندنا دون ما لم يثبت »[3] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ١١ ص ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق جـ ١١ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

ثم ذكر السيد رشيد كيف استنبط هؤلاء الماديون أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره ويصف استنباطهم هذا بأنه لم ير ولم يسمع مثله في تقريبه إلى العقل فيقول : ـ

« يقولون إن عقل محمد الهيولاني[1] قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قوله ـ آمنا وصدقنا ـ وأن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار ـ آمنا وصدقنا ـ وإن فقره وفقر عمه (أبي طالب) الذي كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الإستمتاع بالشهوات

---

(١) لبيان هذا ننقل نصاً في بيان مراتب العقل الإنساني أورده الأستاذ جميل صليبا في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٩ سنة ١٩٥٤م ص ٤٩٦ تحت عنوان «معاني العقل في الفلسفة العربية» جاء فيه : ـ «يقول ابن سينا أن نسبة القوة النظرية إلى الصور المحسوسة تكون على وجهين فهي إما أن تكون قابلة لها بالقوة ، وإما أن تكون قابلة لها بالفعل فإذا كانت قابلة لها بالقوة اختلفت نسبتها إليها بحسب درجات القوة وهي ثلاث:

الدرجة الأولى : : هي القوة المطلقة والإستعداد المطلق الذي لم يخرج منه إلى الفعل شيء وهي قوة هيولانية كقوة الطفل على الكتابة فهو لا يعرف الكتابة ولا يقدر عليها ولكن فيه استعداداً مطلقاً لها.

والدرجة الثانية : هي القوة الممكنة وهي التي حصل معها للطفل استعداد يمكنه من اكتساب الفعل بلا واسطة كقوة الطفل على الكتابة بعد أن عرف القلم والدواة وتعلم بسائط الحروف وهذا الإستعداد الممكن هو حصول المعقولات الأولى للنفس مثل اعتقادنا أن الكل أعظم من الجزء . .

والدرجة الثالثة : هي القوة الكاملة التي لا ينقصها للإنتقال إلى الفعل شيء كقوة الكاتب المستكمل لصناعة الكتابة إذا كان لا يكتب . . . «ثم ذكر ان القوة المطلقة تسمى «العقل الهيولاني» وأن القوة الممكنة تسمى «عقلاً بالملكة» وتسمي القوة الكاملة «العقل بالفعل» أما إذا كانت نسبة القوة النظرية إلى الصور نسبة الفعل المطلق فإنها تسمى «العقل المستفاد» وقال إن العقل الهيولاني موجود لكل شخص من النوع الإنساني وإنما نسب إلى الهيولى لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الخالية في حدّ ذاتها من الصور .أ.هـ.

من السكر والتسري وعزف القيان ـ الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه ـ وأنه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات ـ لا مانع من ذلك ـ وأنه استفاد من اسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور ـ هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا ـ وإن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع ـ هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول ـ وانه كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه ـ وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي ما فيه ـ ونتيجة ما تقدم أنه توسل إلى ذلك بالإنقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغار حراء فقوى هنالك إيمانه وسما وجدانه فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات في ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود وسر النظام الساري في كل موجود بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور . وما زال يفكر ويتأمل وينفعل ويتململ ويتقلب بين الآلام والآمال حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشر فتجلى له هذا الإعتقاد في الرؤى المنامية ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة .

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الأصل من تلك المعلومات التي ذكرناها ومما هداه إليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء وأنها خطاب الخالق عز وجل بواسطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام »[1]

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

ذلكم هو بسط حجتهم على شبهتهم هذه كما أورده السيد رشيد وفندها بعد هذا العرض وأبطلها من وجوه : ـ

الوجه الأول :

إن أكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة أو دعاوي باطلة لا قضايا تاريخية ثابتة كما بيناه عند ذكرها وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة .

الوجه الثاني :

لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئاً أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده .

الوجه الثالث :

لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة . . .

الوجه الرابع :

نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلاً عن الكذب على الله عز وجل .

الوجه الخامس :

أنه لم يرد في الأخبار الصحيحة ولا الضعيفة أن محمداً ﷺ كان

يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت .

الوجه السادس :

أن حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة .

الوجه السابع :

لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب والوجدان الملتهب والقلب المتقلب . . لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة وفكرته الوقادة في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن في بيان أصول الإيمان وتوحيد الأديان . . . ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ولم يدعهم إلى شيء ولا تحدث إلى أهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه نفسه . . . إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره ـ فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه واستمداده لعلومه من التلقي والأخبار الذي توهموه .

الوجه الثامن :

ان هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة

الوحي قليلة المواد ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن وأن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطورا وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها دع الأعراب الذين كان يمرّ بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام .

الوجه التاسع :

أن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته . بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الإلٓهية ما صح منها وما لم يصح .

رويدكم أيها المفتاتون الذين يقولون ما لا يعلمون ان وحي القرآن أعلى مما تزعمون وأكبر مما تتصورون وتصورون وأن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون »[1] .

تلكم هي الشبهة ، وذلكم هو الجواب الذي ردّ به السيد رشيد فهل ذلكم الجواب هو ما التزمته المدرسة العقلية الحديثة أم أنها قد تأثرت بهذه الشبهة من المستشرقين فغلب التأثر بها على منهجهم ؟ !

قلنا آنفاً أنه يكثر ترديد بعض العبارات في تعريف الوحي من رجال المدرسة العقلية الحديثة من نحو « يجده الشخص من نفسه » أو « هو شيء يجدونه في أنفسهم « وقول الشيخ عبده » أن روح النبي منطوية على الدين في جملته من قبل أن ينزل عليه الوحي بتفصيل مسائله »[2] ومن

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٨٦ ـ ١٩٠ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤ .

ذلك أيضاً أن السيد محمد رشيد رضا ألف كتاباً عن الوحي سماه « الوحي المحمدي » وهي تسمية خاطئة ذلكم أن الوحي إلّهي لا محمدي ، ونحن وإن كنا ندرك أن السيد رشيد لا يقصد بهذه التسمية نسبة مصدر الوحي لمحمد ﷺ إلا أنا لا نوافقه على هذه التسمية ذلكم أن المحمدي والمحمدية والمحمديين من الأوصاف التي ألصقها أعداء الإسلام بنا لينفروا الناس من الإسلام لكونه بشرياً لا إلّهياً ولذلك وصفت السيدة مريم جميلة بعد اعتناقها الإسلام مقالة نشرت في إحدى الصحف بعنوان « العالم المحمدي » فقالت « إن عنوان هذه المقالة نفسها « العالم المحمدي » هي تسمية خاطئة فنحن « مسلمون » ولسنا « محمديين » وإن هذه التسمية « المحمدية » و« المحمدي » ابتكرها الصليبيون ليثيروا الكراهية للإسلام في أوربا »[1] .

لذلك فإنا نرفض تلك العبارات التي توحي بأن الوحي من ذات النبي لا من خارجها بمعنى أن ما يقوله هو من عند نفسه ليس من عند الله وهو ما سعى إلى إثباته أعداء الإسلام من المستشرقين . وبذلوا جهدهم في بث هذه الشبهة وحتى ندرك عمق تأثير هذه الشبهة على فكر رجال المدرسة العقلية علينا أن نذكر ما يترتب على هذه الشبهة . ثم نبحث عن أثرها في فكرهم . أما ما يترتب على الزعم بأن الوحي من ذات النبي لا من الله سبحانه وتعالى فمن ذلك :[2] .

١ ـ أن القرآن الكريم بشري لا إلّهي فلتسقط مكانته في قلوب المؤمنين إذ هي قائمة على معتقد خاطىء بأنه إلّهي لا بشري .

٢ ـ وما دام القرآن بشرياً خاضعاً للمنهج البشري في التأليف فاحتمال الكذب فيه جائز واحتمال الخطأ أكثر جوازاً . إذن فأحكامه لا تقوم قطعاً على منهج السلامة ومنهج الحكمة والصواب فهي أحكام قابلة

---

(١) الإسلام في النظرية والتطبيق : مريم جميلة ترجمة س حمد ص ٢٨ .

(٢) أنظر المدرسة العقلية الحديثة في ضوء العقيدة: ناصر عبد الكريم العقل ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

للتجديد والتطوير ومجاراة المجتمع في كل عصر وفي كل مكان .

٣ ـ وما دام الأمر كذلك فلا مانع من التجديد في بعض أحكامه وإلغاء ما لا يلائم العصر من أحكام لا تسير مواكبة له في تقدمه وتطوره فلنسقط أول ما نسقط الربا ولنسمح بالتعامل به بين المسلمين ولنلغ قطع يد السارق وجلد شارب الخمر ورجم الزاني . ولنفصل الدين عن الدولة ، فلرجال الدين دولتهم ولرجال السياسة دولتهم وكل يسير دولته وفق ما يرى فيه الأصلح ، ولنعط المرأة بعد هذا ما لم يعطها إياه القرآن فلنسمح لها بالخروج والعمل والإختلاط مع الرجال بل لنعط المرأة حرية العمل بجميع أشكاله وألوانه ؟! .

٤ ـ إن القرآن إنما جاء لإصلاح أوضاع معاصرة لنزوله هذه الأوضاع غير موجودة بعد ذلك أو أن علاجها ليس هو نفس العلاج الأول فلا بد من علاج جديد فليس هذا العصر مثلاً بتقدمه العلمي وتطور العقل البشري فيه وبلوغه أشده كعصر الرسالة أو ما قبلها ، فليس للقرآن صلاحية للتطبيق كما هي في ذلك العصر .

ذلكم بعض ما يترتب على هذه الشبهة في الوحي فكيف كان أثرها في فكر محمد عبده وتلاميذه أو من تأثر بمنهجه واستدل بأقواله فيما ذهب إليه من مذاهب منحرفة .

من ذلك القول بأن القرآن اشتمل على أساطير وقصص وأخبار غير واقعة (بمعنى آخر أنه يكذب) وهذا ما اشتمل عليه كتاب الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله وهو يستند فيما يزعم إلى أقوال الأستاذ محمد عبده وسبقت الإشارة إلى ذلك في بحث القصة في القرآن الكريم .

أما الدعوة إلى تغيير الأحكام في القرآن الكريم حتى تلائم العصر الحديث فنذكر قول أحمد زكي أبو شادي أن « من الحقائق التي يجب التسليم بها أن القرآن الشريف يجب أن يعاد النظر في فهم تعاليمه

وتطبيقها من عصر إلى عصر ، بل من جيل إلى جيل ، وعلى هذا لا بد من ظهور تفاسير جديدة متمشية مع روح العصر وتقدم العلم ، يؤلفها المطلعون الواعون من الأحرار المفكرين »[1] .

وقد سبقه إلى هذا الشيخ محمد عبده حين دعا إلى إباحة الربا لضرورة الوقت فقال « إن أهل بخاري جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص »[2] ؟!! .

وقال الشيخ محمد مصطفى المراغي لأعضاء لجنة الأحوال الشخصية « ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم »[3] وأنت ترى أنه يصرح باختيار ما يوافق الزمان والمكان من الأحكام ؟! لا ما يوافق النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة ، وكأن الأحكام الشرعية سلعة معروضة للنظّار يختارون منها ما يناسب أمزجتهم ورغباتهم لا إلزامية حسب ما تدل عليه النصوص . وكأنها تسير وفق الهوى والشهوة لا وفق تحري الحقيقة وبذل الجهد في طلبها .

ومن أثر شبهة المستشرقين المذكورة كما وضحنا آنفاً تلكم الدعوة الباطلة إلى فصل الدين عن الدولة وقد دعا اليها علي عبد الرزاق في كتابه الإسلام وأصول الحكم ولا تزال الأمة الإسلامية تعاني من آثار تلكم الدعوة .

ودعا الأستاذ قاسم أمين إلى تحرير المرأة ـ وهو تلميذ الشيخ محمد

---

(١) ثورة الإسلام : أحمد زكي أبو شادي ص ٣٥.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٩٤٤.

(٣) المجددون في الإسلام : عبد المتعال الصعيدي ص ٥٤٨ والفتح المبين : عبد الله المراغي جـ ٣ ص ١٩٨ وتراجم الأعلام المعاصرين: أنور الجندي ص ٤٢٨.

عبده ومن المتأثرين به[1] ووصفه السيد رشيد رضا بأنه « العالم البارع في علوم الأخلاق والإجتماع »[2] ؟! دعا إلى تحرير المرأة ولا يخفى على أحد ما جنته هذه الدعوة على المرأة المسلمة بل على المسلمين كافة من بلاء ، وحينما أطلق الغرب حرية المرأة رتب على هذا حرية الإختلاط ورتب على حرية الإختلاط حرية الصداقة ورتب على حرية الصداقة حرية ممارسة الحب أو الزنا ، وأن تلكم المرأة التي حررها !! قاسم أمين إن لم تكن وصلت إلى درجة المرأة في الغرب كما ذكرنا فإنها ستصل إليها حتماً إن لم يتداركها الله برحمة من عنده .

وحينما ندرك أن كتاب قاسم أمين هذا ليس من تأليفه بل هو من وضع أستاذه محمد عبده وإنما لأسباب خاصة ذيله باسم تلميذه ـ كما وضحنا ذلك في ترجمته ـ حينما ندرك هذا ندرك عمق تأثر محمد عبده وتلاميذه بالمستشرقين وشبهتهم .

ومن هذا كله ـ أيضاً ـ ندرك أهمية عقيدة الوحي في الشريعة الإسلامية التي حاول أعداؤها طمسها بنفيه وإنكاره والتلبيس على أهله .

ومنه ـ أيضاً ندرك مدى تأثر رجال المدرسة العقلية الحديثة بما دسّه المستشرقون من شبهات في هذه العقيدة ـ كما ذكرنا ـ أدركوا ذلك التأثر أم لم يدركوه فأثره بين واضح . والله المستعان .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ١٠٦٢ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٥١.

ثانيا : عقيدة البعث وأمارات الساعة

قال الله تعالى ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[4] وقال سبحانه ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ إِلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[6] .

تلكم بعض الآيات من القرآن الكريم في إثبات البعث يوم القيامة ، وقد جعل الله لذلك أشراطاً وآيات قال تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾[7] وقال

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٦

(٢) سورة التغابن من الآية ٧.

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٦ .

(٤) سورة الحج من الآية ٥.

(٥) سورة هود من الآية ٧.

(٦) سورة المطففين الآية ٤

(٧) سورة محمد الآية ١٨.

سبحانه ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهُمُ المَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَو يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْم يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا وقع القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[2] .

وقد ورد عنه ﷺ أحاديث كثيرة في الإخبار عن علامات وأشراط لهذا اليوم منها ما وقع في عصره ﷺ كمجيئه عليه الصلاة والسلام ، ومنها ما وقع بعد ذلك ككثرة المال والتطاول في البنيان وغير ذلك كثير ، ومنها ما سيقع وأهمها الدجال ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ، والمهدي ، ونزول عيسى عليه السلام ، وغير ذلك .

ولنقصر الحديث هنا عن آيات ثلاث منها المهدي والدجال وطلوع الشمس من مغربها ، ولنقصر الحديث فيها على بيان درجة ثبوتها في الإسلام .

أما المهدي :

فقد بلغت الأخبار عن مجيئه حدّ التواتر قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى : ـ « وقال أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم السحري : قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بمجيء المهدي وأنه من أهل بيته وأنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلاً ، وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لدّ بأرض فلسطين وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى يصلي

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٨.

(٢) سورة النمل الآية ٨٢.

خلفه »[1] وقال الشريف محمد بن رسول الحسيني في كتابه الإشاعة لأشراط الساعة « قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان وأنه من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة عليها السلام بلغت حدّ التواتر المعنوي فلا معنى لإنكارها ومن ثم ورد من كذب بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدي فقد كفر رواه أبو بكر الاسكاف في فوائد الأخبار وأبو القاسم السهيلي في شرح السير له »[2] وحكى التواتر أيضاً الإمام ابن قيم الجوزية في المنار المنيف في الصحيح والضعيف[3] .

وأما الدجال :

فقد حكى تواتر الأحاديث في مجيئه الحافظ عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى وردّ على أولئك الذين ينكرون ذلك ويستدلون بعدم وروده في القرآن فيقول « أنه إنما لم يذكر بصريح اسمه في القرآن احتقاراً له حيث يدعي الإلآهية وهو بشر ينافي جلال الرب وعظمته وكبريائه وتنزيهه عن النقص فكان أمره عند الرب أحقر من أن يذكر وأصغر وأدحر من أن يجلى عن أمر دعواه ويحذر ولكن انتصر الرسل لجناب الرب عز وجل فجلوا لأممهم عن أمره وحذروهم ما معه من الفتن المضلة والخوارق المنقضية المضلة فاكتفى بإخبار الأنبياء وتواتر ذلك عن سيد ولد آدم إمام الأتقياء عن أن يذكر أمره الحقير بالنسبة إلى جلال الله في القرآن العظيم ووكل بيان أمره إلى كل نبي كريم .

فإن قلت فقد ذكر فرعون في القرآن وقد ادعى ما ادعاه من الكذب والبهتان . . فالجواب أن أمر فرعون قد انقضى وتبين كذبه لكل مؤمن

(١) الحاوي للفتاوي : الإمام السيوطي جـ ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦ .
(٢) الإشاعة لأشراط الساعة : محمد بن رسول الحسيني ص ١١٢ .
(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف : ابن قيم الجوزية ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ص ١٤٢.

وعاقل وهذا أمر سيأتي وكائن فيما يستقبل فتنة واختباراً للعباد فترك ذكره في القرآن احتقاراً له ، وامتحاناً به »[١] .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في بيان مذهب أهل السنة في ذلك : ـ « قال القاضي هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره ونهريه وأتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى ﷺ ويثبت الله الذين آمنوا ، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافاً للبخاري المعتزلي[٢] وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات لا حقائق لها »[٣] .

وأما طلوع الشمس من مغربها

فقد قال تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيهُمُ المَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْم يَأْتِي بَعْضُ آيَـاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾[٤] روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

---

(١) الفتن والملاحم : الحافظ عماد الدين بن كثير جـ ١ ص١٠٦ .

(٢) ليس هو محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح فهذا سني والمخالف هو البخاري المعتزلي .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٥٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٥٨ .

قال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانهـا » ثم قرأ هذه الآية .

واستدل ابن كثير رحمه الله تعالى بهذا الحديث وأمثاله مع الآية الكريمة على سدّ باب التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ووصف هذه الأحاديث بالتواتر فقال « فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيماناً أو توبةً بعد طلوع الشمس من مغربها لا تقبل منه »(١) .

وبما ذكرنا تعرف أن الأحاديث الواردة في المهدي والدجال وطلوع الشمس من مغربها بلغت حدّ التواتر في كل منها على ما ذكرنا ، وتلكم منزلتها عند أهل السنة فما موقف رجال المدرسة العقلية الحديثة منها ؟

لندع الأستاذ رشيد رضا يحدثنا عن ذلك . حيث يبدأ حديثه عن أشراط الساعة وأماراتها بالإعتراف بثبـوتها « إن للساعة أشراطاً ثبتت في الكتاب والسنة قال تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾(٢) .

وعنده أن « أجمع الأحاديث الصحيحة السند فيما يكون قبل الساعة ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة . . لا تقومن الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتها واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهمّ رب المال من يقبل صدقته وحتى يتطاول الناس في البنيان وحتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه وحتى تطلع الشمس من

---

(١) الفتن والملاحم : الحافظ عماد الدين بن كثير جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) ٤٧ : ١٨ تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٩ ص ٤٤٤ .

مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِهَا خَيْراً ﴾ [1] ولتقو من الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقو من الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها) [2] .

ذلكم إقرار منه بثبوتها لكنه يشككك بعد هذا في أشراطها صغيرها وكبيرها فيقول « ويرد من الأشكال على ما ذكر أن ما ورد من الأشراط الصغرى المعتاد مثلها التي تقع عادة بالتدريج لا يذكّر بقيام الساعة ولا تحصل به الفائدة التي من أجلها أخبر الشارع بقرب قيام الساعة ـ وأن ما ورد من الأشراط الكبرى الخارقة للعادة يضع العالم به في مأمن من قيام الساعة قبل وقوعها كلها فهو مانع من حصول تلك الفائدة فالمسلمون المنتظرون لها يعلمون أن لها أشراطاً تقع بالتدريج فهم آمنون من مجيئها بغتة في كل زمن وإنما ينتظرون قبلها ظهور الدجال والمهدي والمسيح عليه السلام ويأجوج ومأجوج وهذا الإعتقاد لا يفيد الناس موعظة ولا خشية ولا استعداداً لذلك اليوم أو لتلك الساعة فما فائدة العلم به إذاً ؟ وهل من الحكمة أن تكون فائدتها محصورة في وقوع الرعب في قلوب الذين يشاهدون هذه الآيات الكبرى ولا سيما آخر آية منها ؟ وكيف يتفق هذا وما ورد من كون كل رسول كان يخوف قومه وينذرهم الساعة والدجال قبلها ؟ وكيف وقع هذا منهم ولم يصدقه الواقع ومثله لا يكون بمحض الرأي ، وهل كان نبينا ﷺ يريد بالإخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة مدة قرون كثيرة إلى أن تظهر هذه الأشراط ؟ أم كان يتوقع ظهورها بعده في قرنه أو فيما يقرب منه كغيره من الرسل بدليل ما ورد من تجويزه ظهور الدجال في زمنه وتصديقه ما حكاه تميم الداري من خبر الجساسة وكون الدجال محبوساً في جزيرة ؟ » [3] .

---

(١) سورة الأنعام (١٥٨)

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٨ .

(٣) المرجع السابق جـ ٩ ص ٤٥٠ .

ذلكم ما أورده السيد رشيد رضا من شبه على ما ورد من أشراط الساعة عموماً من غير تخصيص ولن نذهب نناقش معه ما أورده من شبه وإشكال في كل واحدة منها بل نكتفي بما أشرنا إليه أولاً : المهدي والدجال وطلوع الشمس من مغربها وقد علمنا فيما سبق درجة ثبوتها .

أما المهدي :

فيقول فيه السيد رشيد « وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر والجمع بين الروايات فيه أعسر والمنكرون لها أكثر والشبه فيها أظهر ، ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحهما وقد كانت أكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ومن أدعياء الولاية وأولياء الشيطان لدعوى المهدوية في الشرق والغرب وتأييد دعواهم بالقتال والحرب وبالبدع والإفساد في الأرض حتى خرج ألوف الألوف عن هداية السنة النبوية ومرق بعضهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية »[1] .

وانا لنكتفي هنا بسؤال السيد رشيد ومن نحا نحوه متى كان استغلال أعداء الإسلام لعقيدة من عقائد المسلمين مبرراً لطمسها أو التشكيك في ثبوتها ؟! أن أعداء الإسلام لم يستغلوا المهدوية فحسب بل استغلوا ما هو أكبر وأعظم وأوضح عند المسلمين أعني عقيدة النبوة استغلوا هذا وخرج أدعياء النبوة ولا زلنا في هذا العصر نعاني من أولئك كالبهائية والبابية والقاديانية وغيرهم مع أن المسلمين كلهم يؤمنون بختم النبوة ولم يكن هذا مانعاً لهم من استغلالها ولن يكون هذا ولا ذاك مانعاً لنا نحن المسلمين من الإيمان بعقيدة النبوة وختمها ، والإيمان بمجيء المهدي .

ولو شككنا في كل عقيدة للمسلمين يستغلها أعداء الإسلام لخشينا أن

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

لا يبقى لنا من الإسلام شيء حتى اسمه ؟ ! .

ثم يستمر السيد رشيد ويبين ما جرته هذه العقيدة على المسلمين من سوء حال فيقول عن المسلمين « بل تركوا ما يجب لحماية البيضة وحفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة وبإعداد ما استطاعوا من حول وقوة فاتكلوا وتواكلوا وتنازعوا وتخاذلوا ولم يعظهم ما نزع من ملكهم وما سلب من مجدهم اتكالاً على قرب ظهور المهدي كأنما هو المعيد المبدي فهو الذي سيرد إليهم ملكهم ويجدد لهم مجدهم ويعيد لهم عدل شرعهم وينتقم لهم من أعدائهم ولكنه يفعل ذلك بالكرامات وما يؤيد به من خوارق العادات لا بالبواريد أو البندقيات الصارخات ولا بالمدافع الصاخات ولا بالدبابات المدمرات ولا بأساطيل البحار السابحات والغواصات ولا أساطيل المناطيد والطيارات ولا بالغارات الخانقات وقد كانت الحرب بين خاتم النبيين والمشركين سجالاً وكان المسلمون ينفرون معه خفافاً وثقالاً فهل يكون المهدي أهدى منه عملاً وأحسن حالاً ومآلاً ؟ كلا »[1] .

أما الطامّة التي جاء بها السيد رشيد فهي تشبيه اعتقاد المسلمين بهذا باعتقاد اليهود بظهور مسيح « كانت اليهود اغترت مثلنا بظواهر ما في كتب أنبيائهم من الأنباء بظهور مسيح فيهم يعيد لهم ما فقدوا من ملك داود وسليمان فاتكلوا على ما فهم أحبارهم منها بمحض التقليد الأصم الذي لا يسمع ، الأعمى الذي لا يبصر ، ومضت القرون في إثر القرون وهم لا يزدادون إلا تفرقاً وضعفاً فلما عرفت أجيالهم الأخيرة سنن الله تعالى في العمران طفقوا يستعدون لاستعادة ذلك الملك والسلطان بالسعي إلى إنشاء وطن يهودي خاص بهم يقيمون فيه قواعد العمران بإرشاد العلوم والفنون العصرية التي يتعلمونها بما يحيون من لغتهم العبرانية وقد أنشأوا لذلك مصرفاً مالياً خاصاً وما زالوا يجمعون لأجله الإعانات بالألوف وألوف الألوف من الدنانير حتى إنهم استمالوا لمساعدتهم في هذا العهد أقوى دول الأرض .

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا : جـ ٩ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

هذا والمسلمون لا يزالون يتكلون على ظهور المهدي ويزعم دهماؤهم أنه سينقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلاً وهم يتلون قوله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾[1] فإذا كان من أشراط الساعة آيات وكان زمنها زمن خوارق عادات فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم وإقامة لشرعهم وعزة وسلطان في أرضهم »[2] .

ونحن لا نخالف السيد رشيد رضا في أنه لا يحق لأحد من المسلمين أن يتأخر بحال من الأحوال عن العمل والإصلاح والجد والإجتهاد فيما فيه صلاح الإسلام والمسلمين بدعوى الإتكال على مجيء المهدي .

ولكننا نخالفه في تحميل كل ما جرى للمسلمين من تخلف حضاري وإنشاء دولة للمسلمين ذات قوة وعزة ومنعة وسلطان وهيبة على الإعتقاد بظهور المهدي ولا نحمل واقع المسلمين المعاصر إلاَّ على تخليهم عن مبادىء الإسلام ونبذهم لنظامه في الحياة وأخذ معظمهم للقشور وترك اللب منه .

ثم يبدي السيد رشيد رأيه بعد هذا فيما ورد من أخبار عن المهدي فيقول : ـ

« ولأجل ذلك كثر الإختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله وكان لكعب الاحبار جولة واسعة في تلفيق تلك الأخبار »[3] وقال في موضع آخر « وإنما هو مـأخوذ من تضليلات كعب الأحبار »[3] وقال في موضع آخر « وإذا تذكرت مع هذا أن أحاديث الفتن والساعة عامة وأحاديث المهدي خاصة وأنها كانت مهب رياح الأهواء والبدع وميدان فرسان الأحزاب والشيع تبين لك أين تضع هذه الرواية منها »[4] ثم يقول بعد هذا «فهذا نموذج من تعارض الروايات وتهافتها في المهدي»[4] .

---

(١) ٣٥ : ٤٣

(٢) المرجع السابق جـ ٩ ص ٤٦٠ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٩ ص ٤٦١ .

(٤) المرجع السابق جـ ٩ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

ونكتفي هنا بالرد على هذا بما ذكرناه أولاً من بيان درجة ثبوت أخبار المهدي ـ أما كعب الأحبار وحملة السيد رشيد رضا عليه وعلى وهب بن منبه فقد سبق لنا بيان ذلك في منهج المدرسة العقلية الحديثة عند بيان موقفهم من الإسرائيليات .

أما الدجال : ـ

فقد قال السيد رشيد فيما ورد فيه من أحاديث بلغت حدّ التواتر كما ذكرنا « أن أحاديث الدجال مشكلة من وجوه : ـ

أحدها : ما ذكرناه آنفاً من منافاتها لحكمة إنذار القرآن الناس بقرب قيام الساعة وإثباتها بغتة .

ثانيها : ما ذكر فيها من الخوارق التي تضاهي أكبر الآيات التي أيد الله بها أولي العزم من المرسلين أو تفوقها وتعد شبهة عليها كما قال بعض علماء الكلام وعد بعض المحدثين ذلك من بدعهم ، ومن المعلوم أن الله ما آتاهم هذه الآيات إلا لهداية خلقه التي هي مقتضى سبق رحمته لغضبه فكيف يؤتى الدجال أكبر الخوارق لفتنة السواد الأعظم من عباده ؟ »[١] .

ولندع الامام النووي ـ رحمه الله تعالى يرد على هذه الشبهة التي أثارها السيد رشيد رضا « وزعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له وإنما يدعي الإلّهية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه »[٢] .

ومن الشبه التي يوردها السيد رشيد في أحاديث الدجال أنها متعارضة

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٥٨ ـ ٥٩

تعارضاً كثيراً يوجب تساقطها ، فمن ذلك التعارض أن بعضها يصرح بأنه ﷺ كان يرى من المحتمل ظهور الدجال في زمنه وأنه يكفي المسلمين حينئذٍ شره وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية »[1] .

أما منزلة الأخبار التي وردت عن الدجال وذكرنا أنها بلغت حدّ التواتر فيقول عنها السيد رشيد : ـ « وجملة القول في حديث الجساسة[2] أن ما فيه من العلل والاختلاف والإشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع وأنه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال المشكلة التي انتقدها الحافظ في الفتح من جهة صناعة علم أصول الحديث وتعارض المتون أو مخالفتها للواقع وعدّ من علل بعضها احتمال كونها من الإسرائيليات »[3] « ومنه يعلم أن يد بطل هذه الإسرائيليات الأكبر كعب الأحبار قد لعبت لعبها في مسألة الدجال (في كل واد أثر من ثعلبة)[3] » « بمثل هذه الخرافات كان كعب الأحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسنتهم وخدع به الناس لإظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم .

وجملة أخبار الدجال قالوا أنها متواترة يعنون التواتر المعنوي وهو أن لها أصلاً وإن لم يتواتر شيء من رواياتها ويدل القدر المشترك منها على أن النبي ﷺ كشف له وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان يظهر للناس خوارق كثيرة وغرائب يفتتن بها خلق كثير وأنه من اليهود وأن المسلمين يقاتلونه ويقاتلون اليهود في هذه البلاد المقدسة وينتصرون عليهم وقد كشف له ذلك مجملاً غير مفصل ولا يوحي به عن الله تعالى كما كشف له غير ذلك من الفتن فذكره فتناوله الرواة بالمعنى فأخطأ كثير منهم وتعمد الذين كانوا يبثون الإسرائيليات

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٥١ .

(٢) تناولنا هذا في مبحث منهج المدرسة العقلية الحديثة (التحذير من الإسرائيليات .) .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٩ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨ .

الدس في رواياته ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك والله أعلم »[1] .

وقد يطبق رجال المدرسة العقلية الحديثة بزعامة أستاذهم محمد عبده مذهب التخييل والتمثيل الذي طبقوه على قصص القرآن فيزعمون « أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها »[2] .

أما طلوع الشمس من مغربها : -

فيقرب ذلك السيد رشيد رضا إلى العقل البشري ليسهل إيمان من لا يؤمن عقله بالخوارق فيقول : - « وقد كان طلوع الشمس من مغربها بعيداً عن المألوف المعقول ولا سيما معقول من كانوا يقولون بما تقول فلاسفة اليونان في الأفلاك والعقول ، وأما علماء الهيئة الفلكية في هذا العصر فلا يتعذر على عقولهم أن تتصور حادثاً تتحول فيه حركة الأرض اليومية فيكون الشرق غرباً والغرب شرقاً ولا ندري أيستلزم ذلك تغييراً آخر في نظام الشمس أم لا . . . وأقوى الأحاديث الواردة في طلوع الشمس من مغربها ما رواه البخاري في كتاب الرقاق « عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾[3] » .

وكدنا أن نحمد هذا للسيد رشيد رضا ، لولا أنه قال بعد ذلك : - « هذا

---

(1) المرجع السابق : جـ ٩ ، ص ٤٥٩ .

(2) المرجع السابق : جـ ٩ ص ٣١٧ .

(3) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٢١٠ . والآية من سورة الأنعام من الآية ١٥٨ .

وان أبا هريرة رضي الله عنه لم يصرح في هذه الأحاديث بالسماع من النبي ﷺ فيخشى أن يكون قد روى بعضها عن كعب الأحبار وأمثاله فتكون مرسلة ولكن مجموع الروايات عنه وعن غيره تثبت هذه الآية بالجملة فننظمها في سلك المتشابهات ونحمل التعارض بين الروايات وما في بعضها من مخالفة الأدلة القطعية على ما أشرنا إليه من الأسباب كالرواية عن مثل كعب الأحبار من رواة الإسرائيليات والله أعلم »[١] .

ذلكم رأيه هنا ، وسبق ذكرنا أيضاً لدرجة ثبوت أخبار هذه الآية في السنّة وبلوغها حدّ التواتر .

وإذا كان هذا إيمانهم بما تواترت الأخبار بوروده من أشراط الساعة فما بالك بما لم تبلغ أخباره درجة التواتر من ذلك ، فلا عجب أن لا يثق الشيخ محمد عبده إلا « بأقل القليل » مما روي في « الصحاح » من « أحاديث الفتن » كما قال تلميذه السيد رشيد [٢] .

ذلكم هو موقفهم من أشراط الساعة وآياتها ولننتقل بعد هذا إلى بيان رأيهم في البعث وما قالوه في تأويل بعض الآيات الواردة في ذلك .

أما ثبوت البعث والإيمان به فأمر مسلم لا لبس فيه ولا خلاف ، أما كيفية ذلك فقد عرفنا من منهج رجال المدرسة ترك الإطناب فيما أبهم في القرآن الكريم ولكنهم هنا يخالفون هذا فنجدهم يطنبون في وصف قيام الساعة عند تفسير آيات في القرآن كثيرة ويحملون بعض ما يكون عندها على التمثيل ففي تفسير قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾[٣] يقول السيد عبد القادر المغربي « والنفخ في الصور

---

(١) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢١١ .

(٢) قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار جـ ٩ ص ٤٦٦ «ولقد كان الأستاذ الإمام يقول : ـ إن الإسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن ، ولم يكن يثق إلا بأقل القليل مما روي في الصحاح من أحاديث الفتن».

(٣) سورة الحاقه الآية : ١٣

في لسان الشرع قد يكون تمثيلاً وتصويراً لبعث الأموات وانبعاثهم من أرماسهم بسرعة تحكي سرعة المجتمعين وقد هتف بهم من بوق عظيم »[1] .

ويقول الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾[2] والنفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخه في بوق فإذا هم قيام ينظرون »[3] .

أما تصوير حدوث يوم القيامة فيطنب فيه الشيخ محمد عبده وتلاميذه على خلاف منهجهم في ترك الإطناب فيما أبهم في القرآن الكريم . ففي تفسير قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[4] الآيات يقول الشيخ محمد عبده « انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مرّ تفسيره في سورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأي غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره . . ومتى فسد نظام السماء فتساقط من كواكبها بعضها على بعض أصاب الأرض من ذلك أشد ما يصيبها من الإضطراب فتدك جبالها وتتقطع أوصالها وتفقد التماسك بينها فلا يبقى لها هذا الإندماج الذي هي عليه الآن فتمدّ مدّ الأديم العكاظي كما روي عن ابن عباس ولا تكون إلا كتلة مائرة تتساوى أعاليها وأسافلها وعظمت بهذا الإنتفاش وزادت أقطار حجمها فهذا قوله تعالى ﴿ وإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ ولا ريب أن هذا المد يتبعه أن جميع ما في جوف الأرض ينقذف إلى الخارج وربما قذفته الحركة العنيفة إلى ما يبعد عن

---

(١) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٣٦ .
(٢) سورة النبأ الآية : ١٨ .
(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٦ .
(٤) سورة الإنشقاق الآية الأولى .

سطحها فتخلو الأرض منه حتى لا يبقى له أثر في بطنها وهذا هو قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ وهي في ذلك كله تحت سلطان الجلال الإلّهي وقهره خاضعة لأوامره منقـادة لمشيئته كما قال ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ »[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾[2] قال الشيخ محمد عبده : ـ « أي أنه يتغير في ذلك اليوم نظام الكون : فلا تبقى أرض على أنها تقلّ ولا سماء على أنها تظل بل تكون السماء بالنسبة إلى الأرواح مفتحة الأبواب بل تكون أبواباً فلا يبقى علو ولا سفل ولا يكون مانع يمنع الأرواح من السير حيث تشاء والآخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التي نحن فيها ، فنؤمن بما ورد به الخبر في وصفه ولا نبحث عن حقائقه ما دام الوارد غير محال ولا شك أن امتناع السماء علينا إنما هو لطبيعة أجسامنا في هذه الحياة الدنيا أما النشأة الأخرى فقد تكون على غير ذلك فتكون السماء بالنسبة إلينا أبواباً ندخل من أيها شئنا بإذن الله وقد يكون معنى تفتح السماء ما عنى بقوله : إذا السماء انشقت . . إذا السماء انفطرت . . يوم تشقق السماء بالغمام ، أي أنه يقع الإضطراب في نظام الكواكب فيذهب التماسك بينها ولا يكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب لا يلتقي فيها شيء بشيء وذلك هو خراب الكون العلوي كما يخرب الكون السفلي (وسيرت الجبال) تمثيل لمور الأرض في ذلك اليوم وأن جبالها لا تكون على رسوخها المعروف اليوم بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعيد فإذا لمسته لم تجد شيئاً وذلك لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها »[3] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾[4] قال الشيخ محمد عبده « أي انشقت وجاء في سورة الفرقان ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾[5]

---

(١) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) سورة النبأ: الآية ١٩ .

(٣) تفسير جزء عم: محمد عبده ص ٦ .

(٤) سورة الإنفطار : الآية الأولى :

(٥) سورة الفرقان : الآية (٢٥)

وانشقاق السماء انصداع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما تراه اليوم فيخرب العالم بأسره ولذلك عقب انشقاق السماء بما هو من لوازمه حيث قال ﴿ وَإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾[1] أي سقطت فبادت فإذا كان ذلك اضطربت الأرض أيضا وزلزلت زلزالاً شديداً ووقع الخلل في جميع أجزائها فتفجر البحار وتزول الحواجز بينها فيختلط عذبها بمالحها بل تفيض على الأرض حتى يصير سطح الأرض مـاء لحظات من الزمان وذلك قوله في سورة التكوير ﴿ وَإِذَا البِحَارُ سُجِرَّتْ ﴾[2] أي ملئت وفاض منها الماء على التأويل الأول وقد يصح إجراء ما هنا على التأويل الثاني وذلك أنه بعد أن تفجر البحار ويفيض ماؤها تظهر النار وتأخذ مكان الماء بعد أن يتحول إلى بخار كما أشير إليه في السورة السابقة . وإذا وقع ذلك انقلب باطن الأرض إلى ظاهرها فلا ريب في أن تبعثر القبور (أي يظهر ما كان قد خفي فيها من بقايا أجساد المـوتـى) وبعـد ذلك يكون بعث الأموات وإحياؤهم في النشأة الآخرة ثم تنشر الصحف وينكشف الغطاء »[3] .

أما الشيخ محمود شلتوت فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾[4] : - « فتبديل الأرض والسمـوات المذكورة في هذه الآية هو إجمال لعين الأحداث التي ذكرت مفصلة في الآيات الأخرى والتي ينحل بها هذا العالم وتنفصم روابطه ويبدأ العالم الآخر نشأة أخرى تقام فيها الموازين ويجري في ظلها حساب العباد ، وهو إذن ليس إفناء مطلقاً لذات الأرض وذات السماء بحيث لا يكون هناك أرض ولا سماء وليس إزالة أرض بأرض وسماء بسماء وإنما هو تغيير لصفات الكون وأوضاعه التي عهدناها في حياتنا الدنيا »[5] .

---

(١) سورة الإنفطار: الآية (٢)

(٢) سورة التكوير : الآية (٦)

(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٣٣ .

(٤) سورة إبراهيم من الآية ٤٨ .

(٥) الفتاوى : محمود شلتوت ص ٣٨ .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثيباً مَهِيلاً ﴾[1] قال الشيخ عبد القادر المغربي « ويقع هذا الحادث الجلل في العالم عندما يتأذن الله بخرابه وانقضاء أجله ثم يستبدل به عالماً آخر أشد إحكاماً وأثبت نظاماً وأكمل أمناً وسلاماً ونصوص الكتاب تدل على أن خراب عالم الدنيا يكون بزلزلة الأرض وتبدد أجزائها وتسيير جبالها بحيث تصبح هذه الجبال كالكثيب المهيل أو العهن المنفوش على أن هذا الخراب الذي ينزل بالأرض فينسف جبالها ويمزق أوصالها ـ ليس خاصاً بها وحدها بل هو نازل بمجموع عالم الدنيا المنظور إلينا : أرضه وسمائه وسائر كواكبه وأجرامه بدليل آيات الكتاب الأخرى من مثل (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾[2] و ﴿ إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [3]والله يعلم بأي سبب يحصل ذلك الخراب العام وما إذا كان وراء الكواكب المنظورة عوالم وكواكب أخرى يشملها الخراب المنتظر أو لا يشملها فتبقى سالمة من مثل ما نزل بعالمنا إلى أن يشاء الله خرابها »[4] .

ويفسر الشيخ أحمد مصطفى المراغي قوله تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾[5] بقوله « أي رفعت من أماكنها ولا ندري كيف رفعت فذلك من أنباء الغيب فقد يكون ذلك بريح يبلغ من قوة عصفها أن تحملهما أو أن ملكاً يحملهما أو بقدرة الله من غير سبب ظاهر أو بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب فتنفصل الجبال وترتفع من شدة المصادمة وترتفع الأرض من حيزها »[6] .

---

(١) سورة المزمل الآية: ١٤ .
(٢) سورة التكوير الآيات : (١،٢)
(٣) سورة الإنفطار الآيات : (١ ، ٢) .
(٤) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٨٢ .
(٥) سورة الحاقة : الآية ١٤ .
(٦) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٢٩ ص ٥٤ .

فإن تساءلت ما الذي حملهم على مثل هذا القول ؟ قلنا أن الذي حملهم على هذه التأويلات فيما نرى تقريب أمر البعث إلى عقولهم بكونه يقوم على حكم علمي حديث فإن أهل العلم بالنبات وبالحياة النباتية والحيوانية يزعمون أن سبب الحياة الدنيا على الأرض أن الأرض كانت كرة نارية ملتهبة وأن الأحياء الأولى وجدت فيها بالتولد الذاتي الذي انقطع بعد ذلك بتسلسل الأحياء لأن طبيعة الأرض لم تبق مستعدة له كما كانت وهي قريبة العهد بالتكوين »(1) لهذا فلا حياة للأموات بعد هذا إلا بأن يحدث للأرض ما حدث لها أولاً .

لذلك حاول رجال المدرسة العقلية أن يكون البعث قائماً على الأصول العلمية التي يزعمها هؤلاء . فأولوا الآيات هذا التأويل وقال السيد رشيد : ـ « وقد نطق القرآن الحكيم بأن الأرض تفنى بتفرق مادتها ثم يعيدها الله كما بدأها قال تعالى ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً ﴾(2) فهذه الرجة هي التي سماها في سور أخرى بالقارعة والصاخة والمعقول أن كوكباً يقرعها باصطدامه بها فتفتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق في الجو وهو ما يسمونه بالسديم وقال تعالى ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّل خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾(3) ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾(4) والأشبه أن تشبيه الإعادة بالبدء إنما هو بالإجمال دون التفصيل فكما خلق الله جسد الإنسان الأول خلقاً ذاتياً مبتدأ ثم نفخ فيه الروح يخلق أجساد جميع أفراد الإنسان خلقاً ذاتياً معاداً ثم ينفخ فيها أرواحها التي كانت بها أناسي في الحياة الدنيا لا أنه يجعلها متسلسلة بالتولد من ذكر وأنثى كالنشأة الأولى إذ كانت الأجساد كاللباس للأرواح أو السكن لها ، وإذا كان الناس قد بلغوا من علم الكيمياء أن يحللوا بعض

---

(1) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٤٧١ .

(2) ٥٦ : ٤

(3) ٢١ : ١٠٤

(4) ٧ : ٢٩

المواد المركبة من عناصر كثيرة ثم يركبوها أفيعجز خالق العالم كله أو يستبعد على قدرته أن يعيد أجساد ألوف الألوف مرة واحدة ؟ وأي فرق عنده بين القليل والكثير وهو على كل شيء قدير »[1] .

وأنت ترى إقحام التفسير العلمي في القرآن الكريم من الوضوح بمكان في تفسيرهم هذا الذي ذكرناه وكأنهم أرادوا وقد أدهشتهم هذه الإكتشافات العلمية ـ أن يربطوا بينها وبين آيات القرآن الكريم حتى تظهر هذه الآيات بالمظهر العلمي الحديث فتلقى القبول بين من كان العلم الحديث ومكتشفاته هو ميزان قبولهم للحقائق الشرعية .

وأحسب أن هذا لا يصح في مثل هذا فهي أمور غيبية ليس لنا أن نذكر فيها إلا ما ورد الشرع به ونفوض علم ما سواه إلى الله سبحانه وتعالى مع العلم اليقيني أنه لا يلزم لقيام الساعة وأحداثها ما ذكروه من مرور كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره لا يلزم هذا لحصول ذاك بل الله سبحانه وتعالى قادر على أن يحدث هذا بأمر أو أمور أخرى أو من غير سبب من هذه الأسباب الكونية كلها فهو سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

أما تأويلهم لما ورد من الآيات فيما يجري بعد ذلك فنذكر منه قول الشيخ عبد القادر المغربي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[2] . « وحمل عرش الرب في الآية قد يكون تمثيلاً لكمال عزته سبحانه وانفراده بالجلالة والعزة والملك في ذلك اليوم وأن تأثير هيبته سبحانه وتعالى في القلوب في ذلك اليوم يحكي تأثير ملوك الدنيا ـ وهم على عروشهم التي تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم ـ في قلوب رعيتهم المتعبدين لهم وأين هذا من ذاك ولله المثل الأعلى وإنما هو تنزل لإفهام المخاطبين وإفراغ للمعاني الغيبية في قوالب ما ألفوه من

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٨ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ .
(٢) سورة الحاقة : من الآية ١٧ .

تراكيب لغتهم العربية واصطلحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها وإلا فإن خالق الكون تقدست أسماؤه ليس جسماً يحمل على العروش ولا مخلوقاً تزدهيه الزخارف والنقوش »[1] .

أما نشر الصحف الوارد في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾[2] فيقول عن ذلك الشيخ محمد عبده « الصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال والذي يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال أما كون الصحف على مثال الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه . فذلك مما لم يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل ولم يرو عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع »[3] .

أما أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال الوارد في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾[4] الآيات فيفسر ذلك الشيخ محمد عبده بقوله « فإيتاء الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله في ذلك اليوم فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول باليمين ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنهما وأدبر وتمنى لو لم تكشف له ـ وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر ، وبهذا اتفق المعنيان في الآيتين ولم تبق حاجة إلى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين »[5] .

---

(١) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٣٧.

(٢) سورة التكوير : الآية ١٠.

(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) سورة الإنشقاق : الآيتين ٧و٨.

(٥) تفسير جزء عم : محمد عبده ص ٥٢ ـ ٥٣ .

إذن فهم يحملون هذه النصوص القرآنية الصريحة عن بعض أحوال يوم القيامة على أنها تمثيل وتصوير لا حقيقة واقعة ، فحمل عرش ربك تمثيل لكمال عزته وأخذ الكتب باليمين أو الشمال تمثيل وتصوير لا حقيقة فالتناول باليمين يراد به الإستبشار والإبتهاج والتناول بالشمال يراد به العبوس ، وكذا النفخ في الصور تمثيل وتصوير .

وهذا الحمل منهم وهذا التأويل كثير جداً وهم أيضاً لا يقصرونه كما علمنا على الأخبار في المستقبل بل عموا به الأخبار القرآنية في الماضي أيضاً وهي القصص القرآنية وقد سبق لنا الحديث عن ذلك . هذا ولا شك منهج ضال .

ثالثاً: القضاء والقدر

قال الله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[2] وقال عز وجل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾[3] .

والذي عليه أهل السنة والجماعة أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأنه سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد وأنه يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً »[4] .

وقد ورد من نصوص القرآن آيات تدل على أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأن الله سبحانه خالق أفعال العباد قال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾[6] وقال سبحانه ﴿ وَمَا تَشَاؤونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ

---

(١) سورة القمر الآية ٤٩.
(٢) سورة الفرقان من الآية ٢ .
(٣) سورة الأحزاب من الآية ٣٨
(٤) شرح العقيدة الطحاوية : علي الحنفي ص ٢٧٧.
(٥) سورة السجدة الآية ١٣.
(٦) سورة يونس من الآية ٩٩.

الْعَالَمِينَ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

ووردت نصوص أخرى تدل على أن أفعال العبد بكسبه واختياره وأن الله لا يرضى الكفر ولا يحب الفساد وأن الجزاء بالأعمال قال تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [4] وقال سبحانه ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[6] وقال سبحانه ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [7] وقال سبحانه ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[8] .

أخذت طائفة من الناس بالآيات الأولى ونحوها وزعموا أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى وهي كلها للإنسان اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار وأن لا اختيار للإنسان بين الفعل والترك بل هو كالريشة في الهواء وأن إضافتها إلى الخلق مجاز وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله[9] وعلى هذا فعندهم أن كل أفعال العباد طاعات على حدّ قول الشاعر :

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

---

(1) سورة التكوير الآية ٢٩ .

(2) سورة الأنعام الآية ٣٩.

(3) سورة الرعد الآية ١١ .

(4) سورة النساء من الآية ١٢٣ .

(5) سورة غافر من الآية ١٧ .

(6) سورة البقرة من الآية ٢٠٥ .

(7) سورة الزمر الآية ٧.

(8) سورة النساء من الآية ١١١ .

(9) شرح العقيدة الطحاوية : علي بن علي الحنفي ص ٤٩٣.

وأخذت طائفة أخرى وهم المعتزلة بالآيات الأخرى فأنكروا القدر وزعموا أن الإنسان هو الذي يخلق فعله وأن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر فردوا الى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه .

وأخذ أهل الحق أهل السنة بالآيات كلها وقالوا أن أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه .

فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خالقَين النور والظلمة وهم أثبتوا خالقِين .

وقال أهل السنة « إن كل دليل صحيح يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريداً ولا مختاراً .

وكل دليل صحيح يقيمه القدري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار له حقيقة وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى ـ فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله تعالى ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم »[١] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٩٤ .

ذلكم موقف الجبرية وموقف المعتزلة وذلكم موقف أهل السنة والجماعة وهو الحق بين باطلين .

فإذا ذهبت تستبين موقف رجال المدرسة العقلية الحديثة من هذه الفرق الثلاث وموقعها فيهن رأيت الحيرة والإضطراب منهم وعجزهم عن التوفيق بين الأدلة وتفويض علم ذلك إلى الله .

نذكر من ذلك قول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : - « أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الإختيار فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث أبتدأوا وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان »[1] .

أما الأستاذ محمد فريد وجدي فهو أكثر حيرة واضطراباً من أستاذه الشيخ عبده فهو يقول « إنا نستطيع أن نذكر في هذا الموضوع كلاماً ننفي به عن أنفسنا أمام البسطاء صفة الجهل ، ولكنا نعلم أنه ما من حل لهذه المسألة إلا هو قابل للنقد والرد فليجعل كل منا هذه المسألة مما يسأل الله هدايته إلى حله وليتق الله في الطلب وهو يفتح عليه من العلم والطمأنينة ما لا يجد بعضه بالجدال والخصومة قال الله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[2][3] .

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٦١.

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٢.

(٣) مقدمة المصحف المفسر : محمد فريد وجدي ص ١٣٨.

ومع هذه الحيرة والإضطراب من الشيخ والأستاذ فقد مال كل منهما الى رأي مخالف للآخر فذهب الأستاذ وجدي الى القول بعقيدة الجبر وأنكرها الشيخ عبده ومال الى الإختيار .

وهما حين يختاران رأياً فإن أحداً منهما لا يستند إلى دليل من الكتاب والسنة بل إلى ما يسمى الدليل العقلي والدليل العلمي ومن هذا ندرك إلى أي مدى من التناقض توصل إليه تلك الأدلة .

اختار الشيخ عبده القول بالإختيار للإنسان فقال مثبتاً ما ذهب إليه : ـ « كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الإختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ثم يصدرها بقدره ما فيه ويعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضاً في بني نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى إلى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له في الأخرى فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي إن كان سبب الإخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه ، فينبري لمناضلته وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله كأن هبّ ريح فأغرق بضاعته . . . يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وأنّ وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته ، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرّفه على مقتضى علمه وإرادته خشع وخضع وردّ الأمر إليه فيما لقي ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى

الممكنات يشهد بالبداهة أنه في أعماله الإختيارية ـ عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله . على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئاً منه قد أنكر مكان الإيمان من نفسه وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه »[1] .

واختار الأستاذ محمد فريد وجدي مذهب الجبر واستدل على ذلك بقوله « النظر المجرد في الكون يدلنا على أنه قائم على نظام ثابت والبحث السطحي في هذا يدلنا على أن له قوانين ونواميس تمسكه وتحفظه فلا تحدث في الهواء حركة ، ولا تسقط من شجرة ورقة ، إلا تبعاً لقانون ثابت وفاعل مؤثر هذا الأثر مشاهد في عوالم الجمادات والنباتات أتم مشاهدة وهو في عالم الحيوانات أقل ظهوراً لما متعت به من الحس والحركة ، وهو في العالم الإنساني يحتاج لتأمل ونظر . فلو قلت للمتوحش أن كل حركة وسكنة فيك تابعة لقانون ثابت شك في قولك إن لم يكن أخذه من طريق الدين بالتسليم .

اتّحد الدين والعلم الطبيعي على أن الإنسان مجبر على أفعاله حتى أن أحد رؤوس الماديين العصريين بوخنر الألماني قال إن الحرية الإنسانية التي اعتبرها الروحيون مبدأ للإختيار والإرادة وهم باطل ، فإن الإنسان في ذاته حادث طبيعي محكوم بالطبيعة التي كونته والمناخ الذي رباه والوسط الذي يقله والجنس الذي نشأ منه ، والتربية التي غرست فيه من صغره» ثـم يوضح الأستاذ وجدي ما ذكره بمثال فيقول « يتصدق الرجل منا مثلاً فإن سألته عن السبب الذي حمله على التصدق قال لك إرادتي فإن سألته وما الذي حرك إرادتك ؟ قال شفقتي فإن قلت وما الذي أوجد لك الشفقة

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٥٩ ـ ٦٠.

دون جارك ؟ قال ورثتها عن أبي وجدي أو من طبيعة مزاجي فإن سألته ومن الذي أوجد لك هذا المزاج وصور أباك شفيقاً ؟ قال الله تعالى بما أوجده من عوامل . إذن فقد حكم بأن الباعث للصدقة في الواقع هو الله وهكذا تستطيع أن تصعد بسائر أعمالك إلى موجدها الأول سبحانه وتعالى .

هذا معنى القضاء والقدر وهو معنى قوله تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البَرِّ والبَحرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطبٍ وَلَا يَابِس إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[1] وبعد أن أثبت الله تعالى علمه بالجزئيات قرر في آية أخرى بأن كل الحوادث هو فاعلها فقال تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] [4] .

ويميل الشيخ محمود شلتوت إلى مذهب الإختيار فيقول شارحاً ذلك : ـ « والقدر بالنسبة للإنسان معناه أنه خلقه بإرادة وحرية واختيار فيما كلفه به من أعمال الخير والبعد عن الشر وكل نصوص القرآن تدل على ذلك دلالة واضحة واختيار الإنسان أساس لتكليفه ومحاسبته ومحال أن يكون مجبوراً على فعله ثم يكلف ويثاب أو يعاقب على ما لا يستطيع صرف نفسه عنه ، وعلم الله بما سيكون من الإنسان باختياره وإرادته يحقق معنى الإختيار وينفي القهر والجبر وصفة العلم صفة كشف وليست صفة تأثير »[5] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٢) سورة النساء من الآية ٧٨.

(٣) سورة الصافات الآية ٩٦.

(٤) مقدمة المصحف المفسر : محمد فريد وجدي ص ١٣٧ .

(٥) الفتاوي : محمود شلتوت ص ٤٧ .

وهو يرى أن القضاء والقدر اللذين ورد في القرآن ذكرهما وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة ليسا سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكون ـ وربط فيه بين الأسباب والمسببات والنتائج والمقدمات سنة كونية دائمة لا تتخلف وكان من بين تلك السنة أن خلق الإنسان حراً في فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور »[1] .

أما الشيخ محمد مصطفى المراغي فهو أشد القوم إنكاراً لمذهب الجبر حيث يقول « . . . ولا شبهة بعد هذا في أن القول بالجبر يصادم العقل ويناقض ما أجمعت عليه الأمم ويهدم حكمه إرسال الرسل وحكمة الشرائع سواء أكانت وضعية أم سماوية والقائلون به يجب عليهم أن يتركوا أنفسهم في الحياة تسيرها الرياح كما تشاء ، وليس لهم أن يتعلقوا بقواعد التهذيب وليس لهم أن يلوموا فاسقاً ولا كافراً ولا مرتكب أية كبيرة أو أية معصية . وهذا قول نعوذ بالله منه ومن شروره واتفاق الأمم جميعها في القديم والحديث على خلافه دليل على أنه مناقض للفطرة كما هو مناقض للعقل »[2] .

ويصف الشيخ محمد المراغي الرأي الذي يختاره فيقول « نعود إلى الحديث عن علم الله وعن إثبات كل شيء في الكتاب فنقول : أن علم الله سبحانه يجب أن تتبعه إرادته والعلم صفة انكشافية لا إلزام فيها . والعلم الصحيح هو المطابق للمعلوم مطابقة تامة ، فلا أثر لعلم الله سبحانه في أفعال العباد لأن أفعال العباد لا تتبعه بل علم الله هو الذي يتبع أفعال العباد[3] والله سبحانه في مرتبة وجوده قبل أن يخلق الخلق قدر الخلق ووضع هذا النظام التام الذي هو خير كله ، والذي يعرض فيه الخير والشر للأفراد ، أما النظام نفسه فلا يعرض له الشر بحال لأنه هو

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ص ٥٠.
(٢) مجلة الأزهر المجلد الثاني عشر جزء (٥) ص ٢٦٥.
(٣) الحق أن علم الله سابق لفعل العبد وهو علم كشف لا تأثير.

الصادر عن الجود وعن الحكمة وعن العلم التام ، وقد علم الله سبحانه ما سيختاره كل أحد من خلقه فوضعه في كتاب وفعل العبد تابع لاختياره المحض لا ارتباط له بالعلم إلا ذلك الإرتباط الحاصل بين العلم والمعلوم ، وإذا كان ذلك كذلك فلا دلالة في الآية (١) على الجبر وهي كغيرها قد تدل على الإختيار »(٢) .

وينكر السيد جمال الدين الافغاني مذهب الجبرية ويرد عليه بل ذكر انقراضه في هذا العصر حيث يقول : -

« نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفه البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطه الفاسدة وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر وليس الإعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الإعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الإعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون »(٣).

ويدافع السيد الأفغاني عن عقيدة القضاء والقدر ويبين مزاياها فيقول : « الإعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءه والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمور هذا الإعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذي قد

---

(١) ورد هذا القول في تفسير قوله تعالى ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأَرْضِ وَلَا في أَنفُسِكُمْ إِلَّا في كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ سورة الحديد الآية ٢٢ .

(٢) مجلة الأزهر المجلد ١٢ الجزء ٥ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣)مجلة العروة الوثقى : ص ٩٢ .

دعاها للإعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملّته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلٓهية وأصول الإجتماعات البشرية .

اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها . . . دمروا بلاداً ودكدكوا أطواداً ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالاً وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم وأرجفوا كل قلب وارعدوا كل فريصه وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الإعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الاعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب . .

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في اقصى بلاد العالم كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض .

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فيهزمون بجيش الرهبه قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم .

فنعم الإعتقاد الذي يطهر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أياً كانت . . ورجاؤنا في

الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ما أثبته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطاله والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم ، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الإسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف . . »[١]

وبعد ،

أرأيتم كيف أدى بهم تحكيم العقل والعقل وحده إلى رأي مختلف في تلكم العقيدة اختار بعضهم مذهب الجبرية واختار الآخرون مذهب الإختيار وهم هنا وهناك يزعمون أنهم يستندون إلى الأدلة العقلية .

ثم ومع هذا تلتبس عليهم الأمور وتختلط عليهم الحقائق فيضطربون في معرفة السبيل الحق ويعلنون حيرتهم بل ويقر أحدهم بما هو أشنع وهو تظاهره بالمعرفة أمام من يسميهم البسطاء حتى ينفي عن نفسه صفة الجهل مع إقراره بجهله حل هذه المسألة وزعمه أن كل حل لها قابل للنقد والرد ؟ !

بل وعجز أستاذ المدرسة عن التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الإختيار ، وزعم أن هذا طلب لسر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه . وأنه اشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه . وكأن كل ما عجزت عن الوصول إليه تلك العقول فلا يصح الإعتقاد به والإيمان والتسليم ، وإن وردت به الآيات الكريمة من القرآن .

---

(١) العروة الوثقى : ص ٩٣ ـ ٩٦ باختصار .

أرأيتم أي ضلال يوصل إليه تحكيم العقل والإعراض عن النقل ذلكم ما نذكره هنا . وقد بينا سابقاً مذهب أهل السنة والجماعة الأسلم والأعلم والأحكم في عقيدة القضاء والقدر .

رابعًا: المُعْجِـــزَات

خلق الله الخلق وأمرهم بعبادته ورزقهم عقولاً يميزون بها بين الخير والشر وبين الضار والنافع وبين الصواب والخطأ ، وأرسل إليهم رسلاً تهدي تلك العقول إلى خط سيرها الذي رسمه الله لها وترسم لها حدودها التي تضل إن جاوزتها وتنجوا إن اتبعتها وتسلم وتهتدي إلى الحق وتغنم .

وأعطى الله أولئك الرسل من العلامات ما تثبت به للعقول صدق رسالتهم فتذعن بعد ذلك لأوامرهم وتسير على نهجهم وتقتفي آثارهم وتميز بها بين الرسل وأدعياء الرسالة .

من تلكم العلامات ما يسمى بالمعجزات ، والمعجزات جمع معجزة وهي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يجريه الله تعالى على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه .

والمعجزات ولا شك حجة للرسل لا ينكر حجيتها إلا مغالط خاضع للهوى أو الجهل . ولو لم تكن المعجزات حجة توجب الإيمان بالرسل لما عاتب الله المشركين وعنفهم ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآيات حيث قال سبحانه ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِم إلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾[2] وقال

(١) سورة الأنعام : الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢٥ .

عز وجل ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِم لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾(٢) .

أرأيتم كيف عاتب الله أولئك القوم وذمهم بعدم الإيمان بعد الآيات ؟ أليس في هذا إثبات لحجة المعجزة وكون من لا يؤمن بعدها يستحق هذا الذم ؟

ثم تعالوا إلى نوع آخر من الأدلة على إثبات حجية المعجزات . ألم يقل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلونَ ﴾(٣) أليس في هذا دلالة على أن الله سبحانه وتعالى لا يرسل الآيات تفضلاً منه ورحمة بالناس اذ لو أرسلها إليهم لكذبوا بها كما كذب بها الأولون فاستحقوا العقاب كما استحقه أولئك الأولون ، فلو لم تكن الآيات حجة قوية لا يقبل بعدها تردد في الإيمان لما تلاها العقاب لمن كذب بها .

ثم تعالوا إلى نوع ثالث من الأدلة هو في حد ذاته دليل كاف على حجية المعجزة ووجوب الإيمان بعدها واستحقاق المكذبين بعد حصولها للعقاب الشديد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ إِنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

---

(١) سورة القمر : الآية : ٢

(٢) سورة الأنعام : الآية ٧ .

(٣) سورة الإسراء : من الآية : ٥٩

الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يكفر بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ العَالَمِين ﴾[1] .

أرأيتم إلى أي مدى بلغت حجية المعجزة أي حجة من الحجج يتلوها العقاب الشديد لمن لا يؤمن بعدها ؟ إنها ولا شك لحجة من أقوى الحجج وبرهان من أقوى البراهين . ولهذا وصفها موسى عليه السلام بأنها شيء مبين حين أراد أن يظهر معجزاته عند فرعون وقومه حيث يقول ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2]. لا شك أن تلك المعجزات وغيرها من معجزات الأنبياء « شيء مبين » وموضح ومظهر للحق إظهاراً لا يقبل بعده جدل أو شك .

أبى هذا الحكم رجال المدرسة العقلية الحديثة مستندين إلى أساس ثابت في منهجهم ألا وهو زعمهم تحكيم العقل والعقل عند محكميه لا يؤمن بما يقهره بل لا بد لإيمانه من اقتناع ذاتي بعيداً عن المؤثرات الخارجية المجبرة له على الإذعان كالمعجزات ثم إن هذه المعجزات قد تلتبس بأعمال السحرة والمشعوذين فتوقع الحيرة في التمييز بين الأنبياء وأدعياء النبوة . وهم لا ينكرون وقوع المعجزات وحصولها وإنما ينكرون حجيتها ودلالتها على الرسالة .

لهذا ولغيره من الأمور وقع رجال المدرسة العقلية الحديثة في حيرة وتبلبل فكر أيقولون بالمعجزات فيخالفون العقل الذي به يؤمنون أو ينفونها فيخالفون الدين الذي إليه ينتمون؟ ! فآثروا التكذيب لبعض المعجزات وإبطالها إما بتضعيف إسنادها وإن كان قوياً عند السلف أو بتأويلها بما لا

---

(١) سورة المائدة : الآيات ١١٢ ـ ١١٥ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٣٠ ـ ٣٣ .

تكون به معجزة ووقفوا فيما بقي بين هذا وذاك حائرين .

فآثروا تجريد نبوة محمد ﷺ منها إلا إعجاز القرآن الكريم لأنه معجزة عقلية ثابتة وحجة دائمة لا تنقطع . آثروا هذا لزعمهم أن الدين الإسلامي ـ وحده هو دين العقل وما عداه من الأديان السماوية الأخرى وغير السماوية فإنها لا تلتزم بأحكام العقل إذن فلا مانع من ورود المعجزات فيها فلنثبت لها ما نص عليه القرآن الكريم منها ولنقتنع أن ورود تلك المعجزات مما يناسب عقول أقوام هؤلاء الأنبياء آنذاك .

أما بعد مجيء محمد ﷺ فإن العقل البشري قد نضج واكتمل وتم رقيه وتطوره فلم يعد يقبل المعجزات ولم يعد يذعن لها فلا غرو أن لا يرد في الدين الإسلامي على يد محمد ﷺ منها شيء يقول الأستاذ محمد فريد وجدي « قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للمتبصر ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ويحبب إليه الإنتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون هذا الإعتبار بالعقل لا يتأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتسنى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتا ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الإنساني رشده فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية . فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولاً ثم إذا ظهر لهم برآءته منه أخذوا يعللون معجزاته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن طائفة الإسبيريت الروحيين في أوروبا تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ما لو رآه

الجهلاء لظنوا أنه من أكبر المعجزات ، مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة ، نعم لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء ، ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وإن كان تهوراً منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدي فيه للإعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي »[1]؟ !

وليست المعجزات ـ عند رجال المدرسة العقلية ـ لإقامة الحجة على نبوة أو رسالة لأنها لا تصلح لذلك فلهذا لم يأت بها دين الإسلام لإقامة الحجة على ثبوت نبوة محمد ﷺ بل عدّ السيد رشيد رضا مجرد رواية القرآن الكريم لمعجزات الأنبياء السابقين سبباً لأعراض « العلماء والعقلاء » عن الدين الإسلامي والدخول فيه ؟!! ولولا رواية القرآن لذلك لكان إقبال « أحرار الافرنج » عليه أكثر واهتداؤهم به أعم وأوسع حيث يقول « بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها وفيما يدعون من تجرد محمد ﷺ من لباسها وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له وصادّة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيدّ بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر ، واهتداؤهم به أعم وأسرع لأن أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية وتزكية أنفس الأفراد وترقية مصالح الإجتماع وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى فهي القرآن ، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام فإنما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

---

(١) المدنية والإسلام : محمد فريد وجدي ص ٧١ ـ ٧٢ .

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود المسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»[1].

إذن فالمعجزات عنده :

١ ـ مثار شبهات

٢ ـ مثار تأويلات

أ) في روايتها .

ب) في صحتها .

جـ) في دلالتها .

ثم إن ما هو أشد من هذا كله أنها تقع من أناس كثيرين في كل زمان ولا تزال تقع من صوفية الهنود وصوفية المسلمين ؟ ! فما الذي يبقى بعد هذا من حجة وبرهان للمعجزة أنها لا تعدو أمراً عادياً يكثر وقوعه بين الناس لا تقوم به حجة لرسالة ولا برهان لنبوة هذا ما يزعمه السيد رشيد ثم إن هذه المعجزات عنده مخالفة للعقل والعلم والفطرة البشرية .

وهو كلام يكثر ترديده وتكراره بين رجال المدرسة العقلية . وهذا شيخهم محمد عبده يقول « هذا النوع من العلم ـ علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات ـ كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٥٥ والوحي المحمدي له : ص ٦٢ .

وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض ، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته فكان جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير ، وادهاش بالمعجزات أو الهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه فلم يقصر الإستدلال على نبوة النبي ﷺ بما عهد الإستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه . . »[1].

إذن فالشيخ عبده يرى أن الأديان السابقة لم تكن أدلتها تقوم على حجج عقلية بل تقوم على العداء للعقل نتائجه ومقدماته ، وتقوم على الإدهاش بالمعجزات والإلهاء بالخيالات ، ومن الغريب أنه مع إنكاره هنا لقبول العقل بالمعجزات إلا أنا نراه في موضع آخر لا يعدها من المستحيلات العقلية بل ويقر حجيتها وثبوت النبوة بها حيث يقول « المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلاً فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم الدليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف » « المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلغ عن الله فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى ، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فإن تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتى

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٥ ـ ٦ .

ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة »[1].

ذلكم الرجل الذي يقول هذا القول هو الذي وصف القائمين على الأديان قبل الإسلام بأنهم لا ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي بل ينحون إلى ما يدهش العقل من المعجزات.

وهو الذي قرر أن الدين لهذا كثيراً ما صرح على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته وهو الذي يقول : - « وكيف يكون مجرد الخارق موجباً للقطع عند الإقتران بالدعوى ؟ وقد بلغك خبر ابن مقنع وأمثاله ، ممن قد رقمت أحوالهم في صحائف الرجال ، كابن خلكان وغيره ففي الداوستان أن ابن مقنع هذا قد ادعى النبوة وأقام على ذلك معجزة باهرة وهي أنه صنع قمراً ، يرتفع عن الأرض نحو فرسخ ويضيء إلى أربعة فراسخ ، ويستمر كذلك إلى الصباح ثم عند الصباح يغيب ثم يطلع في الليل ، وهكذا ، وهذا الرجل كان بعد الإسلام فإن كان الشيخ الكلنبوي يذعن للخوارق المقترنة بالدعوى ، فلم لم يؤمن بهذا الرجل ؟ ولكن العذر له فإنه كان من القسم الثاني يعتقد بغير روية ولا نظر » « وليت شعري !! إذا كان مجرد الخارق كافياً فلم كان النبي يحث على الفكر والنظر ؟ وجاء القرآن محشواً بالأدلة والبراهين الدالة على وجود الحق تعالى ووحدانيته وقدرته وإرادته وعلمه ، إلى غير ذلك من الصفات المقدسة ؟ »[2].

ويرى الشيخ عبد العزيز جاويش نفس الرأي فينكر أن تكون المعجزات الخارقة كافية مقنعة وهو حينما يقول بهذا القول لا ينسبه لنفسه

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : تحقيق سليمان دنيا جـ ٢ ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

بل ينسبه إلى القرآن الكريم وهي قضية خطيرة نلحظها بين بعض الباحثين حينما يفهم أمراً من القرآن الكريم لا ينسبه إلى نفسه بل إلى القرآن وإن كان مخطئاً في فهمه وإن كان متجاوزاً للحقيقة وكان الواجب أن يقول الباحث أرى أن منهج القرآن كذا أوفهمت أو أفهم من الآية كذا .

يقول الشيخ جاويش بعد أن ينسب قوله وزعمه إلى القرآن الكريم « رأي القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الأولون بعد إذ ألحوا في طلبها وأجيبوا إليها . . فرأتها أبصارهم رأي العين ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طلبها واللجاج في استنزالها فمنهم من يراها من أنواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغياً وعدواناً » « كما يقص علينا ـ أي القرآن ـ أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها ولكن علم الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرتها أنفسهم بغياً وعلواً ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته ولا يقوى معاند على معارضتها تلك هي القرآن الكريم نفسه ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] »[2] .

ثم تعال معي بعد هذا إلى أسلوب خفي في إنكار حجة المعجزات يحتاج إلى مناقيش لاستنتاجه ، يرد هذا الأسلوب في كلام السيد رشيد رضا ينخدع بظاهره السطحيون يقول السيد رشيد « لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بجحودها عذاب الله

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥١ .

(٢) الإسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

في الدنيا والآخرة ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها »[1].

ويقول « إن الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية »[2].

كان الأصح أن يقول في الأول « ولم يؤمن بها ممن شاهدها إلا من هدى الله » أو يقول في الثانية « حجة لهم على أقوامهم يهدي بها من يشاء » ، أما وصف من هداه الله بها بالإستعداد للهداية فهو أمر يدل على أن قائله يصف أولئك القوم الذين هداهم الله بعد المعجزة بالإستعداد للإيمان قبلها فليس لها أثر في ذلك وإنا لنسأله ما الذي يجعله ينكر أن يكون الله قد جعل المعجزة سبباً لوجود الإستعداد للإيمان ثم الإيمان ؟ لا شك أنه إنما يريد بهذا التقليل من شأن المعجزة في التأثير على الاتجاه العقلي للبشر إلى الأديان إذ ليس للمعجزة من تأثير وإنما التأثير يرجع إلى الأدلة العقلية .

ولا يخدعنك وصفه للمعجزات بأنها حجة على الجاحدين أو أنها حجة للأنبياء على أقوامهم فإنه يقول في موضع آخر « وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته »[3] ثم كيف تكون حجة إذا لم يكن لها تأثير في الإيمان إلا إيمان المستعدين له قبل ورودها ؟ إنها لحجة ضعيفة وعهدنا أن المعجزات عند السلف حجة كبيرة .

ثم أنظر ـ حتى يتضح لك مذهبه ـ إلى كلامه وهو يقارن بين خضوع

---

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ١٦٠ والوحي المحمدي : رشيد رضا ص ٧١ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٢٢٧ والوحي المحمدي : له ص ١٨٤ .

(٣) المرجع السابق جـ ١١ ص ١٥٩ والوحي المحمدي : له ص ٧٠ .

أولئك للمعجزات وخضوع آخرين للسحرة والمشعوذين يقول « وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سببا ، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه إن لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك »[1]!!

وهو كزملائه رجال المدرسة العقلية يقرر أن العقل لا يخضع للمعجزات « إن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها لأن البشر قد بدءوا يدخلون في سن الرشد والإستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لا تباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي ليربي البشر على الترقي في هذا الإستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال »[2].

نخلص من هذا إلى أن رجال المدرسة العقلية لا يحيلون وقوعها بل هي عندهم « جائزة عقلاً أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما فلا مانع من وقوعها بقدرة الله تعالى في يد نبي من الأنبياء ويجب ان نؤمن بها على ظاهرها »[3] ولكنهم يخصون هذا بفترة ما قبل رسالة محمد ﷺ أما في عصره عليه الصلاة والسلام « فانتهى بذلك زمن المعجزات ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل

---

(١) تفسير المنار : جـ ١١ ص ١٦٠ والوحي المحمدي : له ص ٧١ .

(٢) تفسير المنار ؛ رشيد رضا جـ ١١ ص ١٥٩ والوحي المحمدي: له ص٦٩ .

(٣) تفسير المنار : رشيد رضا جـ١ ص ٣١٤ - ٣١٥ .

عن الإعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي »[1].

ويرى الشيخ محمد عبده أن المعجزات إنما هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان ولا يضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات فمجرد روايته لها لا ينفي عنه أنه دين العقل ما دام لم يرد فيه شيء منها . يقول الشيخ عبده « فأيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطره وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان من أن سننه تعالى في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل »[2].

إلى هذا ذهب رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر معجزات الأنبياء السابقين أثبتوا وقوعها وأنكروا حجيتها وتأثيرها عند أهل العقول الراقية ؟!

معجزات محمد ﷺ :-

ولهم في أمر معجزات ﷺ رأي آخر هو غير ذاك بل هو أشد منه خطراً ذلكم أنهم أنكروا معجزاته عليه الصلاة والسلام كلها سوى معجزة القرآن الكريم وجردوا نبوته من أي معجزة أخرى وسلكوا في ذلك سبلاً . أما بإنكار صحتها وأما بتفسيرها بأمر لا تكون به معجزة وأقربهم إلى الحق على بعده عنه من أثبت بعضها ولكن أنكر أن يكون ورودها لإقامة الحجة على نبوته ﷺ بل هي رحمة من الله تعالى وعناية به ﷺ وبأصحابه في الشدائد .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣١٥ .

(٢) تفسير المنار : رشيد رضا جـ ١ ص ٣١٥ .

وهم في مقابل إنكارهم هذا حاولوا أن يعوضوا ذلك بإثبات الإعجاز لأمور ليست من المعجزات ؟ وإنما أثبتوا له معجزة القرآن لأنها معجزة عقلية أما ما سواها فليست معجزات عقلية لأنها مما تعيا العقول بها وما تعيا العقول به فليس عقلياً يقول الشيخ محمد مصطفى المراغي في تقديمه لكتاب حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل : - « ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية وما أبدع قول البوصيري .

لم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصاً علينا، فلم نرتب ولم نهم»[1]

ويردد هذا الكلام أيضاً السيد رشيد رضا « وأما آيته - أي محمد ﷺ - التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن وأمية محمد عليه الصلاة والسلام ، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة ، في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها ، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر »[2].

ويقول « هذا وإن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل ، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل مقدمة الشيخ محمد مصطفى المراغي ص ١٣ .

(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ١٥٥ .

نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها لأن البشر قد بدؤا يدخلون في سن الرشد والإستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون »[1] ثم يقول « وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد »[1] ثم يجمل لنا قوله « وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية[2] . . »؟!

ويرد السيد رشيد على الذين اعترضوا على حسين هيكل لتجريده نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من المعجزات في كتابه « حياة محمد » فيقول مدافعاً عن هيكل : - « أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون (!!) على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني وفي المقصد الثاني - من الفصل الخامس ، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة ، لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل وبينت سبب هذا الإفتتان والفروق بين ما يدخل منها في عموم السنن الكونية والروحية وغيره »[3] .

ويثبت الشيخ - عبده - ذلك بقوله « نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١١ ص ١٦١ .

(٣) مجلة المنار المجلد ٣٤ الجزء العاشر ص ٧٩٣ تاريخ ٣ مايو ١٩٣٥ م .

في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له وأختص العقل بالخطاب وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة »[1] ويقول « ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الإعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية النوعية بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي »[2] وقال أيضاً « فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلّهية »[3].

أما الشيخ عبد العزيز جاويش فهو يرى أن الله سبحانه وتعالى أبى إلا أن يؤيد هذا الدين بالمعجزة التي لا تنافر فطرته وهي القرآن الكريم ، أما المعجزات الخارقة فلم يؤيد الله بها رسوله محمداً ﷺ قال الشيخ جاويش « كما يقص - أي القرآن - علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ، ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها واستنكرتها أنفسهم بغياً وعلواً ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هي

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٤٣ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣١٥ .

(٣) الإسلام والنصرانية : محمد عبده ص ٦٨ .

القرآن الكريم نفسه »[1].

وقال بهذا السيد محمد فريد وجدي فهو يرى أن العقل البشري قد تم وكمل فلم تعد المعجزات تجدي فيه ولا تنفع معه ويستدل على هذا بتكذيب « علماء أوروبا » لهذه المعجزات ويجعل هذا كله سبباً لصرف الإسلام النظر عن المعجزات وتوجيهه إلى الأدلة العقلية وقواعد العلم يقول الأستاذ وجدي : - « وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الإنساني رشده فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المـواد العلمية » « ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو إن كان تهوراً منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم أننا في زمان لا يجدي فيه للإعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي » « لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ببدائه العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ما لا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية »[2] .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت « أن الذي أعطاه الله إياه - يعني محمداً ﷺ - من المعجزات كان غير الذي أعطاه للأنبياء السابقين كـان « وحياً » يسمع ويفهم ويعقل فيدرك العقل منه جهات إعجازه ولا ينقرض بانقراض زمنه ولا بموت صاحبه بل يظل قائماً محفوظاً بحفظ الله الذي أوحاه »[3].

حقاً لقد قال رسول الله ﷺ عن القرآن الكريم « وإنما كان الذي

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٤٨ .
(٢) المدنية والإسلام : محمد فريد وجدي ص ٧١ - ٧٢ .
(٣) الفتاوي : محمود شلتوت ص ٤٨ - ٤٩ .

أوتيت وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يقصد بهذا أن يصف معجزات الأنبياء عليهم السلام بأنها لا تسمع ولا تفهم ولا تعقل وأن معجزته ﷺ هي التي تسمع وتفهم وتعقل وإنما أراد أن معجزته لا تنقرض بانقراض زمنه ولا بموته وإنما هي خالدة ومعجزاتهم عليهم السلام منقطعة ولهذا يرجو أن يكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة والله أعلم .

وحينما نسأل عن الذي دعاهم إلى الوقوف مثل تلك الوقفة أمام المعجزات عموماً وفي دين الإسلام خصوصاً نجد أن السبب يكمن ـ والله أعلم ـ في اتصال أولئك برجال الغرب الأوروبيين في فترة كانت العلاقة بين الكنيسة ورجال العلم في أوروبا لا تزال فيها بقية من الإنفصال وبقية من الركود وسوء العلاقات ، كان رجال العلم في أوروبا ينفرون من تعاليم الكنيسة على أنها هي تعاليم الدين الصحيح فنفروا منها ومن الدين كله وأسسوا علومهم وبنوا قواعدهم على أنها معارضه ومبطلة لأصول الدين .

اتصل أولئك الرجال بهم ورأوا موقفهم من الدين فأرادوا أن يتقربوا إليهم ويشرحوا لهم أن الدين الإسلامي هو الدين الذي لا يشتمل على تلك الأمور المخالفة للعقل ولقواعد العلم ، وعالجوا تلك القضايا بكثير من التسامح لحساب القواعد العلمية غير الثابتة على حساب الدين الإسلامي .

عالجوا فيما عالجوا ـ بزعمهم ـ قضية المعجزات التي وقفت حجر عثرة في طريقهم فوافقوا رجال الغرب أن المعجزات لا تصلح للإحتجاج ولا تقوم بها الحجة .

ثم قالوا أن هذه المعجزات إنما وردت في الأديان السابقة على الإسلام ، ولا يضير الإسلام ولا يجعله مخالفاً لأحكام العقل إذا ما

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

رواها ـ مجرد رواية ـ ما دام لم يرد فيه شيء منها « فإيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة »[١] .

ثم زعموا أن الإسلام لم يرد فيه شيء من تلك المعجزات لإقامة الحجة بل حجته هي الأدلة العقلية والقواعد العلمية التي تنادون بها يا رجال أوروبا ويا أحرار الإفرنج !

كانت تلك ـ فيما نرى ـ هي قصة أولئك مع رجال العلم في أوروبا وهي سبب موقفهم من المعجزات .

ولا يذهبن بك حسن الظن أو سوءه مذهباً في تقييمهم ولندع الحديث لرجل منهم يشرح لنا سر علاقتهم بالغرب وكيف كانت هذه العلاقة سبباً لاستبطان كثير منهم ـ باعترافه ـ الإلحاد مع عدم إظهارهم له لأن الأمر أكبر من أن يحاوله . يقول الأستاذ محمد فريد وجدي وأرجو إخواني أن يمعنوا معي دراسة قوله هذا وأرجو أيضاً أن يقرأوا ما بين السطور قبل قراءتهم السطور فإنها تخفي بينها ما هو أكبر منها يقول وجدي : ـ « في تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة إليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان ، وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميثولوجيا[٢] ثم أخذ يبحث في اشتقاق أصولها بعضها من بعض ، واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد الإنسان لها نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ١ ص ٣١٥ .

(٢) أي علم الاساطير .

يرتشف من منـاهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميثولوجيا ، ووجد دينه ماثلاً فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة[1] متى وصلوا إلى درجته العلمية .

وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض[2] .

وقد عثرنا نحن في جولاتنا العلمية على ما عثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق ، لولا أن منّ الله علينا بوجدان المخلّص منها وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[3] الآية فسجدنا شكراً لله وقلنا هذه مانعة الصواعق بل مانعة الغرق فتشبثنا بها وادخرناها إلى وقتها ثم أفضينا بها إلى الناس واثبتناها في بعض مؤلفاتنا .

هذا موقف منطقي لدين يعلن السلطان المطلق للعقل ، والدولة الخالدة للعلم ويجرد الإنسان من كل أوهامه وأهوائه ووراثته ليصل به الى إباحة النظر الحر والتفكير المستقل »[4].

ذلكم بيان واف أفضى به الأستاذ وجدي عن أولئك الذين اتصلوا بالغرب وإلى أي حال وصلوا من استبطان الإلحاد وهو قد اعترف بوقوعه

---

(١) يقول « كافة » ترى كم وصل من هؤلاء إلى تلك الدرجة ؟ !

(٢) إعتراف خطير يوجب على علماء المسلمين إعادة تقييم كتاب وشعراء ذلكم العصر وفي مقدمتهم رجال المدرسة وفي مقدمتهم الافغاني وعبده .

(٣) سورة آل عمران : من الآية : ٧ .

(٤) جريدة الأهرام المصرية في ٣٠ / ٨ / ١٩٣٣ م ص ٣ مقال مذهب القرآن في المتشابهات : محمد فريد وجدي .

بنفسه فيه ، وذلك بوصوله إلى تلك الدرجة ثم نجاته منها بتلك الآية التي فهم منها أن يلقي كل ما لا يفهمه عقله من أمور المعجزات ونحوها في بحر المتشابهات .

وما يدرينا بأن من أنواع استبطان الإلحاد الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام وعن عقائده مع الدس والتزييف ؟ ! بل وما يدرينا أن من أنواع الإستبطان هذا الإعتراف بالوصول إلى درجة الإلحاد ثم النجاة منها ؟!

أما تعيين الأفراد من وصل منهم إلى درجة الإلحاد واستبطانه فإنها مهمة شاقة ألقاها الأستاذ وجدي على علماء المسلمين ـ من حيث يدري أولا يدري ـ توجب عليهم كافة إعادة تقييم الرجال في تلك الفترة تقييماً لا يخضع للشعبية التي يلقونها بين علماء خدعوا بها بل يوجب التجرد من التأثر والبحث عن الحقائق والوثائق .

ليس هذا استطراداً مني في قضية جانبية بل هو بيان لموقف أولئك من المعجزات وسر ذلكم النفي لحجية المعجزات والتقليل من شأنها .

ذلكم أن تجريد نبوته ﷺ من تلك المعجزات إنما يقصد به طائفة منهم إثبات عبقرية محمد ﷺ لا نبوته ، وهم حينما يثبتون هذا يزعمون أنه كسب عظيم للقائلين بنبوته أرأيتم إلى أيّ حال يصل الأمر حينما يجرد أولئك رسالته عليه الصلاة والسلام من المعجزات ؟! أي حق يبقى لدين جاء به عبقري ولم يأت به نبي من الله ؟!

لنقرأ قول الأستاذ وجدي وهو يقرر عبقرية محمد ﷺ ويعده كسباً للقائلين بنبوته وما رأيت خسارة فادحة تسمى كسباً عظيماً إلا بهذا المقياس الذي يقيس به وجدي ، يقول « ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيماً ، إن لم يغفل اغفالاً تاماً ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبي كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم فتكون

النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة ، فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائراً ، لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد وسيكون مضطراً بأن يعترف بأن محمداً ﷺ كان عبقرياً من طراز خاص فاق به جميع العباقرة وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته لأن العبقرية في العلم لا تعني ما تعنيه في عرف العامة ، هي في العلم ما يلقى في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجيء فذاً لا سابقة له ، يتخذ مثالاً لغيره ولا يمكن تقليده فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة إلى العقل ، وتسوغها في العلم »[1].

وهذا الكلام كثر ترديده بين الكتاب في تلكم الفترة وهم يساومون على نبوته ﷺ ويكفيهم ثمناً لها الإقرار بعبقريته ويعدونه كسباً عظيماً . يقول زكي مبارك : ـ « كان محمد إنساناً قبل أن يكون نبياً وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ فسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد »[2].

كثر ترديد هذا الوصف لنبينا علية الصلاة والسلام حتى ألف فيه بعضهم كتباً مستقلة عن عبقرية محمد كما فعل الأستاذ العقاد وهو وإن لم يشاركهم إثبات العبقرية على حساب النبوة إلا أنه شاركهم في الترويج لهذه الدعوة الهدامة .

ولا تحسبن أن القوم يدعون إلى العبقرية إضافة إلى النبوة فهو من

---

(١) مجلة الأزهر الجزء الأول المجلد العاشر محرم ١٣٥٨ مقال « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » للأستاذ محمد فريد وجدي ص ١٥ .

(٢) مجلة الرسالة العدد ٢٩٧ ص ٥٠٧ في ٢٢ محرم ١٣٥٨ هـ ـ ١٣ مارس ١٩٣٩ م مقال « النواحي الإنسانية في الرسول » زكي مبارك .

زيادة الثناء والإعجاب بل هم حين يصفونه علية الصلاة والسلام بالعبقرية فإنهم يثبتونها على حساب نبوته عليه الصلاة والسلام وأكبر دليل على هذا إنكارهم للمعجزات والمعجزة والنبوة سيان في كونهما من الأمور الغيبية الخارقة لسنن الكون بل إن المعجزة من أدلة الإثبات للنبوة ومن ينكر المثبت فهو إلى إنكار المثبت أقرب « وسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية » ؟!

وقد يقرون لمحمد عليه الصلاة والسلام نبوة هي غير النبوة المعروفة عند السلف وذلك بإثبات عبقرية له من طراز خاص !! فاق بها جميع العباقرة ـ كما مر ـ ويدعون أن هذه هي النبوة أو قريب منها وسيأتي تعريف شيخهم لها .

يقرون له بالنبوة على هذا النحو الذي لا قيمة له ولا اعتبار بين المسلمين كما يقرون بالمعجزات لكن ليست كما يعرفها السلف أيضاً بل هي أمور لا يصح اعتبارها من المعجزات كما فعل الأستاذ وجدي في سلسلة مقالاته « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » التي نشرها في مجلة الأزهر فينكر المعجزات الحقيقية ويثبت الإعجاز لما دونها حيث يقول « تمتاز العصور النبوية بالخوارق للنواميس الطبيعية فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم ، وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي صاحبت الدعوى في جميع أدوارها وكانت أعظم شأناً وأجل أثراً من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس[1] من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه ، ولكني أقصد تلك الإنقلابات الأدبية

---

(١) اسلوب جديد في التشكيك بالمعجزات« ما تناقله الناس » ؟ !

والإجتماعية التي تمت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن وقد أعوز أمثالها في الأمم القرون العديدة والآماد الطويلة »[1].

وقال « وقد لاحظ قرآؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت والمحافظة على إقامة الدستور العلمي ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة »[2].

ذلكم ما يؤدي إليه تجريدهم نبوة محمد ﷺ من المعجزات أدّى بهم إلى أن عدّوا الإقرار بعبقريته كسباً عظيماً للقائلين بنبوته ، وهم يحسبون العبقرية إذا كانت من طراز خاص هي النبوة أو قريب منها ، يؤيد هذا الوصف ذلكم التعريف الذي جاء به شيخهم للنبوة وهو يريد أن يأتي بكل ما هو جديد لأنه « سئم من الإستمرار على ما يألفون واندفع إلى طلب شيء مما لا يعرفون »[3] فكان مما جاء به مما لا يعرفون ذلكم التعريف للنبوة الذي أورده في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية حيث يقول « قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق ، علماً وعملاً ، بحيث لا يعلم إلا حقاً ، ولا يعمل إلا حقاً ، على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة ، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر ، ولكن التعليم الإلهي ، فإن فطر أيضاً على دعوة بني نوعه إلى ما جبل

---

(١) مجلة الأزهر المجلد الحادي عشر الجزء السابع مقال « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » محمد فريد وجدي ص ٣٨٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨٥ .
(٣) تاريخ الأستاذ الأمام : محمد رشيد رضا الجزء الأول ص ١١ .

عليه فهو رسول أيضاً وإلا فهو نبي فقط وليس برسول »[1] ثم يصف تعريفه هذا بالدّقة ويوصي بالتفكر فيه « فتفكر فيه فإنه دقيق » .

ذلكم هو التعريف « الجديد » الذي جاء به شيخ المدرسة ، وكان أولئك التلاميذ الذين عملوا بمبادىء شيخهم يعدون إثبات عبقرية محمد كسباً عظيماً للقائلين بنبوته ، وما ذلكم إلا بعد أن جردوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من المعجزات ورأوها بعد تجريدها لا تعدو العبقرية فقالوا بها ودعوا إليها وألزموا أنفسهم بأنفسهم .

فلا عجب إذن أن يرد الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية هذا التعريف للنبوة والرسالة من الشيخ عبده ويرفضه بقوله « وأنا أقول ليس في تعريف الشيخ شيء من خصائص النبوة والرسالة لا وحي ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة ، وعليه فمن أين يعرف كونه « لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً » من أين يعرفه هو نفسه ؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه إذا دعاهم ؟ نعم في تعريف الشيخ « ولكن التعليم الإلهي » لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضاً على الفطرة ، ثم يرد عليه السؤال المذكور : من أين يعرف أنه تعليم إلهي ؟ »[2].

ثم يذكر الشيخ مصطفى صبري أن القصد من قيد « التعليم الإلهي » ذر شيء من الرماد في بعض الأعين أو دس في الكلام لا من نوع دس السم في الدسم بل من نوع دس الدسم في السم[2].

ذلكم التعريف ونحوه من أقوال الشيخ محمد عبده كانت منهجاً لتلاميذه من بعده في إنكار المعجزات بإنكار حجيتها ونفيها عن الدين الإسلامي وكأنها عيب أو نقص يجب تطهير الإسلام منه .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : تحقيق سليمان دنيا جـ ١ ص ٣ ـ ٤ .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ٤ ص ٤١ ـ ٤٢ .

وقصروا معجزات نبينا محمد ﷺ على معجزة القرآن الكريم ووصفوها بأنها معجزة عقلية وكأنهم بهذا القصر يريدون إنقاذ حياته عليه الصلاة والسلام من شائبة المعجزات الكونية المخالفة للعلم وسنن الكون .

ولأجل هذا الهدف تجرأوا على ما ورد من الروايات الصحيحة في السنة لبعض المعجزات فأبطلوها وتجرأوا على رواتها فقدحوا فيهم وجرحوهم ولم يفرقوا أو أكثرهم بين صحابي أو تابعي أو سواهم .

بقي هنا أمر يرد عليهم في إبطال ما ورد من المعجزات لنبينا ﷺ وقصر معجزاته على معجزة القرآن الكريم يرد هذا الأشكال عند تفريقهم بين المعجزات والقرآن ويورده الشيخ مصطفى صبري « ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن إرضاءً لمفكري المعجزات والخوارق من المستشرقين وتفضيلاً لموافقتهم في عقلية الإنكار على تجشم معارضتهم . إن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ وقد يطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه البشر أما أنه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق . وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالي مؤلف « حياة محمد » ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضاً مخالفة لسنة الكون مخالفة للعلم ، مخالفة لمقتضى العقل فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالإسلام أن يقبلوا القرآن على أنه من المعجزات الخارقة أعني أنه كلام الله لا كلام سيدنا محمد ؟ فالواجب إذن أن يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها »[1].

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ٤ ص ١١١ .

ذلكم هو العلاج لما وقعوا فيه علاج لأساس الداء وذلكم الداء هو الزعم بأن العقل لا يقبل الإستدلال بالمعجزات وحينما نصل إلى علاجه لا يبقى أمامنا رد لحديث صحيح ولا تأويل باطل لآية قرآنية ولا اضطراب بإنكار معجزاته ﷺ ثم إثبات معجزة القرآن وهما سيّان من ناحية ثبوت الإعجاز ووقوعه .

ذلكم ما نراه الصواب في هذه القضية والله الهادي إلى سواء السبيل ونقول لهؤلاء الذين يحسبون المعجزات لأحكام العقل خارقة رويدكم ليس الأمر كما تظنون وليست القضية كما تعتقدون فالمعجزات ليست أمراً خارقاً لأحكام العقل بل هي أمر خارق للعادة وبينهما خصوص وعموم فالخارق لأحكام العقل أعم من الثاني ذلكم أن كل خارق لأحكام العقل فهو خارق لحكم العادة وليس كل خارق لحكم العادة خارقاً لحكم العقل .

ونضرب لأحكام العقل مثلاً بحكمه باستحالة أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في نفس الوقت أو أن يكون الشيء أسود وفي نفس الوقت أيضاً هو أبيض أو أن يكون الإنسان جالساً قائماً في آن واحد .

ونضرب لأحكام العادة مثلاً بإنكسار الزجاج حين يرمى بالحجر وعدم تحول العصا إلى ثعبان عند إلقائها وعدم حياة الميت في الدنيا وإحراق النار للإنسان الذي يدخل فيها وعدم خروج الماء من بين أصابع الإنسان وصمت الحصى وعدم سماع تسبيحه وكذا صمت الجذع وعدم سماع حنينه .

والمعجزة التي جاء بها الأنبياء خارقة لأحكام العادة وليست خارقة لأحكام العقل فلا يحكم العقل ببطلان ما يخالف أحكام العادة ، بل يؤمن بعدم إنكسار الزجاج إذا رمي بالحجر ويؤمن بعدم حرق الإنسان عند دخوله النار ويؤمن بنبع الماء من بين أصابع الإنسان ويؤمن بتسبيح الحصى وحنين الجذع لأن ذلك كله ليس خارقاً لأحكامه بل هو خارق

لأحكام العادة .

وهو حينما يؤمن بهذا لا يؤمن به على أنه أمر « عادي » بل يؤمن به على أنه أمر « غير عادي » أي مخالف لأحكام العادة ثم يذهب بعد هذا يطلب سبباً لهذا الخارق للعادة حتى يصل إلى الحقيقة إما معجزة نبي أو سحر ساحر أو شعوذة مشعوذ .

التبس هذا الأمر على طائفة من الناس فردوا المعجزات أو أولوها لاعتقادهم أنها مخالفة لأحكام العقل الذي به يؤمنون وإلى أحكامه يستندون وهم في ذلك واهمون .

ثم لا يحسن بنا وقد وصلنا إلى هذه المرحلة من بيان لموقف أولئك من المعجزات عموماً ومعجزاته ﷺ خصوصاً من غير أن نضرب لذلك أمثلة وذكر تأويلهم لها .

إحياء الموتى :

قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾(١) إلى قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا واللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ المَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

وقد سبق لنا عند بيان منهج المدرسة العقلية الحديثة في قصص القرآن أن ضربنا مثلاً هذه القصة ، ليس من ناحية الإعجاز، وإنما من ناحية القصة فيها ، وذكرنا هناك حملهم هذه القصة على أنها تمثيل لا حقيقة .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٦٧ .
(٢) سورة البقرة الآيتين : ٧٢ و ٧٣ .

ونتناولها هنا من ناحية كونها معجزة لموسى عليه السلام حيث أحيا بها ميتاً بإذن الله إذ أن من معجزاته عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله .

ويجب أن نربط هنا بين موقف رجال هذه المدرسة العقلية من هذه الآيات كمعجزة وموقفهم منها كقصة ذلكم أن موقفهم الثاني منها كقصة إنما تولد عن موقفهم الأول كمعجزة شق عليهم الإيمان بإحياء الموتى كمعجزة لموسى عليه السلام فحملوا القصة على التمثيل .

وخلاصة القصة أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وليس له ولد وكان له قريب وارث فقتله ليرثه ثم ألقاه في الطريق وطالب قومه بإخراج قاتله فاحتكموا إلى موسى عليه السلام فأمرهم أن يذبحوا بقرة ـ كما ورد في القرآن ـ ثم ذبحوها وأمرهم موسى أن يضربوه ببعضها فضربوه فقام وأخبر بقاتله ثم مات فكانت حياته آية لموسى عليه السلام وحجة على المعاد .

ثم إن الآيات الكريمة تنص نصاً صريحاً بوقوع ذبح البقرة منهم « فذبحوها » وليس هناك قرينة تصرفه عن الحقيقة ثم تنص الآيات أيضاً على الأحياء « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى » وقال قبل ذلك « والله مخرج ما كنتم تكتمون » ولا يفهم من هذا أبداً أن يراد بالإحياء إلا الحياة على معناها الحقيقي وليس هناك من قرينة لحملها على الحياة بالمعنى المجازي بمعنى استبقاء حياة أناس آخرين على حدّ قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1].

لكن الشيخ ـ عبده ـ وتلميذه ـ رشيد رفضا هذا القول وحملا القصة على أنها نوع من التشريع الذي كان موجوداً في زمن بني إسرائيل لأجل الوصول إلى معرفة القاتل المجهول في هذه الحادثة وأمثالها لا على أنها وردت في حادث معين ظهرت فيه معجزة لموسى عليه السلام وهم

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ١٧٩ .

يستندون في زعمهم هذا إلى ما ورد في التوراة قال الشيخ محمد عبده « يقول أهل الشبهات في القرآن أن بني اسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن ؟ ونقول : ـ إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به وإنهم لم يؤتوا إلا نصيباً من الكتاب على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي ثم يقولون أن أيدينا لم تسفك هذا الدم إغفر لشعبك إسرائيل ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى »[1].

وشد أزره بهذا الرأي السيد محمد رشيد رضا بقوله « وأقول إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الإشتراع ونصه »[2] ثم ساق النص وهو قريب مما ذكره شيخه ثم قال بعد هذا «والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة بريء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية »[3].

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥١ .

ومن هذا ترى كيف حملوا القصة على أنها حكم شرعي عندهم لا على أنها أمر طاريء أظهر الله به معجزة هي إحياء الميت على يد موسى عليه السلام أمام قومه ليعتبروا بها ولتكون حجة لإثبات المعاد وليريهم الله كيف يحي الموتى .

وإنا لفي حيرة من ذلكم الشيخ وتلميذه اللذين امتلأت كتبهما تشدقا بالتحذير من الإسرائيليات وذمهما وتجريحهما لكعب الأحبار ووهب بن منبه لرواية الإسرائيليات إلا أن الشيخين الفاضلين هنا لا يجدان غضاضة أن يصرفا آيات القرآن الكريم عن ظاهرها ليس استناداً إلى آيات أخرى ولا إلى سنة نبوية ولا إلى حكم عقلي صحيح يوجب هذا وإنما استناداً إلى ما جاء في التوراة واعتباره ثابتاً صحيحاً معتمداً يجوز صرف القرآن عن ظاهره وتأويله على مقتضاه ، وتقرباً إلى أولئك الإفرنج الذين أنكروا وجود هذه القصة في التوراة ، فألزم هذان الشيخان نفسيهما بصرف الآيات عن ظاهرها إلى معنى توافق فيه ما جاء في التوراة حتى يرضى عنهم أولئك الأفرنج .

وهم حين يفعلون هذا بالقصة فإنما يفعلونه ليتسنى لهم إبطال معجزة موسى عليه السلام وتأويل إحياء الموتى الوارد في الآيات على المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي قال السيد رشيد رضا « ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الأحكام وهذا الإحياء على حدّ قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[1] وقوله ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ فالإحياء هنا معناه الإستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . ثم قال ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ بما يفصل بها في الخصومات ، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات فهو كقوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾[2] واكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسله وليس عندي شيء عن شيخنا في تفسير هذه

---

(١) ٥ : ٣٢
(٢) ٤ : ١٠٥

الجملة ، ولكنه قال في تعليلها ما يرجح القول الأول وهو ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت »[1] .

ويلتمس الشيخ محمود شلتوت عذراً لهما ألجأهما إلى سلوك هذا فيقول « والذي حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته في التخلص من الإعتراض الذي ذكره بعض المستشرقين مع وجود النص التشريعي الذي أشار إليه الشيخ بمعناه ونقله الشيخ رشيد بنصه »[2] .

وهذا اعتذار غير مقبول وغير مقنع إذ أن الشيخ شلتوت نفسه لم يقنع بهذا العذر الذي التمسْه لهما فذهب يرد على تأويلهما وهو أمر نحمده للشيخ شلتوت هنا ، حيث قال : ـ « هذا صنيعهما ، وبذلك يتبين أنهما توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعي لا لبيان حادث تاريخي ، ولكننا إذا نظرنا إلى النص في هذه الآيات وما ذيل الكلام به من قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على أرادة الحكم التشريعي فلا أقل من أن يبعده إبعاداً وذلك بأن كلمة « اضربوه » واضحة في أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة ، وليس في الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الخفي ، ولا إشارة إلى غسل أيدي أهل الحي من دماء البقرة ،وقوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى ﴾ يدل على أن الإحياء المشبه به وهو الإحياء في هذا المقام ـ إحياء حقيقي بعد موت تسلب فيه الروح ، وليس إحياءاً حكمياً يحصل بمعرفة القاتل والإقتصاص منه حتى يكون بمثابة ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ كما يريد الشيخان ، ولو كان الأمر كما يقرران لما صح تقرير إحياء

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٥١ .
(٢) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٣ ـ ٤٤ .

الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الإحياء الحكمي المجازي ، ولو أن قائلاً قال إن الله يحي النفوس الجاهلة بالعلم وكذلك يحي الموتى من قبورهم لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغاً . وإن قوله تعالى ﴿ويريكم آياته﴾ لواضح في الإراءة البصرية للآيات الكونية لا في الإراءة العقلية للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ وإن قوله بعد ذلك : - ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر في النفوس ، ومن شأن القلوب أن ترق لها وأن تتجرد من القسوة والعناد عندها ، ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي فهذا الحمل تأويل منهما لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب »[1].

ويرجع الدكتور رمزي نعناعه هذا السلوك من السيد رشيد إلى المبالغة في تحكيم العقل ثم يكشف ما يؤدي إليه هذا القول من إلحاد فيقول « ونقول أخيراً للسيد رشيد أن مبالغته في تحكيم العقل جعلـه يستبعد حصول مثل هذه المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، فمن ثم أول الآية لصالح التوراة ! ولا أدري كيف خفي عليه - وهو المدافع عن الإسلام - أنه يوجد في هذا الزمن نوع من الإلحاد الخفي المآل ، وهو تأويل كل آية أو حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل ، حتى يكون مفادها أمراً غير خارق للعادة وهذا النوع أخطر أنواع الإلحاد لأنه سبيل إلى إنكار الأديان السماوية ، وإلى هدمها من أساس ، لأن أساس إثباتها المعجزات التي أجراها الله على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام »[2] .

ذلكم تأويل الشيخ عبده والسيد رشيد لهذه المعجزة .

تقرباً إلى أولئك الإفرنج المستشرقين ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) الإسرائيليات : رمزي نعناعه ص ٣٦٦ .

النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[1].

وفراراً من إثبات المعجزة بتكلف ظاهر صرّح بسلوكه الأستاذ وجدي حين قال « وقد لاحظ قرآؤ نا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل حادثة الى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت »[2] .

من معجزات عيسى عليه السلام : -

قال الله سبحانه وتعالى مثبتاً معجزة لعيسى عليه السلام أظهرها سبحانه على يديه ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيل وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[3] وقال سبحانه مثبتاً وقوع هذه المعجزةَ منه عليه السلام بعد امكانها : - ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾[4] الآيَة

فثبت بنص القرآن الكريم وقوع هذه المعجزة لعيسى عليه السلام وحصولها منه ، ويرى الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد في تفسير آية آل عمران أن

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ١٢٠ .

(٢) مجلة الأزهر المجلد الحادي عشر الجزء السابع مقال السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ، محمد فريد وجدي ص ٣٨٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآيتين ٤٨ و ٤٩ .

(٤) سورة المائدة : من الآية : ١١٠ .

هذا يدل على إمكان وقوعها لعيسى عليه السلام ولا يدل على وقوعها من غير رجوع إلى آية المائدة وهما ـ أيضاً ـ لا يستندان في نفيهما الوقوع إلى نص من الكتاب أو السنة ، وإنما إلى عدم تناقل النصارى لهذا (!!) خاصة في الأناجيل القانونية عندهم أما الأناجيل غير القانونية التي ورد فيها الإخبار بمجيء محمد ﷺ وكون عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ونحو ذلك فلا قيمة لهذه الأناجيل !! وإنما المستند إلى تلك التي لم يرد فيها شيء من ذلك .

ولندع الشيخ عبده يوضح لنا ذلك حيث يقول في تفسير آية آل عمران : ـ « وغاية ما يفهم منها أن الله تعالى جعل فيه هذا السر ولكن لم يقل أنه خلق بالفعل ولم يرد عن المعصوم أن شيئاً من ذلك وقع »[1] ثم يقول « فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به والحكمة في إخبار النبي ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك »[1]

ويوضح لنا تلميذه النقل الذي يحتج به في مثل ذلك فيقول : ـ « هذا ما قاله الأستاذ الإمام ومن الغريب أن بن جرير يروي عن بن إسحاق » أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوماً مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناً ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائراً ، قالوا : وتستطيع ذلك ؟ قال : نعم بإذن ربي ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال كن طائراً بإذن الله فخرج يطير بين كفيه » فكأنه اتخذ آية الله على رسالته ألعوبةً للصبيان والحاصل أنه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية إلا ما في إنجيل الصبّا أو الطفولة من نحو ما قال ابن سحاق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم ، ولعل آية سورة المائدة أدنى إلى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٢١١ .

القُدُس . . الآية ﴾[1] فإن جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه إلا أن يقال أن جعل هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه والحاجة إلى تحديه به من أجلّ النعم وأعظمها ، ولكن هذا خلاف الظاهر »[2] .

ذلكم ما ذهبا إليه في تأويل تلك المعجزة لعيسى عليه السلام وقبلها معجزة موسى عليه السلام ولنكتف بهذا من معجزات الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام ، ولنذكر موقفهم من معجزة لنبينا ﷺ غير القرآن الكريم التي لا يثبتون سواها .

انشقاق القمر : -

قال الله تعالى ﴿ إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾[3].

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقتين فقال رسول الله ﷺ إشهدوا ، وفي أخرى « ونحن معه فقال إشهدوا إشهدوا » وفي أخرى قال « بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين فلقة وراء الجبل وفلقة دونه فقال لنا رسول الله ﷺ إشهدوا أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري قال : وقال مسروق عن عبد الله « بمكة » وأخرج الترمذي مثله[4] .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال « إن القمر انشق في زمن

---

(١) ٥ : ١١٠

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ٣ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٣) سورة القمر الآية الأولى .

(٤) رواه البخاري في الأنبياء باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر ، وفي فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب انشقاق القمر ، وفي كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب وانشق القمر وأن يروا آية يعرضوا » .

رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر ، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر .

رسول الله ﷺ » أخرجه البخاري ومسلم[١] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن أهل مكة سألوا رسول ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر »[٢].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال « انشق القمر على عهد رسول ﷺ فصار فرقتين فقالت قريش سحر محمد أعيننا فقال بعضهم لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم أخرجه الترمذي[٣] وزاد رزين « فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم » .

بتلك الآية الكريمة وبتلك الأحاديث الشريفة وغيرها ثبتت معجزة انشقاق القمر آية لنبينا ﷺ وكان ذلك في مكة قبل الهجرة بهذا قال السلف وسنذكر قولهم بعد قول منكري هذه المعجزة ليكون بمثابة الرد عليهم .

وسار السيد رشيد في هذه المعجزة على نهج المدرسة العقلية من تأويل للمعجزات وإنكار لأي معجزة لنبينا ﷺ سوى معجزة القرآن وذهب السيد رشيد في إنكار معجزة انشقاق القمر مذهب مدرسته في ذلك ، من التشكيك أولاً في تواتر أحاديثها ، ورد ما ورد منها في صحيحي البخاري ومسلم ثم بعد هذا أورد الشبهات العقلية والعلمية على تلك المعجزة .

وسنذكر هنا ما أورده من شكوك في الرواية والدراية حسب قوله : ـ

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة اقتربت الساعة وفي الأنبياء باب سؤ ال أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية « وفي باب انشقاق القمر ورواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر » .

(٢) رواه البخاري في نفس المواضع السابقة وكذا مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر .

(٣) رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في التفسير باب ومن سورة القمر .

أ) الروايات في انشقاق القمر وعللها : -

زعم بعض العلماء المتقدمين أن الروايات في انشقاق القمر بلغت درجة التواتر وهو زعم باطل كقول ابن عبد البر الآتي أنه نقله جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، وإن تلقاه الكثيرون بالقبول حرصاً على إثبات مضمونه كعادتهم في الفضائل والمناقب ودلائل النبوة .

فأما الشيخان فالذي صح عندهما مسند على شرطهما إنما هو عن واحد من الصحابة (رضي) يخبر عن رؤ ية وهو عبد الله بن مسعود (رضي) وقد أخرجاه . .

وصح عندهما مرسلاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه من طريق قتادة فقط ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعود أحد الفقهاء السبعة .

وإنما كان هذان الحديثان مرسلين لأن الحادثة وقعت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين ولم يكن ولد عبد الله بن عباس ، وأما أنس فكان في المدينة ابن خمس سنين والخلاف في الإحتجاج بالمرسل معروف ، ومن يحتج بمراسيل الصحابة مطلقاً يبني احتجاجه على أنهم يروون عن مثلهم ولكن ثبت أن بعضهم كان يروي عن بعض التابعين حتى كعب الأحبار (؟ !!) وعلى كل حال لا يصح في مراسيلهم ما اشترط في التواتر من الرواية المتصلة إلى من شاهد المروي ، ورواية الشيخين المتصلة من طريقين فقط »[1] .

ثم ذكر العلة فيما رواه مسلم عن ابن عمر بأنه ليس فيها أنه حدّث عن رؤ ية .

وذكر العلة فيما رواه الإمام أحمد وابن جرير والبيهقي عن جبير بن

---

(١) يقصد الحديث الأول الذي سقناه عن عبد الله بن مسعود وهو من طريقين الأول سفيان بن عيينه عن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر والثاني الأعمش عن ابراهيم عن أبي معمر .

مطعم (رضى) كذلك واضاف اليه العلة في الإسناد من جهة سليمان بن كثير وولده محمد[1] فقد ضعفهما ابن معين وقال عن حصين بن عبد الرحمن قد كان ثقة إلا أنه تغير في آخر عمره »[2] .

ثم قال بعد هذا كله : ـ « هذا أقوى ما ورد من الأحاديث في هذه المسألة وعليها اقتصر الحافظ ابن كثير في تفسيره ورواها الترمذي في جامعه وغيره ولها ألفاظ أخرى في التفسير المأثور وكتب الدلائل غربلها الشيخان واختارا ما أشرنا اليه »[3].

ب) اختلاف المتون في هذه الأحاديث : ـ

ويذكر السيد رشيد تحت هذا العنوان اختلافين في متون هذه الأحاديث :

الأول : في بعض روايات ابن مسعود في الصحيحين أنه قال : انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى ، وفي رواية أخرى أنه قال انشق القمر بمكة »[3] .

والعجيب أن السيد رشيد يورد ما أجاب به الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى من جمع بين الروايتين بأن منى من جملة مكة لأنها تابعة لها ولأن من كان بمنى كان بمكة من غير عكس ، يورد السيد رشيد هذه الإجابة القاطعة لابن حجر رحمه الله ثم لا يمنعه هذا من إيراد هذا الاختلاف في التعبير على أنه إشكال في المتن ولم يرد على قول ابن حجر إن لم يكن له مقنعاً .

الثاني : ما ورد من الروايات نحو « رأيت القمر منشقاً شقتين شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء » ورواية « انشق القمر على عهد رسول

---

(١) الصحيح أنه أخوه لا ولده .

(٢) مجلة المنار المجلد ٣٠ الجزء الرابع ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه » ورواية « رأيت القمر على الجبل وقد انشق فأبصرت الجبل من بين فرجتي القمر » ورواية « فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » ورواية « فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة » ونحو ذلك ثم قال « فهذه بضعة ألفاظ يخالف بعضها بعضا وقد تكلف الحافظ في الفتح الجمع بين قول بن مسعود شقة على أبي قبيس وهو بمكة وكونهم كانوا في منى فقال يحتمل أن يكون رآه كذلك وهو بمنى كأن يكون على مكان مرتفع بحيث رأى طرف جبل أبي قبيس ويحتمل أن يكون القمر استمر منشقاً حتى رجع ابن مسعود من منى إلى مكة فرآه كذلك وفيه بعد »[١] ولا ندري لم يستبعده السيد رشيد ولكنه يقول « وفي هذا الجمع ضعف من جهات أغربها دعوى احتمال رؤ ية جبل أبي قبيس من منى في الليل وناهيك بغرابة هذا القول في حال طلوع البدر من الشرق ومكة في جهة الغرب من منى ؟ ثم ماذا يفعل بسائر الروايات »[١].

ثم قال « والقاعدة المشهورة عند العلماء في الأدلة المتعارضة التي يتعذر الجمع بينها تساقطها ومن الدائر على ألسنتهم في المتعارضين كذلك « تعادلا فتساقطا » والقطعيان لا يتعارضان »[١].

هذا ما أورده السيد رشيد في هذا الإختلاف بين متون الروايات وإني لأجزم أن السيد رشيد يعرف أن موازنة الشيء لآخر تختلف تبعاً لاختلاف موقع المشاهد فلو نصبت عصا في وسط الغرفة ونظرت إليها موازية لفتحة الباب مثلا ثم انتقلت إلى مكان آخر لرأيتها موازية لعمود النافذة مثلاً وهكذا كلما تنقلت والعصا في مكانها لم تتحرك وكذا الباب والنافذة وإنما الذي تغير هو موقع المشاهد ، وكذا لو نصبت قلمي بين عيني لرأيته موازياً لعمود مقابل مثلاً فإذا أغمضت عيني اليسرى رأيته قد انحرف إلى يمين العمود ولو

---

(١) مجلة المنار : مجلد ٣٠ الجزء الرابع ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

أغمضت عيني اليمنى لرأيته قد انحرف إلى يسار العمود والقلم والعمود ثابتان في مكانيهما وإنما الذي تغير هو زاوية المشاهدة هذا فيما هو قريب منا .

بل الطفل يدرك ـ بله العالم ـ أنه حينما يرى القمر موازياً لعلم في الأرض فإنما يخضع هذا لمكان وقوفه ولو سار ووقف على هذا العلم لرآه موازيا لعلم آخر ولو انحرف يميناً أو شمالاً لرآه موازياً لعلم ثالث ورابع .

إذن فلا عجب في أن يرد من الروايات ما يصف انشقاق القمر بكون شقة على جبل أبي قبيس وشقة على السويداء ، أو يرى آخر أو الرواي نفسه إذا ما تحرك من مكانه نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة أو يرى حراء بينهما أو غير ذلك من الروايات وكلها حق وكلهم صادق فيما قال .

جـ ـ ثم أوردوا من الشبه عدم تواترها

حيث يقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره « أن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم ولبلغ حداً لا يمكن أحداً أن ينكره وصار من المحسوسات التي لا تدفع ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها »[1] .

وقال السيد رشيد « . . فلو وقع لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الأمم . ولو كان وقوعه آية ومعجزة لإثبات نبوة النبي ﷺ لكان جميع من شاهدها من أصحاب النبي ﷺ نقلها وأكثر الإستدلال والإحتجاج بها حتى كان يكون من نقلتها في رواية الصحيحين قدماء الصحابة الذين كانوا لا يكادون يفارقون النبي ﷺ ولا سيما في مثل هذه المواقف كالخلفاء وسائر العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم (رضي) »[2] .

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٢٧ ص ٧٧ .

(٢) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الرابع ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

وأوردوا إشكالاً فلكياً :

حيث يقول السيد رشيد « لا يشك عاقل من المؤمنين وغيرهم أن خلقة تعالى للسموات وأجرامها في غاية الإبداع والنظام لا تفاوت فيه ولا خلل وأن سنته تعالى في الخلق لا تتبدل ولا تتحول ، فلا يصدق خبر وقوع تغير فيها إلا بخبر قطعي ثابت مثل ثبوتها وثباتها كآيات الرسل التي أخبر الله تعالى بها ، ومن دونها آيات أرضية لا يتضمن وقوعها ما يتضمنه انشقاق القمر ورجوع الشمس بعد غروبها من مخالفة نظام الكون العام ، ومعارضة قوله تعالى ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقول رسول الله ﷺ « أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته » متفق عليه . وذلك كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ فمثل هذا يقبل في خبره ما صح وإن لم يتواتر ويصير قطعياً »[1] .

هـ ـ الإشكال الأصولي الأعظم

هكذا يصف السيد رشيد ما يورده هنا من شبهة على انشقاق القمر حيث يقول : ـ « . . وثبت بالآيات المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة أن الكفار طالبوا النبي ﷺ بآية من الآيات الكونية التي أوتي مثلها الرسل على الإبهام ، وأنهم اقترحوا عليه آيات معينة أيضاً فلم يجابوا إلى طلبهم »[2] ومما أورده السيد هنا من الآيات قوله تعالى في سورة يونس ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُل إِنَّما الغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ ﴾[3] وفي سورة الإسراء ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾[4] .

---

(١) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٣ ، ولا تعتقدن أنه بقبوله لما ورد من نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم أقرَّ بمعجزة له صلى الله عليه وسلم فهو يقبل هذا ليس على أنه معجزة بل على أنه (من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد) أنظر الوحي المحمدي : رشيد رضا ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٤ .

(٣) ١٠ : ٢٠

(٤) ١٧ : ٥٩

ثم قال « بعد التذكير بهذه الآيات المحكمة القطعية كيف يمكننا أخذ رواية أنس بن مالك (رضي) في الصحيحين بالقبول فنصدق أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر »[1] ثم قال « وجملة القول أنه لو صح أن قريشاً سألوا النبي ﷺ آية تدل على صدق نبوته وأن الله تعالى أجابهم إلى طلبهم فجعل انشقاق القمر آية كما هو نص حديث أنس في الصحيحين وغيره في غيرهما لعذب الله أمته أو قومه باستئصالهم على حسب القاعدة الصحيحة الثابتة بالنص القطعي . . ولكنه لم ينقل أن الله تعالى عذب أحداً منهم عقب ذلك التكذيب بل نقل خلافه وإن منهم من مات بعد ذلك ومنهم من قتل ببدر بعد بضع سنين ومنهم من آمن بعد إصراره على التكذيب بعد رؤيتها ببضع عشرة سنة »[2].

هذا ما قاله السيد رشيد رضا ـ هنا ـ وجملة ما يثبت بهذا الإعتراض لو سلمنا له ـ جدلاً ـ به أن وقوع المعجزة ليس بطلب من المشركين .

وليس هذا هو محل النزاع في القضية ، بل محله وقوع انشقاق القمر حقيقة أو عدم وقوعه .

أما كونه بطلب من المشركين أو بغير طلب فهو أمر زائد عن حدّ إثبات وقوع المعجزة له ﷺ .

هذا ما قاله السيد رشيد رضا في ما ورد من الحديث في إثبات المعجزة التي نصّت عليها الآية الكريمة ﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾[3] أبطل الإحتجاج بتلك الأحاديث وزعم أنها لا تقوم بها حجة على إثبات وقوع الإنشقاق وحصول المعجزة .

بقي أمر الآية الكريمة كيف أوّلها السيد رشيد رضا . قال في ذلك : ـ « فإذا أنت رجعت إلى لغة القرآن في معاجمها لتفهم الآية منها دون هذه الروايات

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٥ .

(٢) مجلة المنار المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٨ .

(٣) سورة القمر الآية الأولى .

وجدت في لسان العرب ما نصه « والشق الصبح وشق الصبح يشق شقاً إذا طلع وفي الحديث (فلما شق الفجران أمرنا بإقامة الصلاة) يقال شق الفجر وانشق إذا طلع ، كأنه شق موضع طلوعه وخرج منه ، وانشق البرق وتشقق انفلق وشقيقة البرق عقيقته وهو ما استطار منه في الأفق وانتشر أ . هـ فعلى هذا يقال انشق القمر بمعنى طلع وانتشر نوره ويكون في الآية بمعنى ظهر الحق ووضح كالقمر يشق الظلام بطلوعه ليلة البدر وقال الراغب في مفردات القرآن (وانشق القمر) قيل انشقاقه في زمن النبي عليه السلام وقيل هو انشقاق يعرض فيه حين تقرب القيامة وقيل معناه وضح الأمر أ. هـ ونقله عنه صاحب التاج وهذا الأخير هو المتبادر من الآية بنص اللغة ومعونة السياق لأن صيرورة القمر شقتين منفصلتين لا دخل لها في إنذار المشركين الذي هو موضع السورة ولم يسبق أن عد من آيات الساعة كانشقاق السماء وانفطار الكواكب فلم يبق إلا أنه بمعنى ظهور الحق ووضوحه بآيات القرآن »[1] .

ثم يختم حديثه هذا في هذه المسألة بقوله : ـ « ومن اطمأنت نفسه من المسلمين بقبول سائر تلك الروايات على علاتها وكان ممن يرى مخالفة النقل القطعي والعقل أهون من مخالفة زيد وعمرو ، وصدق عقله أن تقع هذه الآية ولا يحدث أحد من الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من قدماء الصحابة برؤ يتها والإحتجاج بها فضلاً عن تواترها فليس له أن يجعلها من عقائد الإسلام وينفر مستقلي الفكر ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منه »[2] .

هذا ما قاله السيد فيما ورد من القرآن والسنة في مسألة انشقاق القمر ولن نذهب في الرد عليه بتتبع ما أورده فقرة فقرة فهذا مما يطول بنا ولكني أكتفي هنا بإيراد قول السلف في تلك المسألة ومن قرأه استطاع بنفسه أن يرد على قول السيد كله وعلى غيره من الشبهات .

---

(١) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٦ .

رأي السلف : ـ

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ « وقد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة »[1].

وقال رحمه الله تعالى في البداية والنهاية « وقد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول ﷺ وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة »[2].

ثم ساق رحمه الله تعالى بعض ما ورد من الأحاديث قال بعدها « فهذه طرق عن هؤلاء الجماعة من الصحابة وشهرة هذا الأمر تغني عن إسناده ، مع وروده في الكتاب العزيز »[3] .

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى « أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي وإعراض الكفرة عن آياته وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه »[4].

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسيره بعد ردّه على بعض الشبهات في هذا « ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر وهذا بمجرده يدفع الإستبعاد ويضرب به في وجه قائله »[5] .

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى « وقد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ويؤيد بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر »[6].

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٢٧٩ .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير جـ ٦ ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق : جـ ٦ ص ٧٧ .

(٤) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم : القاضي عياض جـ ١ ص ١٨٣ .

(٥) فتح القدير : للشوكاني ج ٥ ص ١٢٠ .

(٦) فتح الباري : لابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٨٦ .

وقال المناوي « وهذا أمر بالإجماع لا نزاع فيه لثبوته بنص القرآن والسنة وبلغ حدّ التواتر وحصل به العلم اليقيني السماعي من الجمّ الغفير »[١].

وبعد هل يحق بعد هذا للشيخ أحمد مصطفى المراغي أن يقول « ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذّ أن هذه معجزة بلغت حدّ التواتر ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحاداً بل كانوا لا يعدون كثرة »[٢].

لعل فيما أوردناه من أقوال أولئك العلماء من حكاية للتواتر ما يكفي في الرد على الشيخ المراغي ومن سار على سبيله ، ويثبت أن حكاية تواتر أحاديث انشقاق القمر ليست دعوى لشاذ من المسلمين !!

ثم إن هؤلاء العلماء رحمهم الله تعالى لم يكفهم حكاية التواتر بل أضافوا إلى هذه الردود القوية على أولئك الشاكين أو المشككين وعلى ما أوردوه من شبه في تلك المسألة .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى « وأما قول بعضهم لو وقع لجاءمتواتراً واشترك أهل الأرض في معرفته ولما اختص بها أهل مكة فجوابه أن ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيام والأبواب مغلقة وقل من يرصد السماء إلا النادر وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد فكذلك الإنشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا وأقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم »[٣].

وقال ابن عبد البر « ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك ، وذلك لأن المسافرين في الليل غالبا ما يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك »[٣].

---

(١) العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية : للمناوي ص ٥٣ .
(٢) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٢٧ ص ٧٧ .
(٣) فتح الباري : لابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

وقال القاضي عياض « ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأنه لو كان هذا لم يخف عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حجة إذ ليس القمر في حدّ واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ذلك تقدير العزيز العليم ، وآية القمر كانت ليلاً والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب وقطع التصرف ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واهتبل به ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر وكثيراً ما يحدّث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم وطوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ولا علم عند أحد منها »[1].

وقال الإمام العيني رحمه الله تعالى في عمدة القارىء شرح صحيح البخاري « ولقد زعم بعض الفلاسفة بزعمهم الفاسد أن الفلكيات لا تقبل الخرق والإلتئام ونحن نقول القمر مخلوق من مخلوقات الله تعالى يفعل فيه ما يشـاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره »[2].

وذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى « أنه قد ذكر غير واحد من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلاً بالهند مكتوباً عليه أنه بني في الليلة التي انشق القمر فيها »[3].

ويؤيد هذا ما نقله السيد رشيد رضا نفسه : ـ « على أن الحافظ المزّي نقل عن شيخ الإسلام ابن تيميه أن بعض المسافرين ذكر أنه رأى في بلاد الهند بناءاً قديماً مكتوباً عليه أنه بني ليلة انشق القمر » ثم قال السيد رشيد « وأذكر أنني

---

(١) الشفا : للقاضي عياض جـ ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) عمدة القارى شرح صحيح البخاري : للإمام العيني جـ ١٧ ص ١٠ .

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير جـ ٦ ص ٧٧ .

رأيت في بعض الكتب أو الصحف أن هذا رؤي في بلاد الصين »[1].

ثم يرفض السيد رشيد هذا الخبر بأمر عجيب حيث يقول : ـ « لو صح لوقف عليه المسلمون الفاتحون للهند وجعلوا لذلك البناء شأناً يشتهر به ويزار »[1] وهو يعلم ان الفاتحين كانوا يبادرون إلى هدم الأوثان والأصنام والمزارات فكيف يوجب عليهم أن يجعلوا مثل هذا مزارا ؟!

وأما ما أورده بعضهم من أن أحداً من رواة أحاديث انشقاق القمر لم ير ذلك وإنما هو من مراسيل الصحابة واستثنى من ذلك عبد الله بن مسعود فيرد عليه بقول ابن حجر رحمه الله تعالى في حديث أنس رضي الله عنه « هذا من مراسيل الصحابة لأن أنساً لم يدرك هذه القصة وقد جاءت هذه القصة من حديث ابن عباس وهو أيضاً ممن لم يشاهدها ومن حديث ابن مسعود وجبير بن مطعم وحذيفة وهؤلاء شاهدوها »[2].

ولنختم حديثنا هنا بما قاله الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في هذه المسألة حيث قال : ـ « والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه انشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة . وإن نظرنا إلى اقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ ، واستبعاد من استبعد »[3].

ولنختم الحديث عن المعجزات عموما بذلك التساؤ ل الذي حكاه الشيخ أحمد المراغي ثم أجاب عنه« ويتساءل كثيرمن الناس هل المعجزات ضرورية ؟

الجواب أنها ضرورية لإيمان الإنسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبداً . وهذا ما يسمى بـ (الطبيعة) وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفي للآن شيء مدهش حتى أن الإنسان قد ينسى واضع هذه القوانين ويقول : ـ ما الحاجة بي لأن أقول هناك صانعاً أزلياً ما دامت

---

(١) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٢ .

(٢) فتح الباري : ابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٨٢

(٣) فتح القدير : للإمام الشوكاني جـ ٥ ص ١٢٠ .

هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟

وهنا كانت حكمة الله في أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود »[1] .

وإن كنا لا نوافق الشيخ المراغي على ما ادعاه من كون المعجزات أمراً ضرورياً لإيمان الإنسان بقدرة الله وأن ثبات هذه القوانين قد ينسي واضع هذه القوانين .

بل إن سير الكون على نظام دقيق وثابت مما يدل قطعاً على أن هناك مدبراً ومسيراً وقادراً على ضبطه وإدارته ، كما لو رأيت ـ ولله المثل الأعلى ـ مركبة تسير على الأرض مستقيمة على خط سيرها لا تنحرف عنه يمنة ولا يسرة لجزمت بأن فيها قائداً ماهراً ، يتقن قيادتها ، كما أنك لو رأيتها تذهب يمنة ويسرة لجزمت بأن ليس فيها قائداً أو أن فيها قائد لا حول له ولا قوة في إدارتها وحينئذ لا يسمى قائد ، وإن رأيت المركبة تسير على خط سيرها لكنها تخرج بين حين وآخر عنه يميناً أو شمالا لجزمت أن قائدها غير ماهر أو أن النوم قد أثقل أجفانه ، أما مهارة السائق وبراعته فتظهر حينما يخبر عن عزمه على القيام ببعض الحركات العجيبة بمركبته باختياره وإرادته ثم عودتها بعد ذلك إلى نظامها ، إذن فليس كل خروج عن النظام يدل على مهارة واتقان وقدرة .

فلا دليل فيما يذكره الشيخ المراغي على أن مجيء المعجزات تذكير للإنسان بأن لا ينسى واضع هذه القوانين الدقيقة للكون ، وأن لا يعتقد أن الطبيعة هي التي تسيره .

أما المعجزة فإنما تدل بعد مجيئها وعجز البشر عن الإتيان بمثلها على أن مصدرها ليس هو ذلك الإنسان وإنما الموجد لها هو الله سبحانه وتعالى . أظهرها على يد نبيه علامة لكونه مرسلاً منه سبحانه وتعالى ، وإذا ما ظهرت العلامة لإنسان على كونه مرسلاً من الله وجب على الناس اتباعه فيما يقول وهم حينما

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٣ ص ١٦٣ .

يتبعونه على يقين أنهم لا يتبعونه لذاته وإنما يتبعونه لأنه مبلغ عن الله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾(١) .

هذا مما تتميز به النبوة عن العبقرية التي اعتبرها أحد تلاميذ المدرسة كسباً عظيماً للقائلين بنبوته ؟ !

العبقرية تفوق عقلي نادر فطر عليه الإنسان ، أما النبوة فهي معتمدة على الوحي الإلهي الذي لا يستطيعه الإنسان بدون قيام علاقة خاصة بين النبي والإله ، وتتأيد النبوة بالمعجزات الإلهية المقترنة بعنصر التحدي الخارق الخالد لكل القوى الموجودة من الجن والإنس للإتيان بالمثل(٢).

أما العبقرية فلا تحتاج في ثبوتها إلى هذا الأمر الخارق ، وبهذا يتضح لنا السبب في اقتناع أولئك القوم بالعبقرية وصفاً لنبينا ﷺ واعتبارها كسباً عظيماً ؟ ! لأن من ادعى النبوة إذا تجرد من المعجزات ومن علامات النبوة فإن وصفه بالعبقرية ولا شك يعدّ كسباً عظيماً .

وما منعهم من إثبات المعجزات له ﷺ إلا زعمهم أن العقل الحر لا يقبل الإذعان لأمر خارق للعادة يجبره على الإيمان فلا بد لإيمان العقل من اقتناع بدون تخويف .

وفاتهم أن العقل الحر غير المقيد بسنة الكون لا يمنع من وجود المعجزات لأن قدرة الله تعالى التي وسعت خلق السموات والأرض ممكنة للنبي ﷺ في صدور تصرف منه بإذن الله خارق للعادة ، فالله تعالى قادر على أن يسلب الأشياء ما جرت سنته فيها خرقاً منه للعادة ، لا خرقاً للعقل حتى يكون محالاً أو يتصور أنه محال ، فكما يكون قتل القتيل بإذن الله يكون إحياء الموتى على يد نبي بإذنه تعالى ، وإذا كان الله هو الذي أودع في النار خاصية الإحراق فهو قادر على

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٣١ .

(٢) مجلة الوعي الإسلامي ، ذو القعده ١٣٩٨ هـ مقال « معجزات الأنبياء » للدكتور وهبه الزحيلي .

أن يسلب منها إذا شاء تلك الخاصية[1]. وإذا كانت سنته قد جرت على أن تخرج الشمس من المشرق فإنه قادر على إخراجها من المغرب لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أوجد تلك الخصائص لهذه الأشياء ولا مانع له سبحانه من سلبها ـ عقلاً ـ وإنما المخالفة للعادة التي جرت وألفها الناس ، لتكون برهاناً للنبي على نبوته .

وكأني ألمح صلة بين المعجزة والنبوة صلة تشابه ، كأني بالمعجزة تنبيه من الله سبحانه وتعالى للكفار بأن الله سبحانه وتعالى كما أنزل هذه المعجزة المخالفة للعادة والملغية لحكمها كما أنزل هذه أرسل هذا النبي ليغير عادات قومه الباطلة التي ألفوا عليها آباءهم ويخالف هذه العادة إلى الحق والصراط المستقيم وكل هذا هنا وهناك هو بأمر الله ومشيئته .

وقد أثبت القرآن الكريم لنبينا ﷺ عدداً من تلك المعجزات نورد بعضها رداً على أولئك الذين زعموا أن لو كان له صلى الله عليه وسلم معجزة غير القرآن لحكاها القرآن ، بعد ردهم لما في السنة ، فمن ذلك

قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2] وفيها بيان لإرسال الله الملائكة مدداً للمسلمين في بدر الكبرى .

وقال سبحانه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾[3] الآيات .

وقال سبحانه ﴿ الٓمٓ ، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[4] وهي إخبار بالغيب تحقق في تلك المدة

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي ، ذو القعدة ١٣٩٨ هـ مقال « معجزات الأنبياء » . للدكتور وهبه الزحيلي .

(٢) سورة الأنفال : الآية : ٩ .

(٣) سورة الإسراء : الآية الأولى .

(٤) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٤ .

المذكورة في الآية .

والآيات غير هذا كثيرة ومنها ما فصلناه آنفاً من مسألة انشقاق القمر ، وبهذا ثبت بطلان زعم أولئك من عدم مجيئه ﷺ بمعجزة غير القرآن وردهم لما ورد من الأحاديث في إثبات المعجزات له ﷺ أو تأويلهم لها بما لا تكون به معجزة وهو أمر يؤدي إلى التشكيك بالسنة النبوية الشريفة وعدم اعتمادها دليلاً شرعياً وهو أمر خطير يقصد به هدم الإسلام من أساسه ، وللمدرسة العقلية الحديثة باع طويل في رد كثير من الحديث النبوي الصحيح من غير تحرج لرواية الشيخين له أو عدمها وهم بهذا معول من معاول أعداء الإسلام شاءوا ذلك أم أبوا أدركوا ذلك أم لم يدركوا .

إن كنت تدري فتلك مصيبة وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

وبهذا ثبت جواز وقوع المعجزات عقلاً وكونها حجة قاطعة للأنبياء على أقوامهم ، وثبت أيضاً معجزات أخرى له عليه الصلاة والسلام غير القرآن الكريم ، واشتمال القرآن نفسه على ذكر بعضها ومجيء السنة النبوية الشريفة الصادقة بأخبار معجزات أخرى . والله الموفق والهادي ، ، .

خامساً: أصل الإنسان

أصل الإنسان لا شك أمر غيبي لا سبيل إلى القطع في علمه ومعرفته إلا عن طريق الوحي ولم يبق من الوحي المجزوم بصحته إلا القرآن الكريم وإلا ما صح عنه ﷺ ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات بينات في ذلك فإليها المرجع .

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ، وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾[1].

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ

---

(١) سورة الحجر الآيات : ٢٦ ـ ٣١ .

أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1] .

وقال سبحانه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾[2] .

وقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[4] .

وكثيرة هي الآيات الدالة على خلق آدم أبي البشر من تراب ثم تناسل ذريته من بعد من ماء مهين . بل لا زال ذلكم النسل يخلقه الله من تراب !! أنظر إن شئت إلى طعام الإنسان تجده لا يعدو بحال من الأحوال أن يكون حيوانياً أو نباتياً ثم انظر إلى طعام ذلكم الحيوان الذي يأكله الإنسان تجده إما نباتا وإما حيواناً آخر يعيش على النبات .

فمصدر الأطعمة إذن التي يأكلها الإنسان والحيوان لا تعدو النبات ، ثم انظر إلى ما يعيش عليه ذلكم النبات ، ومن أي شيء يخرج إنه لا ينبت إلا على التربة .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ ـ ١٦ .
(٢) سورة السجده الآيتين : ٧ و ٨ .
(٣) سورة النساء : من الآية الأولى .
(٤) سورة آل عمران الآية : ٥٩ .

أرأيتم كيف يعيش الإنسان ، لقد خلقه الله من تراب ، وعاش على التراب ويعود إلى التراب .

خلق الله آدم عليه السلام أبا البشر من تراب خلقاً متكاملاً يؤهله لأن يكون خليفة في الأرض بإذن الله ، وألقى في ذهنه من العلم ما خفي على الملائكة عليهم السلام لتكون له بهذا مزية عليهم ليسجدوا له بإذن الله وأمره ثم ليسكنه بعد هذا في الجنة هو وزوجه لتقع منهما المعصية فينزلهما الله إلى الأرض ، أرض الإبتلاء والإمتحان ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١) .

ولم تزل البشرية كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ذلكم المعتقد في خلق الإنسان هو الذي اعتقده السلف وقامت أركانه على قواعد القرآن الكريم وآياته .

إلى أن ظهرت على مسرح النظريات العلمية نظرية حسبها أربابها نظرية علمية وحسبها آخرون حقيقة علمية !! فذهبوا في الإستدلال لها كل مذهب ، وحاربوا الدين وأهله الذين أنكروا عليهم ، وزعموا أنها الحق الذي لا يقبل المراء واليقين الذي لا يحتمل الشك .

قالوا أن الأرض كانت قطعة من الشمس كان ذلك قبل أكثر من ٥٠٠٠ مليون سنة ثم انفصلت عنها فكانت كرة نارية ملتهبة تدور في الفضاء ويغلفها غازات ساخنة ولم تكن في هذه الحالة صالحة لأي نوع من الحياة ثم أخذت هذه الكرة تبرد تدريجياً وتنصهر بعد انفصالها على هيئة غاز ، ونتج عن هذا تجمد سطحها الخارجي ، وما لبث أن أخذ يزداد في السمك فتكونت التضاريس المعروفة وفي أثناء ذلك أخذت

---

(١) سورة البقرة من الآيتين : ٣٨ : ٣٩ .

الغازات والأبخرة التي كانت تتصاعد من الأرض في الهطول مرة ثانية وذلك في صورة بخار ماء أو أمطار غزيرة . . . كما انفجر من باطن الأرض ينابيع عظيمة من المياه كونت البحار والمحيطات الأولى . .[١] .

ثم بدأت الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات على هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم حية قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير عوامل طبيعية ، حتى وصلت إلى هذه التنوعات التي نراها وعلى رأسها الإنسان[٢] .

ظهرت هذه النظرية سنة ١٨٥٩م حاملة اسم مؤسسها شارل داروين وعرفت بـ « الدارونية » وتقوم تلك النظرية على أربعة نواميس لتعليل وجود الأنواع الحية على سطح الأرض سواء أكانت نباتية أم حيوانية ، من أول الأحياء الجرثومية ذات الخلية الواحدة إلى الإنسان نفسه .

أولها : ـ ناموس الصراع من أجل البقاء .

ويريد بذلك أن بين الأحياء من نوع واحد أو أنواع متعددة ـ تنازع مستمر على وسائل الحياة من أجل البقاء يهلك فيه الضعفاء ويبقى الأقوياء .

ثانيها : ـ ناموس الإنتخاب الطبيعي .

وهذا النامـوس هو ما يؤدي إليه الناموس الأول ذلكم أن (الطبيعة) تعمل على استصفاء وانتخاب الأقوى من كل نوع كأنها تنتخب من كائناتها ما كان أصبر على الكفاح وأجمع لوسائل البقاء فتبقيه وتفني الأضعف وتبيده .

---

(١) نظرية التطور بين العلم والدين : علي احمد الشحات ص : ١٠١ .
(٢) شبهات وردود حول العقيدة الربانية وأصل الإنسان : عبد الله علوان ص ٨٠

ثالثها : ـ ناموس المطابقة : ـ

ويراد بهذا أن للبيئة وانقلاباتها ولنوع الأغذية وطرق الوصول إليها وإهمال العضو أو استعماله دخل كبير في إيجاد الإختلاف بين أنواع الأحياء ذلكم أن استعمال عضو من الأعضاء أو الحاجة إليه يكون سبباً في وجوده وكذا إهمال عضو من الأعضاء بعدم استعماله يكون سبباً لانعدامه في أحفاد ذلك الحيوان .

فلم ينبت للضواري مخالب إلا حينما اضطرت للتغذي بلحم الحيوانات الحية واعتادت دس أصابعها في أجساد فرائسها لتمنعها من الإفلات ، والضرورة قضت أن تطول عنق الزرافة إلى هذا الحد لأنها اضطرت إلى تناول أغذيتها من أوراق الشجر العالية (!!) .

رابعها : ناموس الوارثة :

ويراد به أن تلك الأعضاء الجديدة التي يكتسبها الأفراد تحت تأثير الصراع في الحياة يرثها كل جيل من سلفه فتبقى ثابتة فيه مع قبولها للإرتقاء ومع مرّ الزمن يقوى هذا الإختلاف حتى تصبح تلك الطائفة مباينة لجميعها فتعتبر نوعاً مستقلاً عنها وعلى هذا النحو تكثرت تلك الأنواع وباين بعضها بعضاً حتى صعب على من يراها أن يحسبها كلها متولدة من نوع واحد لكثرة أوجه الخلاف بينها وبين أصولها في الشكل والحجم والغرائز .

فمن الذي يستطيع أن يتخيل أن الإنسان والقرد والبرغوث والفيـل والثعبان والطيور والسلاحف والميكروبات كلها نشأت خلية أو خلايا معدودة وإنما نوعها وعدد أشكالها تلك النواميس الأربعة .

تلكم خلاصة نظرية داروين في أصل الموجودات كلها والإنسان

نوع منها . ويجب أن نقرن مع ذكرها عدم اعتبار صاحبها لها أنها حقيقة علمية وإنما اعتبرها دوائر واسعة تحتمل هذا وتحتَمل سواه حيث يقول : ـ « اسمح لي أن أضيف إلى هذا بأني لست من قلة العقل بحيث أتصور بأن نجاحي يتعدى رسم دوائر واسعة لبيان أصل الأنواع »[١].

وفي نفس العام الذي توفي فيه داروين كان السيد جمال الدين الأفغاني في حيدر آباد في الهند يخط رسالته في الرد على الدهريين وأبطل في تلك الرسالة مذهب داروين فكتب يقول تحت عنوان « قول داروين أن الإنسان كان قرداً»وعلى زعم «داروين»هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك . فإن سئل داروين عن الأشجار القائمة على غاباتْ الهند والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظناً وأصولها تضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيته وشكل أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه . .

وإن قيل له : هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسين مع تشاركها في المأكل والمشرب وتسابقها في ميدان واحد نرى فيها اختلافاً نوعياً وتبايناً بعيداً في الألوان والأشكال والأعمال فما السبب في هذا التباين والتفاوت ؟ لا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر »[٢].

ثم قال بعد هذا « وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهل الأوهام ومهامه الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان وكأن ما أخذ به من

---

(١) على أطلال المذهب المادي : محمد فريد وجدي ص ١٠٢ .

(٢) الحصر : العي والعجز عن الإجابة .

الشبه الواهية ألهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة ، وحسرات العماية وإنا نورد شيئاً مما تمسك به . . . ومن واهياته ما كان يرويه « داروين» من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم فلما واظبوا على عملهم هذا قروناً صارت الكلاب تولد بلا أذناب كأنه يقول : حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته . . وهل صُمّت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفاً من السنين ولا يولد مولود حتى يختن[1] وإلى الآن لم يولد واحداً منهم مختوناً إلا لإعجاز »[2].

ويذكر الشيخ محمود شلتوت بعض الآيات من القرآن الكريم ثم يقول بعدها « فهذا ونحوه خبر الله الصادق الذي قامت على صدقه المعجزات ، يحدث بأن الإنسان خلق نوعاً مستقلاً ليس متطوراً عن نوع آخر من أنواع الحيوانات أياً كان ذلك النوع وكيفما كان التشابه بينه وبين الإنسان في بعض الخصائص ، وبعض الأوضاع الجسمية ، فلو كان خلق الإنسان بطريق الإرتقاء عن نوع آخر لكان الحديث الذي ساقه القرآن عن خلقه حديثاً لا يطابق الحقيقة ولا يتفق والواقع ، وهو حديث صريح لا يحتمل غير مدلوله المفهوم من عباراته وألفاظه . . والمسألة بعد مسألة غيبية لا يتناولها الحس ، ولا محل فيها للتجربة ، وليس ثمة مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها »[3].

وممن ردّ على تلك النظرية أيضاً من اتباع المدرسة العقلية الأستاذ محمد فريد وجدي فبدأ أول ما بدأ ببيان أصل المذهب ونفى عنه ما قد يفهم منه مما ليس من أصله حيث يقول « هذا المذهب مؤداه أن أصل

---

(١) ويضاف إلى هذا أيضا بقية السنن الإسلامية الأخرى كتقليم الأظافر وحلق العانه ونتف الإبط ونحوها فإن تلكم سنة اسلامية منذ ١٤ قرنا ولم يوجد بعد هذا وأثناءه إنسان لم تنبت أظفاره أو شعر في تلك الأماكن .

(٢) رسالة الرد على الدهريين : جمال الدين الأفغاني ص ٤٢ ـ ٤٥ .

(٣) الفتاوى : محمود شلتوت ص ٤٠٣ .

الأنواع النباتية والحيوانية التي تغص بها هذه الأرض جرثومة واحدة أو جراثيم قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير فواعل مختلفة طبيعية محصنة حتى وصلت إلى ما تراه من التنوعات التي على رأسها الإنسان . فهو لا يقول أن أصل الإنسان القرد الموجود الآن ولكن حيوان بين القرد والإنسان لم يعثر على هيكله في الأحافير للآن ، أما القرد فإن داروين يعتبره نهاية ترق لفرع من أفرع الشجرة الحيوانية »[١] ويقول « من العجب أن مذهباً كمذهب لامارك أو داروين يكون فيه من وجوه النقص ما يجعل صاحبه نفسه يزري به ، ينتشر هذا الإنتشار الكبير ويجد له أنصاراً متحمسين من درجة متحمسي الأديان في العصور البعيدة »[٢].

ثم ينقل الأستاذ وجدي نقولاً عديدة لعلماء غربيين في الرد على تلك النظرية فمن ذلك رأي فون باير في كتابه المسمى المذهب الداروني « إن الرأي القائل أن النوع الإنساني متولد من القردة السيميانية هو بلا شك أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الإنسان وجدير بأن ينقل إلى أخلاقنا جميع الحماقات الإنسانية مطبوعة بطابع جديد يستحيل أن يقوم دليل على هذا الرأي المضحك من جهة المكتشفات الحفرية » وقال في ختام كتابه المسمى خطابات ومباحث علمية « أنا لا أتمالك نفسي من التصريح لرجال العلم بأن فرضاً من الفروض لا تكون له قيمة ولا سبيل في البقاء إلا إذا عاملناه معاملتنا لسائر الفروض . أي نجعله كنقطة يتوجه منها إلى مباحث خاصة ، ولكن من الشؤم والإنحطاط أن نعتبر فرضاً من الفروض آخر كلمة للعلم وهو مجرد كل التجرد عن الوسائل التي يثبت بها نفسه ، إن علمنا مؤلف من قطع وأجزاء فتكميل هذه القطع بواسطة الإفتراضات يمكن أن يؤدي إلى ارتياح شخصي ولكن لا يكون هذا من

---

(١) على أطلال المذهب المادي : محمد فريد وجدي جـ ١ ص ٨٨ .
(٢) على أطلال المذهب المادي : محمد فريد وجدي جـ ١ ص ١٠٢ .

العلم شيء »[1] .

ثم أورد الأستاذ وجدي على هذه النظرية عدداً من الإعتراضات وقسمها إلى قسمين : ـ إعتراضات قديمة وإعتراضات جديدة ليس بإمكاننا ذكرها هنا .

وندرك من هذا موقف الأستاذ وجدي من تلك النظرية ، ولا تحسبن أنه حينما ينكر على داروين نظريته هذه أنه يريد إقرار ما جاء به القرآن الكريم من خلق آدم عليه السلام خلقاً مستقلاً من طور العدم إلى طور الإنسانية الكاملة . . لا ؟! لا يقصد الاستاذ وجدي هذا بل يصف من يقول بهذا القول بالشذوذ وينكر أن يكون هناك عالم « يعتد به » يقول بهذا وحتى لا نجني على الرجل نسوق نصوصه : ـ

« ونحن لا نريد من قولنا أن أهل العلم تبينوا وهن أصول مذهب داروين أنهم اصبحوا يقولون بالخلق المستقل فهذا ما لا يقول به إلا الشاذ من أهل العلم اليوم ولكنهم أصبحوا يرون لتسلسل الأحياء بعضها من بعض نواميس أخرى غير نواميس دارون »[2] ويقول « مع عدم وجود عالم يعتد به يقول بالخلق المستقل الآن فإن جمهور الباحثين اليوم أدركوا أن كل النظريات التي افترضت في تفسير تسلسل الكائنات الحية بعضها من بعض لا تمثل الحقيقة ولا تروج إلا في أذهان الذين يقتنعون بالألفاظ الضخمة ، وهذا التوقف من أهل العلم اليوم أثر من آثار تخلص العقل من سلطان الخداع العلمي السابق وهو الخداع الذي أوهمه بأنه أدرك سر الوجود ووقف على جميع مساتيره بفضل الفلسفة المادية والعلم الطبيعي »[3] .

---

(١) على أطلال المذهب المادي : محمد فريد وجدي جـ ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٠ .

(٣) على أطلال المذهب المادي : محمد فريد وجدي جـ ١ ص ٩٢ .

إذن فالأستاذ وجدي لا يخالف دارون من حيث المبدأ وإنما المخالفة بكونه يرى لتسلسل الأحياء بضعها من بعض نواميس أخرى غير نواميس دارون كما أصبح يراه أهل العلم ؟ !

ونحن لا تهمنا هذه النواميس التي يفضلها الأستاذ وجدي على نواميس دارون وإنما الذي يهمنا في الأمر أنه ينكر أن يكون الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ويصف من يعتقد هذا بالشذوذ وبأنه « لا يعتد به » وهذه مخالفة صريحة لنصوص القرآن الكريم .

ولا تسيئن الظن برجال هذه المدرسة ؟ ! فتعتقد أن هذا هو الفارس الوحيد في ميدان الشذوذ ، فقد سبقه وزاد عليه الفارس الذي لا يشق له غبار في هذا المجال أعني الشيخ محمد عبده ومن خلفه تلاميذه السيد رشيد وأحمد المراغي وغيرهم .

ذلكم أن الشيخ محمد عبده لم يرفض هذه النظرية كما أنه لم يصرح بقبولها ، ولكنه فسر الآيات القرآنية بما يفسح المجال لمن يريد أن يقول بها وأنكر معارضة القرآن لذلك ؟ !

ليس هذا تجنياً منا على الشيخ عبده بل هو مع حسن الظن أيضاً ، حينما نعلم أن الشيخ وتلميذه رشيد يساوون بين الإعتقاد بأن أبا البشر آدم عليه السلام والإعتقاد بأنه القرد أو غير ذلك ما دامت الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر ؟ !

وحتى ندع القارىء يسبقنا إلى الحكم عليهم نكتفي هنا بإيراد نصوص لهم . فقد قال الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾[1] « ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر فمن المفسرين من يقول أن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش فإذا صح هنا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان ، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان ، وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده ، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم ، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أباً يحملون النفس على ما يعتقدون . . . والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ بالتنكير وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول وبث منهما جميع الرجال والنساء ، وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما ، وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلاً هو مأخوذ عن العبرانيين فإنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخاً متصلاً بآدم وحددوا له زمناً قريباً . وأهل الصين ينسبون البشر إلى أب آخر ويذهبون بتاريخه إلى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون ، والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه إلى موسى عليه السلام فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وإنه بقي كما جاء به موسى »[2].

وبهذا أكد الشيخ أن آدم ليس أبو البشر كلهم وإنما قلت أكد لأنه : ـ

---

(١) سورة النساء : من الآية الأولى .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

١ ـ استدل بأن الآية لا تدل (بالنص ولا بالظاهر) على ذلك .

٢ ـ وأنه لو كان آدم أبا البشر كلهم لما قال ﴿ رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ بل قال جميع الرجال و النساء .

٣ ـ وإن من الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما .

٤ ـ إن العلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين باعتقادهم أن آدم أبو البشر .

وبهذا أضاء الشيخ عبده النور الأخضر لمن يريد أن يقول بنظرية داروين بأن يجعل تطبيقها على آباء البشر الآخرين عدا آدم عليه السلام .

فإن ذهبت تعترض على هذا وتقول : ـ ورد في القرآن الكريم الخطاب ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾[1] وورد في قوله ﷺ « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب »[2] وما رواه أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »[3] .

إذا ما قلت هذا سهل عليه تأويل ذلك وكيف لا يسهل هذا على من يرد أحاديث البخاري ومسلم ويرد الأحاديث المتواترة كما مر بنا ، يقول الشيخ عبده في تأويل ذلك « وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله « يا بني آدم » لا ينافي هذا ولا يعد نصاً قاطعاً في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الارض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها وسفكوا الدماء ، وأقول زيادة في الإيضاح إذا كان

---

(١) انظر مثلاً الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٧٢ من سورة آل عمران و٧٠ من الإسراء و٦٠ من يس .

(٢) رواه البزار عن حذيفة بن اليمان .

(٣) رواه أحمد في مسنده جـ ٥ ص ٤١١ .

جماهير المفسرين فسروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم (!!) وهي أن آدم أبو البشر »[1] .

ويؤيد هذا الكلام تلميذه السيد رشيد بنوع من الأخبار لو لم يكن فيها تأييد لما ذهب إليه لاعتبرها من الإسرائيليات التي أدخلها كعب الأحبار ووهب ابن منبه وأمثالهما ولشنّ عليهما هجوماً لا ينقطع ونعى على الإسلام أمثالهما ولكن والحال أن هذه الأخبار في مقام تأييده فلا بأس من الإستدلال بها والدفاع عن المعتقدين لها قال « وقد نقل عن الإمامية والصوفية أنه كان قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب وعندنا آدمون كثيرون قال في روح المعاني : ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبراً طويلاً نقل فيه أن الله تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة وأن الدنيا بقيت خراباً بعدهم خمسين ألف سنة ثم عمرت خمسين ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام ، وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضاً أنه قال لعلك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم بل والله. لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين » ثم قال « ثم نقل عن زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم وهذا من جرأته وجرأة أمثاله الذين يتهجمون على تكفير المسلمين لأوهى الشبهات »[2] .

ثم يجمل لنا السيد رشيد رأي أستاذه « للأستاذ الإمام في هذا المقام رأيان : ـ

(أحدهما) أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا ، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية والتاريخية له ومن تنكير ما بثه منها ومن زوجها ، على أنه يمكن الجواب عن هذا الأخير بأن التنكير لمن ولد منهما مباشرة كأنه يقول

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

بث منهما كثيراً من الرجال والنساء وبث من هؤلاء سائر الناس وعن الأول بأنه لا يزال غير قطعي .

(وثانيهما) أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادي البشرة المنتصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الإنسان ، وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين ومن اقتنع بقولهم من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف .

ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هذا المقام ولكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنه لا يقول أن القرآن ينفي هذا الإعتقاد وإنما يقول أنه لا يثبته إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل وقد صرحنا بهذا لأن بعض الناس كان فهم من درسه أنه يقول أن القرآن ينفي هذا الإعتقاد أي اعتقاد أن آدم أبو البشر كلهم وهو لم يقل هذا تصريحاً ولا تلويحاً وإنما بين أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات من أن للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أباً لهم كلهم في جميع الارض قديماً وحديثاً كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلماً مؤمناً بالقرآن »[1] .

ثم يقول السيد رشيد « وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون إلى أن المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من عدة أصول ؟ هل يقولون إذا أراد أن يكون مسلماً وتعذر عليه ترك يقينه في المسألة أنه لا يصح إيمانه ولا يقبل إسلامه وإن أيقن بأن القرآن كلام الله وأنه لا نص فيه يعارض يقينه »[2] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٦ .
(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٢٧ .

ويقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي : ـ وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية بل أخذوه تسليماً وهو أن آدم أبو البشر » [1] وقال : ـ « وقال بعض العلماء أبهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها ، فلندعها على إبهامها ، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أبا كان ذلك غير مخالف لكتابنا ، كما هو مخالف للتوراة التي نصت صراحة على أن آدم أبو البشر فحمل ذلك بعض الناس على الطعن في كونها من عند الله ووحيه »[1] .

وكان الأولى بالشيخ المراغي أن يدعو إلى إنكار هذه الفكرة والرد عليها وبيان مخالفتها لنصوص القرآن حتى إذا ما ثبت للناس بعد هذا بطلان هذه النظرية وقف المسلم شامخاً معتزاً بدينه وكأنه يقول أرأيتم الدين الحق يقول كلمته مخالفاً نظرية في وقت دولتها وعصر سطوتها حتى حسبها بعض الناس حقيقة علمية ولكن الإسلام يقول كلمته ولا يقف بعض بنانه حائراً بين تأييدها أو إنكارها جاهلاً الحق فيها أو يقف حائراً بين هذه النظرية وحقيقة دينه الناصعة فيها ، بل يقول حقائق دينه ولو خالفت ما توهمه المتوهمون وزعمه الزاعمون .

ويفسر الشيخ رشيد رضا المراد بالنفس بقوله « هذا وأن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات ـ أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ولا فرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما دل عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين ، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والصوفية ، أو بدئت بعدة أصول انبث منها عدة اصناف كما عليه بعض الباحثين ـ ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٤ ص ١٧٥ .

بين الناس في هذا العصر »[1] ثم قال « على كل حال وكل قول يصح أن جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناساً وهي التي يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة لهم فتراهم على اختلافهم في أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف أنهم إخوتنا في الإنسانية فيعدون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الإلفة والتعاطف بين البشر سواء اعتقدوا أن أباهم آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك »[1] .

لا نريد الرد عليه هنا بإثبات ان مناط الوحدة والألفة في الإسلام هو الدين لا الإنسانية ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2] الآية ، ولا نريد أيضاً أن نرد على ما قاله فيما نقلناه من نصوص إذ يكفي في هذا ما ذكرناه من آيات كريمات في بيان أصل خلق الإنسان من لدن آدم عليه السلام .

وبهذا ـ كما قلنا آنفاً ـ أعطى الشيخ محمد عبده والسيد رشيد الضوء الأخضر لمن يريد أن يدخل نظرية داروين وغيرها في أذهان المسلمين وبينا أن القرآن الكريم لا يعارض هذا ولا يخالفه بل ولم يكتفيا بهذا فأرادا أن لا يحرما نفسيهما من المشاركة في إدخال هذه النظرية فأثبتا نظرية التطور البشري وأنه نشأ أول ما نشأ ساذجاً سذاجة لا يبلغ بها تناول الشؤون الرفيعة والمعاني العالية والمعارف السامية لا هم له إلا المحافظة على بنيته الجسمية وحاجته البدنية ولندع الحديث للشيخ عبده حيث يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[3]. الآية قال : ـ « ما جاءنا من

---

(1) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٢٧ .

(2) سورة المجادلة : من الآية ٢٢ .

(3) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

أنباء الأمم وما رأيناه من آثارهم ، وما عرفناه من حال بعضهم اليوم يشهد شهادة لا يرتاب فيها من أديت إليه أن العناية الإلهية صارت بالإنسان كما سارت به في أفراده ـ يخلق الله الفرد من البشر ضعيف القوة فاقد العلم لا يعرف شيئاً عن أمره كما جاء في التنزيل ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] . . . على هذه السنة قادت العناية الإلهية جماعة البشر . . . فكما ينشأ الفرد قاصراً في جميع قواه ضعيفاً في جميع اعضائه كذلك نشأت الجمعية البشرية على ضرب من السذاجة لا تبلغ بها إلى تناول الشؤون الرفيعة والمعاني العالية والمعارف السامية غير أن الذي يربي الفرد ويسوس قواه إلى أن يبلغ رشده هو الأبوان أو من يقوم مقامهما ، والذي يكفل الجمعية ويربي قواها ويشد بناها ـ إنما هو الكون (؟!) وما يمسها من حوادثه والحاجات ووقعها والضرورات ولذعها . وكما يؤدب الصبّي أبواه يؤدب الجماعة شدّة وقع الحوادث الكونية منها وهي في هذا الطور لا هم لها إلا المحافظة على بنيتها الجسمية وحاجتها البدنية وليس عدنها من الزمن ما تتفرغ فيه لأدنى من ذلك كما هو شأن الطفل في صباه »[2] .

ثم يمضي في بيان هذه المراحل ، ويقول في موضع آخر « جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشيء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول من المعاني ما لا يقرب من لمسه . . . فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان أو يرقى إليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير

---

(١) سورة النحل: الآية ٧٨.

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره ، فأخذتهم بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الإستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلي الغاية وإن لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم إلى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه »[1] .

وعلق السيد رشيد رضا على هذا بأنه « صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية وما يليها فهو صفة المسيحية »[1] .

ثم ذكر الشيخ عبده المرحلة التي انتقلت إليها البشرية بعد هذا إلى أن انتهى إلى مرحلة « كانت سن الإجتماع البشري قد بلغت بالإنسان أشده وأعدّته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الإسلام يخاطب العقل »[2] ويقول « ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد »[3] ويقول الأستاذ وجدي « وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الإنساني رشده فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة »[4] .

ولا ننسى أيضاً أن من تأثر المدرسة العقلية الحديثة بهذه النظرية ما ورد من تفاسيرهم للآيات التي وصفت قيام الساعة وذكرناها في مبحث البعث وإمارات الساعة، من نحو قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[5] الآيات وما فسروها به من تفسير هو شبيه بتفسير هذه النظرية للحياة الأولى على الأرض .

يقول الأستاذ وجدي « إن روح الوجود الذي صور الكائنات كلها على أي أساليب الإيجاد شاء ـ سواء أخلق كلاً منها خلقاً مستقلاً أم اشتق بعضها

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٦٦ ـ ١٦٩ .
(٢) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٦٦ ـ ١٦٩ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣١٥ .
(٤) المدنية والإسلام : محمد فريد وجدي ص ٧١ .
(٥) سورة الإنشقاق الآية الأولى .

من بعض على قاعدة التحول التدريجي ـ لم يقطع إمداده لها طرفة عين »[1] .

ولنكتف بهذا من بيان تأثر المدرسة العقلية الحديثة ابتداءا من شيخها محمد عبده إلى تلاميذه بهذه النظرية الباطلة .

ثم إن هذه النظرية ليست إلا من قبيل الفرضيات التي لم يقم عليها دليل علمي ولا برهان عقلي بل أصبحت في نظر كثير من العلماء المختصين من النظريات الباطلة التي عفى عليها الزمن ووضعها التاريخ في متاحفه وزواياه[2] نقول هذا لأولئك الذين لا يكفيهم ما ذكرناه من آيات تثبت خلق الإنسان من طين خلقاً متكاملاً مستقلاً .

ولنذكر هنا ما غفل عنه أرباب المدرسة العقلية الحديثة وغفل عنه أيضاً كثير من المتأثرين بهذه النظرية والمخدوعون بها .

ليعلم أولئك القوم أن الذي يقف خلف تلك النظرية الباطلة التي تناقض الأديان السماوية إنما هي الصهيونية العالمية التي تخطط من خلف الستار للقضاء على الأديان لا نقول هذا اعتباطاً أو تخرصاً بل نقوله مستندين إلى ما حوته بروتوكولات حكماء صهيون نفسها حيث جاء في البروتوكول الثاني : ـ

« لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد »[3] .

إذن فليست تلك النظرية ووقوف الصهيونية العالمية خلفها مع ظهور

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح : محمد فريد وجدي ص ١١ .

(٢) شبهات وردود : عبد الله علوان ص : ٩٩ .

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

بطلانها ليست إلا ضربة من تلك الضربات التي توجهها الصهيونية إلى الأديان ـ ولأجل هذا كما يقول أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى ـ فإن أوروبا التي كانت إلى ذلك الحين إنما تسير إلحادها بدون أرجل ، هرولت إلى تلقي هذه الأرجل الخشبية بكل قبول ، ووضعتها تحت كل شعبة من علومها الطبيعية بل وفي فلسفتها وأخلاقها وعلومها للعمران مع أنه كان ولا يزال في هذا التفسير من الوجهة العلمية والعقلية اضطرابات كثيرة لا يمكن لعاقل أن يقول معها أن هذا التفسير وجيه أو هو من التفاسير الجديرة بالإعتبار »[1] .

ولست في حاجة بعد هذا إلى سوق النصوص الكثيرة للباحثين الغربيين في إبطال هذه النظرية . والله الموفق . . .

---

(١) مجلة الأزهر السنة ٤٨ الجزء ٩ ص ١٣٤٣ مقال نظرية داروين : للشيخ أبو الأعلى المودودي .

سادساً : الملائكة

أكد القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالملائكة المكرمين ، وأجمع علماء المسلمين إستناداً إلى هذا وإلى السنة النبوية الشريفة على كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان الإيمان لا يتم ولا يقوم إيمان المرء إلا به .

قال تعالى ﴿ وَمَـنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُون كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّين ﴾[3] .

ومن السنة ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . . إلى أن قال . . قال فأخبرني عن الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » الحديث رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وروى البخاري نحوه .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٧٧ .

ونصف الملائكة بما وصفهم الله سبحانه وتعالى به في محكم آياته لا نزيد على ذلك لأنه من أمر الغيب الذي لا يعلم إلا بدليل من الكتاب أو السنة ، فنكتفي بما ورد فيهما من صفاتهم ، وقد ورد في بيان صفاتهم في القرآن الكريم آيات كثيرة مجملها : ـ

١) العبودية لله عز وجل فليسوا أولاداً ولا أنداداً له سبحانه وتعالى ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة قال تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾[١] . وقال سبحانه ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّين أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[٢].

٢) الطاعة التامة لأوامر الله لهم والملازمة لعبادته والدأب على ذكره وتسبيحه وحمده قال تعالى : ـ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[٣] وقال سبحانه ﴿ وَالمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغفِرُونَ لِمَنْ فِي الأرضِ ﴾[٤] .

٣) إن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع وليس لنا أن نعلم شيئاً عن الصفات التفصيلية لهذه الأجنحة وكيفيتها إذ أنهم محجوبون عنا بارادة الله وحكمه ولم يفصل القرآن الخبر عن ذلك[٥] قال تعالى﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّموَاتِ والأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ ما يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾[٦] .

---

(١) سورة الانبياء الآية : ٢٦ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٨٠ .
(٣) سورة الأنبياء الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الشورى من الآية : ٥ .
(٥) كبرى اليقينيات الكونية : محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٩٤ .
(٦) سورة فاطر : الآية : الاولى

٤) إنهم قادرون بإذن الله على التشكل والظهور بمظهر البشر قال تعالى عن ضيف إبراهيم وهم ملائكة : ـ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾(١) وقال سبحانه عن مريم عليها السلام ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾(٢) والأحاديث التي تثبت أن النبي ﷺكان يرى جبريل عليه السلام على هيئة رجل ، كثيرة وإنه كان يتمثل على صورة دحية الكلبي .

وأما وظائفهم عليهم السلام فمتعددة ومتنوعة ورد القرآن الكريم بذكر كثير منها فمنهم الموكل بالوحي وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾(٣) وقال سبحانه ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾(٤) .

ومنهم الموكل بالقطر وتصاريفه وهو ميكائيل عليه السلام ومنهم الموكل بالصور وهو إسرافيل عليه السلام ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ . إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾(٥).

ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت وأعوانه وقد جاء في بعض الآثار تسميته عزرائيل ، قال الله تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾(٦) .

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٢٥ .

(٢) سورة مريم من الآية : ١٧

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٤) سورة النحل من الآية : ١٠٢ .

(٥) سورة الزمر الآية : ٦٨ .

(٦) سورة السجدةالآية : ١١ .

ومنهم الموكل بحفظ العبد في حله وارتحاله في يقظته ونومه وفي كل حالاته قال تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾(٢) .

ومنهم الموكل بكتابة أعمال بني آدم ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(٣) .

ومنهم خزنة الجنة ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾(٤) .

ومنهم المبشرون للمؤمنين عند وفياتهم وفي يوم القيامة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٥) وقال سبحانه ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٦) .

ومنهم خزنة جهنم ومقدمهم مالك عليه السلام ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾(٧) .

ومنهم حملة العرش ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾(٨) ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ

---

(١) سورة الرعد الآية : ١١ .
(٢) سورة الأنعام من الآية : ٦١ .
(٣) سورة الإنفطار الآيات : ١٠ و ١١ و ١٢ .
(٤) سورة الزمر الآية : ٧٣ .
(٥) سورة فصلت الآية ٣٠ .
(٦) سورة الأنبياء الآية : ١٠٣ .
(٧) سورة الزخرف من الآية : ٧٧ .
(٨) سورة غافر من الآية : ٧ .

فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[1] .

وغير ذلك من الوظائف[2] التي أعدهم الله لها ووكلهم بها لا نثبت منها شيئاً ولا نعلمه إلا من طريق الوحي . ذلكم مجمل إعتقاد السلف في الملائكة عليهم السلام ـ وهو مستمدٌ من الكتاب والسنة الصحيحة أما البحث عما وراء ذلك من ماهية أجسامهم أو كيفية أجنحتهم ونحو ذلك فهذا مما لا يجوز الخوض فيه لعدم الدليل . وقد وقع هذا الخوض المذموم الذي لا يستند إلى دليل بل يخالف الدليل ويعارضه من طائفة من الفلاسفة فزعموا أن الملائكة قوى معنوية وأن جبريل عليه السلام هو العقل الفعال[3] وهو ما يتخيل من نفس النبي ﷺ من الصور الخيالية ، وكلام الله يوجد في نفسه كما يوجد في نفس النائم[4] .

ويثبت الشيخ محمد عبده في تفسيره قولين للعلماء في الملائكة قال عن الأول منهما : ـ

« أما الملائكة فيقول السلف فيهم : أنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم فنفوض علمها إلى الله تعالى ، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك ولكننا نقول إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس ، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به » .

---

(1) سورة الحاقة من الآية : ١٧ .

(2) أنظر معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد : حافظ إبن أحمد الحكمي جـ ٢ ص ٧٨ـ٩١ .

(3) أنظر ما كتبناه عن العقل ومراتبه في الهامش في آخر « الوحي » .

(4) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية : عبد العزيز المحمد السلمان ص ٣٧ .

ثم قال معلقاً « وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن من وفقهم الله تعالى على هذا السر قليلون والدين إنما شرع للناس كافة ، فكان الصواب الإكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق ، ومن خصه الله تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء »[1]

وقد مال إلى هذا القول من تلاميذ المدرسة الشيخ عبد القادر المغربي حيث يقول في تفسيره « والملائكة من عالم الغيب الذي نؤمن به ، ولا نكلف أنفسنا عناء ما لم يكلفنا إياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير في حقائقه فإن هذا غير مستطاع لنا ما دمنا في هذه الدار الدنيا »[2] .

ومال إليه أيضاً الشيخ شلتوت حيث يقول : ـ « والمسلمون الذين يؤمنون بأن مصدر العقيدة في الشئون الغيبية هو القرآن وحده ـ وهو الحق الذي نؤمن به ـ يقفون في الإيمان بالملائكة عند الحد الذي أخبر به القرآن عنهم أخباراً لا يحتمل التأويل ، ولا يحملون أنفسهم شطط الإعتقاد بما وراء الخبر اليقيني لا من جهة مادتهم (كيفية خلقتهم) ولا من جهة تشخصهم أو رؤيتهم ، وهم ـ في معتقدهم ـ عالم غيبي لا يعرفه الإنسان بإدراكه البشري ، وإنما يعرفه عن طريق الخبر الصادق عن الله سبحانه ، وهو ما جاء في القرآن أنهم جند من جنود الله ، حجب حقيقتهم عن الإدراك البشري خاضعون لسلطان الألوهية العام ، الذي لم يشذ عن الخضوع له شيء في الطبيعة ، أو فيما وراءها ، وهم وسائل الصلة بين الله وخلقه »[3] .

أما الرأي الثاني في الملائكة فإن الشيخ محمد عبده يرويه ناقلاً أول الأمر ولكنه يؤيده ويحبذه ويدافع عنه لأن فيه تقريب للإيمان بالملائكة من

---

(1) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥٤ .
(2) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ص ٤٦ .
(3) الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ص ٣٠ .

عقول الماديين ، ثم يزعم أنه لا فرق بين هذا القول وقول السلف ؟! فالحقيقة واحدة وإنما الخلاف في الأسماء ، والعاقل لا تحجبه الأسماء عن المسميات قال عن هذا الرأي : « وذهب بعض المفسرين مذهباً آخراً في فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والإنسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة ، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره وإن انكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات »[1] ونقل الشيخ أحمد مصطفى المراغي هذا الكلام مؤيداً له[2] .

ثم لا يستبعد الشيخ عبده أن تكون الملائكة هي تلك النوازع التي نحس بها عندما نتردد بين فعل شيء أو تركه : ـ « يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر بأن في نفسه تنازعاً كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول : إفعل وآخر يقول : لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً ـ وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٢) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

حقيقتها ـ لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ما شاء من الأسماء فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع »[1] .

ويبرر السيد رشيد رضا قول أستاذه بـ « أن الإمام الغزالي سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال أنه سمي ملكاً فإنه بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ومهما إختلفت الحوادث دل ذلك على إختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الإستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواءً وخذلاناً ، فإن المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة » أ. هـ »[2] .

ثم يطبق الشيخ محمد عبده هذا المفهوم على قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[3] فيقول : ـ « فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به ، خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى

---

(١) تفسيرالمنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية : ٣٤ .

له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الإستعداد الذي لا حدّ له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في الأرض لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي تعارض في اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعداً للوصول إليها »[١] ونقل الشيخ أحمد مصطفى المراغي هذا القول مؤ يداً له[٢] ثم زعم كشيخه أن هذا التأويل غير مخالف للدين ما دام القلب مطمئناً إلى هذا المفهوم والنفس راضية به قال : ـ « ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من دلك والعمدة على إطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق »[٢] .

وبين السيد رشيد غرض أستاذه وشيخه من هذا التأويل بقوله « أن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذي عبر عنه بالإيماء وبالإشارة إقناع منكري الملائكة بوجودهم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى به كثيرون ، وضل به آخرون فأنكروا عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لا تعقل »[٣] .

وردّ الشيخ عبده على أولئك المنكرين عليه تأويله بقوله : ـ « ولست أحيط علماً بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين في الدين إذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى والمخدجون من جيد الأطعمة التي لا تضرهم ، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام ، ويزيد السقام ، لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح

---

(١) تفسير المنار :محمد رشيد رضا جـ ١ص ٢٦٩ وتفسير المراغي جـ ١ص٨٧ .
(٢) أنظر تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ١ ص ٨٧ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧٠ .

أو ملك وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ، أليس الروح في الآدمي مثلاً هذا الذي يظهر لنا في إفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والإرادة والعمل ، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة ؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ، فإذا سمى الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحاً ، فهل يضر ذلك بالدين أو ينقص معتقده شيئاً من اليقين ؟ » ثم قال« . . لو أن مسكيناً من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لساناً أخذ بما قيل له أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نوارنية الأجسام ، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذباً له المصباح أو سلك الكهرباء ؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع في حيرة ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة بعد شكاً ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه ، لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه وكلف نفسه علم ما لا تعلمه فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيماناً صحيحاً وأطمأنت بإيمانه نفسه ، وأذعن له قلبه ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله كما هو شأن صاحب الإيمان الصحيح ، فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة » ثم قال « . . هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت وتقل بل تضمحل إذا حجبت وهي التي يدور عليها كمال الوجود ، وبها ينشأ الناشيء ، وبها ينتهي إلى غايته الكامل كما لا يخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والإختيار خاص بها لا تدرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا ؟ ألا تراها توافي بأسرارها من

ينظر في آثارها ويوفيها حق النظر في نظامها ؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها ، ومعرفة الطريق إلى إستدرار منافعها ؟ »[1] .

أما تمثل الملك الذي أشار إليه في قوله هذا فقد وضحه في موضع آخر بما تشعر منه أنه يقلل من شأن أدلة إثباته عند السلف لكونهم « يكتفون » في إثباته بكذا ولعل ذلك الوصف يحمل بين طياته عدم الإقتناع العقلي الذي يبحث عنه هو وأضرابه . هذا ان سلمنا له ذلك .

قال « وأما تمثل الملك فكانوا يكتفون في إثباته بقولهم : أنه ممكن في نفسه وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه . ونقول اليوم : إن العلوم الكونية لم تبق شيئاً من أخبار عالم الغيب غريباً إلا وقربته إلى العقل بل وإلى الحس تقريباً ، بل ظهر من الإختراعات المادية المشاهدة في هذا العصر ما كان يعد عند الجماهير محالاً في نظر العقل لا غريباً فقط ، فإذا كان الإنسان الكيميائي يحلل الأجسام الكثيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدة لطفها ، ويكثف العناصر اللطيفة فتكون كالجامدة بطبعها فكيف يستغرب تكثيف الملك لنفسه ، وهو من الأرواح ذات المرة والقوة العظيمة يأخذه من مواد العالم المنبثة فيه هيكلاً على صورة الإنسان مثلاً ؟ دع مخترعات الكهرباء العجيبة التي لا يوجد شيء مما أخبر به الرسل من عالم الغيب إلا وفيها نظير له يقربه من الحس لا من العقل وحده ، وهل الكهرباء إلا قوة مسخرة للملائكة ؟ ودع ما يثبته الألوف من علماء الأمم كلها من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس في صور كصور الأجساد »[2] .

ثم يبسط الشيخ عبده معتقده في الملائكة فيقول « . . . أفلا تزعم أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء ؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أمكنتها ، ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النوارنية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك ، وما بين يديك وما خلفك ، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها ، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئاً من وراء حجاب ووقعت على سر من أسرار الكتاب ؟ فان لم تجد في نفسك إستعداداً لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في إدراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته ، وهم في إيمانهم أعلى منك كعباً ، وأرضى منك بربهم نفساً ، ألا إن مؤمناً لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذي يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة ، ومن فضل ربه في سعة »[1] .

ويؤيده تلميذه السيد رشيد في هذا التأويل حيث يقول أنه « . . أراد بهذا أن يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ما جاء به الوحي من طريق علمهم المسلم عندهم . . فأنكره عليه عباد الألفاظ وهم لا يعقلون مراده ، وهو بمثل هذه الأساليب في الإقناع بحقية الدين كان حجة لله في هذا العصر : حتى قال له أحد نوابغ رجال القضاء والأذكياء أنك بتفسيرك للقرآن بالبيان الذي يقبله العقل ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت، الذي يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم »[2] .

أما تمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام فيقول الشيخ عبده عنه « أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد

---

(١) تفسبر المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٤ .

عهد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض في قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا في النفس وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم ؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لأن شأنهم في الناس أيضاً غير الشؤون المألوفة ، وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل »(١) .

ذلكم ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده وتلميذاه السيد رشيد رضا والشيخ أحمد مصطفى المراغي في أمر الملائكة وليس لنا من تعليق أكثر مما أجملنا ذكره عن الملائكة من آيات في القرآن الكريم عليها وعلى أمثالها من الآيات قام معتقد أهل السنة والجماعة .

وما عدا ذلك مما ذكره الشيخ محمد عبده وتلاميذه لا يقوم على أي مستند من الكتاب أو السنة بل هو من الخوض في أمور لا تدرك إلا بالوحي إكتفوا باستقائه من خيالاتهم وتبلبل أفكارهم واضطراب عقائدهم .

بل إن بعض ما ذكروه يخالف القرآن الكريم ويشكك في معتقد أولئك القوم الذين استمدوا عقيدتهم من القرآن الكريم فاعتقدوا أن الملائكة قابلة

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١١٢ ـ ١١٣

للتشكل والظهور بمظهر البشر كما أسلفنا حيث يقول « وهل النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالـة المصباح أو سلك الكهرباء ؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع في حيرة ، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة بعد شكاً ؟ »(١) .

ويشكك في موضع آخر من غير تصريح بذلك في قوله تعالى ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنَ الْيَمِينِ وَعَنِ الْشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾(٢) ونحو ذلك من الآيات فيقول « أفلا تزعم أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء ؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك ، وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلاً يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها . أفلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئاً من وراء حجاب ووقفت على سرّ من أسرار الكتاب »(٣) .

ماذا يريد الشيخ عبده بهذا التأويل وهذا المفهوم ؟ هل يريد أن يؤكد لنا مرة أخرى تكذيبه للقرآن الكريم كما كذب قصصه بحملها على التمثيل لا على الحقيقة والواقع ؟! ماذا يريد بزعمه هذا ؟ هل يريد أن يقول أن القرآن لم يخبرنا عن الحقيقة في أمر الملائكة بل أخبرنا بألفاظ كانت مألوفة ومعروفة

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧١ .

(٢) سورة ق : الآية ١٧ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧٣ .

حتى لا تصيبنا « الوحشة والدهشة » إذا ما أخبرنا بحقيقتهم ، وأن القرآن ترك لنا النظر في الوصول إلى « ما تطمئن إليه نفوسنا » حتى ولو وصلت إلى ما يخالف القرآن ؟!

ذلكم ما يدل عليه كلامه شاء ذلك أم أبى وأحسبه لا يأبى ذلك لأنه بادر إلى تطبيق معتقده وحمل أمر سجود الملائكة لآدم عليهم السلام على التمثيل كما نقلنا عنه ذلك .

وما أصدق محمد الصادق عرجون في وصف مذهب الشيخ عبده وتلاميذه بقوله « أن هذا الطريق في تفسير آيات القرآن الحكيم بتسليط التأويل على كل ما يتعاصى فهمه على بعض العقول وإحالة أو إستبعاد ظاهر المعنى إلى ضرب من التمثيل ، هو الذي يخشى أن ينفذ منه (المتقرمطون) إلى تحريف كلم الله عن مواضعها ابتغاء فتنة الجماهير من عامة المؤمنين . . إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين هدى للناس ورحمة ، ولم ينزله بالإشارات والرموز والإيحاءات . . »[1] .

ثم ما الفرق بين من ينكر وجود الملائكة وبين من يزعم أنها قوى طبيعية ما دام منكر الملائكة يقر ويعترف بوجود قوة نمو في النبات وخلقه في الحيوان وحفظ في الإنسان ولكنها قوى طبيعية لا ينطبق عليها ما ورد في القرآن الكريم من أوصاف للملائكة ؟!

أن الأمر لا يعدو محاولة يائسة من أولئك المنهزمين أمام الماديين لتقريب عقيدة الإيمان بالملائكة إلى أذهانهم ولكنها محاولة أخرجتهم من عقيدة السلف العقيدة الصحيحة في الإيمان بالملائكة إلى عقيدة باطلة وغير مقنعة أيضاً لأولئك الماديين ، فضاع المنهزمون بين العقيدتين كالعنز الجرباء في الشمأل البليل . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، ، ،

---

(١) نحو منهج لتفسير القرآن : محمد الصادق عرجون ص ٣٩ - ٤٠ .

سابعًا : الجِـــنّ .

أما وجودهم فقد دل القرآن الكريم عليه ، صراحة في آيات كثيرة قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونَ ﴾[1] .

وورد فيه من صفاتهم ما نذكر منه هنا إثباتاً لعقيدة السلف الصحيحة المستمدة من القرآن الكريم ـ فيهم ، فمن ذلك : ـ

١ ـ أنهم خلقوا من نار ،

قال تعالى ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾[3] .

٢ ـ أن الله أرسل إليهم رسلاً ،

قال تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾[4] .

٣ ـ أن منهم مؤمن ومنهم كافر ،

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٦ .
(٢) سورة الحجر الآية : ٢٧ .
(٣) سورة الرحمن الآية : ١٥ .
(٤) سورة الأنعام من الآية : ١٣٠ .

قال تعالى حكاية عنهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾[1] ﴿ وَأَنَّا مِنا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾[2] .

٤ ـ أن منهم شياطين كشياطين الإنس يوسوسون في الصدور ،

قال تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ اَلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾[3] .

٥ ـ أن الله يعاقب العصاة منهم بالنار كالعصاة من الإنس :

قال تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[4] .

٦ ـ أن الله أعطاهم قوة لا توجد في الإنس ،

قال سبحانه ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾[5]

وقال سبحانه عن الجن في ملك سليمان عليه السلام ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾[6] .

---

(١) سورة الجن الآية : ١٢ .
(٢) سورة الجن من الآية : ١٥ .
(٣) سورة الناس .
(٤) سورة هود من الآية : ١١٩ .
(٥) سورة النمل الآيتين : ٣٨ ـ ٣٩ .
(٦) سورة سبأ من الآية : ١٣ .

٧ ـ أن قدرتهم ناقصة ،

قال تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾[١] .

٨ ـ لا يعلمون الغيب ،

قال تعالى ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحداً ﴾[٢] وقالوا ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾[٣] .

٩ ـ أنهم يتزوجون ،

قال سبحانه عن الحور العين ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾[٤]

١٠ ـ أنهم يتناسلون ،

قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً »[٥] .

١١ ـ أنهم يروننا من حيث لا نراهم ،

قال سبحانه ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٣٣ .
(٢) سورة الجن الآية : ٧ .
(٣) سورة الجن الآية : ١٠ .
(٤) سورة الرحمن الآية : ٧٤ .
(٥) سورة الكهف الآية : ٥٠ .

الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾(١) ولا تدل الآية هذه على عدم إمكان رؤ يتهم إذ لو كان ذلك هو المراد لقال أنه يراكم هو وقبيله ولا ترونهم ولكنه سبحانه قال ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ فـدل ـ فيما نرى ـ على أن عدم رؤ يتنا لهم مخصوص في بعض حالاتهم ، ذلكم أن الله أعطاهم قدرة على أن يتشكلوا بأشكال لا نستطيع رؤ يتهم بها وأعطاهم قدرة على أن يتشكلوا بأشكال نستطيع رؤ يتهم بها ، وهم في الحالة الأولى يستطيعون رؤ يتنا من حيث لا نراهم كما لو نظرت إلى إنسان من مكان لا يمكنه رؤ يتك منه فإنك تستطيع القول أني أراه من حيث لا يراني ولا يعني هذا عدم إمكان رؤ يتك في حالات أخرى .

وإلا فقد ورد أنه ﷺ قد رآهم واجتمع بهم ورآهم بن مسعود رضي الله عنه ، بل وكثرت الروايات والقصص والأخبار عنهم وكثرت أسماؤ هم وأنواعهم ورآهم كثير من الناس قديماً وحديثاً ، وأن أمكن نسبة آحاد منه إلى الكذب أو الوهم فإنه لا تمكن نسبته كله إلى ذلك ولا يمكن تواطؤ هم عليه .

ذلكم مجمل ما ورد من صفاتهم في القرآن الكريم وقد ورد من صفاتهم في السنة النبوية الصحيحة أنهم يأكلون فقد سألوه ﷺ الطعام فقال لهم « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

ذلكم مجمل معتقد السلف في أمر الجن ولا يصفونهم بأكثر مما وصفهم به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لأنهم من أمور الغيب الذي لا

---

(١) سورة الاعراف من الآية : ٢٧ .

يمكن إدراكه إلا بالوحي .

وقد أنكرت طائفة من الناس كالماديين ونحوهم الجن وأحوالهم وزعموا وبئس ما زعموا أنه لا يصح الإيمان بذلك إلا بواسطة التجربة والمشاهدة بل يجب أن يقوم الإيمان بذلك على تجارب يمكننا تكرارها اليوم مؤملين أن نزيد عليها غداً ؟ ! ذلكم شرطهم في إثبات وجود الجن ونحوهم وهو شرط لا يقوم على قواعد ثابتة بل ينقضه إيمان الشخص كل شخص بوجود أشياء لا تستوفي هذا الشرط ليس هذا مجال مناقشة ذلك ومع تهافت هذا الشرط ومخالفته للحقائق إلا أنا نرى بعض المنتسبين للإسلام يشيدون به ؟!

فقد أشاد به الأستاذ محمد فريد وجدي حيث يقول « هذا شرط العلم في قبول الأصول الإعتقادية وهو شرط لا يجوز الإستخفاف به ولا إغفاله لأن العلم آخذ في الإنتشار بخطوات واسعة وأساليبه المحررة وآثاره الفاتنة أثرت في العقول أبلغ تأثير ، وانتشرت معها شبهات لم تدع محلا للعقيدة في العقول وضعفت حجة الإعتقاديين أمام هذا التحدي ضعفاً ظهرت نتائجه في الجماعات »[1] .

ذلكم ما رآه الأستاذ وجدي ولا أدري كيف سوغ لنفسه القول « هذا شرط العلم في قبول الأصول الإعتقادية » هل أخبره العلم بهذا الشرط أم سمعه من أفواه الماديين ؟ !

كان الاحرى والأصوب أن يقول « هذا شرط الماديين في قبول الأصول الإعتقادية » فهم الذين قالوا ذلك وهم الذين اشترطوه ولم يشترطه العلم ولا أهل العلم .

ولكن إعجاب الأستاذ وجدي بالمدنية والحضارة الغربية الحديثة جعله ينسب كل ما يسمعه منهم إلى العلم وأعطاه رتبة القداسة فـ « لا يجوز

---

(١) مجلة الرسالة السنة ١٣ العدد ٦٠٢ ص ٥٨ مقال « الدين في معترك الشكوك » للأستاذ محمد فريد وجدي .

الإستخفاف به ولا إغفاله » .

ورفع رجال العلم أولئك إلى درجة الأنبياء ؟ حيث يقول « هؤلاء الرجال الثلاثة غاليليه وديكارت ونيوتن قد يعتبرون أكبر رجال العلم أوجدهم الخالق ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور »[١] .

وزعم وبئس ما زعم أن الماديين بهذا الشرط الذي اشترطوه لقبول مقررات الدين قد ظهروا على خصومهم وما زالوا ظاهرين حتى سنة ١٨٤٦م (؟ !) ولندعه يوضح لنا ذلك .

« وقد اتخذ الماديون في أوربـا هذا الأمر - يعني شرط العلم السابق - سلاحاً لمقاتلة الدينيين والنعي عليهم فلم يجيء القرن التاسع عشر حتى كان أنصار الدين في ضعف مطلق أمام خصومهم وظهرت المباديء المادية ظهورا لا مزيد عليه وتذرعوا بهذا السلاح لنكران الخالق والروح والخلود لخروج هذه العقائد عن دائرة اختصاص العلم ، وما زال الماديون ظاهرين على خصومهم حتى ظهرت المباحث الروحانية في سنة ١٨٤٦ م بأمريكا أولا ثم انتقلت منها إلى أوروبا »[٢] [٣] .

ثم أحس بخطورة ما قال وما قرر فأراد أن يخفف الوطء فقال « ومرادنا بالدين الدين المطلق لا ديناً خاصاً ، فصارت العقائد الأولية العامة لجميع الأديان مثل الروح والخلود وعلم الملأ الأعلى مما يدخل في دائرة اختصاص العلم »[٤] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي مادة (علم) جـ ٦ ص ٥٩٩

(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٣) ويجب أن نعرف أن أمريكا أولاً ثم أوروبا هي منطقة نفوذ الصهيونية العالمية التي تسعى إلى بث مثل هذه الشعوذات في العالم غير الأممي - غير اليهودي - لهدم الأديان .

(٤) دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي مادة (علم) جـ ٦ صفحة ٥٨٤ - ٥٨٥ .

بقى أن أقول ترى وإن ثبت ـ بل ثبت أن تحضير الأرواح من أمور الشعوذة والدجل الذي ليس هذا مجال إثباته ـ إن ثبت هذا هل يعود الظهور للماديين على المتدينين كما كانوا قبل عام ١٨٤٦م ؟!

لم يكن هذا القول ونحوه معتقد السيد وجدي وحده ولنقرأ للشيخ أحمد مصطفى المراغي ما يراه في الموضوع عند تفسيره لسورة الجن قال عن عالم الجن « وهو عالم لم يعرف في الإسلام إلا من طريق الوحي وليس للعقل دليل عليه ، ولقد أصبحت هذه العوالم المستترة عنا الشغل الشاغل اليوم للعلماء والباحثين فصار علماء أوروبا يدرسون عالم الملائكة وعالم الجن وعالم الأرواح ، ويطلعون على غوامض هذه العوالم ، فتحدث الناس مع أرواح أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الإنسي بالعالم الجني ، وبعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة »[1] .

ثم قال « واعلم أن ما جاء في هذه السورة من السمعيات التي لا دليل عليها من العقل قد بقي في الإسلام حوالي أربعة عشر قرناً تتلقاه الأمة بالقبول جيلاً بعد جيل دون بحث عن حقائقه حتى عني علماء أوربا في العصر الحديث بالبحث عنه . . »[2]

ذلكم ما اعتقدوه في تحضير الأرواح أنها الدليل العلمي لإثبات عالم الملائكة وعالم الجن وعالم الأرواح بل والأمور الغيبية كلها .

ولن نذهب في إثبات بطلان هذه المباحث الروحية وشعوذتها بل نكتفي بنقل نص من نصوص الأرواح المزعومة نقله الأستاذ وجدي نفسه وهو حين ينقله فإنه ينقله نقل المؤمن به والمصدق له كيف لا ؟ وهو من أبحاث رجال العلم في أوروبا وأحرار الإفرنج .

نقل وجدي عن الأرواح المزعومة قولها « نحن مرسلون من عند الله كما

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٢٩ ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢٩ ص ٩٤ .

أرسل المرسلون من قبلنا غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم[1] فإلهنا هو إلههم إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل صفات بشرية وأكثر خصائص إلهيه »[2] « لا تخضع لأية عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند على العقل . ولا تأخذ بلا تحفظ وحيا جاء لأحوال خاصة في عصر من العصور[1] . . . وستعلم بعد أن الوحي لا ينقطع أبداً وهو آخذ في الترقي ولا وقت له ولا حدّ وليس هو بامتياز لأمة دون أمة ولا شخص دون شخص . والله يكشف نفسه للإنسان شيئاً فشيئاً »[3] .

وعلى كل حال فإني ما نقلت عن هذين ما نقلت وأنا أقصد الرد عليهما وعلى أمثالهما في هذا الموضوع لأن نقل بعض النصوص مجرد نقل فيه الكفاية لإدراك المسلم الواعي العارف لدينه بطلانه ، ويعرف منه أيضاً درجة إيمان معتقديه ـ وهذا ما قصدت إليه وأرى فيه كفاية .

ولنواصل الحديث بعد هذا مع بقية رجال المدرسة ولنذكر ما رأوه من أدلة في إثبات وجود الجن .

وقد حاول الشيخ عبد القادر المغربي أن يصبغ دليله بصبغة الدليل العلمي الحديث تقرباً لعقول الماديين ومقلديهم فقال في تفسير سورة الجن « إن وجود قوى روحانية وعوالم غيبية استترت عن حواسنا بأعيانها ، وتجلت لنفوسنا بآثارها ، وما تواتر من أخبارها أمر محقق لا ريب فيه ، ولنضرب لها مثلاً القوات الطبيعية التي كانت مجهولة للبشر منذ أقدم أزمنة التاريخ ، كالكهربائية التي لو قصّ قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها على البشر

---

(١) هذا هو الهدف الذي تحلم الصهيونية العالمية بالوصول إليه وجندت كل وسائلها وأجهزتها لبلوغه إلغاء الأديان كافة وتسليم العالم أجمع لقيادتهم وتعاليمهم جربوا ولا زالوا الماسونية وجربوا كذلك التقريب بين الأديان وجربوا تحضير الارواح ولا تزال في الأمر بقية فهل من وعاة دعاة ؟ !

(٢) مجلة المقتطف فبراير ١٩٢٠ ص ١٤٧ مقال إثبات الروح بالمباحث النفسية : محمد فريد وجدي .

(٣) المقتطف فبراير ١٩٢٠ : المقال السابق ص ١٤٩ .

وهم في طور سذاجتهم لعدوه كذباً حبريتاً[1] وما نعرفه اليوم من خواص الكهربائية قليل بالنسبة إلى ما ينتظر أن يعرف منها في المستقبل ، وما يدرينا أن يخلف الكهربائية قوة أو قوات أخرى أغرب منها وأعجب ، وهذا الراديوم على الأبواب » ثم قال « وإذا كنا لا نصدق إلا ما نشعر به بحواسنا فهذه أرواحنا التي في أبداننا لا نراها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نذوقها ولا نلمسها ، ولكننا نؤمن بوجودها ونعترف بعالمها فما عدا ممّا بدا ؟

وبعد فإن عالم الجن كعالم الملائكة ، من المغيبات التي أمرنا بالإيمان بها ، ولم نكلف رحمة بنا أن نروي من أخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحي لنا ، فلنعقل منه ما نعقل ، ولنكل أمر ما لا نعقل إلى الله فهو سبحانه وتعالى القادر على أن يعرفنا في مستقبل الزمان من أمره ، ويكشف لنا من مكنون سره ما يكون عقدة اتصال بين العلم الصحيح والوحي الصريح »[2] .

وجعل الشيخ محمود شلتوت الإيمان بوجود الملائكة والجن ونحوهم من الأمور التي فطر عليها الناس حيث قال « فطر الناس على أن في العالم خلقاً آخر غير الإنسان يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق فذكرت الملائكة . . . وذكرت الجن وجعلتهم نوعاً مقابلاً للإنسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين »[3] ثم قال « وإذن فليس في وجود الجن شك وليس في تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك وليس في مسؤولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس في استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك فكل هذا حق لا ريب فيه ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء وإن

---

(١) كذب حبريت : خالص مجرد لا يستره شي . . ويقال أيضاً :كذب بحريت.

(٢) تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي : ص ٦٧ .

(٣) إلى القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ١٥٦ .

محاولة تأويل شيء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للألفاظ عن معانيها ، وضيق عطن من المولعين بإنكار ما لا يدركه الحس »[1] .

ورد السيد رشيد رضا على أولئك الماديين الذين أنكروا الجن فقال : - « والماديون المحجوبون ينكرون مثل هذا «ومن جهل شيئاً عاداه » ولو قيل لمن كان على شاكلتهم قبل كشفهم هذه الجنة (الميكروبات) إن في العالم أنواعاً كثيرة من المخلوقات الخفية التي لا يمكن أن يراها أحد بعينيه هي سبب الأدواء والأمراض التي لا تحصى ، وهي سبب التغيّرات والإختمارات التي نراها في المائعات والفواكه وغيرها - لقالوا إنما هذه خرافة من الخرافات »[2] .

هذا ما قالوه من ناحية مبدأ الوجود أما من ناحية حقيقة خلقهم وكيفيته فبالإضافة إلى توقفهم في ذلك إلا إنهم لا يرون مانعاً من احتمال كون هذه الجراثيم والميكروبات نوعاً من أنواع الجن الكثيرة المتعددة الأنواع .

حيث يقول السيد رشيد « وقد كان غير المسلمين يعدون من هذا القبيل - أي من قبيل الخرافات - حديث أبي موسى « الطاعون وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة » رواه الحاكم وصححه ، ثم صاروا بعد اكتشاف باشلس الطاعون يتعجبون منه بصدق كلمة « الجن » على ميكروب الطاعون كغيره ، وقد ورد أن الجن أنواع منها ما هو من الحشرات وحشائش الأرض »[2] .

ويقول في موضع آخر « وفعل جنة الشياطين في أنفس البشر كفعل هذه الجنة التي يسميها الأطباء الميكروبات في أجسادهم وفي غيرها من أجسام الأحياء تؤثر فيها من حيث لا ترى فتتقى »[3] .

---

(١) إلى القرآن الكريم : محمود شلتوت : ص ١٥٦ .
(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٧ ص ٣١٩ .
(٣) المرجع السابق : جـ ٨ ص ٣٦٤ .

ويقول « وقد قلنا في المنار غير مرة أنه يصح أن يقال أن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعاً من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض ، قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن ، على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو اضافة شيء إليه مما لا دليل عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الآحادية فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم »[1].

وقد يستدل مستدل بنوع من الأدلة يحسبه مؤيداً لما ذهب إليه السيد رشيد رضا من نحو :

أولاً : قوله تعالى ﴿ اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[2] والمراد بالمس الصرع وهو من الأمراض العصبية وسببها بإذن الله تلك الجراثيم التي تدخل جسم الإنسان .

ثانياً : قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[3] وتلك الميكروبات ترانا من حيث لا نراها ولكن الله سبحانه مكننا من رؤيتها بالمكبرات .

ثالثاً : الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة والدارمي وأحمد وجاء فيه « أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم » ولا شك أن الجراثيم تلك تجري في خلايا جسم الإنسان وفي دمه حيث تنقل الأمراض وحيث تسري في البدن مع أن المراد به في الحديث وسوسة الشيطان في صدر بني آدم ولكن لفظه عام .

رابعاً : ما رواه مسلم وأحمد والدارمي عن رسول الله ﷺ « اذا تثاءب أحدكم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٩٦ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ٢٧ .

فليضع يده على فيه فإن الشيطان يدخل مع التثاؤب » ولا شك أن الفم من أهم مداخل الميكروبات إلى جسم الإنسان سيما إذا كان في حالة التثاؤب فقد يلج منه ذباب وقد يلج منه ميكروبات وجراثيم لا نراها ويمنع هذا وضع اليد على الفم .

خامساً : ما رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد عن النبي ﷺ « إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاث مرات فإن الشيطان يبيت على خياشيمه » ولا شك أيضاً أن الخياشيم من مداخل الميكروبات إلى جسم الإنسان سيما وأن ما يخرج من الأنف من إفرازات يزيد الأمر أهمية ويزيد من واجب الإعتناء به وتنظيفه .

سادساً : ما رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ « فناء أمتي بالطعن والطاعون فقيل يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون » قال وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهداء « والطاعون كما هو معروف ينتقل بالعدوى بإذن الله ولذا ورد النهي عن دخول بلد وقع فيه الطاعون أو الخروج منه وإنما تكون العدوى بانتقال تلك الميكروبات إلى جسم الإنسان السليم من جسم الآخر المريض .

قد يفهم بعض الناس من هذا احتمال كون الميكروبات والجراثيم من أنواع الجن مستأنساً بهذه الأدلة ، والحق أنه لا يحق لأحد منا أن يقول بشيء من هذا لأن ذلك من الأمور الغيبية التي لا بد من إستنادها إلى وحي يوحى وقد انقطع الوحي بوفاته ﷺ فوجب التوقف في أمرها وإسناد علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى .

وعلى كل حال ـ فالواجب ـ كما قلنا ـ تفويض علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى وما كنا لنخوض في ذلك لولا أن رأينا ما ذهب إليه السيد رشيد في أمرهم كاد أن يكون خالياً من الإستدلال فخشينا أن يستدل أحد من بعدهم بهذه الأدلة على ما ذهبوا إليه ، فرغبنا قطع الطريق عليه ببيان أن تلك الأدلة ليست حجة في الموضوع بل يدخلها الإحتمال الذي يسقط به الإستدلال

نذكر هذا حتى لا يحتج به من بعدهم من يذهب إلى ما ذهبوا إليه ونرد عليه أيضاً بما ذكرنا في الرد عليهم مما لا داعي لإعادته وتكراره فالقضية واحدة والمذهب واحد وكذا الرد عليهم أيضاً واحد والواجب على المسلم السليم العقيدة أن يفوض علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى .

ولا نقبل من تأويلات المدرسة العقلية الحديثة لأحوالهم ما زعمه السيد رشيد رضا في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾[1] حيث زعم السيد رشيد أن هذا ليس تقريراً من القرآن لكون الشيطان هو الذي يتخبط الممسوس أو المصروع وإنما ورد هذا على ما كان معروفاً عند العرب ؟ فقال السيد رشيد : - « ثم أن التشبيه مبني على أن المصروع الذي يعبر عنه بالممسوس يتخبطه الشيطان أي أنه يصرع بمس الشيطان له وهو ما كان معروفاً عند العرب وجارياً في كلامهم مجرى المثل »[2] ثم قال « فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفي ذلك »[2] ثم قال « وهذا ليس برهاناً قطعياً على أن هذه المخلوقات الخفية التي يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع فتكون من أسبابه في بعض الأحوال »[2] .

وكان الشيخ أحمد مصطفى المراغي أكثر تصريحاً في حمل نص القرآن على أنه جاء موافقاً لما يعتقده العرب وإن كان من « زعماتهم » فقال « وتخبط الشيطان للإنسان من زعمات العرب ، إذ يزعمون أنه يخبط الإنسان فيصرع ، فورد القرآن على ما يعتقدون وكذلك يعتقدون أن الجني يمس الإنسان فيختلط عقله ويقولون رجل ممسوس : أي مسه الجن ورجل مجنون : إذا ضربته الجن ولهم في ذلك قصص وأخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المحسوسات ، فجاءت الآية وفق ما يعتقدون ، ولا تفيد صحة

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٧٥ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٩٥ - ٩٦ .

هذا ولا نفيه »[1] .

ثم أراد الشيخ المراغي المغالطة فقاس هذا التشبيه ـ ليؤيد تأويله ـ بالتشبيه في قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم التي تكون يوم القيامة طعام أهل النار ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[2] وما رأى أحد رؤوس الشياطين لكنها جاءت بحسب ما يتخيلون ويزعمون »[1] .

ونسي الشيخ المراغي وهو في غمرة الحماس لتأييد قوله أن القياس هنا مع الفارق فالتشبيه الأول تشبيه آكل الربا بشيء معروف لديهم وواقع عندهم وهو تخبط من به مس ، أما في الثاني فإنه تشبيه بأمر غير مشاهد عندهم وغير معروف بعكس الأول ، ولكن عرف من التشبيه الثاني كون الشيطان على أقبح الصور وأقبح الأشكال من غير مشاهدة أو رؤية له فالقياس مع الفارق فلا يصح .

ثم أن الأمر الأخطر من هذا كله والأعظم أن نحمل نصوص القرآن الكريم على موافقة معتقدات العرب الباطلة وإقراره لها من غير نكير ومن غير إبطال لها .

وإذا ـ لو فتح هذا الباب لولج منه القرامطة والمتقرمطون بل أعداء الدين الإسلامي بشتى أنواعهم مبطلين لعقائده وزاعمين أنها حكاية لمعتقدات العرب الباطلة جاء بها القرآن ولم ينكرها لأن إنكارها عند العرب بمثابة إنكار المحسوسات ؟!

وهذا يذكرنا بموقفهم من قصص القرآن الكريم وصرفهم لها عن كونها حقيقة واقعة إلى أنها تمثيل وتخييل .

وهل يصح أن يقال هذا ؟ إذن لهدم الإسلام من أساسه ! أليست تلك الأساليب من معاول هدم الإسلام ؟ ألا فليتق الله من يطلب الحقيقة ، وليحذر المؤمنون من تعامى عنها وصرف نظره عن فهمها كما جاءت .

ونوع آخر نرفضه من تأويلاتهم الباطلة في أمر الجن ونعني به ما زعموه

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٣ ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) سورة الصافات : الآية ٦٥ .

في أمر رؤيتهم وحملهم ما ورد من رؤيتهم على التخييل والوهم قال السيد رشيد « والظاهر أن بعضهم كان يخيل إليه الخوف في البراري المنقطعة شيئاً يتلوّن فيهيم على وجه خوفاً منه لاعتقاده أنه من الجن ، ويحتمل أن يكون بعضهم رأي بعض القردة الراقية[1] التي تشبه العجوز القبيحة الوجه فسموها السعلاة وأن تكون السعلاة التي أكلت من التمر في حديث أبي أيوب[2] منها أن صح ما روي وكـان عن مشاهدة ، وإلا كان مبنياً على ما توارثه قبل نفي النبي ﷺ له أو قبل العلم بهذا النفي وقد قال الله تعالى في الشيطان ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُم ﴾ وقال ابن عباس أن النبي ﷺ لم ير الجن حين استمعوا القرآن منه بل علم ذلك بالوحي لقوله تعالى ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنه ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾ ولكن في حديث ابن مسعود وكان معه أنه رأى أسودة تشبه السحاب وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه[3] وروى البيهقي في مناقب الشافعي بإسناده عن الربيع سمعت الشافعي يقول من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا أن يكون نبياً انتهى وقد حملوه كما حملوا الآية على من يدعي رؤيتهم بصورتهم التي خلقهم الله عليها دون الصور التي يتمثلون بها »[4] .

ثم رجح أن ما اشتهر عن العرب في مسألة الأغوال . . . « أنه تخييل لا حقيقة له في الخارج وقد يكون منه رؤية حيوان غريب كبعض القردة »[4] وقال عن الجن « لا نصدق من خبرهم إلا ما أثبته الشرع أو ما هو في قوته من دليل الحس أو العقل ولم يثبت شرعاً ولا عقلاً ولا اختباراً أن شياطين الجن

---

(١) راجع ما ذكرنا عن موقفهم من نظرية التطور .

(٢) ونصه «أنه كانت له سهوة فيها تمر وكانت تجيء الغول فتأخذ منه فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اذهب فإذا رأيتها فقل : بسم الله أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فأخذها فحلفت أن لا تعود فأرسلها فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما فعل أسيرك ؟ قال حلفت أن لا تعود فقال كذبت وهي معاودة الكذب .. » الحديث رواه الترمذي .

(٣) لم يصل تفسير المنار إلى هذا الموضع لوفاة صاحبه .

(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٧ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

تأكل الناس ولا أنها تظهر لهم في الفيافي والقفار كما كانت تزعم العرب وغير العرب في طور الجهل والخرافات »[1] .

والخلاصة أن السيد رشيد ينكر إمكان رؤيتهم ويستدل على ذلك :

١) بالآية الكريمة ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

٢) نفى ابن عباس رضي الله عنه لرؤيته ﷺ لهم « حين استمعوا القرآن منه » .

٣) بقول الشافعي رحمه الله تعالى المنقول آنفاً .

وحمل ما ورد في حديث أبي أيوب ـ إن صح ـ على احتمال أنه رأى بعض القردة الراقية التي تشبه العجوز القبيحة الوجه فسماها سعلاة ـ وإلا فهو مبني على ما توارثه قبل نفي النبي ﷺ له أو قبل العلم بهذا النفي ، ثم قال فيه وفي حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه فيمن كان يسرق تمر الصدقة وإخبار النبي إياه بأنه شيطان قال فيهما« والصواب أنه ليس في هذه الروايات كلها حديث صحيح »[2] .

يقول هذا وهو لا يرى مانعاً من احتمال كون الميكروبات نوعاً من أنواع الجن ، وقد أمكن رؤيتها واعترف بذلك فكيف ينفي هنا ما أثبته هناك ؟!

وعلى كل حال فالذي نفهمه من الآية ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ إنها لا تنفي إمكان رؤيتهم ولكنها تثبت رؤيتهم لنا من حيث لا نراهم وقدرتهم على التشكل بهذه الحالة غير المرئية لنا ونضرب لذلك مثلاً بمن يجلس في ظلام دامس وينظر إلى من يجلس في النور أو من يجلس في سيارة ذات زجاج ملون فإن الجالس في الحالتين يرى من في الخارج من حيث لا يرونه ولا يفهم من هذا عدم إمكان رؤيته في حالات أخرى .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٧ ص ٥٢٨ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٧ ص ٥٢٦ الهامش .

أما نفي ابن عباس رضي الله عنه لرؤ يته ﷺ لهم حين استمعوا القرآن منه ـ إن صح ـ عن ابن عباس فإنه محمول على عدم رؤ يته ﷺ لهم في تلك المرة ولا يمنعْ رؤ يته لهم بعد ذلك ، كما رآهم ابن مسعود رضي الله عنه بعد ذلك وهو يخبر عن مشاهده .

أما قول الشافعي رحمه الله تعالى فيحمل على من يدعي رؤ يتهم بصورتهم التي خلقهم الله عليها دون الصور التي يتمثلون بها أو على من يدعي إمكان رؤ يتهم في كل حال وهو تكذيب للقرآن .

ويبقى بعد هذا كله في ترجيح إمكان رؤ يتهم حديث أبي أيوب وحديث أبي هريرة رضى الله عنهما الذي رواه البخاري في صحيحه وإن زعم السيد رشيد عدم صحتهما .

والحق أنه كان من الأولى عدم الخوض فيما لم يكن مصدره الوحي الصادق ـ عن أحوالهم ـ وتفويض علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى فهو المنهج الأسلم والأعلم والأحكم .

قول جامع في أمر الملائكة والإنس والجنّ والشياطين

وقع خلاف بين العلماء في أمر المخلوقات المذكورة وصلة بعضها ببعض كخلافهم هل الشياطين من الأنس أو من الجن أو منهما معاً أو خلقاً مستقلاً ؟ والجن هل هم من الملائكة أو أنهم نوع مستقل أيضاً أو هم الشياطين ؟ وكذا إبليس هل هو من الجن أو من الملائكة أو من الشياطين ؟

ليس من شأني هنا أن أتعرض لذكر تلك الأقوال وأدلة كل قول منها والشبهات عليه ولكني أعرض إلى رأي فهمته من مجموع ما قرأته من الأدلة القرآنية في مجموع هذه المخلوقات فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، أعرضه هنا بمناسبة الحديث عن هذه المخلوقات ، آحاداً ،

فالله سبحانه وتعالى خلق هذه الخلائق ونوعها إلى نوعين : ـ

١ ـ ما يكون متناسلاً : وهم الجن والإنس .

٢ ـ ما لا يكون متناسلاً : وهم الملائكة .

وخلق الله النوع الثاني جميعاً لأنهم غير متناسلين ، وقضت الحكمة فيما يكون متناسلاً أن تخلق أصوله ، فخلق الله أصل الجن وهو إبليس من مارج من نار ، ثم خلق أصل الإنس وهو آدم عليه السلام من تراب .

خلق الملائكة أولاً ثم إبليس قبل آدم عليه السلام قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾[١] فخلق الله الجان « من قبل » خلق الإنسان .

وبخلق الإنسان تمت أنواع المخلوقات الثلاثة فكرمه الله بسجود المخلوقات السابقة له ملائكة وجاناً ، ولم يكن من الجن حينئذٍ إلا إبليس ، فكان الأمر موجهاً للملائكة تغليباً وشمل إبليس لوجوده معهم وهو ليس منهم ولذا استثني منهم عند معصيته وبيّن جنسه ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[٢] ولم يرد في القرآن وصفه بأنه ملك أو أنه من الملائكة بل ورد في الآية السابقة أنه من الجن .

ولم تكن معصية إبليس معصية ملك وإنما كانت معصية جن فإن الملائكة ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٣] .

وعصى إبليس ربه ولم يكن كفره لهذا العصيان وإلا لكان آدم عليه السلام كذلك لأنه نهى عن قرب الشجرة فزاد عن قربها وأكل منها ، ولكن كفر إبليس لاعتراضه على أمر الله ونسبته حكم الله سبحانه وتعالى وأمره إلى الجور والظلم بقوله لعنه الله ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[٤] فكان

---

(١) سورة الحجر : الآيتين ٢٦ و ٢٧ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ٥٠ .

(٣) سورة التحريم من الآية : ٦ .

(٤) سورة الأعراف من الآية : ١٢ .

إبليس لعنه الله عاصياً ومعترضاً على حكم الله سبحانه أما آدم عليه السلام فوقعت منه المعصية وتلتها التوبة الصادقة فكان العقاب في المعصيتين معصية إبليس ومعصية آدم الإنزال إلى الأرض ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾(١) فأهبطا لأن السماء ليست مقرا للمعصية ، وكان عقاب الإعتراض من إبليس لعنه الله الحرمان الدائم من دخول الجنة والخلود في النار .

فبقي الملائكة في السماء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ونزل الإنس والجن يمثل الجنس الأول آدم عليه السلام ويمثل الجنس الثاني إبليس لعنه الله ، أنزل الجنسان إلى الأرض حيث تقع الطاعة ، وحيث تقع المعصية .

فكان من ذرية آدم عليه السلام طائعون موحدون وكان منهم عصاة وفاسقون وكان من ذرية إبليس لعنه الله موحدون من الجن وعصاة . .

وكان من الذريتين من بلغت به المعصية إلى درجة كبيرة هي الشطن والإبعاد عن رحمة الله كإبليس لعنه الله فسمى أولئك « شياطين » وهم الذين يوسوسون في صدور الناس ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَـٰهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾(٢) .

فكان الخلق : ـ ملائكة من نور وجن من نار وإنس من تراب .

ولم تقع المعصية من الصنف الأول ، ووقعت من الصنفين الآخرين فكان منهما شياطين .

والله أعلم والهادي إلى سواء السبيل . ، ،

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الناس .



الباب الخامس

تأويل المدرسة العقلية الحديثة لآيات من القرآن الكريم

أولاً : قوله تعالى ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٢٧٥ البقرة .

ثانياً : قوله تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ الآية ٤٧ آل عمران

ثالثاً : قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ الآية ٣ النساء .

رابعاً : قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ . . . ﴾ الآية ٤٣ النساء .

خامساً : قوله تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾الآيـة ١٥٧ ـ ١٥٨ النساء .

سادساً : قوله تعالى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ الآية ١٠ الفجر .

سابعاً : قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ سورة الفيل .



أولاً : قوله تعالى « وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .الآية رقم ٢٧٥ البقرة

قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١] .

للسلف في بيان مرجع قوله تعالى « من عاد » في هذه الآية قولان : ـ

الأول : أنه يعود إلى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ والمعنى ومن عاد إلى أكل الربا فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، وأكل الربا كبيرة من الكبائر وأصحاب الكبائر لا يخلدون في النار للنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فوجب تأويل الخلود هنا بطول المكث .

الثاني : أنه يعود إلى الذين ﴿قالوا إنما البيع مثل الربا ﴾ والمعنى من قال إنما البيع مثل الربا فقد استحل ما حرم الله فيكفر فيستحق الخلود ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ٢٧٥ .

ويبقى معنى الخلود على معناه الأصلي ، وهو البقاء الدائم في النار ، وعدم الخروج منها .

وإنما وجب هذا التأويل لأن أكل الربا كبيرة من الكبائر لا يكفر صاحبها ما لم يستحلها وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ما يدل على أن مقترف الكبائر لا يخلد في النار قال تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(١) وقال سبحانه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) .

وفي السنة وردت أحاديث كثيرة في بيان عدم خلود أصحاب الكبائر في النار ما داموا غير مشركين وأنهم يخرجون منها قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى : « والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة »(٣) وقال ابن كثير رحمه الله تعالى « وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ « أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان »(٤) .

هذا هو مذهب السلف في أهل الكبائر وخالفهم في ذلك الخوارج والمعتزلة فزعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر غير مؤمن وأنه خالد مخلد في النار إن مات ولم يتب ، وزعم المعتزلة أن مرتكب الكبيرة خارج من الإيمان ولم يدخل الكفر فهو في منزلة بين المنزلتين وأنه يخلد في النار مع الكفار .

وتوسط السلف فقالوا أن مرتكب الكبيرة ناقص الإيمان ، وأنه تحت المشيئة إن شاء الله عذبه ، وإن شاء غفر له ، وهو غير مخلد في النار بل

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٨ وأيضاً الآية ١١٦ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٥٣ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني جـ ١ ص ٢٩٦ .
(٤) تفسير ابن كثير : جـ ١ ص ٥٧٢ .

« يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[١] .

وقال رجال المدرسة العقلية الحديثة بما قال به رجال المدرسة العقلية القديمة « المعتزلة » . . ففسر السيد رشيد رضا العود الواردَ في قوله تعالى ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾[٢] بالعود إلى أكل الربا دون القول بأن البيع مثل الربا فقال « ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » أي ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه فأولئك البعداء عن الإتعاظ بموعظة ربهم الذي لا ينهاهم إلا عما يضر بهم في أفرادهم أو جميعهم ثم فسر الخلود بقوله « هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكونون خالدين فيها »[٣] .

وهو يدرك مخالفته لتفسير السلف للخلود بل ينقد عليهم تفسيرهم فيقول « وقد أول الخلود المفسرون لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار فقال أكثرهم أن المراد ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقاداً ، ورده بعضهم بأن الكلام في أكل الربا وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم فيه قبل التحريم فهو ليس بمعنى استباحة المحرم فإذا كان الوعيد قاصراً على الإعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل ، والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء ، يجب إرجاع كل قول في الدين إليه ، ولا يجوز تأويل شيء منه ليوافق كلام الناس ، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمد وليس هناك شبهة في اللفظ على إرادة الإستحلال ومن العجيب أن يجعل الرازي الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار انتصاراً لأصحابه الأشاعرة، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم للخلود بطول المكث ، أما نحن فنقول ما كل ما

(١) متفق عليه .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٩٨ .

يسمى إيماناً يعصم صاحبه من الخلود في النار ، الإيمان إيمانان إيمان لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نسب إليه ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه ، وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان ، متمكنة في العقل بالبرهان ، مؤثرة في النفس بمقتضى الإذعان حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال بحيث يكون صاحبها خاضعاً لسلطانها في كل حال ، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان ، وليس الربا من المعاصي التي تنسى أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة ، أو يقع صاحبها منها في غمرة النسيان كالغيبة والنظرة ، فهذا هو الإيمان الذي يعصم صاحبه بإذن الله ، من الخلود في سخط الله ، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمداً إيثاراً لحب المال واللذة على دين الله وما فيه من الحكم والمصالح .

وأما الإيمان الأول فهو صوري فقط فلا قيمة له عند الله تعالى لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال ، كما ورد في الحديث والشواهد على هذا الذي قررناه في كتاب الله تعالى كثيرة جداً وهو مذهب السلف الصالح وان جهله كثير ممن يدعون إتباع السنة حتى جرؤوا الناس على هدم الدين بناء على أن مدار السعادة على الإعتراف بالدين وإن لم يعمل به ، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات مع الإعتراف بأنها من كبائر ما حرم ، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال إنني لا أنكر أنني آكل الربا ولكنني مسلم أعترف بأنه حرام ، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الإعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد وبأنه يرضى أن يكون محارباً لله ولرسوله ، وظالماً لنفسه وللناس كما سيأتي في آية أخرى ، فهل يعترف بالملزوم ، أم ينكر الوعيد المنصوص ، فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان »[1] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

هذا نص ما قاله السيد رشيد ، ونحن وقد شئنا أن لا نقطع حديثه لنشير إلى مواضع الخلل فيه لنترك له المجال مفتوحاً ليقول كل ما في جعبته مما يراه المنهج السليم في تفسير القرآن ـ فإنه لا يسعنا أن نتجاوزه ، من غير أن نشير إلى بعض هذه المواضع .

أما أولها فما ذكره من أن المفسرين قد أولوا الخلود لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار وهـو غمز منه ولمز فيما هو مقرر في العقائد والفقه وكان الأحرى أن يتجه إلى تفنيد الأدلة التي قرروا بها ذلك في العقائد والفقه فإذا فعل هذا فقد أبطل تأويلهم للآية لتوافق المقرر بطريق الأولى .

أما ذلكم الذي قرروه في العقائد والفقه من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار إذا كان مرتكبها مؤمناً فإنهم قد استندوا في تقريره إلى الكتاب والسنة المتواترة وبهما تقرر العقائد في الإسلام .

قال تعالى مخبراً عن مغفرته لجميع الذنوب ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1] ثم استثنى سبحانه في آية أخرى من هذه الذنوب الشرك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] .

أما السنة فقد مرّ بنا حكاية الشوكاني وابن كثير رحمهما الله تعالى لتواتر الأحاديث الدالة على خروج أصحاب الكبائر من النار ، وعدم خلودهم فيها ما داموا غير مشركين ، ومن ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما « يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان » .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣ .
(٢) سورة النساء الآية : ٤٨ وايضاً في الآية : ١١٦ .

كان الأحرى بالسيد رشيد أن يتجه إلى تفنيد هذه الأدلة - إن استطاع - بما يبطل الإحتجاج بها ولكنه وغيره لا يستطيع ذلك فعمد إلى الغمز منهم « بالإستناد إلى ما هو مقرر في العقائد والفقه ، وكأن الإستناد إلى ما هو مقرر فيهما بدعة في الدين أو خروج منه .

ثم قال - ما زاد الطين بلة كما يقولون - ما يفهم منه أن السلف بتقريرهم هذا في العقائد والفقه لم يستندوا إلى القرآن الكريم بل إلى كلام الناس فطلب الرجوع إليه ونسي أن السلف هم أول من يطلب الرجوع إلى الكتاب وأضافوا إليه أيضاً الرجوع إلى السنة . قال السيد رشيد « والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء يجب إرجاع كل قول في الدين إليه ولا يجوز تأويل شيء منه ليوافق كلام الناس » .

ولا ندري هل يسمي السيد رشيد رضا الآيات القرآنية التي استند إليها السلف « كلام الناس » أم أنه لم يعرف تلك الآيات التي استدلوا بها ؟ هذان أمران أحلاهما مر .

أما تشبيهه الوعيد بالخلود في هذه الآية بالوعيد بالخلود في آية قتل العمد ، وليس هناك شبهة في اللفظ على إرادة استحلال قتل العمد ، فهو إستناداً منه إلى قول شيخه وأستاذه « الأستاذ الإمام » في المؤمن القاتل عمداً فقد تجاوز الشيخ محمد عبده الحكم على هذا المؤمن بالخلود في النار إلى الزعم بأنه لا توبة له مطلقاً[1] إذا كان القاتل مؤمناً ، أما إذا كان كافراً بل مشركاً وقتل عمداً فإن باب التوبة له مفتوح ثم قال « وقد يقال

---

(١) لا تنسَ أن قائل هذا الكلام قد كتب بيده معلقاً على مذكرات عرابي « أما ما قاله عرابي بصدد خلع إسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول أنه من المؤكد أننا كنا نتكلم سراً في هذا الشأن وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح عليّ أنا أن أقتل اسماعيل وكان يمرّ في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً نتهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل . ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة » (التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر ص ٣٥٤ بلنت ، وراجعه ووافق على ما جاء فيه الشيخ محمد عبده) .

كيف تقبل التوبة من المشرك القاتل الزاني ، ولا تقبل من المؤمن الذي ارتكب القتل وحده ؟ ويمكن أن يجاب من القائلين بعدم توبة القاتل بأن المشرك الذي لم يؤمن بالشريعة التي تحرم هذه الأمور له شبه عذر لأنه كان متبعاً لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهر له صدق النبوة وما يتبع ذلك ، فلما ظهر له الدليل على أن ماكان عليه كفر وضلال تاب وأناب وامن وعمل الصالحات فهو جدير بالعفو وإن كان في إجرامه السابق مقصراً في النظر والإستدلال ، وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة ، وتحريم الله للقتل وجعله قاتل النفس البريئة كقاتل الناس جميعاً فلا عذر له بل لا يعقل أن يرجح هواه على إيمانه مع أنه لم يطرأ على إيمانه من الشك الإضطراري ما يكون له شبه عذر أما إذا طرأ عليه ذلك فإن حكمه حكم القاتل الكافر »[1] .

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية أعني ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[2] بعد أن بيّن أقوال العلماء فيها قال « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه إن جزاه جهنم خالداً فيها ، ولكنه يعفو ويتفضل على أهل الإيمان به وبرسوله ، فلا يجازيهم بالخلود فيها ولكنه عزّ ذكره أما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار ، وأما أن يدخله إياها ثم يخرجه منها بفضل رحمته ، لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾[3] [4] .

ومن هذا ندرك أن قياس السيد رشيد رضا الوعيد بالخلود لآكل الربا

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٢) سورة النساء : الآية : ٩٣ .
(٣) سورة الزمر : الآية : ٥٣ .
(٤) تفسير الطبري جـ ٩ ص ٦٩

على الوعيد بالخلود لقاتل العمد لا يصح إلا على تأويل الخلود بطول المكث في الوعيدين ، أما ما ختم به السيد رشيد حديثه به حيث قال « والشواهد على هذا الذي قررناه في كتاب الله تعالى كثيرة جداً » فكنا نتمنى لو ذكر السيد رشيد شيئاً منها لنريه مواطن الخطأ في الإستدلال بها على ما زعم .

أما زعمه أن هذا الذي ذكره « هو مذهب السلف الصالح » فهو زعم يكذبه الواقع فما قال أحد أن هذا هو مذهب السلف بل كلنا يعرف أنه مذهب الخوارج والمعتزلة فهم الذين حكموا بخلود أهل الكبائر في النار .

ولو سلمنا ـ جدلاً ـ بخلود القاتل العمد في النار كما قالوا فإن هذا لا يسوغ لنا أن نعم بهذا الحكم الذنوب كلها الكبائر منها ، بل يسوغ لنا أن نضيفه إلى الشرك الذي استثنى في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] فيكون الخلود للمشركين وللقاتل العمد ، ثم إن قتل العمد جاء من النصوص ما يعظم أمره فارتبط بالوعيد لمقترفيه في الآية خمسة أمور : ـ

١ ـ جزاؤه جهنم .
٢ ـ خالداً فيها
٣ ـ غضب الله عليه
٤ ـ ولعنه .
٥ ـ وأعد له عذاباً عظيماً .

هذا في الآية نفسها وفي السنة ورد في الحديث « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً »[2] .

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٨ وأيضاً في الآية ١١٦ .

(٢) رواه الامام أحمد في مسنده ٤ / ٩٩ والنسائي في سننه في كتاب تحريم الدم ، وأبو داود في كتاب الفتن باب في تعظيم قتل المؤمن .

لهذا فإن القتل العمد جاء من الوعيد فيه بالخلود ما لم يأت في بقية الكبائر كالزنا وأكل الربا ونحو ذلك فلا يعمّها حكمه ولا يسري عليها ، وتبقى بقية كبائر الذنوب على ما دلت عليه النصوص الأخرى العامة من مثل قوله تعالى ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ وقوله ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[1] وقول الرسول ﷺ « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

أما الزعم بأن الإيمان إيمانان « وأن الإقدام على كبائر الإثم والفواحش ـ عمداً ـ إيثاراً لحب المال أو اللذة به ـ فلا يجتمع مع الإيمان الحق الذي يملأ النفوس خوفاً ورهبة من عقاب الله بفعل ما نهى عنه وأما الإيمان الصوري فلا وزن له عند الله لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال كما يرشد إلى ذلك الحديث « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فالذي يرتكب الفواحش على هذه الطريقة يعد من الكافرين المستحلين وإن أنكر ذلك بلسانه ، فيكون خالداً مخلداً في النار أبداً »[2] أما هذا الزعم للشيخ أحمد مصطفى المراغي الذي قلد فيه أستاذه الإمام فإنه كرأي أستاذه مردود بما ذكرناه .

ثم نقول لهؤلاء ـ أخيراً ـ أخبرونا عن مرتكب الكبيرة الذي حكمتم بخلوده في النار خلوداً دائماً أمؤمن هو أم كافر ؟ فإن قالوا هو كافر ، قلنا هذا هو مذهب الخوارج الذين يكفرون أصحاب الكبائر ونحن لا نكفر أحداً بذنب ما لم يستحله .

وإن قالوا هو مؤمن ، قلنا المؤمن لا يخلد في النار لما ذكرنا في الآيات والأحاديث ولما تواتر عنه ﷺ يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨ وأيضاً في الآية ١١٦ .

(٢) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي . جـ ٣ ص ٦٥ .

وإن قالوا هو في منزلة بين المنزلتين بمعنى أنه خرج من الإيمان ولم يدخل الكفر ، قلنا هذا هو مذهب سلفكم المعتزلة الذي سرتم على نهجه وهي منزلة لم يرد بها شرعنا ، قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[3] .

فلم يبق لهم من حجة ، ولم يبق لهم من دليل والله الهادي إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة التغابن : الآية : ٢ .

(٢) سورة الاسراء : الآيتين : ٩ و ١٠ .

(٣) سورة الإنسان : الآية : ٣ .

ثانياً: قوله تعالى « رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .

٤٧ آل عمران .

تأثر رجال المدرسة العقلية الحديثة كثيراً بالمستشرقين الفرنسيين وغيرهم ، ويظهر تأثرهم بهم أكثر ما يظهر في محاولاتهم الدائبة على تقريب الأخبار الخارقة في القرآن إلى الأذهان بصرفها إلى خضوع الأسباب لمسبباتها ، وتعليلها بما يوافق العلم والعقل بزعمهم .

ومن ذلك تأويلهم لخلق عيسى عليه السلام المذكور في هذه الآية ، وكان الواجب التوقف في تفصيل كيفية نشوء الحمل لأنه من الأمور الغيبية التي لا تثبت إلا بالوحي ولم ينص الوحي على كيفية ذلك ، فكان المنهج السليم ومنهج السلف التوقف في كيفيته وإسناد علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، وعلينا أن نؤمن أن مريم عليها السلام ليست بغياً بل اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ، وأن الله أرسل إليها ملكاً تمثل لها بشراً أخبرها بمهمته وهي أن يهب لها غلاماً ، ثم نفخ الله فيه من روحه فحملت بعيسى عليه السلام .

أما محاولة تقريب حملها بعيسى عليه السلام إلى الأذهان بما تكون به هذه الواقعة أمراً عادياً لا إعجاز فيه ولا في كونه آية للناس فهذا باطل

نرفضه . فكيف إذا كان تأويله بما هو بعيد عن الحقائق متأثر بنظريات علمية ثبت بطلانها وزيفها ، ولندع السيد رشيد رضا يشرح لنا محاولتهم حيث يقول : ـ « وأقول اعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جموداً على العادات ، وذهولاً عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات . ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد ، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل ، فمنه ما يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بالإكتشاف والإختراع ، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ونحن معاشر المؤمنين نقول أن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات إما أن يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة ، فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه ، ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك ، وأما أن تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب وحينئذ يجب بأن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً وإذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ويعده مستحيلاً لأنه لا يعرف له سبباً ، ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين لعدوه من خرافات الدجالين ، ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد ، وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك بتجاربهم ، وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزاً فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول نعم . . إنه خلاف الأصل وإن كونه جائزاً لا يقتضي وقوعه بالفعل ، ونحن نستدل بوقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه »[1] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

إلا أن تعدي السيد رشيد رضا حدود التفسير وتجاوزه لمنهج السلف يظهر في محاولته تقريب هذه الواقعة إلى السنن المعروفة في نظام الكائنات ، وذلك بصرفها عن أن تكون خارقة وآية للناس إلى أن تكون غير ذلك . حيث يقول : ـ « ويمكن تقريب هذه الآية الإلّهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهين :

(**أحدهما**) أن الإعتقاد القوي الذي يستولى على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضاً ، وكم من أمرىء سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً أنه سم ناقع فمات مسموماً به ، والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول أن مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولداً بمحض قدرته وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين ، إنفعل مزاجها بهذا الإعتقاد إنفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح ، كما يفعل الإعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت ، وفي مزاج المريض فيبرأ ، وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متمماً لهذا التأثير .

(**الوجه الثاني**) وهو أقرب إلى الحق وإن كان أخفى وأدق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح ، وهي أن المخلوقات قسمان أجسام كثيفة وارواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون فيه من النمو أو يكون النمو منه فلولا الهواء لما عاشت هذه الأحياء والهواء روح ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك الريح وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب إلى الثاني ، والكهربائية من الأرواح وناهيك

بفعلها في الأشباح ، فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحاً هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون حتى أننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا ، ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل أجل وأعظم ، فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم .

ثم قال « إذا تمهد هذا فنقول : أن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحاً من عنده إلى مريم فتمثل لها بشراً ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا ؟ الله أعلم »[١] .

ونحا هذا النحو في التفسير الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره حيث قال : ـ « والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب وقوفاً عند العادة ، وذهولاً عن كيفية بدء العالم ، ولكن ليس لهم دليل عقلي ينبيء بالإستحالة ، وإنا لنشاهد كل يوم حدوث شيء في الكون لم يكن معتاداً من قبل ، بعضه له أسباب معروفة فيسمونه إستكشافاً واختراعا ، وبعضه ليس بمعروف له سبب ويسمونه فلتات الطبيعة ، والمؤمنون يقولون أن مثل هذا الذي جاء على غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدي العاقل إلى أن الأسباب ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً ، وأن أبناء الجيل الحاضر الذين رأوا من الغرائب ما لو رآه السابقون لعدوه سحراً أو خرافة أو أضافوه إلى الجن ـ ليس لهم عذر في إنكار الاشياء التي لم يعرفوا لها أسباباً ، وقد قرر فلاسفة العصر إمكان توالد الحيوان من غير حيوان ، إذاً فتوالد الحيوان من حيوان واحد أقرب إلى العقول وأدنى إلى الإمكان »[٢] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٣ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .
(٢) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي : جـ ٣ ص ١٦٧ .

ذلكم ما قاله رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر خلق عيسى عليه السلام فهو أمر ليس فيه من خارق العادات شيء بل هو إما إعتقاد قوي استولى على قلب مريم واستحوذ على مجموع أعصابها لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولداً بمحض قدرته فانفعل مزاجها إنفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح ،؟! فلم يكن في الأمر عجباً !! ولم يكن فيه « آية للناس » ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم .

وهم بهذا التأويل وإن لم يرجحوه قد فروا من طريق السلامة إلى طريق الضلال وفتحوا طريقاً سهلاً للبغايا الفاسدات وليزعمن إذا وقع منهن الحمل أنهن لم يرتكبن جريمة الزنا وإنما وقع منهن الإعتقاد ؟! وما الذي بأيدينا حتى نثبت كذبهن إذا جعلنا الإعتقاد هذا سبيلاً للحمل ، وأي فضل اختصت به مريم عليها السلام بل أي أمر عجب جعله الله آية للناس فليعلم بطلان هذا الزعم .

وأما أن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحاً من عنده إلى مريم ، فتمثل لها بشراً ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا ؟ الله أعلم »[1] .

وهذا هو الذي ورد في القرآن ما يشير إليه وكنا نود لو اكتفى رجال المدرسة بهذا التأويل في الأمر الغيبي ولم يأتوا من عندهم ومن خارج ما تدل عليه ألفاظ القرآن بتأويلات باطلة ومفاهيم ضالة .

ولكنهم أرادوا زيادة التقريب إلى الأذهان خشية ألا تقبل أذهان « أحرار الإفرنج » التأويل السليم للآية فجاءوا بتأويل آخر تقبله أذهانهم ولكنه مخالف لما دل عليه القرآن الكريم فكان حقاً علينا أن نرفضه ونرده على أصحابه ليبقى التأويل السليم والفهم السلفي الصحيح هو رائدنا في تفسير الآية ، والله الهادي .

---

(١) تفسير المنار : جـ ٣ ص ٣١٠ .

ثالثاً: قوله تعالى « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا » . ٣ = سورة النساء

لم يكن تعدد الزوجات من الأمور الخاصة بالدين الإسلامي فقد عرف التعدد قبل ذلك ، فهذا ابراهيم عليه السلام تزوج أم اسماعيل ، وأم إسحاق ، وهذا داود وسليمان عليهما السلام تعددت زوجاتهم ، وهذا يعقوب عليه السلام تزوج أم يوسف وأم إخوته الآخرين .

وجاء الإسلام وقد كان التعدد منتشراً بين العرب قاطبة ولم يكن له حدّ ينتهي إليه حتى نزل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ الآية، وأجمع علماء المسلمين كافة على جواز تعدد الزوجات إستناداً إلى هذه الآية الكريمة الصريحة في معناها ، واختلفوا في مستند تحريم ما زاد على الأربع منهن ، فمنهم من استند في ذلك إلى الآية الكريمة ، ومنهم من استند إلى السنة في ذلك لا إلى الآية(١) .

---

(١) فتح القدير : الشوكاني جـ ١ ص ٤٢٠ .

فقد أسلم غيلان بن سلمة الثقفي وعنده عشر نسوة فقال له النبي ﷺ « إختر منهن أربعاً وفارق سائرهن »[١] .

وأسلم قيس بن الحرث الأسدي وعنده ثمان نسوة فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال « إختر منهن أربعاً »[٢] .

وأسلم نوفل بن معاوية الديلمي وعنده خمس نسـوة فقال له عليه الصلاة والسلام « أمسك أربعاً وفارق الأخرى »[٣] .

ولم يبق بعد هذا خلاف بين علماء المسلمين كافة على جواز تعدد الزوجات إلى أربع ، وعلى ضوء هذا المبدأ عدد أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم زوجاتهم ، ودرج المسلمون في جميع عصورهم وبجميع طبقاتهم يعددون الزوجات متى شاءوا ويرونه مع العدل الذي طلبه الله من الأزواج حسنة من حسنات الرجل إلى النساء ، وحسنة إلى الرجال أنفسهم ، وحسنة إلى الأمة جميعاً[٤] وقربة دينية يتقرب بها إلى الله سبحانه لتكثير عدد المسلمين امتثالاً لقوله ﷺ « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم »[٥] .

فإذا انحرف جيل من الأجيال في استخدام هذه الرخصة فراحوا يتخذون منها فرصة لإحالة الحياة الزوجية مسرحا لإشباع غرائزهم البهيمية

---

(١) رواه مالك في الموطأ كتاب الطلاق باب جامع الطلاق ورواه أحمد في مسنده جـ ٥ ص ١٣ و١٤ و ٤٤ ورواه ابن ماجه في كتاب النكاح باب الرجل يسلم وعنده اكثر من أربع نسوة .

(٢) رواه أبو داود في كتاب الطلاق باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع ، وأبن ماجه في باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوه .

(٣) قال الشوكاني رحمه الله تعالى (أخرج ـ هذا الحديث ـ الشافعي في مسنده عن نوفل بن معاوية الديلمي) فتح القدير جـ ١ ص ٤٢٤ .

(٤) الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت : ص ١٨٣ .

(٥) رواه أحمد والنسائي وأبو داود .

بعيداً عن أهدافها السامية النبيلة واتخذوها مطية للتنقل بين الزوجات كما يتنقل الفاسق بين الخليلات لا يكاد يمكث مع احداهن ساعة من نهار حتى تصبح من مطلقاته .. إذا حدث هذا فليس هذا شأن الإسلام ، وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام .. إن هؤلاء إنما انحدروا إلى هذا الدرك لأنهم بعدوا عن الإسلام ولم يدركوا روحه النظيف الكريم . والسبب أنهم يعيشون في مجتمع لا يحكمه الإسلام ولا تسيطر فيه شريعته مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة تدين للإسلام وشريعته وتأخذ الناس بتوجيهات الإسلام وقوانينه، وآدابه وتقاليده .. فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس إلى الإسلام وشريعة الإسلام ومنهج الإسلام فيردهم إلى النظافة والطهارة والإستقامة والإعتدال .. من شاء الإصلاح فليرد الناس إلى الإسلام لا في هذه الجزئية فحسب ولكن في منهج الحياة كلها . فالإسلام نظام متكامل لا يعمل إلا وهو كامل شامل »[1] .

ولا يخفى هذا كله على أعداء الإسلام من الأوروبيين الذين استغلوا هذا الإنحراف من المنتسبين إلى الإسلام وسوء استعمال هذه الرخصة منهم ، فاتخذوا هذا مطعناً في الدين الإسلامي وهم يعلمون براءته من ذلك وإنما فعلوا هذا لتشكيك المسلمين بدينهم خاصة أولئك الذين اتصلوا بهم وأعجبوا بحضارتهم فأخذ هؤلاء المخدوعون بالتملق إليهم بتحريف النصوص الشرعية الصريحة وإنكار ما أجمع عليه علماء المسلمين استناداً إلى صريح الآية الكريمة السابقة من جواز تعدد الزوجات .

فعل هؤلاء المنهزمون هذا حتى لا يظهروا بمظهر الضعف أمام أحرار الأفرنج !! وحتى يظهروا دينهم الذي ينتسبون إليه بمظهر الدين المعاصر ومقياس « عصريته » موافقة آراء أحرار الأفرنج وكأن هؤلاء الأحرار الأفرنج هم المقياس الصحيح للشرائع السماوية فما وافق

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب جـ ٤ ص ٢٤٦ .

أفكارهم الحديثة من الشرائع فهو الصحيح وما خالفها فهو رجعي لا يصلح لهذا العصر .

كان في طليعة هؤلاء المنهزمين رجال المدرسة العقلية الحديثة الذين كان لهم فهم عجيب في تفسير الآية الكريمة السابقة ، وعبثت طائفة منهم بآيات القرآن الكريم فزعموا ـ وبئس ما زعموا ـ أن الآية لا تدل على مشروعية التعدد بل على الضد من ذلك حيث تدل ـ بزعمهم ـ على عدم مشروعية التعدد وأنه لا يجوز الزواج بثانية ما دامت الزوجة الأولى في عصمته ، يشرّعون هذا وينسبونه إلى القرآن الكريم .

وضيقت طائفة أخرى منهم تلك الإباحة وقصروها على حالة الضرورة القصوى وضيقوا تلك الضرورة فجعلوا مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً لتحريم التعدد وجعلوا من القيود ما لا يتصور وجوده في إنسان إلا ما شاء الله . فكان هذا عبثاً منهم كبيراً بتشريع التعدد وكأن الآية تشرع للمسلمين ما يستحيل وجوده أو يكاد .

وهم حينما يريدون أن يشرحوا القضية ترى بعضهم يتخبط في حديثه لاضطرابه بين النص وبين ما في نفسه وما في هواه مما يريد أن يحمل عليه النص فلا يوافقه .

تعال معي إلى شيخ من شيوخهم عبد العزيز جاويش نقرأ له قوله « جاء القرآن فأباح أن يتزوج الإنسان مثنى وثلاث ورباع »[1] فلا نفهم من هذا إلا إقراره بهذا الحكم الشرعي لكنه يواصل حديثه بما يخالف هذا فيقول « ولكن[2] الله تعالى يقول ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[3] فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل ، كما جعل مجرد خوف الجور

---

(١) الاسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٠٠ .

(٢) لاحظ قوله « ولكن » كأن هناك تعارض بين إباحة الزواج مثنى وثلاث ورباع وبين الشرط في الآية .

(٣) سورة النساء : من الآية ٣ .

والظلم سبباً كافياً في تحريم التعدد ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا[1] فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ (!!) . عجباً أغفل الناس كثيراً من القواعد الإسلامية التي يجب تقدير الأعمال بها وزنة التصرفات الإنسانية بميزانها »[2] .

ثم قال ما يزيد مراده وضوحاً « واعلم أن المعتزلة وهم كما تعلم من المسلمين يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية ما دامت الأولى في عصمته ، كما ذكره الأمير علي في كتابه « سر الإسلام »[3] وليس في حكاية هذا المذهب ما يضيره وما كنا لنحاسبه على مجرد الرواية ولكنه ذهب يؤيد هذا الرأي بقوله « وما ذلك إلا لأنهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضار وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إعطاء الوسائل ما للغايات من الأحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه »[3]

أيّد الشيخ ـ جاويش ـ هنا تحريم التعدد لكنه بعد هذا يعلل لعدم تصريح القرآن بتحريم التعدد بتاتاً فيقول « لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتاً وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيراً ونذيراً ولا ريب أن ثمة أحوالاً يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ولا يمكن لأحد الفرار من الإعتراف بوجود كثير من الأحوال التي تقتضي ذلك ولأضرب لك مثلاً رجلاً تزوج أمرأة فأصابها مرض مزمن ، ورجلاً تزوج أمرأة فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوماً ، ورجلاً تكره أمرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل ، وهلم جراً فأمثال هؤلاء الرجال أما أن يصبروا مع

---

(١) لغرض في نفسه تجاهل الرخصة في الآية والتسامح عن ما فرط بعد الحرص على عدم الميل « فلا تميلوا كل الميل » .

(٢) الإسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

العنت والشقة وقليل الصابرون ، وأما أن يأتوا الفاحشة وأولئك هم الخاطئون »[1] .

ومن تمعّن في قوله أدرك مدى الإضطراب ، وما ذلك إلا لمحاولته حمل النص الشرعي على ما في نفسه فتراه حيناً يبيح التعدد كما جاء في القرآن ثم يجعله من المستحيل لأن من شروطه العدل والعدل غير مستطاع ثم يؤيد مذهب المحرمين للتعدد ، ثم يبيح بل يوجب التعدد في حالات بعضها فيه الكفاية لانتشار تعدد الزوجات في المجتمع .

وإننا نلمس هذا أو قريباً منه فيما ذهب إليه الشيخ أحمد مصطفى المراغي حيث بين أن الخوف من عدم العدل الوارد في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ يصدق بالظن والشك في ذلك فالذي يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو من يثق من نفسه بالعدل ثقة لا شك فيها »[2] ويقول « إن إباحة تعدد الزوجات مضيق فيها أشدّ التضييق فهي ضرورة تباح لمن يحتاج إليها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور »[2] .

ثم ينسب الشيخ المراغي المفاسد التي تنشأ من سوء إستخدام هذا التشريع إلى التشريع نفسه جاهلاً التفريق بينهما فيقول « وان من يرى الفساد الذي يدب في الأسر التي تتعدد فيها الزوجات ليحكم حكماً قاطعاً بأن البيت الذي فيه زوجتان أو أكثر لرجل واحد لا تستقيم له حال ولا يستتب فيه نظام فأنت ترى إحدى الضرتين تغري ولدها بعداوة أخوته ، وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وكثيراً ما يطيع أحب نسائه إليه . . فيدب الفساد في الأسرة كلها ، إلى أن ذلك ربما جرّ إلى السرقة والزنا والكذب والقتل فيقتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والعكس بالعكس كما دونت ذلك سجلات المحاكم »[3] .

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٠١ .
(٢) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٤ ص ١٨٠ ـ ١٨١ .
(٣) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي : جـ ٤ ص ١٨١ .

ونتيجة لهذا المفهوم الخاطيء ونسبة الشيء إلى غير مصدره وسببه دعا الشيخ أحمد المراغي رجال القضاء والفتيا إلى علاج هذه الحالة وهو حينما لم يصرح بمفهوم العلاج عنده فهو واضح أنه يقصد به منع تعدد الزوجات أو تقييده وتضييقه بما هو أشد فيقول « فيجب على رجال القضاء والفتيا الذين يعلمون أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وأن من أصول الدين منع الضرر والضرار أن ينظروا إلى علاج لهذه الحال ويضعوا من التشريع ما يكفل منع هذه المفاسد على قدر المستطاع[1] .

ثم زعم « أن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة وهي أركان سعادة الحياة الزوجية »[2] ؟!

يصف التعدد بهذا الوصف وهو يعلم أن الله شرعه بنص القرآن فهل يعتقد مؤمن أي مؤمن ـ فضلاً عن عالم من علماء الدين تصدي لتفسير القرآن الكريم ـ أن الله سبحانه وتعالى يشرع لعباده « ما يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة » سبحانك إن هذا إلا إفتراء عظيم .

وليس هذا إلا ترديد من الشيخين ـ جاويش وأحمد المراغي ـ لقول شيخهما وأستاذهما الإمام محمد عبده الذي يفسر الخوف من عدم العدل بقوله « والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه بل يصدق بتوهمه أيضاً ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور فالذي يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذي يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفاً »[3] .

ويقول « إن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة باقامة العدل والأمن من الجور ، وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي : جـ ٤ ص ١٨١ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ١٨٣ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٤٨ .

على التعدد في هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربي أمة فشافيها تعدد الزوجات فإن البيت الذي فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة »[1] .

ثم ذكر رزايا ومصائب زعم أنها متولدة من تعدد الزوجات « ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير ، بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته كل ذلك واقع ثابت في المحاكم »[1] .

ولا أدري هل هذا سوء فهم أو تعمد إساءة الفهم من الشيخ - عبده - لهذه المسألة بعد تفريقه بين « تشريع تعدد الزوجات » و« سوء استعمال التشريع » فذهب يحمل رزايا ومصائب المسألة الثانية ويلقيها على المسألة الأولى ، كيف يدور بخلد الشيخ - فضلاً عن تقريره - أن الله سبحانه وتعالى يشرع لنا ما يتولد منه القتل بأقبح أنواعه ، والسرقة والزنا ، والكذب والخيانة . والجبن والتزوير ؟! كيف يقرر أنه لا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها »[2] ؟! وكيف يقرر أن « مجرد توقع الإنسان عدم العدل من نفسه كاف في المنع من التعدد ولا يكاد يوجد أحد يتزوج بثانية لغير حاجة وغرض صحيح يأمن الجور »[3] .

ثم بنى الشيخ على مزاعمه ودعاويه الباطلة « أن يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات وهو

---

(١) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣٤٩ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣٤٩ .
(٣) تفسير المنار : جـ ٤ ص ٣٥٨ .

شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي »[1] ؟!!

وفي هذا دعوة إلى أمرين خطيرين : -

أولهما : «يقلل العدد » ولا أفهم من هذا إلا أنه يقصد أن يقلل العدد من أربع إلى اثنتين أو ثلاث فهو الأقل من أربع .

وثانيهما : تقييد التعدد « بقيد ثقيل » « يعز تحققه » وكأن الأمر أصبح عبثاً وكأن الشرع ترك هذه المسألة من غير بيان إلى البشر ليقيدوها بقيد ثقيل وليأتوا من القيود بما يعز تحققه .

ولم يكتف الشيخ بهذا بل وجه دعوته إلى أولي الأمر لتطبيق ما دعا إليه « فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة ، يعني على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعاً عند الخوف من عدم العدل »[2] .

وهو يرى أن الإسلام لم يحث ويرغب في التعدد بل إن فيه تبغيض له « فتراه قد جاء في أمر تعدد الزوجات بعبارة تدل على مجرد الإباحة على شرط العدل فإن ظن الجور منعت الزيادة على الواحدة» وليس في ذلك ترغيب في التعدد بل فيه تبغيض له »[3] .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣٥٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ٢ ص ٩٣ .

ويرى أن في التعدد حرجاً عظيماً « فإذا كان العدل غير مستطاع والخوف من عدم العدل يوجب الإقتصار على الواحدة فما أعظم الحرج في الزيادة عليها »[1] .

يقول هذا مستدلاً بشطر آية متناسياً باقيه ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[2] .

ثم يصل بعد هذا كله إلى ما هو أخطر وأشد فلا يجعل جواز تعدد الزوجات حكماً شرعياً بل « عادة » ثم يدعو إلى إبطالها فيقول : - « وأما جواز إبطال هذه العادة أي عادة تعدد الزوجات فلا ريب فيه ،

أما أولاً : فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتماً فان وجد في واحد من المليـون فلا يصح أن يتخذ قاعدة ، ومتى غلب الفساد على النفوس ، وصار من المرجح أن لا يعدل الرجال في زوجاتهم جاز للحاكم أن يمنع التعدد أو للعالم أن يمنع التعدد مطلقاً مراعاة للأغلب .

وثانياً : قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد ، وحرمانهن من حقوقهن في النفقة والراحة ، ولهذا يجوز للحاكم وللقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعاً للفساد الغالب .

وثالثاً : قد ظهر أن منشأ الفساد والعدواة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم فإن كل واحد منهم يتربى على بغض الآخر وكراهته ، فلا يبلغ الأولاد أشدهم إلا وقد صار كل منهم من أشد الأعداء للآخر ويستمر النزاع بينهم إلى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي الظالمين ، ولهذا يجوز

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢٩ .

للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات أو الجواري صيانة للبيوت عن الفساد .

نعم . . ليس من العدل أن يمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج بأخرى ليأتي منها بذرية ، فإن الغرض من الزواج التناسل ، فإذا كانت الزوجة عاقراً فليس من الحق أن يمنع زوجها من أن يضم إليها أخرى .

وبالجملة . . فيجوز الحجر على الأزواج عموماً أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضي ، ولا مانع من ذلك في الدين البتة وإنما الذي يمنع ذلك هو العادة فقط »(١)

وقلد الشيخ فيما ذهب إليه تلميذه السيد رشيد رضا فقال « وأما منع تعدد الزوجات إذا فشا ضرره وكثرت مفاسده وثبت عند أولي الأمر أن الجمهور لا يعدلون فيه في بعض البلاد لعدم الحاجة إليه بله الضرورة فقد يمكن أن يوجد له وجه في الشريعة الإسلامية السمحة إذا كان هناك حكومة إسلامية فإن للامام أن يمنع المباح الذي يترتب عليه مفسدة ما دامت المفسدة قائمة به والمصلحة بخلافه بل منع عمر (رضي) في عام الرمادة أن يحد سارق ولذلك نظائر أخرى ليس هذا محل بيانها »(٢)

أما قياسه تحريم تعدد الزوجات على منع عمر رضي الله عنه حد السارق في عام الرمادة فلا يصح . ذلك أن المقيس عليه توفرت له من الأسباب الحقيقية الخالصة من الشوائب كالتزلف إلى أعداء الدين ، توفر له من هذا ما جوز لعمر رضي الله عنه وللصحابة في عهده التجاوز عن إقامة الحد في هذا العام ، أما تعدد الزوجات فلم يتوفر له من الأسباب ما يجوز منعه وتحريمه ولو اعتبرنا مثل ما ذكروا مبيحاً لقطع الحكم الشرعي

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : محمد عمارة جـ ٢ ص ٩٤ ـ ٩٥ .
(٢) نداء للجنس اللطيف : محمد رشيد رضا ص ٥٣ .

لتغيرت كثير من أحكام الشريعة الإسلامية بل الأمر على الضد من ذلك فإن الأسباب قد توفرت لنشر تعدد الزوجات بين المسلمين وأهم هذه الأسباب إتساع رقعة « فتنة النساء » ومنها تكثير أعداد المسلمين « المتمسكين حقاً بالإسلام » في مواجهة أعداء المسلمين ذلكم أن هذا النوع « قله » في مواجهة « كثره » من الكفار والمشركين .

ونحن في حاضرنا نعاني من أمثال هذه الإجتهادات الباطلة ومعظمها مبني على الإلحاد والعداء للدين لا على طلب الحكم الشرعي الصحيح ، نذكر من هذا على سبيل الفرض ما دعا إليه رئيس الجمهورية التونسية المسمى « الحبيب » بورقيبة في الخامس من شهر فيفري ١٩٦٠ م إلى الترخيص في الإفطار أيام شهر رمضان كي يتصل العمل من دون أن يعروه الفتور وكي يتصل الإنتاج من دون أن ينتابه النقصان مستنداً إلى ضرورة المعركة الإقتصادية[١] .

دع عنك ما أصدره من قانون يمنع تعدد الزوجات منعاً باتاً في ٦ محرم ١٣٧٩ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٩٥٦ م يقول فيه « تعدد الزوجات ممنوع ، والتزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقاباً بالسجن مدة عام وبخطيه (أي غرامة) قدرها ٢٤٠,٠٠٠ فرنك أو بإحدى العقوبتين« (الفصل ١٨) »[٢] .

وهو متأثر بالقانون الفرنسي الذي يجوز الإعتراف بالنسب الشرعي لأبناء يولدون من علاقة غير شرعية أثناء الزواج ولكن لا يجوز الإعتراف بأم هؤلاء الأبناء كزوجة . . ومعنى ذلك أن التشريع الفرنسي يسلم جزئياً بتعدد الزوجات في مجال نسب الأولاد ، ولكنه لا يريد أن يعترف للمرأة الأخرى إلا بوصف العشيقة ، مهدراً مالها من حقوق ، وهي أم الأولاد »[٣] .

---

(١) في سبل السنة الإسلامية : محجوب بن ميلاد ص ٣٩٨ .

(٢) تعدد الزوجات : عبد الناصر توفيق العطار ص ٢٦٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٦٤ .

وهذا الإتجاه هو ما يسعى إليه كثير من المنتسبين إلى الإسلام في غفلة من علمائهم .

فهل هذا هو ما يدعو إليه ويرغب به الشيخ محمد عبده وتلاميذه ؟! لا أعتقد أنهم ـ جميعاً ـ يقصدون هذا ولا تصل بهم الحال إلى هذا الهدف ولكنه هو ما ستصل إليه الحال إذا نفذ ما دعوا إليه سواءً أقصدوا ذلك أم لم يقصدوه .

بل إن أقواله وأقوال تلاميذه قد أصبحت حججاً يستدل بها دعاة منع تعدد الزوجات أو تقييده[1] وحتى سوغ الشيخ الأزهري عبد المتعال الصعيدي لنفسه أن يكتب قائلاً بملء فيه « نعم .. نملك تحريم تعدد الزوجات »[2] .

ثم أيّ شيء يقصده الشيخ محمد عبده من زعمه أن تعدد الزوجات يتولد منه رزايا ومصائب كالقتل والسرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير ؟ وما زعمه تلميذه أحمد مصطفى المراغي من أن التعدد يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة . وما زعمه تلميذه الآخر السيد رشيد رضا من أن « التعدد خلاف الأصل وخلاف الكمال وينافي سكون النفس والمودة والرحمة التي هي أركان الحياة الزوجية لا فرق بين زواج من لم يقمها وبين ازدواج العجماوات ونزوان بعضها على بعض »[3] .

ما سرّ هذه الحملة العنيفة منهم على تعدد الزوجات ؟! ولو كانت هذه الأوصاف حقاً متولدة عن تعدد الزوجات لهان الأمر ولكنها كما قلنا ليست متولدة إلا من سوء استخدام هذا الحق الشرعي للرجال .

وكان الأحرى برجال المدرسة العقلية الحديثة أن يبثوا الوعي الإسلامي

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٧٤ .

(٢) مجلة الرسالة : العدد ٧٧٣ الإثنين ٢٦ ابريل ١٩٤٨ م السنة ١٦ ص ٤٨٩ .

(٣) تفسير المنار : جـ ٤ ص ٢٧٠ .

الحق بين العامة في خطبهم في المساجد وفي صحفهم ومجلاتهم وفي جلساتهم العامة والخاصة العلمية منها والعائلية وغير ذلك .

كان الأحرى بهم بث الوعي لجلاء الحقيقة الإسلامية في الهدف من تشريع تعدد الزوجات كان الأحرى بهم الحث على تعدد الزوجات ونشره بين المسلمين الذين وعوا هذا الهدف الإسلامي النبيل لزيادة عدد المسلمين في وجه أعداء الدين الذين ما فتئوا يجربون كل وسيلة ويبثون كل فكر هدام للقضاء على هذا الهدف الإسلامي النبيل من تعدد الزوجات .

شوهوا هذا التشريع وجعلوه من عيوب الإسلام وهو من محاسنه ، دعوا إلى تحديد النسل فخدع بعض المسلمين بدعوتهم وأصبحوا من الدعاة إليه بعد أن كانوا من المدعوين ونسوا أنهم في حاجة إلى زيادة النسل لا تحديده بله نقصانه .

المسلمون في حاجة إلى كل ما من شأنه زيادة عددهم وهو ما يخشاه أعداء الإسلام في أوروبا وغيرها .

بثوا باسم العلم والدراسات المتطورة والنظريات الحديثة البعيدة العميقة أن الكون مقبل على مجاعة عظيمة ، وأن تلافي خطرها يكمن في تحديد النسل فعلوا هذا بعد أن وصلوا إلى أعداد من الكثرة بحيث تكفي للوقوف في وجه المسلمين وفي وقت يكون فيه المسلمون من القلة العددية ما لا يؤبه له مقابل أعدادهم .

وإلا فما معنى أن لا يتجاوز السكانُ في الجزيرة العربية كلها عشرة ملايين ، بينما يقرب سكان بريطانيا وفرنسا من مئة وخمسين مليوناً ، وهما لا يشكلان مساحة تعادل مساحة المملكة العربية السعودية وحدها أو تقاربها .

ثم انظر معي إلى الدول ذات الكثافة السكانية في العالم ، الصين والهند يأتي بعدهما الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفيتي وأضف

إليهن إن شئت بريطانيا وفرنسا تجد أن هذه الدول هي وحدها التي تملك الـ ـ الذرية وتهدد بها العالم وتفرض لذلك سيطرتها على دولة فيما يسمى بمجلس الأمن فلها «حق الفيتو» وهو حق الإعتراض .

ثم انظر الى اليابان ذات المئة مليون وهي الجزيرة الصغيرة حتى صارت عاصمتها أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان صارت أم الدول في الصناعة والإختراع .

ثم حول طرفك إن شئت بعد هذا إلى عالمنا الإسلامي تجد باكستان وهي ذات كثافة سكانية على قاب قوسين أو أدنى إن شاء الله من اختراع القنبلة الذرية وامتلاكها مهما وضعت دول الكفر وحرب الإسْلام في وجهها من عقبات ومهما غفل المسلمون عن عونها .

وحول طرفك بعد هذا إلى عالمنا العربي تجد أن أكثر دولة كثافة هي جمهورية مصر وتجدها أكثر الدول العربية تقدماً علمياً في الصناعة والإختراع ثم أكثرها علماء في مختلف ميادين العلم حتى كان عندها القدرة على بثهم في مختلف الدول العربية والإسلامية ، ولو سخر زعماء هذا البلد لعلمائه ما يتطلبون في أبحاثهم من دعم مادي وشجعوهم وسخروا لهم إمكانياتهم لكان لهم شأن كبير بين دول العالم الإسلامي ، ولكن العدو العالمي والصهيونية العالمية لم تغفل عن هذه الناحية فجلبت إليها وإلى ديارها من شاءت منهم تحت إغراء المادة وصرفت وأشغلت زعماء المسلمين عن هذا الهدف .

وليس هذا ـ وحده ـ هو ما نقصده بالدعوة إلى كثافة السكان ولكن إذا أضيف إليه هدف الإسلام السامي وهو تكوين شعوب إسلامية تنشر بين الناس بكثرتها مبادئه السمحة وتعاليمه العالية كان لذلك أثره في أن يسود العالم كله حكم الله وشريعته وبهما الفلاح كل الفلاح .

والحق إن العلاج بأيدينا شرعه الله لنا وأباحه : ـ تعدد الزوجات ، وعدم تحديد النسل ، يوافق هذا التشريع العدل والتضامن والتكافل

الإجتماعي في الإسلام .

ولنعرض عن أقوال من خدعته الحضارة الغربية بأقوالها المنمقة المضللة ، وأساليبها البراقة الهدامة ، فذهب يداهنها ويجاملها ويراها المثال الكامل فذهب تحت هذا التأثير الذي يرسخ تحته يدعو إلى تضييق ما وسع الله به على المسلمين وتحريم ما أباحه الله لهم ، وذهب يقيس التشريعات الإسلامية بمقياس أقوال « أحرار الأفرنج » أعداء الإسلام ، فما وافق أقوالهم فهو التشريع المتمدن المعاصر ، وما خالفها فهو قول رجعي لا يوافق زماننا وعصرنا بل يجب تغييره وتبديله ، وكأن الميزان للقبول والرد للتشريعات هي تلك الأقوال الغربية لا الكتاب السماوي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقبل أن اختم حديثي هذا يجب ان اذكر فاشكر موقف الشيخ محمود شلتوت من تعدد الزوجات فهو على الضد من القوم وناقش دعوتهم تلك مناقشة جيدة ونقضها كل النقض بل دعا الى تشريع عكسي فأوجب على عقلاء الامة « ـ اتقاءاً للأنتكاس الخلقي ـ ان يفكروا لا في منع التعدد او تقييده وإنما في وضع حَدٍّ أعلى للعزوبة بالنسبة لاصل الزواج ووضع تشريع عكسي في تعدد الزوجات أقل درجاته مساعدة الذين يتزوجون بأكثر من واحدة مساعده تحفز غيرهم الى السير في طريقهم وتساعدهم على الانفاق على زوجاتهم وعلى اولادهم الذين ينسلون من هذه الزوجات إن لم يكونوا أرباب يسار يمكنهم من ذلك . . »[1] .

وهي دعوة حق . . فهل من مجيب .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة محمود شلتوت ص ١٩٤ .

رابعاً: قوله تعالى « وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا » .

الآية ٤٣ من سورة النساء .

والحديث هنا عن مرجع القيد « فلم تجدوا ماء » في الآية بالنسبة إلى الحالات الأربع المذكورة في الآية نفسها قبله .

١ - إن كنتم مرضى .
٢ - أو على سفر .
٣ - أو جاء أحد منكم من الغائط .
٤ - او لامستم النساء .

هل يرجع اشتراط فقد الماء لإباحة التيمم إلى أقرب الحالات إليه وهي ملامسة النساء وحدها أو يرجع القيد إلى الحالات الأربع فلا يصح التيمم للمريض ولا للمسافر ولا لمن جاء من الغائط ولا لمن لامس النساء إلا في حالة فقد الماء .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى « هذا القيد إن كان راجعاً إلى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط (يعني « إن كنتم مرضى . . . ») وهو المرض والسفر والمجيء من الغائط وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم بل لا

بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء . ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء ، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح كالمريض إذا لم يجد الماء تيمم وكذلك المقيم كالمسافر إذا لم يجد الماء تيمم ، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر فقيل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء وكذلك المسافر عدم الماء في حقه غالب .

وإن كان راجعاً إلى الصورتين الأخيرتين : أعني قوله ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ، كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال وهو أن من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم وإن كان واجداً للماء قادراً على استعماله . . . . وقال مالك ومن تابعه : ذكر الله المرض والسفر في شرط التيمم إعتباراً بالأغلب فيمن لم يجد الماء بخلاف الحاضر فإن الغالب وجوده فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه انتهى .

ثم ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى ما يراه على كلا التقديرين فقال « والظاهر أن المرض بمجرده مسوغ للتيمم وإن كان الماء موجوداً إذا كان يتضرر باستعماله في الحال أو في المآل ، ولا تعتبر خشية التلف فالله سبحانه يقول ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ[1] ـ ويقول ـ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ـ ﴾[2] والنبي ﷺ يقول ـ الدين يسر ـ[3] ويقول « يسروا ولا تعسروا »[4] وقال « قتلوه قتلهم الله »[5] ويقول (أمرت بالشريعة

---

(١) سورة البقرة من الآية (١٨٥) .

(٢) سورة الحج من الآية (٧٨) .

(٣) حديث أن الدين يسر رواه البخاري في الإيمان وكذا النسائي ورواه أحمد في مسنده جـ ٥ ص ٦٩ .

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم وفي المغازي وفي الأدب ورواه مسلم في الجهاد وأبو داود في الأدب وأحمد في مسنده جـ ١ ص ٢٣٩ وغيرها .

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه في الطهارة والدرامي في الوضوء وأحمد في مسنده جـ ١ ص ٣٣٠ وجـ ٦ ص ٢٩٨ .

السمحة)[1] .

فإذا قلنا أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم والماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضره ، فيكون إعتبار ذلك القيد في حقه إذا كان استعماله لا يضره ، فإن في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف .

وأما ما وجه التنصيص على المسافر فلا شك أن الضرب في الأرض مظنة لإعواز الماء في بعض البقاع دون بعض »[2] .

والخلاصة أنه لا خلاف بين الفقهاء في المذاهب الأربعة أن المريض الذي يخشى على نفسه الضرر باستعمال الماء يباح له التيمم وكذا المسافر والمقيم إذا لم يجدا الماء جاز لهما التيمم وإنما ذكر الأول لأن السفر مظنة فقد الماء .

هذا ما أتفق عليه فقهاء المذاهب الأربعة ولم يكن ما أستندوا اليه في هذا الحكم هو مجرد مدلول الآية فحسب والإستقلال بما أشارت إليه بل اهتدوا في ذلك بما ورد في السنة النبوية الشريفة من بيان وتفصيل إمتثالاً لقوله ﷺ « ألا أني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه »[3] .

ونكتفي من السنة بما رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والنسائي رحمهم الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها قالت « خرجنا مع

---

(١) رواه أحمد في مسنده جـ ٥ ص ٢٦٦ بلفظ « أني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة » .

(٢) فتح القدير : الإمام الشوكاني جـ ١ ص ٤٧١ .

(٣) رواه أبو داود في باب لزوم السنة والترمذي في العلم وأحمد في مسنده وابن ماجه باب تعظيم حديث رسول الله (ص) .

رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على إلتماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء » إلى أن قالت عائشة رضي الله عنها « فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم » وغير ذلك مما ورد في التيمم من الحديث .

رفض هذا رجال المدرسة العقلية الحديثة وخالفوا جمهور الفقهاء وسفهوهم فيما ذهبوا إليه وليتهم استندوا إلى أدلة ثابتة وقواعد متينة فيما ذهبوا إليه وما زعموه ، ولكنهم جانبوا هذا المنهج ولم يدركوه وأعتمدوا كل الإعتماد على ما أملته عليهم أفهامهم من الآية مستقلة كل الإستقلال عن بيان من أرسله الله ليبين لنا ما أنزل الينا وقالوا عن هذه الروايات المبينة التي روى أكثرها الستة كما أقروا هم بذلك .

« أنها منقولة بالمعنى وهي وقائع أحوال مجملة لا تنهض دليلاً »[1] وزعموا أن « مفهومها مفهوم مخالفة وهو غير معتبر عند الجمهور ولاسيما في معارضة منطوق الآية .[1]

وإضافة إلى هذا الأسلوب منهم في الإستدلال فإن لهم أسلوباً آخر في تفسير هذه الآية ذلكم أن الحالات المذكورة في الآية أربع كما قلنا :

إن كنتم

١ - مرضى .
٢ - أو على سفر .
٣ - أو جاء أحد منكم من الغائط .
٤ - أو لامستم النساء .

ولم تجدوا ماء .

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ١٢٢ .

فتيمموا صعيداً طيباً .

فالحالات أربع والقيد واحد والنتيجة التيمم والخلاف في رجوع القيد إلى الحالات الأربع أو إلى الأخير منها لقربه من الشرط . أما أولئك فجعلوا الحالات ثلاثاً ذلك أنهم جعلوا القيد حالة ثالثة بدلاً من الثالثة والرابعة فزعموا أن الحالات .

إن كنتم ١) مرضى ٢) أو على سفر ٣) أو لم تجدوا ماء

وهي مغالطة منهم حتى يقطعوا إحتمال عودة القيد إلى الحالتين الأوليين المرض والسفر بحال من الأحوال قال السيد رشيد رضا في تفسير الآية : « أي ففي هذه الحالات المرض والسفر وفقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل - تيمموا صعيداً طيباً » وقال الشيخ محمود شلتوت « ولما كان الأصل الذي عليه الناس هو صحتهم وإقامتهم ووجود الماء فيما بينهم . . . كان من الضروري أن تعرض الآية للأحوال الطارئة على هذا الأصل وهي أحوال المرض والسفر ، وعدم وجود الماء . . . . » فقال ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ ٤٣ النساء وعلى هذا يكون « المرض » عارضاً مبيحاً للتيمم بنفسه دون أي أعتبار آخر معه ، سواء صحبته إقامة أم سفر ، أو وجود ماء أو فقده أو حدث أصغر أو أكبر ويكون « السفر » عارضاً مبيحاً للتيمم بنفسه دون أي أعتبار آخر معه سواء صحبه مرض أو صحة أو وجود ماء أو فقده في حدث أصغر أو أكبر ويكون فقد الماء عارضاً مبيحاً للتيمم بنفسه صحبه صحة أم مرض إقامة أم سفر ، في حدث أصغر أم أكبر »[1] .

وهم كما رأيت بنوا على هذا التقسيم أن كل واحد من الأحوال الثلاثة المرض أو السفر أو فقد الماء هو عذر بحد ذاته لإباحة التيمم .

---

(١) تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت - ص ٣٢٤ .

قال الشيخ محمد عبده « المعنى أن حكم المريض والمسافر إذا أرادا الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط »[1] ثم زعم « هذا ما يفهمه القاريء من الآية نفسها إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القران يجعلها بالتكلف حجة له منطبقة عليه »[1] .

والذي يفهمه القاريء من الآية ليس ما زعم الشيخ محمد عبده هذا إذا لم يستند إلى بيان السنة لها فالذي يفهم من مجرد الآية أن التيمم يباح للمريض وللمسافر ولمن جاء من الغائط ولمن لامس النساء . بشرط فقد الماء هذا ما يدل عليه ظاهر الآية إذا لم نبينه بسنة المصطفى ﷺ ولذلك فلا عجب أن يطالع الشيخ عبده خمسة وعشرين تفسيراً ولا يجد فيها مثل مفهومه قال الشيخ محمد عبده « وقد طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيراً فلم أجد فيها غناء فيها ولا رأيت قولاً فيها يسلم من التكلف - ثم رجعت إلى المصحف وحده[2] فوجدت المعنى واضحاً جلياً ، فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظهره وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية مفرداتها وأساليبها إلى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظي أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة »[3] .

وأيد الأستاذ رشيد كلام أستاذه قائلاً « وإذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيراً رجاء أن يجد فيها قولاً لا تكلف فيه فأنا لم أراجع عند كتابة تفسيرها إلا روح المعاني وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفاً وصاحبه واسع الإطلاع فإذا به يقول « الآية من معضلات القرآن » .

ووالله أن الآية ليست معضلة ولا مشكلة وليس في القرآن معضلات

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ١١٩ .

(٢) متى كان الرجوع إلى (المصحف وحده) منهجاً سليماً في التفسير هذا لو سلمنا له مفهومه .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ١١٩ .

إلا عند المفتونين بالروايات والإصطلاحات وعند من اتخذوا المذاهب المحدثة بعد القرآن أصولاً للدين يعرضون القرآن عليها عرضاً فإذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا وإلا عدوها من المشكلات والمعضلات »[٣] .

ثم أراد أن يؤيد ما ذهب إليه بأسلوب جديد في التأييد فجعل ما فهمه من الآية أمراً مسلماً واضحاً عنده وعند خصومه وإنما منعهم من القول به مخالفة المذاهب المعروفة لا عدم اقتناعهم بما قاله هو وأستاذه فقال « سيقول أدعياء العلم من المقلدين نعم أن الآية واضحة المعنى كاملة البلاغة على الوجه الذي قررتم ولكنها تقتضي عليه أن التيمم في السفر جائز ولو مع وجود الماء وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا ، فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين ويعقل أن يخالفوها من غير معارض لظاهرها ارجعوها إليه ولنا أن نقول لمثل هؤلاء ـ وإن كان المقلد لا يحاج لأنه لا علم له ـ وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلاً مشكلاً ؟ وأي الأمرين أولى بالترجيح : آلطعن ببلاغة القرآن وبيانه لحمله على كلام الفقهاء . أم تجويز الخطأ على الفقهاء لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر التي منها قصر الصلاة وجمعها وإباحة الفطر في رمضان فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين ؟ أليس من المجرب أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء في هذا الزمان الذي سهلت فيه أسباب السفر في قطارات السكك الحديدية والبواخر ؟ أفلا يتصور المنصف أن المشقة فيهما أشد على المسافرين على ظهور الإبل في مفاوز الحجاز وجبالها ؟ هل يقول منصف أن صلاة الظهر أو العصر أربعاً في السفر أسهل من الغسل أو

---

(١) المرجع السابق ص ١١٩ ـ ١٢٠ جـ ٥ .

الوضوء فيه ؟[1] السفر مظنـة : المشقة يشق فيه غالباً كل ما يؤتى في حضر بسهولة وأشق ما يشق فيه الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه . وأضرب لهم مثلاً هذه الجواري المنشآت في البحر كالأعلام فإن الماء فيها كثير دايماً في كل باخرة منها حمامات أي بيوت مخصوصة للإغتسال بالماء الساخن والماء البارد ولكنها خاصة بالأغنياء الذين يسافرون بالدرجة الأولى والثانية وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر عليه معه الإغتسال . أو خفيف يشق معه الإغتسال ولا يتعذر فإن كانت هذه السفن التي يوجد فيها من الماء المعد للإستحمام ما لم يكن يوجد مثله في بيت أحد من أهل المدينة زمن التنزيل يشق فيه الإغتسال أو يتعذر فما قولك في الإغتسال في قطارات سكك الحديد أو قوافل الجمال والبغال »[2] .

ثم انظر إلى هذه المغالطة من السيد رشيد إذ جعل السفر هو المبيح للتيمم لمن يصيبه الدوار الشديد الذي يتعذر معه الإغتسال وتجاهل أن الدوار الشديد مرض أباح لصاحبه التيمم إذا كان استعمال الماء يزيده مشقة أو ضرراً فالعذر هنا المرض وليس السفر ومن المسلم به عند الفقهاء أن المرض من مبيحات التيمم ولو مع وجود الماء إذا كان يلحقه ضرر باستخدامه لدلالة الكتاب والسنة على ذلك في غير موضع قال تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾[4] وقال ﷺ (قتلوه قتلهم الله)[5] فيمن أفتى لجريح بوجوب

---

(١) هذا خطأ في الاستدلال من السيد رشيد فهو يريد أن يقول أشق من الغسل أو الوضوء فيه « وبهذا يستقيم الإستدلال ولكنه أخطأ » وقال « أسهل من الغسل » ويتضح هذا بعد سطر من هذا .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٣) من الآية ـ ١٩٥ ـ من سورة البقرة .

(٤) من الآية ـ ١٨٥ ـ من سورة البقرة .

(٥) انظر تخريج الحديث ص ٦٨٥ .

الغسل ومنع التيمم ففعل ومات . هذا في المرض أما السفر فبقى على دلالة الآية في اشتراط فقد الماء لإباحة التيمم فلا يصح الإستشهاد بحالة المرض في السفر بالدوار الشديد على إباحة التيمم للمسافر فالعلة هنا المرض وليست السفر .

ذلكم هو المنهج السليم في تفسير الكتاب ألا وهو الإعتضاد بالسنة النبوية والاستعانة بها في بيان مجمله أو تخصيص عمومه ونحو ذلك . أما من استغنى بالكتاب عن السنة وقال « عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » فقد حذرنا منه ﷺ ونهانا عن الاستماع الى قوله ورد عليه ﷺ بقوله « الا أني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه » .

ولم نجد الشيخ عبده وتلاميذه يستدلون بآية من الكتاب أو حديث من السنة في بيان الآية وتفسيرها وإنما إستندوا إلى الرأي ولو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه[1] .

قال السيد رشيد : ـ

« ألا إن من أعجب العجب غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة في عبارة القرآن ، التي هي أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام ، وأظهر في رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام واحتمال ربط قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ بقوله ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ بعيد بل ممنوع البتة كما تقدم على أنهم لا يقولون به في المرض لأن اشتراط فقد الماء في حقهم لا فائدة له لأن الأصحاء مثلهم فيه فيكون ذكرهم لغواً يتنزه عنه القرآن ونقول : ـ أن ذكر المسافرين كذلك فإن المقيم إذا لم يجد الماء يتيمم بالإجماع فلولا أن السفر سبب الرخصة كالمرض لم يكن لذكره فائدة ولذلك عللوه بما هو ضعيف متكلف وما ورد في سبب نزولها من فقد الماء في السفر أو المكث مدة

---

(١) هو قول لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

على غير ماء لا ينافي ذلك . رووا « أنها نزلت في بعض أسفار النبي ﷺ وقد انقطع فيها عقد لعائشة فأقام النبي ﷺ على إلتماسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأغلظ أبو بكر على عائشة وقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فنزلت الآية فلما صلوا بالتيمم جاء أسيد بن حضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول ما أكثر بركتكم يا آل أبي بكر » رواه الستة وفي رواية « يرحمك الله تعالى يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجاً . فهذه الرواية وهي من وقائع الأحوال لا حكم لها في تغيير مدلول الآية ولا تنافي جعل الرخصة أوسع من الحال التي كانت سبباً لها ، ألا ترى أنها شملت المرض ولم يذكر في هذه الواقعة أنه كان فيها مرضى شق عليهم استعمال الماء على تقدير وجوده وليس فيها دليل على أن كل الجيش كان فاقداً للماء ولا أن النبي ﷺ جعل التيمم فيها خاصاً بفاقدي الماء دون غيرهم ومثلها سائر الروايات المصرحة بالتيمم في السفر لفقد الماء التي هي عمدة الفقهاء على أنها منقولة بالمعنى وهي وقائع أحوال مجملة لا تنهض دليلاً ومفهومها مفهوم مخالفة وهو غير معتبر عند الجمهور ولاسيما في معارضة منطوق الآية .

وإننا نرى رخصة قصر الصلاة قد قيدت بالخوف من فتنة الكافرين كما سيأتي في هذه السورة ونرى هؤلاء الفقهاء وكلهم لم يعملوا فيها بمفهوم هذا الشرط المنصوص الذي كان سبب الرخصة أفلا يكون ما هنا أولى بأن لا يشترط فيه شرط ليس في كتاب الله ؟ وروي في سبب النزول أيضاً أن الصحابة نالتهم جراحة وابتلوا بالجنابة فشكو ذلك للنبي ﷺ فنزلت وروي أيضاً أنها نزلت فيمن أغتسل في السفر بمشقة »[1] .

ولا ندري كيف سوغ السيد رشيد لنفسه الإستدلال بما ذهب إليه الجمهور في قصر الصلاة في السفر في رد ما ذهبوا إليه في التيمم بعدم

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ١٢١ ١٢٢ .

اعتبارهم القيد هناك واعتبارهم له هنا وهو الذي ينقل قول أستاذه محمد عبده في تفسير آية قصر الصلاة في السفر فيقول عن شيخه محمد عبده « قال والقصر المذكور في الآية الأولى هنا ليس هو قصر الصلاة الرباعية في السفر المبين بشروطه في كتب الفقه فذلك مأخوذ من السنة المتواترة ، وأما هنا فهو في صلاة الخوف كما ورد عن بعض الصحابة وغيرهم من السلف والشرط فيها على ظاهره »[1] ويقول معلقاً على جواب ابن عمر رضي الله عنهما لمن سأله « أنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن ولا نجد صلاة السفر في القرآن » ، فأجابه ابن عمر رضي الله عنهما » يا أخي إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً فإنا نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل » .

علق السيد رشيد رضا على هذا بقوله « أقول وهذا هو القول الفصل ، والحاذق من عرف كيف يطبق فعله ﷺ على القرآن فهو تبيين له لا يعدله تبيان »[2] .

كيف يرجع السيد رشيد وأستاذه إلى بيان الرسول ﷺ في قصر الصلاة في السفر ولا يرجعان إليه ﷺ في فعله وفعل أصحابه من بيان لقيد اشتراط فقد الماء في السفر وعدم اعتباره في المريض والجريح .

أما الإستدلال بالرأي كقول أحمد المراغي في تفسيره للآية « فالمشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء في هذا الزمان الذي سهلت فيه وسائل السفر في السكك الحديدية والبواخر فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل في مفاوز الحجاز وجبالها ، فأشق ما يشق . في السفر الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه »[3] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٥ ص ٣٦٥ .
(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .
(٣) تفسير المراغي جـ ٥ ص ٤٨ .

ومثله قول السيد رشيد الذي نقلناه آنفاً مثل هذا الإستدلال فغير مسلم فقد جربنا السفر وجربه غيرنا وكم تمنينا أثناءه أن نجد ماء نغسل به وجوهنا ونغطس فيه أقدامنا لنخفف عنا من وعثاء السفر بل لقد كنا نحط رحالنا عنده وما بنا من حاجة للوقوف لولا وجوده لنغتسل منه ونتنظف ونزيل به ما علق بوجوهنا وشعورنا من غبار الطريق أو ننشط من أبداننا ما أوهنته وعثاء السفر كل هذا نفعله ونجد فيه راحة ولذة لا يقطعها إلا الحاجة إلى الماء والدعوة إلى الإقتصاد فيه وما زعم أحد أن في وضوء المسافر واغتساله تعب فضلا عن الزعم بكونه « أشق ما يشق في السفر الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه » .

ويرفض الشيخ شلتوت ما ورد في الروايات الصحيحة التي روى بعضها الستة من ذكر فقد الماء عند التيمم في السفر ويرى أن هذا لا يكفي لكونه شرطاً لصحة التيمم ويطلب واقعة منع فيها التيمم للمسافر مع وجود الماء فيقول « والرأي أنه إذا ثبت عن طريق موثوق به واقعة حال منع فيها التيمم للمسافر مع وجود الماء ، أو ثبت نقل صحيح لإجماع صحيح على منع التيمم لذلك المسافر ، كان ذلك أساساً لقبول رأي الفقهاء في الموضوع ، وكان في الوقت نفسه موجباً لتخريج الآية على النحو الذي يتفق مع ما صح ثبوته من وقائع الحال أو صريح الإجماع أما والحال كما تعلم من أنه لا ثبوت لمثل تلك الواقعة ، ولا تصريح بنقل الإجماع فإن الفقيه في حل من أن يفهم الآية ويخرجها على ما تقتضيه أساليب اللغة العربية وتشهد به أصول التشريع فيما يختص بالعزائم وأسباب الترخيص ونرجو أن يكشف الله لنا ولغيرنا الخطأ في أمثال هذه المسألة كشفاً تطمئن إليه القلوب ، ويقلل من نوازع الخلافات الفرعية التي تقع في دائرة ما أباح الله فيه النظر والإجتهاد »[1] .

قال هذا الشيخ محمود شلتوت وفاته أن الأصل في الطهارة ، هو

---

(١) تفسير القرآن الكريم محمود شلتوت ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

الوضوء ثم جاءت الآية وإستثنت هؤلاء الأربعة وبينت السنة هذا الإستثناء من عجز المريض أو خشيته على نفسه الضرر وهو بمعنى فقد الماء المشروط في الحالات الباقية .

وبقي ما عدا هذه الحالات على الأصل ومن ذلك المسافر الواجد للماء والمريض القادر على استعماله ولا يلحقه الضرر ولو صح أن يقال لا بد من حالة منع فيها التيمم للمسافر مع وجود الماء حتى يستدل بها على منع المسافر الواجد للماء من التيمم لو صح هذا لصح أن يقال ولا بد من حالة منع فيها المقيم من التيمم مع وجود الماء حتى يستدل بها على منع المقيم الواجد للماء من التيمم .

ولما لم يصح هذا لأن الأصل في الطهارة الوضوء لم يصح أن يقال أيضا في المسافر الواجد للماء لعدم وجود المبيح وهو فقد الماء .

ثم يجب أن نشير هنا إلى مسألة دقيقة في نقاشنا مع رجال المدرسة العقلية الحديثة في مثل هذه الأمور .

ذلكم أن رفضي هذا لا أقصد به الحكم الذي توصلوا اليه من جواز التيمم للمسافر مع وجود الماء وإنما يتجه رفضي إلى المنهج الذي سلكوه للوصول إلى هذا الحكم ويعم رفضي هذا كل ما يتوصل إليه بهذا المنهج .

وهي مسألة دقيقة يجب إدراكها للتفريق بين رفض الحكم ورفض المنهج فدراستي ليست دراسة فقهية حتى أناقشهم فيما توصلوا إليه من أحكام وإنما هي دراسة منهج . كنت أقبل كل ما توصلوا إليه من آراء لو كانت آراؤهم التي توصلوا اليها عن طريق منهج سليم أما إذا اشتطوا في منهجهم فرفضه ورفض ما تولد منه هو الواجب الذي التزمه .

ما كنت لأرفض تجويزهم التيمم للمسافر مع وجود الماء لو كانوا توصلوا إليه بالمنهج السليم من إستناد إلى الكتاب والسنة أما أن يأخذوا « بما فهموه » من الآية معرضين حقيقة أو مجازاً عن السنة وبيانها للآية

فهو منهج لا نوافقهم عليه ولا نقرهم ولذلك كان رفضنا هنا رفضاً للمنهج لا رفضاً للحكم بحد ذاته .

فليس العيب في الخطأ في الحكم وإنما الذي يعاب الخطأ في سلوك المنهج وتجاوز المنهج السليم إلى الضال المنحرف .

ولذلك لم يعب أحد من أئمة المذاهب وغيرهم من الفقهاء أحكام المذاهب الأخرى مع اختلافهم فيها وتنوع أقوالهم لأن المنهج الذي سلكه كل واحد منهم كان منهجاً سليماً يعتمد على الكتاب والسنة وأدلة السلف المعروفة ومع هذا وقع الإختلاف في النتائج التي يوصل إليها هذا المنهج السليم لكنها إختلافات مقبولة من الجميع للمصيب فيها أجران وللمخطىء أجر .

أما المنهج الخاطيء فنخشى أن يأثم صاحبه حتى لو أصاب كبد الحقيقة فضلاً عن البعد عنها ومجاوزتها .

والله الهادي إلى سواء السبيل ،،،

خامساً : قوله تعالى « وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » . ١٥٧ - ١٥٨ النساء

نفى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة وما قبلها قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، وأخبر سبحانه بأنه رفع عيسى عليه السلام إليه .

وورد ذكر الرفع في آية أخرى في سورة آل عمران ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(١) .

نفى الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى هنا قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، وأثبت في الآية الثانية وفاته عليه السلام فهل يعني هذا إثبات وفاة عيسى عليه السلام ولكن بدون قتل ولا صلب ؟ أو أن المراد بالوفاة في الآية الثانية معنى آخر ؟ ثم ما المراد بالرفع في الآيتين هل المراد به رفع جسمه عليه السلام أو رفع مكانته وتشريفه ؟ وهل يفهم هذا الأخير من القرآن؟ وما الذي أوجب صرف الوفاة عن معناها المتبادر إلى معنى آخر ؟ وما الذي أوجب صرف الرفع عند الفريق الآخر عن معناه الحسي إلى المعنوي ؟

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٥ .

كل هذا مما يرد في هاتين الآيتين من التساؤل وكله يرجع إلى الخلاف في المراد بكلمتين ، الوفاة ، والرفع فلنذكر المراد بهما ومعناهما عند السلف .

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره :

ثم اختلف أهل التأويل في معنى « الوفاة » التي ذكرها الله عزَّ وجل في هذه الآية فقال بعضهم « هي وفاة نوم » وكان معنى الكلام على مذهبهم : - أني منيمك ورافعك في نومك « ثم قال : - « وقال آخرون : معنى ذلك أني قابضك من الأرض ، فرافعك إلى ، قالوا ومعنى « الوفاة » القبض كما يقال توفيت من فلان ما لي عليه « بمعنى قبضته واستوفيته » . قالوا فمعنى قوله : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ أي قابضك من الأرض حيا إلى جواري وآخذك إلى ما عندي بغير موت ، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك » ثم قال « وقال آخرون: معنى ذلك : إني متوفيك وفاة موت » . وقال « وقال آخرون : معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا وقال : هذا من المقدم الذي معناه التأخير ، والمؤخر الذي معناه التقديم قال أبو جعفر[١] وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال « معنى ذلك : - إني قابضك من الأرض ورافعك إليَّ » لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها ، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه »[٢] .

ومعنى هذا أن الطبري يقول بأن عيسى عليه السلام لم يمت ولم يقتل ولم يصلب وإنما قبضه الله إليه حياً ورفعه إليه كذلك وقد تواترت الأخبار بنزوله بعد هذا إلى الأرض الخ .

---

(١) يعني الطبري نفسه .

(٢) تفسير الطبري جـ ٦ ص ٤٥٥ - ٤٥٨ .

فهو يستند في تفسيره رحمه الله تعالى لهذه الآية إلى القرآن الكريم وإلى السنة المتواترة وإلى دلالة اللغة العربية ومفهومها ولا يميل في تفسيره إلى هوى في نفسه أو مداهنة لغيره وقال بهذا التفسير علماء السلف كلهم واتفقوا عليه واستدلوا له بالأدلة والحجج القوية والبراهين الساطعة ولم يقل أحد منهم أن عيسى رفع ميتاً حتى الذين فسروا الوفاة بالموت فإنهم ذكروا أنه مات ثلاث ساعات وقيل في رواية أخرى سبع ساعات ثم أحياه الله وفي مثل هذا القول ضعف[١] .

وأستند السلف في تفسيرهم هذا إلى ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة المتواترة .

فمن القرآن قوله تعالى عن بني إسرائيل ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[٢] .

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم ما قتلوه وما صلبوه وأخبر بأنه سبحانه رفع عيسى عليه السلام إليه . ومما لا شك فيه أن هدف بني إسرائيل هو (وفاة) عيسى عليه السلام وهذا متحقق بقتلهم وصلبهم له أو موته ولا فائدة في نفي القتل والصلب وحصول الموت فتعين إنتفاء الثلاثة القتل والصلب والموت وإثبات رفعه عليه الصلاة والسلام إلى الله سبحانه وتعالى .

وتأويل التوفي في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[٣] . بما لا

---

(١) فتح القدير للشوكاني جـ ١ ص ٣٤٥ .

(٢) سورة النساء الآيتين ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٥ .

يدل على الموت بل يدل على معنى آخر تبقى معه الحياة وتدل عليه اللغة العربية كالنوم الذي يسمى بالوفاة في اللغة قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾[1] أو القبض أو الإستيفاء ونحو ذلك مما ذكرنا آنفاً . وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة لما صح في الأخبار عن النبي ﷺ من نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال[2] .

فقد تواتر في السنة النبوية الشريفة نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وممن حكى التواتر هذا ابن جرير الطبري[3] كما نقلنا عنه آنفاً والشوكاني في تفسيره[4] وابن كثير[5] وابن حجر العسقلاني[6] وابن عطية الغرناطي الأندلسي في تفسيره[7] .

وأبو الوليد بن رشد[8] والسفاريني[9] والكتّاني[10] والشيخ محمد شفيع[11] والشيخ مصطفى صبري[12] وأبو حيان الأندلسي في تفسيره[13]

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٦٠ .

(٢) فتح القدير جـ ١ ص ٣٤٤ .

(٣) تفسير الطبري جـ ٦ ص ٤٥٨ .

(٤) فتح القدير جـ ١ ص ٥٣٥ .

(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦١٥ - ٦٢١ وجـ ٤ ص ١٤٢ .

(٦) فتح الباري : ابن حجر العسقلاني جـ ٦ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

(٧) البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي الغرناطي جـ ٢ ص ٤٧٣ .

(٨) إكمال إكمال المعلم (شرح صحيح مسلم) لأبي عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٩) لوامع الأنوار البهية محمد بن أحمد السفاريني جـ ٢ ص ٩٤ - ٩٥ .

(١٠) نظم المتناثر من الحديث المتواتر لأبي عبد الله محمد الكتّاني ص ١٤٧ .

(١١) مقدمة التصريح بما تواتر في نزول المسيح كتبها الشيخ محمد شفيع ص ٥٦ .

(١٢) موقف العقل والعلم والعالم جـ ٤ ص ٢٤٧ : مصطفى صبري .

(١٣) النهر الماد من البحر : لأبي حيان الأندلسي جـ ٢ ص ٤٧٣ بهامش تفسير البحر المحيط .

والكوثري[1] حيث قال « أن نصوص القرآن الحكيم وحدها تحتم القول برفع عيسى حياً ، ونزوله في آخر الزمان ، حيث لا اعتداد باحتمالات خيالية لم تنشأ من دليل ، كيف والأحاديث قد تواترت في ذلك واستمرت الأمة خلفاً عن سلف على الأخذ بها وتدوين موجبها في كتب الإعتقاد من أقدم العصور إلى اليوم ، فماذا بعد الحق إلا الضلال[2] ؟! »[3]

لكن رجال المدرسة العقلية الحديثة جاءوا بالعجب العجاب في تفسير هذه الآية مهدوا للأمر أول تمهيد فأنكروا صحة الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام فضلاً عن تواترها وزعموا أنها « روايات مضطربة مختلفة في ألفاظها ومعانيها اختلافاً لا مجال معه للجمع بينها ، وقد نص على ذلك علماء الحديث وهي فوق ذلك رواية وهب بن منبه وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهما في الحديث عند علماء الجرح والتعديل »[4] وأضاف الشيخ شلتوت قائلاً « وموجز ما نقول فيها : أنها لا تخرج عن كونها أحاديث آحاد ، وأحاديث الآحاد مهما صحت لا تفيد يقيناً يثبت عقيدة يكفر منكرها »[5] .

ثم يصف أولئك العلماء الأفاضل الذي حكوا التواتر ومنهم من ذكرنا آنفاً كابن حجر والطبري وابن كثير والشوكاني وغيرهم بأنهم قوم « تظاهروا بالإنتساب إلى الدين والغيرة على أحاديث الرسول استباحوا لأنفسهم - في سبيل أغراضهم الدنيا - أن يصطنعوا كل أساليب التلبيس والتمويه في شأن

---

(١) نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام : الأستاذ محمد زاهد الكوثري ص ٣٦ .

(٢) نظرة عابرة للكوثري ص ٣٦ .

(٣) استفدنا كثيراً في جمع هذه الأسماء لعلمائنا الأفاضل في حكاية التواتر من تحقيق شيخنا عبد الفتاح أبو غدة لكتاب التصريح بما تواتر في نزول المسيح ص ٦٢ - ٦٥ .

(٤) الفتاوي : محمود شلتوت ص ٦٢ .

(٥) المرجع السابق ص ٧٧ .

أحاديث عيسى التي لا يمكن أن يكون منها متواتر حتى على أوسع الآراء في تحققه وهي مع آحاديتها يكثر ويشتد في معظمها ضعف الرواة واضطراب المتون ، ونكارة المعاني ، فتراهم يقولون هي متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين ، وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين ، فإذا رأوا في بعضها ضعفاً أو اضطراباً أو نكارة حاولوا التخلص من ذلك فقالوا : إن الضعيف فيها منجبر بالقوي وأن العدالة لا تشترط في رواة المتواتر . وهكذا يخلعون عليها ثوباً مهلهلاً من القداسة ، لا رغبة في علم ولا غيرة على حق ولكن مكابرة وعناداً وإصراراً على التضليل ، وليقال على السنة العامة وأشباه العامة أنهم حفاظ وأنهم محدثون ! »[1] ! .

فإن قال قائل أنه لا يقصد في اتهامه الخطير هذا أولئك العلماء الذين ذكرت ولم يسم أحداً منهم ؟ قلت إن كلامه ولا شك يشملهم ويعمهم فإنهم هم الذين قالوا « أنها متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين » وهم الذين قالوا « أن الضعيف فيها منجبر بالقوى » .

فإن كان لا يقصدهم فإن كلامه يشملهم بل كدت أقول يخصهم شاء ذلك أم أبى .

ثم أدرك أن كلامه هذا لا يقوم على الأصول الصحيحة في نقد الحديث أو قواعد الجرح والتعديل فذهب يلتمس مخرجاً آخر فزعم « أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل الحكم الذي لا يحتمل التأويل حتى تكون قطعية الدلالة ، فقد تناولتها أفهام العلماء قديماً وحديثاً ولم يجدوا مانعاً من تأويلها »[2] » .

ثم ذهب يلتمس دليلاً يدعم به مزاعمه فرأى خشباً مسندة خالها تصلح

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) الفتاوي : محمود شلتوت ص ٧٨ .

للإعتماد فقال « وقد جاء في شرح المقاصد ـ بعد أن قرر مؤلفها أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية ـ ما نصه : ـ

« ولا يمتنع حملها على ظواهرها عند أهل الشريعة . . وأول بعض العلماء النار الخارجة من الحجاز بالعلم والهداية سيما الفقه الحجازي ، والنار الحاشرة للناس بفتنة الأتراك ، وفتنة الدجال بظهور الشر والفساد[1] ، ونزول عيسى ﷺ باندفاع ذلك وبدو الخير والصلاح . . . الخ » ومن ذلك نرى أن السعد ـ صاحب المقاصد ـ لا يقرر وجوب حملها على ظواهرها حتى تكون من قطعي الدلالة الذي يمتنع تأويله ، وإنما يقرر بصريح العبارة « أنه لا مانع من حملها على ظواهرها » فيعطي بذلك حق التأويل لمن انقدح في قلبه سبب للتأويل »[2] .

ثم جعل الشيخ شلتوت هذه الحجة القوية عنده بياناً جلياً لما ذهب إليه فقال « ومما تقدم يتبين جلياً أنه ليس في الأحاديث ـ التي أوردوها في شأن نزول عيسى آخر الزمان ـ قطعية ما ، لا من ناحية ورودها ولا من ناحية دلالتها »[3] .

وهذا هو ما ذهب إليه شيخه « الأستاذ الإمام » محمد عبده حيث قال عن طريقته « ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب والأمور الإعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر . وثانيهما : ـ تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك

---

(١) سئل الأستاذ الإمام محمد عبده عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال : ـ أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها « تفسير المنار : جـ ٣ ص ٣١٧ بنصه .

(٢) الفتاوي ص ٧٨ محمود شلتوت .

(٣) المرجع السابق ص ٧٩ .

بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله »[1] .

وقد أراد أن يدافع السيد رشيد عن ظاهر هذه الأحاديث بأنه لا يوافقهم ثم أشار إلى تأويل آخر ليسلكوه هو أشد فتنة وضلالاً ممن أنكر التواتر فقال « هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح ، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه ، ولأهل هذا التأويل أن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه »[2] وإنما قلنا أن هذا التأويل أشد ضلالاً وفتنة ممن ينكر التواتر لأن من أنكر التواتر إذا صح عنده التواتر عمل به واعتقد . أما من زعم أن هذه الأحاديث نقلت بالمعنى فالتأويل الباطل هو سبيله في كل ما خالف معتقده سواء كان الدليل متواتراً أو غير متواتر وحجته أنها رويت بالمعنى .

ونقل الشيخ شلتوت عن الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي فتواه في نزول عيسى وجاء فيها « لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حي الآن بجسمه وروحه وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها ، ثم قال « ولكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة ، والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر »[3] .

ومن هذا ندرك مبلغ جهدهم في إنكار تواتر هذه الأحاديث وهو جهد ضال لأنه لا يقوم على الأسس الصحيحة لنقد الحديث مع جمع للروايات ثم نقدها ونقد رجالها بما تبطل به صحتها وتواترها ولكنهم يصفونها ـ اعتباطاً ـ بأنها أحاديث غير متواترة وهذا منهج مألوف لهم في إنكار الأحاديث المتواترة التي لا توافق هواهم وقد مر بنا بعض ذلك في إنكارهم تواتر ما تواتر عند

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ٣ ص ٣١٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣١٧ .

(٣) الفتاوي : محمود شلتوت ص ٨٢ .

السلف من علامات الساعة قال الشوكاني بعد أن ساق الأحاديث الواردة في المهدي والدجال ونزول عيسى « فتقرر أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة والأحاديث الواردة في الدجال متواترة والأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم متواترة »[١] .

وغير ذلك من الآيات التي ذكرنا هناك تواترها وقد أنكر رجال المدرسة العقلية صحتها فضلاً عن تواترها وأولوها تأويلات باطلة على نحو ما نقلنا عن الشيخ عبده آنفاً عن الدجال وكونه رمزاً للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها[٢] .

قصدنا من هذا أن إنكار الأحاديث المتواترة من السهولة عندهم بمكان فكيف إذا كانوا يقصدون به إزالة عقبــة في طريق تأويلهم لآيات القرآن الكريم في شأن رفع عيسى عليه السلام ولننظر بعد هذا كيف أولوا تلك الآية الكريمة في بيان رفع عيسى عليه السلام قال السيد رشيد في تأويل قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٣] « والتوفي في اللغة أخذ الشيء وافياً تاماً ومن ثم استعمل بمعنى الاماتة قال تعالى ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٤] وقال ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[٥] فالمتبادر[٦] في الآية إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي كـما قال في إدريـس عليه السلام

---

(١) انظر تحقيق شيخنا عبد الفتاح ابو غدة لكتاب « التصريح بما تواتر في نزول المسيح للكشميري » ص ٦٤ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣١٧ .

(٣) سورة آل عمران من الآية ٥٥ .

(٤) ٣٩ - ٤٢ (٥) ٣٢ : ١١

(٦) أهمل السيد رشيد المعاني الأخرى للوفاة الواردة في القرآن فقد وردت بمعناها الأصلي الذي أشار اليه وهو أخذ الشيء وافياً تاماً ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ ١١١ النحل . ووردت بمعنى النوم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ ٦٠ الأنعام ولم يذكر السيد الا معنى الموت ثم قال والمتبادر . . . . . الخ .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾[1] ثم قال « هذا ما يفهمه القاريء الخالي الذهن من الروايات[2] والأقوال لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات ولكن المفسرين[3] قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده وهاك ما قاله الأستاذ الإمام في ذلك » ثم نقل تأويل الشيخ عبده لهذه الآية بقوله « يقول بعض المفسرين « إني متوفيك » ، أي منومك وبعضهم إني قابضك من الأرض بروحك وجسدك « ورافعك إليَّ » بيان لهذا التوفي ، وبعضهم إني أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك إليَّ . ونسب هذا القول إلى الجمهور وقال للعلماء ههنا طريقتان أحدهما وهي المشهورة أنه رفع حياً بجسمه وروحه وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى ولهم في حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيباً ـ أقول وفاتهم أن مخالفة الترتيب في الذكر للترتيب في الوجود لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة ولا نكتة هنا لتقديم التوفي على الرفع إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكان . (قال والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه فإن الروح هي حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار فإنه يزيد وينقص ويتغير والإنسان إنسان لأن روحه هي هي (قال) ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٣١٦ . ٥٣:١٩

(٢) مما يشترط في مفسر القرآن أن لا يكون ذهنه خالياً من الروايات فكيف بالمتواتر.

(٣) لم يستثن أحداً منهم وهو إعتراف منه بإحداثهم لما ذهبوا إليه وشذوذهم فيه .

أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر وثانيهما تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبراً عن رأيه وفهمه وكان ذلك مزهقاً لروحها ذاهباً بحكمتها كان لا بد لهم من إصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر »[1] .

ومن هذا ندرك أن الشيخ جعل عيسى عليه السلام رمزاً لغلبة روحه وسر رسالته على الناس كما جعل الدجال رمزاً للدجل والخرافات وكلاهما مذهب جديد سبق إليه الشيخ عبده وتلاميذه . قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي « فزمان عيسى هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر وأما الدجال فهو رمز الخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها ، والقرآن أعظم هاد إلى الحكم والأسرار وسنة الرسول ﷺ مبينة لذلك »[2] .

---

(١) تفسير المنار جـ ٣ ص ٣١٧ .
(٢) تفسير المراغي جـ ٣ ص ١٧٠ .

أما الشيخ شلتوت فهو يفسر التوفي بقوله « وكلمة التوفي قد وردت في القرآن كثيراً بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها ، ولم تستعمل في غير هذا المعنى إلا وبجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[1] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾[2]ثم قال « ومن حق كلمة « توفيتني » في الآية أن تحمل هذا المعنى المتبادر وهو الإماتة العادية التي يعرفها الناس ويدركها من اللفظ والسياق الناطقون بالضاد . وإذن فالآية لو لم يتصل بها غيرها في تقرير نهاية عيسى مع قومه لما كان هناك مبرر للقول بأن عيسى حي لم يمت »[3] . ولا أدري لِمَ لم يعترف الشيخ بأن عيسى حي لم يمت وقد أقر بأن الآية اتصل بها ما يبرر هذا القول ؟! ويحمل معنى التوفي على غير المعنى المتبادر المذكور سيما وقد ورد في القرآن من معاني التوفي غير الموت . بمعنى النوم والإستيفاء . هذا قولهم في معنى التوفي أما تأويلهم للرفع فقال الشيخ شلتوت « وظاهر أن الرفع ـ الذي يكون بعد التوفية ـ هو رفع المكانة لا رفع الجسد ، خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم .

وقد جاء الرفع في القرآن كثيراً بهذا المعنى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾[4] ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾[5] ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[6] ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا ﴾[7] ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[8] . . . الخ .

---

(١) سورة السجدة من الآية ١١ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٧ .

(٣) الفتاوي ص ٦٠ ـ ٦١ محمود شلتوت .

(٤) سورة النور من الآية ٣٦ .

(٥) من الآية ٨٣ الأنعام وكذلك من الآية ٧٦ يوسُف .

(٦) سورة الشرح الآية ٤ .

(٧) سورة مريم من الآية ٥٧ .

(٨) سورة المجادلة من الآية ١١ .

وإذن فالتعبير بقوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وقوله ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ كالتعبير في قولهم لحق فلان بالرفيق الأعلى وفي ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] وفي ﴿ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[2] وكلها لا يُفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول في الكنف المقدس فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه) ؟ اللهم إن هذا لظلم للتعبير القرآني الواضح خضوعاً لقصص وروايات لم يقم على الظن بها ـ فضلاً عن اليقين ـ برهان ولا شبه برهان »[3] وقال السيد رشيد رضا « فالمتبادر في الآية اني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي كما قال في إدريس عليه السلام ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾[4] وإن الله تعالى يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[5] وقال ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[6] .

وأنت ترى أنهم استندوا في صرف لفظ « الرفع » عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي إلى ما حسبوه من النصوص مساوياً لقوله تعالى « ورافعك إليَّ » « بل رفعه الله إليه » فاستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وقوله ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ ونحو ذلك .

وهذا جهل منهم أو تجاهل هو أعظم مصيبة ذلكم أن رفع عيسى عليه السلام اقترن به الجار والمجرور « إليَّ » و « إليه » ومرجع الضمير فيهما إلى الله سبحانه وتعالى فالآيتان صريحتان في رفع عيسى عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى ولم يرد في ما ذكروه من آيات الرفع الأخرى وما لم يذكروه اقتران الرفع بالجار والمجرور « اليه » ونستعيد تلك الآيات للتأكد ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا

---

(١) سورة النور من الآية ٤٠ .
(٢) سورة القمر من الآية ٥٥ .
(٣) الفتاوي ص ٦٤ ـ محمود شلتوت .
(٤) سورة مريم: الآية ٥٧.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.
(٦) تفسير المنار جـ ٣ ص ٣١٦ سورة القمر: الآيتين ٥٤ ـ ٥٥.

العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ ونزيد ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[1] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾[2] .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[3] ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[4] وغير ذلك من الآيات ولم يقترن أيّ منها بـ «إليَّ » أو « إليه »وحينما يقترن منها شيء بهذا فإن المعنى ولا شك يختلف وإلا لكانت الزيادة عبثاً يتنزه القرآن عنه ولم يكن إقترانها خاصاً برفع عيسى فقد وردت في آية أخرى قال سبحانه ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[5] وهذا ولا شك يعطي الرفع قوة خاصة ومزية خاصة بأن الرفع إليه سبحانه وتعالى لا إلى سواه وهو في السماء .

فوجب حمل الرفع لعيسى عليه السلام على أنه رفع إلى الله سبحانه وتعالى في السماء ، وكيف وقد اقترن بهذا الرفع ما يؤيده مما تواتر في سنة أبي القاسم ﷺ وهي المفسرة للقرآن التي لا يصح تناوله بالتفسير مجرداً منها .

ثم لو كان المراد من قوله تعالى « متوفيك » مميتك ومن قوله « رافعك » رافع روحك كما زعموا « كان القول الثاني مستغنى عنه ، لأن رفع روح عيسى عليه السلام بعد موته إلى ربه وهو نبي جليل من أنبياء الله معلوم لا حاجة إلى ذكره »[6] فكان الإخبار برفع روحه بعد الإخبار بموته زيادة يتنزه عنها القرآن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٥ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٣٣ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ١٠ .

(٦) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين / مصطفى صبري جـ ٤ ص ١٧٨ .

الكريم . ولسنا هنا نقصد إلى تقرير هذه العقيدة عند المسلمين والإستدلال لها وإثباتها وإنما قصدنا إبراز منهج أولئك القوم أعني رجال المدرسة العقلية في نبذ هذه العقيدة الثابتة بما دل عليه القرآن الكريم وما تواتر في السنة النبوية الشريفة .

ونرى لزاماً علينا وقد كان هدفنا دراسة المنهج أن نبحث عن الدوافع التي سلكوا من أجلها هذا المسلك المرفوض عندنا وحتى نتوصل إلى ما توصلوا إليه يجب أن ننظر إلى هذه العقيدة نظرتهم إليها فلا كتاب ينص عليها ولا حديث صحيح يقوم سنداً لها إذن فمن أين جاءت هذه العقيدة إلى أفكار المسلمين ؟ لا شك أنها أسطورة ما دامت لا تستند إلى كتاب ولا إلى سنة ولا إلى أي دليل آخر يصح ثبوتها به ، فمن أين استقى المسلمون هذه الأسطورة ؟ .

نلمس جواباً لهذا السؤال في حديث للسيد رشيد رضا حيث يقول « وجملة القول أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حياً حياة دنيوية بهما . . . وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ، وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى ، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام إلى الآن بثها في المسلمين »(١) .

إذن فهذه العقيدة أسطورة لأنها لا تستند إلى الكتاب ولا إلى السنة حاول بثها بين المسلمين أكثر النصارى منذ ظهور الإسلام .

ولا أدري كيف يصفهم بأنهم « حاولوا » ولا يقول « نجحوا » لأنهم تمكنوا من بثها في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما بل في منابع تلك الكتب وتمكنوا من خداع أصحاب هذه الكتب بل من خداع جمهور علماء المسلمين ولم يكشف زيفهم ودسهم لهذه الأسطورة إلا الشيخ محمد عبده وتلاميذه ، هذا على التسليم بأن القرآن لا يدل على هذه العقيدة .

---

(١) الجزء العاشر من المجلد ٢٨ للمنار ص ٧٥٦ .

ثم ما الذي يعنيه القول بأن هذه العقيدة أسطورة انتقلت إلى العقائد الإسلامية من عقيدة النصارى . أرى لزاماً على أن أعيد هنا حديثاً للأستاذ محمد فريد وجدي فلعل فيه جواباً : ـ « وقد أتى على المسلمين دور التاثوا فيه بأدواء الأمم فظهرت أعراضها عليهم في كل بقعة من الأرض فساووا سواهم في كل نتائجها .

في تلك الأثناء ولد العلم الحديث ، وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة اليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان ، وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميثولوجيا . ثم أخذ يبحث في اشتقاق أصولها بعضها من بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد الإنسان لها نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميثولوجيا ووجد دينه ماثلاً فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه إستبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم ، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض »[1] .

ولعل في هذا جواب !؟ أرجو أن لا يكون هو الجواب الحقيقي وأن يكون قصدهم في سلوك هذا المنهج أمراً غير هذا .

والله الهادي . . .

---

(١) مجلة الأهرام ٣٠ / ٨ / ١٩٣٣ م مقال مذهب المتشابهات في القرآن للأستاذ محمد فريد وجدي .

سادساً : قوله تعالى « وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ »

سورة ص الآية : ١٢ .

وصف الله سبحانه وتعالى فرعون مصر بذي الأوتاد في موضعين من القرآن الكريم الأول في سورة (ص) قال سبحانه ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنَ ذُو الأَوْتَادِ ﴾(١) وفي سورة الفجر قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادْ ، وَثَمُودَ الَّذينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا في البِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾(٢) .

قال الشوكاني رحمه الله تعالى « وفرعون ذي الأوتاد : أي ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد ، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام ، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدهم إليها »(٣) وقال « وقيل المراد بالأوتاد الجموع والجنود الكثيرة يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه كما تقوي الأوتاد ما ضربت عليه فالكلام خارج مخرج الإستعارة على هذا. قال ابن قتيبة العرب تقول هم في

---

(١) سورة ص الآية : ١٢ .

(٢) سورة الفجر الآيات : ٦ ـ ١٤ .

(٣) فتح القدير : الشوكاني جـ ٥ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

عزّ ثابت الأوتاد وملك ثابت الأوتاد يريدون ملكاً دائماً شديداً وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد »[1] .

قال المفسرون هذا ، واعتمدوه في تفاسيرهم ولم يفهموا منه ما فهمه أستاذ المدرسة العقلية وإمامها من أن المراد بالأوتاد تلك الأهرامات الموجودة في مصر مع علمهم بوجودها ومشاهدة بعضهم لها إذ هي موجودة في عصرهم وقبله ، ولا تزال ، ولا ندري ما الذي حمل الشيخ محمد عبده على تفسيرها بالأوتاد فما قاله لا يصح دليلاً إلا إن كان قد سئم من الإستمرار على ما يألفون واندفع إلى طلب شيء مما لا يعرفون[2] .

قال في تفسير الآية : « وفرعون هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام ، وللمفسرين في الأوتاد اختلاف كبير ، وأظهر أقوالهم ملائمة للحقيقة أن الأوتاد المباني العظيمة الثابتة ، وما أجمل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ! فإنها هي الأهرام ومنظرها في عين الرائي منظر الوتد الضخم المغروز في الأرض بل إن شكل هياكلهم العظيمة في أقسامها شكل الأوتاد المقلوبة يبتدىء القسم عريضاً وينتهي بأدق مما ابتدأ وهذه هي الأوتاد التي يصح نسبتها الى فرعون على انها معهودة للمخاطبين »[3] .

وردد كلامه تلميذه أحمد مصطفى المراغي فقال « الأوتاد المباني العظيمة الثابتة »[4] ولم يذكر سوى هذا التفسير وأهمل كل تفسير للآية سواه ، وقال « وفرعون ذي الأوتاد » أي وفرعون ذي المباني العظيمة التي شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر في قديم الأزمان كالأهرام وغيرها ، وما أجمل التعبير عما تركه المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد فإن شكل هياكلهم

---

(١) المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٢٣ .

(٢) بهذا وصف الشيخ عبده نفسه (أنظر تاريخ الأستاذ الإمام : جـ ١ ص ١١)

(٣) تفسير جزء عم : محمد عبده : ، ص ٧٩ .

(٤) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٣٠ ص ١٤٣ .

العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدىء البناء عريضاً وينتهي بأدق مما بدأ »[1]

ومن عجب أنه لم يذكر هذا التفسير إلا في نفس الموضع الذي ذكره فيه شيخه ولم يشر إليه عند تفسيره لسورة (ص) ولعل السبب في ذلك أن شيخه لم يفسر آية « ص » فلذلك جاء تفسيره للآية في سورة « ص » تفسيراً سليماً يعتمد على المفهوم الصحيح للآية ولا يخالف اللغة ولا التاريخ بل يعتضد باللغة قال « وقوله ذو الأوتاد أي ذو الملك الثابت وأصله البيت المطنب بأوتاد وهو لا يثبت بدونها ، ثم استعمل في إثبات العز والملك كما قال الأسود بن يعفر : ـ

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد »[2]

ويحسن بنا هنا أن نذكر إبطال الأستاذ محمد فريد وجدي لتأويل الأوتاد بالأهرامات وتفنيده له ، وهو حينما يفعل هذا فإنه قد غاب عن ذهنه أن هذا التأويل لأستاذه محمد عبده ولكن تحمسه لتفنيد أدلة خصمه في منع ترجمة القرآن وتأويل خصمه الأوتاد بالأهرامات هو الذي جعله يفند هذا التأويل .

يذكر أولاً كلام خصمه في الإستدلال بأن ترجمة هذه الآية إلى لغة أجنبية يفوت المعنى الجليل لها حيث يقول الخصم « وقال تعالى « وفرعون ذي الأوتاد » لو فسر بكثرة الجنود أو بأنها أوتاد كان فرعون يعذب بها الناس ، ضاع المعنى الجليل الذي يدلنا عليه التاريخ ، وهو أن الأوتاد هي هذه الأهرامات ، ولم يثبت أن فرعون كان أكثر الملوك جنوداً . . الخ »[3] .

هذا كلام الخصم رد عليه الأستاذ وجدي ـ ناسياً أو جاهلاً ـ أن هذا

---

(1) المرجع السابق : جـ ٣٠ ص ١٤٤ .
(2) المرجع السابق : جـ ٢٣ ص ١٠٢ .
(3) الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن : محمد فريد وجدي ص

التأويل لأستاذه محمد عبده فقال « إن العالم كله يعرف أن في مصر أهرامات بناها الفراعنة الأولون منذ نحو خمسة آلاف عام فليس في التنويه بها كبير شيء حتى يوصف بأنه معنى جليل يضيع علينا بجهل المفسرين له . لننظر الآن هل في إطلاق لفظ الأوتاد على الأهرام شيء من الجمال المعنوي الذي يصح نسبته إلى الكلام الإلهي ؟ نعم إنه سبحانه وتعالى قال : ـ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾[1] تشبيهاً لها بأوتاد الخيمة ، إذ تخدم في منعها من الميدان ، كما تخدم أوتاد الخيمة في ذلك ، ولكن أي فارق بعيد بين أصغر تل في الأرض وبين أطول هرم من الأهرام ؟ إن إرتفاع الهرم الأكبر لا يجاوز مئة وخمسة وأربعين متراً ، وطول قاعدته لا يزيد عن ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين متراً ، فأين هو من جبل هملايا الذي يزيد إرتفاعه عن ثمانية آلاف وثمانمائة متر ويشغل شمال الهند كله أو جبال أنده في أمريكا الجنوبية التي يبلغ طول قاعدتها نحو سبعة آلاف كيلو متر وارتفاعها بضعة آلاف من الأمتار ؟ لا جرم أن هذه الجبال يصدق عليها أن تسمى أوتاداً للأرض أما الأهرام وهي لا تساوي في طولها وعرضها أصغر تل في الأرض فلا تصلح أن تسمى أوتاداً لها ، والله يتنزه عن مثل هذه المبالغات الكلامية .

ثم إن هذه الأهرام جعلت قبوراً للذين بنوها من الفراعنة ، ولم يكن فرعون موسى من الذين شيدوها ، بل كان بينه وبين أحدثها نحو ثلاثة آلاف عام ، فلا تصح نسبتها إليه وهو لا يملك حتى ولا أن يدفن فيها »[2] .

ثم ذكر التفسير الصحيح للآية فقال « أما التفسير الصحيح لهذه الآية والذي تشير إليه بقيتها فهو ما قاله المفسرون من أن « ذي الأوتاد » كناية عن كثرة جنوده قال الله تعالى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِيْ الأَوتاد الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ فذكر الطغيان في البلاد هنا وإكثار الفساد فيها يدل دلالة صريحة

---

(١) سور النبأ الآيتين ٦ و ٧ .

(٢) الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن : محمد فريد وجدي ص ٣٤ .

على أن المراد بذي الأوتاد الكناية عن كثرة الجنود »[1] .

ولنكتف برد الأستاذ وجدي على تأويل أستاذه من حيث يدري ، أو من حيث لا يدري ففيه السداد .

(١) المرجع السابق : ص ٣٥ .

سابعاً : قوله تعالى « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ » . سورة الفيل

والآيات تلك تشير إلى العقاب الذي أنزله الله بأصحاب الفيل كما ورد في سورة الفيل قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .

وحادثة الفيل حادثة استفاضت شهرة بين العرب في الجزيرة العربية حتى أصبحت تاريخاً يؤرخون به أحداثهم فقالوا ولد رسول الله ﷺ عام الفيل وولد فلان بعد الفيل بسنتين أو قبله بثلاث سنوات .

والقصة تبدأ حينما رأى أبرهة ملك اليمن إنصراف الناس من اليمن إلى مكة لزيارة الكعبة شأنهم في هذا شأن بقية العرب في الجزيرة العربية كلها .

فأراد أن يرسي دعائم حكمه ويوطد أركانه ويدعم إقتصاد بلاده ويحول اتجاه القوافل عن مكة إلى بلده اليمن فأنشأ كنيسة جمع لها كل أسباب الفخامة وأمر الناس بالحج إليها بدلاً من الحج إلى الكعبة في مكة . وهو يعتقد أن صرف العرب عن معتقدهم سيكون بهذه البساطة والسهولة ولم يكن

العرب كذلك بل لم يقبلوا من أنفسهم أن يكتفوا برفض الدعوة بل لا بد من السخرية بأبرهة وبكنيسته فتوجه أحدهم إليها وسلح فيها في غفلة من الحرس ولطخ به حيطانها فغضب أبرهة لذلك وعزم على هدم الكعبة .

فجمع جيشاً جراراً وجعل في مقدمته الفيلة ليكون أكثر مهابة في قلوب الناس ولم يكن هذا ليمنع العرب من التصدي له وهو بتلك القوة فتصدى له بعض العرب مرتين في طريقة كان هو المنتصر فيهما .

ووصل إلى مكة واستولى على إبل أهلها ومواشيهم وجاء عبد المطلب ليطالب بإبله فعجب أبرهة من طلبه وعاب عليه أن يطلب الإبل ولا يطلب منه ترك هدم الكعبة فقال عبد المطلب كلمته المشهورة « أنا رب هذه الإبل وللبيت رب يحميه » وصعد عبد المطلب وأهل مكة إلى الجبال كما أمرهم عبد المطلب ووجه أبرهة جيشه تلقاء مكة لبدء الهجوم فبرك الفيل دون حراك وإذا وجهوه إلى جهة أخرى قام مهرولاً فجربوا معه كل وسيلة وهو على هذه الحالة .

وأثناء ذلك أقبل من جهة البحر « طيراً أبابيل » أي جماعات متتابعة « ترميهم بحجارة من سجيل » أي من طين متحجر وقد رمى بهذه الحجار قوم لوط » قال سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[1] . وقال سبحانه ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾[2] فوصف الحجارة هنا بأنها من سجيل ثم وصفها في موضع آخر بأنها من طين ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾[3] فدل على أن المراد بالحجارة من سجيل حجارة من طين وهو ما رمى به جيش

---

(١) سورة هود الآيتين ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) سورة الحجر الآية ٧٤ .

(٣) سورة الذاريات الآيتين ٣٢ ـ ٣٣ .

أبرهة . هذا من ناحية الحجارة التي رموا بها أما ذلكم الطير الذي أرسله الله فقد أبهمه سبحانه ولم يعين نوعه وقد اختلفت الروايات في تحديد نوعه وشكله وحجمه ولكنها كلها دلت على أن هذا الطير من الحجم بحيث يشاهده الإنسان وبحيث يحمل ما يصح أن يسمى حجارة ويقذف به .

ولقد كان هلاك جيش أبرهة برمي الطير الأبابيل لهم بحجارة من سجيل أمراً عجيباً حقاً . لكن هل كان الرمي لهم بتلك الحجارة هو السبب المباشر لهلاكهم بمعنى أن هلاكهم بها كما يهلك إنسان بسقوط صخرة عليه أو بنفاذ طلقة نارية في جسده ، أو أن الرمي بتلك الحجارة كان سبباً لنشوء مرض قتال يكون هو سبب هلاكه .

والخلاف في هذه القضية متولد عن خلاف في قضيته الأصلية وهو خلاف أقوى وأهم ونص القرآن فيه من الوضوح بمكان لمن يطلبه ، ويرجع الخلاف في هذا إلى الخلاف في الطير هل هو مما يقبل أن يحمل الحجارة ويقذفها بإذن الله لتميت بها وتهلك من تصيب ؟ أم أنه ظير لا يكاد يرى يحمل بين رجليه حجارة لا ترى يهبط بها على جسد من يريد الله إهلاكه فيصيبه المرض القتال بسببها فلا ينجو .

الذي قاله المفسرون كما أشرنا إلى ذلك آنفاً أن الله أرسل عليهم طيراً شبهها بعضهم بالخطاطيف وبعضهم بالوطاويط وشبهها غيرهم بغير ذلك من أنواع الطيور أما الحجارة فقالوا أنها كانت قطعاً صغيرة من طين يابس شديد صلب وحدد بعضهم حجمها بأنها أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة[1] .

ذلكم ما قاله المفسرون وهو تفسير وإن كان فيه اختلاف إلا أنه اختلاف

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٣٢ ص ٩٧ .

متقارب لا يبعد أقوالهم بعضها عن بعض وإنما هو اختلاف في جزئيات بسيطة .

وفسر رجال المدرسة العقلية الحديثة هذه الآية تفسيراً آخر أرادوا به أن تكون الحادثة أمراً مألوفاً يقرب إلى أذهان الذين لا يؤمنون بالخوارق . فقد أولو تلك الطير بالذباب وأولو الحجارة التي من سجيل بما يعلق بأيدي وأرجل هذه المخلوقات من جراثيم وميكروبات قال الأستاذ محمد فريد وجدي في تفسيره « ولا يبعد أن تكون تلك الطيور جراثيم الطاعون إذ لا مانع من تسميتها طيوراً »(١) .

وقال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسير السورة « أي أنه تعالى أرسل عليهم فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش فأبتلوا بمرض الجدري أو الحصبة حتى هلكوا» **ثم قال** » ولا شك أن الذباب يحمل كثيراً من جراثيم الأمراض فوقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله ، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجم الغفير من الناس فإذا أراد الله أن يهلك جيشاً كثير العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيداً عن مجرى الألف والعادة ، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور ، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام القهر الإلّهي وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة وتقض مضجعه بعوضة ، ويؤذيه هبوب الريح »(٢) .

ومن هذا ندرك أن الشيخ أول الطير والحجارة في السورة بـ « الذباب يحمل كثيراً من جراثيم الأمراض ، فالمراد بالطير والمراد بالحجارة تلك الجراثيم التي يحملها الذباب .

---

(١) المصحف المفسر محمد فريد وجدي ص ٨٢٢ .
(٢) تفسير المراغي : ٣٠ ص ٢٤٣ .

أما أن هذا التأويل أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه فسيأتي الحديث عنه. وهذا التأويل من تلاميذ المدرسة هو عين نهج أستاذهم الشيخ محمد عبده حيث مهد لتأويله بقوله « الطير هو ما يطير في الهواء ، سواء كان صغيراً أو كبيراً ، وسواء كان مرئياً لك أم غير مرئي » وبعد هذا التمهيد زعم أن مما تواتر في الواقعة فشو داء الجدري والحصبة في جند الجيش[1] ثم استدل لذلك فقال « .... قال عكرمة وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط . فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين وأصيب الجيش ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء . وهذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الإعتقاد به »[2] .

ولا ندري ما مفهوم التواتر عند الشيخ محمد عبده ينكر تواتر ما عرف عند السلف تواتره ويصف بالتواتر ما لم يعرف بذلك .

يزعم هنا أن وقوع الجدري والحصبة في جيش أبرهة قد تواتر وأنه مما اتفقت الروايات عليه ويستند في ذلك إلى قول عكرمة « وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب » وقول يعقوب بن عتبة « أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام » هذا كل ما استند إليه للحكم بالتواتر .

أما قول يعقوب فليس فيه ما يدل على وقوع الحصبة أو الجدري في جيش أبرهة وكل ما فيه أن ظهور الجدري لأول مرة كان في هذا العام فلا يصح الإحتجاج به لذلك .

وأما قول عكرمة فنقول أنه روي عن عكرمة ما هو أصرح من ذلك في

---

(١) تفسير جزء عم محمد عبده ص ١٥٥ .

(٢) تفسير جزء عم محمد عبده ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الدلالة على وقوع مرض الجدري في جيش أبرهة فقد روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال « لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري »[1] .

وهذا كله مجرد رواية فأين هي من دعوى التواتر .

أما زعم الشيخ أن ما قاله هو ما اتفقت عليه الروايات فهو غريب في باب العلم وعجيب في تفسير القرآن وليس بغريب ولا بعجيب من الشيخ محمد عبده وتلاميذه .

زعم أن الروايات اتفقت على ذلك وهي لم تتفق بل ذكرت بعض الروايات أن الطير كانت أشبه ما تكون بالخطاف وذكرت روايات أخرى أنها تشبه الوطاويط وذكرت أخرى بأنها أشبه باليعاسيب وذكر بعضها أنه لم ير قبلها ولا بعدها مثلها وقيل أنها كعنقاء المغرب وقيل غير ذلك من الروايات . فكيف يزعم زاعم أن الروايات اتفقت على ذلك . وكذا أمر الجدري لم تتفق الروايات على وقوعه في جيش أبرهة بل لم تشر أي رواية إشارة صريحة إلى وقوعه فيهم سوى رواية عكرمة .

ثم إن القضية ليست في وقوع الجدري في جيش أبرهة أو عدم وقوعه فهذا أمر جانبي لم يشر له القرآن الكريم من قريب أو من بعيد لا بإثبات ولا تكذيب .

فقد يكون الجدري وقع في الجيش أو لم يقع وليس في هذا على الحالين ما يخالف القرآن أو يناقضه أو يؤيده .

بل القضية قضية الطير الذي أرسله الله سبحانه إلى جيش أبرهة والحجارة التي رموا بها وما يحتمله تأويل كل منها من الروايات .

فقد حمل الشيخ محمد عبده وتلاميذه المراد بالطير على أنه البعوض أو الذباب ، وحملوا المراد بالحجارة من سجيل على أنه ما يعلق بأرجلها من

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٣٢ ص ١٠٠ .

جراثيم أو ميكروبات أو الطين اليابس الذي تحمله الريح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات .

فهل يصح حمل المراد بالطير والحجارة على هذا التأويل أو لا يصح ؟ وهل يصح الإعتقاد بهذا أو لا يصح ؟

قال الشيخ محمد عبده « فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد أهلاكه من البشر وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها . ـ ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها »[1] . . .

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده وتلاميذه في المراد بالطير ونحن وإن لم نقبل كل ما قيل في وصف هذا الطير من الروايات التي تصف حجمه وشكله وصفاً مثيراً يظهر على سطحه عنصر المبالغة والتهويل كتشبيههم رؤوسها برؤوس السباع وخراطيمها بخراطيم الطير وأكفها بأكف الكلاب ونحو ذلك إن كنا لا نقبل كل ما قيل فيها على هذا النحو فإنا لا نقبل بحال تأويلها بأن المراد بها البعوض أو الذباب . والمكروبات مما قال به تلاميذ المدرسة العقلية قال الشيخ الذهبي « لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن ، والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال وقد جاء القرآن

---

(١) تفسير جزء عم محمد عبده ص ١٥٦ .

بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون»[1] وقال الشيخ محمد الصادق عرجون بعد أن فسر المراد بالطير بما ورد من تشبيهها بالخطاطيف أو الوطاويط « أوليس هذا أقرب إلى الأسلوب العربي من حديث الجدري والحصبة والذباب والبعوض والمكروب ؟ وهل في عرف اللغة العربية واستعمالاتها اطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى بالمكروب فهل كان القوم المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبي الذي افتتحت به السورة يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان المسمى (بالمكروب)[2] ، ثم إن الذين شبهوا هذه الطيور بالخطاطيف والوطاويط ونحوها لم يكن وصفهم لها مستمداً من دلالة الوصف القرآني (الطير) وحده حتى يستوون مع غيرهم في الفهم بل يضاف إليه رؤيتهم لذلك الطير بأنفسهم أو السماع ممن رآه مباشرة . وما دامت روايتهم لا تخالف رواية القرآن فهم أولى بالصحة وأقرب إليها من سواهم فكيف إذا جاء المعارض بوصف لا يوافق وصف القرآن فزعم أن المراد بالطير البعوض أو المكروب .

بل إن الآية صرحت بإرسال الطير « وأرسل عليهم طيراً أبابيل » وبين المخاطبين كثير ممن عاصر الحادث بل ممن شاهده وفيهم كثير من أعداء الرسول ﷺ فالسورة مكية ولو أنهم لم يروا هذا الطير الأبابيل رأي العين لبادروا إلى تكذيب القرآن وإنكارهم لرمي الطير لجيش أبرهة ولا يقبل أن يقال أنهم رأو المكروب أو الجراثيم لأنهم لا يستطيعون رؤيتها ولا يقال أنهم رأوا الذباب أو البعوض لأنهم لا يرون الحجارة التي تحملها فكان لا بد أن يكونوا رأوا طيراً ورأوا الحجارة التي تحملها ورأوا الرمي ولا يهم بعد ذلك أن يكون هلاك الجيش بمجرد وقوع الحجر أو أن تكون هذه الحجارة قد أصابته بمرض من الأمراض فالقرآن لم يصرح بذلك بل ذكر هلاكهم بهذا العقاب الشديد .

أما ما زعموه من أن تأويل الطير بالجراثيم والذباب والبعوض وتأويل

---

(١) التفسير والمفسرون ـ الذهبي ـ جـ ٣ ص ٢٣٥ .

(٢) نحو منهج لتفسير القرآن محمد الصادق عرجون ص ٣٥

الحجارة بما يعلق في أرجل هذه المخلوقات من مكروبات أو مواد سامة هو أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه فرد عليه سيد قطب رحمه الله تعالى حيث قال « لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله ولا أولى بتفسير الحادث فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع ، ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم ، وهي التي جرت فأهلكت قوماً أراد الله إهلاكهم أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر ، وغير المعهود المكشوف لعلمهم ، فحققت قدرة ذاك » ثم قال فأما في هذا الحادث بالذات فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة وأن الله أرسل طيراً أبابيل غير معهودة . . . . نحن أميل إلى هذا الإعتبار لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الإعتبار هو الأقرب »[1] ثم قال « ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو ـ يعني بالحصبة والجدري ـ وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل ، وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجردة أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث .

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ على رأسها في تلك الحقبة . . . . ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . . . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة ، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها . فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب جـ ٣٠ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل » ثم قال « ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة . من المبالغة في الإحتياط ، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع في تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ـ رحمهم الله جميعاً ـ شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد كثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه « المعقول » وإلى الحذر والإحتراس الشديد في تقبل الغيبيات .

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الإتجاه . فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف ـ هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه ـ كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام المدرسة[1] فتبين بهذا كله خطأ رجال المدرسة العقلية الحديثة في تفسير هذه الآية وتجاوزهم للحدود التي شرعها الله سبحانه وتعالى لتحكيم العقل وتعديهم على القرآن الكريم بتفسيرهم لآياته تفسيراً لا يعتمد على قواعد التفسير وأصوله فعلوا كل هذا لمواجهة المفتونين بالعلم الحديث وما توصل إليه من مقررات ولكن هذا لا يعني من قريب أو من بعيد أن نصرف ظاهر آيات القرآن الكريم عن حقيقتها مع عدم مصادمتها لشيء من مقررات العلم الثابتة وفعلوا ذلك تقريباً لوقوع الحادثة إلى عقول من ينكرون الخوارق ولا يؤمنون بها لعلهم يصدقون إذا كانت جارية على ما هو مألوف ومقرر في العلم الحديث .

(١) في ظلال القرآن سيد قطب جـ ٣٠ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

ونسوا أن فيما أقروا به خارقة لا تقل عن خارقة ذلك الطير الذي يحمل الحجارة ويلقي به على الجيش فيهلكه ذلكم أن وقوع المرض الفتاك بجيش أبرهة مع عدم تعديه وتجاوزه إلى من حوله يعد خارقة كبيرة . فهم فروا من أمر إلى مثيله .

والله أعلم والهادي إلى سواء السبيل



الباب السادس

أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي الحديث
وموقف علماء المسلمين والمستشرقين منها

أولاً : أثرها في الفكر الإسلامي الحديث .

ثانياً : موقف علماء المسلمين منهم .

ثالثاً : موقف الاستعمار البريطاني منهم واعترافه بما قدموه له من خدمات

رابعاً : النتيجة



أولاً : أثرها في الفكر الإسلاميّ الحديث .

لعل الحديث عن أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي الحديث ـ بحد ذاته ـ يحتاج إلى رسالة مستقلة وعناية خاصة ودقيقة لطوله واتساعه من جهة ، ولأهميته وخطورته من جهة أخرى .

وليس في وسعنا ـ هنا ـ الإطالة في دراسة هذا الأثر فضلاً عن الإحاطة به والشمول واستقصاء جميع جوانبه ـ لما ذكرنا من طوله واتساعه ، وليس في وسعنا أيضاً أن لا نعرض إلى ذكر شيء من أطرافه ليتم بها عرض منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ولهذا فإنا نرى ـ لزاماً ـ أن نشير إلى أبرز آثارها في بعض النواحي الفكرية :

أ ـ ففي التفسير للقرآن الكريم : ـ

أخذ بعض من تناول تفسير القرآن الكريم بعض مبادىء هذه المدرسة وسار على نهجها في تفسيره سواء التزم الحدود التي حددوها أم تجاوزها إلى ما هو أبعد وأعمق ، فلقد كان تفسير القرآن الكريم تفسيراً يتلاءم مع كثير من المكتشفات العلمية الحديثة محل عناية واهتمام كبيرين من قبل رجال المدرسة العقلية وكان من أسس منهجهم في التفسير كما بينا هناك ، وفصلنا .

ولقد أخذ من بعدهم الشيخ طنطاوي جوهري وهو من المتأثرين

كثيراً بمحمد عبده ومن تلاميذه أخذ بهذا المنهج في التفسير وتوسع فيه وأطال وذهب يملأ تفسيره بكل ما توصل إليه العلم من مكتشفات حتى قال عنه بعضهم ما قيل في تفسير الرازي « فيه كل شيء إلا التفسير » وقال الشيخ محمد حسين الذهبي « بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به »[1] .

وأنت إذا نظرت إلى تفسيره وجدته يحمل الآيات مالا تحتمله ويدخل في تفسيرها من المكتشفات العلمية ما لم تشر إليه ويبرر هذا بأعذار واهية لا تقوم له بها حجة .

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . . ﴾[2] الآيات « وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه ، أن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوروبا ثانياً »[3] وقال « ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته وكذلك حماره ، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم وعلم الله إننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير ، وإبراهيم وموسى ، فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم

---

(١) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٦٧ وما بعدها .

(٣) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : طنطاوي جوهري جـ ١ ص ٨٤ .

فقلت ﴿ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِه ﴾[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ونحوها من الآيات يقول « . . أوليس الإستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن »[3] .

لاشك أن هذا التفسير وأمثاله من أخطر التفاسير للقرآن الكريم بل هو تلاعب بالآيات وصرف لها عن حقائقها الثابتة إلى معان لا تثبت إلا بقدر ما تثبت مكتشفات علمية تهتز يمنة ويسرة بين الثبات والسقوط ـ هذا في الآيات التي قد يفهم منها ما أورده في تفسيرها فما بالك بما يورده من تفسير لا تحتمله الآي من بعيد ولا من قريب .

نحن ندرك أن هدفه من سلوك هذا المنهج هو نفس هدف رجال المدرسة العقلية في سلوكه حيث يقول الأستاذ الأكبر محمد المراغي عن أحدهم في تفسيره العلمي « وحمدت له هذه النزعة العلمية التي لو تحلى بها كل مبرز في فرع من فروع العلم لاجتمع لدينا ذخر عظيم من هذه التطبيقات الثمينة تستفيد منه النابتة الحديثة زيادة معرفة بإعجاز القرآن وإيقان بأن الله ما فرط في كتابه من شيء »[4] .

نحن ندرك أن هذا من أهدافه ولكن هذا لا يخوله حق تأويل الآيات على هذا النحو وإلى هذا الحد الذي تجاوز فيه حد الأمان والسلامة .

ولكن الذي تأثر بمنهج المدرسة العقلية الحديثة أكثر من هذا هو

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٩ .

(٢) سورة النور : من الآية : ٢٤ .

(٣) الجواهر : طنطاوي جوهري جـ ٣ ص ٩٩ .

(٤) الإسلام والطب الحديث : عبد العزيز إسماعيل تقديم محمد مصطفى المراغي ص ٥ و ٦ .

صاحب تفسير « الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن » وهو الشيخ أبو زيد الدمنهوري وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في المحيط العلمي وثورة ساخطة من شيوخ الأزهر على مؤلفه وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب والحكم على صاحبه بالزيغ والضلال[1] وقد عثرت على نسخة منه في إحدى مكتبات القاهرة.

ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى أهم ما ذهب إليه في تفسيره وأنت تدرك بعد هذا أثر المدرسة العقلية عليه : ـ

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام : ـ

حيث يقول « وأن آيتهم على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول ولا بما يبدل سنّة الله ونظامه في الكون»[2].

معجزات عيسى عليه السلام :

يقول «﴿ كهيئة الطير ﴾ يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره»[3].

معجزات موسى عليه السلام :

في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾[4] يقول « ويصح أن يكون

---

(١) الإتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم : محمد حسين الذهبي ص ٩٤.

(٢) الهداية والعرفان ص ٣٠٦.

(٣) الهداية والعرفان: ص ٤٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

الحجر اسم مكان واضرب بعصاك الحجر معناه : إطرقه ، واذهب إليه ، والغرض أن الله هداه إلى محل الماء وعيونه »[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2] يقول « مثال من قوة حجته وظهور برهانه »[3] .

معجزة إبراهيم عليه السلام :

في تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ . . . ﴾[4] يقول «معناه نجاه من الوقوع فيها»[5]. ثم يفسر معنى النجاة بأنه « أن الله نجاه بالهجرة وخيَّب تدبيرهم»[5].

الإســـــراء :

ويفسر الإسراء بالرسول ﷺ أن المراد به هجرته من مكة وهي المسجد الحرام إلى مسجد المدينة وهو (المسجد الأقصى)[6].

تفسيره للملائكة والجن والشياطين : -

ويقول عن الملائكة (الملائكة رسل النظام وعالم السنن وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له »[7] أما إبليس فهو « اسم لكل مستكبر على الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصي على الإنسان تسخيره »[7] .

---

(١) الهداية والعرفان: ص ١٣١ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتين : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٣) الهداية والعرفان: ص ١٢٦ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية : ٦٩ .

(٥) الهداية والعرفان: ص ٢٥٦ .

(٦) الهداية والعرفان: ص ٢١٩ .

(٧) الهداية والعرفان: ص ٧ .

الحـــدود :

وما دام باب الإجتهاد مفتوحاً وميسوراً ومادامت الشروط التي وضعها الفقهاء لبلوغ رتبة الإجتهاد إفتياتاً على الله ونسخاً لكتابه كما قال أصحاب المدرسة العقلية[1] فلا عجب أن يبادر أبو زيد الدمنهوري وغيره ممن استجاب لدعوتهم فيبدأ في « تطوير » الأحكام الشرعية وذهب فيها « مجتهداً » مذهباً عجيباً .

حد السرقة :

ففي تفسير قوله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾[2] يقول « واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطي معنى التعود أي أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم ويظهر لك من هذا المعنى أن من يسرق مرة أو مرتين ولا يستمر في السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده لأن قطعها فيه تعجيز له ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه »[3] .

وإلى هذا ذهب من بعده المستشار مصطفى كمال المهدوي وأيد رأيه مصطفى محمود وزعم أن فيه التزاماً واحتراماً وأن فهمه جدير بالإستماع والتأمل والبحث ؟ ![4]

وكذا الزاني والزانية عندهم يشترط أن يكونا معروفين بالزنا وكان من عادتهما وخلقهما فهما بذلك يستحقان « الجلد »[5] .

---

(١) أنظر الأساس العاشر من منهج المدرسة العقلية الحديثة وانظر تفسير المنار : جـ ١ ص ١١٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية : ٣٨ .

(٣) الهداية والعرفان: ص ٨٨.

(٤) مجلة صباح الخير العدد ١٠٩٣ في ١٦ ديسمبر ١٩٧٦ م مقال « قطع اليد في القرآن » مصطفى محمود .

(٥) الهداية والعرفان: ص ٢٧٤.

تعدد الزوجات :

ولا يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامى في حجره ، وأمن من نفسه عدم الجور[1] وهو ما ذهب إليه من بعده أيضاً المهدوي ومصطفى محمود[2] ، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقاً ومن يطلع على سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط في التعدد[3] .

الربا :

ويجعل الربا المحرم شرعاً هو الربا الفاحش وبمعنى آخر الربح الزائد عن حده في رأس المال وتقدره كل أمة بعرفها»[4].

هذا بعض ما ذهب إليه هذا المفسر في تفسيره ، وما قصدنا من الإستطراد في ذكر أمثلة من تفسيره إلا لتتضح لنا صلته بالمدرسة العقلية وتأثره بما ذهبت إليه من آراء في معجزات الأنبياء عليهم السلام كافة ، ومن اجتهاد في غير محله ومن غير أهله في الشريعة الإسلامية ، وإنا لنعجب كيف قامت الصيحات والإحتجاجات على المؤلف حتى صودر الكتاب وحكم عليه بالزيغ والضلال وهو إنما يردد ما جاءت به المدرسة العقلية الحديثة إلا ما ندر وفي الوقت نفسه يلاقي تفسير أصحاب المدرسة الترحيب والقبول ؟ !

ب - في القصة القرآنية :

في سنة ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابة في الشعر الجاهلي وقد جاء في ص ٢٦ منه : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا أيضاً ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي

---

(١) الهداية والعرفان: ص ٦١.

(٢) مجلة صباح الخير العدد ١٠٩٣ في ١٦ ديسمبر ١٩٧٦ م مقال « قطع اليد في القرآن » مصطفى محمود .

(٣) التفسير والمفسرون : جـ٣ ص ٢٠٩ .

(٤) الهداية والعرفان: ص ٥٣.

لإثبات وجودهما التاريخي »[1] ويقول في نفس الصفحة « .. فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل ابن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة أخرى ، والقرآن والتوراة من جهة أخرى .. »[2]

وفي عام ١٩٤٧م قدم الطالب محمد أحمد خلف الله من كلية الآداب بجامعة فؤاد رسالة للحصول على الدكتوراه بعنوان « الفن القصصي في القرآن الكريم » قرر فيها أن ورود الخبر في القرآن الكريم لا يقتضي وقوعه ، وأنه يذكر أشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن (!!) من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ « إن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وإن التمسك به خطر أي خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة »[3] ويقول « إن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع وليست من مقاصد القرآن في شيء ... إن قصد القرآن من هذه المعاني إنما هو العظة والعبرة ... ومعنى هذا .. إن قيمتها التاريخية ليست مما حماه القرآن الكريم ما دام لم يقصده »[4] .

ويستند[5] فيما قال على ما جاء في المنار (ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من

---

(١) ذيل الملل والنحل : محمد سيد الكيلاني ص ٤٨ عن (في الشعر الجاهلي طه حسين) .

(٢) ذيل الملل والنحل : محمد سيد الكيلاني ص ٨٤ عن (في الشعر الجاهلي : طه حسين) .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ٤٢ .

(٤) المرجع السابق ص : ٤٤ .

(٥) المرجع السابق ص : ٤٢ .

حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره »[1] ويستدل بقول المنار « هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع »[2] وبقوله « بينا مراراً أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم وما تتضمنه من أصول الدين والإصلاح »[3] .

واستدل أيضاً بغير ذلك من نصوص المنار ، ومن هنا ندرك عمق الصلة بين هذا الموقف من قصص القرآن وموقف المدرسة العقلية الممثلة في تفسير المنار من قصص القرآن الكريم .

ثم يصل الدكتور خلف الله إلى نتيجة ما قرره من الفصل بين القصة القرآنية والحقيقة التاريخية فيصف القرآن بما وصفه به المشركون من أنه « أساطير » ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين « في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[4] فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند الله ، قل أنزله الذي يعلم السر . . إلخ »[5] . ثم قال « وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على انه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله إذا كان هذا ثابتاً فإنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن »[5] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٧ .
(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٢ ص ١٠١ .
(٤) سورة الفرقان : الآيتين ٥ و ٦ .
(٥) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .

ونذكر مثلاً من تطبيقه هَذه النتيجة التي توصل إليها على قصص القرآن قوله : ـ « وإذا ما قال المستشرقون أن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير قلنا ليس في ذلك في القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى ويكفينا فخراً إن كتابنا الكريم قد سنّ السنن وقعّد القواعد وسبق غيره في هذه الميادين »[١] .

وزعم أيضاً أنه لن يجد من « يعارض في وجود القصة التمثيلية في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال وأن الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم في بلاغتهم عليه والله سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون »[٢] .

ويستدل[٣] لإثبات هذه النتيجة التي توصل إليها بما جاء في المنار عن أحدى قصص القرآن « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم »[٤] ويستدل[٥] أيضاً بقول الشيخ محمد عبده « وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه أن القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[٦] فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الإستواء إلى

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٨٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٥٢ .
(٥) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .
(٦) سورة ق : الآية ٣٠ .

خلق السماء ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[١] والمعنى في التمثيل ظاهر »[٢] .

ومن هنا ـ أيضاً ـ ندرك عمق الصلة بين الفكرتين فكرة خلف الله وفكرة الشيخ عبده وتلاميذه في قصص القرآن الكريم ولهذا حرص أمين الخولي المشرف على الرسالة المنحرفة على التصريح بأن جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة المنحرفة هذه « ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ إثنين وأربعين عاماً »[٣]

ولا شك بعد هذا أن هذا الزعم في قصص القرآن الكريم بأنها مخالفة لحقائق التاريخ وأن المراد بها التمثيل لا الحقيقة التاريخية لا شك أنه أثر من آثار مدرسة المنار ، كيف لا وهو إنما يستشهد بأقوال أستاذهم وإمامهم .

وسواء أكان الأستاذ الإمام يقصد ما قصده خلف الله أم لم يقصده فإن الصلة بين القولين ولا شك بينة وواضحة .

بقي أن نقول أن هذه الرسالة أيضاً لقيت ردود فعل قوية واحتجاجات الرفض حتى رفضتها الجامعة ، وفي الوقت نفسه كان الترحيب والقبول لما جاء به محمد عبده وتلاميذه ؟!

جـ ـ في السنة النبوية : ـ

منذ صدع رسول الله ﷺ بما أمر ، وأعرض عن المسركين ، ومنذ أنذر عشيرته الأقربين وخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وقال أنا النذير المبين ، منذ ذلك الحين وأعداؤه وأعداء الدين ما فتئوا يكيدون للإسلام وأهله ويحاربونه بكل وسيلة وكل سبيل .

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص (ح) .

زعموا ان القرآن أساطير ، وزعموا أن محمداً ساحر وشاعر وكاهن ، وزعموا أنه ﷺ « كذاب أشر » وزعموا أنه عبقري لا نبي ، وزعموا أن الإسلام مجموعة أفكار إصلاحية بشرية لا دين إلّهي .

منذ ذلك الحين والدين الإسلامي في دوامة المعركة بين الحق والباطل بين حفظ الله ومكر الكافرين ، ويبتلي الله المؤمنين بين حين وآخر في ذلك الصراع بين ضعف المسلمين وقوتهم .

وكانت المؤامرات العدائية للإسلام تلبس لكل حالة لباسها فتسلك سبيل السلاح حين تضعف قوة المسلمين ، وتتخذ التخريب والتدمير والقتل شأنها من غير تفكير في إصلاح إعوجاج أو تعديل انحراف .

وإذا ما عجزت سبيل الحرب عن تحقيق أهدافها لبست لذلك لباساً آخر لباس الحرب الفكرية ، وهم يجمعون بين السبيلين في أحيان كثيرة فيشككون في القرآن وفي محمد وفي السنة وفي الإسلام كله ويبثون أفكارهم تلك بين نابتة المسلمين وغيرهم .

وتنشأ هذه النابتة على رفض الإسلام أو رفض شيء من تعاليمه وأفكاره ومبادئه ، لا تلبث أن تشتعل فيهم اشتعال النار في الهشيم فيكونون على الإسلام عبئاً أكبر من عبئهم ويحسب الجاهلون أن لا علاقة لأعداء الدين بهذا التشكيك والحرب من المنتسبين إليه ومن داخل حصونه .

ويزيد قوم الأمر سوءاً حين يقولون ما يتمسك به المنحرفون ، ويشد عضدهم ويفتح لهم سبلاً كانوا عنها غافلين .

قالوا أن قصص القرآن تمثيل وتخييل وجاء من يقول أنها أساطير مخالفة للواقع ، وقالوا أن الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه . . إلخ فجاء من يقول أن محمداً عبقري وأن القائلين بنبوته يكسبون بالإعتراف بعبقريته كسباً عظيماً ، قالوا إن حديث أبي هريرة الذي قال فيه كذا وكذا

لا يبعد أن يكون قد رواه عن كعب الأحبار أو وهب بن منبه فجاء من يسب أبا هريرة رضي الله عنه ، ويشتمه ويرفض أحاديثه كلها صحيحها وضعيفها ، قالوا إن السنة ليست ديناً إلا من حيث أنها مبينة للقرآن فجاء من ينكر السنة كلها ويرفضها .

لم يكن بين الفريقين كبير فارق في الزمن أو الفكرة بل كانوا من المعاصرين لهم وكانوا من الناشرين لأفكارهم الإلحادية المروجين لها بل والمشاركين في صياغتها .

ينشر الأستاذ محمد حسين هيكل كتابه « حياة محمد » ينكر فيه معجزاته ﷺ ويقدم للكتاب الشيخ محمد مصطفى المراغي ويقرظه السيد رشيد رضا ؟!

ويكتب محمد عبده كتاباً يذيله بإسم قاسم امين وينشره بين الناس يدعو فيه إلى ما أسماه تحرير المرأة ؟! ويشيد بهذا الكتاب رشيد رضا ويقرظه في كل سانحة في مجلة المنار .

وينكر الدكتور توفيق صدقي حجية السنة ويعلن عنوان مقاله « الإسلام هو القرآن وحده » وينشر له الأستاذ محمد رشيد هذا المقال في عددين من مجلته المنار السابع والثاني عشر من السنة التاسعة .

ويزعم في مقاله أن القرآن قد حوى كل شيء من أمور الدين ، وكل حكم من أحكامه وأنه بينه وفصله بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر كالسنة وإلا كان الكتاب مفرطاً فيه ولما كان تبياناً لكل شيء .

ويلحد في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] فيزعم أنه تكفل بحفظ القرآن وحده دون السنة ولو كانت دليلاً وحجة كالقرآن لتكفل بحفظها ؟ !

---

(١) سورة الحجر : الآية : ٩ .

وجاء من بعده أحمد أمين صاحب كتب « فجر الإسلام ، وضحاه ، وظهره » تحدث في فجر الإسلام عن الحديث النبوي فمزج السم بالدسم وخلط الحق بالباطل كما يقول المرحوم مصطفى السباعي[1] .

زعم أن هناك أمـور كثيرة تضعف من حجية السنة منها أن الحديث لم يدون في عهد رسول ﷺ وزعم أنه نشأ عن هذا كثرة الوضع والكذب على الرسول ﷺ ساعد على ذلك كثرة دخول الشعوب في الإسلام ، وزعم أن علماء الحديث إنما اعتنوا بالسند ولم يعتنوا بنقد المتن عشر عنايتهم بالسند ثم شكك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي حفظه ؟!

وأنت قد لا تجد في كلامه نصاً صريحاً واضحاً في إنكار حجية السنة فهو أدهى من أن يظهر هذا بل يرشد من يريد إنكار حجية السنة إلى السبيل لذلك فيقول للدكتور علي حسن عبد القادر « أن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة ، فخير طريقة لبث ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم صراحة ولكن إدفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك وألبسها ثوباً رقيقاً لا يزعجهم مسها ، كما فعلت أنا في فجر الإسلام ، وضحى الإسلام » هذا ما قاله الدكتور علي حسن نفسه للمرحوم مصطفى السباعي[2] .

وقد نشر اسماعيل أدهم رسالة سنة ١٣٥٣ هـ زعم فيها أن الأحاديث التي تضمنتها كتب الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم بل هي مشكوك فيها ويغلب عليها صفة الوضع ، وثارت حول هذه الرسالة ضجة انتهت بمصادرتها ودافع أدهم عن نفسه بأن ما قاله قد وافقه عليه كبار أدباء وعلماء ذكرمنهم أحمد أمين ، ولم يكذب أحمد أمين ما قال هذا بل كتب ما يفيد تألمه مما حصل لصاحبه واعتبار ذلك محاربة لحرية الرأي ، وحجر عثرة في سبيل البحوث العلمية[3] .

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مصطفى السباعي ص ٢٣٦ .
(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مصطفى السباعي ص ٢٣٨ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

وفي عام ١٣٧٧ هـ الموافق ١٩٥٧م ظهر كتاب جديد وأعني بالجديد فيه ذلكم الأسلوب الذي نهجه صاحبه وما رأيت مثله ؟! رجل يحمل معول هدم السنة ينكر أحاديثها ويلقي أفظع السباب والشتائم على ناقلها الأول أبي هريرة رضي الله عنه ثم يزعم بعد هذا أنه يدافع عن الحديث ؟!

أما المؤلف فمحمود أبو ريّه ، وأما الكتاب فـ « أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث » ؟

ومن التوافق العجيب أن الذي قدم لهذا الكتاب الذي أنكر حجية السنة هو الذي أنكر صدق قصص القرآن وأنكر حجيته فيما يخبر به ـ كما مر بنا ـ وأعني به طه حسين .

أنكر محمود أبو ريه حجية السنة وإذا ما قال له قائل كيف تنكر حجية السنة وأنت تستدل على ما ذهبت إليه بأحاديث منها ؟ أجاب « أن الأحاديث التي أوردها في سياق كلامي للإستدلال بها على ما أريد في كتابي إنما أسوقها لكي نقنع من لا يقنع إلا بها على اعتبار أنها عنده من المسلمات التي يصدقها ولا يماري فيها « ويشبه أسلوبه هذا باحتجاج » المسلم على النصراني بما في الإنجيل وهو في نفسه غير مؤمن بما يحتج به أو عكس ذلك[1] ؟!

ثم يأتي بعد هذا بقواعده التي أراد بها أن يأتي « بجديد » يفوق به قواعد علماء الحديث السابقين ؟! ويعدّل به ما أعوج من قواعدهم ؟ قال بعد كلامه السابق « أعلم أن ذلك ليس عاماً في كل ما أورده من أحاديث في كتابي فإن منها ما يبدو عليه علائم الصحة كأن يكون بياناً للقرآن الكريم أو متفقاً مع العقل السليم ، أو جاء على مقتضى الأصول التي قام عليها الدين وإليها قامت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، أو أتنور خلال معانيه شعاعاً من نور النبوة ، ولو كان خافتاً ضئيلاً ـ وهذا أمر أحسه بوجداني فما كان من مثل ذلك مما يطمئن به القلب ويسلم به العقل فأنا آخذ به وأرويه وأنا

---

(١) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٣ .

مطمئن ، واعتبره من بيان الرسول للكتاب العزيز وإن كنت على ثقة بعد ذلك كله من أنه أحاديث آحاد وأنه ظني الدلالة بحيث لا يبلغ منزلة القطع الذي يفيد اليقين وأن روايته جاءت « بالمعنى » لا بأصل اللفظ الصحيح الذي نطق به النبي ﷺ »[1] .

بقي أن أقول أن قواعده تلك لا تقوم بها حجة على صحة الحديث فقد يكون في الحديث بيان للقرآن الكريم ولا يلزم من هذا صحة هذا الحديث وقد يتفق الحديث مع العقل السليم وقد يأتي حديث على مقتضى الأصول التي قام عليها الدين وإليها قامت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ولا يلزم أن يكون الرسول قد قاله ؟ وليس هذا كله بالأمر الذي يحتاج إلى مزيد علم لإدراكه ، ولكنه الضياع يعمي الأبصار عن الحقيقة .

وحتى ندرك منه ضلال منهجه في نقد الحديث نسوق قوله « ومن الأحاديث ما تقتضي البداهة بصدقه كحديث « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن »[2] ؟! ولست أنكر هنا صحة الحديث أو غيرها وإنما أنكر أن تكون « البداهة » مما تقتضي صحته ؟! وأي بداهة تنكر أن يبيح الرسول ﷺ كتابة حديثه ؟!

وحتى ندرك منه غرضه في وصف هذا الحديث بأن « البداهة » تقتضي صحته نكمل قوله « وهو الحديث الذي بنينا عليه كتابنا هذا »[2] وبه يتضح هدفه ؟! .

وحتى ندرك أيضاً الصلة التي تربطه برجال المدرسة العقلية الحديثة وتأثره بهم فيما ذهب إليه نقول أنه كثيراً ما يسوق نصوصهم ويستشهد بها في التقليل من شأن حجية السنة أو التجريح بصحابي جليل ، وحينما عاب عليه طه حسين كثرة نقله عن رشيد رضا أجاب بأنه لم يصنع ذلك « عفواً أو فقراً من الأدلة »[2] وإنما كان يقصد من ذلك أموراً مهمة ، « منها أن هذا السيد يعتبر

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٤ ـ ٣٥ .

في هذا العصر من كبار أئمة الفقهاء المجتهدين عند أهل السنة الذين يعتد برأيهم . . الخ »[1] « وأنه بلا منازع شيخ محدثي أهل السنة في عصرنا بحيث يعلم من أمر الأحاديث التي حملتها الكتب المشهورة لدى الجمهور ويدرك ما اعتراها من فعل الرواة وغير ذلك مما يتصل بكتابي ما لم يعلم مثله سواه »[1] « على أنه فوق ذلك ورث علم الأستاذ الإمام محمد عبده وناهيك به علماً وفضلاً بحيث لا يختلف اثنان في أنه من كبار أئمة الدين المجتهدين فما يقوله السيد رشيد إنما أعتبره كأنه صادر عن أستاذه الإمام وذلك فيما أرى أنه منهج الأستاذ الإمام وأسلوبه في النظر إلى الدين »[2] وفوق هذا وذاك فهو يكتب عن السيد رشيد بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته ويسميه « شيخنا » ويردد هذه العبارة[3] .

أذن فهو يستند فيما ذهب إليه إلى أقوال أئمة رجال المدرسة العقلية الحديثة الأستاذ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد ، ويحسب قوله بعد هذا فوق الشبهات ! !

وكأن خداع العناوين مرض انتقل من أبي ريه في زعمه الدفاع عن الحديث النبوي في عنوان كتابه إلى المدعو « السيد صالح أبو بكر » فنشر كتاباً زعم أنه « الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها » زعم فيه أن من أهدافه « تقديم حصيلة الفحص الدقيق للأحاديث المعارضة للقرآن ، والمنافية لما يليق بالله وبرسوله والتي جمعناها من صحيح البخاري باعتباره عمدة المراجع في هذا المجال وعددها مئة وعشرون حديثاً والتعقيب القرآني على كل منها بما يثبت أنها دخيلة على كلام النبي ﷺ »[4]

---

(١) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٥ .

(٣) مجلة الرسالة اغسطس ١٩٤٠ م مقال السيد رشيد رضا بقلم محمود أبو ريه ص ١٣٥٥ .

(٤) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها : السيد صالح أبو بكر ص ٣ ـ ٦ .

وعدّ من أهدافه « القضاء على منازعة الحديث الباطل للقرآن الكريم »[1] ومنها « ادراك العواقب المترتبة على ترك الأحاديث المخالفة للقرآن الكريم دون تجريح وإظهار لعيوبها »[1] و« إثبات أن دين الله هو القرآن بداية ونهاية »[1] وقال أخيراً « كتابنا هذا يستند إلى كتاب الله نصاً ومعنى »[1] .

والحق أننا في حاجة ماسة إلى مثل هذه الأهداف والحق أيضاً أن هذا الرجل بعيد كل البعد عن المنهج الذي زعم بل عماد نقله وأسّه محمود أبو ريه السالف ذكره فهو كثيراً ما ينقل عنه بل نستطيع القول أن الجزء الأول منه خلاصة لكتاب أبي ريه ، ثم أراد المؤلف منافسة أبي ريه على مناهله الأولى فنقل أيضاً عن محمد عبده وعن رشيد رضا وغيرهم من مدرسة المنار .

بل إن بدء هجومه على أبي هريرة رضي الله عنه يصدره برأي مدرسة المنار فيضع عنواناً « أبو هريرة ورأي علماء الحديث فيه ممثلاً في مدرسة المنار »[2] .

وقد خصص المؤلف الصفحات من ٥٨ إلى ٦٣ للتشكيك في أبي هريرة رضي الله عنه وفي روايته .

وإن شئت مثالاً من الأحاديث المئة والعشرين التي كذبها المؤلف من صحيح البخاري وأسلوبه في التكذيب ، حتى تدرك بعد منهجه عن عنوان الكتاب «الأضواء القرآنية» وعن أهدافه التي زعمها فإليك واحداً منها .

ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما « قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال أني لأنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه ، لقد أنذر نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه :

---

(١) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها : السيد صالح أبو بكر ص ٣ ـ٦ .

(٢) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها . سيد صالح أبو بكر ص ٥٨ .

تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ .

أتدرون ماذا قال المؤلف بعد أن نقله نقلاً غير ملتزم بألفاظه كما هو شأن علماء الحديث الصالحين أتحسبون الرجل استند إلى ضوء آية قرآنية واحدة في رد الحديث فضلاً عن التزام « الأضواء القرآنية » !! لا لا ليس الأمر كما تحسبون . بل قال « ودلائل الزيف في هذا الحديث وغيره من أحاديث الدجال كلها نقول فيها ما يلي : -

أولاً : إن المسيخ الدجال هو كل مبدل وكل ماسخ لجمال الحق . . . وأن هذا المسيخ ليس رجلاً واحداً فقط ولكنهم كثيرون وهم عور وغير عور يعيشون معنا وأناس منا وكانوا مع من قبلنا وسيكونون مع من بعدنا وفي كل زمان ومكان . . وليسوا مسيخاً واحداً كما يقول الحديث .

ثانياً : إذا كان المسيخ سيظهر في آخر الزمان فقط . . فمن هو المسيخ الدجال الذي كان سبباً في ظهور الفساد والفتن في عهود الخلفاء وزمن التابعين بل زماننا هذا .

ثالثاً : إذا كان المسيخ الدجال رجلاً واحداً ولا يأتي إلا في آخر الزمان فمن أي مسيخ كان يتعوذ النبي ﷺ هو وأصحابه والتابعين . . ومن أي مسيخ نتعوذ نحن الآن في نهاية كل صلاة كما علمنا النبي ﷺ ؟؟

رابعاً : . . بأي عقل نصدق أن يعطيه الله كل هذه الأسباب ثم يأمرنا بمحاربته أو يلوم أتباعه وقد أعطاه من وسائل الإغراء والإقناع للناس ما لا يعطي الأنبياء والمرسلين .

خامساً : في هذا الحديث أن النبي ﷺ يقول أن المسيخ الدجال رجل أعور وإن ربكم ليس بأعور فكيف يعقل أن تجري هذه الألفاظ على لسان النبي ﷺ وأن تكون ألفاظه قد وصلت إلى هذا النقص في التعبير عن

ذات الله وأن يتكلم عن خالقه بتلك الصورة المذرية الركيكة .

سادساً : كيف أنذر نوح قومه من المسيخ الدجال كما يقول الحديث مع أن الأحاديث التي وردت فيه تقول كلها أن المسيخ سيأتي في آخر الزمان »[1] .

وليس هدفنا هنا أن نرد على شبهه ونبطلها فليس هذا موضعه وإنما أردنا أن نظهر أسلوبه في النقد وأن أدلته تلك ليست أضواءاً قرآنية كما زعم ولم يستند فيها إلى أية آية قرآنية بل كلها شبه من فكره ومن مفهومه الضال الذي لم يستند إلى كتاب ولا إلى سنة أيضاً .

وليس هذا الأمر في هذا الحديث فحسب بل هو في كل الأحاديث التي أوردها لم يستدل فيها بآية قرآنية إلا آية تعرض عرضاً في حديثه وليس فيها من معارضة الحديث شيء .

إذن فلا عجب إذا ما أكثر النقل عن محمود أبو ريه وعضّ على أقواله بنواجذه ولا عجب أيضاً أذ ما استند إلى أقوال محمد عبده ورشيد رضا بل إلى مدرسة المنار .

د ـ في الفقه :

أما فتح باب الإجتهاد وشروطه التي جاءوا بها فقد نفذ منها كل من هب ودب وأفتى في الأحكام الشرعية من غير تردد أو خوف أو وجل ، وحكم في قضايا لو عرضت على مالك لقال « لا أدري » ولو عرضت على عمر لجمع لها أهل بدر .

ولا نريد أن نذكر كلّ ما جرى بعدهم من اجتهادات فقهية خارجة عن نطاق الإجتهاد وحدوده ولا يصل إلى مرتبته مصدروها ـ ولكن نقصر الحديث

---

(١) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية : السيد صالح أبو بكر ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

هنا على واحدة من تلك الإتجاهات الفقهية المنحرفة .

ونحن وإن كنا لا نزعم أن كل انحراف في تقنين الأحكام الشرعية وميل بها عن الحق أنه أثر من آثار المدرسة العقلية إلا أننا نؤكد أن كثيراً من ذلك يستند إلى آرائهم ويستدل بأقوالهم ويستشهد بها وما هذا إلا معيار لتأثرهم بها ، نذكر من هذا مسألة تعدد الزوجات دع عنك تحرير المرأة وخروجها إلى العمل واختلاطها بالرجال في ميادينه . . الخ .

وقد سبق للشيخ عبده أن دعا إلى تطبيق ما ذهب إليه في مسألة تعدد الزوجات ونحن نذكر دعوته هنا حتى ندرك أن ما حدث بعد إنما هو من آثاره ومدرسته قال : ـ « لا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة »[1] .

إذن فهو يدعو إلى تغيير الحكم ؟! ترى هل يدعو إلى تغييره دفعة واحدة أو بطريقة أخرى ؟! يفسر هذا تلميذه السيد رشيد بقوله « إن قاعدة اليسر في الأمور ورفع الحرج من القواعد الأساسية لبناء الإسلام ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾[2] و ﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيكمْ مِنْ حَرَجْ ﴾[3] ولا يصح أن يبني على هذه القاعدة تحريم أمر تلجىء إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة . . وهو مما يشق امتثاله دفعة واحدة لا سيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد فلم يبق إلا أن يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط إنتفاء الخوف من عدم العدل بين

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة: الآية ٦ .

الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير أسلامي »[1] ؟!!

إذن فليس الأمر في المنع « دفعة واحدة » لأنه يشق على من اعتادوا المبالغة فيه والحل أن يقيد بقيد ثقيل . . وهو شرط يعز تحققه . . ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي .

وليس المانع من إلغاء التعدد دفعة واحدة « أمر شرعي وإنما المشقة على من اعتادوا المبالغة فيه ، والعلاج التدرج في ذلك إلى أن يصل الأمر إلى إعتياد الناس على عدم التعدد ولا يشق على أحد إلغاؤ ه ومن ثم إلغاء التعدد .

لن أذكر هنا أثر تلك الدعوة على الأفراد في أقوالهم ودعواتهم لأنها كلها تنتهي إلى الدعوة إلى تطبيقه وتقنينه وإذا ما اكتفينا بذكر القوانين التي سنتها بعض الدول المسلمة في ذلك نكون قد تجاوزنا آراءهم إلى النتيجة والنتيجة هدفنا من الإشارة إلى الأثر .

وفي الواقع أن الدول التي تأثرت بهذه الدعوة انقسمت إلى قسمين ولا يزال بعضها في مرتبة « قيد ثقيل يعز تحققه . . ومن لم يلتزمه فزواجه غير « إسلامي » ، واستطاع بعضهم أن يصل إلى مرتبة « دفعة واحدة » .

أما القسم الأول فدول المغرب وسوريا والعراق قيدته المغرب قضائياً بالعدل بين الزوجات ، وقيدته سوريا بالقدرة على الإنفاق ، وقيد في العراق بمصلحة مشروعة وبالعدل بين الزوجات ، وبالقدرة على الإنفاق عليهن .

« وورود أحد هذه القيود في القانون معناه أنه أصبح ملزماً ويتعين على القاضي أن يتحقق من توافره بحيث إذا لم يكن هذا الشرط متوافراً أو ذاك كان تعدد الزوجات غير جائز، لأن المفروض أن أحكام القانون جميعها ملزمة

---

(١) تفسير المنار : جـ ٤ ص ٣٥٩ .

ويحمل الناس على احترامها وتطبيقها طوعاً أو كرهاً »[1] .

أما التي أخذت بالطريقة الثانية فتونس فمنعت تعدد الزوجات ومن تزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقاباً بالسجن مدة عام وبخطيه (أي غرامة) قدرها (٢٤٠,٠٠٠) فرنك أو بإحدى العقوبتين فقط « (الفصل ١٨) »[2] .

أما في مصر فقد شكل بعض تلاميذ محمد عبده لجنة سنة ١٩٢٦م اقترحت تقييد تعدد الزوجات وقدمت المقترحات لمجلس النواب وبعد مناقشات أعيدت لوزارة العدل لدراستها ثم صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩م منظماً لبعض شؤون الأسرة خالياً من مقترحات تقييد تعدد الزوجات[3] وفي سنة ١٩٤٥م تقدمت وزارة الشؤون الإجتماعية بمشروع قانون لتقييد تعدد الزوجات بإشتراط إذن القاضي الشرعي الذي في دائرة اختصاصه مكان الزواج ، واشتراط أن لا يأذن القاضي إلا بعد الفحص والتحقق من أن سلوكه وأحوال معيشته يؤمن معها قيامه بحسن المعاشرة ، والإنفاق على أكثر من في عصمته ومن تجب نفقته عليهم من أصوله وفروعه ، ولم يكتب لهذا المشروع النجاح[3] .

وقامت بعض الدعوات لاشتراط أن يكون جواز التعدد في حالتين ، حالة مرض الزوجة مرضاً لا برء منه ، وحالة عقم الزوجة الذي مضى عليه أكثر من سنوات ثلاث ومنع ما عدا هاتين الحالتين ودعوا فيما دعوا إلى عدم سماع الدعوى في نزاع يتعلق بالزواج « المتعدد إلا إذا كان بإذن القاضي وقد رفضت جبهة علماء الأزهر هذا الإقتراح .

وزعم المدعو عبد العزيز فهمي باشا أن القرآن الكريم يحرم بتاتاً

---

(١) تعدد الزوجات : عبد الناصر توفيق العطار ص ٢٥٧ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦٢ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

تعدد الزوجات ؟! فالآية في زعمه واضح لكل متذوق أنها هزء وسخرية ممن يريد تعدد الزوجات لأن المولى سبحانه وتعالى أردفها بقوله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ وقوله في موضع آخر ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ولـن كما يقرر النحاة هي أشد أدوات النفي للمستقبل إذ تنفيه نفياً باتاً »[1] .

وحتى نكشف مغالطة الرجل نقول أن استدلاله هنا كمن يستدل بقوله تعالى ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ﴾[2] ويدع ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾[2] ولو أحسن الإستدلال وطلب الحقيقة لأكمل ما استدل به ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[3] فقوله سبحانه ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا ﴾ ﴿ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ كلها تبين المراد من نفي الإستطاعة بياناً لا يريده فهمي باشا ولهذا قطع الآية .

وأما الإستدلال بما قرره النحاة فهو تحريف لقولهم ولا يستغرب ممن كذب على القرآن أن يكذب على النحاة ؟ لم يقل النحاة بأن النفي بلن نفياً باتاً أي دائماً إلا الزمخشري المعتزلي قال ذلك ليؤبد النفي في قوله تعالى لموسى ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾[4] حتى يستدل بها على إنكار رؤية الله التي لا يؤمن بها المعتزلة ، والنحاة ـ سواه ـ على الضد من ذلك فقد قال ابن مالك :

ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله أردد وسواه فاعضدا[5]

---

(١) مع المفسرين والكتاب : أحمد محمد جمال ص ٢٠٨ .
(٢) سورة النساء : من الآية : ٤٣ .
(٣) سورة النساء : من الآية : ١٢٩ .
(٤) سورة الأعراف : من الآية : ١٤٣ .
(٥) الكافية الشافية : لابن مالك جـ ٣ ص ١٥١٥ الطبعة الأولى ، جامعة أم القرى.

نعدّ الحديث بعد هذا إلى شيخ أزهري هو الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، والأزهريون متهمون بالجمود والتزمت وهما صفتان أوحى بهما الإستعمار إلى شباب المسلمين حينذاك لينفروا من الأزهر وشيوخه ثم ينفروا من الدين كله بالتبع ، أراد هذا الشيخ أن ينفي هذه التهمة فأخطأ الطريق ـ وما هكذا تورد الإبل يا سعد ـ تقرب إليهم بالدعوة إلى تحريم تعدد الزوجات ؟! أليست هذه الصفة من مآخذ الإستعمار على الإسلام ؟!

أيّ طريق يسلك إلى ذلك ؟ استمداد ذلك من آية إباحة التعدد كما فعل عبد العزيز فهمي أمر قد سبق إليه ، وهو يريد أن يأتي بجديد فقال « لا ينكر أحد أن ينقلب المباح حراماً إذا نهى عنه ولي الأمر لمصلحة تقتضي النهي عنه كأن ينهي عن زرع القطن في أكثر من ثلث الملك فتجب طاعته شرعاً في ذلك وتحرم مخالفته فيه . . . وكذلك الأمر في تعدد الزوجات فلولي الأمر أن ينهي عنه إذا أساء المسلمون استعماله فيصير حراماً لنهيه عنه وإن كان في ذاته مباحاً وهذا أمر معروف بين العلماء »[1] ؟! وهو حينما يقول هذا يؤكد أن المسلمين قد أساؤوا استعماله ويرشد إلى الطريق السليم لتحريم التعدد كما أرشد إليه سلفه محمد عبده وتلاميذه قال الشيخ عبد المتعال « ولعل مما يدعو إلى هذا أن الناس لم يتهيئوا بعد لفهم هذا الحق بل يعدوه خروجاً على الدين ، فيحمل هذا ولي الأمر على أن يستثنى في ذلك ما يستثني ، ولا يذهب فيه إلى آخر ما جعله الله من حقه »[1] .

لذلك فلا عجب أن يقول الدكتور عفت محمد الشرقاوي معلقاً على ما ذهب إليه عبد العزيز فهمي ونعمّ به عبد المتعال « ومع ما يبدو في هذا من الغرابة والتجوز في الإستنتاج ، وخروجه عن مألوف المأثور ، فإنه

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٧٧٣ السنة ١٦ ابريل ١٩٤٨ م ص ٤٨٩ ـ عبد المتعال الصعيدي .

كان النتيجة الطبيعية لشدة تأثرنا بالنظم الأوروبية في تشريع الزواج . . . وكان ذلك في جملته تطوراً واضحاً لنزعة قديمة حمل لواءها « محمد عبده » محاولاً التوفيق بين النص القرآني وهذا التصور الجديد »[١] .

كانت هذه هي الحال إلى سنة ١٩٦٧ م ففي هذه السنة صدر قانون الأسرة في مصر والجديد الذي جاء فيه ما نصت عليه المادة (١٣٤) :

أ ـ للزوجة التي تزوج عليها زوجها وأن لم تكن قد اشترطت عليه في العقد ألا يتزوج عليها أن تطلب التفريق بينها وبينه وفي مدى شهرين من تاريخ علمها بالزواج ما لم ترض به صراحة أو دلالة .

ب ـ ويتجدد حقها في طلب التفريق كلما تزوج بأخرى .

جـ ـ وإذا كانت الزوجة الجديدة قد فهمت من الزوج أنه غير متزوج بسواها ثم ظهر أنه متزوج فلها أن تطلب التفريق .

كما نصت هذه المادة على أن « التفريق للزواج بأخرى طلاق بائن »[٢] . وهذا ولا شك « قيد ثقيل يعز تحققه . . » ؟ !

والإتجاه العام إلى تقييد تعدد الزوجات سائر على منهج مدروس وقد بدأت بعض السلطات في بعض البلدان الإسلامية في اصدار قوانين تحرم من يعدد زوجاته من بعض الحقوق أو المزايا التي يتمتع بها سائر المواطنين كحرمانه من الإشتراك في نقابة أو ناد معين أو قصر الإعارة للخارج على المتزوجين بواحدة أو السماح بالعلاج المجاني لزوجة واحدة أو قصر الإعفاء الضريبي على المتزوجين بواحدة[٣] ونحو ذلك .

وهذا كله ولا شك في سبيل « تقييد تعدد الزوجات بقيد ثقيل . . يعز تحققه ـ ومن لم يلتزمه فزواجه غير « إسلامي » « والإنتقال بعد هذا

---

(١) الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت الشرقاوي ص ٢٣٧ .

(٢) تعدد الزوجات : عبد الناصر توفيق العطار ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢٠ .

إلى الخطوة الأخرى « منع تعدد الزوجات » دفعة واحدة » وبهذا لا يشق هذا الأمر على « من إعتاد على تعدد الزوجات »؟! .

هـ - في السياسة : -

عمى الألوان مرض يصيب البصر لا يستطيع صاحبه التفريق أو التمييز بينها ، وأحسب أن عمى الألوان هذا يصيب البصيرة فلا يستطيع صاحبه أن يفرق بين دين ودين ، ومنهج وآخر .

نظرت طائفة من المسلمين أو من المنتسبين للإسلام إلى ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى ، وإلى ما حدث من صراع هناك بين الدين والعلم ، بين الدين والسياسة ، بين الدين والدولة ، نظروا إلى « رجال دين » يستندون إلى كتب « محرفة » وما فيها يخالف حقائق العلم ونظرياته ، أضف إلى هذا تشدد أولئك « رجال الدين » في مواجهة خصومهم .

ليس هناك مجال آخر دين محرف أقواله تصادم حقائق علمية ، ورجاله متصلبون متشددون ، فكان لا بد من قيام ثورة للفصل بين الدين والدولة ، بين الدين والسياسة بين الدين والعلم ، فعزلوا الدين وأقصوه .

حسب من أصيب بعمى البصيرة أن كل دين كهذا الدين المحرف ، فأراد من ينتسب إلى الإسلام منهم أن يطبق تلك الثورة على دينه الذي ينتسب إليه - إما عن جهل منه واما عن خبث فيه - فدعوا إلى فصل الدين عن الدولة ، وجعل الدين مجرد عبادة تؤدى في المسجد فإذا خرجت إلى الشارع فقد تعدت حدودها وتجاوزت مراسيمها ووجب عقابها وقمعها .

فليبق الدين في المسجد ؟!

ولتبق الوطنية والقومية . . الخ في الشارع ، وليسرح الناس وليمرحوا حسب نظامهما ، دينهم الوطن وعقيدتهم القومية .

وكان من السابقين السابقين إلى هذه الدعوة الشيخ محمد عبده حيث قال « أن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه »[١] والشيخ نفسه هو الذي صاغ برنامج « الحزب الوطني » المصري وجاء فيه « الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني[٢] فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذاهب ، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه »[٣] ودافع عن القبط في مصر قائلاً « ليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها إلى شائن من العمل تعللاً بأن رجلاً أو رِجَالاً منها قد استهدفوا لذلك . . »[٤] .

وهو في هذا يقلد أستاذه الأفغاني الذي دعا إلى القومية والوطنية « الفرعونية » في مصر حيث يقول موجهاً حديثه للعوام « أنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الإستعباد . . . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت . . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعمة آبائكم وعزة أجدادكم : ـ

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إنّ التشبه بالرشيد فـلاح »[٥]

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٢) لاحظ الفصل بين الدين والسياسة .

(٣) الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع محمد عمارة جـ ١ ص ١٠٧ والتاريخ السري : بلنت ص ٤٤٢ .

(٤) الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع عمارة جـ ١ ص ١٠٨ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ١ ص ٤٦ ـ٤٧ وزعماء الإصلاح : أحمد أمين ص ٧٨ ـ ٧٩ .

واتبعا القول بالعمل فجدا واجتهدا في سبيل هدم الخلافة الإسلامية ، واستقلال العرب عن الأتراك والتقريب بين الأديان .

وقد سرت هذه الأفكار والمبادىء في المجتمع الإسلامي بعد ذلك وانتشرت ولا نزال حتى ساعتنا هذه نعاني من آثارها .

وظهرت آثارها أول ما ظهرت في الثورة الكمالية الإلحادية في تركيا حيث عملت أول ما عملت على فصل الدين عن الدولة وقالوا فيما قالوا « أننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقى إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا وعصرنا العلماء عصراً نمحقهم به محقاً ، وسرنا وراء فرنسة خطوة خطوة »[1] .

وأشاد بعض العرب بهذه الحركة وفتن بها كثير منهم قال أحدهم « حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدين وفتاويهم وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية ، واستغنائها عن قراءة البخاري في السفن البحرية »[2] .

وفي سنة ١٩٢٥ م وضع علي عبد الرزاق كتابه الإسلام وأصول الحكم خاض فيه في مبحثين :

١) هل منصب الخلافة ديني أم سياسي أم هو مزيج من كليهما معاً ؟
٢) هل منصب الخلافة ضروري للمسلمين ؟[3]

وهو في سبيل فصل الدين عن الدولة تضمن : -

١ - جعل الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا .
٢ - أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في

---

(١) مجلة المنار : مجلد ١٦ جـ ٢ ص عدد صفر ١٣٣١ هـ ص ١٣٢ .
(٢) هذا هو الإسلام : فاروق الدملوجي ص ٢١٣ .
(٣) الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرزاق؛ ص ٥ .

سبيل الدين ولا بلاغ الدعوة إلى العالمين .

٣ ـ وأن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضوع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص وموجباً للحيرة .

٤ ـ وأن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ .

٥ ـ وإنكار اجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا .

٦ ـ وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية .

٧ ـ وإن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضي الله عنهم كانت لا دينية »[1] .

وجاء فيه « الدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولاً وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها »[2] .

وزعم « أن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير ، وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا ، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أن لا فذلك مما لا ينظر الشرع السماوي إليه ولا ينظر إليه الرسول »[3] .

وقال « التمس بين دفتي المصحف الكريم أثراً ظاهراً خفياً لما يريدون أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الإسلامي ثم التمس ذلك الأثر مبلغ جهدك بين أحاديث النبي ﷺ ، تلك منابع الدين الصافية في متناول

---

(١) حكم هيئة كبار العلماء في كتاب الإسلام واصول الحكم : ص ٥ ـ ٦ .

(٢) الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرزاق ص ١٥٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

يديك ، وعلى كتب منك فالتمس منها دليلاً أو شبه دليل فإنك لن تجد عليها برهاناً ، إلا ظناً وأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً »[1] .

ولن ندع مثل هذا التحدي لهذا القزم المتعملق من غير ردّ ، ولن نأتيه بشبه دليل بل نأتيه بالصاعقة قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾[2] وهل الحكم بين الناس إلا عين السياسة وهدفها ولا نريد أن نعدد الأدلة بعد هذا فهي جد طويلة ولكن أتينا بما طلبه « التمس دليلاً أو شبه دليل . . » إلخ ؟! .

وقال بنحو هذا محمد أحمد خلف الله في كتابه « القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة » حيث يقول « إن رياسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية (!!) لم تكن دينية بحال من الأحوال وإنما كانت مدنية صرفة »[3] .

وقال « والقرآن الكريم قد أعرض إعراضاً تاماً عن الحديث في أي نظام أساسي للدولة العربية الإسلامية وترك أمر ذلك للمواطنين (!!) يقررون فيه ما يشاؤون (!!) »[4] .

ودعوا إلى حركة القومية العربية وقالوا : « إن هذه الحركة لم تتخذ من الإسلام خاصة ومن الدين عامة أساساً لها ، وإنما مضت على أساس عربي خالص »[5] « وإن الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية »[5] .

ودعوا إلى توحيد الأديان وصهرها بعضها ببعض وهو سبيل من سبل القومية قال أبو ريّة « إن الناس سيصلون إن شاء الله بعلومهم وعقولهم إلى

---

(١) المرجع السابق : ص ١٥١ .
(٢) سورة النساء من الآية : ١٠٥ .
(٣) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله ص ٨٢ .
(٤) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله ص : ٨٢ .
(٥) مجلة العربي العدد الأول مقال (القومية العربية كما يجب أن نفهمها) محمد أحمد خلف الله ص : ٢٢ و ٢٤ .

مرتقى تزول فيه الجنسيات الدينية وتختفي العصبيات المذهبية ويجتمعون على دين واحد يشمل الناس جميعاً وهذا الدين يقوم على ثلاث قواعد :

١ ـ إيمان بالله
٢ ـ عمل صالح في الحياة
٣ ـ إيمان باليوم الآخر

أما ما وراء ذلك مما هو خارج عن علمهم فأمره مفوض إلى ربهم وبذلك يعيشون الحياة تحت ظل السعادة ظليل متحابين متعاونين على عمل ما فيه الخير لكل قبيل »[١] .

وإذا ما استنكر أحدهم الترحم على نصراني قال « إذا كان حكمكم على الكافر صحيحاً فإن النصراني ليس بكافر »[٢] .

ولنقف هنا ولنجمع الشتات
القومية الوطنية
التقريب بين الأديان
فصل الدين عن الدولة

أحسبها وجوهاً متعددة لقضية واحدة ، هدفها واحد : إقصاء الدين الحق وقيام قومية وطنية . . لا دينية « علمانية » . . تنبذ الدين وتقصيه عن ميدان السياسة وحينئذ يسهل انقيادها لمن خطط لذلك ووقف خلفه من وراء الستار هل ترون الأصابع الخفية ؟! إنها الصهيونية العالمية تسعى .

للقضاء على القومية الدينية .

وصهر الأديان تحت عنوان التقريب بينها وهو تذويب لها وتدمير .
وفصل الدين عن الدولة .

---

(١) دين الله واحد على السنة جميع الرسل : محمود أبو ريه ص ١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

وظفرت في يومنا هذا على حلم كبير من أحلامها فقد صرح زعيم عربي بـ

فصل الدين عن الدولة بمنع الخطباء في المساجد من التعرض لما يجري في السياسة . . . . الخ .

وسعى ويسعى في بناء

مسجد « إسلامي » و« كنيسة نصرانية » و« معبد يهودي »

في سيناء في سبيل التقريب بين الأديان أليس « خير أوجه الوحدة الوطن » كما يقول الشيخ محمد عبده[1] آخر أخبار هذا المشروع أن هذا الزعيم طلب من ممثلة أفلام الخلاعة والجنس أن تتبرع لبناء هذه المعابد ولو بدولارين .

و ـ في الإجتماع والأسرة : ـ

والحديث هنا متشعب الأطراف متعدد الجوانب وأهم الأطراف وأخطر الجوانب قضية المرأة أليست المرأة هي الأم وهي الأخت وهي البنت وهي الزوجة وهي المربية وهي المعلمة ؟! وهي في كل قاعدة تقف عليها أو منصب يجد الرجل والطفل والشاب ما يجذبه إليها ويشده ومن هنا يكون تأثيرها .

إن صلحت أصلحت وإن فسدت أفسدت أليست المرأة الصالحة خير متاع الدنيا ؟! إذن فاظفر بذات الدين تربت يداك .

وأحسب أن المرأة جوهرة يجب أن تصان عن أعين اللصوص وغبار الطريق ما الذي ترجوه من إمرأة خلعت جلبابها وهتكت سترها وتزينت وتبرجت وفتنت وافتتنت واختلطت برجال تأججت غرائزهم وانفلت زمامهم ، ما إن يفتح أحدهم مجلة حتى يرى الصورة المثيرة ، ويذهب

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ٢ ص ١٩٤ .

إلى دار السينما فيرى ما هو أشد ويفتح التلفاز والمذياع فيسمع ويرى قد س الحب والغرام وماذا بعد هذا ؟ !

ينظر إلى زميلته في العمل أو على كرسي المدرسة وقد اكتست من المدنية سربالاً وتزينت بزينتها ولبست لباسها وأصابها ما أصاب الرجل نفسه وخلا لهم المكان والزمان بعد هذا ؟!

ما الذي ترجوه من امرأة تسلم أولادها لمربية وتخرج إلى واجهات المتاجر والمعارض وتتخذ وسيلة لإغراء المشترين حيث تحدثهم بأرق حديث وألينه ، أو تتجه إلى آلات المصانع ودخان المعامل وتهين نفسها بين العمال والموظفين هذا يغمزها وذاك يلمزها وذاك ينظر إليها بعين النهم ؟! أو تنساق وراء مغريات الحضارة والحياة الغربية وتتبع شهواتها ورغباتها والمتعة المحرمة ؟ كل هذا ولا شك سبب خطير لوقوعها في الرذيلة ، إن لم تختصر الطريق وتجعل الرذيلة مهنتها . . .

وحينئذ فلا أسرة ؟ وتشتت الأسر ضياع للمجتمع ، وضياع المجتمع ضياع للأمة ؟ إذن فضياع المرأة ميزان لضياع الأمة يرتفع ضياعها بارتفاع ضياع المرأة وينخفض بانخفاضه ويسلم بسلامتها ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء »(١) وفي رواية « أضر على أمتي » .

وقبل هذا قال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ ﴾(٢) عدد سبحانه

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة ، ورواه مسلم في كتاب الرقاق ورواه الترمذي في كتاب الأدب باب : ٣١ ورواه ابن ماجه في الفتن : باب فتنة النساء حديث ٤٠٦٢ ورواه أحمد جـ ٥ ص ٢٠٠ و ٢١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٤ .

في هذه الآية متاع الحياة الدنيا وجعل في مقدمته النساء قال ابن حجر رحمه الله تعالى « وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك »[1] .

أدرك ذلك المقياس المعز لدين الله لما قيل له : إن نساء قصر الإخشيد قد أغرقن في الترف ورفعن نقاب الحياء والسرف واستهنّ بالفضيلة وتركن رسالتهن قال في زهو وانتصار « اليوم فتحت يا مصر »[2] .

وأدرك هذا الشاعر العربي حين قال :

الأم مـدرسـة إذا أعـددتهـا أعـددت شعباً طيب الأعـراق

وأدرك هذا أيضاً الإستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية وجندت جنودها لهذا الهدف ، ولقد خدمها ولا زال يخدمها في تحقيقه كثير وكثير من الناس منهم من يعلم أنه جند من جنود الإستعمار ومنهم من يعلم أنه جند من جنود الصهيونية نفسها ومنهم أمعة يخدمهم من حيث لا يدري

ظهر أول كتاب في مصر يدعو إلى « تحريرها » من النظام الإسلامي سنة ١٨٩٤ م عنوانه « المرأة في الشرق » لمؤلفه مرقص فهمي المحامي وبعده بسنوات خمس أصدر قاسم أمين كتابه الأول « تحرير المرأة » دعا فيه إلى :

١) القضاء على الحجاب الإسلامي المعروف .
٢) إباحة الإختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها .
٣) تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي .
٤) منع الزواج بأكثر من واحدة[3] .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : بن حجر العسقلاني جـ ٩ ص ١٣٨ .
(٢) الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ١٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٣ - ٧٤ .

ونحن ندرك صلة الشيخ محمد عبده بهذا الكتاب فهي لا تخفى وسبق الحديث عنها وأقل ما قيل في هذه الصلة أن هذا الكتاب « وضعه ـ قاسم أمين ـ بإيعاز من الأميرة نازلي وبتشجيع من المغفور له الشيخ محمد عبده »[1] .

وقد حقق الأستاذ محمد عمارة في « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين . . وإن في هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده ، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغته النهائية بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوبْ قاسم أمين »[2] .

وقد أحدث صدور هذا الكتاب ضجة في المجتمع المصري دونها الضجة التي أحدثها علي عبد الرازق في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » أو طه حسين في «في الشعر الجاهلي»أو محمد أحمد خلف الله في « الفن القصصي في القرآن الكريم » . ذلك أن هذه الكتب إنما يعنى بها رجال السياسة والأدب وعلوم القرآن وإن شئت فقل الطبقة المثقفة .

أما « تحرير المرأة » فيمس كل الطبقات لارتباطه بحياة كل أسرة وتناوله المباشر لأحد أركانها ولهذا كان له من الأثر والصدى في المجتمع وورود الفعل ما لم يكن لتلك .

قالوا عن الكتاب فيما قالوا« إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب مصدر تغير عظيم في أفكار الأمة ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم في أخلاقها . . »[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٥ جـ ١ .

لذلك فلا عجب أن يقوم ضد هذا الإتجاه الفكري طائفة من الناس كبيرة إما لغرض ديني محض ، وإما تقرباً للمجتمع المصري الرافض لهذا الإتجاه وهو الجانب الأكبر .

وقف فيمن وقف ضد هذا الإتجاه الحزب الوطني[1] الذي شجب هذا الإتجاه في أول اجتماع عقده بعد صدور الكتاب في ٥ شعبان ١٣١٧ هـ ١٨ سبتمبر ١٨٩٩ م وفتح صدر صحيفته اللواء لكل طاعن على قاسم أمين وأفكاره[2] .

وحينما توفي قاسم أمين سنة ١٩٠٨ م وأقام له شيعته حفلة تأبين أشادوا فيها بدعوته إلى السفور قابل رجال الحزب الوطني هذه الحركة بإقامة إحتفال كبير للدعوة إلى الحجاب[3] .

وفي مقابلة هذا كان « حزب الأمة » من المناصرين لقاسم أمين وأفكاره على صفحات « الجريدة » وكان لطفي السيد باشا في مقدمة المروجين لها بمقالاته العديدة[4] .

وكان لا بد من تدخل الإستعمار الذي استغل فترة الحرب العالمية الأولى فاعتقل رجال الحزب الوطني وأوعز إلى أنصار الدعوة النسائية بإصدار مجلتهم « السفور »[4] وحتى هذا الوقت كانت النساء الداعيات إلى السفور يخرجن في مظاهرات وهن متحجبات ومنهن هدى شعراوي وصفية زغلول حرم سعد زغلول أحد تلاميذ الأستاذ الإمام .

---

(١) هذا حزب وطني جديد ليس هو الذي شارك محمد عبده في صياغة دستوره وسبق الحديث عنه .

(٢) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ٧٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٠ - ٨١ .

وفي عام ١٩٢٢ م تلقت هدى شعراوي(١) دعوة من الإتحاد النسائي الدولي بروما وعند عودتها ورسو الباخرة في الميناء المصري ألقت حجابها في ماء البحر .. ثم كونت الإتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣ م ووضعت حجر الأساس له في ابريل ١٩٢٤ م .

ودعا الإتحاد النسائي إلى تطبيق المبادىء التي نادى بها مرقص فهمي وقاسم أمين وفي مقدمتها تعديل قوانين الطلاق ومنع تعدد الزوجات علاوة على المطالبة للمرأة بالحقوق الإجتماعية والسياسية المزعومة(٢) وبعد عشرين عاماً من إنشاءه أي سنة ١٩٤٤ م استطاع الإتحاد النسائي أن يمهد لعقد المؤتمر النسائي العربي وجاءت قراراته بالدعوة إلى تطبيق ذلك ؟! .

هل تريدون أن أذكر شيئاً من صلة الصهيونية العالمية بذلك ؟ إذن فأعلموا أن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت إلى المؤتمر بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٤٤ م أشادت فيها بالإتحادات النسائية في البلاد العربية وقالت فيها أنها « واثقة » من أن النساء العربيات سيقمن بدورهن إلى جانب شقيقاتهن في بلدان العالم أملاً في نشر التفاهم والسلم العالمي في المستقبل « ولسنا في حاجة إلى أن نذكر الجهد الكبير الذي بذلته مسز روزفلت في تكوين الوطن القومي لليهود في فلسطين .. »(٣) .

وعقب هذا المؤتمر تكون « الحزب النسائي » سنة ١٩٤٥ م وفي

---

(١) هدى شعراوي ابنة (محمد باشا سلطان) الذي رافق جيش الإحتلال في زحفه على القاهرة ودعا الأمة إلى استقباله وعدم مقاومته ، وأهاب بها إلى تقديم كافة المساعدات المطلوبة له ، وسجل له التاريخ صفحة خالدة حينما تقدم مع فريق من الخبراء بهدية من الأسلحة الفاخرة إلى قادة جيش الإحتلال شكراً لهم على إنقاذ البلاد ؟ ! وخدمة لأهداف الإستعمار فجاءت البنت تواصل اعمال والدها .

(٢) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : محمد عطية خميس ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : مجمع محمد عطية خميس ص ٨٥ ـ ٨٦ .

عام ١٩٤٩ م تكون حزب بنت النيل وزعيمته درية شفيق وأصدر العديد من المجلات بالعربية والفرنسية للكبار والصغار .

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن إيرادات هذا الحزب المالية وقدرته على إصدار هذه المجلات ؟ والجواب كما نشرت الصحف بعد ذلك أنه من سفارتي بريطانيا وأمريكا ؟! .

وقد لقي هذا الحزب الترحيب من الإستعمار بكافة دوله ، وزيرة الشؤون الإجتماعية في إنجلترا تقوم بزيارته ورئيسة الإتحاد الدولي تبرق إلى رئيسة الحزب تدعوها للزيارة في أثينا . وجمعية سان جيمس النسائية بانجلترا تهنىء الهيئات النسائية المصرية على كفاحها وتعلن تأييدها لها ، ورئيسة لجنة الحقوق الإقتصادية بالإتحاد الدولي تقوم بزيارة إلى مصر لغرض الإطمئنان على أحوال الجمعيات النسائية في مصر[١] .

إهتمام عجيب ما عهدناه منهم فيما فيه صلاحنا وصلاح ديننا ولكنهم يدركون أنهم بذلك إنما يسعون لخدمة مصالحهم الصهيـونية ؟! نعم الصهيونية ذاتها !! أتريدون شاهداً على ذلك ! لقد دعا المؤتمر النسائي الدولي إلى اجتماع في ستوكهلم عاصمة السويد ومن قراراته قرار يقضي بمطالبة وزير الداخلية في السويد بإنزال أشد العقوبات على مسيو أنيراير ؟ أتدرون لماذا ؟!؟ لمواصلته أعمال الدعاية ضد الصهيونية في السويد !! وقد كتب مسيو أنيراير على إثر ذلك إلى الجامعة العربية والحكومة المصرية يستنكر موقف مندوبات الهيئات النسائية المصرية الممثلة في المؤتمر لموافقتهن على هذا القرار[٢] !!

وبهذا وغيره كثير تبدو لنا صلة الحركات النسائية بالإستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦ - ٩٣ .

(٢) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ٩٤ - ٩٥ .

ومعذرة إذ أطلت الحديث عن الإتحادات النسائية وصلتها بالإستعمار فما قصدت إلا بيان أثر تلكم الدعوة التي قام بها رجال المدرسة العقلية الحديثة بزعامة أستاذهم محمد عبده لما أسموه « تحرير المرأة » والصلة بين هذه الحركات النسائية ودعوة الأستاذ محمد عبده وتلميذه قاسم أمين صلة قوية واضحة .

بقي . . وقفة . . وهمسة

وقفة مع محمود عوض الذي أبدى دهشته وأسفه لتحول منزل قاسم أمين « إلى كباريه . كباريه اسمه . . اسمه الإريزونا ! »[1] .

وهمسة نهمسها في أذن محمود عوض هذا : ـ ألا تستقي العبرة . . ألا تستوحي من هذا أن هذه « الدعوة » توصل إلى هذه « النتيجة » .

ز ـ في السيرة النبوية : ـ

وعلى النهج الذي سلكناه في بيان أثرهم في بعض النواحي الفكرية فلن يشمل الحديث هنا أثرهم في جميع جوانب تأريخ السيرة النبوية وإنما في جانب هو أسها وقاعدتها وأعني به المعجزات المحمدية .

وممن تأثر بهم في هذه المسألة وسار على خطاهم محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » فهو حرصاً منه على تضييق نطاق الغيبيات التي لا تتفق مع علمية الغرب المادية ، راح ينكر كل معجزة لنبينا محمد ﷺ ويستثني من هذا ـ كما استثنوا ـ معجزة القرآن الكريم .

حتى عنوان الكتاب « حياة محمد » يبدو التأثر فيه واضحاً فليس فيه ما يشير إلى رسالته أو نبوته بل « محمد » مجرد من كل شيء كأي « محمد » سواه ، أليس هذا هو ما يبقى له بعد تجريده من المعجزات

---

(١) أفكار ضد الرصاص : محمود عوض ص : ٥٧ .

وأليس هذا هو مراد الغربيين من ذلك ، وإن ثبت له شيء بعد هذا فإنما هي العبقرية لا النبوة ، ولا أحسب هيكل أراد هذا بهذا العنوان وقصده وإنما هو التلقي والتأثر عن الغربيين من غير أن تترك له عين الرضا والإعجاب والدهشة التمحيص والتأمل وهو أمر أصاب غيره كثير من قبله ومن بعده[1] حتى ألفت الأسماء هذا وهو نشاز . . ويزداد خوفي عندما أقرأ له عند مناقشة إحدى القضايا عبارة « وندع الدين جانباً »[2] يزداد خوفي أن يكون أراد ترك الدين جانباً في عنوان كتابه « حياة محمد » ؟!

أنكر أو أوّل المعجزات لنبينا ﷺ إلا معجزة القرآن الكريم ، ونحن لا ننكر أن معجزته ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم ولكننا ننكر حصر معجزاته ﷺ في ذلك وإنكار ما سوى المعجزة القرآنية كما بينا ذلك سابقاً .

فنحن المسلمون نؤمن بما ثبت من معجزاته ﷺ غير القرآن الكريم ، نؤمن بانشقاق القمر وبالإسراء والمعراج وقصة فرس سراقة وبصقه ﷺ في عين علي فبرئت وكلها ورد في البخاري ومسلم . وغير ذلك من معجزاته الثابتة نؤمن بها ونؤمن مع هذا بمعجزة القرآن الكريم وأنه المعجزة الكبرى .

لكن الأستاذ هيكل يرفض هذا لأسباب :

الأول : أن أكثر هذه المعجزات لا يصدقها العقل حيث يقول « وندع الدين جانباً (!!) ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ما لا يصدقه العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة »[2] .

---

(١) من ذلك : الوحي المحمدي لرشيد رضا ، وعبقرية محمد لعباس العقاد ، ومحمد والقوى المضادة لمحمد خلف الله ومحمد نظرة عصرية جديدة لمجموعة من الكتاب .

(٢) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٣٤ .

الثاني : أن العلم لا يقرها ومن الواجب مراعاة جانب الدقة العلمية في تمحيصها قال « أما ومضرة الروايات التي لا يقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعي جانب الدقة العلمية في تمحيصها خدمة للحق وخدمة للإسلام ولتاريخ النبي العربي ، وتمهيداً لما يجلوه البحث في هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية سبيلها إلى حضارتها الصحيحة »[1] .

الثالث : أن القرآن لم ينص عليها قال « لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلا القرآن الكريم »[2] .

ثم قال « أما وذلك ما يجري به كتاب الله وما يقتضيه حديث رسول الله فأيّ داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبي العربي ؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء في القرآن عن معجزات من سبق محمداً من الرسل فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة فصدقوا ما روي منها وإن لم يرد في القرآن »[3] ؟! .

وقال في موضع آخر « فما دام الوحي لم ينزل بها فلا جناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محل تمحيص فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به ، وما لم يثبت بها فله فيه رأيه ، ولا تثريب عليه ، فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة ، ولا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله والشهادة برسالة

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٧٠ .
(٢) المرجع السابق : ص ٧١ .
(٣) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٧١ .

محمد .. لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن »[1] .

وقال « فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون مسوغ إلا اختلاف الأزمان التي وضعت هذه الكتب فيها فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها »[2] .

ولنا وقفة مع هيكل هنا فقد كشف لنا ناحية أخرى من نواحي تأثره برجال المدرسة العقلية الحديثة ألا وهو التقليل من شأن السنة والإحتجاج بها .

ما الذي يقصده بقوله « فصدقوا ما روي منها وإن لم يرد في القرآن » هل يقصد أنه لا يصح شيء مما ورد في السنة واستقلت ببيانه ولم يرد في القرآن !؟ إن كان يقصد هذا فالأمر أخطر وأكثر ضلالاً وانحرافاً ؟! وهل يقول هذا من فقه الإسلام ؟! إذن ففي أي سورة من سور القرآن ذكر عدد ركعات الصلوات الخمس وأوقاتها وفي أي سورة بيان أنصبة الزكاة المفروضة وفي أي سورة بيان وقت الصوم وفي أي سورة بيان أركان الحج وواجباته ؟ إن لم يكن هذا كله مما لا يصدق لأنه لم يرد في القرآن فأي شيء من الإسلام يبقى ؟!

إذن ففقه الإسلام وحقيقته تحتم الأخذ بالسنة مع القرآن الكريم ، وبهما معاً يكون كمال الإسلام ومن نبذ أحدهما فقد نبذ الإسلام كله لأن الإسـلام كل لا يتجزأ (والإسلام الكامل) الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله وأمر بنشره جاء بالمعجزات ورواها عنه أصحابه إلى أن وصلت إلينا كما وقعت ، وإن أصاب رواياتها ما أصاب غيرها من الروايات من الزيادة أو النقص أو الوضع فإن هذا لا يبرر رفضها جميعاً وإنكارها . فإن

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٤ .

أهل الحديث قد محصوا الروايات ونقّوها من الزيادات الموضوعة وبينوا الدخيل منها والأصيل .

ولو أنّه دعا إلى التمحيص والتدقيق القائم على القواعد والأسس الثابتة التي سار على نهجها سلفنا علماء الحديث لحمدنا له ذلك ولامتدحناه ، أما أن يرفض المعجزات النبوية التي رويت في الصحاح وأقرها علماء الحديث المسلمون يرفض هذا كله لمجرد أن شابه بعض الوضع فهذا منهج مردود .

أما الزعم بأنه مخالفة للعقل أو العلم فهذا لا يثبت ولا يصح وقد سبق بحثه في المعجزات .

وليعلم أولئك الذين يسعون لتجريد نبينا. محمد ﷺ من المعجزات تقرباً منهم « للعلمية الغربية » إنهم بهذا يجنون جناية لا تغتفر وأنهم بهذا يجردونه من صفة النبوة إلى صفة « العبقرية » التي يقربها بعض « أحرار الأفرنج » ويطمعون منا أن نسلم لهم بهذا وهو ما يؤدي إليه تجريده ﷺ من المعجزات .

وحتى ندرك عمق هذا الأثر لنقرأ النتيجة التي توصل إليها هيكل في كتابه حياة محمد بعد أن جرد حياته ﷺ من المعجزات (المادية) قال « فحياة محمد ـ كما رأيت ـ حياة إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح »(١) .

وتأمل معي وصفه لحياته ﷺ بأنها بلغت « غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ » وأنها « أسوة حسنة » لمن « يحاول بلوغ الكمال الإنساني » .

إذن فحياته ﷺ ليست حياة نبوة ، لأن حياة النبوة ليس في قدرة الإنسان بلوغها حتى يحاول ذلك وليست غاية ما يستطيع الإنسان أن يبلغ

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

لأن غاية ذلك دونها بكثير ، وإنما هذا شأن السمو الإنساني المجرد من النبوة وإن شئت فسمه العبقرية .

والإعتراف بالعبقرية لنبينا ﷺ لا يكفي لصحة الإيمان برسالته إلا عند المنهزمين أمام العلمية الغربية الذين اعتبروا أن الإعتراف « بأن محمداً ﷺ كان عبقرياً من طراز خاص فاق به جميع العباقرة » أنه « كسب عظيم للقائلين بنبوته »[1] .

وتأثرهم بالعلمية الغربية والمستشرقين تجاوز حدّه إلى قبول أقوالهم وأخذها بعين الإعتبار وتقديمها في الحكم على الأحاديث ومن حيث السند أيضاً على أقوال أهل الحديث أنفسهم ، فحديث شق الصدر الذي رواه البخاري ومسلم[2] يقول فيه هيكل « لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند »[3] ويقول « وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحديث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق »[3] .

وقد أنكر هيكل غير هذا من الخوارق والمعجزات المحمدية ففي قصة فرس سراقة مثلاً زعم أن ما أصاب فرسه من الكبو إنما هو « لشدة ما جهده » وعند قومة الجواد من كبوته الثانية « كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه وتطير سراقة ، وألقى في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هم مرة رابعة لإنفاذ محاولته »[4] .

---

(١) مجلة الأزهر جـ ١ المجلد العاشر محرم ١٣٥٨ هـ مقال السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة : محمد فريد وجدي ص ١٥ .

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ .

(٣) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٧ .

والذي ورد في صحيح البخاري قول سراقة نفسه في وصف ما جرى له ولفرسه عند مطاردته لرسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه في طريق هجرتهما من مكة إلى المدينة قال عن ذلك « ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان (أي غبار) ساطع في السماء مثل الدخان »[١] .

وحتى ندرك عمق الصلة بين هيكل واتباع المدرسة العقلية الحديثة في التفسير وتأثره بهم نذكر أن الشيخ محمد مصطفى المراغي هو الذي كتب المقدمة لهذا المؤلّف مشيداً بما جاء فيه ومعجباً به ومؤيداً له .

ودافع عن المؤلف والكتاب السيد رشيد رضا في مجلته المنار وجاء في دفاعه « أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي . . بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات . . وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل »[٢] .

والمؤلف نفسه كثيراً ما يستشهد فيما يذهب إليه بأقوال محمد عبده نفسه ويشيد به[٣] وأكبر ظنه أن أولئك الذين كتبوا السيرة النبوية لو عاشوا إلى زماننا هذا ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله لالتزموا ما جاء به القرآن ولقالوا بما قال به الغزالي[٤]

---

(١) صحيح البخاري ؛ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة جـ ٥ ص ٧٧ .

(٢) مجلة المنار في ٣ مايو ١٩٣٥ مجلد ٣٤ الجزء العاشر ص ٧٩٣ .

(٣) انظر مثلاً الصفحات ٣٤ ، ٧٠ ، ١٨١ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ .

(٤) يقصد أبا حامد الغزالي ولم يذكر له نصاً يدل على ما زعم ، بل لم يرد ذكر الغزالي في كتابه إلا مرة واحدة في هذا الموضع ومن غير ذكر نص من نصوصه .

ومحمد عبده والمراغي وسائر المدققين من الأئمة[1].

ويقول عن الشيخ عبده ودعوته « وكانت دعوته موضع إعجابي وقد دعاني ذلك لقراءة كتابه (الإسلام والنصرانية) وكتاب أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني في « الرد على الدهريين » وأذكر أنه قد كان لكثير من مقالاته في جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها مع أستاذه جمال الدين أثناء نفيه نفسه في باريس أثر أبلغ الأثر في نفسي »[2].

والصلة بعد هذا قوية لا تنفصم بين هيكل ورجال المدرسة .

وممن تأثر بهم أيضاً في هذا الناحية محمد أحمد خلف الله الذي زعم أن القرآن حارب فكرة المعجزات ، وبين أنها لم تكن إلا للتخويف والإلزام وأن العقل البشري يجب أن يترك من غير تخويف ليتحمل المسؤولية على أساس من الحرية والمقدرة الحقة على التمييز والمفاضلة والإختيار »[3] و « لم يحرص القرآن على المعجزات في إثبات نبوة محمد عليه السلام »[4].

وزعم أن القرآن حرر الإنسان من « الآيات الملجئة المتمثلة في المعجزات وخوارق العادات ورده إلى نفسه يفكر فيها وإلى الآفاق يتدبر أمورها »[5].

وهو أيضاً يستند فيما يقول إلى محمد عبده « ويقول الأستاذ الإمام قولاً يؤكد دور القرآن في عملية تحرير العقل البشري من فكرة الخوارق والمعجزات « دخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٧٠ .
(٢) مذكرات في السياسة المصرية : محمد حسين هيكل جـ ١ ص ٢٨ ـ ٢٩ .
(٣) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله . ص ٧٦ .
(٤) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله . ص ٧٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٩ .

مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان . . إلخ »[1] .

ومن تأثر بهم أيضاً في مسألة المعجزات صاحب تفسير « الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن » وقد تقدم بيان ذلك في أثرهم في التفسير .

وغير هؤلاء كثير مما ليس في وسعي حصره هنا ، ولنقف هنا في بيان أثرهم في بعض نواحي الفكر الاسلامي ولعل فيما ذكرنا ما يكفي لإثبات أثرهم فيها .

والحق أن أثر المدرسة العقلية الحديثة في حدّ ذاته موضوع واسع يحتاج إلى دراسة مستقلة متعددة الجوانب مستوفاة الأطراف ، وما ذكرناه ما هو إلا رؤوس أقلام وعناوين عريضة لمباحث يجب أن تجلى ويكشف النقاب عنها وليس في وسعنا ونحن ندرس الأصل أن نتوسع في فرع من فروعه أكثر مما فعلنا .

ولكن . . مهلاً ! أرى لزاماً أن أذكر بعد هذا موقف علماء المسلمين من رجال المدرسة العقلية الحديثة بنوعيهم المعاصرين لهم ومن بعدهم وبيان رأيهم فيهم ومن ثم أذكر موقف الإستعمار والإحتلال والمستشرقين منهم ففي بيان هذه المواقف جلاء لحقيقتهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ .

ثانياً : موقفُ علماءِ المسلمينَ منهُم .

وأسمح لنفسي هنا أن أستبق الأحداث وأجيب هنا على سؤال هام قد يخطر على ذهن من يقرأ ما سأكتب هنا .

سيقول قائل : - تحيّزك هنا بيّن وإجحافك بحقهم واضح وظلمك لهم ظاهر ! كان الواجب إذا أردت تقييم أولئك الرجال أن تذكر أقوال أنصارهم وخصومهم ، أن تذكر أقوال المدح والثناء عليهم والإعجاب بهم والإطراء لهم ، وتذكر في مقابل ذلك عبارات التجريح والذم لهم والتحذير منهم ، أما أن تعمد إلى أقوال الخصوم وتدع أقوال الأنصار فليس هذا من الإنصاف في شيء ؟

أقول لهذا رويدك . . لقد قلت بعض الحق لو كان قصدي من سياق الأقوال هو تقييم رجال المدرسة العقلية بها ، والحق أن هذا ليس كل قصدي .

ذلكم أن تقييمهم لا يكون بعرض أقوال الناس فيهم وإنما يكون بعرض أقوالهم أنفسهم على الكتاب والسنة وبمقدار موافقتهم لهما تكون سلامتهم والعكس بالعكس وهو ما فعلناه في كثير من القضايا التي بحثناها .

أما مرادنا هنا من عرض أقوال (من سميتهم خصوماً)[1] فهو أن نبين للقراء أنه كان بين علماء المسلمين من لم ينخدع بهم ويعميه الإعجاب بهم عن كشف مثالبهم وتجاوزهم وأخطائهم ، وأنه كان بين العلماء من أدرك ذلك في حينه وأخذ على عاتقه كشفه وبيانه للناس ، ولكنهم كانوا قلة في العدد والعدة ولم تكن هناك دولة تساندهم ولم يكن هناك إستعمار يسعى لنشر أفكارهم واحتجاجاتهم بل الأمر على الضد من ذلك كانت الدولة مع الآخرين تنشر أفكارهم وتؤيد قضاياهم وتقف خلفهم وصورهم الإستعمار والمستعمرون للناس عامة بصورة المصلحين الساعين إلى ما فيه خيرهم وخير بلادهم ولا تزال هذه الصورة لهم إلى ساعتنا هذه هي الطاغية على الحقيقة حتى عند العلماء منهم ، وحتى أن الأستاذ أنور الجندي يقول عن أحد الناقدين لهم « وهكذا يمضي الدكتور محمد حسين في إثارة الشبهات حول حقيقة جمال الدين ومواقفه مخالفاً كل ما ذهب الناس إليه من الثقة به واعتباره رائد النهضة وموقظ الشرق »[2] .

إذن فلا يحتاج هذا إلى بيان أقوال المؤيدين لهم والمناصرين لأفكارهم ومبادئهم ، وإنما يحتاج الأمر إلى بيان : من رفض أقوالهم ، وكشف للناس حقيقتهم وسيرتهم وهذا ما سنفعل إن شاء الله فنبدأ :

أ ـ المعاصرين لهم : ـ

ونبدأ ذلك بأقوال الشيخ محمد الجنبيهي صاحب كتاب « بلايا بوزا » الذي وضعه رداً على طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي »

---

(١) الحقيقة أنهم ليسوا كلهم خصوماً بل فيهم من هو معجب بهم في بعض الجوانب لكن إعجابه هذا لم يمنعه من قول الحقيقة في جوانب أخرى وحتى الخصوم الذين ننقل عنهم هنا لم يخاصموهم فيما نعلم لأمر دنيوي أو حقد أو حسد وإنما لأمر ديني وغيرة منهم على الاسلام ، ولا يعدّ هذا تجريحاً أو طعناً في نقدهم .

(٢) مفكرون وأدباء : انور الجندي ص ٢٦٢ .

ويرمز الشيخ الجنبيهي بـ « بوزا » لطه حسين وهو اصطلاح فرنساوي وهي قطعة من الخشب وزنها خفيف . . على هيئة قبل الرجال ولقد ركبت تلك القطعة على مقعر من رصاص ثقيل . . فتراها كلما ألقيت فوق الأرض كانت قائمة وقد ضربها عقلاء الأقدمين مثلاً لكل ضال حائر مغرور ذي لسانة وسفه فقد مزايا الأدباء وشذ عن مناهج الفضلاء متلبساً بعناد وإصرار شيطاني من حيث لا يشعر بما يقول ولا بما يعمل فلا تتوجه به أمياله إلا إلى مخالفة الفضلاء ومعارضة الأدباء بما لا يعلم عاقبته ولا يستطيع أن يقيم على صحته دليلاً »[1] .

وحينما يتحدث الشيخ عن الأفغاني ومحمد عبده فإنه لا يتحدث حديث التخرص والظنون وإنما حديث من خالطهم وعاشرهم ، فهو حديث خبير بهم حيث يقول « إني نشأت بعد بلوغ الرشد وطلب العلم في الأزهر الشريف مصاحباً لتلميذ جمال الدين الأفغاني ومحاذياً له قدماً بقدم بعدما أتى جمال الدين الديار المصرية وكثيراً ما جالست ذلك الرجل وتذاكرت معه مذكرات ذكرتها في بعض الكتب وما كان يدعوني إلى مجالسته إلا صاحبي الذي كان يظن أن يجذبني إلى الميل إلى ما مال إليه من فتنة ذلك الفاتن وكنت أطمع أن أكون سبباً في خلاصه من تلك الفتنة (ولكن الله غالب على أمره)[2] » .

إذن فحديثه حديث المخالط المعاشر فلنذكر حديثاً له مع جمال الدين الأفغاني ، كان محور الحديث بينهما ما يروى من الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني »[3] قال الجنبيهي « ولقد كان لي في هذا الحديث القدسي مع جمال الدين

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٣٨ .

(٣) قال السخاوي في المقاصد الحسنة « قال بن تيمية أنه ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي وشيخنا» المقاصد الحسنة ص ٣٢٧ .

الأفغاني واقعة كانت سبباً لعدم اتصالي به مع شديد رغبته ورغبة تلميذه الذي أشرنا إليه من قبل ، وتلك الواقعة هي أني سألته عن هذا الحديث لعلمي أنه ينكر الأحاديث القدسية لأنه طبيعي لا يعترف بوجود إلـه، وكنا في مجمع من الناس فقال ليس هذا وقت الكلام على هذا الحديث فأمهلني لوقت آخر « إلى أن قال أنه وجده في مجالس اللاهين في قهوة من القهاوي فقال له « هذا وقت الكلام على ذلك الحديث الشريف » فما كان جوابه إلا أن قال : ـ ذهب فيلسوف إلى المنتزه في يوم العيد فوجد الناس على حال مضحك : منهم من هو مخمور ومنهم من هو لاعب ومنهم من هو مرافق لامرأة من المومسات ومنهم من هو راقص ومنهم من هو متلبس بما لا يرتضيه أبناء البشر فنظر ذلك الفيلسوف إلى السماء قائلاً (الآن وقعت الحسرة في قلبك أهؤلاء كلهم عرفوك) فعند ذلك تغير حالي وعلمت أن الرجل ضال فقلت له أن هذا الفيلسوف لأحمق ومجنون قال : ولم ذلك قلت : لأن من جهل ربه في الدنيا يعرفه فيما بعد الموت ومن جهله في الرخاء يعرفه عند الشدة فما ذلك الفيلسوف إلا ضائع العقل والدين ثم تركت الرجل محزوناً لأن فتنته لم تؤثر في قلبي أثراً كان يريده وكان ذلك الموقف آخر عهدي به »[1] .

ويتحدث الجنبيهي عن المقادير التي جمعت بين دول الإستعمار وأنهم « ألهموا أن المتمسكين بآداب الدين القويم لن يغلبوا ما داموا متمسكين به سواء كثروا أو قلوا لأن المتمسك بدينه مرتكن على قوي متين لا يغلب ولا يقاوم فلذلك أجمعوا رأيهم على أن يعتمدوا على العلماء السياسيين منهم في حل روابط ذلك التماسك فقرر أولئك السياسيون فيما بينهم أن روابط الدين القوية لا تنحل إلا بثلاثة أمور : استبدال العلم النافع الذي كان يسأل رسول الله ربه أن يزيده منه بالعلم الذي كان يستعيذ بربه منه ، والأمر الثاني تولية المناصب لغير أهلها . والأمر الثالث

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ١١٨ ـ ١١٩

إيجاد أسباب قوية توقد نيران العداوة والبغضاء والتشاجر بين المسلمين حتى لا يتمسكوا بدينهم ولا يتفقوا على عمــل مرضٍ » إلى أن قال « وبمقتضى هذه الفكرة السياسية بعث جمال الدين الأفغاني إلى الديار المصرية لتنفيذ مفهوم تلك الفكرة »[1] .

ويتحدث عن علماء الأزهر آنذاك بأنهم « أيقنوا أنه ـ أي الأفغاني ـ من رجال الفتنة التي يتيحها الله لأشرار العلماء »[2] .

ويتحدث عن محمد عبده ويسميه (ابن عبده الغرابلي) لأن أهله كما يقول الدكتور محمد محمد حسين من الفقراء الذين يمتهنون صناعات صغيرة منها صناعة الغرابيل[3] قـال الجنبيهي عن محمد عبـده « أن الأسباب التي جعلت ابن عبده الغرابلي محبوباً لفحول السياسيين ولولاة الأمور من الدول المتحالفة على محو الإسلام اسماً ورسماً وصيـرته محموداً عند محرري الجرائد الأورباوية تتمدح باسمه وتعتني بعمل تذكار له هي بعينها الأسباب التي يتناول بها أستاذ الجامعة المصرية ـ يقصد طه حسين ـ مرتباً كبيراً بسبب شهادة الدكتوراه التي تناولها من أوربا لسبب عـداوتـه للدين ورجـالـه حتى يكـون إذا أعلوا شـأنــه فتنـة لأبنــاء المسلمين »[4] .

ويستدل الجنبيهي على سوء اتجاه محمد عبده الفكري بعلاقته باللورد كرومر فيقول «فهلا فكرت . . في الأسباب التي صعدت بمحمد ابن عبده الغرابلي . وقد اتخذه جناب اللورد كرومر أستاذاً ومرشداً في الدين وفي السياسة ثم نعاه بعد موته . . فهل كان ابن عبده الغرابلي في عصره من أكابر المرشدين الدينيين وكان ذلك اللورد متعطشاً لأن يسلك

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .
(٣) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٨٧ .
(٤) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٣٥ ـ ٣٦ .

سبيل المؤمنين . . فهلا تفكر في الأسباب التي جعلته محبوباً لرؤساء الدول المتحالفة على محو الإسلام إسماً ورسماً وما ذلك إلا لأنه أجهد نفسه في حلّ روابط المدنية الإسلامية السماوية . . »[1] .

وتحدث عن محمد عبده بعد عودته من المنفى في البلاد الشامية « فلما انقضت مدة النفي ورجع إلى الديار المصرية كانت ثقة اللورد كرومر به أكبر ثقة فسكن في منشية الصدر بعيداً عن عيون الرقباء وكانت الواسطة بينه وبين اللورد رجلاً انكليزياً يسمى (بلنت) كان يتزيا هو وزوجته بزي عرب البادية . . فلما قويت رابطة التواصل بين ذلك الإنكليزي وبين ابن عبده الغرابلي أعطاه قطعة أرض . . ليكون له جاراً وفي ذلك الحين اتخذه اللورد أستاذاً ومرشداً يسترشد برأيه في كل عمل يطلبه في تنفيذ الغرض الذي أجمع عليه السياسيون فكان الإصلاح الأزهري الذي ذهب بالدين وعلمه النافع أدراج الرياح من إشارات ذلك المفتون ، وكذلك كان إصلاح المحاكم الشرعية وما أنشئت الجامعة المصرية إلا بإرشاده وكان من تعليماته لذلك اللورد أن لا يتولى المناصب العالية متمسك بدينه وكان بين ذلك التلميذ وبين المبشرين رابطة وداد قوية فكانوا يزورونه في غالب الأحيان للإسترشاد به في مهمات التضليل التي أجمعوا عليها . . وكان من مساعدة اللورد كرومر لشيخه ومرشده أن ولاه مناصب القضاء الأهلي حتى وصل به إلى وظيفة مستشار . . . ثم عينه مفتياً بالديار المصرية ليكون له الحق في التداخل بشؤون الأزهر الذي أجمع السياسيون على خرابه فكان كل من أراد أن يلتحق بالمناصب العالية يتظاهر بازدراء الدين ورجاله ويكون كزب الأرض في ثباته على تمثيل هيئة العناد والإصرار بعدم الإنقياد لأي واعظ كان من النصحاء . . . وما زالت تماثيل زب الأرض تتفاقم رزاياها وتنتشر مصائبها من سفهاء الزيغ الذي افتتنوا بذلك الطالب المارق من الدين ظانين أن انتشار صيته

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ١٠ .

في الممالك كان لمهارته في العلم وتمسكه بالحق وليس الأمر كذلك وإنما هي فتنة اتخذها اللورد كرومر طريقاً مسلوكاً لتنفيذ أغراض السياسيين في البطش بالدين الإسلامي والخلافة الإسلامية وضياع العلم الديني وكان أمر الله قدراً مقدوراً »[1] .

ونذكر بعد هذا رأي الشيخ يوسف النبهاني وهو مع رأي الجنبيهي كما يقول الدكتور محمد محمد حسين «يصوران الجانب الآخر لصدى دعوة الأفغاني ومحمد عبده عند المعاصرين وهو الجانب الذي اختفى الآن أو كاد يختفي تحت تأثير الضغوط والحماية التي تساند هذه المدرسة وتحارب خصومها »[2] .

والشيخ النبهاني ـ أيضاً ـ إنما يتحدث ويقول بعد معاشرة ومخالطة للأفغاني إذن فقوله قول من أدرك الأمور على حقيقتها لا قول متخرص ظان .

يصفهم بإدعاء الإجتهاد المطلق وهم « الجاهلون » قال نظماً :

وكم من قرون قد توالت ولم يجل بدعوى اجتهاد مطلق عالم فكراً
فكيف أدعاه الجاهلون بعصرنا فما أقبح الدعوى وما أفظع الأمرا[3]

ويرى أن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[4] يرى أنهم هم المرادون بها ويستدل بما نقله السيوطي في الدر المنثور عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه سئل عن هؤلاء القوم فقال لم يأتوا بعد وذكر ذلك البيضاوي ثم قال النبهاني « قلت لا شك أن المنافقين

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي : ص ٥٠ ـ ٥٣ باختصار .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٩٤ .

(٣) الرائية الصغرى : يوسف النبهاني ضمن العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية له ص ٣٥٤ .

(٤) سورة البقرة الآيتين : ١١ و ١٢ .

المذكورين في هذه الآيات السابقة واللاحقة ، والخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه وغيره من أئمة الإسلام متصفون بهذه الأوصاف الذميمة إلا أنهم لم يدعوا أنهم مصلحون لدين الإسلام ويلقبوا أنفسهم بهذا اللقب مثل هذه الفرقة الضالة فرقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري في مطابقة الآية لهذه الفرقة أكثر من مطابقتها للمنافقين والخوارج وإن شملتهم جميعاً أحكامها »[1] .

وقال نظماً :

فما بالهم لا يصلحون نفوسهم ... أما هي بالإصلاح من غيرها أحرى[2]

وقال :

وكل امرىء لا يستحي في جداله ... من الكذب والتلفيق مهما أتى نكراً

فمن قال صلوا قال قائلهم له ... يجوز لنا في البيت نجمعها قصراً[3]

وقال

وأعداؤهم من بيننا كل عالم ... ولا سيما إن كان في فقهه بحراً

وقال :

فإياك أن تغتر منهم بفاجر ... وإن أنت قد شاهدت من فعله الخيرا

فذلك شيء جاء ضد طباعهم ... وقد فعلوا أضعاف أضعافه شرا

وكم أيد الإسلام ربي بفاجر ... فنهدي له لا الفاجر الحمد والشكرا

أشد من الكفار فينا نكاية ... وأعظم منهم في ديانتنا ضرا

من الكفر ذو الإسلام يأخذ حذره ... ومن هؤلاء القوم لا يأخذ الحذرا[4]

وقال عن جرائدهم ومجلاتهم : -

بها خلطوا بالحق باطل غيهم ... بها مزجوا الإسلام بالملل الأخرى[4]

---

(١) الرائية الصغرى : ص ٣٥٦ . (٢) المرجع السابق : ص ٣٥٦

(٣) المرجع السابق : ص ٣٦٢ .

(٤) المرجع السابق : الصفحات ٣٦٢ - ٣٦٣ .

وقال عن الأفغاني : -

تسمى جمال الدين مع قبح فعله   كما وضعوا لفظ المفازة للصحـرا[1]

وقال عن محمد عبده :

فمن جهة يدعى الإمـام ويقتدي   بأعمال أهل الكفر من جهة أخرى
يـذم خيـار المسلمين وعنـدمـا   يرى حاجة للكفر يستحسن الكفرا
لكيمـا يقال الشيـخ حرّ ضميره   فيبلغ عنـد القـوم مـرتبـة كبـرى
وما زال مشهوداً على الدين شره   وإن زعم العميـان أن بـه خيـرا

ويصف عبده - بعد عودته إلى مصر من منفاه :

وعـاد إلى مصر فـأحدث مـذهباً   ولـوث من أقـذاره ذلـك القـطرا
وأيّـد أعـداء الـبـلاد بسـعيـه   وأوهم أهل الجهل أن بهم خيرا
يحسن بين النـاس قبـح فعـالهم   ومهما أساءوا راح يلتمس العذرا
بمقدار ما خـان البلاد ومـا أتى   لأعدائها نصحاً علا عندهم قدرا

وقال :

ونال بجاه القوم في الناس رتبـة   بها حاز فيمن شاءه النفع والضرا

وقال :

فمن رهبة أو رغبة كم سعى له   طغام من الجهال أكسبهم خسرا

وقال عن منهجهم في التفسير : -

وقد ضل في القرآن مع عظم نوره   كما خبطت عشواء في الليلة القمرا
فتفسيـره من رأيـه ليس خـاليـاً   فإما يـرى فسقاً وإمـا يرى كفـرا
أحذّر كل النـاس من كتب دينه   وبالرد والأعـراض تفسيره أحـرى

---

(١) الرائية الصغرى : ص ٣٥٤ .

وقال عنه :

يعاشر نسوان النصارى ولا يرى بذلك من بأس وإن كشف السترا
ويأكل معهم كل ما يأكلونه ويشربها حمراء إن شاء أو صفرا
ويفتي بحل المسكرات جميعها إذا هي بالأسماء خالفت الخمرا
ويأكل مخنوقاً ويفتي بحله لئلا يقولوا أنه ارتكب الوزرا
وتحليله لبس البرانيط والربا به بعض أهل العلم قد ألحق الكفرا
وكم زار باريز ولندره ولم يزر مكة يوماً ولا طيبة الغرا
وإن كان يوماً للرياء مصلياً يرى فاعلاً يوما وتاركها شهرا

وقال :

وقد كنت في لبنان يوماً صحبته لقرب غروب الشمس من ضحوةكبرى
وصليت فرض الظهر والعصر بعده لديه وما صلى هو الظهرا والعصرا
وكان صحيح الجسم لا عذر عنده بلى إن ضعف الدين كان له عذرا

وقال :

وقبل غروب الشمس صاحبت شيخه لقرب العشا أيام جاورت في مصرا
ولم أره أدى فريضة مغرب فقاطعت شيخ السوء من أجلها الدهرا

وقال :

ولولا حديث المصطفى لأسامة يقول به هلا شققت له الصدرا
لما صحت الدعوى بإسلام بعضهم لدي وما استبعدت عن بعضهم كفرا
وكنت كتبت الكاف والفاء بعدها على جبهات القوم كي يعرفوا والرا
كما جاء في الدجال يكتب لفظها فيقرأ من يقرأ ومن لم يكن يقرا
فقد أشبهوه في معان كثيرة من الدّجل والإلحاد والبدع الأخرى
وما الفرق إلا أنهم في قلوبهم عماهم ودجال الورى عينه عورا
مقدمة للجيش عنه تقدموا وجند له من قبله مهدوا الأمرا

تقدم فيهم نـائباً عنـه عبده فأغوى الذي أغوى وأغرى الذي أغرى[1]

وقال عن رشيد رضا ومجلته المنار :

غدا ناشـراً فيه ضـلالات شيخه كما نشر الزّراع في أرضه البعرا

وقال :

وكم ضل رأياً من سقـامة فهمـه بـأمر صحيـح من شريعتنـا الغرا
ولـو سـأل الأشيـاخ أدرك سـره ولكنه مع جهله قد حوى كبرا[2]

وقال عن الثلاثة :

ثـلاث أثـاف تحتهـا نـار فتنـة ومن فوقها الإلحاد صار لها قدرا
وقد دخلوا حزب المسـون بهمة بها حل كلّ من محافله الصدرا
ومـذهبهم حكم الديـانات واحـد تساوى به الإسلام والملل الأخرى[3]

وهذا رجل آخر يكشف حالهم ويعلنها للناس وهو الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً يقول « أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة ، وهو الذي أدخل الماسونيـة في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني كما أنه على ما يقال وسيأتي إيضاحه في هذا الكتاب هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر »[4] .

وقال عن محمد عبده « فلعله وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا

---

(١) الرائية الصغرى : يوسف النبهاني من ص ٣٦٥ الى ص ٣٧٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٧ .
(٣) الرائية الصغرى : يوسف النبهاني ص ٣٨٤ .
(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ١ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

أن يلعبا في الإسلام دور لوثر وكلفين زعيمي البروتستانت في المسيحية فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين وإنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد بالنهوض والتجديد »[1] .

وقال عنه أيضاً «وكان من مضار الشيخ بالإسلام وعلمائه الناشئين بعده أنّ حملة الأقلام بمصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية كما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة التي انتقدتها في هذا الكتاب وأوجدوا من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه في أذن الشرق الإسلامي . ولا شك في تأييد القوة الماسونية له كان ذلك حثاً للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم على نيل ما أرادوه بواسطة الشذوذ في الرأي والتزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الإنتماء إلى الماسونية »[2] .

ولا نريد أن نذكر بعد هذا موقف الشيخ عليش رحمه الله تعالى الذي كان يلاحقهم في صحن الأزهر بعصاه أو موقف أبي الهدى الصيادي الذي وصف جمال الدين بأنه « مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية »[3] أو اعترافات أتباعه أنفسهم بأن الأفغاني « برز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفلك ويتجاذبها الجو وأن القول بوجود محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الإنسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات »[4] أو وصف السلطان عبد الحميد لجمال الدين الأفغاني بأنه رجل الإنجليز ، وأنه مهرج[5] .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ١ ص ٩٠ .

(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٤٣ .

(٥) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص ٦٧

لا نريد أن نذكر هذا وغيره ونفصله لأنه مما يطول بيانه ، وننتقل بعد هذا إلى ذكر موقف بعض علماء المسلمين غير المعاصرين لهم :

ب ـ من بعدهم : ـ

والحديث هنا أطول وأعمق من سابقه بكثير لكنه يختلف عنه أنه نابع عن دراسة لنتاجهم الفكري الذي أعلنوه للناس عبر مؤلفاتهم أو مجلاتهم لا عن مخالطة أو معاشرة لهم يدرك منها طباعهم وعاداتهم وأخلاقهم وشمائلهم التي لا تعلن عادة في المنشورات ولكن مع هذا لا يقل عنه منزلة وقيمة علمية كبيرة في نقدهم وإعلان حقيقتهم للناس ولن نذهب نعدد كل من نقدهم وكشف شيئاً من حقيقتهم فهذا ـ إضافة إلى أنه مما ليس في وسعنا ـ ليس من مقصودنا ومرادنا في هذا البحث ويشبع مرادنا أن نذكر موقف بعضهم .

فمن هؤلاء الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى الذي نقد منهجهم العقلي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾[1] حيث قال « إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الاستاذ الإمام رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة ، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها ، كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل ، ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير .

---

(١) سورة الفيل : الآية : ٤ .

. . . ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة من المبالغة في الإحتياط والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله . فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع في تفسير تلميذه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ـ رحمهم الله جميعاً ـ شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه « المعقول » ! وإلى الحذر والإحتراس في تقبل الغيبيات . ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الإتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف ـ هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير ، ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه ـ كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة »[1] .

ومن هؤلاء أيضاً الشيخ محمد حسين الذهبي حيث قال عن المدرسة العقلية الحديثة « أنها أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل ، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الإستبعاد والإستغراب ، إستبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة ، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن .

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن ، وطعنت في بعض

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب جـ ٣٠ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع ، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة في كل ما هو من قبيل العقائد أو من قبيل السمعيات مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثرة لا يستهان بها »[1] .

وقال « وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم فإنا نجده يغرق في هذه الحرية ويتوسع فيها إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف في أفكاره والغلو في آرائه »[2] .

وقال في موضع آخر ما خلاصته « الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري ، كما أنه لو صح في نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة »[3] .

وقال عن موقفه من حديث « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » وقد رواه الشيخان قال الذهبي عن موقف محمد عبده « فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة بجعل الحديث من باب التمثيل ، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط »[4] .

وقال أيضاً « وهذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه ومسلك الزمخشري وغيره من المعتزلة الذين اتخذوا التشبيه

---

(١) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢١٥ - ٢١٦ .
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٣٥ .
(٣) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢٤١ .
(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤١ .

والتمثيل سبيلاً للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن ولا تعجز عنها قدرة الله وإن بعدت عن منال البشر »[1] .

وقال « ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضرباً من التمويه والخداع وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله »[2] .

ولم يكن الشيخ الذهبي بالوحيد الذي ربط بين اتجاههم واتجاه المعتزلة بل حتى أنور الجندي الذي أشاد بهذه المدرسة وخدع بها قال « وإذا كان جمال الدين الأفغاني هو أول من فتح باب المنطق والفلسفة في الفكر العربي الحديث بحسبانه طريقاً إلى الدفاع عن الإسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة على نفس المنهج الذي اتخذه المعتزلة فإن محمد عبده هو الذي عمق هذا الإتجاه حتى أطلق عليهما اسم « معتزلة العصر الحديث »[3] .

أما الدكتور علي محمد جريشه ومحمد شريف الزيبق فقالا عن المدرسة العقلية « ونحن ـ على عكس كثير غيرنا ـ نحسن الظن بأصحاب هذه المدارس ولا نقبل أن نسميهم عملاء وإن بدا منهم لون من الإتصال أو التعاون مع العدو المستعمر » « لكننا وإن نفينا عنهم «العمالة » فلا نستطيع أن ننفي عنهم « السذاجة » أنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يضحكوا على الإستعمار ويمكروا به فإذا به أشد مكراً ظنوا أنهم يستطيعون أن يمتطوه ليسخروه لصالح الإسلام وامتطاهم الإستعمار ليسخرهم لصالح التغريب والتغيير الاجتماعي »[4] .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٣) اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار : أنور الجندي ص ١٣٢ .

(٤) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي : علي جريشة ومحمد الزيبق ص ٢٠١

وقالا « وبهذه النية التي نحسن الظن بها ألف صاحب مدرسة العقل جمعية التقريب بين الأديان فيها المسلمون والنصارى واليهود . . . ولعله لم يدرك أن التقارب بين الإسلام والمسيحية واليهودية لا يمكن أن يكون إلا على حساب الإسلام . . لأنه الوحيد الدين الصحيح وغيره محرف . . ولعله لم يدرك أن المشركين حاولوا مع رسول الله ﷺ ذلك التقارب حين قالوا نعبد إلٰهك يوماً وتعبد آلهتنا يوماً فأنزلها رب السماء والأرض قاطعة حاسمة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ السورة »(١) .

وقالا : ـ « وأما الذي نأخذه على الرجل العالم : ـ

أولاً : اقتصاره من الإسلام على الإصلاح عن طريق التعليم فالإسلام ليس مجرد ثقافة فقط لكنه منهاج تربية ومنهاج حياة ، وليته في هذا الجانب استطاع أن يصلح .

ثانياً : أن الرجل وهو في موضع القدوة للمسلمين مالأ « الكافرين » الذين غصبوا الديار وما بعد الديار ! . . . ولا ندري هل كان الإمام يحفظ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . . . الآية ﴾ وهل قرأ غيرها من الآيات في نفس المعنى أم أن له فيه تأويلاً كتأويله في الملائكة أو في سجودهم أو في معصية آدم أو في خلق عيسى عليه السلام أو في الجن أو في السحر أو غير ذلك مما أعمل فيه عقله (الكبير) ليقول « بالرأي في كتاب الله ؟!! » لقد مضى الرجل إلى ربه فنترك له حساب سره وعلانيته لكننا إزاء الظاهر .

وعمره الذي أفنى في محاولة إصلاح التعليم بلوغاً إلى مقاومة الإستعمار أو إلى النهوض بالإسلام لا نملك إلا أن نتلو قول الله ﴿ قل هَلْ

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾[1] ونترك من قبل ذلك ومن بعد ذلك حسابه على الله لكننا نسوق ما نسوق ليعتبر أولـو الأبصار . . ويتذكر أولوا الألباب فلا تتكرر الصورة مرة أخرى »[2] .

أما الأستاذ غازي التوبة فعد من أخطاء محمد عبده دعوته للتقريب بين الأديان فقال « قد أخطأ محمد عبده في دعوته إلى التأليف والتقريب بين الأديان حتى صار مطية لهيئات ودول حاقدة على الإسلام والمسلمين ، وما ذلك إلا لأنه لم يلتزم حدّ الإسلام بل اتبع هواه فكان أمره فرطاً »[3] .

واستعرض الأستاذ غازي جملة الأخطاء والإنحرافات بعد أن قسمها إلى قسمين :

أ) نتائج سياسية : وعدّ منها :

١ ـ التعاون مع رياض باشا عميل الإنجليـز .
٢ ـ التعاون مع المحتل الإنجليزي .
٣ ـ الإصطدام مع عباس الثاني فقد كانت في مصر آنذاك سلطتان سلطة الإحتلال وسلطة الخديوية إحداهما مغتصبة والأخرى شرعية تمثلت الأولى في الثعلب العجوز اللورد كرومر والثانية في الخديـوي عبـاس الثاني .
٤ ـ تبرير وجود المحتل .
٥ ـ تكوين مدرسة سياسية باسم محمد عبده حيث وجد الإحتلال في محمد عبده وتلاميذه مدرسة سياسية تحقق أغراضه وتنفذ مآربه فرعاها ونماها .

---

(١) سورة الكهف الآيتين : ١٠٣ و ١٠٤ .
(٢) أساليب الغزو الفكري : ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .
(٣) الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة ص ٢٣ .

ب) النتائج الفكرية :

كان الإستعمار يشعر بتحول المجتمع المسلم نحو الحضارة الغربية وأخذه منها في كل مجال وتقليده لها في كل أمر ولكنه كان يؤمن - في الوقت نفسه بأن الهوة ستبقى قائمة بين الغرب والمسلمين من جهة ولا يؤمن الإنتكاس من جهة ثانية طالما أنَ الإسلام باق على طبيعته وحقيقته لذلك فقد صبّ جهوداً كبيرة كي يحوّر ويحوّل الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولـهـا دون التحرج من ناحية أخرى ،وقد وجد الإستعمار في محمد عبده ضالته التي تحقق له هدفه ذاك في التحويل والتحوير أو قل التي تبدأ له بالخطوة الأولى في ذاك التحويل والتحوير »[1]

والدكتور محمد محمد حسين غير مكثر في ميدان الكتابة لكنه رصين الإداء مقتدر في إستيفاء جوانب موضوعه ينظر إلى الأمور في عمق كما قال الأستاذ أنور الجندي[2] وقد كان لدراسته العميقة في دعوة الأفغاني وتلاميذه نتيجة خطيرة توصل إليها حيث يقول « الذي يبدو لي هو أن دعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها كان لها - ككل الدعوات السرية - ظاهر وباطن فظاهرها يخاطب الجماهير . وهو يصور ما يريد صاحب الدعوة أن يعرفه جمهور المسلمين مما يعجبهم ويقع من قلوبهم موقع الإرتياح والقبول ، وباطنها يمثل حقيقتها التي يخفيها أصحابها عن الناس ، ولا يكشفون الستر عنها قبل أن تحقق أهدافها بالوصول إلى مركز السلطة ومحمد عبده كان تابعاً لسيده الأفغاني أو خادماً له كما تعود هو نفسه أن يكتب إليه في بعض رسائله والأفغاني كان يريد أن يعيد الدور نفسه الذي لعبـه الإسماعيلية من أصحاب الدعوات الباطنية التي تتستر وراء التشيع »[3] .

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة انظر الصفحات ٤٤ - ٦٥ .

(٢) مفكرون وأدباء : أنور الجندي ص ٢٦٤ .

(٣) الإسلام والحضارة الغربية : محمد حسين ص ٨٣ .

وقال عنهما أي الأفغاني ومحمد عبده « وكانا ـ ككل الثوار من أصحاب الدعوات السرية ـ يعلنان ما يحبه الناس ويستهويهم غير ما يبطنان مما ينكره الناس وما يبلغهم مطامعهم »[1] .

هذا الرأي ليس رأي رجل خراص وإنما رأي رجل وقف جزءاً كبيراً من نشاطه لدراسة حقيقتهم وجلاء أهدافهم حتى إذا ما وصل إلى درجة كبيرة من ذلك كشف للمسلمين ما توصل إليه مستنداً إلى حقائق ثابتة من أقوالهم أو أفعالهم التي لا تنكر وقد عرفت عنهم واشتهروا بها ، وهو حينما يكشف هذا لا يكشفه لحقد أو حسد وإنما يكشفه لغرض إسلامي نبيل هو أن لا تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناسٍ يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد حتى أن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون »[2] .

إذن فنقده نقد عارف مطلع ، هدفه الإصلاح ، وهذا ما نبحث عنه .

ونختم الحديث هنا برأي صنيعة من صنائعهم وأثر من آثارهم هو الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي لكنه مع هذا أبى إلا أن يقول الحق في منهجهم .

أما أنه متأثر بهم معجب فشاهده أنه قال في إهداء كتابه النظرات « إن كان لي في هذا السفر فضيلة يعجب بها الفاضل أو رأي يرضى عنه العاقل ، أو ديباجة يثني عليها الأديب فلا يد فيها لأحد من الناس غير هؤلاء الرجال الثلاثة ولي نفسي والدي السيد محمد لطفي ووليّ عقلي أستاذي الشيخ

---

(١) مجلة « رسالة الطالب المسلم » لقاء مع الدكتور محمد محمد حسين ص ١٠٠ العدد الأول ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ هـ ـ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٤٩ ـ ٥٠ .

محمدعبده،ووليّ أمري سيدي سعد باشا زغلول أولئك الذين أهدي إليهم كتابي لأنه حسنة من حسناتهم وصنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعايتهم وأولئك الذين أحسنوا إلي في هذه الحياة إحساناً لا أزال أذكر أياديهم البيضاء فيه حتى يعتاق نفسي حمامها وعظامي رجامها »[1] إلخ .

ولكن هذا الولاء لوالده ولا دخل لنا فيه ، ولمحمد عبده ولسعد زغلول وهو مرادنا لم يمنعه من قول الحق في نقد منهج محمد عبده حيث عرض لذكره في مقالة عنوانها « يوم الحساب » تخيل فيها أنه قد انتقل من العالم الأول إلى العالم الثاني ورأى كأنه بعث بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم فألهم أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب ثم تخيل حواراً جرى هناك بين محمد عبده وقاسم أمين عاتب فيه الأول الثاني على دعوته إلى السفور فإذا بقاسم أمين يجيب « أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك : إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ . . وإنك نصحتني بما لم تنصح به نفسك ، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول ، وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقتلته ، إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت وفهموا غير ما فهمت فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين ، وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين .

أوّلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار ، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها جملة واحدة ! وقلت لهم إن الولي إلّه باطل والله إلّه حق فأنكروا الألوهية حقها وباطلها ، فتهلل وجه الشيخ وقال له ما زلت يا قاسم في أخراك مثلك في دنياك لا تضطرب في حجة ولا تنام عن ثأر »[2] .

---

(١) نقل لي هذا النص شيخنا وأستاذنا عبد الفتاح أبو غده جزاه الله خيراً عن الطبعة الأولى من كتاب النظرات لمصطفى لطفي المنفلوطي سنة ١٣٢٨ هـ الصفحة الأولى .

(٢) النظرات : مصطفى لطفي المنفلوطي : جـ ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

حسبك بهذا الإتهام من صنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعايتهم وخلاصة ما نقلنا من نقد لهم هنا أنهم : -

١ - غير ملتزمين للشعائر الإسلامية من صلاة أو حج . . إلخ .
٢ - إن تعاونهم مع الإحتلال ودول الإستعمار إما لأنهم عملاء كما يقول بعض النقاد أو سذاجة منهم كما يقول آخرون .
٣ - إن لهم دعوة باطنية يظهرون منها ما يخالف حقيقتها وباطنها .
٤ - إنهم جاروا مذهب الإعتزال في كثير من مذاهبهم حتى أطلق عليهم أنهم معتزلة العصر الحديث .
٥ - إنهم الوسيلة التي اتخذها الإستعمار والمستعمرون لتحويل وتحوير الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية .
٦ - إن منهجهم في التفسير ضال ومنحرف .

كل هذا وغيره كثير كشفه الناقدون لهم لكن هذا كله ، ولكنهم كلهم لم يكن لهم من الأثر مايذكر ، في التقليل من رواج حسن سيرتهم بين الناس وانخداع العلماء بهم قبل العوام حتى وصلوا إلى درجة لا يجرؤ عالم من العلماء على نقدهم علانية أمام ملأ من الناس في مجتمعهم .

لم يكن السبب في هذا سرّاً لا يعلمه أحد بل علمه وخبره الكثيرون وأعلنوه للناس أيضاً ، قالوا ان السبب أن الإستعمار يقف خلفهم ويؤيدهم ويساند دعوتهم ويحميهم أينما ساروا ، ويحمي أفكارهم ومبادئهم في اللحظة التي يحتاجون فيها إلى الحماية ويسعى إلى ترويج آرائهم بين المسلمين وإيصال صوتهم ودعوتهم إلى الناس .

وجنّد الإستعمار جنوده من المستشرقين للثناء عليهم ومدحهم حتى يروج ذلك بين الكتاب المسلمين فينقلوه عنهم نقل الإعجاب والتأييد « والإفتخار » برجلين أو رجال من الشرق نالوا رتبة عالية عند رجال الغرب في المباحث الدينية ، وهي رتبة تهفو إلى بلوغها أنظار طلاب الشهـرة ولو على

حساب الدين فأخذوا ينقلون ويروجون أفكارهم ومبادئهم لا نقل الفاحص الناقد وإنما نقل المؤيد المسلم لهم ما يقولون .

وبهذا راجت بين الناس أفكارهم وطغت على أذهانهم مبادؤهم فلا يسمعون صيحة « مخنوق » ضدهم ولا همس هامس في نقدهم ، ولا صرخة محذّر بين صيحات المخدوعين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] .

حتى ألجأوا بعض من يريد قول الحقيقة إلى قولها مشوبة بالثناء عليهم ومدحهم وتمجيدهم تقرباً إلى المخدوعين بهم .

ذلك أثر من آثار الإستعمار ، ونتيجة لدراسة نقدية مزعومة من المستشرقين لا ندعي ذلك إدعاء ونثبت هنا ما يقيم أساسه :

---

(١) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

ثالثاً : موْقفُ الاسْتِعْمَار البَريطاني مِنهُم وَاعْتِرافُه بمَا قدّمُوهُ لَه مِنْ خَدَمَات

سبق أن ذكرنا ما يثبت حماية الإستعمار لهم ودفاعه المستميت عن دعوتهم ، ونعيد هنا للمناسبة بعضه ونزيد عليه .

ونبدأ أول ما نبدأ برجل أعلن عداءه للإسلام حيث قال جئت (إلى مصر) لأمحو ثلاث القرآن والكعبة والأزهر [(١)] .

ترى من الذي عاون هذا الرجل لتحقيق هدفه ؟! إنهم ولا شك رجال المدرسة العقلية من حيث يدرون (فيكونوا عملاء) أو من حيث لا يدرون (فيكونوا سذاج) .

قال كرومر في تقريره السنوي لعام ١٩٠٥ م عن محمد عبده « كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ولآرائه المتحررة المستنيرة أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى »[(٢)] .

وقال أيضاً « لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد إليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الإصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم إذا ساروا فيه فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين »[(٣)] .

---

(١) الخنجر المسموم : أنور الجندي ص : ٢٩ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٧٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٤٢٦ .

وقال أيضاً « إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي »[١]

وقد امتثل هو ما دعا إليه فمال إليهم وعطف عليهم وقدم لهم كل عون وتشجيع فكانوا له (حلفاء طبيعيون) فوجبت عليه حمايتهم .

صرح اللورد كرومر بنفسه « إن الشيخ محمد عبده يظل مفتياً في مصر ما ظلت بريطانية العظمى محتلة لها »[٢] .

وقال السيد رشيد « وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديوي إن كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لأجل فصله من الإفتاء فاسمح لي بأن أقول أنه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فإن الشيخ محمد عبده يكون هو المفتي حتى يموت »[٣] .

هذه بعض حمايته في الداخل أما إذا ذهب إلى الخارج كالآستانة مثلاً فإنه يكتب إلى تلميذه السيد رشيد « ان السلطان لا يستطيع حبسي لو أراده وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك أسباب لا أحب ذكرها الآن »[٤] ولكن السيد رشيد يذكر السبب في هذا « وهم لا يجهلون أن السفارة البريطانية كانت بالمرصاد وأنها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضاً »[٥] .

بل إن الإحتلال الإنجليزي كان عاملاً أساسياً من عوامل عودة محمد عبده من المنفى في الشام إلى مصر وقد صرح اللورد كرومر بهذا

---

(١) Modern Egypt: Cromer p. 180

(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٥٠١ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٦٤ .

(٤) الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع محمد عماره جـ ١ ص ١١٧ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام : جـ ١ ص ٨٦٠ .

في كتابه مصر الحديثة حيث قال « إن العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني »[1] .

هذه إشارة تكفي اللبيب في بيان مدى تعاون إمام المدرسة العقلية الحديثة وأستاذها مع الإحتلال ومدى حمايتهم له وهو أمر له معناه .

تَرحيبُ المُسْتشرقينَ بالمَدْرَسَةِ وَنتَائجِهَا

كان لأفكار المدرسة العقلية صدى كبيراً في دراسات المستشرقين ، والحقيقة أنا لا ندري من أين نبدأ وإلى أين ننتهي بين عبارات الثناء والترحيب بهم من المستشرقين ولعلنا نكتفي ـ أيضاً ـ بالإشارة .

فهذا جب يقول عنهم « لسوء الحظ ظل قسم كبير من المسلمين المحافظين ولا سيما في الهند لا يخضعون لهذه الحركات الإصلاحية المهدئة وينظرون إلى الحركة التي تزعمتها مدرسة عليكره بالهند ومدرسة محمد عبده بمصر نظرة كلها ريبة وسوء ظن لا تقل عن ريبتهم في الثقافة الأوروبية نفسها »[2] ثم وضح هذا المستشرق الإنجليزي جب دور المدرسة العقلية بقوله « إن في كل البلاد الإسلامية ـ باستثناء شبه جزيرة العرب وأفغانستان وبعض أجزاء من أواسط إفريقيا ـ حركات معينة تختلف قوة واتساعاً ترمي إلى تأويل العقائد الإسلامية وتنقيحها » ثم قال « وقد اتجهت مدرسة محمد عبده بكل فروعها وشعبها نحو تحقيق هذا الهدف » ثم ذكر « أن الأب (بانيرث) المبشر يرى أن حركة الإصلاح الإسلامي ـ على النحو الذي تسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسيحية الغربية بالتشجيع »[3] .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث : غازي التوبة ص ٤٥ .

(٢) إلى أين يتجه الإسلام : للمستشرق جب عن مجلة المجتمع العدد ٣٦٤ في ٩ رمضان ٩٧ هـ ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٣ عن الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة ص ٦١ ـ ٦٢ .

ولعله يكفي هنا أن ننقل عن جب رأيه في تلاميذ محمد عبده حيث يقول « إن تلامذته هم من أولئك الذين تعلموا على الطريقة الأوروبية وذلك من ناحيتين أولاهما إن ما كتبه الشيخ كان بمثابة درع واقية للمصلحين الإجتماعيين والسياسيين فإن عظمة اسمه قد ساهمت في نشر أخبار لم تكن تنشر من قبل ثم إنه قد أقام جسراً من فوق الهوة السحيقة بين التعليم التقليدي والتعليم العقلي المستورد من أوربا الأمر الذي مهد للطالب المسلم أن يدرس في الجامعات الأوروبية دون خشية من مخالفة معتقده وهكذا انفرجت مصر المسلمة بعد كبت ، فقد ساهم الشيخ محمد عبده أكثر من أي شخص آخر في خلق اتجاه أدبي جديد في إطار الروح الإسلامية »[١] .

أما الجاسوس البريطاني الفريد سكاون بلنت فيصف دعوتهم بأنها « الإصلاح الديني الحر » ويصفهم بأنهم « زعماء الإصلاح في الأزهر » ويصف مدرستهم بأنها « تلك المدرسة الواسعة التقية »[٢] .

وقال عن الأفغاني « ومن أغرب ما يروى أن الفضل في نشر هذا الإصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني »[٣] .

وقال عن محمد عبده أنه « رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام ويجب أن لا يتوهم أحد أني إذ أستخدم هذه الألفاظ ألقي القول على عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة ولكني أقولها معتمداً على معرفتي بأخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته في أول الأمر معلماً دينياً ثم قائداً

---

(١) الإتجاهات الحديثة في الإسلام : جب ص ٧٠ .
(٢) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر : الفرد سكاون بلنت ص : ٧٦ .
(٣) المرجع السابق : ص ٧٧ .

لحركة الإصلاح الإجتماعي . . . وأخيراً حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد »[1] .

وتحدث عن هدف الأفغاني فقال « كان همه أن يطلق العقول من الأغلال التي قيدتها طوال الأجيال الماضية » وأن هذا « يماثل ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر »[2] .

وهذا جولد زيهر يبين قصد مدرسة المنار بأنه « تحقيق قدرة الإسلام على الحياة بين تيارات العصر الحديث عن طريق إصلاح الأحوال المغلولة بقيود المذاهب الجامدة »[3] واعتبر السيد جمال الدين الأفغاني المحرك الأول لهذا الإتجاه[3] .

وحسبي أن أقف هنا في بيان الصراع بين المحذرين منهم وبين الإستعمار والمستشرقين ، ولا يزال ـ حتى ساعتنا هذه ـ صوت الإستعمار هو الأكثر رسوخاً في أذهان الناس .

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٠ .
(٢) المرجع السابق : ص ٧٨ .
(٣) مذاهب التفسير الإسلامي : جولد زيهر ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

رابعًا : النّتيجة

ونخلص من دراستنا هذه أن لمذهب المدرسة العقلية الحديثة أبعاداً ثلاثة نراها قوية شامخة في التكوين الأساسي للمدرسة العقلية نذكر هذه الأبعاد الثلاثة إجمالاً ثم نستخلص بعد هذا النتيجة التي نراها والموقف الذي يجب أن نقفه نحن المسلمون على ضوء هذه النتيجة .

الأبعاد الثلاثة : ـ

أولاً : أن هذه المدرسة أعطت العقل أكثر من حقه وكلفته ما لا يطيق ورفعت من قيمته وضخمت حجمه حتى ساوته بالوحي بل قدمته عليه وقدمت ما زعمته من أحكامه على أحكام الوحي .
وسعت في هذا السبيل لأجل « تضييق » حيز الغيبيات في مسائل العقيدة الإسلامية .

ثانياً : قامت هذه المدرسة بتأويل حقائق العقائد الإسلامية بما يتمشى مع الأحكام العقلية من جهة ومكتشفات الحضارة الغربية والنظريات العلمية الغربية من جهة أخرى .
وفي سبيل ذلك أيضاً قامت بتأويل المعجزات والخوارق وإنكار بعضها إذا لم يمكن قلب حقيقته بما يتمشى مع هذا البعد الفكري .

ثالثاً : تبرير تناول الحضارة الغربية ومجاراتها في مدنيتها الزائفة والتحوير

من الداخل لإعطاء السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية وتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين تقريباً كان على حساب كثير من الجوانب الإسلامية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية .

تلكم هي الخطوط العريضة والأبعاد الراسخة التي نراها في منهج المدرسة العقلية .

ونتيجة لذلك فإنا نعتقد : ـ

أولاً : أن المدرسة العقلية الحديثة ذات منهج منحرف وهي بسلوكها إياه تعد فرقة منحرفة جديدة أقرب ما تكون إلى فرقة المعتزلة فهم كالمعتزلة .

أ) في تحكيم العقل والرجوع إلى أحكامه ورفعه إلى مرتبة الوحي وهم لو حكموا العقل نفسه لسلمنا لهم لأن أحكامه بنفسه لا تخالف حكماً ثابتاً في الشريعة الإسلامية أو قضية من قضاياه وهم إنما يحكمون العادة فيحسبون ما خالف العادة مخالفاً للعقل .

ب) وهم كالمعتزلة في إنكار المعجزات أو تأويلها .

جـ) وهم كالمعتزلة أيضاً في كثير من الغيبيات كالملائكة والجن والسحر وغيره .

د) وهم كالعتزلة في إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة حتى ما رواه البخاري ومسلم .

هـ) وهم كالمعتزلة في عدم تعديل الصحابة كلهم بل تجاوز بعضهم ذلك كبعض المعتزلة إلى سب الصحابة رضوان الله عليهم .

و) وإنهم كالمعتزلة في اعتقاد خلود أهل الكبائر في النار .

ومن هذا ندرك وضوح الصلة ووجه الشبه بينهم وبين المعتزلة .

ثانياً : إنهم يزيدون على المعتزلة بالدعوة للتقريب بين المسلمين والكفار (النصارى واليهود) وتبرير تناول الحضارة الغربية ومجاراتها في مدينتها الزائفة .

بل أنهم أخطر من المعتزلة ذلك أنهم يسعون بكل ما وسعهم لتغيير المفهوم الإسلامي في معاملة الكفار وإلغاء الفاصل والحاجز بين الفكر الحق والفكر الضال أو المنحرف وإذا ما ألغي جانب العقيدة في ميزان التفاضل فإن الكفة سترجح حتماً بنا وسيصبح الكفار آنذاك هم الأفضل والأقوى ومن ثم تكون لهم السيطرة وتكون لهم الدولة وحينئذ تكون خسارتنا للدين والدنيا .

وهو ما يسعى إليه الإستعمار وسهر من أجله الليالي ودفع جيوشه المادية والمعنوية وبث رجاله المستشرقين والمخدوعين ـ لأجله .

ثالثاً : إن الكثير من مفاهيمهم ومبادئهم هي السائدة في الفكر الإسلامي المعاصر وما ذاك إلا أثر من آثار فرض الإستعمار باديء ذي بدء آراءهم على الناس وترويجه لهم وتمجيد المستشرقين لهم حتى إذا ما سار ذلك بين الناس أخذوا يتبنونه بأنفسهم ويعلنونه في مؤلفاتهم ويدافعون عنه حتى أصبح أو كاد من المسلمات .

وأصبح رجال المدرسة العقلية عندهم من الرجال الذين لا يقبل فيهم نقد أو يصل إليهم قدح .

رابعاً : إنهم مهدوا السبيل لسيطرة الفكر الغربي واتخذهم الأعداء مطية يعملون من خلالها على زلزلة عقيدة المسلمين وتشكيكهم بها ومحاربة الإسلام في عقر داره ليس عن طريق نشر المؤلفات فحسب بل عن طريق الصحافة وطريق السينماوالتليفزيون والإذاعة وكل وسائل الإعلام الأخرى .

ثم عمل الإستعمار على إطفاء ما بقي من نار الغيرة على الشعائر الإسلامية بل على الدين كله في قلوب الشباب فأصبحوا لا يحرك ساكناً فيهم ما يحدث في المسلمين في الفلبين أو في

الهند أو في أفغانستان أو في فلسطين أو في غيرها من مختلف البلدان ، لا يحرك هذا فيهم ساكناً عند سماعه فضلاً عن أن يهبوا زرافات ووحداناً .

خامساً : لم تكن نتيجة ذلك ذات أثر على الأفراد فحسب بل على كثير من الدول التي نبذت الفقه والفقهاء الإسلاميين واستبدلت القوانين الوضعية بالفقه الإسلامي وتركت تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أو غيرهم من الفقهاء واستمدت جل دستورها من القوانين الأوروبية الحديثة .

وبعد .

فما الموقف منهم الذي يجب إعلانه هنا ؟ لا أريد أن أستطرد في الحديث هنا بل ألخص الموقف بأسطر أحسب فيها الكفاية .

لا شك أن الواجب يقتضي أن نعيد النظر في رجال هذه المدرسة العقلية أنفسهم ونعيد تقييمهم وفق الميزان الإسلامي الحق ونعلن للناس كافة حقيقتهم ونجلوا لهم علانية زيف منهجهم ونبين مواقع ضلاله ومواقع انحرافه .

● نعيد تقييمهم تقييماً حقاً لا يراعي بحال من الأحوال ما هو سائد بين الناس عنهم .

● وحين نصل إلى نتيجة ذلك نعلن بها العلماء قبل العامة لينشروه بين الناس كافة .

وحينئذ نعيد ترتيب الأمور على الميزان الحق أحسب هذا الأمر يقال في لحظة ويكتب في لحظتين ولكن تنفيذه يريد عزمة إسلامية خالصة تطوي الزمن طياً فيحصل ما يحتاج إلى قرون عديدة في سنوات قليلة ويكون صلاح هذا الدين في هذا العصر كصلاحه في أوله

الخاتمة

ولا يسعني هنا إلا أن أختم حديثي هذا بتوجيه الدعوة إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . كيف لا وقد بينت في هذا البحث إنحراف منهج التفسير لدى المدرسة العقلية الحديثة فكان لا بد من بديل أكثر صواباً .

هل البديل بالرجوع إلى تفسير الطبري أو الشوكاني أو القرطبي أو غيرهم من المفسرين السابقين أو بالرجوع إلى تفسير الألوسي أو سيد قطب أو ابن سعدي أو غيرهم من المفسرين في هذا العصر .

لا أحسب أن هذا هو البديل فكل منها فيه تقصير أو نقص من بعض النواحي ويرجع هذا إلى كون واضعه « إنسان » « فرد » أما الإنسانية فلا مفر منها وأما الفردية فيمكن تلافيها حتى يخرج لنا تفسير لا أقول تنمحي أخطاؤه كلها ولكن إن لم أقل تندر قلت تقل ويخرج لنا تفسير يلائم متطلبات العصر ويتحدث بلغة عربية فصيحة بأسلوب العصر أيضاً ويقوم على قواعد السلف الصحيحة في التفسير .

أقترح أن تدعو جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى مؤتمر التفسير للقرآن الكريم وهي السابقة إلى مثل هذا وما مؤتمر الفقه الإسلامي منا ببعيد .

يدعى إلى هذا المؤتمر « خيرة » علماء المسلمين المعروفين

بالصلاح والإستقامة في السيرة والفكر من ذوي الإختصاص بالقرآن الكريم وعلومه .

ثم ينبثق عن هذا المؤتمر اللجنة الدائمة لمؤتمر التفسير يكون مقرها في الرياض حتى تكون قريبة من الجامعة ، وينبثق عن هذه اللجنة لجان عديدة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي حسب الحاجة ، ويسند إلى كل لجنة من اللجان القيام بتفسير سورة أو آيات معينة منها وإذا حدث خلاف في قضية من القضايا يرجع فيه إلى اللجنة الدائمة .

وإذا ما انتهت هذه اللجان من تفسير ما أسند إليها رفعته إلى اللجنة الدائمة لمراجعته وتقويم أخطائه إن وجدت وإن حصل خلاف بين أعضاء اللجنة الدائمة يدرج في أعمال مؤتمر التفسير القادم وتقوم اللجنة بصياغة ما اتفقت عليه من التفاسير صياغة نهائية ذات أسلوب واحد ثم يرفع للمؤتمر لإقراره .

ويعقد المؤتمر حسب الحاجة كل سنة أو سنتين يتدارس فيه أعضاؤه ما وضع في برنامجهم من حل خلاف في قضية أو مراجعة تفسير من التفاسير المقدمة له ثم إقرار ما يرون إقراره ليعود إلى اللجنة الدائمة للقيام بطبعه ومن ثم توزيعه في أنحاء العالم الإسلامي .

أعرف أنه قد كانت محاولة لمثل هذا في التفسير الوسيط ولكن مشروع التفسير الوسيط لم يكن له من الدعم المادي والمعنوي ما يثبت أقدامه ويرسخ قواعده ويهيء له من العلماء العدد الأكبر .

ولم يكن له من القدرة أيضاً ما يمكنه من عقد المؤتمرات لأعضائه كلهم لمناقشة ما توصلت إليه آحادهم ومن ثم الخروج عن رأي واحد ذي أسلوب واحد وصياغة واحدة .

ولعل جامعة الإمام تكون سباقة إلى هذا المشروع العظيم لأنه إنما يدرس القرآن الكريم ....

وحسبي الله ونعم الوكيل .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها

وخير أيامنا يوم لقاك »



دَليل الفهـــارس

أولاً : دليل الآيات القرآنية .
ثانياً : دليل الاحاديث .
ثالثاً : دليل الاعلام .
رابعاً : دليل المراجع
خامساً : دليل الوثائق المصورة
سادساً : دليل المحتويات .



فهرس شواهد القرآن الكريم[1]

---

(١) الرقم الكبير للآية والصغير للصفحات .

آل عمران

النساء

المائدة

فهـرس الحديث الشّريف

الهمزة : ـ

ب

ن

و

ي

فهرس الأعلام

غ

ف

ق

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ اتجاه التفسير في العصر الحديث ، مصطفى محمد الحديدي الطير العدد ٨٠ سلسلة البحوث الإسلامية ، ربيع الأول١٣٩٥ هـ .

٣ ـ الإتجاهات الحديثة في الإسلام : هـ أ رجب ، ترجمة هاشم الحسيني دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٦ م .

٤ ـ الإتجاهات السياسية والفكرية والإجتماعية في الأدب العربي المعاصر سالم قنيبر ، دار مكتبة الأندلس ـ بنغازي ـ ليبيا . الطبعة الأولى ـ بيروت ١٩٦٨ م .

٥ ـ الإتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم : محمد حسين الذهبي دار الإعتصام ـ الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .

٦ ـ الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز، الطبعة الثانية جـ ١ عام ١٣٨٢ هـ جـ ٢ عام ١٣٨٨هـ .

٧ ـ الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، الناشر مصطفى الحلبي بمصر ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

٨ ـ الإحكام في أصول الأحكام : أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٤٥ هـ .

٩ ـ إحياء علوم الدين : أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

١٠ ـ أخبار عمر وأخبار بن عمر : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الثانية ، بيروت **١٣٨٩** هـ ـ **١٩٧٠** م .

١١ ـ الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية : محمد فريد وجدي ، الطبعة الأولى ربيع الأول سنة **١٣٥٥** هـ .

١٢ ـ الأزهر في ألف عام : محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولى بالقاهرة المطبعة المنيرية بالأزهر **١٣٧٤** هـ .

١٣ ـ أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي : علي محمد جريشة ومحمد الزيبق دار الإعتصام الطبعة الثانية **١٣٩٨** هـ .

١٤ ـ الإسرائيليات : رمزي نعناعة ، دار القلم ، دمشق ودار الضياء ببيروت الطبعة الأولى **١٣٩٠** هـ .

١٥ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة : ملا على القري ، تحقيق محمد الصباغ ، **١٣٩١** هـ دار الأمانة ومؤسسة الرسالة .

١٦ ـ الإسلام دين الفطرة والحرية ؛ عبد العزيز جاويش ، دار المعارف بمصر **١٩٦٨** م .

١٧ ـ الإسلام دين الهداية والإصلاح : محمد فريد وجدي ، مكتبة الكليات الأزهرية **١٣٨٩** هـ .

١٨ ـ الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ، دار الشروق القاهرة ، بيروت .

١٩ ـ الإسلام في النظرية والتطبيق : المهدية مريم جميلة ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ترجمة س . حمد ، الطبعة الأولى **١٣٩٨** هـ .

٢٠ ـ الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرازق ، نقد وتعليق ممدوح حقي ، دار مكتبة الحياة بيروت **١٩٧٨** م .

٢١ ـ الإسلام والتجديد في مصر : تشارلز آدمز ، ترجمة عباس . محمود ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ـ **١٣٥٣** هـ ـ **١٩٣٥** م .

٢٢ ـ الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ، الطبعة الأولى

١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م ، دار الإرشاد ـ بيروت وأيضاً الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٢٣ ـ الإسلام والطب الحديث : عبد العزيز إسماعيل ، الطبعة الثانية ١٩٥٩ م الشركة العربية للطباعة والنشر ـ بالقاهرة .

٢٤ ـ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : محمد عبده ، الطبعة السابعة ، دار المنار ١٣٦٧ هـ .

٢٥ ـ الإشاعة لأشراط الساعة : الشريف محمد بن رسول الحسيني ، الطبعة الأخيرة ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة .

٢٦ ـ أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو رية دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة ١٩٧٦ م .

٢٧ ـ الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها : السيد صالح أبو بكر ، شركة مطابع محرم الصناعية ، ١٩٧٤ م .

٢٨ ـ أطواق الذهب في المواعظ والخطب : جار الله الزمخشري ، مطبعة جمعية الفنون ـ بيروت ١٢٩٣ هـ .

٢٩ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، الطبعة الثامنة ١٣٨٩ هـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٣٠ ـ الأعلام : خير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية من سنة ١٣٧٣ هـ ـ ١٣٧٨ هـ .

٣١ ـ إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين : شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي مكتبة القدسي والبدير ـ دمشق ١٣٤٨ هـ .

٣٢ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين : ابن قيم الجوزية ، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد مكتبة الكليات الأزهرية محرم ١٣٨٨ وأيضاً طبعة دار الكتب الحديثة تحقيق عبد الرحمن الوكيل .

٣٣ ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عماره ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٨ م .

٣٤ ـ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : جمع وتحقيق محمد

عماره ، المؤسسة المصرية العامة ، دار الكاتب العربي ـ القاهرة .
٣٥ ـ أفكار ضد الرصاص : محمود عوض، ٣٥٨ سلسلة إقرأ دار المعارف بمصر أكتوبر ١٩٧٢ م .
٣٦ ـ الإكليل في استنباط التنزيل : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، دهلي المطبع الفاروقي ١٢٩٦هـ بهامش جامع البيان في تفسير القرآن للأيجي الصفوي .
٣٧ ٧إكمال أكمال المعلم (شرح صحيح مسلم) : لأبي عبد الله محمد ابن خلفه الوشتاني الأبيّ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ ، مطبعة السعادة ، مصر .
٣٨ ـ إلى القرآن الكريم : محمود شلتوت دار الشروق .
٣٩ ـ أمالي المرتضى غرر الفوائد : للشريف المرتضى ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ دار الكتاب العربي .
٤٠ ـ الإمام محمد عبده : عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٩٧١ م .
٤١ ـ الإمام المراغي : أنور الجندي ١١٥ من سلسلة إقرأ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
٤٢ ـ الإنتصار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين عبد الرحيم الخياط ـ القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥
٤٣ ـ إنهاء السكن إلى من يطالع إعلاء السنن : ظفر أحمد التهانوي ، مطبعة سيراي فرير رود كراجي سنة ١٣٨٧ هـ .
٤٤ ـ بحث في ترجمة القرآن : محمد مصطفى المراغي ، مطبعة الرغائب ربيع الثاني ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م .
٤٥ ـ البحر المحيط : أبي حيان الأندلسي الغرناطي دار الفكر ـ بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ .
٤٦ ـ البداية والنهاية : أبو الفداء الحافظ ابن كثير ، مكتبة المعارف ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .

٤٧ ـ البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م ، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه .

٤٨ ـ بلايا بوزا العصرية : لم يذكر اسم المؤلف ولا الناشر ولا تاريخ الطبع ونسبه الدكتور محمد محمد حسين إلى الأستاذ محمد الجنبيهي في كتابه الإسلام والحضارة الغربية .

٤٩ ـ تاريخ الأدب العربي : كارك بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، الطبعة الثالثة ١٩٧٤ م ، دار المعارف بمصر .

٥٠ ـ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : محمد رشيد رضا ، الطبعة الأولى ، مطبعة المنار بمصر ، ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م .

٥١ ـ التاريخ الإسلامي خلال ١٤ قرنا : إبراهيم الشريقي ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ شركة المدينة للطباعة والنشر ، جده .

٥٢ ـ تاريخ بغداد : أبي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٥٣ ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي إدارة الطباعة المنيرية ـ الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ .

٥٤ ـ التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر : ألفريد سكاون بلنت ، تمهيد بقلم عبد القادر حمزة ، مطبعة البلاغ الأسبوعي .

٥٥ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه فارس ، ومنير البعلبكي دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ١٩٧٧ م .

٥٦ ـ تاريخ الفرق الإسلامية : علي مصطفى الغرابي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح بمصر ، الطبعة الثانية . ١٣٧٨ هـ .

٥٧ ـ تأويل مختلف الحديث : صححه محمد زهري النجار ، دار الجيل بيروت ١٣٩٣ هـ . تأليف : أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

٥٨ ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري : لأبي عساكر الدمشقي .

٥٩ ـ تذكرة الحفاظ : أبو عبد الله شمس الدين الذهبي مطبعة مجلس إدارة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ١٣٧٥ هـ الطبعة الثالثة .

٦٠ ـ تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي : أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٠م .

٦١ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح : محمد أنور شاه الكشميري ، تحقيق شيخنا عبد الفتاح أبو غده ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ١٣٨٥ هـ .

٦٢ ـ تعدد الزوجات : عبد الناصر توفيق العطار ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت دار الشروق جده ١٣٩٦ هـ .

٦٣ ـ تفسير ابن كثير القرشي : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير تعليق وتقديم عبد الوهاب عبد اللطيف ، تصحيح وإشراف محمد الصديق الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م ، مكتبة النهضة الحديثة ، بمصر .

٦٤ ـ تفسير أسرار القرآن : عبد العزيز جاويش مطبعة الهداية بالأستانة سنة ١٣٣١ هـ .

٦٥ ـ التفسير البياني للقرآن الكريم : عائشة عبد الرحمن ، ٢٥ مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .

٦٦ ـ تفسير جزء تبارك : عبد القادر المغربي ، كتاب الشعب مصور عن طبعة المطبعة الأميرية عام ١٣٦٦ هـ .

٦٧ ـ تفسير جزء عم : محمد عبده ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، الأزهر ١٣٨٧ هـ .

٦٨ ـ تفسير سورة العصر : محمد عبده ، مطبعة ا لمنار بمصر سنة ١٣٤٥ هـ .

٦٩ ـ تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق وتعليق محمود محمد شاكر راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر سلسلة (تراث الإسلام) دار المعارف بمصر .

٧٠ ـ تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن الكريم : السيد محمد رشيد رضا الطبعة الثانية ، دار المنار بمصر ١٣٦٧ هـ .

٧١ ـ تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى : محمود شلتوت ، دار الشروق ، الطبعة السادسة ١٣٩٤ هـ .

٧٢ ـ التفسير القيم للإمام ابن القيم : جمع محمد أويس الندوي ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ .

٧٣ ـ التفسير الكبير : الفخر الرازي ، الطبعة الأولى الناشر عبد الرحمن محمد القاهرة .

٧٤ ـ تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

٧٥ ـ تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا الطبعة الرابعة ، دار المنار بمصر ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٧٦ ـ التفسير ورجاله : محمد الفاضل بن عاشور ، دار الكتب الشرقية ـ تونس الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .

٧٧ ـ التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ .

٧٨ ـ تقرير التهذيب : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق وتعليق عبد الوهاب عبد اللطيف ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ وأيضاً طبعة المجتبائي الدهلوي ١٣٢٠ هـ دهلي .

٧٩ ـ تقييد العلم : للخطيب البغدادي ، الطبعة الثانية ، تحقيق يوسف العش بيروت ـ دار إحياء السنة النبوية ١٣٩٥ هـ .

٨٠ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن : عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد الهمداني الشركة الشرقية للتوزيع دار النهضة الحديثة بيروت .

٨١ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر : عبد القادر بن أحمد بن بدران ، المكتبة العربية بدمشق ، الطبعة الأولى .

٨٢ ـ تهذيب التهذيب : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الفكر بيروت مصوره عن الطبعة الأولى ، بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند سنة ١٣٢٥ هـ .

٨٣ ـ ثورة الإسلام : أحمد زكي أبو شادي ، مكتبة الحياة ، بيروت .
٨٤ ـ جامع الأصول : أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري ، تصحيح محمد حامد الفقي ، الطبعة الأولى ـ١٣٦٨ هـ ـ١٩٤٩م مطبعة السنة المحمدية القاهرة ، وأيضاً طبعة أخرى تحقيق عبد القادر الأرناؤوط الناشر مكتبة الحلواني ومطبعة الملّاح ودار البيان ١٣٨٩ هـ .
٨٥ ـ جامع بيان العلم وفضله : أبي عمر يوسف ابن عبد البر القرطبي ، تقديم عبد الكريم الخطيب ، مراجعة عبد الرحمن حسن محمود ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة وأيضاً الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان .
٨٦ ـ جمال الدين الأسد آبادي : ميرزا لطف الله خان ترجمة وتعليق صادق نشأت وعبد النعيم حسنين مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .
٨٧ ـ جمال الدين الأفغاني : عبد الرحمن الرافعي ، ٦١ سلسلة أعلام العرب دار الكاتب العربي .
٨٨ ـ جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث : عبد القادر المغربي ، سلسلة إقرأ العدد (٦٨) الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر .
٨٩ ـ جمال الدين الأفغاني ، محمود أبو ريه ، دار المعارف الطبعة الثانية ، ٢٩ من سلسلة نوابغ الفكر العربي .
٩٠ ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم : طنطاوي جوهري ، انتشارات آفتاب تهران .
٩١ ـ حاضر العالم الإسلامي : لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض زيادات وتعليقات شكيب أرسلان ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٣ م . دار الفكر بيروت .
٩٢ ـ الحاوي للفتاوي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة ١٣٧٨ هـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٩٣ ـ الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : محمد عطية خميس ، دار الأنصار ، القاهرة .

٩٤ ـ حكم هيئة كبار العلماء في كتاب الإسلام وأصول الحكم ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الثانية ، ١٣٤٤ هـ .

٩٥ ـ حياة محمد : محمد حسين هيكل ، الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٤ م ، دار المعارف بمصر .

٩٦ ـ الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ القاهرة ، الطبعة الثانية تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة مصطفى الحلبي . ١٩٤٥ م .

٩٧ ـ خاطرات جمال الدين الأفغاني ا لحسيني : محمد المخزومي ، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ ، دار الفكر الحديث ، لبنان .

٩٨ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : سيد قطب ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ م دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

٩٩ ـ الخطر اليهودي : بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة وتحليل محمد خليفة التونسي الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٠٠ ـ الخطط المقريزية المسماة بـ (المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقريزي . الناشر المليجي الكتبي بمصر مطبعة النيل بمصر ١٣٢٦ هـ .

١٠١ ـ الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون ، أنور الجندي ، دار الإعتصام ٢ ـ سلسلة في دائرة الضوء .

١٠٢ ـ دائرة معارف القرن العشرون : محمد فريد وجدي المكتبة العلمية الحديثة ـ بيروت .

١٠٣ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الناشر محمد أمين دمج ، بيروت مؤسسة الرسالة .

١٠٤ ـ الدروس الدينية لعام ١٣٥٦ هـ : محمد مصطفى المراغي ، مطبعة الأزهر .

١٠٥ ـ الدروس الدينية لعام ١٣٥٧ هـ : محمد مصطفى المراغي ، مطبعة الأزهر ١٩٣٩ م .

١٠٦ ـ دين الله واحد على ألسنة جميع الرسل : محمود أبو ريه ، عالم الكتب ، القاهرة الطبعة الثانية .

١٠٧ ـ ذيل الملل والنحل : محمد سيد كيلاني ضمن كتاب الملل والنحل لمحمد الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الناشر مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨٧ هـ .

١٠٨ ـ الرائية الصغرى : ضمن كتاب العقود اللؤلؤية في المدائح المحمدية وكلاهما ليوسف بن إسماعيل النبهاني، ١٣٢٩ هـ .

١٠٩ ـ رحلات رشيد رضا : جمع وتحقيق يوسف إيبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت الطبعة الأولى حزيران ١٩٧١ م .

١١٠ ـ الرسالة ، محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر .

١١١ ـ رسالة التوحيد : محمد عبده تصحيح محمد رشيد رضا،الطبعة الحادية عشرة سنة ١٣٦٥ هـ دار المنار بمصر ، أيضاً الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣١٥ هـ .

١١٢ ـ رسالة الرد على الدهريين :جمال الدين الأفغاني ،تحقيق محمود أبو ريه ، دار الكرنك القاهرة ١ مكتبة العقائد .

١١٣ ـ رشيد رضا : إبراهيم أحمد العدوى ، ٣٣ من سلسلة أعلام العرب المؤسسة المصرية العامة .

١١٤ ـ رشيد رضا صاحب المنار : أحمد الشرباصي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الكتاب ٥٨ سنة ١٣٨٩ ـ ١٩٧٠ م .

١١٥ ـ رشيد رضا المفسِّر : حسيب السامرائي مطبعة جامعة بغداد سنة ١٣٩٧ هـ .

١١٦ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ .

١١٧ ـ الروحية الحديثة دعوة هدامة : محمد محمد حسين ، دار الإرشاد ، بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م بيروت .

١١٨ ـ روضة الناظر وجنة المناظر : موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامه المقدسي ١٣٨٩ هـ ، مطابع الجزيرة ـ الرياض .

١١٩ ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ م الطبعة الرابعة ،

١٢٠ ـ السر المصون في شيعة الفرماسون : للأب لويس شيخو ، دار البصرى ببغداد ١٣٨٦ هـ .

١٢١ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ مطابع دار الفكر بدمشق وأيضاً الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ المكتب الإسلامي بيروت ودمشق .

١٢٢ ـ سنن أبي داود : أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، مراجعة وضبط وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية .

١٢٣ ـ سنن الدارمي : دار الفكر ، القاهرة ١٣٩٨ ، وأيضاً طبعة دار إحياء السنة النبوية .

١٢٤ ـ سنن المصطفى : أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ، دار الفكر بيروت بحاشية أبي الحسن السندي ، الطبعة الثانية .

١٢٥ . السنة قبل التدوين ، محمد عجاج الخطيب ، دار الفكر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ .

١٢٦ ـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ .

١٢٧ ـ السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة : شكيب أرسلان ، دمشق ، مطبعة ابن زيدون ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م .

١٢٨ ـ شبهات النصارى وحجج الإسلام : محمد رشيد رضا ، الطبعة الثانية دار المنار ، القاهرة ١٣٦٧ هـ .

١٢٩ ـ شبهات وردود حول العقيدة الربانية . وأصل الإنسان عبد الله علوان دار السلام بيروت ، حلب ٧ سلسلة بحوث إسلامية هامة ، الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ .

١٣٠ ـ شرح العقيدة الطحاوية : صدر الدين علي بن علي بن محمد بن ابي العزّ الحنفي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض وأيضاً طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ بتحقيق جماعة من العلماء ، وخرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني .

١٣١ ـ شرح الكوكب المنير : محمد بن شهاب الدين أحمد الفتوحي : تحقيق محمد حامد الفقي ، طبع لأول مرة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م مطبعة السنة المحمدية القاهرة .

١٣٢ ـ الشفاء بتعريف حقوق المصطفى (ﷺ) : أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي الطبعة الأخيرة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

١٣٣ ـ الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : تحقيق وتقديم سليمان دنيا دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ م ـ ١٣٧٧ هـ .

١٣٤ ـ الشيخ المراغي بأقلام الكتاب : جمع أبو الوفا المراغي ، المطبعة المنيرية بالأزهر الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م .

١٣٥ ـ الصحافة المصرية وموقفها من الإحتلال الإنجليزي : سامي عزيز ، دار الكتاب العربي ، بالقاهرة ١٣٨٨ هـ .

١٣٦ ـ صحيح البخاري : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، الأزهر مصر .

١٣٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووي . دار الفكر ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ .

١٣٨ ـ ضحى الإسلام : أحمد أمين ، الطبعة العاشرة دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٣٩ ـ الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد ، مطبعة بريل ١٣٣٢ ليدن وأيضاً دار بيروت دار صادر ، بيروت ١٣٧٧ هـ .

١٤٠ ـ عبد العزيز جاويش : أنور الجندي ، ٤٤ من سلسلة أعلام العرب ، المؤسسة المصرية العامة .
١٤١ ـ العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية : عبد الرزاق المناوي ، تصحيح وتعليق إسماعيل الأنصاري ، الطبعة الأولى من مطبوعات دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية ، مؤسسة النور الرياض .
١٤٢ ـ العروة الوثقى : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م .
١٤٣ ـ العقود اللؤلؤية في المدائح المحمدية : يوسف النبهاني ١٣٢٩ هـ .
١٤٤ ـ على أطلال المذهب المادي : محمد فريد وجدي ، الطبعة الثانية مطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر سنة ١٩٣١ م .
١٤٥ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري : محمود أحمد العيني ، دار الفكر بيروت .
١٤٦ ـ فاتحة الكتاب : محمد عبده ، الطبعة الثانية ، ١ كتاب التحرير ، القاهرة ١٣٨٢ هـ .
١٤٧ ـ الفتاوي : محمود شلتوت ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت الطبعة التاسعة ١٣٩٨ هـ .
١٤٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني تصحيح عبد العزيز بن باز ، ترقيم محمد عبد الباقي ، إخراج محب الدين الخطيب ، دار الفكر .
١٤٩ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، بمصر الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م .
١٥٠ ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين : عبد الله مصطفى المراغي ، الناشر محمد أمين دمج ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ .
١٥١ ـ الفتن والملاحم : عماد الدين بن كثير ، تصحيح وتعليق

إسماعيل الأنصاري الطبعة الأولى ، مؤسسة النور ، بالرياض ١٣٨٨ هـ .

١٥٢ - فجر الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة العاشرة ١٩٦٩ م .

١٥٣ - الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادي الطبعة الثانية ١٩٧٧ م دار الآفاق الجديدة بيروت .

١٥٤ - الفصل في الملل والأهواء والنحل : أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ - دار المعرفة ، بيروت .

١٥٥ - فضائل القرآن الكريم : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير دار الأندلس بيروت .

١٥٦ - الفكر الإسلامي بين الأمس واليوم : محجوب بن ميلاد ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس .

١٥٧ - الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ .

١٥٨ - الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت محمد الشرقاوي ، مكتبة الشباب بمصر .

١٥٩ - الفلسفة القرآنية : عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

١٦٠ - الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

١٦١ - في سبل السنة الإسلامية : محجوب بن ميلاد ، دار بو سلامة ، ١٩٦٢ م تونس .

١٦٢ - فيض القدير شرح الجامع الصغير : عبد الرؤوف المناوي ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م ، المكتبة التجارية الكبرى ، بمصر .

١٦٣ ـ في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار إحياء الكتب العربية .
١٦٤ ـ قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيـدوا اهله : جلال العالم ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ هـ .
١٦٥ ـ القاموس المحيط : مجد الدين محمد يعقوب الفيـروز آبادي ، مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة .
١٦٦ ـ القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله ١٩٦٧ م ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
١٦٧ ـ قواعد المنهج السلفي : مصطفى حلمي ، دار الأنصار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .
١٦٨ ـ القول المفيد في أدلة الإجتهاد والتقليد : محمد بن علي الشوكاني محرم سنة ١٣٤٧ هـ ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ بمصر وأيضاً الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ دار القلم ـ الكويت تحقيق عبد الرحمن عبد الخالق .
١٦٩ ـ كبرى اليقينيات الكونية : محمد سعيد رمضان البوطي : الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ دار الفكر .
١٧٠ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيـون الأقاويـل في وجوه التأويل : جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٦٦ هـ وأيضاً طبعة انتشارات آفتاب بدون تاريخ .
١٧١ ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية : عبد العزيز المحمد السلمان ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
١٧٢ ـ الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني ضمن تفسير الكشاف ، طبعة انتشارات آفتاب .
١٧٣ ـ لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا : عبد المتعال الجبري ، دار الإعتصام الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ .
١٧٤ ـ لمحات في علوم القرآن محمد الصباغ : المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٤ هـ .

١٧٥ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية : محمد بن أحمد السفاريني طبع على نفقة علي آل ثاني حاكم قطر .

١٧٦ ـ الماسونية : أحمد عبد الغفور عطار: المكتبة العصرية صيدا ، بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ .

١٧٧ ـ الماسونية بلا قناع : أبو صادق ، دار البصري ١٩٦٧ م ، بغداد .

١٧٨ . مجالي الإسلام : حيدر بامات ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٦ م .

١٧٩ ـ المجددون في الإسلام : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢م .

١٨٠ ـ مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد ، مطابع الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٣٨١ هـ .

١٨١ ـ محاضرات عن عبد القادر المغربي : محمد أسعد طلس ، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨م .

١٨٢ ـ محمد عبده : محمد صبيح : سلسلة كتاب الشهر مطبعة عيسى البابي ، القاهرة .

١٨٣ ـ محمد فريد وجدي : أنور الجندي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م .

١٨٤ ـ مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م .

١٨٥ ـ مختصر صحيح مسلم : للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ ، المكتب الإسلامي دمشق ، بيروت .

١٨٦ ـ المدرسة العقلية الحديثة في ضوء العقيدة : ناصر عبد الكريم العقل ، إشراف الدكتور عبد الرحمن عميرة ، رسالة مقدمة لجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية للحصول على الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة للعام الجامعي ١٣٩٩ هـ ، مسحوبة بالأستنسل .

١٨٧ ـ المدنية والإسلام : محمد فريد وجدي ، ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٣ م ، المكتبة التجارية الكبرى ، بمصر .

١٨٨ ـ مذاهب التفسير الإسلامي : جولد تسهير ، ترجمة عبد الحليم النجار القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٥ م .

١٨٩ ـ مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة وتقديم محمد حرب عبد الحميد دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .

١٩٠ ـ مذكرات في السياسة المصرية : محمد حسين هيكل مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ م .

١٩١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل : المكتب الإسلامي ، دار صادر بيروت ، مصورة عن طبعة المطبعة الميمنية جمادي الثاني ١٣١٣ هـ وأيضاً مسند أحمد تحقيق أحمد شاكر طبعة دار المعارف بمصر ١٣٧٠ هـ .

١٩٢ ـ المصباح المنير : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، تصحيح مصطفى السقا مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٦٩ هـ .

١٩٣ ـ المصحف المفسر : محمد فريد وجدي ، كتاب الشعب .

١٩٤ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع : علي القاري الهروي ، تحقيق شيخنا عبد الفتاح أبو غده ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ وأيضاً الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١٩٥ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد : حافظ بن أحمد الحكمي ، المطبعة السلفية ، ومكتبتها .

١٩٦ ـ معالم الشريعة الإسلامية : صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٥ م .

١٩٧ ـ معالم في الطريق : سيد قطب ، الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ .
١٩٨ ـ معجزة القرآن : محمد متولي الشعراوي ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ ، المختار الإسلامي القاهرة .
١٩٩ ـ المعجزة الكبرى القرآن : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .
٢٠٠ ـ مع المفسرين والكتاب : أحمد محمد جمال ، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ ، دار الفكر ـ بيروت .
٢٠١ ـ المغني : أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه : تصحيح محمد سالم محيسن والشيخ شعبان إسماعيل ، مكتبة الجمهورية بمصر ، ومكتبة الرياض الحديثة بالرياض .
٢٠٢ ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار : زين الدين أبي عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، ضمن إحياء علوم الدين للغزالي ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .
٢٠٣ ـ المغني في الضعفاء : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي تحقيق نور الدين عتر .
٢٠٤ ـ المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصفهاني المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .
٢٠٥ ـ مفكرون وأدباء : أنور ا لجندي ، دار الإرشاد بيروت الطبعة الأولى .
٢٠٦ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة : محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ تصحيح وتعليق عبد الله محمد الصديق تقديم عبد الوهاب عبد اللطيف .
٢٠٧ ـ مقالات الإسلاميين : أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ١٣٨٩

هـ ، مكتبة النهضة المصرية وأيضاً مطبعة إستانبول دولت مطبعة سي ١٩٢٨ م .
٢٠٨ ـ مقالات الكوثري : محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار بالقاهرة .
٢٠٩ ـ مقدمة ابن خلدون : الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي بيروت .
٢١٠ ـ مقدمة المصحف المفسر : محمد فريد وجدي ، تحقيق إبراهيم علي سالم كتاب الشعب .
٢١١ ـ الملل والنحل : أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨٧ هـ .
٢١٢ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف : ابن قيم الجوزية ، تحقيق شيخنا عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ، الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ .
٢١٣ ـ المنار والأزهر : محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار القاهرة ١٣٥٢ هـ .
٢١٤ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
٢١٥ ـ منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم : عبد الله محمود شحاته المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية (٤٤) نشر الرسائل الجامعية ، (٢) القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م .
٢١٦ ـ منهج التربية الإسلامية : محمد قطب ، الطبعة الثانية ، دار دمشق .
٢١٧ ـ الموافقات في أصول الشريعة : لأبي اسحاق الشاطبي، دار المعرفة بيروت ، بشرح عبد الله دراز وضبط وترقيم محمد عبد الله دراز .

٢١٨ ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري ، المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ ١٣٦٩ ـ هـ ١٩٥٠ م .

٢١٩ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال : أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي تحقيق علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣م .

٢٢٠ ـ نابغة الشرق السيد جمال الدين الأفغاني : سعيد الأفغاني ، دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٦ هـ .

٢٢١ ـ نحو منهج لتفسير القرآن : محمد الصادق عرجون ، الدار السعودية للنشر جده ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ .

٢٢٢ ـ نداء للجنس اللطيف : محمد رشيد رضا ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٧ هـ دار المنار القاهرة .

٢٢٣ ـ النظرات : مصطفى لطفي المنفلوطي .

٢٢٤ ـ نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام : محمد زاهد الكوثري ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م .

٢٢٥ ـ نظرية التطور بين العلم والدين : علي أحمد الشحات ، مؤسسة الخانجي القاهرة .

٢٢٦ ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر : أبي عبد الله محمد الكتّاني ، المطبعة المولوية ، بفاس العليا سنة ١٣٢٨ هـ .

٢٢٧ ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول : أبي عبد الله محمد الحكيم الترمذي دار صادر ، بيروت .

٢٢٨ ـ النهر الماد من البحر : أبي حيان الأندلسي الغرناطي ، على هامش البحر المحيط دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ .

٢٢٩ ـ الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية : محمد رشيد رضا ، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ هـ ، دار المنار ، القاهرة .

٢٣٠ ـ الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم : محمد محمود حجازي ، ١٣٩٠ هـ دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

٢٣١ ـ الوحي المحمدي : محمد رشيد رضا ، الطبعة الثالثة ١٣٥٤ هـ مطبعة المنار بمصر .

٢٣٢ . وفيات الأعيان : ابن خلكان ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية .

٢٣٣ ـ الوهابيون والحجاز : محمد رشيد رضا ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٤ هـ مطبعة المنار بمصر .

٢٣٤ ـ هذا هو الإسلام : فاروق الدملوجي ، دار الكتاب الجديد ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ م

٢٣٥ ـ هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة : محمد سلطان المعصومي الخجندي المكي ، الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م .

٢٣٦ ـ اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار : أنور الجندي ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ دار الإعتصام ، ا لقاهرة .

٢٣٧ ـ باللغة الإنجليـزية : Modern Egypt, by the Earl of Cromer, u ol II pub Macmillan and Co. - Limited, London 1908

باللغة الفارسية

٢٣٨ ـ مجموعة اسنا دومدارك جاب نشده : درباره ، سيّد جمال الدين ، مشهوربه أفغاني ، جمع آورى وتنظيم : أصغر مهدوي ـ ايرج افشار ١٣٤٢ هـ جا يخانه د انشكاه تهران ، وقد نقلنا عنه الوثائق التي في الرسالة كلها .

المجلات :

١ - التمدن الإسلامي دمشق .

٢ - العربي الكويتية .

٣ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

٤ - مجلة المنار ، القاهرة .

٥ - مجلة الهلال ، القاهرة .

٦ - أضواء الشريعة ، كلية الشريعة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .

٧ - مجلة الأزهر ، القاهرة .

٨ - مجلة الرسالة ، القاهرة .

٩ - جريدة الأهرام المصرية .

١٠ - مجلة الوعي الإسلامي ، الكويت .

١١ - مجلة المقتطف ، مصر .

١٢ - مجلة صباح الخير ، مصر .

١٣ - مجلة رسالة الطالب المسلم ؛ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .

١٤ - مجلة المجتمع الكويتية .

١٥ - مجلة الجمهور اللبنانية .

١٦ - مجلة الفكر الإسلامي ، بيروت

فهرس الوثائق المصوّرة

فهـــرس الموضوعات

ثانياً : محمد عبده :

ثالثاً : السيد محمد رشيد رضا :

الباب الثاني :

منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير

الباب الثالث :

آراء المدرسة العقلية الحديثة في بعض علوم القرآن

الباب الرابع :

موقف المدرسة العقلية الحديثة من قضايا قرآنية

الباب الخامس :

تأويل المدرسة العقلية الحديثة لآيات من القرآن الكريم

الباب السادس :

أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي

الحديث وموقف علماء المسلمين والمستشرقين ، منها .